

الرسالة الأولى : مخططات التبشير والاستشراق

مداخل

ظهرت في السنوات الأخيرة وثائق كثيرة كانت عافية على المسلمين والعرب لها أثرها الكبير في مصائرهم ومقدراتهم وإليها يمكن تفسير أسباب هزيمتهم وتكبتهم ومنها يرجد للمنطلق إلى الأصالة الحققة بعد هزيمة لويس التاسع في المنصورة وجنوحه إلى التأمل في نتيجة خطته التي جرت عليه الهزيمة والاعتقال فقد كتب مذكرة خطيرة أشارت إليها مراجع عديدة من كتب التاريخ الفرنسي وذكرها مؤرخه جوانفيل يحدد بها الموقف من العالم الإسلامي بعد هذه السنوات الطويلة من الحروب الصليبية والمعروف أن لويس كان يقود الحملة الثامنة . لقد أشار لويس التاسع في وثيقته إلى أنه لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة ، ذلك لأن في دينهم عامل حاسم : هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفس والدم رخيصة في سبيل حماية العرض والأرض وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين فمن المستحيل السيطرة عليهم لأنهم قادرون دوماً إنطلاقاً من عقيدتهم إلى المقاومة ودحر الغزو الذي يقتحم بلادهم ، وأنه لا بد من إيجاد سبيل آخر من شأنه أن يريف هذا المفهوم عند المسلمين حتى يصبح مفهوماً أدبياً أو وجدانياً وإيجاد ما يبرره على نحو من الأنحاء بحيث تسقط خطورته وانقضاه وأن ذلك لا يتم إلا بتركيز واسع على السكر الإسلامي وتحويله عن منطلقاته وأهدافه حتى يستسلم المسلمون أمام لقاء القوى الغربية وترويض أنفسهم على تقبلها على نحو من الأنحاء الاحتواء أو الصداقة أو التعاون وحتى نحصل على نص وثيقة لويس التاسع التي لم تتمكن من الحصول إلا على مقتطفات منها فيما أورده الأستاذ محمد علي الفتيت في كتابه من الحروب الصليبية إلى حرب السويس فإن الضرورة تقضي بدراسة هذا الهدف الذي كان له أثره في ذلك المنحنى الخطير الذي تحولت إليه علاقات الغرب مع عالم الإسلام ، هذا الهدف الذي جندت له قوى التبشير والاستشراق والتغريب والغزو الثقافي في خطة محكمة مدبرة ما زالت مفروضة على العالم الإسلامي منذ عام ١٩٥٥ هجرية الموافق ١٩٣٦ م ، هذه الخطة التي سيطرت عليها من بعد قوى الصهيونية العالمية بما ستفسره فيما بعد الهدف هو : إيقاف توسع الإسلام ومحاصرته من ناحية واحتوائه فكرياً حتى يصبح عجيبة طيعة في يد : القصر العالمي الأعمى تمهيداً للوثوب عليه ومن الوسائل إنشاء مؤسسة لحرب السمكة واستخدام من يمكن إغرائهم من أقبليات الشرق وإنشاء قاعدة الغرب في قلب الشرق الإسلامي يتخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزاً لهوته السياسية والدينية وقد عين لويس التاسع مكان تلك القاعدة في الأراضي الممتدة على ساحل البحر المتوسط من لبنان إلى فلسطين والأردن وسوريا ولا ريب أن أولى علامات وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة إنما نوحى بنهاية خطة وبداية خطة أخرى أشد عنفاً ولن كانت أطول معركة . بما يشهد أن الحروب الصليبية وهزيمتها كانت تتمثل في إنطلاق المخطط الجديد :

الغزو الثقافي والفكري الذي يستهدف دحر الإسلام كدين بعد الهز عن دحر أمته أو في العمل على دحر هذه الأمة بعد دحر فكرها ، لقد تبين للغرب من خلال مراجعة لويس التاسع لتجربة الحروب الصليبية : ان المعركة مع المسلمين يجب أن تبدأ أولاً من تزييف عقيدتهم الراسخة التي تحمل طابع الجهاد والمقاومة والتي تدفع بألوفهم إلى ساحات الاستشهاد في سبيل الدفاع عن الحق وعن الأرض وعن المرض ، إذن فهذه هي بداية المعركة ولا بد إذن من تزييف هذه العقيدة وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وإيمان وذلك بالترقية بين العقيدة والشريعة أو تصوير الإسلام بصورة دين عبادي كالمسيحية وفصل الدين عن الدولة ، حتى يفقد المسلمون ذلك السر الخطير المكنى في أصالة عقيدتهم وجوهر دينهم وهندسة يصيحون قطعاً من السائمة التي تنطوي وتقر ومن هنا بدأت معركة أطاق هاها :

التفسير ، الاستشراق ، التغريب ، الغزو الثقافي ، الاحتواء .

وقد وجدت هذه المعركة أفلاماً إسلامية بالورثة تستخدمها وتقول ما يريد لويس التاسع على نحو ما قال طه حسين وعلى عهد الرازي من دعاوى الفصل بين الإسلام والمجتمع وبين العقيدة الدينية والأدب والسخرية بما أورده القرآن ودعوة الشباب إلى نقده والنظر إلى الصحابة على أنهم من عترة السياسة ، كما جاء في الفتنة الكبرى على النحو الذي عاش على خدمته صاحب كتاب الشعر الجاهلي وحديث الأربعماء وإذا راجعنا قوائم التاريخ العرب قاتنا نجد أن وصية لويس التاسع قد وضعت موضع التنفيذ بعد سنوات قليلة من هزيمته وقلته في الحملة الصليبية التاسعة على تونس فقد بدأت حركة أوربا المعروفة إلى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام وبدأت نواة التفسير والاستشراق في المعاهدة الأوربية؛ دراسة اللغة العربية والإسلام والقرآن من منطلق الرد عليه وانتقاصه وإثارة الشبهات حوله وقد ظهرت هذه الحركة عملية خطيرة هي سرقة التراث العرب الإسلامي من البلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهي سرقة بمعنى الكلمة ولأن محاولة الاستيلاء على مراكز الفكر الإسلامي في جامعات الأندلس وطرد المسلمين منها كانت أيضاً سرقة كبرى ، بالرغم من أن المسلمين كانوا يؤمنون بأن العلم للهبة كآباء ، حق العلم النجيب الذي هو الآن من أسرار الأمم الحديثة ، والذي هجر المسلمون والعرب خلال قرن ونصف قرن إلى الآن عن الحصول على أصوله ومعادلاته ، أما المسلمون فكانوا يعملونه في جامعات الأندلس وجزيرة صقلية في حرية تامة ولكل الناس ، أما الغرب فانه في تنامي حقه لم يقف عند حد مصادرة العلم الإسلامي ومعاملة مكتبته وثائقه بحسب بل إنه أخرج منه المسلمين الذين هم من أهل الأندلس بعد ثمانمائة عام اخراجاً حتى يكونوا عاجزين عن مواصلة جهادهم في أي أرض أخرى إذا هاجروا إليها وإذا كانت الحروب الصليبية قد توقفت عام ١٢٩٠ هـ ١٢٩١ فإن أوربا لم تتوقف عن الحرب . فقد بدأت حركتها ككرة أخرى بعد سقوط الأندلس على الطريق الأفريقي من ناحية الغرب دون توقف : الأسبان والبرتغال ومن وراءهم الهولنديون والإنجليز والفرنسيين انتقاماً من المسلمين الذين قدموا لهم نور العلم والحضارة في الأندلس . أما في أفق البلاد العربية فإن عام ١٨٢٠ م كان علامة الخطر حين بدأت فرنسا في غزو (الجزائر) واعتدت المعركة

إلى تونس مصر والسودان ، منذ ذلك اليوم بدأت نتائج الغزو العسكري يبرز ، وأخذت طلائع التبشير تعمل ، فإنه في نفس الوقت كانت قوى محمد علي نفسه من الشام ١٨٤٠ حيث سيطرت قوى الغرب على هذه المنطقة التي اختارها لويس فأقامت فيها ما أطلق عليه حكومة خاصة داخل الدولة العثمانية وكانت معركة ١٨٦٠ التي أثارها الفرنسيون بتأييدهم للدولة والانجليز بتأييدهم للدرود منطلقاً إلى إنهاء هذا السكان الذي تلاقت فيه قوى التبشير الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأمريكية والذي ما زال قائماً حتى الآن في الفترة الأولى من غمط لويس ١١٢١ م إلى ١٨٣٠ كان الاستشراق يضع السموم ومن ١٨٢٠ إلى ١٩١٨ كان التبشير يحتاج البلاد عن طريق الرسائل : معاهد وجامعات في أستانبول والقاهرة ولبنان لها نفوذ داخل في نفوذ الامتيازات الأجنبية . ولها مناهج دراسية قائمة على تدمير الإسلام وتاريخ الإسلام ولفته وعقيدته وإذابة الأجيال الجديدة في سموم الغرب وتعظيم تاريخه ، واحتقاره لآمنه ودينه . ومن هذه الأجيال جاء الأمراء والسادة والقادة والوزراء الذين سيطروا في ظل حكومات الاستثمار والاحتلال والذين أخذوا مناهج التعليم التي وضعتها معاهد الإرساليات لجمعوها مناهج المدارس الوطنية وفي عديد من مصادر اللقاء بين الفرق والغرب نجد الإشارة مدسوسة إلى وصية لويس التاسع حتى لا يتغلب عليها المسلمون ، هذه الوصية التي تدعو إلى تهديد المبشرين الغربيين في (معركة سلبية) لمحاربة آعالم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه مغنوباً ، واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعركة أعظم جنود الغرب) . إذا كان هذا هو تصورنا لوثيقة لويس التاسع التي ظلت خافية سنوات طويلة حتى تكشف هذه الإهوام ، فإنما مثلاً مثل بروتوكولات صهيون التي حجبت عن المسلمين والعرب منذ ظهورها ١٩٠٢ حتى عام ١٩٤٨ وهو عام قيام إسرائيل عندما سمح الإعلام الصهيوني للصحافة العربية بأن تشير إلى هذه البروتوكولات التي لا توجد عنها إشارة واحدة في مجلات الهلال أو المنتطف أو المار أو غيرها قبل هذا التاريخ . أقول : إذا كان هذا تصورنا لوثيقة لويس التاسع ومدى أبعاد الخطر الكامن فيها فإن الأستاذ نبية أمين فارس أحد كبار أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت) قد كشف عن هذه الصفحة بكل جرأة وقوة في بحث له نشر عام ١٩٥٨ في مجلة الأبحاث : يقول هذا المؤرخ العربي : « بينما كان الشرق الأدنى مطعماً لأفكار بناء الامبراطوريات كان أيضاً مطمح انظار جماعة أخرى من الناس تنشأ أن تنجز عن طريق الكلمة ، ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة أخرى تنشأ احتلال مهد للمسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح ، إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية العظيمة كما سجلها أول المبشرين : القديس لويس . ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كره أخرى على عقول المسيحيين يعود إلى اليقظة الدينية التي تمتعت بها في أواخر القرن الثامن عشر ، واليقظة الدينية المقابلة لها في الولايات المتحدة التي تمتعت بها في أواخر القرن الثامن عشر ، وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من الجمعيات التبشيرية التي كرسَتْ نفسها لحل الانجيل إلى جميع البشر ، ويمكن أن يضاف إلى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطامع السبعية والاقتصادية في ممتلكات رجل أوروبا المريض (يقصد الدولة العثمانية

الإسلامية) ومن المحتمل أن يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري. ومن أهم هذه الجمعيات التبشيرية التي ظهرت في هذه الفترة : الجمعية التبشيرية الكسبية التي أسست في لندن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكي لمندوب البعثات التبشيرية وقد أرسل المجلس الأمريكي بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشيرة إلى الشرق الأدنى ، ولما كانت المشكلة الأولى التي واجهت أولئك المبشرين هي اختيار مركز ملائم لهم ، وقدم سوريا عام ١٨٢٢ مبشرين آخرين وانتقلوا إلى بيروت ، وكان غرض البروتستانتيون أن يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب (الكفار) إلى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا : أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين ، وحمم المبشرون منذ البداية على استعمال (الكلمة) حيث فشل استعمال (السيف) وفي سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية أولاً في مالطة ١٨٢٢ وفي بيروت ١٨٢٤ وأخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثاً وثلاثين في أقل من هذا العدد من السنين وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة إعداد ترجمة هربية صالحة مقروءة للقرآن ، وهدوا فوق ذلك حل لواء الحرية الدينية بصورة عامة ، الخ . ولقد كان أبرز ما استهدفته وثيقة لويس التاسع : القضاء على فكرة الجهاد ويكشف الدكتور محمد تقي الدين الهلالي هذا السر في مقال نشره عام ١٩٣١ في مجلة (الفتح) عن سير هذا المخطط في الجزائر : أن هؤلاء الأوروبيون النافحون المبعدين للحرار المغربين للديار ما زالوا يحرمون عبيد من كلمة (الجهاد) ويعدون ذكره فضلاً عن فعله من أعظم الذنوب وهو عندهم آية المهجبة ، والتعصب الديني المفقوت ، وبلغ بعضهم الأمر أن حرموا تفسير آيات الجهاد في كتب الفقه ، وبمبنى شاهدت صحيفة الأذان الفرنسية . التي حصل عليها شيخنا محمد بن حبيب الله الشقيطي رحمه الله في مدينة المشرقة قسم وهران من الجزائر وفيها ما يلي : إن الإذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر أي آية أو حديث يدل على الجهاد ، وأن لا يدرس شيئاً من أبواب الجهاد في كتب الفقه ، ولما راجت دعاية هؤلاء في الشرق سار المسلمون ينفرون من لفظ الجهاد ، ويقولون بل أن الأمر قد بلغ غايته في تنفيذ وثيقة لويس التاسع فقد أهان الإنجليز في الهند على ظهور نحلة تدعى الإسلام وتلقى الجهاد وتنكره إنكاراً هي نحلة القاديانية والاحدية ، الذين يفسرون الجهاد تفسيراً مؤولاً ، والذين يدهون إلى الخضوع للحاكم المستعمر ويعدون ذلك من مفهوم الإسلام في نحلهم وبعد فإن في تقديرى وتقدير الكثير من الباحثين اليوم أن المسلمين إنما طعنوا من طريق التعليم الذي بدأه معاهد الإرساليات وسارت على مناهجه أغلب المدارس الوطنية والذي تنقل الدول العربية مناهجه اليوم من نفس المصدر الأول الذي أنشأه تلاميذ لويس التاسع وأتباعه ، وخاصة مارسمه (دنلوب) وما زال سارياً وما رسمه طه حسين في مناهج الجامعات مستمداً إياه عما وضعته الجامعات التبشيرية في بيروت ولهذا الأمر حديث طويل في تفصيله ولكن المرة الآن هي : أن هذا هو (مدخل) الغزو الثقافي وسيطرة التيارات الوافدة وهو أيضاً في نفس الوقت (المخرج) إلى فهم تعليمي إسلامي لا سبيل إلى النجاة إلا به ، ولا شك أن التبشير والاستشراق هما وجهين لعملة واحدة وهما شكلا من : الأول ميدان النظرية والثاني ميدان الثقافة ، والمهمة مشتركة ، يقدم الاستشراق

الديانات والمذاهب ثم تعج وسائل التبشير الظاهرة والخفية فتظهر هذه الشبهات في أفق الفكر الإسلامي سواء من طريق مناهج التعليم أو المذاهب والأيدولوجيات المطروحة للدراسة والبحث في مجال الصحافة والثقافة وقد تخفف التبشير من أسلوبه القديم في الدعوة الجهرية إلى عمليات التنصير ولكن ذلك لم يكن إلا خطوة لإحكام عمله بالتخفي وراء أساليب التربية والثقافة. بدأت هذه الحركة بعد خروج الصليبيين من العالم الإسلامي ١٢٩١ م وما زالت تعمل إلى الآن، وقد غيرت جلدتها أكثر من مرة. وتولت وتحولت وغيرت أساليبها بما يوصلها إلى تحقيق الغاية وهو تاريخ طويل، وكان الاستثمار الذي غزا العالم الإسلامي هو ثمرة هذا العمل، فتمكن استثمار هولندا لاندونيسيا وامتلترا الهند وفرنسا الجزائر ثم امتلترا مصر وفرنسا لتونس والمغرب، وسقوط بقية أجزاء العالم الإسلامي في أيدي النفوذ الاستعماري خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ وإعلان وعد بلفور بتمكين الصهيونية من فلسطين هو علامة على استعجاش هذه الحرب الخطيرة واستفحالها، ولقد كان هذا العمل المشترك (التبشير والاستعمار) قد وجد من النفوذ السياسي والعسكري القوي وسيلة وأداة وقوة على تركيز قواعده وإنشاء أجيال معتنقة لفكره متأثرة بسدومه، وبرزت في مرحلة الثلاثينات خطة التبشير التي قارنتها حركة اليقظة في مصر وغيرها مقاومة مكشوفة، حتى أعلن زعيم عام ١٩٢٥ أن مهمة التبشير ليست إدخال المسلمين في المسيحية وإنما هي إخراجهم من الإسلام وجاء هاملتون جب بكتابه (وجهة الإسلام) في نفس الوقت فكشف عن أن هذا العمل الذي يقوم به الاستعمار والتبشير والنزول الثقافي في العالم الإسلامي إنما يستهدف تقريب الإسلام والمسلمين ونقلهم إلى دائرة الأمية والفكر الغربي في مختلف أساليب حياتهم ومجتمعاتهم : وخاصة في مجال التعليم والتشريع والثقافة والاقتصاد. وغير أنه لم يلبث أن تكشف أن هناك مخططات أخرى يقوم بها النفوذ الروسي والصيني في مجال الاستعمار والتبشير. تحقيقاً لطابع الصهيونية في السيطرة على البلاد العربية ومطامع الشيوعية في غزو عالم الإسلام وظهر الاستعمار الروسي والصيني إلى جوار الاستعمار الغربي المسيحي وتمددت الخطط ولكنها كانت تستهدف غاية واحدة هي قلع جذور الإصالة الإسلامية واحتواء الفكر الإسلامي والسيطرة عليه وإدخاله الدائرة المملقة التي تحول بينه وبين تحقيق وجوده أو بروز ذاته أو إتمام رسالته في الدعوة العالمية إلى الله وتلك هي أخطر المراحل التي يواجهها العالم الإسلامي. وقد تضاعفت بعد الحرب العالمية الثانية هذه المخططات استعملت أساليب جديدة وجهات المزيعة والنكبة والنكسة في خلال مرحلة تزيد عن ربع قرن عالمياً في تمكين هذا الوجود الزائف الخطير :

وتبين أن خطة التبشير ليست خطة دينية خالصة تستهدف إخراج المسلم من دينه وإدخاله في دين آخر ولكنها عملية ثقافية واسعة تستهدف إخراج المسلم من المفاهيم والقيم الإسلامية وإدخاله في ديانة الفكر البشري وصهره في مفاهيم الوثنية والمادية والعلمانية والأمية وفتح الطريق أمام فكرة لتقبل كل ما نطرحه أعاصير الليبرالية والماركسية والوثنية والوجودية وغيرها من مسموم، المهم هو إخراج المسلم من الإسلام دون إدخاله في أي دين آخر وحجبه في الدائرة المظلمة المفرغة : دائرة التيه الذي لا تصل منه قوة صالحة لتوجهه إلى الاتجاه الصحيح .

القسم الأول مخططات التبشير

الباب الأول

صفحات من تاريخ التبشير

- (١) من تاريخ التبشير (٢) مرحلة جديدة في خطة التبشير (٣) بعد الحرب العالمية الأولى
(٤) مؤتمرات التبشير (٥) أخطر تحول وأكبر خطورة .

الفصل الأول

كانت الإرساليات التبشيرية هي مقدمات الاستعمار وطواله والممهدة له . حيث مد النفوذ الأجنبي ظله على العالم الإسلامي كانت هذه البعثات هي القوى المتقدمة فنذ أوائل القرن التاسع عشر تقريباً بدأت عملية النزول التبشيري في بطن وأناة متصلة بخطوط أخرى كالاستشراق والصحافة كأجهزة مترابطة لتحقيق السيطرة الاستعمارية . ولقد وجدت حركة التبشير الطريق أمامها مفتوحاً وميسراً مع العوامل التي أعددتها لها النفوذ الاستعماري وأهمها : الامتيازات الأجنبية ونفوذ الفناصل . وسيطرة الدول الأجنبية على كثير من الأمراء كالشاه ناصر الدين في إيران والحديو اسماعيل في مصر وغيرهم من فتح لهم باب الاستئذنة . وفي خارج الدول العثمانية تركز الاستعمار في فارس وأندونيسيا (جاوة) والهند الإسلامية ولما كانت الدولة العثمانية هي أكبر أهداف التبشير كقديمة تقزيقها وتقوزيمها فقد ركزت القوى الاستعمارية على حملات تبشيرية انطلقت من مختلف الدول الأوروبية وبعثات من دول فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيرلندا والسويد والدنمارك والروس . ولما كان المخطط قد رسم أساساً للسيطرة فقد عمد للنفوذ الاستعماري أولاً للقضاء على القوى الشابة الجديدة وفي مقدمتها : الحركة الوهابية في الجزيرة العربية والتمضة المصرية التي قادها محمد علي . وكان أن حرص الاستعمار على دفع إحدى القوتين للقضاء على الأخرى ، ثم تفرغ بعد القوة الأخرى فكانت عملية التدخل العسكري في سوريا ١٨٤٠ التي مزقت الوحدة التي كونها إبراهيم ، وبذلك أهدت سوريا لعملية من أخطر عمليات السيطرة الأجنبية في صراع بين النفوذ الفرنسي والبريطاني مما دفع الدولتين إلى إثارة الصراع بين الطائفتين : الموارنة والحدود ، وقد أخذت فرنسا بجانب الموارنة وأمدتهم بالأسلحة وفعلت بريطانيا مثل ذلك بالنسبة للحدود ، ومهد ذلك للاستخدام الذي وقع بتحرير عرض الدولتين عام ١٨٦٠ وكان ذلك مقدمة لتنفيذ الخطة التي أعدتها الدول الأجنبية من إنقاذها رأس جسر لنفوذها في الشرق كله وذلك بوضع نظام يكفل إقامة كيان خاص في لبنان وسما كاخصاصاً في حماية الدول الأوروبية ، وفي ظل هذا الوضع الذي أهل لبنان

لتسكون منطقة الغزو الاستعماري سياسياً وثقافياً حيث بدأت الإرساليات التبشيرية في الوصول إليها لتعمل في حركة مطلقة وتتخذ منها حقلاً لكل مخططات النفوذ الأجنبي وفي مقدمته :

(١) القضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة للمسلمين في العالم كله .

(٢) إعداد خطط الفصل والوقيعة بين العرب والأرك .

(٣) إعداد خطط الفتن والخلاف بين المسلمين والمسيحيين .

(٤) تمكين الصهيونية من السيطرة على فلسطين .

(٥) تخريج طبقة مثقفة تفتح أمامها وسائل الحكم والسياسات في مختلف أجزاء العالم العربي .

وكانت المدارس الأجنبية وإرساليات التبشير في مختلف صورها من معاهد وجامعات قد احتضنت نفوذ فرنسا وأمريكا في نفس الوقت الذي تقدمت كل دولة من ذات المطامع إلى الدولة العثمانية معلنة نفسها حامية لطائفة معينة : فالفرنسيين لحاية الكاثوليك والبريطانيين لحاية البروتستانت والرومن لحاية الأرثوذكس . وهكذا بدأ الغزو الاستعماري للعالم الإسلامي بإسم العلم ورصدت لذلك الميزانيات الضخمة . وكان لهذه البعثات أثرها الهام في حل المسألة الشرقية على حد تعبير أحد أساطين السياسة الغربية وكان لها دورها في تمزيق الوحدة السياسية التي ظلت قائمة بين الترك والعرب خمسة قرون وفي المرحلة الأولى حملت الإرساليات لواء الدعوة إلى العروبة وتدرّس اللغة العربية والإلحاح على عبارات الحرية ومقاومة الاستعمار كوسائل مرحلية حتى سقط السلطان عبد الحميد وقطعت الدولة العثمانية جماعة الاتحاديين ثمرة الإرساليات والنفوذ الاستعماري وهنا تحول اتجاه هذه المؤسسات والجامعات من الدعوة إلى العروبة وحماية اللغة العربية إلى اتخاذ اللغات الأجنبية أساساً للتدريس والحلّة على الوحدة العربية واللغة العربية وتغليب العامية والحرف اللاتيني عليها وتغريب التعليم وجعله طائفاً خالصاً . ومن الحق أن يقال أن النفوذ الاستعماري قد اختار في الدولة العثمانية ثلاث مناطق من أخطر المراكز الأساسية لعمله : الأولى هي لبنان ولبنانية مصر والثالثة باليونيك في تركيا . وفي كل منها قام بدور ضخم ، أما لبنان فقد غطت منطقة الشام جميعاً والعراق ، أما مصر فقد كانت تمثل القيادة الفكرية باعتبارها مصدراً قيادياً للعالم العربي كله وذلك على أساس التركيز في مجالات التعليم والثقافة والصحافة موجهة لخطط النموذ الاستعماري في العالم العربي بل الإسلامي كله ، أما سالوبيك فقد كان مقر المخطط التبشيري الاستعماري الذي خلق القوة التي صارت الخلافة والدولة العثمانية وقضيت عليها نهائياً .

(١) التركيز على لبنان

تجمع المصادر على أن مراكز التبشير بدأت عملها في جزيرة مالطة في أواخر القرن السادس عشر واعتبرت الجزيرة قاعدة هجوم على الشرق الإسلامي كله . ثم انتقلت إلى بلاد الشام ١٦٢٥ وكان في هذه المرحلة عدوداً ، وفي ١٨٣٤ انتشرت البعثات التبشيرية في سائر بلاد الشام ففتحت مدرسة في قرية عنتورة في لبنان ونقلت الإرسالية الأمريكية مطبعتها من مالطة إلى بيروت وحينما انسحب إبراهيم باشا ١٨٤٠ من بلاد الشام . بدأت عملية التدخل واستنارة الطوائف وخلق أسباب الاحتكاك بينها وتوالى الاضطرابات حتى انتهت إلى الفتنة الكبرى ١٨٦٠ حيث وجدت الدول الغربية الفرصة سانحة فأرسلت البوارج البحرية إلى شواطئ سوريا ثم ركزت إرساليات التبشير وانسحبت القوة العسكرية . وقد أشارت بعض المراجع إلى أن المجلس الأمريكي لمندوب البعثات الأجنبية أنشأ في بوسطن ١٨١٠ وأرسل بعد تسع سنوات (١٨١٩) أول مبشرين إلى الشرق الأدنى ، واتخذوا من مالطة مركزاً لهم واستعانوا بالمطبعة ١٨١٥ في إعداد المطبوعات اللازمة ثم بدأ التجول في شاطئ البحر وذهب بعض المبشرين إلى القدس ثم انتقل التبشير إلى بيروت . وكان عمل الإرساليات في مجالين أساسيين : إنشاء المدارس وتأليف الجمعيات وفي مقدمة هذه الجمعيات جمعية الفنون والعلوم ١٨٤٧ التي اصطلقت العاملين في سبيل خدمة أهداف التبشير وكان أبرز أعضائها : نصيف اليازجي وبطرس البستاني وإيلي سميس وكان ذلك وكانت هذه الجمعية تظهر نشر العلوم بين الكبار كما تنشر العلوم في المدارس بين الصغار وتوجه الشباب إلى الثقافة الغربية وفق الخطة التبشيرية المرسومة . ولما فشلت هذه الجمعية لم يتوقف السعي لإنشاء جمعية أخرى باسم الجمعية الشرقية أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب (هنري دوبرونيه) ولما اختصت تأسست عدة جمعيات وكان آخرها وأهمها الجمعية العلمية السورية : وكان أبرز رجالها إبراهيم اليازجي وبطرس البستاني وكان مظهرها التوفيق بين الطوائف وبمساعدة القومية العربية . وتجمع المصادر على أن الدعوة إلى القومية بدأت في الكلية البروتستانتية في بيروت ١٩٧٥ عن طريق جمعية سرية كانت تهاجم الدولة العثمانية وتدهو إلى فصل الدين عن الدولة وتتهم تركيا بأنها اغتصبت الخلافة الإسلامية من العرب . وكان هذا العمل الأول للبعثات التبشيرية في مواجهة التجمع الإسلامي الذي دعا إليه السلطان عبد الحميد باسم الجامعة الإسلامية في مواجهة النفوذ الغربي الواحف . وعاون التبشير في هذه المرحلة ثلاثة : فارس الشدياق ونصيف اليازجي وبطرس البستاني الذين عملوا على تصحيح تراجم العربية وترجمة التوراة إلى العامية العربية (وطبعت الترجمة ١٨٥٧) ووضع المخطط التبشيري لهم على أن يعتمدوا من اللغة الفصحى ، وقد أشرف الشدياق على تصحيح منشورات المطبعة الانجليزية في مالطة والتوراة في لندن وله تعريف خطير للمستشرقين ومدى علمهم وفهمهم ودورهم في الثقافة العربية . وكان أبرز المبشرين في هذه الفترة : قانديك في لبنان وزويمر في البحرين والعالم العربي وويلكوكس ودللوب في مصر . والدكتور لوبلوس فان ديك اختاره مجمع المراسلين الأمريكيين مراسلاً طبيًا للديار السورية وصل بيروت ١٨٤٠ وأعلم اللغة العربية وتزوج ابنة قنصل السكرتاري في بيروت وأنشأ مدرسة هيبية الشهيرة بمساعدة صديقه البستاني وعمل على ترجمة التوراة والإنجيل وأتم

الترجمة ١٩٦٤ بدأت الجامعة الأمريكية في بيروت ١٨٦٦ باسم المدرسة السورية الإنجيلية ، وقد اتخذت العربية لغة التدريس بها بادی الأمر في محاولة سياسية لمحاربة الدولة العثمانية والتودد للعرب ، وبعد التمزق السياسي الذي أصاب العالم الإسلامي بسقوط الدولة العثمانية وسيطرة النمسا وفرنسا على العالم العربي ، تحولت في ثوب جديد باسم الجامعة الأمريكية وكذلك في القاهرة فقد اتخذت الانجليزية لغة العلم والدرس بها ، وذلك لتلقى في روع تلاميذها من العرب أن لغتهم قاصرة عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة (راجع لويس شيخو: الآداب العربية في القرن ١٩ ج ٢ ص ٤/٦٤) وقد أصبحت فروع الجامعتان الأمريكية والقديس يوسف الفرنسية مراكز هامة في الشرق الأوسط كله ، ليس للثقافة وحدها بل للسياسة العالمية حيث يتعلم بها طلاب من الشام والعراق والحدود ومكنا كاثوليك لبنان بتركيبها الطائفي منطلقاً خصبا لحركة التبشير وأهم المناطق التي تصلح مرة كزاً للتدخل الأجنبي وفيها ظهرت حركة التنافس الشديد من الإرساليات التبشيرية ، ومنها حرك الاستعمار التنافس الهزلي الماروني والتنافس الفرنسي . ومن خرجي هذه الإرساليات انطلقت الجمعيات التي قدمت القاهرة واثبتت في مختلف أنحاء العالم العربي وخاصة المغرب وسيطرت على وسائل الثقافة والصحافة وكان لها دورها الخطار . لقد قدمت الإرساليات التبشيرية في لبنان إلى مصر شخصيات حملت لواء الفكر العربي وقادته وكان لها أثرها البعيد المدى وفي مقدمتهم يعقوب حروف ، فارس نمر ، جرجي زيدان ، وأديب اسحق ، وفرج أنطون ، الدكتور شبلي شميل مترجم دارون .

كان هدف البعثات التبشيرية في هذه المرحلة الأولى : إثارة العداء بين العرب والدولة العثمانية وفك الرابطة والقضاء على هذا السكيان الذي قاوم النفوذ الاستعماري ، وبالتالي للقضاء على فكرة الجماعة الإسلامية وتجميع قبايم السكيانات المستمدة على الدم والعرق كالقوميات التركية والعربية ثم برز الهدف في نطاة السكامل : إسقاط الخلافة وشجب القيم الإسلامية كأساس للفكر والثقافة ، وإحلال الفكرة الملائكية اللادينية ، بديلا للمفهوم الإسلامي واتخاذ القومية سلاحا لحدم الإسلامية ، والخلافة ، فإذا التف العرب حول الوحدة العربية بدأ التبشير في رسم مخططات لضربها ومقاومتها وهدمها وخاق مفهوم جديد لاحتوائها مستوره من المفهوم الغربي للقومية ، وعندما يجري استعراض تاريخ التبشير في العالم الإسلامي ، يرد اسم لبنان على أنها أخطر معقل في الشرق بين للعامل الثلاث : مصر واستانبول ، غير أن الصورة تبدو في نظر أصحابها بعيدة عن كل شبهة . فلبنان بك يجمع مختلف الطوائف وقد أدخل منذ ١٨٦٠ في نظام قرب بينه وبين الغرب الذي أمد هذه الطوائف بالتعليم والتثقيف فلتأ المعاهد البروتستانتية والكاثوليكية فتلقفت أولا أبناء هذه الجاليات وأخرجت طائفة من المستعربين أصبح لها قيادة الفكر ليس في بيروت وحدها ، بل انتقلت جوعهم إلى القاهرة التي بعدها الاستعمار قاعدة العمل كله فقبضوا على ناصية الصحافة والثقافة جميعاً ، ويمكن القول أن جميع الصحف التي صدرت في تونس وطرابلس

والغرب كان يهتم عليها لبنانيون . وفي لبنان تصارعت وتلاقت وتعاونت كل القوى المتصدرة للثقافة والتعليم : بين أمريكية وفرنسية وإنجليزية ومنها نشرت الترجمة العربية للتوراة (التي كانت من الوسائل الرئيسية في بث الدعوة للذاهب الانجيلية) وقد شهد الباحثون من رجال هذه المعاهد أن قدوم البعثات التبشيرية كان له أثره في اذكاء الخلاف الطائفي بين المسلمين والمسيحيين كذلك فإن المسلمين واجهوا هذه المدارس بالشك في رسالتها وفأوروبا في ظنهم لم تنجس هذه المشاق رحمة بالشرق وإنما رغبة في أن تجعل لمشربها السياسي حوزاً لها . وغاية ما تقرره في عرض الباحثين لهذه الإرساليات ومعاهد ما هو قولهم إن الكنيسة هي المسؤولة الأولى عن تنظيم التعاليم والإشراف عليه ، والمعروف أن الإرساليات عملت أولاً على نشر اللغة العربية لتكون سلاحاً عاملاً في تمزيق الوحدة بين العرب والتركة فلما تحقق ذلك تحولت إلى الدراسة باللغات الأوروبية وقد أشارت في هذه الفترة إلى تيارات أربع خلقت الصراع السياسي الذي يرقى للعرب المسلمين وأما بينهم تباينا ما زال قائماً إلى اليوم تلك هي : (التيار العثماني - التيار السوري - التيار اللبناني (السكيان) التيار العربي) أي أنها عادت إلى الفصل بين رعايا الدولة العثمانية : إلى عرب وترك وإلى مسلمين ومسيحيين ، وإلى الفصل بين أهل لبنان وسوريين وخلق طابع السكيان بين أهل لبنان في محاولة فصلهم عن السوريين والعرب والمسلمين جميعاً .

المرحلة الثانية : عام ١٩٠٨

مرحلة حاسمة في طريق التبشير

اعتبر المبشرون عام ١٩٠٨ من الأعوام الحاسمة في حركة التبشير في العالم الإسلامي كله وأن الانقلاب الذي قاده الاتحاديون والذي أنهى حكم السلطان عبد الحميد كان بعيد الأثر في توسيع حركة التبشير في الدولة العثمانية كلها . نقول مصادر التبشير ، إن حدوث الانقلاب في غرب آسيا كانت موجياً للإعجاب والاستغراب ، فقد بدأت معالم التجسس وأقامت الحرية على انقراض الاستعباد وصار التجول في البلاد العثمانية والعربية الفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجيناً في سلاطنتك وقالت : إن الساطرة السياسية هي أكثر المسلمين قد انتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد امكثترا وفرنسا وروسيا وهولندا ، وأن عدد المسلمين الذين تحت سلطة كل واحدة من هذه الدول يفوق عدد المسلمين الموجودين في كل أرجاء السلطنة العثمانية . ونتيجة لهذا الموقف عقد المبشرون في هذه الفترة عدداً من مؤتمرات التبشير لمواجهة الموقف الجديد في أدبرج ١٩١٠ في إسكنو ١٩١١ ووضع خطط جديدة للعمل . كما كان للانقلاب العثماني أثره الذي أشار إليه د. زويمر ، من انتعاش مدارس وكليات التبشير في كلية بيروت ١٠٤ من المسلمين وفي كلية الآستانة . وفي كلية المبشرين في ترك باشا في الآستانة أيضاً ٨٠ . كما أصبح الآن بيع كتب التبشير مباحاً بموجب حرية النشر التي أعطاها الدستور العثماني حتى لقد بيع عام ١٩١١ للمسلمين ما يزيد عن ٩ آلاف نسخة من هذه الكتب .

٢ - وفي مصر بدأت حركة التبشير عقيب الحملة الفرنسية مباشرة ، ومن جزيرة مالطة

١٨١٥ امتد نطاق العمل إلى مصر والحيشة واليونان وبلاد الدولة العثمانية وفلسطين . وفي خلال حكم الخديو إسماعيل اتسع نطاق هذه البعثات ، وعمل إسماعيل على تشجيعها إرضاء للدول الأجنبية التي كانت تمدّه بالقروض . ويروي أوفيق حبيب (هاشم الأهرام ١٩٣٧/٤/٢٩) أنه في أوائل القرن الماضي حضر إلى مصر خمسة من رجال الكنيسة الإنسكارية للوخط والتبشير ثم عادوا إلى بلادهم الواحد بعد الآخر ولم يبق منهم إلا رجل واحد هو المستر (ليدر) وسكن بالدوب الواسع ، وذكر الواعظ والمبشر الإنجاري الأسقف جون الإنجاري الذي أنشأ مجلة للشرق والغرب ومسقط في هرتزل في مصر القديمة وقال : كانت لهم دار في ميدان الأزهار (العاسكي) للسياحلات الأدبية والبحث في العقائد ، لم تلبث أن هطلت نتيجة لما كان يقع في بعض اجتماعاتهم من مشاغبات ، وكان القس (جاردنر) من أبرز رجال الإرسالية الإنسكارية وأعرفهم باللغة العربية ، والقس جاردنر كانت له اليد الطولى في تأسيس فرع مصر لجمعية اتحاد الكنائس وإنشاء أقسام مصرية لجمعية اتحاد الشبان المسيحية ويقول أيضاً في هاشم ١٩٣٣/٩/٢٤ إن جماعة للرسالة الأمريكية للإنجيليين أوفدت الإرسالية الأمريكية إلى مصر ١٨٥٥ . ويرجع أولى إنشاء المؤسسات الدراسية الأجنبية في مصر إلى عام ١٨٤٠ وأول ما ظهر منها مدرسة الآباء (لارنس) بمدينة الاسكندرية وأطلقوا عليها الكلية الفرنسية ، وفي نفس العام أسست الجمعية الأنجيلسكائية البروتستانتية بالقاهرة التي تعتبر أولى مدارسها التي انتشرت بعد في أنحاء القطر وأقدمها همداً .

وفي عام ١٨٥٠ ظهرت مدارس الفرير ثم تبعتها بعض مدارس أخرى يونانية وإيطالية في القاهرة والاسكندرية . وفي ١٨٦٠ بدأت الإرساليات الأمريكية تؤسس مدارس لما لافى القاهرة بل في جميع أنحاء القطر وخصوصاً في أسبوط حيث أنشأت هناك مدرسة كبيرة ظلت تحتكر تعليم أكبر عدد من أبناء المصريين وخصوصاً الأقباط الذين يتأثرونها على مدارس الحكومة . وبدأت مدارس الآباء اليسوعيين عام ١٨٨٠ وأعقبها مدارس أخرى فرنسية والسأكركير والمريدييه واليون باستمر وغيرها وبعض هذه المدارس يقتصر على تعليم أبناء الجاليات الأجنبية والبعض الآخر يعمل بصفة عامة . وقد بلغ عدد هذه المدارس ١٩٣٧ . بمناسبة عقد اتفاقية مونترو وإلغاء الامتيازات الأجنبية ٧٠٠ مؤسسة من فرنسية وإنجليزية وإيطالية ويونانية وأمريكية وغيرها وما يذكر أن موضوع حرية هذه المدارس كانت هي النقطة الحظرة في مختلف المفاوضات التي أجريت بين مصر وبريطانية بشأن الاستقلال وكانت الدول الأجنبية تصر على ضمان حريتها في العمل وتحاول الاحتفاظ بامتيازاتها في إدارة هذه المدارس وعناية أوجه الامتيازات المختلفة التي كانت تحصل عليها وقد كان لإسماعيل دور ضخم في تركيز هذه المؤسسات ومدها بالامونات وقد اتسع نطاق هذه المؤسسات بعد الاحتلال عام ١٨٨٧ فقد جاء في الإحصاء أن مدارس الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية بلغت ١٥٢ مدرسة تضم ٢٢٤٧ طالباً وقد جاء هذا التوسع بناء على توصيات دوفرين ، الوزير البريطاني الذي زار مصر بعد الاحتلال ووضع مخطط العمل الاستعماري في مصر وفيما يتماق بدور الاحتلال في التعليم قال : إن الأمل في نجاح تهذيب العامة في مصر نجاحاً عظيماً مازال ضعيفاً مادام الصبيان لا يتعلمون اللغة العامية بدلاً من

تعليم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فإن نسبة العامية إلى الفصحى في اللغة العربية كذبة الدابة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة ، وقد اتسع نطاق التبشير في عهد اللورد كرومر : الذي شجع المبشرين في مصر وحمى المؤسسات الأجنبية . ورددت جريدة التيمس والصحف البريطانية : أن مصر قد أصبحت تحت سلطة إنجلترا المسيحية واستقدمت بريطانيا المبشر القس دوجلاس دنلوب ، الذي استخدم معدا في مدرسة البعثة الاسكوتلندية في الاسكندرية ، ثم نقل إلى نظارة المعارف مفتشا ثم أصبح سيطرا على الوزارة تماما وعمل معه يعقوب أرمن الأرمني ثم ولى وزارة المعارف سعد زغلول وكان له دوره الخطير في تأكيد بقاء اللغة الانجليزية . وقد حمل عبد الله نديم في جريدته [الاستاد] عام ١٨٩٣ على التبشير في مصر وأشار إلى كتاب المبشر يوحنا موري الألماني الذي وزعه في القاهرة وسماه الإسلام وتأثيره على تأميمه وهاجم فيه الإسلام وقال نديم : لو أن مسلمانا هذا الكتاب لقاسم على المسلمين قيامه أوروبا والواحداء هذه الحرب الدينية ومحبوا قناصلهم ونادوا بيزاباتهم المقيمين في الشرق بالرحيل بدعوى فقدان الأمن العام وتوحش المسلمين ولما رأوا أعمدة التيمس وغيرها بالحدث عن تعصب المصريين وقد أشار كثير من الباحثين إلى الدور الذي لعبته إرساليات التبشير في مصر منذ الاحتلال البريطاني وقال إنها اعتمدت أساساً على قول اللورد سالسبرى : « إن مدارس المبشرين أول خطوات الاستعمار فإن أول عملها هو إحداث الشقاق في الأمة التي تبشر فيها » وأول من فطن لهذه الحركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده . وذلك قبل الاحتلال - كانت أول حادثة ، أن إرسالية التبشير الأمريكية نصرت فتى مصرياً وصارت تعرضه للوعظ العام الذي يحضره كثير من المسلمين في كنيسةهم بحي الأزبكية فكبر ذلك على جمال الدين فهدى إلى جماعة من الإيرانيين بمخطفه من الكنيسة ووضعوه في مكان خفي ، ففعلوا ، وذهب هو وتلميذه (الشيخ محمد عبده) إلى ذلك المكان واستنابا الفتى واقناه بأن الإسلام هو دين الله ثم سميا لتلافي هذا الأمر لدى الحكومة فلم يسمع لهما أحد وكان الشيخ محمد عبده تبمأ لذلك أول من فكر في خطر المدارس الأجنبية في مصر فاقترح على مجلس المعارف الأعلى الذي أوفى مصر عام ١٨٨١ أن تقرر جعل جميع مدارس الأجانب في مصر تحت مراقبة الحكومة وتفتشها غير أن هذا العمل الذي سعى إليه الشيخ محمد عبده قد توقف بعد الاحتلال حيث فقدت الحكومة المصرية كل سلطان لها على التعليم وغير التعليم والقيت مقاليد وزارة المعارف في مصر في يد قسيس إنجليزي (مبشر) جعل سكرتيراً لها فاستشاراً (القس دوجلاس دنلوب) وقد بلغ من مساعدة الاحتلال الإنجليزي لدعاة المبشرين لسيطرتها على الحكومة أن أمر اللورد كمشنر وزير الأوقاف بإلغاء المستشفى الذي بنته الوزارة في مصر القديمة بموار مستشفى هرم (هرمل) التبشيري لأنه يصرف كثيراً من فقراء المسلمين عنهم فيحرمون من التبشيرية النصرانية ، كما أمر اللورد بتعطيل مجلة « المار » لأنها ترد على المبشرين ، وقد طلب المختصون من الشيخ رشيد رضا أن يتوقف عن الرد على المبشرين فأجاب : إني لن أدع الرد على المبشرين ماداموا في الإسلام ويدعون المسلمين إلى دينهم لأن الرد عليهم وتقنيدهم شبهاتهم فرض من فروض الكفاية ، حيث لا أرى في البلاد مجلة ولا جريدة تقوم بها فإن تركتها كنت أتما كجميع القادرين عليها وسجل السيد رشيد رضا في عام ١٩١٥ أن للمبشرين في مصر عدة مدارس

ومستشفيات وصحف وقد ساعدتهم الحكومة المصرية على إنشاء مدارسهم ومستشفياتهم باسم نشر العلم وهم ينشرون في كل عام عدة كتب ورسائل في الطعن في القرآن والذي ، وتنفيذ المسلمين من الإسلام فضلا عن النشرات والأوراق الصغيرة التي ينشرونها في المستشفيات والخطب التي يلقونها في سائر معاهد التبشير ولكن هذه الخطوط التي تتجمع عن حركة التبشير في مصر لا يمكن أن تعطى صورة كاملة وحقيقية إلا إذا أضفنا إليها خطة العمل الذي رسمها لورد كرومر للتبشير ، والتي ختمها إلى تقريره السنوي عام ١٩٠٤ ، هذا التقرير الذي يلقى الضوء على الخطة التي اتبعت خلال إقامته في مصر (١٨٨٣ - ١٩٠٧) وهي الخطة التي سار عليها العمل فيما بعد وقتا طويلا .

« تقرير كرومر »

قال اللورد كرومر: من البين الجلي أنه ليس من أهراض الحكومة البريطانية دعوة الناس للانتقال من مذهب إلى مذهب لا في مالديفا ولا في البلدان التي لها فيها شيء من السلطة والأداة على ذلك كشجرة ولا سيما في بلاد الهند كما يظهر من سياسة الحكومة فيها مدة أكثر من قرن فإن أعمال التبشير فيها لا تتجاوز أناسا مخصوصين والحكومة لا تعطيهما أقل عناية مالية ، وإنما تطلق الحرية لكل الأديان وتراقب أعمال المبشرين مراقبة تكفل أنهم لا يستخدمون لتصدير غير المسلمين إلا بالوسائل المحلية التي لا اعتراض عليها ومن الجري على هذه المبادئ في مصر والسودان لابد من قسمة البلاد إلى ثلاثة أقسام تختلف بعضها من بعض من حيث المعاملة التي تعامل بها بالقسم الأول (القطر المصري) وهذا أكثر سكانه مسلمين وجانب كبير من المسلمين متعلم مهذب وقد طال اختلاطه بالأوروبيين فعرف كثيرا من آرائهم وأساليب حكوماتهم والقسم الثاني (شمال السودان) وسكانه الأصليون مسلمون كلهم وهم في غاية الانحطاط من حيث العمران بالنسبة إلى إخوانهم المصريين وليس منهم الآن فريق متعلم ، ولم يختلطوا بالأوروبيين لمعرفة آرائهم وأساليب حكوماتهم إلا منذ عهد قريب . وقد دل الاختيار على أنهم ماثلون لتبديد كل شيء ومعرضون للتحمس الديني بنقادون لكل رجال كما حدث في زمن المهدي (وهذه دعوى باطلة) والقسم الثالث يشمل كل (جنوب السودان) وسكانه وثنيون كلهم لم يروا أحدا من المسيحيين إلا منذ عهد قريب ماعدا بعض السياح الذين مروا في بلادهم واتصلوا بالمسلمين إنما يذكروهم بفظائع الهدايش والنفخاسين من العرب ويذهبون أن كل قسم من هذه الأيام يجب أن يعامل معاملة خاصة ففي القطر المصري يجب أن تطبق الحرية ليدعو المسلمين إلى دينهم وليدعو للمسيحيين إلى دينهم على السواء بشرط ألا تستعمل إلا وسائل الاقتناع المحلية ، وكل ما تطلبه الحكومة من هذا القبيل إنما هو ألا يحدث شيء منخل بالراحة العمومية وألا يستعمل أهل الديانة الواحدة ما ينتهك به حرمة الديانة الأخرى ، وقد جرى العمل بموجب هذا الأمر فجاءت النتائج مرضية بوجه العموم إلا أن هذه السياسة لا يمكن العمل بها في القسم الثاني أي في شمال السودان من غير التعرض لخطر جسيم فإن جمهور السكان هناك لا يزالون في حالة من الجهل تمنعهم من التمييز بين أعمال الحكومة البريطانية وبين ما يفعله أي شخص أوربي مما كانت حربته إذا أطلقت أيدي المرسلين لم تأت بأعمال مشرفة بل أمارات الفجوات والاحقاد وقد تحمل

على الإخلال بالراحة العمومية وقد قلت في تقريرى ١٩٠٢ أن أوافق السيد (رجنالد ونجت) حاكم السودان تمام الموافقة على رأيه وهو أن الرومان الذى يسمح فيه المبشرين بالتبشير هناك ويكون تبشيرهم مأهون العافية لا يزال بعيداً ولم يستثن مكان من القسم الثانى من الشروط المتقدمة . إلا مدينة الخرطوم فإن سكانها ليسوا مسلمين بل فيها كثير من المسيحيين مستوطنون فيها، وهم من طوائف مختلفة وهى مركز الحكومة فسهل مراقبة أعمال المبشرين بالتدقيق وسكانها المسلمون مختلفون رجال الحكومة ثم إن الحاجة شديدة إلى تعليم أولاد المسلمين وأولاد المسيحيين، ولا تستطيع الحكومة أن تلبى كل ما يطلبه الأهالى من هذا القبيل ، فلهذه الأسباب أتيح للبرلمان أن يندشوا مدارس فى الخرطوم ولهم أن يدخلوا فى مدارسهم ما شاءوا من التعاليم الدينية ولكن الحكومة توجب عليهم أن يخطروا أبناء التلامذة المسلمين وأبناء التلامذة المسيحيين الذين هم من طائفة غير طائفتهم من أنواع العلوم التى تعلم فى مدارسهم قبل أن يرسلوا أولادهم إليها . أما فى القسم الثالث الذى يسكنه الوثنيون فقد كتب سيد رجنالد ونجت يقول : إن أعمال المبشرين جنوب (كودك) لاشدودة سائرة سيراً مستمرا وأعمال المبشرين الأمريكان والكاثوليك يقصد بها تمدين الأهالى وتهذيبهم أكثر عما يقصد بها إدخال الديانة المسيحية بين القبائل الوثنية، وهنئى أنهم مصيرون فى اتباع هذه الخطة ولاشبهة فى أن التعاليم الصنهاى الذى يعلمونه لقبائل السلوك والديانة ما ينعف جداً فى نظر الحكومة والعمل جار بمرعة فى بناء دار للبرلمان فى لول وقد أقاموا داراً أخرى فى طنجا وأقيمت داران فى بحر الغزال والمطران السيد جابر باذل أقصى جهده فى توسيع نطاق رسالته والعمل الذى عمل إلى الآن مفيد فمدن الناس ، ويقال مثل ذلك من المرسلين الأمريكين . ويقول كرومر : وقد قلص فى نوفمبر سنة ١٩٠٢ وما يستوجب الأسف أنه لم توجه جمعية من جمعيات المرسلين الإنجليز أنظارها إلى أقاليم السودان الجنوبية التى يسكنها الوثنيون وليسكن ندرائ لم يأت بفائدة فأرسلت كتاباً إلى جمعية التبشير فى ديسمبر ١٩٠٢ أخبرها أن قسماً كبيراً من البلاد خصص لها فى الوقت الحاضر ، وقد عينت أقسام من البلاد للمرسلين النصارى والأمريكين وسألتها عما إذا كانت تريد أن ترسل مبشرين ثم علمت أن للسألة فى معرض البحث ولم يطلب أحد حتى الآن رجعة لإنشاء مدارس فى جنوب السودان على نفقته تعلم فيها فرائض الإسلام ولو طلب أحد ذلك لحل طلبه عمل القبول ، أقول ذلك إظهاراً لحطة الحكومة ودفعاً لكل وهم

الفصل الثاني

مرحلة جديدة في خطة التبشير

تحول أعظم وخطوات أعمق

عندما أحس الاستعمار أن مخطط التبشير قد فشل وهرب بمنف ولفض أمره وكانت الحملة التي صاقتها الصحف العربية في مصر عليه عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ضخمه وبعيدة المدى وكسبت إلى المد الإسلامي كثيراً من دعاة التغريب أمثال الدكتور هيكمل، بدأ في تمديد أسلوبه ونقل قيادته نقلاً مباشراً إلى كتاب يكتبون باللغة العربية وبمذهبهم مسلمون جغرافياً وبذلك اختفى اسم التبشير ظاهرياً وراء دعوة التجديد والعصرية وحرية الفكر وهي الكلمات التي حل لواثها طه حسين وسلامة موسى وعلى عبدالرازق وعمود عزمي. وفي هذه المرحلة أعلن التبشير بعد أن فشل في تحويل المسلمين إلى أديان أخرى أنه لا يطمح إلى إدخال المسلمين في أديان أخرى فإن ذلك من الاستحالة يمكن (باعترا فدهاقنة الاستعمار) ولكنه يهدف إلى إخراج المسلمين من دينهم نفسه فيصيحوا لاديين ومادى الفكر وبذلك يسرى فيهم الانحلال وتتحطم مقومات الفكر الإسلامي وقيمه من ناحية للتطبيق على الناس، ويطلب طابع التجريب لدى يقضى على الذاتية الإسلامية والشخصية العربية ثم أشار مخطط التبشير إلى أن العمل بين المسلمين إنما يكون عن طريق دعاة منهم ومن هنا ركز الاستعمار على بعض أسماء وأكبرها شهرة ولما نادى ودفع بها في خضم الثقافة والصحافة وأبرزها حتى تصدرت وأصبحت قوة لها وزنها حيث تولت كبريات المناصب في الجامعات والأعمال الرسمية ولما كانت هذه الأسماء قد كشفت عن هدفها ووجهت إليها الاتهامات فقد كان من الضروري في هذه المرحلة من العودة إلى مرحلة إرضاء الشهور الإسلامي والجاهل الساذجة بطبيعتها ذهلة الذسيان، وأفهم من حول هذه الأسماء أنها عادت إلى الإسلام والايان وكانت أبرز عوامل هذه المرحلة هي القفز فوق موج التيار الاسلامى نفسه. ومن هنا برزت الكتابات الاسلامية عن الحيرة والحضارة الاسلامية وتراجم الرسول والأعلام ولقد هو فعلا كتاب عن السيرة لواء من هؤلاء الذين تكشفت خططهم في كلياتهم وفي مؤلفاتهم - من كثيراً من النفوس بأسلوبه الرائع وسدع كثيراً من المتقنين. وكان ذلك جرياً على المخطط المرسوم وهو إعادة الثقة إلى هذه الأسماء حتى تحمل هي مخطط التغريب ولنكون البديل الزائف عن الدعوة الإسلامية الأصلية، التي كانت تعملها الشخصيات التي وصفت إذ ذاك بالجهود والتخلف أمثال: شكيب أرسلان وعبد الدين الخطيب ورشيد رضا وحسن البنا ووصفت بالتخلف أيضاً أسماء حملت ألقاباً عالية من جامعات برلين والفنسا وبريطانيا أمثال الدكتور يحيى الدرديري والدكتور علي مظهر وعبد العزيز جازيش وفي هذه المرحلة أيضاً حرص النفوذ الاستعماري أن يذاف التبشير تحت أسماء أخرى كثيرة. وكان حرصه إلى إيجاد البديل، فاعلا هاما في وقت انكشفت فيه خطط التبشير وزحمت المد الإسلامي بإنشاء جمعيات للشبان والإخوان والهندية

منها تفرعت هضرات المجالات والهيئات ، في هذه المرحلة رزت دعوة إلى الكتابة الإسلامية وتصديرها هيكل وطه حسين وتوفيق الحكيم وهم نفس الكتاب الذين كانوا يهاجون الكتابات الإسلامية قبل سنوات قليلة لصطفى الراقص وشكيب أرسلان وجاد المولى ويصفونها بأنها كتابات قديمة رجعية وهذا هو ما وصفه الباحثون باسم « البديل » أي ظهور كتاب لهم أسماء لامعة في نفس السوق ، ببضاعة جديدة تلفت النظر ولكنها لا تحمل نفس مواصفات البضاعة الأصلية . ذلك أن هؤلاء الكتاب الذين تصدروا الكتابة الإسلامية كان فهمهم للإسلام فهماً غريباً خالصاً ، فهو لديهم دين روحاني ، تمبدي ، لا صلة بالجمتمع ولا علاقة له بالسياسة أو الاقتصاد أو التربية ويصور العلامة « مالك بن نبي » هذا الهدف من خطة الاستعمار حين يقول : « عندما تظهر فكرة مجردة فإن مرادف الاستعمار ترصد ما قبل أن يدركها الغيب الذي يروى صاحبها أن ينشرها بينه ، فيبدأ الاستعمار بتوجيه مدفعيته إليها ، وبما أنه لا قدرة له على مجابهة الفكرة المجردة صراحة والقضاء عليها فإنه يوجه قذائفه نحو الكتاب لتصيب فكرته ، والاستعمار يحاول تجسيد الانظار المجردة حتى ينصب نقده على الشخص وحتى تصبح العلاقة عاطفية لاعتقالية . أو يعمل على طبع الدعوات بسرعة لإخراج مولود ضعيف يسهل قتله . أو لا يمثل الفكرة الأصلية ، أو إيجاد بديل سريع لكل فكرة شريفة ونحويل الرأي الأول بالثانية ، أو شن غارة على الفكرة وصاحبها وانها م صاحبتها من جهات ذات نفوذ . وإذا تبين له أن الفكرة التي أراد إقصائها قد بنيت بصورة فكرة مجردة استقرت في ضمير الشعب فإنه يتبع خططا أكثر دقة فهو يجتهد في استئصال القوى الواحية بأية طريقة ممكنة حتى لا تتعلق بفكرة مجردة ويحاول تعبيتها لفكرة متجمدة حيث تصبح أقرب مثالا ، لأنه يستطيع مقاومتها بوسائل الإغراء أو القوة وفي الوقت نفسه يحاول حربه ضد الفكرة المجردة بوسائل ملائمة مونة ، ويستعين بخريطة نفسية للبلاد المستعمرة ، ويهجر عليها التعديلات اللازمة كل يوم رجال متخصصون بذلك ، مكلفون برصد الأفكار - والاستعمار لا يكشف عن وجه القاب بل يظهر وكأنه بعيد عن المعركة في الوقت الذي يدبر ويشرف على كل صغيرة وكبيرة فيها . » وهذا يكشف بوضوح عن دورين مختلفين لرجل واحد ، كاتب يقول أن العلم هو الأساس للبحث في الأدب ، وأن الأدب الذي لا يخضع للعقل لا يمتد به ، يقول هذا عام ١٩٢٦ ولكنه لا يلبث عام ١٩٢٦ أن يقول : أنا أعلم أن قوماً سيضيعون بهذا الكتاب لأنهم محدثون بكبرون العقل ولا يتقنون إلا به ولا يطمنون إلا إليه ، وهم لذلك يضيعون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ويرضاها ، هؤلاء سيضيعون بهذا الكتاب بعض الشيء لأنهم سيقرءون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها في نفوس الناس ، وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها للعقل ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي ، فإن في قلوب الناس وشعورهم وهو أظفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وهنائها ما يجيب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها وأحب أن يعلم الناس أني وسمعت على نفسي في القصص ، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجده بأسا ، هذا التحول : يجب أن يكون موضع

التقدير في مخطط التغريب نفسه ، فإن الرجل الذي حمل على القرآن وشكك فيه وأطاع المرأة على النظر فيه بوصفه كتاب أدبي وبصرف النظر عن أي قداسة له ، وحقاق به الناس ، إنما يعود مرة أخرى ليعتدع البسطاء بالحديث عن السيرة ، ولكنه يقف عن هامش السيرة ويحول الاهتمام بالأساطير مما يدفع أكبر أصدقائه أهمية لأن ينذر بخطر هذا الاتجاه : يجب في رأي أن لا يتخذ ما اتصل (بسيرة النبي) مادة لأدب الأسطورة ، فالتبني وسهرته دهوة تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي فلفة من هذه الحياة ومن أعز فلفاتها عليها وأكبرها أثراً في توجيهها ، (وللاؤلف) يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الإسرائيليات إنما أريد بها إقامة أساطير مثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب وللتفكيك المستعدين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه . وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المسلمين الدينيين في مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام . هذا جانب من التحول الخطير : محاولة جديدة لخدمة أغراض التبشير بإذاعة الأساطير المتصلة بحياة النبي والتوسع فيها (بنص عبارة المؤلف) وإحلالها بديلاً للسيرة نفسها التي يستهدف المسلمون من إذاعتها الانتعاش بها في فهم أهداف الإسلام ومقاصده في بناء مجتمع كامل وفق النظام الذي أقام عليه محمد ﷺ المجتمع الأول . وهذا الأسلوب الإنشائي الموسيقي المتصل بالخيال إنما يهز نفوس البسطاء ويخدع عقولهم ويحدث فيهم لشوة د شعراء المقامى القصاصيين المتحدثين عن أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة ، وهو في الوقت نفسه ينشر في نفوس الناس الإعجاب بالكاتب الذي يتحدث عن الرسول ويعيد الثقة حوله . ولا يقف التحول عن هذا الحد . بل إن الكاتب نفسه لا يلبث أن ينقلب على الحرب السياسي الذي نشأ في أحضانه ويتحول إلى حزب الأغلبية الذي ظل يحاربه وله في الحديث عن رئيسه د سعد زغلول ، أبلغ عبارات السخرية والنقد كان يقولها في أوج شهرة هذا الزعيم السياسي ، ولكن لما إذا تحول الكاتب ؟ . من الحق أن يقال أنه تحول لكي يضمن استقراراً في أحضان الأغلبية ويرحف من جديد إلى أكبر منصب سياسي يحقق له تنفيذ خططاته الاستعمارية والتبشيرية وهو ما تحقق فعلاً بعد ذلك . الحديث هنا عن طه حسين . . هذا نموذج من تحول خطة التبشير إلى أعق في مجال الثقافة والتعليم والنفوذ السياسي القادر على إحداث أبعاد الآثار في المناهج الدراسية . كانت أبرز هذه الآثار : ما يتصل بالأدب العرب وتغليب الأدب اليوناني عليه بالعرض المقارن وإثارة الشبهات التي كانت قاصرة على الدراسات الجامعية إلى مناهج التعليم الثانوي . وقد أشار المستشرقون إلى أهمية هذا العمل بالنسبة لوسطائهم . إذ أشار جيب إلى أن هذا النفوذ في الدوائر الرسمية من شأنه أن يوطد المبادئ ، التي يدعو إليها هؤلاء وقد صور عباس حافظ ما أدخله (كتاب الجمل في تاريخ الأدب العربي) الذي وضع بإشراف الدكتور طه حسين إلى الأثر الخطير حين قال : وإن الكتاب قد يمرض في تاريخ الأدب العربي بلجة من القضايا والنظريات والتخريجات والآراء الخطيرة التي لم تثبت بعد ولم يستقر العالم الأدبي منها على أحكام حاسمة ، فالتفكير في العصر الجاهلي واستباق العصر للنز وأثر الحضارات الأجنبية في حضارة العرب قد أقيمت إلى النشوء طالب الثانوية كقضايا مفروغ منها وأحكام نهائية وهو منهج خطر على الناشئين ، مضلل للعقول الصغرة . ويضاف إلى هذا

ما أثار الباحثون من المقارنات التي أجريته بين الخطابة في الأدب العربي والخطابة اليونانية . وفيما يتصل بهذا التحول أن جميع القضايا التي أثارها التبشير كشبهات لم يلبث أن وجد كتاب يكتبون باللغة العربية قد حلوا لوائها : (أولاً) إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية ومفهوم الإسلام بحسبانه نظام مجتمع كانت تثيرها أقلام شبل شبل وجرسي زيدان . فأصبحت تثيرها أقلام مثل علي عبد الوازق وعمود عزى (ثانياً) إثارة الشبهات حول اللغة العربية والاهتمام بالعامية والدمج إليها بعد أن كان يحمل لوائها ولور وويلكوكس أصبح يحمر لوائها لطفى السيد وقاسم أمين . (ثالثاً) إثارة الشبهات حول الحديث النبوي وكانت من اتهامات المبشرين والمستشرقين أمثال برنجر وجولد زهر ، أصبحت من كتابات بعض المسلمين وكان هذا أخطر تحول في طريق التبشير إلى دعم حركة التغريب . وهناك تحول آخر فقد استطاع الاستعمار أن يحسب إلى صف الدراسات الإسلامية بعض من كانوا يناقضونها أولاً يتصلوهم بها كالعقاد واسماعيل مطهر وغيرهم ، وذلك في ظل التحدي الذي واجهه الغرب نتيجة لرحف الشيوعية فقد اتجه مؤلاء الباحثين إلى الكتابة عن الإسلام ، ليس تقديراً له ولكنه بحسبانه عاملاً مدافعاً لاخطار الشيوعية ، وهي كتابات لا تصل إلى جوهر الإسلام ومقاصده الأصلية وإنما تقتنى بأن تملأ شعارات الإسلام كعامل سياسي في مواجهة النفوذ الشيوعي . وقد يندفع هذا الاتجاه بعض البسطاء ويظنونهم تحولاً من الكتاب أو دفاعاً عن الإسلام ولكن حين تعمل النظرة إلى هذه الظاهرة يمكن وصفها بأنها : دحق يراد به باطل ،

الفصل الثالث

بعد الحرب العالمية الأولى

أخطر مرحلة في تاريخ التبشير

حققت الحرب العالمية الأولى نتائج هامة في مختلف التبشير فقد قامت الانتدابات البريطانية والفرنسية على معظم أجزاء البلاد العربية التي قسمته إلى أقطار يقع كل منها تحت نفوذ غربي مختلف (أولاً) مصر والسودان والعراق والأردن تحت النفوذ البريطاني (ثانياً) سوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب تحت النفوذ الفرنسي . أما فلسطين فقد قام فيها نظام انتداب بريطاني ومشروع إنشاء دولة يهودية صهيونية معاً وقد وجد التبشير في هذه الحقوات الجديدة مجالاً واسعاً للعمل ، إذ راحت الدول المنتدبة أعمال الارساليات وكانت حامية لها ، كما أتبع لهذه الإرساليات من النفوذ والخطر أمرين هاميين : (الأول) التنزلات الخاصة بالأرض وإقامة المؤسسات والإعانات والإعفاءات الجمركية (الثاني) سلطة الامتيازات الأجنبية في إطلاق الحرية لها في العمل دون أن يكون في مقدور الحكومات إلزامها بشيء أو الإشراف عليها أو محاسبتها . ولم يتوقف عمل التبشير عند مجال التعليم وحده بل شمل مجالات كثيرة واتخذ من المستشفيات سبواً خطيراً ، وبالرغم من تباين وجهات النظر السياسية بين البعثات التبشيرية ،

فقد كانت جميعها متفقة في الغاية ، وهي بث الروح الاستعمارية في الشرق ، وتفكيك المسلمين في دينهم ، واحتقار تاريخهم وتجهيد الغرب وحضارته ، وفي هذه المرحلة من خط المبعثرون بقوة في عدة مواقع : وركزوا على ، صر تركيزاً شديداً إلى الحد الذي كشف عن دخيلة عملهم وفضح مخططاتهم كله ، بل لقد تجرأ المبشر زوير فاقترح الأهر في خلال الدراسة ووزع منشوراته على الأساتذة والطلبة وتحدث معهم في جراحة ، كما عمد المبثرون إلى تنفيذ جرائم خطف الأطفال والأحداث وتعميدهم وإخضاعهم بالتبويب المخططيسي وأثبتت محاضر التحقيق التي أجريت أن موظفي الإدارة وقسم الأديان في محافظة مصر كانوا يماونون المبشرين في تسهيل إجراءات تنصير أي مسلم ويحولون بينه وبين أهل دينه ، بل بينه وبين أبيه وأمه ، غير أن هذا العمل قد فجر طائفة حية وتصدت صهيبتين كبيرتين في مصر هما السياسة والبلاغ لفضح هذه الأعمال والكشف عن أهدافها الأساسية . وكان الدكتور هيكل دور كبير في هذا العمل ولما ساعده أحمد نجيب في جريدة السياسة حتى عدت كتاباته هذه من علامات الطريق في دراسة مخطط التبشير فهو الذي قال صراحة أن هدف التبشير هو توهين الروح المعنوية في قلوب المسلمين من جميع طبقاتهم ، وقد فصل ذلك حين قال : إن إضعاف العقيدة في نفوس المؤمنين بها ، هي استمرار للنضال التاريخي القديم بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، حيث يتخذ اليوم أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والإغراء والوسائل الاقتصادية والاجتماعية ، ويعتقد خصوم الإسلام من الأحرار والسياسة أنهم قطعوا في سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها ، وقال : هذه هي الغاية التي تعمل لها الأمم الأوروبية وترصد لها الأموال الطائلة وتجهذ لها من الدعاة جيش ضخم في صور المعلمين والمبشرين والمبشرات والأحرار . على أن إضعاف العقيدة الإسلامية هي الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التي تنحل عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة أسير للغزو الفكري والديني . فإذا تم هذا الوهن المنهود في عقائد الشعوب الإسلامية استطاع الاستعمار الإجهاز على الفرائس وغاضت الخواص والعقائد القومية التي ما زالت تنكسر عليها جرار الاستعمار . ومن الأسف أن الشعوب الإسلامية لم تقطن حتى اليوم إلى هذه الحقيقة ولم تنتبه لفداحة الخطر ولم تفعل شيئاً لردده ، وإذا كان الإسلام ما يزال يناضل بقوة وصلابة فإنه إنما يرد جيوش الغزاة بفسوخ وقوة عقيدته لا بعمل أبنائه ولا بجهوده . وقد استطاعت الصحف في هذه المرحلة أن تحصل على إحصائية خطيرة تكشف عما يتفق في العام الواحد بالنسبة للإرساليات الإنجليزية والأيرلندية على النحو الآتي : (عام ١٩٣٢) ٣٨٨٨ مبشر تحت سلطتهم ٨١ مدرسة جامعة وكلية فيها ٧٩٩١ طالباً و ١١٣ مدرسة روضة أطفال بها ٣ ٤ و ٥٠٠ مستشفى و ١٠٢٤ صيدلية لها ٤ مليون من الزبائن ، تبلغ عدد إرساليات التبشير العامة ٣٨٣٨ درجة أولى و ٣٤٧١٩ درجة ثانية ، وجملة المبالغ التي أنفق في هذا العام خمسة ملايين جنيه . كما أشارت التقارير الواردة من جمعية التوراة ومركزها ١٤٦ شارع الملكة فيكتوريا في لندن : عن توسيع نطاق حركة التوزيع في اليابان والصين ومصر وأنه قد تم توزيع ١٥٠ نسخة في السودان الإنجليزي والعربي والحبشة وفلسطين وسوريا وقبرص بمصر . وذكر التقرير أن جمعية نشر التوراة البريطانية أنفقت عام ١٨٠٤ ووزعت حتى عام ١٨٩٩ ١٦٠ مليون نسخة له ٣٦٤ لغة

كما ظهر بوضوح الاهتمام البالغ بحماية معاهد التبشير كلما ورد ذكر الاتجاه إلى عقد معاهدة ، وبلغت نفقاتها السنوية ٢٣٠ ألف جنيه بين بريطانيا ومصر (هذه المعاهدة بدأت المفاوضات من أجلها منذ ١٩٢٠ وانتهت ١٩٢٦) ، قالت جريدة التيمس في ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٧ بمناسبة المفاوضات الجارية بين مصر وبريطانيا ، وإذا كان هناك شيء يخشى منه فهو خلو المعاهدة من نص يتعلق بحماية معاهد التبشير ولسكنها تعود فقط لمن النفوس إلى أن بريطانيا ستظل تحمي جميع معاهد وإرساليات التبشير . وأشارت التقارير في هذه الفترة إلى الدور الذي تلعبه أضخم مؤسسة لأعمال التبشير وهم : جمعية العبيبة المسيحية الدولية في مدينة نيويورك ، والتي تضم ٩ آلاف فرع في العالم ويبلغ جملة أعضائها مليوني عضو ولها فروع في مختلف العالم الإسلامي وقد رافق هذه الخطوات الضخمة ضربات قوية كانت بعيدة المدى . ففي السودان أغلقت المناطق الجنوبية في وجه التاجر المسلم وسمح فيها للبعثات التبشيرية وحدها بحرية الحركة . وفي تونس عقد المؤتمر الإخارستي الذي جمع مؤسسة الآباء البيض للبشرين وجرت محاولات تجنيس التونسيين بالجنسية الفرنسية ، وفي المغرب صدر الظهير البربري سنة ١٩٣٠ الذي فصل البربر المسلمين عن العرب ووضع لهم أنظمة خاصة في القضاء والتعليم مستمدة من قوانينهم العرفية القديمة . واستهدف استخراج القبائل البربرية من حظيرة الشريعة الإسلامية وإلغاء العلوم التي تعلم اللغة العربية في مناطق القبائل .

وفي مصر وعديد من بلاد الشرق اقتحم دعاة البهائية ، المجال وبشروا علناً وكتبوا في الصحف وأقاموا محافلهم ، وكذلك اندفع دعاة القاديانية ، في الهند الإسلامية وفي غيرها كما انطلق دعاة التبشير في مجال الجامعة والثقافة والصحافة وظهرت كتابات مستمدة من مؤلفات المبشرين أهمها : الدعاء الجاهل لطف حسين والإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق . ولقد كان من أحداث ما بعد الحرب العالمية الأولى وأخطارها إسقاط الخلافة . وقد وجدت هذه الخطوة تقديراً كبيراً في دوائر التبشير حتى إن زويمر في مؤتمر عام ١٩٢٤ الذي عقد في القدس أشار إليها إشارة التشفي وقال : « أصبحت الروح القومية قدحر روح الجامعة الإسلامية وتخل محلها ، وكان لإلغاء الخلافة تأثير عميق ، . وأشار إلى أنها أحدثت ما أسماه « انحلال الرابطة الإسلامية » ، أو « العروة الدينية في الإسلام » ، وبالجملة فقد رأى المبشرون أن الأحوال في العالم الإسلامي كله تقريباً قد أصبحت ملائمة لأعمال التبشير وأن العراقيل التي كانت تنشأ فيما مضى قد أزيلت تماماً ، . وبعض الحكومات الاستعمارية التي كانت فيما مضى مضادة للتبشير قد تغير حالها وباتت صديقة للتبشير وعضده القوي تمسده بالمدونة اللازمة للقيام بالأعمال الطيبة والاجتماعية التبشيرية الخاصة ، وأشار إلى أن « الدستور الجديد الذي أنشئ في مصر قد اشتمل على نصوص قاطعة تكفل الحرية الدينية » .

(أولاً) في مصر

ركز التبشير تركيزاً كبيراً على مصر بعد الحرب الأولى لأميرين : (الأول) أن مصر هي مركز النقل في العالم العربي كله وكل ما يثار فيها من تيارات إنما يكون عاملاً هاماً للتأثير على مختلف الأجزاء . (الثاني) أن مرحلة العمل الأولى في مصر قبل الحرب عن طريق الإرساليات التبشيرية الأولى قد

آتت أكلها وخاصة عن طريق الصحافة التي أبرزت ألمع نجومها من الصحفيين الغربي النزعة خريجي هذه الكليات من زيدان إلى صروف إلى فرح أنطون إلى مركيس إلى شبلي شيل بالإضافة إلى الصحفيين الذين عملوا في فرنسا وبريطانيا، وقد تركز العمل في هذه المرحلة على عدة مراكز هامة (١) الصحافة (٢) الجمعيات الأدبية (٣) الجامعة المصرية (٤) مدارس الإرساليات (٥) المدارس المصرية الخاصة لإبراهيم كرومر ودنلوب. وكان للمعاهدة اثران التي عقدت عام ١٩٢٩ أثرها الواضح حيث عقدت هذه المعاهدة بين الكرسي البابوي والحكومة الإيطالية التي حصلت بموجبها على تعويض ضخم وأعلن أن الجانب الأكبر منه سيوجه لدعم الحركة التبشيرية، فإنه لم يعض على ذلك عام وبضع عام حتى اجتاحت مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة عن طريق بعض المعاهد الكبرى للإرساليات وبعض مستشفياتهم، ولم تلبث الحركات العنيفة أن كشفت عن أحداث خطيرة تمثلت في إغراء بعض الشباب والفتيات المسلمين بالتنويم المغناطيسي وترك دينهم. وحلت الصحف المنحرفة من نفوذ العهد السياسي الحاكم حملات عاصفة على هذه الحركة، وكانت جريدتي البلاغ والسياسة هي أجراً هذه الصحف وكان الدكتور محمد حسين هيكل ورفيقه أحمد نجيب في جريدة السياسة من أعنف المدافعين والباحثين للظاهرة الخطيرة وتقديم إجابات صريحة عنها، كما تحدثت الصحف لفترة طويلة استمرت أعوام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ عن اتساع نشاط المبشرين الذي كان يشار إليه في بعض الصحف والمجلات وخاصة الإسلامية منها كالفتح والمنار لإشارات مريرة على فقرات متباعدة، وقد امتد هذا النشاط من القاهرة إلى بورسعيد إلى أسبوط، وتحدثت عن وسائل الإغراء التي يلجأ إليها المبشرون لحل السدج على ترك دينهم وإغراء الأطفال من أبناء الفقراء. ويقول هيكل: كنت من أشد الأعضاء تحمساً لمقاومة هذا التبشير اقتناعاً مني بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما في النفس من ثقة بدين الدولة، ولما تطوى عليه من قصد سياسي هو إضعاف معنويات هذا الشعب بإضعاف عقيدته، وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفها أن وجهني للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي يجب أن تقاوم بها، توجب أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثاً علمياً، كان هذا الحادث الذي روعت له مصر. حادث النشاط التبشيري، سبب متابعتي خلال أربع سنوات تمحيص حياة النبي العربي وتعاليمه. وفي خلال هذه الحركة اندفع المبشر زويمر فدخل الجامعة الأزهرية ووزع منشوراته بها، وتألفت في إثر ذلك جمعية الدفاع عن الإسلام من العلماء والكتاب، ووقفت الحكومة المؤيدة بالنفوذ الاستعماري في وجه هذه الجماعة التي كان يرأسها الشيخ المراغي. وكان من أثر الضربات الضخمة التي وجهت إلى الحركة التبشيرية السافرة أن اختفت هذه الحركة من المسرح وخلعت أثوابها واستترت وراء أخرى أشد خطراً بحيث لم يعد الكشف عليها ميسوراً، ورافقت هذه الحركة في مصر حركات مماثلة في السودان ونولس والمغرب أهمها حركة الظهير البربري في المغرب وحركة التجنيس في تونس وعقد المؤتمر التبشيري الأكبر في القدس وفي تونس، وهاجمت الصحف الأجنبية في مصر حركة المقاومة للتبشير، بل إن بعض الصحف اليومية العربية، والمجلات التي يرأس تحريرها طه حسين وتوفيق دياب وعلى عبد الرازق قد هونت من شأن هذا الخطر، وصادرت الحكومة هيئة الدفاع عن الإسلام ومنعتها من الحركة. وفي خلال هذه المرحلة تبين أن عدد المبشرين في مصر يبلغ ٣٩٢ مبشراً وأن الحكومة تمنح لمبشرات التبشير تسهيلات

جركية في حدود ما لا يقل عن مائة ألف جنيه . وقد أهدت جمعية الدفاع عن الإسلام النصح إلى المصريين لسحب أبنائهم من المعاهد التبشيرية ، وذهبت إلى إنشاء معاهد ومدارس لفقراء المسلمين وكشفت عن الفارق بين دهوة كل صاحب دين إلى دينه وبين الإكراه ، وأعلن الإمام المراغي أن المعارض عليه هو طرق التبشير التي يبرأ منها العقل والعلم وقهراً منها الفضيلة .

٢ - في السودان

يرجع بدء العمل التبشيري في السودان إلى عام ١٦٩٨ عندما وصل إليها الأب زامبيري دي برفندت بقصد التبشير فيه وفي الحبشة ، وأن أول بعثة تبشيرية أرسلت إلى السودان كانت عام ١٨٤٦ وعلى رأسها القس (أورفالد) وقد بقيت بالعمل حتى عهد الثورة المهدية . وفي عام ١٨٧٧ جاهر (غوردون) الذي تولى منصب حاكم السودان قبل عام ١٨١٩ بضرورة تنصير السودان . وما أن استردت بريطانيا السودان بعد القضاء على حكومة التعايش حتى نشطت حركة التبشير وكانت خطتها الثأر لغوردون الذي قتل عام ١٨٨٥ والانتقام له وتحقيق هدفه ، وقد تمهدت الإدارة الإنجليزية في مصر والسودان بالتجميع المادي والأدبي وفي عام ١٨٩٩ أرسلت الكنيسة الإنجليكانية بانجلترا الوصل الأول من المبشرين الثابطين لها فأنشأوا مراكز في الخرطوم وأم درمان . وفي عام ١٩٠٥ دعا اللورد كرومر إلى إنشاء مراكز للتبشير في مديريات جنوب السودان للعمل بين قبائل الدنكا والقبائل الوثنية ، وبذا بدأت أضخم خطوة في مجال التبشير . فتأسست مقرات في مديريات جوبا وبالي وأرتاي ولوى وبامبيو ، وقد قامت بالعمل في السودان بمئات نمساوية وإنجليزية وأمريكية وأسترالية لما مراكز في مختلف المناطق الهامة ، وكتب دزويري على إثر زيارته للسودان : إن من أدلة نشاط المبشرين أنه في منطقة آل دوليب التي يشغلون فيها منذ ربع قرن تمكنوا من جمع ١٩٠٠ من الأهالي في مدارس الآحاد ونصروا منهم بضع مئات ، وفي أم درمان تعقد الجمعية الأمريكية اجتماعات تبشيرية في سرادقات تقام على بعض أمتار من قبر المهدي ، وهناك من يقومون بالدعوة ويوزعون المذهورات ، وقال إن هناك مائة وعشرون تلميذاً مسلماً يلقنون قصص النصرانية وكتب الأسقف جوين في المجلة المكنسية التبشيرية وأن من دواعي الغبطة أنه قد تم فصل مديريات جنوب السودان ليكون أسقفية جديدة تتحد مع جزء من أوغندة ، ومتى تم ذلك فسيصبح أول رئيس لها دكنش ، الذي قضى أكثر من خمسة وعشرون عاماً في التبشير في أوغندة ، ولا بد أن يؤول الأمر إلى تدعيم هذه المبادرات بخطط ومشروعات جديدة ليقوم التبشير في كل هذه المناطق ، وقد تم الاتفاق بين مصلحة الممارف السودانية والإرساليات على أن يترك لها مسألة التعاميم في الجنوب مقابل إعانة تدفع لها . وقد عمدت حكومة الاحتلال ، في السودان ورغبة في دهم خطط التبشير إلى تحريم سفر أهل الشمال إلى الجنوب ووضع قيود التنقل داخل الجنوب إلا بتصريح كتاب ومنع التجار المقيمين من أهل الشمال من التحدث مع أهل الجنوب باللغة العربية وللأوامم بتعلم لغة أهل الجنوب . وقد ركز المبشرون جهوداً ضخمة على جنوب السودان حيث يكثر الوثنيون ، ولما لم يقبل الوثنيون دعوتهم كان عمل المبشرين قاصراً على منع انتشار الإسلام ، وقد أشار ولسون كاتس في كتابه السودان المظفر أنه ما من قائد أم رائد أرسله مصر إلى أعالي النيل في القرن التاسع عشر

بإبعاد من الدول إلا كاهن من رواد التبشير على وجه من الوجوه ، وقال إن الحكومات (المحتة) في السودان والأقطار الإفريقية تيسر نشر التبشير في بلاد الوثنيين فتتبع لهم السفر إلى أقصى الجهات وتحرمه على الجلالة والفقهاء وأصحاب الخوات . وقد جعل الاستعمار من منطقة الجنوب مباحاً للتبشير والنفوذ الأوروبي دون الإسلامى ، وفيها نشروا اللغة الإنجليزى دون العربية ، وعملوا بذلك على إيقاف تيار الإسلام صوب الجنوب والحد من زحف السيل العربى المتدفق بقفل الجنوب وفصله عن الشمال وبذر بذور الشقاق والتفرقة بين العرب ولأخوانهم أهل الجنوب . ومن الخطوات الهامة في تاريخ التبشير في السودان ، تلك الحركة الضخمة التي قامت عام ١٩٢٩ حين وجه حاكم السودان العام (وهو بريطاني) وشاركه ستة عشر قائداً النداء بمناسبة ذكرى غوردون إلى توسيع نطاق العمل التبشيري وفتح باب الاكتتاب لهذا الغرض لجمع أكثر من ٦٠ ألف جنيه ، ودعا إلى إنشاء مراكز التبشير في بور سودان وغوردون وروادى مدني ، وقالت جريدة التيمس الشهيرة في هذه المناسبة : إن « غوردون ، بذل حياته في سبيل التبشير ولا بد أن تكون ذكراه حافزاً إلى العمل ، والمعروف أن غوردون كان يعتبر رسالته لإدخال هذه المناطق كلها في النفوذ الغربى من طريق التبشير . وقدرت ميزانية الإرساليات في هذه الفترة بمبلغ ٢١٠ ألف جنيه . بينما كان المعهد الدينى الإسلامى في أم درمان يصرف له ٢١ ألف جنيه . وقد نشرت الصحف في (٩ يوليو ١٩٢٣) تقريراً عن أعمال المبشرين في السودان ذكرت فيه أنه يجري الحيلولة دون المسلمين ومخالطة أهل الجنوب أو التجول في أراضهم أو الظهور أمامهم بأى مظهر من المظاهر الدينية ، كما منع توظيف السودانيين في بلاد الوثنيين . وقد توغل الإنجليز في هذا السبيل وأرسلوا إخصائين في اللغات لدرس لغة هؤلاء الأتوج لجمعها لغة رسمية في بلادهم وذلك لمقاومة اللغة العربية والحيلولة دون انتشارها لأنها لغة المسلمين ، وإذا وصلت باخرة أو سفينة إلى بلاد الأتوج منع المسلمون من أن يقيموا الصلاة خارج السفينة بحيث يراهم هؤلاء الأتوج . وقد جربوا وكانت تجربة فاسية عليهم أن المسلم إذا ظهر مصلياً لا يلبث أن يحتلطوا به ويسألون عن عمله وطبقوا بقلدهونه وانتشر الأمر بينهم . ونشرت جريدة السودان ٢٥ / ١٢ / ١٩٢٦ أن المبشرين يتمتعون في جنوب السودان بحماية الحكومة السودانية ولهم كامل السلطة في إبعاد من يرون إبعاداً من التجار والموظفين غير المرغوب فيهم من جهة المبشرين ، وأن المسلمين هناك يلقون عنتاً وتضييقاً في سبيل إقامة شعائر دينهم . وما يذكر أن الحاكم العام في السودان حاول أن يدافع عن هذه الإجراءات فادعى أن ما فرض في جنوب السودان من القيود على صفار التجار وأمثالهم إنما قصد به منع استغلال الأهالى الذين هم في أبسط حالات الفطرة استغلالاً غير مشروع . ومن يتابع تقرير اللورد كرومر عن التبشير يعرف إلى أى حد وجه العميد البريطانى أنظار الحركة التبشيرية إلى العمل في جنوب السودان حيث الميدان خصيب وبكر ، وقد نفذت الحكومات السودانية خطته بدقة فأوجدت فاصلاً بين الشمال والجنوب وأطلقت على تلك الأجراء ، المناطق المقفلة ، وحالت بين المسلمين الشماليين وبين التحرك في الجنوب واستقدموا هذه المناطق جيوشاً من المبشرين ، وكانوا يأخذون الأطفال الجنوبيين إلى مدارسهم منذ نعومة أظفارهم حتى المرحلة المتوسطة عملاً بخطةهم التي تهدف إلى إشراب هؤلاء الأطفال دهرتهم

في وقت مبكر ، وكانت وزادة المعارف السودانية تقوم بدفع ٩٨ ٪ من نفقات مدارس التبشير دون أن تشرف عليها . ولما استقل السودا أحس المبشرون بأن عملهم أصبح مضرراً للمخاطر ولذلك فقد عمدوا إلى حياكة المؤامرات وتشجيع السكان على الثورة والتمرد ، ما دفع الحكومة السودانية إلى إقصاء بعضهم إلى خارج الحدود ، وثار الفاتيكان واتهمت الحكومة بأنها اضطهدت الدعوة . وقد كشفت السودان عن التفرقة بين المسيحية كدين هو موضع احترام الحكومات الإسلامية وبين المبشرين كطلائع الاستعمار وخدام لمطامعهم . والمعروف أن جمعيات التبشير في جنوب السودان كانت قد باغت ... جمعية لها قروها المثبتة في جميع نواحي الجنوب يعيش القوامون عليها في بحبوحة العيش في الغابات وغيرها ولديهم وسائل التبريد والتدفئة والمواصلات ، وقد خلقوا جيلاً جديداً مثقفاً ثقافة استعمارية جعلته متمصباً ضد الإسلام واللغة العربية ودفعته إلى كراهية لإخوانهم في الشمال ، ويصور الأستاذ على السيد جعفر عمل المبشرين في مدينة (وار) عاصمة بحر الغزال حيث النفوذ الضخم الواسع للإرساليات التبشيرية فيقول : ومن المؤلف أن ترى الأطفال في حوزة المبشرين كأن لا صلة لهم بأهل أو أقارب ، ولقد هالني أن أرى هناك في مركزهم على التيل قرب الحدود الأوغندية كثيراً من الأطفال يفترقون وينلانون مع المبشرين تحت ظلال الأشجار ، فهم مدد متجدد تحت أيدي صنائع الاستعمار ورسله ، وبما شاهدته طائفة من النساء والبنات العاريات تلقنهن التراثيم نصف عمياء بلهجتين المتوطنة على حين تقدم لهم الطعام فتاة مراقة تؤدي عملها عارية كما ولدها أمها ، والهدف هو خلق جيل منزول يخشى كل ما فيه رائحة الشمالين ... ويقول الكاتب : إن الجنوب بهذه الحالة سيكون نقطة الضعف التي يستغلها المستعمرون في إثارة الفتن والفلاقل بل طلب الانفصال عن الشمال .

(٤) في شمال أفريقيا

بدأت حركة التبشير في المغرب (مراکش) بالدعوة إلى الفصل بين العرب والبربر وهما مسلمين وذلك بإنشاء أنظمة خاصة ومعاهد ومحاكم تفصلهم عن الشريعة الإسلامية ومماهد القرآن مع إلغاء تعليم اللغة العربية في المناطق البربرية . وكان أخطر ما واجه الحركة التبشيرية إلى شمال أفريقيا عقد المؤتمر الأنجلو إسباني التبشيري في تونس الذي عقد في قرطاجنة عام ١٩٣١ وقال عنه أسقف قرطاجنة آن ، حلة صليبية وقال المؤتمر إن الدافع لهم على عقد هذا المؤتمر هو تحقيق الفكرة التي كانت تدور بين جنوبي لويس التاسع والتي حملها بعده الكردينال لافيغري ، وليست هذه الفكرة سوى ما كان يقصده لويس التاسع من حملة الصليبية على هذه الديار ، وهو إرجاعها إلى الصليب الذي أجبرت على قبوله بمسح الرومانيين ، كما أوصى المؤتمر فرنسا بتعميم التبشير ، وذلك لتزجيد عقيدة شمال أفريقيا . وفي تونس أيضاً ظهرت حركة نهضة كان بالجنسية الفرنسية وتقدم الإغراءات والتهديدات لتحقيق ذلك . الفرض وكان الهدف أن لا يحتكم السكان إلى شريعة الإسلام بل يحتملون إلى القوانين المدني الفرنسي وإدماج أهل تونس في الجنسية الفرنسية وسلبهم من هويتهم ودينهم الإسلامي وإقامة الحواجز والفراقات بينهم وبين جامعتهم الوطنية والدينية .

وقد استعانوا في ذلك ببعض العلماء الموالين للنفوذ الأجنبي وفتحوا لهم الطريق إلى المناصب الكبرى حتى أن أحدهم أصدر فتوى تبيح للمسلم التجسس بالجنسية الفرنسية، وفي الجزائر احتفل المبشرون عام ١٩٣٠ بمرور مائة سنة على قرار النفوذ الغربي المسيحي وكان (لافيغري) عميد التبشير قد أنشأ (جماعة الآباء البيض عام ١٨٦٩) عندما اختار أن يجعل من مدينة بسكرة في منتصف الطريق بين جبال الأوراس وبحيرات شط الغرب مقراً لإقامة زوايا للتبشير ليس المبشرون فيها لباس رواد الصحراء الأبيض وقد قاوم المسلمون هذه الحركات بقوة وقامت جمعية العلماء الجزائريين برئاسة الإمام عبد الرحمن ابن بريس كرد فعل لهذه الحركات التي لم تستطع تحويل المسلمين عن دينهم وتنبه المسلمون إلى التعديلات التي كشفت عن أهداف المبشرين من أمثال قول الأب مبيز أن حركة التبشير حرب صليبية هادئة بدأها المبشرون في القرن السابع عشر ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا فقد كشف كتاب للمسلمين ومفكرهم من هدف التبشير في مختلف أجزاء العالم الإسلامي وفي المغرب بالذات للماتل بها وجود الأمة بالقضاء على مقوماتها ومشخصاتها من لغة وأدب ودين وذلك تنفيذ مخطط مهدف إلى إزالة سلطان المسلمين من هذه الأرض . وفي نفس الوقت استطاعت الطرق الصوفية في المغرب والسوسية بالذات اقتحام المناطق الوثنية وإدخال أهلها في الإسلام بالرغم من نفوذ الهيئات التبشيرية وملايينهم الكثيرة. وما تزال الإرساليات التبشيرية تسيطر بنفوذها على مجال التعليم في تونس والجزائر والمغرب على نحو ما يزال بالغ الخطورة ، بل إن فرنسا قد زادت نفوذها في مجال التعليم التبشيري خلال معركة التحرير التي دامت سبع سنوات بين الجزائر وفرنسا وأنشأت في خلال سنوات قليلة عدداً من هذه المدارس يوازي ما أنشأته في تاريخ احتلالها كله . وما تزال عملية التعريب عاجزة عن التأثير في نفوذ التعليم التبشيري والأجنبي في تونس والجزائر ومراكش .

(٥) التبشير في قلب أفريقيا

زحف الاستعمار منذ منتصف القرن الخامس عشر إلى أفريقيا وكان أوائل الرواد الغربيين مبشرين من أمثال ولفسون وستايلي وغيرهم من الذين فتحوا الطريق أمام هذه البعثات ، وكانوا يعملون عن خطط تقدمهم إلى قلب أفريقيا باسم التبشير وبرون أن كلمة الفتح إنما تعني خضوع أفريقيا وأهلها للإرساليات ومعاهاها وأهدافها ، وقد كانت شرق أفريقيا وغربها ووسطها مجالاً للصراع والمنافسة لمختلف البعثات التبشيرية الكاثوليكية واليسوعية والبروتستانتية السويدية منها والإنجليز والالمانية ، وتمتد الإرساليات البريطانية أضخم هذه البعثات وما يتفقه الإنجليز يقدر بثلاث نفقات الإرساليات ويصف رولاند أوليفر في كتابه بالعوامل التبشيرية في شرق أفريقيا ، رائد التبشير ، ولفنجستون ، الذي تخطى الكتب المدرسية الخاضعة لنفوذ الاستعمار في العالم الإسلامي حين تحاول أن تصوره مكتشفاً من الحق أن يقال أن هذه المناطق التي رادها لم تكن مجهولة وقد وردت في مختلف كتب التاريخ العربي ، يقول رولاند أوليفر ، وقد أعد ولفنجستون نفسه منذ سنوات حياته الأولى حينما كان يعمل في جمعية التبشير اللندنية للاطلاع بأعباء التبشير الخاصة بأفريقية الاستوائية وبالعامل بين شعوب فطرية لم يكن قد

سكنها الأوروبيون . وفي عام ١٦٥٩ كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال في التجارة أكثر من الاستثمار ، وبما أنه كان أولاً وقبل كل شيء مبشراً مسيحياً فلقد اختار كعضو في الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمر فيه إلى داخل البلاد . لقد أراد ولفنجستون أن يكتشف طرقاً في أفريقيا للبشرين لا المدنية ، وبالجملة فقد كان ولفنجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلاته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية ويقول ولفنجستون في أحد تقاريره (إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري ، وهذه حقيقة كلية إذ أنه من المحال أن تكتشف أرضاً جديدة دون أن ينه ذلك فينا شوق دهور أهليها إلى الإنجيل) ثم قدم إلى أفريقيا بعد ذلك ستالي الذي كان لكتابته الموجة إلى كليات أوكسفورد وكامبرج ودبلن والجمعيات التبشيرية في أوروبا سنة ١٨٧٨ أثر كبير في تحريك هذه الهيئات إلى العمل في أفريقيا ، ولم يلبث حتى عقد في ١٨٨٥ مؤتمر في برلين لتقسيم أفريقيا بدعوة من البرلوس بسمارك ، وفي هذا المؤتمر تمهدت الدول بحماية إرساليات التبشيرية المتجهة إلى أفريقيا والساعية إلى تهذيب السودا ولكن حركة التوسع الإسلامي استطاعت أن تغذ إلى قلب أفريقيا منذ ١٨٥٠ - ١٩٠١ على أيدي مشايخ الطرق الصوفية وزاحمت البعثات التبشيرية وكسبت منها أرضاً كثيرة بالرغم من ضعف إمكانياتها المادية ونفوذها السياسي مما أزهج هذه البعثات ودفعها إلى تعزيز اعتماداتها وإلى تحريض الحكومات المختلفة على إيقاف خطوات التاجر المسلم والشيخ المسلم والحيلولة بينه وبين التحرك في قلب أفريقيا . وكانت أبرز الطرق العاملة في هذا المجال (السنوسية والمهدوية والنادرية والشافعية والتيهانية) . وما يذكر في هذا الصدد أن حركة التبشير قد اهتمت اهتماماً كبيراً باحتلال الجيش الفرنسي لمقاطعة (واداي) الأفريقية ، ونوه بذلك مؤتمر ١٩١١ في لاسكنو (الهند الإسلامية) وقال إنه أهم حادث سياسي في هذا العصر ، لأن واداي كانت أهم مركز في إفريقية الاتجار بالرقيق وانتشار الإسلام ، وأن احتلال واداي سيقول من نفوذ مشايخ الزوايا السنوسية بحيث لا يستطيعون الوقوف في طريق تقديم الاستثمار . وقد وافق التبشير نفوذ الاستثمار ووجد الطريق أمامه مهيئاً للعمل ، غير أن المبشرين لم يجدوا أمامهم نفوساً مستعدة لتقبل دعوتهم بالرغم من المال والنفوذ ، وقد أشاروا إلى ذلك في مختلف مؤتمراتهم ، وقال زويمر وهو يستعرض حالة الاستثمار في أفريقيا عام ١٩١١ : أن الموقف صار حرجاً لسرعة تقدم الإسلام من مركزه الواسع في الشمال ومماقله التي في السواحل إلى الجنوب والغرب الأفريقي ، وأشار إلى أن المبشرين قد أخطأوا في تقدير واقعهم السابقة ، لأنه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التي كانوا يحسبونها خالية من الأديان المعروفة قد ظهر أنها إسلامية محضة أو أنها على أهبة الدخول في الإسلام . . وقد تناولت لجان المؤتمر التبشيري البحث في الأمور التي تعهد السبيل لبعثات التبشير ، ودعت جمعيات التبشير إلى توسيع نطاق التعليم الذي يشرف المبشرون عليه . . وقد اعترف رولف إيتاليايدر ، في كتابه (أفريقيا الجديدة) بخطأ السياسة التي اتبعتها الدول الأوروبية في فرض التبشير على هذه المناطق وقال : لقد اعتدنا على اعتبار ديننا هو المثل الأعلى للقيم الروحية دون أن نحاول تفهم ما في الأديان الأخرى من فضائل ، وسافنا الغيور إلى محاولة فرض المسيحية على كثير من الشعوب الإفريقية المسئلة عن طريق سياسة تبشيرية حمقاء ، كان التبشير

يسير فيها مع الاستعمار في ركاب واحد ، لقد تدخل المبشرون في السياسة بشكل مباشر وأصبحت مهمتهم هي تخدير الأفريقيين واتخاذ لشر الدين ذريعة لمد السيطرة الاستعمارية عليهم وإبقائهم خدماً إن لم نقل عبيداً للرجل الأبيض ، أترانا نعجب إذا رأينا الأفريقيين يسعون في أول عهدهم بالاستقلال إلى طرد هؤلاء المبشرين الذين لا يمثلون إلا ظلم الاستعمار وطفقائه ، أما المسيحية فإنها منهم بريئة . . . وتدل التقارير الواردة في السنوات الأخيرة على أن في أفريقيا اليوم ميدان واسع للتبشير المصريح الواضح ، غير أن الإسلام ما زال بالرغم من ذلك النفوذ الخطير الإرساليات التبشيرية يجذب الوثنيين إليه لأسباب مختلفة أهمها بساطته وبعمقه من التقيد ودعوته إلى الحرية ، وما زالت الإرساليات التبشيرية منقسمة على نفسها تتصارع وتنافس ، بما يقدمه ثقة من يدعونه إليهم ، فضلاً عن ارتباط البعثات التبشيرية بالنفوذ الاستعماري الذي ينفر منه الوطنيون ومحاربونه .

٦ - في الهند

ركز النفوذ الاستعماري البريطاني على الهند وأفسح للبعثات التبشيرية فيها منطلقاً واسعاً ، فقد وفد المبشرون إلى الهند قبل وصول بريطانيها ، وفي ظل النفوذ البريطاني المتزايد أنشأ المبشرون في مختلف بلاد الهند المدارس والكليات والمستشفيات وأسسوا مراكز للتبشير وترجوا التوراة إلى معظم لغات الهند ووزعوا منها الملايين من النسخ . وقد نجحوا في اجتذاب بعض الهندوس والمبشرين الذين ركز المبشرون عليهم ، وفشلت محاولات التبشير بين المسلمين ولكنها استطاعت أن تؤثر في مفاهيم التعليم وبرامجه ، وأن تخفق بعض المدافعين عن مفاهيم الغرب المضللة والمنحرفة والتي تحاول أن تفرس في الأجيال المختلفة أن الإسلام دين عبادة فقط لا دين حكم وحياة ونظام مجتمع ، ومن هنا برزت الدهوات التي نادى بإلغاء الجهاد الإسلامي أو تأويله . وقد أشارت تقارير المبشرين في مؤتمراتهم المختلفة إلى الجهود الضخمة التي توالى بذلها ، وكيف أنهم فتحوا في دلهي ، بابل الجدل في مسائل التوحيد والتثليث وكيف عارضهم المسلمون وكيف نشر واحدداً من الكتب التي يجادلون بها تأييد دعواهم ومنها ميزان الحق . طريق الحياة . مفتاح الأسرار ، ولم يتوقف دعاة التبشير عن إثارة الجادلات الشديدة مع علماء المسلمين في دلهي وأكرا وليكنو كما تناول المبشرون بالدراسة الدور الذي قامت به حركة الإصلاح في الهند والدور الذي قام به د أحمد خان ، وما تبذله كلية عليكرة وجمعية العلماء في لكنو . وقد أشار المرحوم العلامة عبد الميزين النعماني ، إلى التبشير في الهند في تقريره عن المسلمين الذي كتبه عقب زيارته لها عام ١٩٣٦ فقال إن عدد الإرساليات التبشيرية بها بلغ ٢٧٧ إرسالية بالإضافة إلى ٥٠ كلية و ٢١٨ مدرسة ثانوية و ٧٨ مدرسة اجتماعية و ٦٥ مدرسة زراعية و ١١ مدرسة للبشرين و ١٠ مدارس لتخريج معلمين و ١٧٠ صحيفة وجريدة ونشرة ، وقال إن النفقات السنوية للإرساليات بلغت ٢٢٧٢٢١ مليون روبية . والمعروف أن المسلمين واجهوا حركة التبشير بالمقاومة الشديدة فأكثر من المدارس القرآنية وإن كان الاستعمار البريطاني مساعدة منه للبشرين عمد إلى التضييق على هذه المدارس ، كما واجه المسلمون الحركة التي توعمها (مالويه - طائفي - سرديانك)

بالمعارضة الشديدة وردوا بعنف على الحملات التي وجهت إلى دينهم والطعون التي تناولت الرسول الكريم .
وكان للشهيد القاضي عبد الرشيد دوراً ضخماً في الانتقام من رجال جمعية سانغين التي كانت تعمل لمندم
الإسلام تحت ستار الثقافة والتبشير .

٧ - في آسيا الإسلامية

بدأت البعثات التبشيرية تقتحم آسيا الإسلامية قبل أوائل القرن التاسع عشر ، حيث نفذت إلى
الهند وفارس والآناسول والآستانة التي صارت منذ ١٩٤٦ مركزاً عاماً آمناً لأعمال التبشرين ، وفي
اللايو توزعت البعثات التبشيرية وشغلت مختلف الأنحاء . وأولت هذه البعثات اهتمامها للساحل الشرقي
من الجزيرة إلى جاوه وسومطرا وفي مختلف المدن حيث بدأت بعثات التبشير ١٨١٢ انتشر المبشرون
والأطباء التابعون لهم وركزت اهتمامها للرجل الشرقي من الجزيرة وإلى جاوه وسومطرا .

٨ - في الجزيرة العربية

وأولت حركة التبشير الجزيرة العربية باهتمامها الواسع جرياً على ما قاله وايم جيفوود بالكراف
« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاء العرب حينئذ زى العرب يتدرج في سبيل الحضارة التي لم
يحمده عنها إلا محمداً وكتابه » . ولذلك فقد ركز التبشير على الجزيرة العربية وطمع في الوصول إلى
مختلف أجزائها ، وقد استغل وجوده في البحرين وفي عدن لهذا الغرض ، كما وصلت بعثاته إلى البصرة
والشيخ عثمان ، وقد اتهم المبشرون في جزيرة العرب مراكر تمهد لهم سبيل التوغل في داخل الجزيرة
وتعمل كل الإرساليات على اختلاف نواحيها وأشكالها ومعاهدها الطبية والتعليمية في سبيل الهدف المحدد
وقد عمد المبشرون إلى الإكبات في هذه المناطق ومعهم الفانوس السحري يجمعون الناس كل مساء حول
قصص تبشيرية مستمدة من التوراة ، وتضم صوراً لعقمة أوربا وارتقائها وانحطاط الممالك الإسلامية
فضلاً عن توزيع المؤلفات التبشيرية مجاً في كل . وقد أذاعت بعثات التبشير نداء حاراً عام ١٩٢٧
إلى مراكزها في أوربا تدعوم إلى إرسال مبشرين إلى بلاد العرب : ويقول هذا النداء الذي أعلنه الفس
باركلين « إن بلاد العرب تبلغ مساحتها مليون ميل مربع لم يدخلها التبشير بعد ، وفيها من السكان أربع
ملايين إلى اثني عشر مليوناً ، وبلاد العرب هي مهد الإسلام وضيعة وفيها مكة التي هي القبلة للملايين
المسلمين يتوجهون نحوها كل صلاة ، إن الحاجة شديدة الآن إلى مائة مبشر يذهبون إلى بلاد العرب
المهمة التي لم تبلغها الدعوة بعد ، هناك نحو مائة قبيلة في بلاد العرب يمكن تبليغهم الدعوة وهم يسكنون
بلاداً مساحتها تلك مساحة الهند وهم يعيشون في الخيام ، اذهب بنفسك إلى بلاد العرب ، أرسل غيرك
أيضاً ، احمل الكتاب إلى بلاد العرب ، ادع العرب وبلاد العرب إلى ديارك »

والجمعية العالمية الصليبية للتبشير في العالم وبلاد العرب ،

١٩ أليكندر رود - أروثوود (لندن)

٩ - في إيران

منذ وقت بعيد عمد التبشير إلى العمل في المملكة الفارسية (إيران) وكان التعليم التبشيري هو أبرز هذه المعالم فقد أنشأت الإرساليات مدارسها عام ١٨٨٢ في مختلف مدن إيران : طهران . ميناء بهلوي كرماشاه ، تبريز ، همدان وقد تم لهم شراء أراضى شاسعة خارج مدينة طهران جرى العمل فيها على إنشاء كلية ضخمة افتتحت عام ١٩٢٨ ودخلها ثمانية طالب وقد عمد المبشرون منذ عام ١٨٩٢ إلى إنشاء جمعيات وإرساليات ومستشفيات واستطاعوا عن طريقها توسيع نطاق عملهم في الطبقات الفقيرة وإثارة للمناقشات الدينية .

١٠ - في العراق

تنافست بعثات التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية منذ وقت بعيد ، فهدأه في الربع الأول من القرن التاسع عشر بدأت الحركة التبشيرية تعمل من جديد ، وكان بطل العمل د جروفر ، أول مبشر يصل العراق ١٨٢٩ وقد عمد إلى ما عهد إليه ، زويمر ، في البحرين من بعد بفتح مدرسة ومكتبة ، ثم توالت البعثات البريطانية وكانت بريطانية تهدف من هذا التركيز التبشيري في هذه المرحلة إلى إقامة جهة مواجهة الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا والسودان وشبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي . وكان هدفها قطع الصلة بين العراقيين والمصريين وكان للعمل التبشيري في العراق دوره في تقويض هذه الوحدة وهدمها . واستغلت هذه البعثات جماعات النساطرة الإقطاع بينهم وبين المسلمين والعرب وإيجاد فتن ومذابح دموية على نفس النمط الذي اتخذته النفوذ الإستعماري في لبنان بين الهدوز والموارنة عام ١٨٦٠ وبه استطاع أن يدعم وجوده في المشرق كله ومعنى هذا أن الإنجليز استخدموا التبشير في هذه الفترة كقاعدة لمقاومة التوسع للصليبي في شبه الجزيرة العربية وفي العمل أيضاً على تهريبه .

١١ - في عدن

مأن استولى الإنجليز عليها حتى اتخذ فيها المبشرون مراكز يرسلون منها نشراتهم التبشيرية إلى قلب بلاد العرب .

١٢ - في أندونيسيا

هوا التبشير البلاد منذ أربعمئة عام تقريباً وأطاعتهم حكومة هولندا المسيطرة إذ ذاك على مقادير البلاد وأفسحت لهم المجال لنشر التعاليم عن طريق إرسالياتهم ، وإن لم تتوقف أعمال التبشير الأخرى عن طريق المستشفيات والانتقاض على العلامات والشباب وقد واجه المسلمون أعمال المبشرين بإقامة الجمعيات الوطنية وإنهاء المدارس الأهلية والرد على الشبهات في مجتمعاتهم وصحفهم بالرغم من نفوذ

الاستعمار العاصف المؤبد للتبشير وقد أشار إلى ذلك الدكتور سنوك هرجرنجه زعيم التبشير الذي أقام
سبعة عشر عاماً في الهند الشرقية مستشاراً لحكومة هولندا حين قال في تقريره : المبشرون لا يزالوا
يتوقعون إضرام كل الأديان إليهم . ولا تتحقق أحلامهم فيما يتعلق بالإسلام سيظل ديننا شيطانياً قوياً ،
والمسلمون لا يقصدون أن يغيروا دينهم وقد احتاطوا أعظم احتياط لهذا الأمر الذي أدركه كل المبشرين
الذين عملوا في أرض الإسلام ، ففي الهند الشرقية المولندية ، حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقاً
تمام الالتصاق بالمؤسسات الإسلامية لا يستطيع المبشر الذي أن يربح تابعين لدينه . ولا أنه قد بدأ
أن الإسلام يسقط أمام النصرانية ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الغربي المسيحي ،
وهو يرى أن النصرانية شيء مغشى وأن تقديمه بها هو خطوة إلى الوراء . زد على ذلك أن الإسلام
يربح تابعين له من الوثنيين قالى يصير مسلماً لا يطلب منه شيء كثير ، إذ لا يوجد تقديس ولا طقوس
دينية ولا تعليم طويل ، فكل ما يطلب منه أن يعترف بالله ، وعندما يصير مسلماً يتغير مركزه الاجتماعي
ولكنه إذا نصر فإيه يبقى دون غيره ويظل المرسل الذي غرباً متجنباً عنه . ولكن هذه التصريحات
الجزئية من المبشر هرجرنجه ، إنما تعنى القامس وسائل أخرى لتبشير المسلمين وتغيير مفاهيمهم وقيمهم
الأساسية ، وقد ركزت هذه الإرساليات على التعليم وحقق في مجاله نتائج خطيرة كان أبرزها ظهور
زعامات دعت إلى الفصل بين الإسلام والمجتمع وآمنت بمخططات الاستعمار الذي يقول بأن الإسلام دين
عبادة ولا صلة له بالمجتمع ، وما يزال مخططات التبشير تركز على أندونيسيا وتعنى في عملها بكل أسلوب
واليوم تكشف مجلة تايم الأمريكية عن أن أندونيسيا هي مسرح لا كبر حركة تبشيرية في العصر
لحديث ففي غضون الأشهر العشر الأخيرة التي أعقبت حركة أندونيسيا الأخيرة نشطت أعمال المبشرين
حتى بلغ الذين تغلوا عن دينهم الإسلام ٢٥٠ ألف نسمة ، وقد كشفت التقارير المختلفة أن هناك تحالفاً
لمحاربة الإسلام في أندونيسيا بين الإلحاد والاستعمار ، حيث يجري العمل لهدم الإسلام في نفوس
المسلمين وهو غرض مشترك في تحالف القوى للمعادية للإسلام وهم يرون أن تردى المسلمين إلى الإلحاد أو
المادية هو كسب للعمل التبشيري أيضاً ومن هنا فهم يساندون الدعوات الإلحادية المادية في هذا الغرض
ويقول أحد الباحثين الأندونيسيين : « إننا لم نكد نشعر بفرحة انتصارنا على المادية الملعونة والتخلص
من كابوسها حتى نشطت الطوائف والإرساليات التبشيرية على اختلاف مذاهبها لمحاربة الإسلام ونشر
الفساد بين المسلمين وراعى ذلك نشاط مريب من الدول التي تقاوم نفوذها وبرز تحالف بين القوتين
حيث وجهت الإرساليات نداء إلى الدول بطلب المساعدات فوصلت الإعانات السخية بالمرآكب
البحرية وطائرات المايكروتر المتعدداً على تأمين راسخ للمبشرين في قواهم ونشاطهم بين مختلف
المناطق كخدمة المطابع والنشرات والمكتب وغيرها ، وقررت ألمانيا الغربية التبرع ببناء أربعين
مستشفى بأندونيسيا تدار من قبل المؤسسات التبشيرية ، وقد تمكنوا بواسطة هذه المساعدات من تحقيق
نتائج خطيرة لم يسبق لها مثيل . وقد استطاعت الإرساليات أن تستميل أكثر من ربع مليون مسلم
كاد الجوع والعمرى والمرضى أن يفنكهم . وقد تمكنت المادية الملعونة مع التبشير في تضيق الخناق على
كثير من المناطق الإسلامية لتزيد في إفقارهم وإرغامهم على الالتجاء إليهم والاستعانة بهم واتباعهم ،

ذلك إلى جانب نشر وسائل الفساد والانهلال الخلقى فى الشباب كمرحلة لاستعدادهم إلى شباكههم ومصادمهم ودعا الكتائب المسلمين إلى العمل على توحيد الهيئات الإسلامية والجمعيات الإسلامية فى العالم والعمل على قيام جامعة إسلامية عميد الأمة الإسلامية كيانها وقوتها .

الفصل الرابع

مؤتمرات التبشير

عقدت حركة التبشير فى خلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية عدداً من المؤتمرات الكبرى العالمية التى أشارت إليها الصحف ونشرت التقارير التى تضمنت ما دار فيها من دراسات وأبحاث وعن أهم هذه المؤتمرات :

- (١) مؤتمر ١٩٠٦ فى القاهرة عقد فى منزل أحد عربى فى باب اللوق . (٢) مؤتمر ١٩١٠ فى ادلبرج (ألمانيا) . (٣) مؤتمر ١٩١١ فى بيروت . (٤) مؤتمر ١٩١٣ فى ليكنو (الهند)
- (٥) مؤتمرات ١٩٢٤ فى القدس ، وبرمانا (لبنان) وقسطنطينية فى الجزائر وهران فى مصر .
- (٦) مؤتمر ١٩٢٨ فى القدس . (٧) مؤتمر ١٩٣١ فى تونس (المؤتمر الأندلسى) .
- (٨) مؤتمر ١٩٢٥ فى القدس .

وفى مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ الذى عميد المبشرين زويمر رئيس إرسالية التبشير العربية فى البحرين تقريراً شافياً يمكن الرجوع إليه فى كتاب (القارة على العالم الإسلامى) الذى أصدره السيد عب الدين الخطيب عام ١٨٣١ ونشر فى المؤيد ١٩١١ وهذا هو المؤتمر الأول الذى عقد بناء على اقتراح مقدم من زويمر وقد افتتح المؤتمر فى أبريل ١٩٠٦ فى القاهرة فى منزل أحد عربى فى باب اللوق وحضره مندوبون من إرساليات التبشير فى الهند وسوريا والبلاد العثمانية وفارس ، وقد عقدت المؤتمرات التبشيرية فى مناطق حساسة من العالم الإسلامى كالقاهرة والقدس (التي عقدت بها ثلاث مؤتمرات) وكذلك فى ليكنو معقل الثقافة الإسلامية فى الهند ، كما كان مؤتمر تونس من أخطر هذه المؤتمرات وقد تناولت هذه المؤتمرات بالدرس حالة المسلمين وإحصائيات عن تعدادهم وانتشارهم وعن حالة العالم الإسلامى السياسية وخاصة فى العالم العربى وأفريقية وتضمنت توصيات وتوجيهات وقد رأس هذه المؤتمرات عديد من كبار الساسة وحضرها كثير من المبشرين أمثال موريسون وجويين . وموط وعدد من المستشرقين والكتاب الغربيين ذوى الأسماء الامة وقد بلغ عدد الهيئات التى اشتركت فى كل مؤتمر أكثر من مائة من أربعين دولة . وقد وقعت فى هذه المؤتمرات حوادث عامة تدل على مدى خطورتها . فى تونس اقتحم الآباء البيض المدينة فى استعراض أعمار مشاعر المسلمين . وقد

دفعت خزينة تونس التابعة للنفوذ الاستعماري الفرنسي مليون فرنك مساهمة منها في تكاليف المؤتمر كما وضعت الأسيرة في المساجد ليرقد عليها الرهبان الذين جاءوا من أطراف الأرض وقد واجه المسلمون والعرب هذه المؤتمرات بالاعتراض والاحتجاج وحملت الصحف بوقايات الرفض وخاصة في مؤتمر القدس سنة ١٩٢٨ . وقد كان للمؤتمرات التي عقدت بعد الحرب العالمية أهمية خاصة فقد استعرضت الوسائل التي تحقق غاياتها في ظل حكومات الانتداب بعد سقوط الدولة العثمانية ، أما مؤتمر سنة ١٩٢٩ فقد كانت له أهمية خاصة إذ أنه جاء بعد توقيع معاهدة لندن بين الدولة الإيطالية والفاتيكان (٧٥٠ مليون أيرة) وما أعلن عن دعم هيئات التبشير بقدر كبير من المبالغ التي حصل عليها الفاتيكان وصدر في نفس الوقت (الظهير البربري) في المغرب وهو المرسوم الخاص بإخراج القبايل البربرية من -ظهرة الشريعة الإسلامية وردها إلى ماضي العرف البربري ، وقد كانت هذه المؤتمرات تحاول أن تكشف الطريق للهيئات التبشيرية مرحلة بعد مرحلة ، حتى أنهم أطلقوا على حملتهم وفتح العالم الإسلامي ، في وجه الثقافة الغربية المسيحية بحسبان أنه أصبح طالما مرفوقاً مغلوباً على أمره تسيطر عليه -حكومات الانتداب وحكومات لها ولاية للنفوذ الاستعماري وفي ظل الاحتلال الفرنسي والبريطاني والهندي لأغلب أجزاء العالم الإسلامي . وقد أولت هذه المؤتمرات دراسات واسعة لعمليها في المجالات الثلاث :

(١) المدرسة (٢) المستشفى (٣) الصحيفة والكتاب .

وكانت دائماً تغير أساليبها بما يحقق الغاية وفق ما تنسفر هذه المرحلة السابقة وكانت هذه المؤتمرات تذكر دائماً بما في أيديها من قوى : (أولاً) معاهدة فرساي التي نصت في المادة ٢٨ على جواز التبشير في سورية . (ثانياً) الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية ومصر . (ثالثاً) الوضع الخاص الذي فرضه النفوذ الأجنبي على لبنان منذ عام ١٨٦٠ وقد وصلت هذه المؤتمرات إلى خطط محددة أهمها : (أولاً) أن التعليم هو أنجح الخطط في تحقيق الأهداف وذلك بوضع الشباب المسلم العربي تحت تأثير التعليم (الغربي المسيحي) وأن يشمل هذا التأثير أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في دولهم ، كما أولت هذه المؤتمرات اهتمامها بالتوصيات إليها من وزارات المستعمرات في المغرب ، كما تضمنت التوصيات إلى الدول المستعمرة ومن أم هذه الرغبات ما طلبته إحدى المؤتمرات من إغلاق البلاد الأفريقية أمام التاجر للمسلم والعالم المسلم المتنقل في البلاد أو أداء الصلاة الإسلامية أمام الوثنيين . كما اهتمت بدراسة المطبوعات اللازمة للتبشير ، وترجمات التوراة وتوزيعها بين المسلمين وإنشاء المعاهد اللازمة لتخريج المبشرين والإضافات اللازمة للمناهج التي تدرس في المعاهد والجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية ووضع الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة في مواجهة حركتهم كما عمدت هذه المؤتمرات إلى دعم المخططات الأخرى الفرعية وفي مقدمتها :

- (١) دعوات الفرعونية في مصر والبربرية في المغرب والبحر المتوسط في سوريا والفينيقية في لبنان
- (٢) تنشيط دعوات القاديانية والبهائية .
- (٣) الانتفاع بنشاط المحافل الماسونية .

٤ - الإنتفاع بالصحف والأندية والجمعيات وفي هذه المؤتمرات دائماً دعوة إلى العصر والتحمل والمثابرة على العمل مهما بدت النتائج غير مشجعة وقد أجمعت معظم التقارير التي درست في هذه المؤتمرات على صعوبة تحويل المسلم من معتقدة إلى دين آخر، وأن معظم ما حققته بعثات التبشير إنما حدث اعتماداً على ضعف بعض المسلمين وليس على قوة المبشرين وقد أولت هذه المؤتمرات اهتمامها بالخطوات التي تحققت بالدعوة إلى العالمية التي قام بها ولكوكس، وبالأراء التي عرضها طه حسين في كتابه الشعر الجاهل والمأخوذة من آراء المبشر جورج سال وبما تحقق من استعلاء النظرة الإقليمية على النظرة الإسلامية فأصبح المسلم في مصر مصرياً قبل أن يكون مسلماً وفي تركيا تركيا قبل أن يكون مسلماً، قد أشار (زويمر) في كتابه (الإسلام . ماضيه . حاضره . مستقبله) إلى أهمية الإنتفاع بالدعوة إلى القومية والإقليمية . كما اهتمت المؤتمرات بنهضة الإسلام عن طريق إصلاح الطرق الصوفية وتحديد مناهج الإسلام وعن اتساع انتشار الإسلام في أفريقيا ودعا إلى اتخاذ الخطوات في سبيل إفساد هذه الخطط الإصلاحية . وركزت هذه المؤتمرات على أهمية العمل للحيلولة دون حدوث «وحدة» بين المسلمين أو بين العرب واتخاذ الوسائل حتى يبقى المسلمون متفرقين وحتى لا يكون لهم وزن ولا تأثير وعندها أن تجمع العرب يساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية ولذلك فإن على المؤسسات التبشيرية أن تكسر شوكة هذه الحركة . كما دعت هذه المؤتمرات في توصياتها إلى الاهتمام بالأزهر وقد قرر المبشرون في أحد هذه المؤتمرات أن الأزهر يعتبر أم عاتق في وجه التبشير وبالتالي في وجه الاستعمار في مصر والعالم الإسلامي ولذلك فلا بد من إيجاد مؤسسة علمية ثابتة يشنون منها أفكارهم ويطبعون جيلاً من المسلمين بطابعهم حتى يقف هذا الجيل أمام الثقافة الإسلامية ويشكك فيها وقد تحقق ذلك بإنشاء بعض الجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية وقد شملت تقارير مؤتمرات التبشير خطراً عاماً أهمها (١) التصور بأن اقتباس المسلمين للأوضاع الأوروبية الجديدة سيجهلهم إلى الانطباع بالطابع الغربي المسيحي، من حيث أن الثقافة الغربية لها طابعها المسيحي، وأن توسع هذا الجانب سيضيّق الجانب الإسلامي، وفي هذا يقول زويمر «أن المسلمون يقتبسون من حيث لا يشعرون شطراً من المدينة النصرانية ويدخلونه في ارتقايتهم الاجتماعية، ويترتب على هذا أن التحول سيدخل الإسلام في شكل جديد من الحياة والعقيدة، ويرى : أن طلب العلوم يكون الآن «عقلية جديدة» في المسلمين، من مظاهرها قيام الثورة ضد كل ما هو مأثور قديم، ويرتبون على ذلك أن يرداد المسلمون قابلية للإلحاد، ويقول : إن هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو قبول الفكر الغربي كصديق دول (٢) الاهتمام بعوامل نمو الإسلام ومحاولة إيقافها : ويرد هذا بالنص : «إن الوقوف على أسباب نمو الإسلام يمهّد للحصول على وسائل توقيف نمائه» كما ركزت تقارير التبشير على أن إلغاء الخلافة كان له أثر عميق ليس في تركيا بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي قوامه «انحلال الرابطة الاجتماعية في الإسلام» (٣) ركز المبشرون على ما أسموه «الانقلاب النسائي» ومن ثماره المدول عن الزواج الباكر والتوسع في حرية المرأة بحيث صار في وسعها حضور الحفلات (٤) الاهتمام بالدعوات الإقليمية وقال عنها أنها أخذت تدهر الوحدة الإسلامية (٥) التركيز على كل ما يؤدي

إلى تعدد وجهات النظر وبما يحول دون قيام وحدة فكرية بين المسلمين وتشير التقارير إلى الخلاف بين السنة والشيعة والأتراك والهند والفرس والعرب وإذا كانت تقارير المبشرين قد هككت هذه المحاولات فإننا نستطيع أن نقول الآن أنها جميعها باءت بالفشل، وأن المسلمين أصبحوا على وعي بحقيقة الإسلام وفهمهم الصحيح له اليوم من أنه دين ونظام حياة، وأنه أصلح الأنظمة لقيام مجتمعاتهم بعد أن فشلت الأنظمة الأخرى في بلادها ولم تحقق لأهلها ما كانوا يتطلعون إليه، وقد أصبحوا استطاعة المسلمين اليوم التفرقة بين العلم والثقافة وبين الحضارة والثقافة وقد جرت أفلام كتابهم في السنوات الأخيرة بتصوير الفوارق والعلاقات بما يدحض ما ذهب إليه زويمر وطه حسين وأحمد أغايف وما كل يستهدف النفوذ الاستعماري من أن دخول الأفكار الغربية يؤدي إلى القضاء على مفهوم الإسلام ومقوماته الأساسية، فالمسلم الآن يأخذ تجارب أوروبا وعلومها ولكنه لا ينفصل عن الإسلام، وأصبح المسلمون الآن يأخذون تجارب أوروبا وعلومها ولكنهم لا ينفصلون عن الإسلام، وأصبح المسلمون الآن يجارون الحضارة مع الاحتفاظ بمبادئ القرآن وتعاليمه وأن القصور في هذا المجال لا يرجع إلى أنهم لا يريدونه بل لأن قوى النفوذ الأجنبي والتغريب ما تزال تحاول بينهم وبين ذلك. والتشريع الإسلامي قد شهدت له محافل القانون العالمي جميعاً واعترفت باستقلاله واكتماله وإيجابيته وصلاحيته الإنسانية كلها. ووحدة المسلمين اليوم تسير في طريق معنى، ولعل أكبر ما حققته أنها كشفت خدعة المستعمر ومؤمراته في تأريخ نار الخلاف بين المسلمين وإثارة المذابح والآراء القديمة لتفريق وحدتهم، لقد حدث تقارب كبير بين السنة والشيعة وبين العرب والترك والفرس والهنود في هشرات من المؤتمرات الإسلامية الكبرى ومتحقق خطوات أخرى أكثر صلابة مما يقضى على آمال النفوذ الاستعماري في استدامة تسلطه. وتعود اليوم مناهج الدراسة في مختلف بلاد العالم الإسلامي إلى مادة الدين بعد أن انتزعها منها زعماء التبشير والاستعمار وهملوا بأنهم كونوا أجيالاً مجردة من إيمانها، وسوف لا يقف أمرها عند هذا الحد بل أنها سوف تجد نفسها مضطرة إزاء هذا الطعنف الاستعماري الهائل إلى التماس مفهوم التربية الإسلامية في بناء شبابها وفتياتها ولم تعد الدهوات الإقليمية اليوم قادرة على تحقيق أهداف التبشير والاستعمار منها فقد انضح أن الفراهة عرب والبربر عرب والفينيقيون عرب هذا من ناحية، وبدأت وحدة الفكر، تكون الأساس، لأي وحدة سياسية واقتصادية ووحدة الفكر عند العرب مستمدة من ثقافتهم ذات الجذور الإسلامية بحسبان أن الفكر الإسلامي هو القاسم المشترك الأعظم لثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية، وأن الثقافات الدينية والفلسفات المختلفة قد انصهرت فيه فهو أساساً فكر الفرق كاه، أقول هذا واستشهد في هذا بأراء غير المسلمين قبل أن استشهد بأراء المسلمين أنفسهم.

الفصل الخامس

أخطار تحول في تاريخ التبشير

قال الدكتور زويمر سنة ١٩١٠ في مؤتمر التبشير العالمي :

لقد جربت الدعوة إلى النصرانية في أنحاء الكرة من الوطن الإسلامي وأن تجاري تخولني أن أعلن بينكم على رؤوس الأشهاد أن الطريقة التي سرنا عليها إلى الآن لا تصلنا إلى الغاية التي نرشدنا، فقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة وألفنا ما استطعنا أن نؤلف وخطبنا ما شاء الله أن نخطب ومع ذلك فإننا لم ننفل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بنى دينه الجديد على أساس الهوى أو تصابياً سافلاً لم يكن داخل في دينه من قبل حتى نعمة قد خرج عنه بعد ذلك، ولا محل لديننا في قلبه حتى نقول أنه دخل فيه ومع ذلك فالذين تنصروا لو يبعوا بالمزاد لا يساوون ثم أخذتهم فالتدنى نحاوله من قبل المسلمين إلى النصرانية هو اللعب أشبه منه بالجهد فلتكن عندنا الهجاعة السكافية لإعلان أن هذه المحاولة قد فشلت وأفلست . وعندئذ يجب علينا قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام من نفوسهم حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النصرانية في نفوسهم أو في نفوس من يتربون على أيديهم . إن عملية الهدم أصل من عملية البناء في كل شيء . إلا في موضوعنا هذا ، لأن هدم الإسلام في نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم وهي خطة مخالفة لما نهدف إليه لأنها خطة إلحاد وإنكار للأديان جميعاً ولكن لا سبيل إلى تخليص المسلمين من الإسلام غير هذا السبيل وقال الدكتور زويمر في مؤتمر سنة ١٩٢٧ : أن التبشير قد وصل إلى أسمى غاية في مهاجمة الإسلام وأدى المهمة إلى أكملها وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية ليس عمل التبشير إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ، ليكونوا مسيحيين ، لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً . والتجارب دللتنا ودلت رجال السياسة المسيحيين على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التي نرمى إليها هي إخراج المسلمين من الإسلام فقط ليسكون إما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلماً أي لا تكون له عقيدة يدين بها ويسترشد ضميره بهمتها ، وعندها لا يكون للمسلم من الإسلام إلا الاسم ، عندها لا يكون مسيحياً ولا يهودياً ، بل ملحداً لا يؤمن إلا بالمادة أو مضطرباً يحقر الإسلام والمسلمين ، لقد قضينا على برامج التعليم في الأفطار الإسلامية فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ، ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التي تخلق فيهما العقيدة والوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق الواقع أن القضاء على الإسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة التبشير وقد جنيينا منه أعظم الثمرات المرجوة .

أكبر خطوة للتبشير في العصر الحديث (معاهدة لوران)

غير أن أكبر خطوة حقيقية في سبيل اتساع نطاق التبشير بعد الحرب العالمية الأولى تفسر ذلك الدهم المادى الخطير الذى واجهته إرساليات التبشير المختلفة في العالم الإسلامى وارتفاع المد التبشيري وبلوغه الذروة إنما ترجع إلى معاهدة لوران ، الذى عقدتها الحكومة الإيطالية مع الفاتيكان . والمعروف أن خطوات التبشير في العالم الإسلامى قد تلاحقت منذ مطلع القرن الثامن عشر غير أن خطواتها الضخمة قد تمت في فترة ما بين الحربين ، هذه الفترة التى يطلق عليها فترة انضاج ، الثمار التى سيكون لها الصدارة في مجالات القيادات السياسية والثقافية في العالم الإسلامى كله ، ولذلك فقد حرص الاستعمار أن يبقى في هذه المرحلة حارساً لهذه المؤسسات ومدعماً لها حتى تتم مهمتها وتركز أنفادها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاءها عن قواعدنا . أما معاهدة لوران ، التى عقدت بين الفاتيكان والدولة الإيطالية فقد حققت أن تستولى الفاتيكان بمقتضاها من الحكومة الإيطالية على ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية كتعويض عن حقوقها المالية التى توقفت منذ عام ١٨٧١ عندما وقع الخلاف بينهما وكذلك على ربح قدره خمسة في المائة لقرض إسمى قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الإيطالية . وقد صرح السكردينال جيسبارى كبير البطارقة أن الفاتيكان تعتزم أن تستخدم القسم الأكبر من هذا المال في تقوية نفوذ الكنيسة المعنوى وبسط الدهوة الكاثوليكية وتقوية البعثات التبشيرية في المشرق وأفريقيا وقد أولت الصحف اهتماماً كبيراً بعقد هذه المعاهدة في ١٠ فبراير ١٩٢٩ فقالت أنها تحمل مشكلة دولية لبشع مدى ثلاثى قرن تفصل رجال الدين ورجال السياسة ، فضلاً عن كونها تنظم علائق الكنيسة والدولة على قواعد جديدة تعيد إلى الكنيسة الرومانية دولتها السياسية القديمة وتعيد إليها شيئاً من سلطانها الزمنى ، وقالت مجلة الرابطة الشرقية : إن تقوية البعثات التبشيرية في المشرق وأفريقيا في مقدمة المسائل التى تعمل الفاتيكان على تنفيذها ، إذن فلن نضى شهور قلل حتى نرى غزوة جديدة للكنيسة الرومانية تنفذ بالدهوة النصرانية إلى الأمم الآسيوية والأفريقية ، وحتى نرى طائفة جديدة من الجمعيات التبشيرية تقوم في هذه الأمم تحت ستارها المهود وهو حجاب الأعمال الخيرية من حيث التعليم والثقافة وإنهاء المسكفيات ، ونرى الحكومة الفرنسية تبذل مجهوداً خطراً لتقوية البعثات التبشيرية فنذ أيام صادق مجلس النواب الفرنسى على التعديل الجديد الذى أدخل في قانون القروض المالية بالاعتراف بالبعثات الدينية خارج فرنسا وتنظيم ملكيتها ومعاونتها المالية لتستطيع القيام بمهمتها ومعروف أن فرنسا كانت قد أنكرت صفة البعثات الدينية منذ ١٩٠١ واستبدلتها ببعثات مدنية ، ولكنها تعود اليوم فتعترف بطائفة من الجمعيات الدينية يعينها القانون الجديد وهى تسعة طوائف كبيرة منها اثنتان للراهبات وسبعة للرهبان وهى تقوم بمجهودها التبشيرية في الأغلب في أفريقيا وبلاذ المشرق وخصوصاً مرا كش ودهر وفلسطين وسوريا والصين واليابان ومنها طائفة الفرنسيسكان الشهيرة وطائفة القلب المقدس وغيرها وهى تعمل لغايتها في مصر جهاراً بين جدران مدارسها ومعاهدها المختلفة المنتشرة في أقاصى البلاد . ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية تعترف بهذه الجمعيات فيما يتعلق بعملها خارج فرنسا فقط ولا تسمح لها بمزاولة دهرتها في فرنسا ذاتها لأنها لا تسلم بنظام التعليم الدينية

وهذا ما يصرح به التقرير الذي وضعتة اللجنة المالية لمجلس النواب ، فقد ورد فيه ، أن الجهود التبشيرية التي تبذلها فرنسا في الشرق وأفريقيا قد اضمحلت كثيراً وأن البعثات أخفقت في مهمتها لأنها لا تضم سوى عشرة آلاف طالب وطالبة ، بينما تضم مدارس البعثات الدينية في الشرق ٣٠٠ ألف وفي أفريقيا وحدها ٢٠٠ ألف وقال المسيو هيرير مقرر اللجنة في خطابه أمام مجلس النواب .. « إن الجمعيات الدينية قد أدت إلى الحضارة والتعليم ونشرت اللغة الفرنسية والروح الفرنسية من الخدمات مالا ينكره كل من يعرف أحوال البلاد التي تعمل فيها ، والواقع أننا - وهذه الجمعيات الدينية تعمل بيننا وتحت سمعنا وأبصارنا - نعرف ما هي الجهود والخدمات التي تصاغ دائماً في أبواب الألفاظ الخلابة كالمدنية والثقافة والتربية وأمثالها ، أجل نعرف أن هذه الألفاظ يقصد بها جميعاً كلمة واحدة هي النصرانية ، فهي في نظر الداعين إلى بثها في الشرق علم كل رقي ومدنية . هذا ولم ننس بعد أمر المؤتمر التبشيري الذي عقد منذ أشهر قليلة في بيت المقدس لتنظيم وسائل الدعوة إلى النصرانية والجهود التي تنفق لنشرها في آسيا وأوروبا لتبسط بذلك روحاً جديدة في الجمعيات والبعثات الدينية التي تعمل في مختلف الأقطار لهذه الغاية حيث تنظم الأمم الغربية هذه الحركات والجهود جهاراً بما لها من سلطان سياسي في الشرق وفي الأمم الإسلامية وتشهدا الأمم الإسلامية وتشهد نشاطها وأثارها جامدة ، فإذا ما ارتفعت صرخة في مجتمع إسلامي لمقاومتها وفضح أعمالها انكسرت في الحال ووصحت بالجهل والتعصب ، إن على الأمم الشرقية وحدها واجب التأهب لمقاومة هذه الغزوة الجديدة محافظة على تراثها الديني وإحباط ما يريد التبشير من مشاريع لهم عقائدها وتقاليدها الإسلامية ، اهـ . وقد كشفت هذه التعليقات عن أهمية العمل الذي بدأ بحيث لم يمض أكثر من ثلاث سنوات حتى رأينا في القاهرة أخطر عمل تبشيري هو المسلمين في العالم الإسلامي كله وقد بلغ من أهمية هذه المعاهدة أن وصفها الأمير شكيب أرسلان بأنها من أعظم الحوادث التاريخية التي سجلها القلم في هذا العصر . وقد استتبعت ذلك أن أعلن القناصل إنشاء معهد خاص لدراسة الفقه الإسلامي والعقيدة الإسلامية وذلك حتى يتمكن المبشرون من مهاجمة الإسلام في بلاده كما نشرت الصحف أن جمعية المبشرين العامة عقدت اجتماعها السنوي في مدينة بلفاست وقالت المس سميث : « إن معظم آمالنا ستتمحور في مصر الحديثة » وقال وزير خارجية فرنسا وهو يقدم ميزانية الجمعيات الدينية في البرلمان « لأنه يعلق على صرف هذه الاعتمادات آمالاً كبرى وأن العمل الذي يقوم به المبشرون ليس دينياً محضاً وإنما هي وسائل نشيطة لنهر الدعاية الفرنسية في أنحاء العالم »

الباب الثاني

أهداف التبشير ومخططاته

الفصل الأول : مخططات التبشير - الفصل الثاني : وسائل التبشير وأظلمته

الفصل الثالث : عملاء التبشير وخلفائهم - الفصل الرابع : الصحافة التبشيرية

الفصل الخامس : منهج التبشير

الفصل الأول

أهداف التبشير ومخططاته

السؤال الأول الذي يراجمنا ونحن ندرس مخطط التبشير وغايته هو : ما هو هدف التبشير أساساً ، الحق : أن خطة الاستعمار الأساسية في غزوه للعالم الإسلامي والاستيلاء عليه إنما تستهدف أساساً تثبيت هذا الوجود وبقائه في الصورة التي تضمن للنفوذ الأجنبي موارده وأسواقه وخاماته . ومن ثم فإن صورة هذا الوجود الاستعماري يمكن أن تتطور وتتشكل على النحو الذي يحقق بقاءها واستمرارها في جو من الطمأنينة والتقبل . ولذلك فإن الصورة الأولى صور الاستعمار العسكري والسياسي المسيطر عن طريق الاحتلال والجيوش والأساطيل ونفوذ الممثلين والمندوبين الساميين إنما كانت تمثل في نظر الاستعمار مرحلة إعداد وتجهيز الأقطار المحتلة حتى تصبح في البوابة التي تجعلها خاضعة إلى أبعد مدى . وكانت هذه المرحلة في الأغلب هي مرحلة الاحتلال الذي انتهى في أوائل الحرب العالمية الثانية وما بعدها عن عشرات من الأقطار والبلاد . هذا الاحتلال لم ينته بصورة الأولى في الحق إلا بعد أن أتم رسالته كالة ، ربما يظن البعض أن الاحتلال حين انتهى قد انتمت آثاره وانطوت صفحته ، وإن مرحلة الاستقلال قد فتحت صفحة جديدة مختلفة عن مرحلة الاحتلال ، وفي هذا قصور في الرؤيا . ذلك أن مرحلة الاحتلال كانت قد رسمت لها خطة تتم في مرحلة لا تقل عن عشرين عاماً وربما زادت عن ذلك ففي مصر استمرت مرحلة الحماية أكثر من أربعين عاماً . واستمرت مرحلة الاحتلال بعدها ثلاثون عاماً وفي لبنان استمرت مرحلة النفوذ الاستعماري من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٩١٨ أي أن مرحلة التجهيز للاستعمار باقت ٥٨ عاماً وهي المرحلة التي تقدمت فيها قوى التبشير وسيطرت وتوات أعمالها القمعية حتى سيطر الاحتلال الفرنسي عام ١٩١٨ واستمر حتى ١٩٤٨ وفي الجزائر استمر الاحتلال الفرنسي ١٨٣٠ إلى ١٩٥٤ ، والمعروف أن النفوذ الأجنبي قد انطلق للعمل في مراحله السابقة للاحتلال عن طريق تومنين استطلاعيين كبيرين هما قوة التجار والمرايين وشركات الاختكار وقوة التبشير المتمثلة في الإرساليات والمدارس والجامعات والمعاهد والمستشفيات والكتيب والصحف والذرائع ، وكانت

قوة التبشير تعرف طريقها وعمليها أساساً ، فإذا كانت قوة التجار والمرايين وشركات الاحتكار تعمل للاستيلاء على الاقتصاد والازوة القومية فإن قوة التبشير والإرساليات كانت تعمل للسيطرة على ما هو أخطر من ذلك : السيطرة على العقل البشري وإعدادة لتقبل النفوذ الاستعماري والفرحيب به والتعاون معه بل الدعوة عليه وتمجيده والإعجاب بأمله وتاريخهم ودورهم في تحضير الشعوب وتمدين الأمم وفي نفس الوقت الانتقاص من شأن أهمهم المتأخرة وتاريخها ودينها وثقافتها وتراثها . تلك خطة التبشير الطليعية الكبرى أمام النفوذ الاستعماري ، والعامل الكبير في سبيل تحويل الاستعمار العسكري السياسي القابض على الأمور بسلطة الأجانب من خبراء وقناصل ومستشارين ومسلحين ومبشرين إلى نفوذ مستقبل ، وذلك بتسليمه إلى أيدي الوطنيين أنفسهم ليدافعوا عن بقائه بمفاهيمه ويربطوا وجودهم به ويكثروا أحرص عليه من الاستعمار نفسه : تلك هي خطة التحول الخطيرة التي يسمى إليها الاستعمار عن طريق التبشير والتي نفذها بدقة في خلال مرحلتين التمهيد للاحتلال ومرحلة الاحتلال نفسه ويمكن القول دون تحفظ أن النفوذ الاستعماري العسكري والسياسي لم ينسحب من أي وحدة من وحدات العالم الإسلامي إلا بعد تأكد أنه قد ترك ركائزه وأعد هذه المدرسة المؤمنة به ، الدائرة في فلكه ، المتقبلة له تقبلاً نفسياً وعقلياً ، هذه المرحلة هي مرحلة تقبل الاستعمار والتحرك في فلكه ، والعمل من خلال دائرة الصفاء ، دون القدرة على الخروج منها إلى دائرة اليقظة الإسلامية المرننة لقد قامت في مختلف هذه الوحدات الإسلامية حركات يقظة إسلامية وطنية ، قوامها القيم الأساسية للفكر الإسلامي متصلة بالخطوات المتوالية من المصلحين والمجددين ودعاة التحرر والمقاومة ، ولكن الاستعمار استطاع أن يبرجد عن طريق التبشير دائرة أخرى تستمد وجودها منه ، وتستعمل بنفوذها على دائرة اليقظة الإسلامية ، وهي في الأغلب من ثمار الإرساليات الأجنبية ومن الذين كوثتهم هذه الإرساليات عقائدياً وفكرياً على مفاهيم الإيمان بالاستعمار وتقبله والإعجاب به والتعاون معه ، وقد أتاح الاستعمار لهذه الدائرة الصفاء القوة والسيطرة والتبريز وأنهى إليها أمور السلطة والنفوذ ، وبذلك حجب بها الدائرة الأخرى الأكثر أصالة والأصدق إيماناً بفكرها ووطنها . لقد كان قادة اليقظة أساساً هم قواد الحركات المختلفة التي اندلعت في العالم الإسلامي لمقاومة النفوذ الاستعماري الواحف ، وكان هؤلاء يجمعون بين الإسلام والوطنية ، ويتخذون من القيم الإسلامية مثلهم الأعلى في الجهاد والمقاومة والعمل ، ولكن النفوذ الاستعماري الذي يعرف أن خططهم ستقضى على وجوده وأنهى بقائه وتدمير كيانه ، قد عرف كيف يجهمهم ، فإذا كانت أداة في ذلك ، كانت أدواته الإرساليات التبشيرية بنفوذها في ثلاث مجالات : التربية والتعليم والثقافة ، وقد تمكنت هذه المؤسسات في خلال فترة حضارة الاستعمار للأوطان أن تشكل هذا الجيل القادر على حل أمانة المستعمر باسم الحضارة والتقدم والمدنية والذي كان يرمى دائماً حركة اليقظة الأصيلة بالجمود والتمصب والتخلف في حلة حضارية لا تتوقف قوامها لإمارة الشبهات الاتهامات من حول الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث . وقد أتيح لبعض الأقطار التي مرت بهذه المرحلة أن تثور عليها وأن تحطم هذا النفوذ الأجنبي المسيطر وأن تتحرك بعيداً عن هذا الخط المرسوم ، بل أن تقاوم هذا الخطط وتصفي نفوذ هذه المؤسسات وتفرض عليها المناهج المقررة في بلادها ، وفي مقدمة هذه الأقطار مصر . وهكذا نرى مدى خطورة الدور الذي يقوم به التبشير :

الذي اختفى في العالم العربي في هذه المرحلة خلف واجهات المعاهد والجامعات ودور الصحف ومراكز الثقافة ، وإن ظل في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي جبهة صريحة يعمل في جراحة وعلائية . والسؤال هو : لماذا اختفى التبشير في العلم العربي وفي بعض الدول الإسلامية ، والاجابة هي أنه قد أدى دوره في إهداد الثورة التي تسلمت زمام القيادات الفكرية أو السياسية ، إذ أن الدور الصريح للجبهة قد انتهى . أما الدور الحالي فهو أنصح وأقدر على التفاد على النحو الذي يتم به اليوم في الخفاء ومن خلال النظريات المذاهب والحدائق الجريئة والتشبهات المثارة التي لا تتوقف عن البث في إحكام دقيق ، ولنا نحن وحدنا الآن الذين تنبهنا إلى هدف التبشير ولكن كثير من المفكرين الواعين قد لفتوا أنظار أمتهم منذ وقت طويل إلى ذلك ولعل أخطر ما قرأت في هذا المجال ما ذكره محمد علي طلوع في الثلاثينات حين قال : إن الأمم المستعمرة قد تبينت بعد التفكير الطويل والتجارب العديدة أن أقوى سلاح لبث الاستعمار لم يعد الحديد والنايك كان من قبل ، وإنما هو اليوم هذا التبشير الخفي تحت أستار المعاهد والجمعيات الخيرية والأدبية والعلمية لهدم العقيدة قبل كل شيء ، حتى يصلوا بهم إلى إطفاء تلك الشعلة شعله العاطفة الدينية والوطنية وطريقة التبشير في البلاد الإسلامية تتركز في إنشاء معاهد تبشيرية على نفسها صفات المعاهد العلمية وتنفذ وراء هذا الستار ، والحقيقة أنها معاهد تبشيرية ينتمي إليها مبشرون وظيفتهم تضليل البسطاء والسذج ، هذه المعاهد تكلف تلاميذ المسلمين الحضور في الصلوات وتستغل نفوذها القوي في نفوس الأطفال خاصة من بنين وبنات فيخرج الطفل المسلم من هذه المدارس وهو إما فاسد الإسلام كلية أو متشكك في دينه على الأقل ، وهم يتبعون نواحي وقاعات الخطابة والمحاضرة وجماعات تسمى نفسها جمعيات الشبابية ، تبذر بذور التشكيك في أفهام المسلمين ، وهم يتفقون على هذه المعاهد في سخاء ، ويتحررون لذلك من المبشرين من يعرفون بالدهاء المسمم واللين الحظير ، حتى يبدع بعضهم أنهم كانوا مسلمين ثم (تحولوا) للإيقاع بالسذج والجهلاء . الحق أن الاستعمار حين عاد إلى العالم الإسلامي في دوره الجديد كان قد أعد مخططة على النحو الذي يكفل له العمل على تغيير العقيدة الإسلامية ، والنضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التبشير الحامل لواء التعليم والتربية والثقافة . وقد اعتبر أن هذه المعركة القائمة على الغزو الثقافي والاستعمار الفكري والتغريب هي أكبرى معاركة وأعظم عوامل تثبيت قواعده . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من التبشير هو : إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامي وإبعاد العناصر التي تمثل الإسلام عن مرا كة التوجيه ، فإذا لم تنجح الدعوة إلى الخروج من الإسلام إلى دين آخر جرى تشكيكهم في الدين المطلق . لقد استهدف التبشير نقل المسلمين من الإسلام وخطا في سبيل ذلك خطوات واسعة ، فلما انكشفت خططه وافتضحت أساليبه غير المبشرون ملا بهم وتخفوا في أزياء العلماء والفلاسفة والمفكرين وظهرت جماعات جديدة وغيرت أسماء الهيئات القديمة والمعاهد الأولى ، وكلها بارعة المظهر ولكنها تحمل نفس الأغراض والأهداف . منها : جماعة الشرق الأوسط للتعاون الإسلامي المسيحي ، وجماعة من المبشرين يعملون لهدم الإسلام وجملة آلة بيد السياسة الغربية الاستعمارية التي يراد فرضها على العالم الإسلامي والأمة العربية لتزيق وحدتها وتدمير قوتها .

ومنها : (١) جمعية الهيئية المسيحية الدولية في نيويورك ولها ٩ آلاف فرع في أنحاء العالم . (٢) هيئة التوراة . (٣) معاهد الدراسات الشرقية والإسلامية . وقد تأهب التبشير للعمل في مختلف الميادين . فأتصل بالتعلمين عن طريق المدارس والجامعات ، واتصل بالناس عن طريق الصحف والمحاضرات والجماعات ، وكانت المدارس الأجنبية التي فرضت نفسها على المواسم الكبرى في العالم الإسلامي قد قادت حركة التعليم بواسطة النفوذ الأجنبي المتمثل في نفوذ الدول المحتلة ، أو المتحالفة ، وهذا النفوذ لم يقف عند حد هذه الجامعات والمعاهد وحدها ، بل إنه تطرق إلى وزارات التعليم والمعارف في مختلف هذه الأقطار ففرض فيها مناهج دراسية خالية من لباب الفكر الإسلامي والثقافة العربية وهو الإسلام والقرآن ، وقد أعلن ذلك صراحة دكتور زويمر ، كبير المبشرين في العالم العربي ، في تقرير مؤتمر التبشير العالمي عام ١٩٢٥ حين قال : « إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام ، وبذلك أخرجت ناشئة مضطربة مادية الأغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة . وأشار إلى هذا مدير إحدى الجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية الكبرى حين قال : « إننا نراقب سحر القرآن في المدارس الإسلامية ونجد فيه الخطر الدائم ، إن القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير . » وإذا كان بين التصريحين زمن لا يقل عن عشر سنوات إلا أنهما ينبغي أن يكونا في مورد واحد كأنهما يصدران من رجل واحد ، ويؤكدان نفس الغاية . ولستطيع أن تؤكد أن خطة التبشير خطة شاملة وموحدة وذات مراحل وحلقات وقد أشرف عليها رجال ذوي خبرة وثقافة واتصال كامل بمخططات الاستعمار ، ويمكن أن يقال أن هناك ثلاث قوى تعمل في تناسق عجيب :

(الأولى) وزارات المستعمرات والخارجية في الدول المستعمرة للعالم الإسلامي .

(الثانية) مؤسسة التبشير الكبرى بفروعها المختلفة وإرسالياتها ومعاهدها في العالم الإسلامي .

(الثالثة) جماعة المستشرقين المنبشرين في مختلف الجامعات الأوروبية والمتاحف والمكتبات العامة والمعاهد المعنية بالدراسات الشرقية والإسلامية والعربية .

ويمكن النظر إلى مدى التناسق بين هذه الهيئات حين نرى أن وزارات المستعمرات تستخدم مؤسسة التبشير في العمل داخل البلاد الإسلامية وتؤكد أهمية عملها ، وحين يتولى رجال السياسة السكبار الإشراف على مؤتمرات المبشرين أمثال لورد بلפור الذي أعلن أهمية مؤسسات التبشير في خدمة أهداف السياسة . والمبشرون في نظر الاستعمار هم حيوة التي تقوم بتعريف الدول الغربية بالتواحي المهمة التي يتطلع إليها المسؤولون في وزارات الاستعمار من عقائد المسلمين وآدابهم وثقافتهم التي يتأثرون بها . ويتجلى ذلك حين ترى أن مؤتمر التبشير في أدنبرج سنة ١٩١٠ يعني دراسة قرار محول إليه من المؤتمر الاستعماري المنعقد في برلين في نفس العام ، يقول هذا القرار : « إن ارتفاع الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، لذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح الحكومة بزيادة الإشراف والرقابة على أدوار هذه الحركة ، ويشير المؤتمر الاستعماري على من في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام وأن يذلوا المرافيل عن طريق انتهاز التبشير . »

أما جماعة المستشرقين فإنها تمد المؤسسة التبشيرية بالشبهات التي تصنعها ، والانتهاكات والافسكار والخرافات التي يمكن استخدامها لإثارة الشكوك حول الإسلام ، ومن (كأثر هذا العمل إنشاء مجلة العالم الاسلامي بالإنجليزية والفرنسية والألمانية) (كل منها على حدة) وإصدار دائرة المعارف الاسلامية المهررة بثلاث لغات ويشرف عليها أساطين التبشير والاستشراق ولا تخلو مادة واحدة منها من دس وإثارة شبهة وتخطيم القيم الاسلامية فضلاً عن مئات الشبهات على المستويين التعليمي والثقافي التي تدرس في مئات الكتب التي توزع في المعاهد والجامعات والمدارس من أندونيسيا إلى المغرب وكلها تحمل تصويراً شائناً للإسلام والقرآن .

وليست بواعث التبشير وأهدافه بخافية ، ولا هي موضع الاستنجاج ، بل إنها صريحة وواضحة في خطب وأبحاث عمداء التبشير أمثال : (شاتلية ، وزويمر ، ولويس ماسبون) . أما شاتلية وهو يمثل النفوذ التبشيري الفرنسي . فإن ملخص فكرته تتمثل فيما يلي :

(أولاً) ينبغي أن يكون عمل الاستعمار مبنيّاً على قواعد القربى العقلية (التأثير على عقول المسلمين وقلوبهم) وعلى التنميط في فرنسا أن يبعث في دين الاسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الفرنسية .

(ثانياً) إن عجوزات إرساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الاسلامية في نفوس معتقديها فإنها تستطيع أن تقضي لبائتها من هدم الفكرة الاسلامية ببعث الأفكار التي تنمرب مع اللغات الأوروبية ، فتفسرها باللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، بتبعية الاسلام لصحف أوروبا وتهميد السبيل لتفهم لإسلامي مادي وبذلك تقضي إرساليات التبشير لبائتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التي لا تحفظ فونها وكيانها إلا بعزلاتها وانفرادها . (ثالثاً) لا ينبغي لنا أن نتوقع من جهود العالم الاسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية .

٢ - أما د. باس ، وهو من كبار رجال التبشير فهمي : أن الاسلام هو العقبة القائمة في طريق التبشير في أفريقيا ، والمسلم فقط هو العدو اللدود ، وليس خصمنا إلا ذلك العربي الذي يرتاد البلاد للاتجار ، بل إن هذا الخصم الممارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ في أفريقيا . (٣) أما زويمر فهو يرى أن إرساليات التبشير في البلاد الاسلامية لها ميزتان : مزية تشييد رمزية هدم . ويقول : « الأمر الذي لا مزية فيه هو أن حظ التبشير من التغيير الذي أخذ يدخل على عقائد المسلمين ومبادئهم الخلقية هو أكثر كثيراً من حظ الحضارة الغربية منه . ويرى زويمر ، أن القضاء على الاسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير ، وقد جنى منه أعظم الفترات ، أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، والتجارب دلتنا ودامت رجال السياسة على استحالة ذلك . ولكن الغاية هي إخراج المسلم من الاسلام فقط ، ليكون إما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلماً ، وهذه أسنى مراقب الانتقام من الاسلام وأعظم الغايات الاستعمارية . ويجعل آراء هؤلاء الهداة من المبشرين الفرنسيين والأمريكيين هو استهداف تغيير غفيرة المسلم عن طريق الفكر الغربي واللغات الغربية والأديان الغربية وهم يحاولون غزو العالم الاسلامي بأسوأ مظاهر حضارتهم إيماناً بأن هذا الغزو سينخرج المسلمين من معتقداتهم ويجعلهم يستسلمون استسلاماً كاملاً للتطويق الغربي العقلي والاجتماعي وبذلك يصبح المسلمون في العالم الاسلامي كله أذلاء عبيداً للغرب عقلياً واجتماعياً واقتصادياً وتصبح بلادهم مبدولة بالرضا والتقبل للغرب .

وهذا هو اتجاه التبشير وهدفه : إخضاع العقل الإسلامي كله للاستعمار الغربي والفكر الغربي خضوع ذوبان والضمار في بوتقة الحضارة العالمية . ولكن هل ذاب المسلمون اليوم في بوتقة الغرب وفقدوا مشخصاتهم وقيمتهم الأساسية وقد مضى على العمل الدائب المتصل أكثر من مائة عام . الواقع أن المسلمين لم يستقطوا بعد تحت سنانك الحيل ، ولكنهم على خطر عظيم ، وعليهم أن ينتبهوا إلى أن كل ما يواجههم الآن من أخطار إنما يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا المخطط التبشيري المرسوم بدقة والذي كان يمكن أن يصل إلى غايته لولا صلابة الإسلام نفسه وعمق جذوره وعلى المسلمين أن يفرقوا تفرقاً واضحاً بين الثقافة والعلم وبين الحضارة والثقافة ، فالعلم من حق الجميع وهو ملك للبشرية كلها وكذلك الحضارة . أما الثقافة فهي من حق كل أمة وحدها ، ولذلك فالمسلمون في اتجاههم نحو النهضة واليقظة والتحرير لا بد أن يأخذوا العلم والتكنولوجيا . ولكنهم يجب أن يحفظوا ذاتيتهم الأساسية وشخصيتهم الأصلية وجذور ثقافتهم وفكرهم وعليهم أن يقاوموا كل محاولة لإخراجهم منها ، ولقد كان الانفجار التبشيري الذي وقع في مصر عام ١٩٢٢ و١٩٢٣ أثره في إيقاظ هذه المقامات ، ولكن يبدو أيضاً أن المسلمين عادوا مرة أخرى إلى النسيان ، ذلك أن التبشير نفسه لم يلبث أن بدل خططه وغير جلدته وتخفى وراء هياكل جديدة . لقد توصل المفكرون المسلمون في هذه المرحلة إلى حقائق هامة نشرتها الصحف في هذه الفترة وشما ك فيها عشرات الباحثين في مقدمتهم رشيد رضا وحسب الدين الخطيب وشكيب أرسلان وتقي الدين الزهناوي وعمر فروخ وبجمل النظرات هي : (١) أن هدف التبشير زلولة العقيدة في النفوس وتشويه المفاهيم الإسلامية (٢) أن هدف المبشرين إضعاف القيم الإسلامية عن طريق شرح تعاليم الإسلام ومبادئه شرحاً يضعف عقيدة المسلم في تمسكه بالإسلام ويقوى في نفسه الشك فيه كدين أو كمنهج سلوك . (٣) وجد المفسرون أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين فحسموا على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف (٤) الذي حل الأوروبيين على إنشاء الجمعيات التبشيرية في الشرق ما عانوه في الحروب الصليبية من صلابة المسلمين وصبرهم على الجهاد ووحدةهم في المقاومة ، وقد بحثوا عن السر في ذلك فوجدوه في الإسلام لأن عقيدته هي منشأ هذه القوة العظيمة عند المسلمين وإن تسامع المسلمين أوجد هذا التماسك العظيم بين النصارى والمسلمين ، ومن هنا كان مفهوم التبشير هو تشكيك المسلمين في تاريخهم وزعزعة عقائدهم (٥) محاولة لإنجاز ما عجز أجدادهم الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف وإخضاع العالم كله للغرب المسيحي (٦) يمكن أن يقال أنه بعد أن فشلت الحروب الصليبية كانت الخطوة هي تحويل العالم الإسلامي إلى المسيحية أو القضاء على الإسلام فيه كقوة أساسية هي مصدر الانتصار والمقاومة ، ومن هنا انطلقت الدعوة إلى إخضاع العالم الإسلامي كله للتبشير بالمسيحية لتعويله للغرب أو إخضاعه للثقافة الغربية والنفوذ الغربي (٧) تحقق لهم أن إخضاع العالم الإسلامي لا يتم إلا عن طريق الثقافة والدين ، ومن هنا وضعت الخطوة على مستويين متتابعين : مستوى التبشير ومستوى التغريب وعمل الاستشراق والشعوبية في خدمة الهدفين معاً (٨) الحرب التي يشنها التبشير على الإسلام في قلب دياره إنما تمصّد الإسلام ذاته وترمي إلى إضعاف العقيدة في نفوس المؤمنين بها ، وهذه السياسة هي استمرار للنضال التاريخي القديم بين الشرق والغرب والإسلام والنصرانية حيث تتحد اليوم

أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والإغراء ، وحيث يعتقد خصوم الإسلام من الأحرار والرهباة والسياسة أنهم قطعوا في سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها وهذه هي الغاية التي تعمل لها الكنيسة الرومانية وترصد لها الأموال الطائلة في كل عام في ميزانية الكنيسة وفي ميزانيات الدول المستعمرة وتحشد لها ذلك الجيش الضخم من المسلمين والمبشرين والأطباء . إضعاف العقيدة الإسلامية إذن : هي الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التي تنحل عقائدها القومية وتضعف نفوذ فريسة يسيرة للغزو الديني والفكري (السياسة ٢٢ يوليو سنة ١٩٣٣)

(٩) يواجه الإسلام اليوم حركتين من أخطر الحركات الهدامة : الأولى حركة المبشرين والثانية حركة الملحدين . الحركة الأولى تتجه نحو تحويل المسلمين عن دينهم . والثانية ترمي إلى تهريدهم من الدين تقوم بالحركة الأولى جمعيات منظمة ، تحمى حكومات متمسكة ، والحركة الثانية يقوم بها رجال تعلموا في الغرب وأحكموا طريق الدعاية وسرّوا على أساليب الفجوة ومن وراءهم قوم أولو نفوذ يحملون ظهورهم ويدفعون عنهم ما يصيبهم ، مهمتهم لإفساح المجال لدعاة الإلحاد كيما يباشرون مهمتهم والغاية هي هدم الإسلام في قلوب أهله وتهريد المسلمين منه (١٠) ليس هدف التبشير في الأغلب نشر المسيحية بقدر ما هو هدم الإسلام ، ونشر الدين أسوأ من أي شيء في جميع الحركات التبشيرية ، فالدين وسيلة والسياسة هي في غاية معناها استبعاد الغرب للشرق ، والباعث الحقيقي في رأي القائمين على التبشير إنما هو القضاء على الأديان غير النصرانية توصلا إلى استبعاد أتباعها ، وأشد الأديان قوة في إبقاء الاستبعاد إنما هو الإسلام ، والتبشير قد يتناول البوذيين والبرهمنين ولكن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون . استوى في هذه الرغبة جميع المبشرين على اختلاف طوائفهم وتباين الأفئدة التي يرفعونها على وجوههم (١١) ليس التبشير دعاية دينية استعمارية كما يظن بعضنا ولكنهم يدأبون لنشر دينهم وثقافتهم . الدول المستعمرة تعتقد أن نشر المسيحية في مستعمراتها يكون عاملا عظيما في توطيد الحكم الإداري ، والرساليات في جميع الأمم الأفرنجية تجاهد في نشر الدين المسيحي بنشاط يجل عنه كل وصف ، ولكنني أحب أن لا يتخذه المسلمون بكلمة أن هؤلاء إنما يعملون للعالم وأن الدين إنما هو ستار لها فإن ذلك يكون من قبيل تشخيص المرض بغیر حقيقة ، وعند ذلك يتمذر حكماحه ، إن الحكومة الفرنسية عندما تسهل للقسيس والرهبان الاتصال بالقبائل وتمنع دخول الفقهاء وحفاظ القرآن ومهاجرات الطرق الصوفية من البرابر إنما ترمي إلى غرض توطيد استعمارها بالغرب (شكيب أرسلان) (١٢) ليس التبشير هو الانتقال إلى المسيحية بقدر ما يؤدي إلى الانتقال عن الإسلام نفسه .

(١٣) إن حركة التبشير في الشرق نظمت لأغراض مخصوصة ، غلبت بالأموال والتأييد لتحل محل الحروب الصليبية القديمة (١٤) هدف التبشير هو توهين القيم الإسلامية وتفتيت الشعوب العربية والإسلامية ، في علاقاتها وصلات بعضها ببعض وبهثرة القوى الوطنية في كل بلد عربي ، وخلق جبهة من ضدها لمواجهة والفض من اللغة العربية الفصحى والتأثير بحالة الشعوب الإسلامية الأخرى والازدراء بها في المجالات الدولية العالمية (١٥) هؤلاء المبشرون يقصدون بالتبشير إلى غاية سياسية ليس غايتهم نصير المسلمين أو سائر الشرقين وإنما غايتهم توهين أمر العقيدة وأمر الدين باسم الإنسانية

وباسم النقد العلمى للدين الإسلامى . الغرض السياسى الذى يلبس ثوب التبشير . كان من أثر هذه الحملة أن حولت كثيراً من دعاة التعريب وفى مقدمتهم الدكتور محمد حسين هيكل الذى كان أبرز خدام الفكر الغربى فى مصر عن طريق مجلة السياسة الأسبوعية وجريدة السياسة اليومية ، ولعل أبرز ما ظهر فى تطوره الفكرى بعد انفجار حملة التبشير فى مصر أنه كتب أكثر من خمسين مقالا فى مهاجمة التبشير ومهاجمة الغرب نفسه بعد انكشاف الحقيقة أمامه كاملة : إن التبشير ليس إلا وسيلة أكيدة لتوهين القيم الإسلامية والمربية فى نفوس المسلمين والعرب وذلك لإحكام سيطرة النفوذ الأجنبى والاستعمارى على العالم الإسلامى . ولا شك أن رؤوس موضوعات هذه المقالات تكشف عمق ما بلغه فهم الدكتور هيكل (١) تغريب الشرق وهل تعتبر حركة التبشير بعمضا منه (٢) حلقة من سلسلة الغارة على العالم الإسلامى (٣) للبشرون رسل التجارة والاستعمار الغربى (٤) غزو العقيدة الإسلامية غاية التبشير وقد رسل الدكتور هيكل أخيراً إلى قرار حاسم فى موقفه من الحضارة الغربية والاستعمار قال : إن الذين درسوا فى أوربا يقصدون أنفسهم وبمجموعة من زملائه (طه حسين ومحمود عزمى ومصطفى عبد الرزاق) كانوا هم رسل الحضارة الغربية الداهية إليها فى مصر ، ظنا منهم أن ذلك هو السبيل إلى نهضتنا . هؤلاء الغيابة فتفتحت أعينهم على حقيقة الأمر بعد الحرب فقد أدركوا أن كل ما بذلت الشعوب العربية من تضحيات لم يكن إلا فى سبيل الاستعمار ، وأدركوا أن الدول الأوروبية التى تزعم أنها قد تحررت من التعصب الدينى هى دول متعصبة تعصبا مسيحيا لم تدس مع الحروب الصليبية ، حتى أن قائدا كبيرا من قوادهم هو (النبي) قال يوم استولى على القدس أن الحروب الصليبية قد انتهت ، ثم أن هذه الدول الأوروبية شملت بحمايتها الحملات التبشيرية المنبثة فى كل مكان ، وعند ذلك غضب هذا الشباب لاسلامه الذى تريد الدول المسيحية أن تمحوه ، وجعل كل منهم يفكر فى وسيلة للخلاص من الغرب ،

وكانت الصحف فى الوقت نفسه تفيض بأخبار العدوان الفرنسى والاطالى فى شمال أفريقيا وفى سوريا واستغاثة المنكوبين من أهلها بالعالم الإسلامى ونشر مسلحوا المغرب صيحة حارة جاء فيها :

أيها المسلمون : هل يرضيكم أن يحمى دينكم من الأرض التى أنجبكم رجالا عظاما وعلما وقوادا وملوكا عظماء ، الأرض التى سار أبناؤها مع طارق بن زياد وعبد الرحمن النافق فافتتحوا الأمصار ونشروا دعوة الاسلام ، وإذا نهج الفرنسيون فى هذه التجربة فسيفتح العالم الإسلامى فتحا دينيا لهم ، وهو أقبح وأسى من فتحهم الاقتصادى السياسى ، فخذوا حذركم أيها المسلمون واصرروا الله .

• • •

وقد ظهرت فى هذه الفترة كثير من الأبحاث فى مقدمتها :

١ - التبشير والاستعمار للدكتورين الخالدى وحمى فروخ .

٢ - التبشير والاستعمار للدكتور محمد البهى .

ولكن يبدو أن تغيير المبشرين لأساليبهم وانصرافهم عن أساليب الخطف والتزوير المغناطيسية وغيرها ، قد أخطى خطرم وصرف المسلمين عن تعقب أخطارهم ، ولكن الواقع يؤكد أن العمل مازال مستمراً وأن الثعبان لم يفعل أكثر من أنه غيّر جلده وانسجم مع التطورات المختلفة وحول كل مفاهيمه إلى مجالات الثقافة والتعليم والمعاهد والجماعات الأدبية والثقافية والصحف والمجالات نعم إذا قيل أن كلمة التبشير قد انتهت قلنا إنما إنتهى مظهرها وبقي مغبرها .

وأن مخططات التفریب والشعوبية والإلحاد قد استوهمته مؤسسة التبشير بكل مخططاتها في داخلها وما تزال تحمل نفس الأهداف والغاية وإن غيرت الأساليب .

الفصل الثاني

وسائل التبشير وأنظمتها

كان العمل على إعداد مبشرين للعمل في مختلف أنحاء العالم الإسلامي من أهم أهداف التبشير وذلك لتركيز قوّة وبث مفاهيمه . وقد تم هذا العمل على مرحلتين : (الأولى) تمت في بلاد الغرب حيث قامت المعاهد الخاصة بإعداد المرسلين الذين سيوقدون إلى العالم (الثانية) تمت في بلاد المسلمين فقد قامت المدارس والجامعات التابعة للرساليات التبشيرية بإعداد الدعاة الذين عملوا في مبادئ الصحافة والتعليم والثقافة وقد إنتفع الاستعمار بالشباب الطموح الذي صافر في البعثات المختلفة إلى الغرب واستطاع أن يكسب منه دعاة ومبشرين ، وقد أوردت العديد من مؤلفات المبشرين تلك المناهج والمخططات وأشارت إلى مهمة هذه المدارس التي أنشأت في روما وباريس وطليطلة بأسبانيا والمناهج الخاصة التي ترمى إلى تفهيمهم روح الشرق ، وتقوم هذه المناهج على تصوير الشرق بصورة التأخر والسوء ، وتصل طرق التبشير بصناعات الطب والتعليم والوظف ونقل للكتب من لغة إلى لغة وشعارها ، « جميع الوسائل تستغل في سبيل التبشير حتى أعمال البر ، وأن التعذيب والتعليم من وسائل المبشرين ، مع ترك العارق المباشرة في نشر آرائهم والتماس أساليب أخرى أكثر التواء وخفاء ، وهم يلبسون لكل حالة لباسها » فعليهم أن يطمئنا الرأسمالية إذا كان ذلك يفتح لهم قلوب الخاضعين قهراً لها ، وهم في بعض البلاد الإسلامية ينسقون خططهم مع الصهيونية ومع الشيوعيين وتنصح لهم الوصايا بالتلون في سبيل الوصول إلى قلوب الناس . ويقول مؤلف كتاب طرق العمل التبشيري في المسلمين : « لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يضعون في الدرجة الأولى بأننا نحبهم ، فنسكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم ، يجب على المبشر أن يحترم في الظاهر جميع العادات الشرقية والإسلامية حتى يستطيع أن يتوصل إلى بث آرائه بين من يهني إليها والمعروف أن التبشير تحول بعد مؤتمر ١٩٠٦ من التبشير الفردي إلى التبشير الجماعي ، وبعد الحرب العالمية الأولى إستفادت حركة التبشير من الدول المنتدبة التي أفسحت المجال لها وقد تولت المعاهدات

التي عقدت في ظل النفوذ الاستعماري حماية الإرساليات التبشيرية ، ولم يفت مؤتمر أدنبرج الذي عقد عام ١٩١٠ أن يدرس كيفية تعليم المبشرين وتربيتهم وتعليم المبشرين في العالم الإسلامي لغة البلاد وأوصى بإنشاء مدارس تبشيرية خاصة بتعليم مبشرى الأفطار الإسلامية والتخرج السكامل في اللغات السامية والقبض على ناصية اللغات العامية والفصحى وفهم روح المسلم وخصائص عقلية ، كما عرض المؤتمر التبشيري عام ١٩٢٤ لهذا الأمر وأورد آراء جديرة بالنظر والإعتبار تحت عنوان ، باب تخريج المبشرين ، قال : إن تخريج العدد اللازم من قادة التبشير المحلي من الوطنين تهمي غالباً على طريقة التخصص والتضلع تأمر ضروري لا غنى عنه ، فن الضرورى أن يكون المبشرون حائزون على مقدار من السكمانية والإستعداد الوافي من جميع الوجوه . هذا ما يلزم المبشرين من الإستعداد في الثقافة العامة وقال : أن هناك طريقتين في الإعداد والتجهيز : (١) التخريج في اللغات بما يكفل التوسع والقبض على ناصية اللغات العامية منها والفصحى ، (٢) للتخريج السكامل في العلوم الإسلامية بما يجعل المتخرج يفهم روح المسلم وخصائص عقله في هذه الأيام فهمها تماماً مستنداً إلى الحقائق مباشرة مع دراسة تاريخ الإسلام وعلى ما هو حتى في الإسلام المعاصر من المذاهب والطرق الصوفية ، (٣) التخصص في الشؤون الإسلامية تخصيصاً صحيحاً يؤهل أربابه بعد حين لتولى أعمال الدراسات والأبحاث التي يناهض عليها موضوع الإسلام ، ويمكن أن نستخلص الوسائل التي يستخدمها التبشير من نصوص تقريراته لا من خارجها . لقد تعرض كتاب (العالم الإسلامي اليوم) وكتاب (الإسلام : ماضيه - حاضره - مستقبله) بقلم زويمر كما تعرضت مختلف المؤتمرات التبشيرية لهذا العمل وذكرت الوسائل التي يمكن إستغلال المسلمين بها ، وأهمها ، (أولاً) دعوة المبشرين لتعليم اللهجات العامية واصطلاحاتها نظرياً وعملياً ودراسة القرآن والوقوف على ما يحتويه وأن مخاطب عوام المسلمين على قدر عقولهم ومستوى علمهم ، وأن تلقى الخطب عليهم بأصوات رخيمة وبفصاحة وأن يخاطب المبشر وهو جالس ليكون تأثيره أشد على السامعين وأن يكون خبيراً بالنفس الشرقية وأن يستعمل التشبيه والتشليل أكثر مما يستعمل القواعد المنطقية والاستمانة بالموسيقى والفانوس السحري ، (ثانياً) كسب ثقة الشباب وذلك بالحدوث في موضوعات إجتماعية وخلقية وتاريخية ومنها يستطردون إلى مباحث الدين ومحاولة كسب القلوب يتظاهرون بالليل إلى مطامح المسلمين من الاستقلال السياسي والاجتماعي ، (ثالثاً) توزيع الكتاب المقدس والمؤلفات التي تضم المناظرات التاريخية وترجمة الكتاب المقدس إلى لغات المسلمين . (رابعاً) يجب أن يكون تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ، وعلى المبشرين ألا يقتنوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرر النساء . (خامساً) على طبيب الإرسالية ألا ينسى ولا لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء وطبيب بعد ذلك ، وغاية إستغلال فرص المرض والسيطرة على المرضى وإنتهاز فرصة الضعف والحاجة وعدم القدرة على التفهم والافتتاح والفهم العقل الباطن بالإيمان . (سادساً) يجب أن تستخدم كتبهم (القرآن الكريم) وهو أمضى سلاح ضد الإسلام نفسه ، يجب أن يرى هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديداً وأن الجديد ليس صحيحاً . (سابعاً) الخطأ هو بث مبادئ المدنية مباشرة ثم

نشر الدين ثانياً لأن إدخال الحضارة والمدنية لا تعتمد مغيبته بل تنجم عنه مبادئ كثيرة تفوق المبادئ التي كانت قبلاً . (ثامناً) منع طلبة الأزهر المتخرجين فيه من الوصول إلى جنوب إفريقيا (عاشراً) الاهتمام على الصحف والكتب والمسينا والمسرح في إذاعة الآراء التي تحقق لإخراج المسلمين من مقومات فكرهم . (حادى عشر) الاعتماد على تدفق الطلاب على أوروبا (خاصة العمال والصناع من شمال أفريقيا إلى فرنسا) . (ثانى عشر) نقل الذين يصل المبشرون إلى قلوبهم إلى بيئات أخرى ذلك لأن المسلم في حياته الاجتماعية محوط بكثير من الأحوال والظروف التي تربطه بأخيه المسلم في كل موضع من مواضع حياته العملية . وقد أجمعت المراجع المختلفة على أن العمل في سبيل مكافحة الإسلام إنما يتم بوسائل مختلفة أهمها :

(١) إثارة الشبهات حول الإسلام ونعاليه : (تعدد الزوجات ، الحجاب ، الربا ، المرأة) .

(٢) محاربة القول بأن الإسلام منسجم مع الحضارة الغربية غير أن الفقهاء والعلماء يجمدون دون تأويله وتفسيره وهذا عندهم أمضى سلاح لمقاومة الإسلام . وعلينا أن ننتبه إلى مرمى هذا القول ، فالإسلام منهج كامل لا يخضع للمناهج الأخرى ، ولكنه يتقبل الصالح والايجاب من الوسائل والأساليب التي تتفق مع مبادئه ، ولذلك فإن فكرة تأويل الإسلام وتفسيره بما يتفق مع الفكر الغربي لا يقرها الإسلام بحال ، فإنها إنما ترمى إلى إعطاء تنازلات لتلغوها تنازلات دون أن تتوقف عند حد ، وليس كذلك الاجتهاد في مفهوم الإسلام ، وليس كذلك افتتاح الإسلام على الحضارات . ليس الحق هو النظرة الغربية وليس على الإسلام أن يتفق معه أو يتأول أصوله الربانية لتقبل هذا الاتجاه أو ذاك . (٣) قد يترك المبشرون مجال المبادئ الإسلامية نفسها ، ويتجهون إلى النقض من شأن الضوابط الأخلاقية ، والعمل للقضاء على الشعور الأخلاقي وبيان أن ما أقامه الإسلام في سبيل تنظيم علاقات المرء ورفعا عن الانحدار إلى الفرائز الجامحة ، إنما هي أغلال باطلة ، ويتمثلون هنا بعبارة العقيد النفسية وهذه في الحق ليست إلا وسيلة لإقصاء المسلم عن قيم الإسلام ويصل بها إقامة حفلات الرقص والموسيقى لإثارة الفرائز ودفع الشباب إلى إفتحام العقبة الأولى في طريق الشهوات كالكماس الأولى ، والانصالات المحرمة . من هنا وقد وضعت أمامنا هذه الحقائق أن تنبه لها وأن نحاول أن نكون من اليقظة فلا نخدعنا المكتب اللامعة الفاخرة ، والصحف الواسعة الانتشار ، وأسماء الكتاب اللامعة ذات الألقاب الفخمة ولنكن نظرتنا دائماً إلى هدف أي قول ولا بد أن نصف المكتاب وفق قاعدة الجرح والتعديل ، فكل من اتصل به شبهة التبشير أو التقريب أو الشمولية فليتنا أن نكشف هدفه دوماً ونفصم خطته .

الفصل الثالث

عمداء التبشير وخلفائهم

لا شك أن أبرز المبشرين على الإطلاق هو د كرينايوس فانديك ، الكبير الذي وصل بيروت عام ١٨٤٠ وتخرجت على يديه أجيال وهو الذي أشرف على ترجمة التوراة وساعده في العمل فاصبف البازجي وفارس الشدياق وبطرس البستاني وعاش بها طبيباً ومبشراً حتى توفي ١٨٩٥ أما في مصر والبلاد العربية فقد كان أشهر المبشرين د صمويل زويمر ، وهو صاحب فكرة مؤتمرات التبشير وقد بدأ عمله في البحرين عام ١٩٠١ تقريباً وانتقل منها إلى الأحساء ثم عاد إلى البحرين وكان يلقب نفسه بضيف الله ، والإمام يدعونه ضيف الشيطان ، وقد فتح أول أمره حائوياً في السوق لبيع الكتب المختلفة ، ثم تخصص بالتدريج في بيع الكتب التبشيرية وساعده في هذا العمل الإنجيلية في بناء مدرسة ومستشفى . وعنى بالكتابة عن الإسلام وأذاع آراء المبشرين وشبهاتهم ومن أهم كتبه : « الإسلام : ماضيه ، حاضره ، مستقبله » الذي دعا فيه أوروبا إلى إثارة حمة من الدعوة إلى العالم الإسلامي لتقريب وحدته العسكرية وخلق قضايا قومية ذات جذور تاريخية لتفريق الصف وزيادة النفوذ الاستعماري وله مؤلفات أخرى خلط فيها خطأ كبيراً بين الوقائع والأهواء ، ومن ذلك رسالته عن الوهابية التي تلاها في جمعية فيكتوريا الفلسفية عام ١٩٠٢ وانتقد فيها ابن القيم المنوف عام ٧٥١ لأنه يقول عن نفسه أنه حنبلي ولا يقول أنه وهابي ، أي أنه يعيب على ابن القيم أنه لا ينسب إلى عالم جاء بعده بأربع مائة وخمسة وخمسين سنة وهو الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي أطلق الاستعمار اسم الوهابية على حركته التي تسمى أصلاً بدعوة التوحيد ولقد كانت لزويمر آراء متعددة في دفع الحركة التبشيرية إلى العمل ، تقوم على أساس خيرة دقيقة وتمصب بالغ ، وأبرز آرائه إيمانه بأن هدف التبشير ليس إدخال المسلمين في دين معين ولكنه إخراجهم من الإسلام أولاً وقد كان من جرأه البالغة أنه اقترحهم الأزهر في ١٨ أبريل ١٩٢٨ وطاف بحلقات المحرس ومعه بعض زملائه ، وتباحثوا مع الطلاب والأساتذة بما يحس الإسلام ، ثم هاجم الطلاب في دارهم بتوزيع منشورات مطبوعة عن التبشير المسيحي وفي هذه المنشورات يدعو المسلمين إلى العودة للصلاة إلى قبلتهم المقدسة ويقول أن محمد ﷺ مات حول منها عن وعي وإنما تركها تبرماً من اليهودية ، وقد أحدثت زيارته اضطراباً شديداً وهياجاً شاملاً في نظام الدراسة وكتب بعض الأزهر بين في الصحف يندد بهذا التصرف وتقدم بعض شبوخ البرلمان بالسؤال وتبين أن زويمر كان قد حصل على تصريح من وزارة الأوقاف لهذا الغرض وإن الوزارة استردت منه هذا التصريح وكان من آثار ذلك التفكير في إنشاء جمعية الشبان المسلمين في كل بلد من البلاد العربية والإسلامية . وقد حرر زويمر كتباً متعددة كلها حملات على الإسلام والقرآن والنبي . وهو يؤمن بأن التعليم التبشيري هو المصدر الأساسي للعمل بين المسلمين ، ويرى عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية بل الاتصال بهم عاطفياً واستمالة أهوائهم ويدعو إلى توحيد ميثاق التبشير حتى تتمكن من الإطباق على العالم الإسلامي وفتحته . ومن أعماله ترجمة كتاب للاب لويس شينغو أسماء

خرافات القرآن وهي واحدة من الرسائل التي ترددها الشبهات المعروفة والمتداولة والتي واجهها كتاب المسلمين بالرد والإسقاط وقد زار زويمر مختلف المناطق الإسلامية في الجزيرة العربية ومصر والسودان وكانت له مساجلات ومجادلات مع العلماء في كل مكان ، وهو في كل ما يكتبه يعرض بالإسلام فهو حين يتحدث عن الغزالي يربط بين آرائه وبين بعض الآراء في المسيحية ولذلك يضع لكتابيه عنواناً غريباً هو « يسوع في إحياء الغزالي » ، موهما بأن آراء الغزالي مقتبسة من الإنجيل مستغلاً ذلك للتشابه والإنصال الذي يمكن أن يلتقطه فيما بين الإسلام والمسيحية في جوانب التسامح والرحمة وغيرها ومن المعروف أن مصدر الأديان السماوية واحد وأن الإسلام جاء جامعاً لكل ما في الأديان السماوية من فضائل ، ويذكر الأستاذ حسن نجمة أن زويمر ألقى في السودان محاضرة عن عمر بن الخطاب ، ودهش الناس لذلك ولكنهم بينوا أنه كان يحاول من طرف خفي أن يصور سيدنا عمر وكأنه صاحب آراء أخذ بها النبي وأن القرآن قد نصره في غير موضع وأيد رأيه الذي كان مغايراً لرأي النبي وهذا هو منهج التبشير كما وضعه زويمر: العمل دائماً على إثارة الشبهات والتشكيك في الحقائق المقطوع بها واستغلال النصوص .

٢ - أما المبشر ولیم ويلكوكس فهو في الأصل مهندس رى حريق استقدمه الإحتلال البريطاني إلى مصر وكان له دور كبير في تأريث النفوذ البريطاني وتوزيع أراضى الدائرة السنية على الباشوات أهوان الاستعمار ، هؤلاء الذين خلق منهم « كرومر » ، الطبقة الجديدة التي أطلق عليها أصحاب المصالح الحقيقية ، وهم الذين تكون منهم عام ١٩٠٧ حزب الأمة ، وأصدروا جريدة الجريدة وكانوا يمثلون القوة الفعلية التي يسيطر بها النفوذ البريطاني في مصر ، وعليهم ركن كرومر في بناء « مصر الحديثة » فمنهم خرج رجال الأحزاب السياسية وكان لبنائهم دور كبير بعد الحرب الأولى . وكانت هذه المدرسة تؤمن بأن الاستعمار البريطاني باق ولا بد من التعاون معه على أساس مفاهيمه وفلسفته التي عبر عنها لطفى السيد في الجريدة من إعلاء الوطنية الضيقة والإقليمية المحدودة ، ورفض الوحدة العربية والجامعة الإسلامية ، والایمان بالثقافة الانجليزية والفكر الغربي في مفاهيمه السياسية والاقتصادية والولاء الرأسمالية الغربية والديمقراطية الغربية وقد تحول هذا المهندس وللكوكس ، بعد أن أحيل إلى المعاش إلى مبشر فأخذ يدعو إلى استعمال اللغة العامية وله خطاب مشهور ألقاه في نادى الأربكية (يناير ١٨٩٣) دعا فيه المصريين إلى التماس نهضتهم في ظل العامية وكان عنوان خطابه : لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين حتى الآن ؟ قال فيه : إن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين إستبقاءهم اللغة العربية الفصحى وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية افتداء بالأمم الأخرى وذكر بنوع خاص الأمة الانجليزية وقال : إنها استفادت فائدة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الانجليزية المحاضرة . ولم يتوقف وللكوكس عند هذا الحد بل اشترى ترخيص مجلة إسما الأزهر وراح يردد فيها هذه الدعوة ، ومضى ، فاتجه إلى التوراة فترجمها إلى اللغة العامية وكان يذهب إلى القرى النائية يعمل الأدوية والتبشير وظل يعمل في مستشفى مصر القديمة (هرمل) وله كتاب الأكل والایمان باللغة العامية وزعه مجاناً على العامة في المدن والقرى . وبعد ويلكوكس أستاذ سلامة موسى في الدعوة إلى العامية فقد حل لوائها بعده وكتب عنه كثيراً وردد آرائه . ولقد وجد ويلكوكس في دعوته إلى العامية مقاومة شديدة ومعارضة صاعدة مزمنة ودفعته إلى التخلي عن آرائه ودعوته .

٣ - دلولوب : وبعد للبشر (دلولوب) أخطر هؤلاء جميعاً ، فقد استعان به كرومر على تكريس برنامج التعليم في المدارس الأميرية على نطق المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات بحيث يقع منها تعليم القرآن ومناهج التاريخ والتعاليم الإسلامية ، هذا العمل الذي أشار إليه (زوير) في أحد تقاريره عندما قال : « لقد قضينا على برنامج التعليم في الأقطار الإسلامية فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة والوطنية والأخلاق والرجولة والحق ، ثم عقب بقوله « إن القضاء على الإسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا منه أعظم الثمرات » . وقد كانت أبرز أعمال دلولوب :

(أولاً) محاربة اللغة العربية والإسلام والأزهر ، وقد عمد إلى اضطهاد معلمي اللغة العربية من الأزهريين .

(ثانياً) نشر لواء اللغة الإنجليزية وتأهيلها للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم وذلك لقضاء على نفوذ اللغة العربية .

(ثالثاً) إعداد أامج تقضي على شخصية الأمة ، ويهدف إلى تصويرها بصورة البلد المحتل للفرس والرومان والعرب والإنجليز واتهام الحضارة الإسلامية بالضعف ، واللغة العربية بالخلف والإسلام بالجهود (رابعاً) تجاهل الروابط والجذور التي تربط المصريين بالعرب والمسلمين دماً وجنساً ولغة وديناً وخلق جو من الإقلبية وعرض صور الخلاف والحروب والصراع بين المصريين والعرب وبين العرب والمسلمين .

وقد أبطل دلولوب عدداً من المكتتب التربوية النافعة لأنها تتحدث عن القيم الإسلامية ، ومنها كتب عبد العزيز جاديش ، وعلى مبارك وحزرة فتح الله ووضع بدلا منها مؤلفات عالية من القيم التي تستمد من الإسلام أو العروبة أو اللغة العربية أو التاريخ الإسلامي والتي تقوم بالبطولة أو الكرامة . وبذلك خلعت المناهج من روح الإسلام في التربية وروح القرآن في الفكر ، وجردت المدارس من التربية الإسلامية التي تربي الرجولة وتمد الشباب للجهاد في سبيل دحر المستعمر وتخليص الأوطان من الغاصبين .

خلفاء المبشرين

وقد تابع دعاة التبشير جيل من الذين تعلموا في الإرساليات والمدارس والجامعات الأجنبية وفق المنهج الذي رسمته مخططات الاستعمار بقصد إنشاء أجيال تفيض من قدر ثقافتها الأصيلة وتاريخها وتراثها وماضيها جلة . وكان أغلب البارزين في هذا الجيل قد اتجهوا نحو القاهرة باعتبارها المركز الأول الذي تنطلق منه الثقافة للعالم الإسلامي والبلاد العربية جميعاً عن طريق أقوى صحافة برزت بقيادة نقلا وصروف ونمر وزيدان وسركيس ، ومن خلال هذه الصحف ظهرت سموم فرح أنطون وشيل شميل وأدهب إسحاق وجرجي زيدان وآراء الدكتور صروف ونور ومكريس حيث تكونت تلك الدائرة

الصباح التي حاولت أن تسيطر على قيادة حركة اليقظة الفكرية الإسلامية العربية بالانصال بالسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده وكان من حولها كثير من هؤلاء أمثال سليم عنحوري وبمعقوب صنوع ، وأديب إسحاق وقد قلب هؤلاء جميعاً ظهر المجن لفكرة جمال الدين بعد خروجه من مصر وتعاونوا مع النفوذ الأجنبي . ومن هذا الرعيل صابونجي ومراثي وآخرون سافروا إلى لندن وباريس وروما وأصدروا صحفاً بالعربية لم يكن لها هدف غير تفكيك الوحدة القائمة بين العرب والمسلمين في مواجهة الوحف الاستعماري الضاغطة . وقد طرح فرح أنطون وشبل شميل وجرجي زيدان عديداً من الآراء التي تمثل الاتجاه التنريبي الوليد والتي تابعت غطط القورد كرومر ومفاهيمه عن الإسلام والعرب واللغة العربية ، ثم انضم إليهم بعد قليل حزب الأمة والجريدة ولطفي السيد ، وكان سعد زغول وعبد العزيز فهمي وغيرهم يتابعون توجيهات كرومر ويشيدون بها في مجال الإقليمية وقصر التعليم على اللغة الإنجليزية وعلى أولاد الأعيان ولكن آراء هؤلاء واجهت ردوداً دحضت شبهاتها ، فقد رد الإمام محمد عبده على كتابات فرح أنطون واتهاماته للفكر الإسلامي ، ورد فريد وجدي على الفلاسفة المادية التي أذاع بها شبل شميل ودكتور صروف ورد شبل النعمان على مغالطات جرجي زيدان وقاوم مصطفى الفلايبي وعبد العزيز جاويش وعلى يوسف ومصطفى كامل وفريد وجدي مختلف الآراء الغربية التي أقيمت في حفل الثقافة العربية في هذه الفترة وفيها بعد الحرب العالمية الأولى ظهر جيل جديد قوامه طه حسين وسلامة موسى ومحمود هزمي وعلى عبد الرازق وإسماعيل مظهر وساطع المصري . وقد واجهه عدد من أعلام مدرسة اليقظة الفكرية الإسلامية وردد ما عرض هؤلاء من شبهات . وقد عرض لطف حسين وآرائه كثيرون في مقدمتهم الحضر حسين وفريد وجدي ولطفي جمعه والدكتور محمد أحمد الفمراوي وساطع المصري ودكتور هيكل ومصطفى صادق الرافعي ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان ، وعرض لآراء سلامة كثيرون في مقدمتهم : الدكتور أحمد الحوفي وزكي مبارك ومحب الدين الخطيب وعرض لآراء على عبد الرازق : الطاهر بن عاشور ومحمد نجيت والحضر حسين . وتصدى لآراء ساطع المصري : محب الدين الخطيب وعمر فروخ وغيرهم ، وبالجملة فإن رأياً من آراء المبشرين التي جرت على أقدام هؤلاء الكتاب لم يردون أن يجد دحضاً من أقلام وأحبة أصيلة الإيمان بالفكر الإسلامي والثقافة العربية وإن ظل لهذه الآراء قدرة على التشكل والظهور مرة بعد مرة نتيجة لسيطرة النفوذ الأجنبي الذي يجرها على بعض المجالات التعليمية والصحفية والثقافة في العالم العربي . وكانت بيروت في السنوات الأخيرة مقراً لهذا اللون ونقطة الالتقاء في مواجهة المثقفين العرب جميعاً ، ومن القاهرة ظهرت مجلات متوالية اصارعة هذا الاتجاه ودحض شبهاته وشجب مخططاته ، وقد ظلت المجلات العربية والإسلامية تمنى كثير أ بالمؤلفات التبشيرية التي تصدر في أوروبا وأمريكا وبلغ غاية الجهد في ذلك الأمير شكيب أرسلان والدكتور زكي على وهجاج نوبخت ، وقد أولت حركة التبشير التي أطلقت على نفسها من بعد حركة التفریب اهتماماً كبيراً بالشباب الذي تصدره الرسائل على أسلوب المبشرين ، وبرع منهم عدد كبير في أداء دوره ، وقد أظنهم على ذلك أن المبشرين وضعوا عشرات المؤلفات التي ضمنوها رموز الموضوعات التي تثار بين حين وآخر ونحفل بالظعن على العرب والإسلام واللغة العربية والقرآن والتاريخ الإسلامي العربي .

وقد غش هؤلاء الطرف عن المؤلفات والأبحاث التي اعتمدت تاريخ المسلمين وحضارتهم وزياراتهم بل إن الأسماء اللاحقة التي دافعت عن الفكر الاسلامي والتمافة للعربية هي لديهم موضوع التنقيح والازدراء أمثال : جوستاف لوبون ، وتوماس كارليل والدكتور هونكه واسين بلاثيوس ومن أبرز أعمال هذا الجهاز أنه يسارع - كلما وجد حركة مد لإعلاء شأن التراث الإسلامي واللغة العربية والإسلام - إلى إثارة قضايا وخلق مقارفات بين الآداب العربية والآداب الغربية في مجال إعلاء الثقافات الغربية وإلتهام الثقافة العربية بالقصور والتخلف وذلك في محاولة دائمة من النفوذ الاستعماري للحيولة دون خلق نفسية عربية أو إسلامية متميزة ، والعمل دوماً على إخضاعها للنفوذ الغربي الثقافي وإقناعها بأنها غير قادرة على التبريز ، هؤلاء خلفاء المبشرين وأنباهم الذين لبسوا الثياب الجديدة وأخفوا ورائها أنياب المبشرين الكاسرة وأظافروهم الجارحة وهم الذين تصدر باسمهم صحف أليقة في هواصم عربية ، تدفع أجوراً ضخمة لكتابتها وتعرض بالسبوم لكل مقدراتنا ، وهم الذين يدهون إلى المؤتمرات المختلفة في الغرب ، وتكون كلماتهم المحررة بتوجيه خاص هي الكلمات المنسوبة إلى المسلمين وكأنها تردد أفكارهم ومفاهيمهم ولقد حرص النفوذ الاستعماري على إذاعة أسمائهم وخلق حالات من الضوء حولهم كما أفسح لهم مجال الشهرة والغنى ، وهم المتصدرون للمعارك في جرة المطمح إلى سنده الذي يحميه . ولقد كان هؤلاء دائماً ثمارت النائرة حول عمل من أعمال التبشير يقولون تلك الكلمة البسيطة الخطيرة : « إن الإسلام الراسخ لا يمكن أن تؤثر فيه مثل هذه الأحداث ، تسمع هذه الكلمات كلما ضبط كتاب في جامعة أو معهد عتلى بالإساءة إلى الإسلام وفي الإسلام ، وكلما حدثت حادثة تبشير بإخفاء شاب أو تنريعه تنويماً مغناطيسياً ، وهؤلاء الأهلون قادرون دوماً على إلقاء سادتهم إذا وقعوا في مأزق ، وعندما ثارت ثائرة التبشير في مصر وهزت دوائر الاستعمار والمبشرين لظهور طويلة تقدم شيخ له عمامة مهيبة فاقتمهم هذه المؤسسة الضخمة ، التي نهاوت ، أمام الضربات فافتتح موسماً وتحدث في جرة باللغة هن التبشير في معقل التبشير ، وما قاله الشيخ على عبد الرازق : « إن هذه الحركة لا يمكن أن تؤثر في الإسلام أو تضعف من شوكتة فهي ليست بأقوى ولا أخطر مما لقي الإسلام في بدأ ظهوره من مظاهر العداء والكيد ، وأن الحركة التبشيرية إنما هي وسيلة من وسائل المستعمرين لتصل بسياساتهم اتصالاً متيناً ولكنها مع ذلك لن تفيدهم في مصر شيئاً وأن الإسلام سيظل برغمها كما كان دين الحضارة والمدنية . ومضى يقول : لئن أولئك المبشرين أقل شأناً من أن يصلوا بكيدهم إلى حي الإسلام أو ينالوا من الإسلام منالاً ، فالإسلام دين قد صهرته الحوادث وتقبلت به الفتنة وصهرته التجارب ، إن خطر المبشرين سياسي وخطأ أكثر مما هو ديني . هكذا يتقدم التبشير بأحد خلفائه وأجنحة ، هو الشيخ على عبد الرازق صاحب الإسلام وأصول الحكم الذي يصور الإسلام على أنه دين روحاني لا علاقة له بالدولة أو المجتمع أو الحكم وهو رأى للمبشرين أنفسهم كانوا يقولونه من قبله فلا يجدن نصيراً له فإذا بشيخ من الأهر يقرر ذلك ويستمد له نصوصاً جمعها بالتحريف والتأويل لتحقيق لهم أملاً أصبح الآن له مكانة ضخمة عندما يمرضون لمفهوم الإسلام فيستشهدون به وقد قبس الشيخ على عبد الرازق هذه الآراء من كتب المبشرين كما قبس طه حسين آرائه في كتابه في الأدب الجاهلي ، الذي مازال يدرس في الجامعات وتوالي طبعاته من البشر جرجس

سأل بكل ما أورده فيه من شهادته . وفي المرحلة الأولى وقبل الحرب العالمية كان المبشرون ينشرون آرائهم بأنفسهم : زويمر ، وكرومر ، وداركور ، وهرجليوث ، وهانوتو . ثم جاء فرح أنطون وصروف وشيل شمبل وجورجي زيدان وداود بركات وفارس نمر (فتصدروا منصة التبشير وحملوا لوائه في صف ضخمة منشورة) وهم أبناء الارساليات التبشيرية وخريجوها معاهدنا ومدارسها . ظهر أن النجاح الذي حققه التبشير بحق هو ذلك الجيل الذي جاء قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدما ، من أمثال لطفى السيد وسعد زهلول وطه حسين وعلى عبد الرازق وسلامة موسى وساطع الحصري ومحمود عزمى على اختلاف الآراء وتعارض فيما بينهم أشبه بتعارض أصحاب الفئات ومقسمى الأسلاب ، وبذلك حقق النفوذ الاستعماري عن طريق التبشير واحدة من أهم توصياته وخلق قاعدة من أكبر ركائزه ، تلك التي صورها حميد التبشير زويمر حين قال : إن تبشير المسلم يجب أن يكون بلسان من أنفسهم ومن بين صفوفهم فإن العجزة يجب أن يقطعها أحد أبنائها . .

عمداء التبشير وأتباعهم

من أخطر أعمال التبشير في مجال التغريب هو وضع خطة شاملة لغزو الفكر الاسلامي والتأثير فيه بالادلاء والخفض ، والا كبار والتصغير ، وفق مفهوم واضح هو تعظيم القيم العالية التي يمتاز بها المسلمون والعرب وإخفاء معالم البطولة عن الشخصيات الأصلية وإصفاء بطولة زائفة على الشخصيات الشعرية المضللة في تاريخ الاسلام والثقافة العربية ويحمل اليوم الشعوبيون ودعاة التغريب على الامام الغزالي متابعين خطة أسلافهم المبشرين والمستشرقين ، وكان ذلك قد بدأ في وقت مبكر عندما أهرأ الدكتور زكي مبارك بتأليف كتابه الاخلاق في الغزالي عام ١٩٢٥ وإن كان الدكتور مبارك قد قاد مارك أخرى حول وحدة الوجود والحلول وأثار شبهات كثيرة ضارة ، كما أنه تحدث عن القرآن في النظر التي حديث المبشرين أنفسهم الذين يرون أن محمداً هو صاحب القرآن وذهب الامام الغزالي القديم المتجدد أنه أوقف تيار الفلسفة الالهية اليونانية المستمدة من علم الاصنام والقائمة على أصول وثنية تختلف اختلافا جديداً عن الفلسفة المستمدة من الاسلام ، ويردد - صوم الغزالي عبارة واحدة يجعلونها معقد اتهامه وهي معقد شرفه هي أن الغزالي وقف في وجه الفلسفة الوثنية وهاجمها ومن الحق أن يقال : أن الغزالي لم يهاجم الفلسفة بعامه ، وقد اعترف بصحة آراء الفلاسفة في مجال المنطق والطبيعية ولكنة أصر عليهم التمسك التي حصلوا عليها في البحث فيما وراء الطبيعة وفي الالهيات وبدلك حفظ الإسلام مقومه الفكرى الأساسى : التوحيد ، ومن الشخصيات اللامعة في تاريخ الاسلام والفكر الاسلامى التي هاجمها التبشير : شخصية المتنبي ، وقد حاول الدكتور طه حسين أن يصل في كتاب ضخم إلى إثارة الشبهات حول نسب المتنبي بفرض تحفيده وتصغيره في نفوس المسلمين والعرب حين ادعى أنه لقيط وساقى على ذلك شكوك وشبهات كان قد أوردها (بلاشير) في كتابه عنه وقد تصدى له الأستاذ

يهود محمد شاكر في فضول متوالية نشرت في الصحف (راجع كتابنا : المساجلات) فند فيها هذا الاتهام الظالم . ولقد عني الدكتور طه حسين أيضاً بمحاولة تحطيم شخصية ابن خلدون في أطروحته التي تقدم بها إلى جامعة باريس عام ١٩١٤ والتي كتبها تحت إشراف رجل يهودى هو دوركايم الذى كانت آرائه حملات تمصب على هذا العلامة المؤرخ العملاق . وقد كذبت الدراسات المتوالية وأشارت بالاثبات إلى الدكتور طه حسين وأستاذه بعد أن وضعت أكالييل النار على رأس شيخ المؤرخين ومؤسس علمى التاريخ والاجتماع وكان للدكتور منصور فهمى موقف قديم في مجال متابعة المبشرين والمستشرقين حين وضع أطروحته عن (المرأة المسلمة) في باريس بإشراف عالم يهودى هو د ليقى برايل ، وحين تعرض بالاثبات للرسول وزوجاته وقد رجع منصور فهمى عن آرائه هذه وتحول تحولاً خطيراً فهو مفاهيم الاسلام واهم الدكتور طه حسين كثيراً بالأدب المأجور وحاول في كتابه (حديث الأربعاء) أن يصف (زينبا وبطلانا) أواخر القرن الاول الهجرى وأوائل القرن الثانى بأنه عصر شك وبجوف وكان ذلك اتهاماً خطيراً كشف الباحثون عن خدعته وتضليله ومتابعة ركاب المستشرقين (لا جهلا ولا خفلة) ولكن متابعة فهم كامل للهدف وعمل كامل على تحقيقه في مختلف المجالات الثقافية والتعليمية وقد كان طه حسين أول من دعا إلى اعتناق كتب المحاضرات والفكرات كمصدر للدراسة وقد اعتمد هو في هذا المراءى على كتاب الأغاني ، كما اعتمد جرجى زيدان في اتهام المسلمين والعرب على كتاب العقد الفريد (الذى أورد حجج فريق المنتهصين للعرب وحجج خصومهم) وكان معظم ما نقله جرجى زيدان من آراء خصومهم . وحين حكم طه حسين على عصر الإسلام الاول بأنه عصر شك وبجوف من خلال خمسة من القدماء المتألهين على المجون أمثال بشار وأبى نواس وصفهم بأنهم يمثلون عصرهم تمثيلاً صحيحاً ، كان قد ترك مختلف طوائف الفقهاء والمحدثين والرواة وعلاء اللغة والوهاد . فبظلم البحث العلمى اتخذ من حياة خمسة شعراء ماجنين مبرانا للعصر كله . واعتبه شعراً صورة عامة للعصر وقد أولى الدكتور طه اهتمامه إلى مختلف وسائل إذاعة الشعوبية والتشكيك وليس أدل على ذلك من اهتمامه بطبع رسائل إخوان الصفا بعد هودته من أوروبا ، وطبع هذه الرسائل عمل أدبى خالص إذا ما قصد به وجه العلم وقام على أصول البحث العلمى وكشف عن حقيقة أهداف هذه الرسائل ، أما إذاعتها بالتمجيد والتكريم بدعوى أنها عمل من أعمال حرية الفكر فهذا هو هدف التثيير والتغريب من إثارة الغيبات وإذاعتها ، والمعروف أن جماعة إخوان الصفا الذين ظهروا في القرن الرابع الهجرى (٣٣٤ - ٢٧٢) في البصرة إنعام جمعية سرية من الباطنية والمجوس والوندقة الحاقدين على الإسلام والعرب واللغة العربية ولهم صلات أكيدة وواضحة بالحركات المريبة التي كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامى والهدوة الإسلامىة - وليس الحكومة الإسلامىة فقط - وكأولاً قد وجدوا أن الطريق إلى دھوتهم يمكن أن يكون أكثر إيجابية إذا قام على القهبات الفكرية المتصلة بالتوحيد وصميم روح الإسلام وجوهره ، وقد اتخذوا دھوتهم السرية السياسية ظاهراً ففكرها أخفوا وراة غاياتهم وطابعاً علماً وفلسفياً زعموا به أن الشريعة قد دنست بالهلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . ومإنما اتخذوا من رسائل إخوان الصفا منها لقب الإسلام نفسه ، وإدخال الفلسفات الوثنية إليه

وإبدال طابعه إبدالا بفتنه به تماماً ، وإلا فلماذا أغنى هؤلاء العلماء الأجلاء أسمائهم لو كانوا حسي النية طيب الفصد . وكان شرفاً لهم أن يعلموا ذرائعهم كصالحين ، وما يزال التاريخ الحديث مليء بالثغرات والأخطاء التي تجري اليوم بحري الحقائق ، وأهمها ما بين العرب والترك ، وفي مقدمة ذلك السلطان عبد الحميد خصم الصهيونية والماسونية والاستعمار البريطاني وحامل لواء الوحدة الإسلامية في وجه النفوذ الغربي الواحف . وما تزال الحملة على السلطان عبد الحميد التي أثارها الاستعمار والتبشير لخدمة النفوذ الأجنبي والصهيونية ما تزال مستمرة على أقلام الذين يكتبون باللغة العربية دون محاولة صادقة لتحقيق الأصول التي اعتمد عليها هذا الاتجاه . واعتقد أن الوقت قد حان لتحقيق هذا الموقف وتصحيحه ، وقد كشفت الظروف حقيقة السلطان عبد الحميد وموقفه المشرف في مسألة فلسطين وموقفه من الصهيونية ومن الاستعمار جميعاً في هذا الصدد . والحق أن ما وجهه السلطان عبد الحميد كان غالباً مسرفاً ولم يكن كله حق ، فلم يكن عبد الحميد على الأقل دكتاتورياً على الصورة التي عرفت من بعد عن الاتحاديين الذين علقوا العرب على المشائق ولا عن مصطفى كمال . وغيره من دكتاتوري الشرق .

وقد استغل التبشير والاستعراق في هذا العدد كتابات الكواكب ، الذي لو كان يعرف إلى أي حد ستمسح كتابته سلاحاً ضد الإسلام والأمة العربية نفسها لتحفظ كثيراً فيما ذهب إليه . والمعروف أن الحملة على عبد الحميد بلغت مداها عندما كادت دعوته إلى الجامعة الإسلامية تؤتي ثمرتها ، وأن الذين حملوا لواء الحملة عليه هم كتاب تخرجوا من الإرساليات التبشيرية وآمنوا بالأهداف التي بثتها في العالم الإسلامي وهم حين هاجموا عبد الحميد وأثاروا حوله هذه الشبهات لم يكونوا يستهدفون إسقاطه إلا كقدمة لتزيق الدولة العثمانية نفسها . وقد عمل دعاة التغريب وأتباع المستشرقين في مجال الدعوة إلى التبشير بمخططات واضحة ، وأفسحوا الطريق للإلحاد والإباحة والشمونية وهي أم غمار التبشير وأبرز دعائم عظمته في مجال الثقافة ، وهؤلاء الدعاة قد مروا على أساليب التقوية في الغرب وأحكموا طرق الدعاية ووقف من ورائهم قوم لهم نفوذ يحمون ظهورهم ويدفعون عنهم ما يصيبهم ، وذلك في سبيل الغاية الكبرى : دهم الإسلام في قلوب أهله وتجرؤ المسلمون منه . فالدكتور كامل حسين علل الصلب وأقره في كتابه قرية ظالمة . وعلى عبد الرازي : حاول أن يتخذ من النصوص المقطوعة عن أصولها ما ينق عن الإسلام أنه دين حكم ولظام مجتمع . وطه حسين : عمد إلى تحطيم قدسية النص الديني والفصل بين الدين والأدب في الفكر الإسلامي . ولقد عرض كثيرون لكتاب الشعر الجاهلي وقالوا : إن طه حسين يردد نظرية مرجليوت في أن الشعر الجاهلي موضوع ، وهو مغفون يدين طه حسين كباحث ولكن الهدف الاغتيال من الشعر الجاهلي الذي لا يزال يقرأ تحت اسم الأدب الجاهلي هو دعوته إلى نسيان القومية والدين كشرط أساسي من شروط البحث العلمي . ويصور خطر هذه الدعوة المستشرق (كأنفاير) : إن المحاولة الجزئية التي قام بها طه حسين ومن يشابهه في الرأي لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية هي حركة لا يمكن تحديد آثارها على مستقبل الإسلام مهما أسرفنا في التقدير فإنك لا تجد كلمة عنها . ذلك أن عملية الفصل بين أجزاء الفكر الإسلامي المتعاقبة المتتية ، هو الهدف الأول الذي يهدف إليه التبشير والاستعمار وهو الذي يجعل الأدب جريئاً على كتابة الأدب المكشوف دون أن

يعنى قيود الاخلاق ، وأن يصبح النص القرآنى عرضة لأن يوضع موضع النقد ، وهذا هدف كبير .
أما سلامة موسى فقد كان مفهومه واضح وعمله صريح : جبرته في حرية كاملة حين قال « هذا هو مذهبي
الذي أحمل له طول حياتي ، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب في كل ما أكتب ، أحاول أن أجعل قرأني
يولون وجوههم نحو الغرب وينفصلون من الشرق ، وليس هناك حد يجب أن نقف عنده في اقتباسنا
من الحضارة الأوروبية ، ولا ريب أن هذا من أكبر أهداف التبشير والنفوذ الاستعماري . وقد ردد
طه حسين الدعوة إلى تكوين الصفوة المثقفة . وأشار إلى أن السبيل لتحقيق ذلك هو أن نفتح الطريق
أمام مختلف العناصر الأجنبية وقال : إما أن نقصر على ثقافة بعينها أو يقتصر علينا في الثقافة فلا ندخلها
العناصر الأجنبية إلا بمقدار ، فهذا هو الشر الذي لا يثنى مع كراهتنا ، وقال : هناك أشياء لا بد منها
لتكوين المثقف الممتاز أهمها أمران : فتح الأبواب للثقافات الأجنبية لنتزوج بثقافتنا والعناية بعمل اللغة
العربية لغة مصرية . » . ومعروف بالطبع ما يقصد إليه طه حسين .

وقد احتفلت دوائر التبشير إلى أبعد حد بالآراء التي أعلنتها على عبد الرزاق ، في كتابه عن الإسلام
وأصول الحكم التي حاول بها أن يجعل الإسلام ديناً روحياً محضاً لا علاقة له بالحكم والتطبيق الشرعية
الإسلامية ، فقد كانت هذه الآراء التي أكدها عالم من الأزهر عام ١٩٢٦ هي نفس الآراء التي ألقاها
الورد كرومر إلى المثقفين من المصريين الطامحين إلى تولي شئون بلادهم عام ١٩٠٦ وفي مقدمتهم سيد
زغلول ولطفي السيد وعبد العزيز فهمي ، غير أن أحداً لم يهرؤ في هذه الفترة أن يواجه هذه المسألة في
صراحة ، وكانوا جميعاً يدورون حولها في رفق ومكر حتى جاء هذا القاضي الشرعي فوضعها موضعاً علياً
ذاتاً على طريقة المستشرقين والمبشرين في فهم النصوص واستغلالها . ذلك أن على عبد الرزاق كان قد
حدد لنفسه أو حدد له ذبوه الغاية قبل أن يبدأ البحث : الغاية هي مقاومة محاولة الملك فؤاد في الحصول
على الخلافة . هذه المحاولة التي لم يكن في الإمكان معارضتها سياسياً ولذلك فإن السلاح الماضي لتحقيقها
هو سلاح (النص الديني) ومن هنا أجرى على عبد الرزاق هذه المحاولة مستنداً على نصوص بمزقة من
هنا وهناك وعلى كتب (١) مؤلفة في تركيا حاول ذووها تأييد الاتجاه الذي قرره الاستثمار ونفذه مصطفى
كامل بإلغاء الخلافة ومحاربة إجماع عقلي لهذا الغرض تقوم على أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الإسلام .
و « فيليب حني » واحد من المبشرين الذين عملوا في مجالات الدراسات التبشيرية في الغرب وقد حملت
كتبه جميع الشبهات والنظريات التي قصد النفوذ الاستعماري إلى ترويجها وإذاعتها . وهو من الذين يردون
النهضة العسكرية واليقظة العربية إلى دور إرساليات التبشير والحلة الفرنسية وغيرها من الآراء التي ثبت
صحتها وضلالها . ومن آرائه التي أذاها في جماعة من العرب عام ١٩٤٦ قوله : « لا بد لتحقيق
النجاح من فصل الجامعة العربية كل الفصل عن الجامعة الإسلامية ، فالأولى تجعل اللغة والثقافة أساساً
للتعاون والثانية تجعل الدين . ثم بروج الدعوة التبشيرية الغربية لفصل الدين عن السياسة (وهو ما لا يقره
الفكر الإسلامي) فيقول : ومن الواضح أنه ما لم يتم فصل الدين عن السياسة فصلاً تاماً فلا نستطيع
البلدان العربية الاجتماع على مستوى واحد ، ويجدر بالبلاد العربية أن تقتنى أثر لبنان . وساطع المصري
له آراء جيدة في موضوعات كثيرة من الثقافة العربية ولما كان خطاه الوحيد الذي يترتب عليه كثير من

أخطائه في قضية القومية العربية التي ركز عليها وسلط على الأضواء من أجلها - هذا الخطأ هو أنه (استورد) المفهوم الغربي للقومية وحاول تطبيقه في مجال ثقافة ترتبط بالاسلام أساساً والاسلام أساس من أسس فكرها الذي لا ينفصل في مجال التاريخ واللغة والتراث . وساطع الحصري متأثر في هذا الاتجاه كله بالمفهوم الغربي ، العثماني ، الذي يفصل بين الدين والمجتمع ، وهو إلى ذلك يفهم الاسلام فهماً قاصراً فهو يتناول على أنه (دين تمهدى لاهوتى) قائم على العلاقة بين الله والإنسان ، ومن هنا فهو يستبعد كإرضية للثقافة ، وهذا الفهم خاطئ أساساً فليس الإسلام كذلك ولكنه في اعتقادي خطأ مقصود ، ومستهدف ، وهو نفس المفهوم الذي روجت له حركة التبشير وحركة الاستنراق ، واعتبره الاستعمار أساساً جذرياً لتعامله مع التعليم والتربية والثقافة في العالم الاسلامى ، وهو نفس المفهوم الذي اعتنقته حركة الاتحاديين التي حكمت الدولة العثمانية منذ ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ وكان ساطع الحصري هو المسئول عن التعليم في تركيا خلال هذه الفترة . وقد نقل مفهومه هذا إلى العراق خلال الفترة التي عمل بها مشرفاً على شئون التعليم بها حتى وصف بأنه (دولوب العراق) . ومن السهل جداً على الباحث المثقف أن يرد آراء طه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرزاق ومحمود هزيم وآراء الشعوبيين ودعاة التخريب إلى يومنا هذا إلى الكرد ، الأصل ، الذي كُتبه المبشرون والمستشرقون في مختلف جوانب الرأي في اللغة العربية والاسلام والتاريخ والحضارة الاسلامية . ولقد تمجيد هذه هؤلاء في الكتابة عن مختلف القضايا حتى لقد هنى باحث مثل بار توك بك بكتابة ترجمة واسعة مستفيضة لمسيطة الكذاب لشريتها مجلة الرابطة الشرقية في مصر عام ١٩٢٨ كما تخصص بلاشير في المتنبي لهدفه وتخصص ماسينيون في الحلاج لأحيائه ولكن كتابات أتباع المستشرقين والمبشرين في اللغة العربية لم تمر دون رد عليها وكشف عن أخطائها وأهوائها . وقد تناول الرد على طه حسين عشرات من الكتاب : الرافعى ولطفي جمعه وفريد وجدى والحضر حسين ومحمد أحمد الفمراوى . وتناول الرد على عبد الرزاق : محمد نجيت والحضر حسين والطاهر ابن عاشور وغيرهم . ورد على قاسم أمين : طلعت حرب وفريد وجدى . ورد على فرح الطون الامام محمد عبده . ورد على شبلى شميل : العلامة فريد وجدى . ورد على جرجى زيدان : العلامة قبل النعمان ، ورد على لطفي السيد رجال أكرام أمثال : فريد وجدى وعبد العزيز جوايش والرافعى ، فعلى الباحث المسلم المتقطن الذى يقرأ كتب هؤلاء التابعين للتبشير والتخريب أن لا يتقبل آرائهم كفضاها مسلم بها وأن يعرف وجهة النظر الصحيحة الأصلية .

(١) بين الدكتور ضياء الدين الرئيس من نص للشيخ نجيت أن كتاب على عبد الرزاق له مصدر أصلى هو كتاب مرجليوت . إقرأ كتاب (الاسلام والحلقة للدكتور الرئيس) .

مينة وأن أم هذه الصحف هي السياسة الأسبوعية والمصور (وأضيف المجلة الجديدة لسلامة موسى ومجلة الرابطة الشرقية التي كان يشرف عليها علي عبد الرازق) نقول : « وتحدث المظلومون على مقدار الصلة بين بعض المصريين المشتغلين بالصحافة وبين زعماء تلك الجمعيات في الخارج وعن الإمدادات المالية التي ترد تباعاً تنفيذاً لمبادئ الجمعيات المذكورة التي تقضي بمزيد المساعدة لكل فرد أو هيئة تعمل للنشر مبادئها، حتى إذا كان النصف الآخر من سنة ١٩٢٧ وقعت مفاداة بين محمد باشا ورئيس حزب الدستوريين ورئيس تحرير جريدة السياسة وسبب المفاداة هو تألم أنصار الحزب من الخطوة الإلحادية التي تسلكها جريدة السياسة الأسبوعية وعلى أثر ذلك بدأت هذه الجريدة تخفف من حملتها على الأديان والتعليم وقد لفتت السياسة الأسبوعية جدلاً وتصريحات لطف حسين وعلى عبد الرازق وسلامة موسى في مهاجمة الإسلام والتشكيك في الأديان بالقول بأن التبشير شيء حين أمام حركات الإلحاد والملاحدين، وقال : إن هذه الجمعيات تعنى أكبر عناية بمصر وتمتد أنها قاب الفروق وممثل الإسلام فإذا تمكنت من تهليل عدد كبير من أبناء مصر وزعماء من نفوسهم مبادئ الإسلام سهل عليها تحقيق غرضها.

الفصل الخامس

المنهج الذي تدرسه معاهد تخريج قادة المبشرين

هذه صورة للبرنامج التي تدرس في معاهد تخريج المبشرين مستخلصة من تقارير المبشرين :

(أولاً) يجب أن يكون معلوماً أن العالم الإسلامي هو الخطر المائل أمام الغرب ، وأنه إذا بقيت وتوجد كان خطراً على مصالح أوروبا ، فالغرب يتغذى من العالم الإسلامي منطقة نفوذ سياسية واقتصادية هامة ، فهو مصدر الخامات وسوق المبيعات وبه منابع البترول والمواقع الاستراتيجية العسكرية التي تجعل من يملكها مسيطراً على مقدرات السياسة العالمية . والمسلمون قوم لهم كتاب يتقنون به لغة لا أحد لها وقد حملت تعاليمهم لهم عوامل الوحدة والقوة وهو يدفعهم إلى مقاومة الغاصب والمعتدى والدخول ويشن أعنف حركة مقاومة في الجهاد ويحمل الأساتذة في سبيل الدفاع عن الأرض دفاع عن الإسلام نفسه . وقد كانوا على طول تاريخهم قادرين على هذه المواجهة فيهم صلابة وعناء وقدرة على الفداء والبهذ والتضحية . وهم في مختلف مماركهم كانوا الفريق الأقل عدداً وعدداً ومع ذلك فقد كانوا ينتصرون بذلك الإيمان العجيب الذي يملك قلوبهم والذي يصدر من شيء واحد هو الإسلام . وقرآنهم يرسم لهم منهج حياة كامل في القانون والسياسة والاقتصاد والاجتماع ويقدم نظاماً شاملاً يقوم على التوحيد والأخلاق والوحدة والمساواة والعدل الإجتماعي والهدوي ويجمع الإسلام بين الدين والدولة وهم إذا اتبعوا هذا المنهج لن يخسروا أن تكتب لهم السيادة ولا بد أن يزيلوا نفوذ الغرب عن بلادهم . ولقد رأينا في الحروب الصليبية من المسلمين قوة وصبراً على الجهاد ووحدة في المقاومة مصدرها الإسلام . لذلك فإن أصح طريق للسيطرة عليهم وإدامة هذه السيطرة إنما يكون عن طريق الحياة ودين تنفيذ خطط

الاسلام الاجتماعي والسياسي ، هذه الحيلولة لن تكون قادرين عليها إلا بتربية جيل يكره هذه المفاهيم ويحترقها ويسخر منها وبها . (ثانياً) إن أهم عمل لاختضاع المسلمين للثقافة الغربية وبذلك ينتزع منهم أركز ما في الإسلام من علامات القوة والجهاد والمقاومة والوحدة . ولذلك فإن علينا أن نضمن منافع التعليم والثقافة ما يؤدي إلى هذا الإنجاز ، على أن ينفذ ذلك بدقة ومرونة وعلى آمد طويلة ، وأن نقيم مدارس ومعاهد تجذب المسلمين إليها . حيث يتململون فيها كيف يعجبون بأوروبا ودينها وفكرها وعظمتها ، وبذلك يتحول ميزان النفسية الاسلامية والعقلية العربية من المقاومة والجهاد والحذر إلى التقبل والولاء والاعجاب . وبذلك يصبح هذا الجيل هو القادر على قيادة الحركة الفكرية بفضل تجميعنا وحمايتنا فإذا فرض علينا الجلاء وترك مواقعنا العسكرية والسياسية كان لهذا الجيل القدرة على حماية مخططنا ومفاهيمنا . ولا بد من مثابرة دائمة عن طريق المثقفين أصحاب الولاء لفكرنا وأمتنا ، على إثارة الشبهات والشكوك حول الاسلام واللغة العربية والتاريخ والفرائض والقرآن ومحمد وعلينا أن نحول دون قيام ثلاثة أشياء :

(١) الجامعة الاسلامية (٢) الاسلام دين ودولة (٣) التعليم والاخلاق والدين - ولا بد من دفع قدر ضخم من عوامل المتعة والمذاذ أمام الشباب عن طريق القصة والدرج وفتح النوادي القيلية ومعاهد الرقص وحانات الخمر ، وذلك للقضاء على مقومات الشخصية المسلمة وتدميرها وهدمها وإحلال روح من الفساد والتحلل والميوعة بين الرجال والنساء . ولا بد من الدعوة إلى حرية المرأة . أما حرية الفكر فهي التي تفتح الطريق أمام النظريات المضللة والهدامة للإسلام والفقه والتاريخ أما حرية المرأة فهي التي تفتح الطريق أمام انحلال المرأة والأسرة وهدم الأجيال القادمة من القباب والطبقات (ثالثاً) إن هدفنا هو تغيير العقلية الاسلامية والقضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التعليم والثقافة ونوهين عروة العقائد الاسلامية والحضارة الاسلامية والاخلاق الاسلامية لفرض حضارة الغرب وفلسفة حياته على المسلمين . إن علينا أن نخرج المسلمين من دينهم وواجباته ، ومن ناحية أخرى أن نصور لهم الاسلام ديناً رجعياً ليس له أثر في تطور الحياة الانسانية . وأن نعمل على تشويه الحركة الاسلامية وتهوين المقومات الانسانية والروحية والاسلامية وإظهارها بأشع صورة في المجتمع ، وشن حملة على رجال الدين واتهامهم بالتخلف والجمود ولا بد من إقصاء الاسلام عن المناهج الدراسية ، وإذا كان لا بد فليكن على أنه دين عبادة ، دين روحاني ، عبارة عن صلوات وقساويح ولا شيء غير ذلك ، أما لأنه نظام إجتماعي أو اقتصادي أو تربوي فذلك ما يجب إبعاده واتقاصه وتوجيه حملات التشكيك إليه وإثارة الخلافات التي وردت في كتب المسلمين ، وطرب النصوص بعضها ببعض وإذا كان لا بد من تعلم التاريخ الاسلامي فلا بد أن يكون بأفلام كتابنا ولدينا مئات الكتب عن الاسلام وتاريخه تصالح للتدريس في المعاهد والجامعات والاستماعة بما أورده المستشرقون في دراساتهم من شبهات ومفاديه كتاب الغرب الاحرار في مهاجمة الأديان ونشر المذاهب القوضوية والاباحية ونقل آراء نيقتشودارون ورينان وغيرهم بها وجهه إلى المسيحية ، إلى الاسلام نفسه والاهتمام بالدور الذي لعبه تاريخ أوروبا الحديث في مجال الديمقراطية الليبرالية وإثارة روح الاعجاب والتقدير للدور الذي قام به العقل الأوروبي في

مجال الحضارة والنظم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والتربوية ونشر الدعوة إلى عالمية الحضارة الأوروبية وانصهار الثقافات والحضارات المختلفة منها، وأن أوروبا هي التي يجب أن تخضع لها النظم العالمية القائمة في المجتمع البشري كله وخلق هبة في نفوس المسلمين بأن نظم أوروبا طوداً شامخاً وأنه لا سبيل لحرية أو نهضة إلا إذا اعتنق المسلمون أسلوب العيش الغربي، فيجب أن يخضعوا لنفوذها ويسيروا في ركابها أولاً حتى تتحقق لهم الحرية، (رابعاً) إن على رجالنا أن يكونوا غاية في المرأة ولا يخافوا شيئاً فإن هناك الامتيازات الأجنبية تحميهم فلا يحاكم أحد منهم أو تستطيع أي حكومة أن توجه إليه أي لوم غير أن مقاومة الاسلام بالقوة تزيد انتصاراً. أما الوسيلة الفعالة لخدمته وتقويض دعائمه فهي تربية بنيه في المدارس التبشيرية أو المسيحية ونفث جرائم الاتحاد في صدورهم منذ نشأتهم من حيث لا يشعرون مالم يتصهروا فيصبحوا لامسلمين ولا مسيحيين. (خامساً) أن نحول بين المسلمين وبين الوحدة فإذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير، إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب الصود ونصاعدهم على التخلص من السيطرَة الأوروبية لذلك فإن التبشير عامل هام في كسر شوكة هذه الحركات فهو يعمل على سلب الحركة الاسلامية عنصر القوة والتمركز وبذلك تفتت وحدة المسلمين وتندأ خطر إمتداد سلطانهم باستغلال الشعوب الأوروبية لهم واستنزاف ثرواتهم. (سادساً) إن مهمة المبشرين هو تأجيج الخلاف بين الطوائف، وخلق تحاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس المسلمين وحلمهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية الغربية. (سابعاً) لا بد من الاهتمام بالمبعوثين إلى الغرب وتدريبهم على أساليب الكتابة المرونة الدقيقة الماكرة التي تدخل الدم في أسلوب من الصبراء والبساطة. وعلينا أن نغريهم بالوواج من الاجنبيات حتى يكونوا خاضعين لنا ولحضارتنا وانكرونا خضوعاً كاملاً، وعلينا أن نقدم لهم دائماً تلك الشبهات الماسحة لينشرونها بين قومهم فإن كتابتهم ستكون أكبر أثراً في نفوس أبناء أمنهم من كتابات كتابنا، وعلينا أن ندرّبهم على أسلوب القويّة والبراعة في عرض الشكوك والشبهات ورفضها وإحادتها وتقبلها مرة أخرى حتى تحدث زعزعة لايمان المسلمين بقيسّم الاسلاميّة، (ثامناً) إن نزع الاعتقادات الاسلامية ملازم دائماً للجهود الهائلة التي تبذل في سبيل التربية الغربية ذات الطابع التبشيري.

الباب الثالث

أبعاد التبشير مع القوى المختلفة

الفصل الأول : التبشير والاستعمار
الفصل الثاني : التبشير والتفريب
الفصل الثالث : التفاهير والاستشراق
الفصل الرابع : الدائرة للمرة والمائرة للصيا

الفصل الأول

(١) التبشير والاستعمار

إن العالم الإسلامي ، اليوم يمر بمرحلة دقيقة من حياته تختلف اختلافاً كبيراً من المرحلة السابقة : مرحلة الاستعمار ، فقد أصبح معروفاً وواضحاً أن الاستعمار تغلغل عن احتلاله لأغلب وحدات عالم الاسلام وأصبحت هذه الوحدات « مستقلة » ، بعد أن حلت قوات الاحتلال وتركزت الأوطان لأصحابها يديرونها . هذه المرحلة الجديدة هي مرحلة ما بعد الاستقلال قد أعطت الناس شعوراً بالحريّة والأمن ونقلتهم من مشاعر المقاومة والخطر والتخوف التي كانوا يعيشونها خلال فترة الاحتلال وإبان حكم الاستعمار إلى شعور بالهدوء والطمأنينة دفعهم إلى الانطلاق إلى مختلف مجالات التنمية والهدوء حيث لم تعد هناك قضية من قضايا التحدي تغفلهم أو تستوجب جهودهم . وهذا هو الخطر الحقيقي الذي يواجه شبابنا وأمتنا في هذه المرحلة ، ذلك أن النفوذ الاستعماري عندما أجلى قواته وعساكره ، إنما كان قد اطمأن إلى أن له نفوذاً دائماً أصبح قادراً على الحركة بدلاً منه ، وهو في نفس الوقت أخفى من الحفاه ، وأدق من الدقة نفسها ، ذلك النفوذ هو « الغزو الثقافي » ، والاستعمار الفكري أو ما نطلق عليه نحن عبارة « التفريب » ، ويحب أن يكون موضع التقدير ، إن الاستعمار لم يحقق الجلاء العسكري إلا وقد حقق أكبر أهدافه في فرض نفوذ دائم مستمر ، لن ينقطع مع هذه الوحدات التي استمرها طويلاً . هذا النفوذ هو النفوذ الفكري والثقافي . والمعروف أن حركة اليقظة الإسلامية العربية حين استعلت في منتصف القرن الثامن عشر ، ومضت طوراً بعد طور ، وحلقة بعد حلقة ، إنما كانت جعلت من أكبر أهدافها مقاومة النفوذ الاستعماري بأسلوب إسلامي هري صميم ، هذا الأسلوب هو نهديد طوابع الفكر الإسلامي بالتقاسم مفاهيمه الأساسية وجدوره الأولى التي كانت مصدر قوته ، والتي تخلفه وضمته فاستطاعت القوى الاستعمارية أن تنفذ إليه يوم تخلف عن مفاهيمه وقيمه ، وأتاح لنفسه في نفس الوقت التماس أساليب الغرب ومناهجه وأخذ علومه والجوانب الجادة من حضارة كان هو مصدراً من مصادرها أساساً . غير أن هذا المنهج وهذا الأسلوب لم يكن مقبولا من الاستعمار وللنفوذ

الغربي ، الذي لم يكن يسمح لهذه الأمة أن تستليقظ وتقوى وهو إذ كان حريصاً على استمرار نفوذ واستدامة بقاءه فقد خرق هذه الدائرة المرونة وكون دائرة أخرى قوامها منهج جديد هو التماس حضارة الغرب وفكره معاً ، والذوبان في الفكر الأعمى . والحضارة العالمية ، حتى يفقد المسلمون خصائص ثقافتهم وملامح شخصيتهم ويتقبل النفوذ الاستعماري تقبل إيمان وثقة وصدقة ، ومن هنا أراد أن يؤكد الاستعمار وجوده بالقضاء على الدائرة المرونة وتصفيتها وإنهاء الدائرة . الصفاء ، وفرضها وفرض ثمارها على مختلف مجالات القيادة العسكرية والاجتماعية والسياسية . وقد كان على الاستعمار وهو يطعم في البقاء الطويل أن يقضي على عوامل المقاومة ، والمسلمون والغرب يستمدون عوامل مقاومتهم من أساس فكرهم الإسلامي العربي الذي يرفض الدخيل والنفوذ الأجنبي ويقاومه بالجهاد وحد السيف ، فلا بد إذن لهذا النفوذ أن يقضي على هذه الأسس من المفاهيم ولذلك فلا بد من القضاء على أبرز مقومات الفكر الإسلامي . ولم يكن ذلك يبرأ طالما أن هذا الفكر حتى يتجدد ، وهذه الثقافة ما تزال مرتبطة بجذورها الإسلامية ، اذ لك فقد كانت أخطر خطوة يتخطاها النفوذ الاستعماري هي العمل على فصل الثقافة العربية عن أمها الفكر الغربي الذي يحمل قيما ومفاهيم وأساساً تختلف اختلافاً كبيراً . وكان للاستعمار لكي يحقق هذه الغاية أن يلجأ إلى وسيلتين هامتين : الأولى : التربية والتعليم .

والثانية : الثقافة ، فمن طريق التربية والتعليم يستطيع أن يلتقط الشباب المسلم في المراحل الأولى من حياته وقبل أن تنمو مفاهيمه الإسلامية وجذوره العربية ويعمل على بثائه في مدارس التبشير ومعاهد الإرساليات الأجنبية وفق منهج دقيق الخطر وضعه دهاقنة الاستعمار والنفوذ الأجنبي بحيث يخلق منه إنساناً لا يحمل أى معنى لحب وطنه أو الفيرة لدينه أو التعلق بأمت أو التقدير لتاريخه أو الإعتبار لفته وإنما هو إنسان متطلع إلى الغرب ، هوام هناك ، وتقديره للحضارة الغربية بالغ ولا يبال الغرب كبير ولتاريخ الغرب ولفته وثقافته بالغ الخطر ، ومنه إيمان وحقيدة بأن وطنه المتأخر المتخلف المستعمر لا يستطيع أن يشق طريقه في الحياة إلا أن يكون تابعاً لهذا الغرب ، مصادقاً لهذه الحضارة ، هبداً لهذا النفوذ ، لا يرى في الإستعمار خطراً ، ولا يولييه خصومة بل يراه صدافة وتقديراً وإعجاباً مؤمناً بدور الغرب ودور الرجل الأبيض في تمدن الأمم المتخلفة ونشر رسالة الحضارة هذا هو ما تبثه هذه المعاهد والمدارس والإرساليات المفتحة الأبواب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي والوطن العربي اغفر القادوسين على الإلتحاق بالمدارس الأميرية ذات المصروفات الكثيرة ، ومن ثم فإن أجيالاً كبيرة متعاقبة ، ورجالاً كثر من المسلمين والغرب قد تخرجت من هذه المعاهد والمدارس والجامعات وقد صيغ فكرياً على هذا النحو وصنعت عقليتها وفق هذا المخطط ، ثم أتبع لها من بعد أن تنصدر مراكزها في الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية ، وأن تجعل من مفاهيمها هذه عقائد ، ومن النظريات هذه التي بثها الاستعمار عن طريق الإرساليات في أنفسها حقائق تؤمن بها وتدافع عنها وتذود من أجلها . (٢) وفي مجال الثقافة كان عمل الإستعمار عن طريق الصحافة والكتابات والفيلم السينمائي والقصة المسرحية بالغ الأهمية والخطر ، فقد حملت هذه الأدوات كلها أفكاره التي قدمت بأسلوب غاية في الدقة والفن وأضفى عليها قدر كبير من البراعة والطلاوة ، وكان قوامها خافي جو اللذة والتحرر والانطلاق عن طريق ملذات الجنس والإباحية والسكسة الجريئة والصورة العارية والعبارة المكشوفة ووراء ذلك كله نظرية فلسفية

تدمرها فتقول أن السكبت هو مصدر الفقاء والمرض وأن إطلاق الغرائز ، وتحريرها ، والكشف في الثواب والسكبة أن الحرية في التماس متعة الشراب والمخامرة والرقص ، عن طريق هذا المخطط التبديوي استطاع النفوذ الأجنبي أن يخلق ركائز التي اعتمد عليها في بناء أجيال ترضى عن الإستعمار وتنقبه فكرياً وحضارة وبذلك يتمد بقاءه ويصبح إشريعاً مقبلاً ، وليس خصماً يحارب أوبقارم ، وهذا أخطر ما يواجه مرحلة ما بعد الاستقلال من تحديات : فالعرب والمسلمون يجب أن يكونوا قادرين على ربط ثقافتهم بهذورها من الفكر الإسلامي . مصدره وأساسه ، لقد مرت الثقافة العربية بمرحلتين متواليتين أولاهما مرحلة الجرد والتخلف ، حين توقفت الأساليب الأدبية والمضامين الفكرية عن النمو ، والثانية حين بدأت معالم البقعة العربية الإسلامية مجددة للناموس والأساليب مانحة مفهوم الإسلام نفسه ومقوماته الأساسية ، وحين طغت تيارات الفكر الغربي تحمل عشرات من النظرات والافاسفات والذهوات وقد كان للاستعمار والنفوذ العربي أثره البعيد في فرض هذه النظرات التي تأثرت الثقافة العربية والفكر الإسلامي بها ، حيث جرت معركة ضخمة بين التبعية والأصالة ، وبين المحافظة على مقومات الفكر الإسلامي والشخصية العربية الإسلامية بيهت التراث الإسلامي وتهديده والتماس مناهجه من القرآن والسنة وبين عوامل الترجمة والنقل والاقتراس . وعاش الفكر الإسلامي والثقافة العربية بين نظريتين : نظرية مستمدة من حركة البقعة الإسلامية تدهو إلى بناء الجديد على أساس القديم وللوراثة بين إحياء التراث وترجمة الفكر الغربي : ونظرية قادما دعاة للتغريب وحلة النفوذ الأجنبي وقوامها : تقبل الحضارة الغربية والفكر الغربي تقبلاً كاملاً وظل الصراع يمتد بين النظريتين : حتى جاء الوقت الذي أصبح من الحق فيه أن يقال أن العالم الإسلامي والأمة العربية قد بلغت مرحلة الرشد الفكري ، وأن الفكر الإسلامي الذي كان طوال تاريخه قادراً على تأكيد ذاته ووجوده ودعم مقوماته وفيه وفتح الأبواب أمام الثقافات المختلفة يأخذ منها مايزيده قوة وحيوية ، هذا الفكر قد أصبح اليوم على أبواب مرحلة هو فيها أكثر قدرة على أن يبني قاعدة الأساس مستمدة من مقوماته الأصيلة ، التي هي عمارة مزاجه وشخصيته ومفاهيمه ، وأن يتقبل من الثقافات الاسامية مايزيده هذه القاعدة قوة وهذه الشخصية حيوية دون أن ينصهر في الفكر الأسمى أو يضيع في ثقافات الغرب أو الشرق على السواء ومن شأن هذه النظرة الجديدة ، نظرة الأصالة والرشد الفكري أن تعميد النظر في كل المؤسسات والنقضايا التي قد تركت منذ وقت طويل آثارها وبعثاتها على حركة تطور الثقافة العربية والفكر الإسلامي وذلك حتى تتحرر من آثارها التي تحاول أن تقضي بمرور الزمن على مقومات الفكر الإسلامي والثقافة العربية وكذلك على الشخصية العربية الإسلامية نفسها ذات الوجود المتميز الصريح ومن هنا فإن أبرز ما تنتجه إليه نظرة المثقفين في -بيل تحرير الفكر الإسلامي والثقافة العربية وأصليتها هو مواجهة هذا الخطر السكمان الحقن الذي خلفه الاستعمار قائماً في أوطاننا بعد أن سحب جيوشه وقواه العسكرية ونفوذته السياسية : هذا الخطر للتمثل في الاستعمار الثقافي أو الغزو الفكري أو التغريب . هذا الخطر الذي ركز على دعامات ثلاث : هي التعليم والتربية والثقافة . إن الحقيقة التي يجب أن تكون ماثلة في كل عقل ونفس ، هي أن النفوذ الاستعماري الذي سائرل مصالحه قائمة في العالم الإسلامي والأمة العربية إنما يريد استبقاء هذا النفوذ عن طريق : تغريب ، الثقافة العربية والفكر الإسلامي وسلب مقوماتها

وإخفاء مقومات الفكر العربي والثقافة العربية عليهما بحيث ينتزع من هذا الأمة قدرتها النفسية والعقلية على مقاومته أو معارضته أو التخلص منه وإحلال روح من الثقيل له والتشجيع به والصداقة له والدفاع عنه بل والإحجاب به ، هذه الروح تحمل في طياتها أيضاً الفرض من شأن التفرغ العربي واللغة العربية والتاريخ العربي الإسلامي والشرعية الإسلامية وإثارة الشبهات والانتقادات حولها جميعاً . إن أمتنا كي تحقق ذاتها لابد أن تكشف هذه الصفحة الهامة من صفحات النفوذ الاستعماري وهذا التحدي الخطير الذي واجه الإسلام والأمة والثقافة جميعاً : هذا الخطر المتمثل في حركة التبشير ومراحلها وتطوراتها التي إن تكن قد اختلفت مظاهرها من العالم العربي اليوم فإنها لاتزال حية في أعماق مناهج الدراسة والجامعات والثقافة ، فضلاً أنها لاتزال حية على الصورة العربية في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي وخاصة في قلب إفريقيا وجنوب شرق آسيا . لابد للثقافة العربية من إحاطة بهذا الدور الذي يلعبه التبشير كقوة أمامية زاحفة مفتحة تقدمت النفوذ الاستعماري ومهدت له الطريق وخلقت له الركائز الأساسية التي استطاع بها أن يهيئ جيوشه وقواته ونفوذه السياسي إعتقاداً على بقائها مؤثرة من بعده . ومن حق أن يقال أن أخطر محد يواجه العالم الإسلامي والأمة العربية اليوم في هذه المرحلة التي نعيشها إنما هو التخريب المتمثل في التبشير الخفي المستتر ، في الوطن العربي ، والواضح الصريح في كثير من أجزاء العالم الإسلامي وعلى قدر فهم هذا الخطر والتمسك بالوسائل للتحرك منه يتشكل مستقبل العالم الإسلامي والفكر الإسلامي جميعاً والمعتقد أن المستعمر قد أنهى مرحلة النضال السياسي بالجلء السياسي والعسكري ليفتح المجال أمام استعمار فكري وغزو ثقافي هو الخفي اليوم وراء التبشير الذي هو أداء الاستعمار والتخريب ثمرة ، لقد ترك الاستعمار أندية السياسة وركز جهوده في الجامعات والمدارس والصحف وأندية الثقافة بعد أن وجد أن حركته فيها حرة غير مقيدة ومتوارية عن الأنظار . قال الشاعر الفيلسوف محمد إقبال عام ١٩٢١ . « أن الإسلام مهدد بخطر من مصدرها الغرب . وأولها الإلحاد وثانيها الاستعمار وإن مستقبل الإسلام رهن بمستقبل العرب ومستقبل العرب فإذا تمت الوحدة العربية علا شأن المسلمين في كل أنحاء الأرض . » ولقد ظل المسلمون يقاومون الاستعمار السياسي فلما بدأ يتكشف ، ظهر الاستعمار الثقافي من وراءه أشد قوة وتبين أنه الاستعمار لم يكن ليخل مكانه إلا بعد تأكد من وجود دعائم له وركائز يعتمد عليها في تأصيل وجوده . والحق أنه من بالغ السذاجة أن يظن الرجل المثقف المحيط بالتيارات المختلفة للسياسة العالمية أن الاستعمار قد انتهى أو أنه في طريق النهاية . وخاصة فيما يتعلق بسيطرته على العالم الإسلامي . إنما الذي انتهى هو صورة الاستعمار ، التي بدأت في أوائل القرن التاسع عشر . لقد أتمت هذه المرحلة دورها وحقت نتائجها . فكان لابد أن تختفي ، والاستعمار هو أحرص الناس على إنهاؤها حتى يستطيع أن يحقق استمراره من غير أن يخفش مفاهيم الناس بعد أن ظلت هذه الصورة تزعمهم طويلاً فإذا اختلفت هذه الصورة اليوم فمن السذاجة أن يظن أن الاستعمار قد انتهى فهذا ما يطمح الاستعمار بعد أن حقق أهدافه في تثبيت البقاء ، أصبح الآن قادراً على التخلص من أسلوب العمل الذي يظهر به أمام الناس ، فقد أتم أداء الدور الصريح الواضح الذي سيطر فيه برجاله وقواته وجيوشه ، وأصبح الآن قادر على أن يخفي وراء قوى قادرة على أن تؤدي دورها دون أن يظهر الاستعمار هيئاً وهو حين يخفي اليوم يخفي عن الناس شعور التحدي فتتوول القوى الوطنية

كلها إلى الإيهاب تحت أضواء الحضارة والسنوات والإنحلال ، نعم اختفى الاستعمار بصورة الصريحة بعد أن أقام دعائم نفوذه ، هذه الدعائم التي صنعها التبشير عن طريق التعليم والثقافة في مجالين من أخطر مصانعة المدرسة والصحيفة . وقد خرجت من قلب هذه الحركة قوى تعمل ، وفق مخططة ، وتربط وجودها بوجوده وتواجه التحديات الموجهة إلى الاستعمار بأقوى مما كان يراجعها الاستعمار نفسه ، لأنها تدافع عن بقائها وترى أن في محاربة تحطيم هذا النفوذ تحطيم لوجودها : وهذا الدور يمكن أن يسمى مرحلة الاستعمار الفكري والغزو الثقافي في سبيل الوصول إلى غاية كبرى هي : تقريب الشرق أو تقريب المسلمين أو تغريب العالم الإسلامي ومن عجب أن يرضى الناس عن انتهاء مرحلة الاستعمار ، ولا يقدرون الخطر الذي ظهر نتيجة ذلك ، ذلك أن وجود الاستعمار ، واضعاً صريحاً على مسرح الحياة السياسية في العالم الإسلامي ، إنما كان عاملاً من عوامل التحدى الذي يجب أن تهيئ كل القوى لمقاومته أما خروج الاستعمار فإنه يبعث في النفوس عامل الأمن والدعة ويدفع لقوى الاستعمار الثقافي الحرة في الحركة والتأثير ، والاستعمار مؤسسات أساسية ضخمة تقوم بالعمل في سبيل تثبيت وجوده وتأكيد بقائه ، أهمها : التبشير والاستشراق وهذه المؤسسات تحمل دهوات مختلفة إلى التغريب والصهيونية ولكنها لا تظهرها بأسمائها هذه وإنما تخفيها وراء أسماء كثيرة براقة أهلها تحتجب تحت أسماء ثقافية أو حضارية . وأقوى القوى العاملة هي : المدرسة ، في مجال التعليم والزينة وتشكيل النشء والأجيال الجديدة و الصحيفة ، في مجال الثقافة والفراء . وقد أكدت تقارير المبعوثين المختلفة على الدور الخطير الذي قامت به المدرسة والصحيفة وما تزال تقوم به في سبيل تحقيق غايتين أساسيتين هما : (١) تمزيق وحدة العرب والمسلمين والحيولة دون النشأ (٢) تدمير القيم الأساسية العربية والإسلامية الفكرية والحيولة دون سيطرتها ومحاولة فرض مفاهيم أخرى غريبة المصدر على الثقافة العربية والفكر الإسلامي رغبة في القضاء على : (١) الرابطة بين الدين والمجتمع (٢) أخلاقية التعليم والتربية والمجتمع والسياسة (٣) إذاعة أسلوب من التحرر في مجال الفكر يصل إلى الاتحاد وأسلوب من مجال الحياة يصل إلى الإبادة . ولكن لما ناهى عن الاستعمار عن طريق أدواته : التبشير والاستشراق إلى هذا الغرض ، والإجابة يسيرة : وهي إخراج المسلمين والعرب من القيم التي تدفعهم إلى الحرية ومقاومة النفوذ الأجنبي وعدم الإيهاب في الأمية وإقامة مجتمعهم الخاص من قيمهم وتاريخهم ولغتهم وعقيدتهم . فإذا استطاع الاستعمار إذابة المسلمين والعرب في بوتقة الأمية وصهرهم في الثقافة العالمية وإخراجهم من ثقافتهم وقيمهم لم يعد هناك مجال لتفكيرهم بصورة خاصة ، بصورة الذات والشخصية الخاصة ، عندئذ تصبح الحضارة الغربية وقد حققت أكبر انتصاراتها بأن أحالت المسلمين والعرب إلى عبيد في القطيع التي يسود فيه الجنس الأبيض الغربي صانع الحضارة .

الفصل الثاني

التبشير والتفريب

تجمع الوثائق والنصوص التي بين أيدينا وتؤكد حقيقة واقعة هي أن هدف التفريب وأداته التبشير والاستشراق ، هو إخراج المسلمين من مقومات فكرهم وأهمها مقومات الإسلام ثم إخراج الإسلام من مقوماته أيضاً وذلك بتفسيره تفسيراً يقضي على قيمته الأساسية ويجعله ديناً تمهيدياً خالصاً ليس له صلة بالمجتمع والإنسان ، وليس لهذا من هدف إلا إبعاد الإسلام كنظام مجتمع وعامل حضارى وثقافى مؤثر عن فاعليته مع المجتمع والسياسة والاقتصاد والتربية والتعلم وقد كانت محاولة التبشير لخدمة النفوذ الأجنبى تركز في إقصاء مفهوم الإسلام الحقيقى وإبقاء مفهوم الإسلام كدين تمهيدى ، وتحويل أجيال جديدة لا ترى إلا هذا الرأى . وبذلك يقضى على أم عناصر القوة في فكر المسلمين وحياتهم وهو القدرة والإيمان بمقاومة أى نفوذ أجنبى عليهم . ومحاولة صهرهم في الأمية الصهاراً يفقدون شخصيتهم وذاتيتهم الأصلية . والهدف من التفريب كما ذكره الغربيون في كتاباتهم هو : إنشاء عقلية عامة تختصر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية وإبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مركز التوجيه ، ويقوم التفريب على تحريف التاريخ الإسلامى وتشويه مبادئ الإسلام وثقافته وانتقاص الدور الذى قام به الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى بقصد إجهاد شعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة بمحقق قبول ذهنية الغرب والمضطوح لها ، ويغرس مبادئ غريبة في نفوس المسلمين حتى ينشئوا مستغربين في حياتهم وبمبادئهم عن موازين القيم الإسلامية . وليس ما نقوله بهذا استنتاجاً وإنما هو ثابت بما تحت أيدينا من عشرات من النصوص الصريحة الواضحة التي تكشف في مجموعها الأهداف النفسية العميقة التي تسكن وراء السيطرة الغربية والنفوذ الاستعماري وتكشف عن تكتل هذه القوى جميعاً (التبشير والاستعمار والتفريب) على احتواء فكر العرب والمسلمين ودينهم ولغتهم . من أجل هذا الهدف الواضح الصريح وكل هذه النصوص لباحثين لامعين بعدم الناس في مقدمة البارزين :

(١) يقول الفرد كاتل سميت : إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامى بفرض إذلاله وتحقيره وإشعاعه بالفضالة والخنوع ، وأن الغرب وقف في صف الصهيونية ضد العرب المسلمين متأثراً بتلك العداءة القديمة بين المسيحية والإسلام .

(٢) يقول لويس ماسنيون : إن هؤلاء الطلاب المسلمين المغاربة الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة حتى يكونوا أهواناً لنا في بلادهم (٣) ويقول هنرى دى كاسترى : إن أحد علاج يتناصل به الغرب وأعضا سيف يقتلون به هو : الحرق . وقد جربنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا أن يتجرعوه فتضايف لنسلم ، ولو قبلوا لأصبحوا أذلاء كتلك القبيلة التي شربته خمرنا ونعملت إذلالنا (٤) يقول المارشال ليون (كروسس المغرب) وحيد الحماية الفرنسية في مراکش : إن فرنسا بعد عدة لاتخاذ جيل جديد لا صلة له بالمحاض . هذا الجيل تصنعه وتنفقه على الإيمان بها

ففيهما ويقدرها ، وبذلك يتم لها عن طريقه وضع يدها على البلاد (٥) يقول روم لاندو: إن الصهيونية في أوروبا بالمرصاد لما يندر من الانصاف عن الغرب والاسلام ، ومن هنا فقد نجح بعض المؤلفين تعطل كتاباتهم ، فأغفلوا أثر العرب والمسلمين وأفضليتهم على التاريخ والحضارة (٦) يقول هاملتون جب: إن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الاسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم في تفكيرهم كراهية الاسلام والحقد عليه (٧) يقول م. كويك في كتابه الاسلام والدولة البريطانية: إن الكهنة منا شبوا على كراهية الاسلام وقد ارتضعوا ذلك مع لبان أمهاتهم (٨) ويقول لويس ماسينيوس عن كلمة التجديد: لقد جردنا المسلمين باسم مدينتنا وصاروا لا يعرفون إلا ما نقصده بكلمة التجديد ، التي سمعوها ، لقد دمرنا كل ما هو خاص بهم ، فدمرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأديانهم ، والمسلمون ليسوا من السذاجة حتى يمتدوا بكرم أخلاقنا وقد تحققوا بالشواهد أننا نرغب في أن نبقىهم ضعفاء .

(٩) ويقول جوستاف لوبون: إن حرية التفكير في الغرب تختفي لدى الأوروبي عندما يمتد فكره إلى بحث فكر العالم الاسلامي ، حيث لا يزال هو المفهوم الناتج من الحروب الصليبية وهو عميق الأثر في النفس الأوروبية يحول دون حرية الرأي في الاسلام (١٠) قال مسيو شاتليه إن هدف بمئات التبشير تثبيت الأفكار الأوروبية . قال زوبر: إن الغرض من التبشير قتل الاسلام لاستعباد المسلمين . وما أعتقد أن هذه النصوص في حاجة إلى إفاضة أو شرح فهي واضحة صريحة في هدفها الواضح الصريح (إخراج المسلمين من الاسلام ليكونوا أداة طيعة في يد النفوذ الاستعماري) ومن أجل هذا الهدف عمل التبشير والتغريب في مختلف المجالات . وكان التعرض للإسلام ومحاولة إثارة الشبهات حوله عملاً جريئاً استخدمت فيه كل أساليب الخداع والتضليل ويعد بعداً كبيراً عن الانصاف والمنهج العلمي الصحيح ، وكان المسلمون يستطيعون أن يردوا بعمل عاقل لولا أن المسلمين يكرهون كل الأديان السابقة لهم ويعترفون بها ويكرمونها ويرون أن حقائق الاسلام الصريحة في حاجة إلى مثل هذا الاتجاه — ويقول الدكتور عمر فروخ: لو أننا تعرضنا للأديان كما يتعرض الغربيون للإسلام لوجدنا متسعاً كبيراً للدواينة) وتقوم حلة التغريب على أساس استخلاص الثمرات النهائية للتبشير ، وهي تحويل العقلية الاسلامية والنفس الاسلامية والمزاج الاسلامي تحت تأثير فرص الحضارة والقيم الفكرية الغربية والأخلاق والعادات والأساليب المختلفة ذات الطابع الغربي الوثني وتغليبها على الطابع الاسلامي العربي الخالص . وبهذا الإلحاح المستمر الذي يستمد قوته من النفوذ الأجنبي ومن الدعوة إلى التقدم وحرية الفكر يمكن أن يتحقق التغريب ويصل إلى قته فيصبح العالم الاسلامي أمة غربية الطابع قد فقدت مقوماتها الاسلامية في مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية ، وانصهرت في بوتقة الامية والحضارة العالمية . وأبرز ما ينصب عليه إلحاح التغريب هو تصوير الاسلام بأنه دين لاهوتي عبادي كالمسيحية وليس نظام مجتمع ومنهج حياة يرتبط بمختلف شئون الحياة والمجتمع والفكر . وكل المخططات التي رسمها دعاة الاستعمار واساطين التبشير والتغريب كانت تدور حوله هذا المعنى وحده الذي يتحقق من النجاح في فرضه أمرين: (١) القضاء على وحدة المسلمين وهي التقدي الكبير في عين النفوذ الاستعماري . (٢) القضاء على مناهج حياة المسلمين وقيمهم ومفاهيمهم الفكرية والاجتماعية . وإذا رجعنا إلى جميع الشبهات التي أثيرت ، والمحاولات التي أجرت عن طريق الارشادات والمؤسسات والصحف والثقافة ،

فهي لا تخرج عن حيز هذا النحى الخطير. ومن هنا نهرى دائماً على السنة دماء التفريغ كلية والعلمانية وهي تعنى إقصاء الدين عن المجتمع ، وإقصاء منهج الاسلام نفسه عن الثقافة العربية . وقد أشار زويمر في كتاب له : إن مبدأ (القومية المحدودة) يعد أهم عامل لاقضاء على الاسلام . وقد وضعت الأمم المستعمرة هذا المبدأ نصب أعينها ، ومن ثم انفصلت الوطنية عن الدين ، وانفصل التعليم العصري عن التعليم الاسلامي ، وظهرت دعوات الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والبربرية . وتقريب (وزارة الخارجية البريطانية ١٩٠٧) يكلف عن هذا المخطط كدفاً صريحاً حين يقرر أن الخطر ضد الاستعمار إنما يكمن في البحر المتوسط ، حيث يعيش شعب واحد لو أتبع له قدر من اليقظة والقوة ، فستحل بالاستعمار الغربي الضربة القاضية ، ولذلك فقد جرى التركيز على المنطقة بكل أساليب التزيين والتزيغ والاذابة في الأمة . ولقد استغل التفريغ في سبيل تحقيق هدفه وسائل متنوعة ودعوات مختلفة : (١) الدعوة الاقليمية مثله في الفرعونية في مصر ، والفينيقية بلبنان . ولكي تعرف لماذا ركز التبشير والتفريغ على الدعوة الفرعونية في مصر ، علينا أن نراجع أصول العقائد الفرعونية المستمدة من الوثنيات المختلفة . وليس الغرض في الحق هو إعادة حضارة تمجرت بقدر ما هو إخراج المسلمين من قيمهم ومفاهيمهم القائمة على التوحيد ، والبحث في أصول الوثنية اليونانية والفرعونية والمسيحية الغربية يجد تفاوتاً واضحاً وتداخلاً صريحاً ، حين يعلى من شأن الفرعونية إنما يراد به القضاء على قيم التوحيد وتخليب قيم الطقوس والاكليروس ونظام الطبقات والسكنة وموسيقى المعبود والقرابين وغيرها . وفي لبنان قال أصحاب الدعوة الفينيقية أنها سيكون فيها النصرانية مكاناً أوسع . ولقد سقطت الآشورية والفرعونية والبابلية والبربرية ولم تجد مكاناً في النفس العربية الاسلاميه .

(١) كما اهتم التبشير والتفريغ بالطائفية وأولادها اهتماته واحتضانه ونص عليها في المعاهدات حين أعلن حايته للأقليات . ولقد كانت هذه الطوائف والأقليات تحيا مع المجموع الكبيرة من الغالبية المسلمة قبل الاستعمار في صفاء ووقار ولم يكن بينها خلافات ما إلا تلك التي أثارها النفوذ الاستعماري عند ما أهدده للانقضاء على العالم الاسلامي . فلما وقع الاحتلال احتضن الاستعمار هذه الأقليات ونعماها وجعلها سلاحاً دواًل وأخطر أثر حققه هذا العمل هو اعتماد النفوذ الأجنبي على الأقليات في تعظيم الامبراطورية العثمانية تمهيداً لبطش نفوذه على العالم الاسلامي وكان للأقليات الأرمنية واليهودية على الأخص دور كبير في التأليب على العثمانيين وكان دور (الدعوة) وهم اليهود الذين أعلنوا الاسلام نقيية وأقاموا في سلاطيك دوراً هاماً في المخطط الذي نفذ وما تزال هذه الأقليات في مختلف أجزاء العالم الاسلامي قادرة على إثارة القلاقل السياسية والاجتماعية في كل وقت بما يمكن النفوذ الأجنبي من التدخل لتوطيد مركزه . ويهجد إلى هذا المعنى الدكتور أبيس صايغ في كتاب (الفكرة العربية في مصر) فيقول : « ثم نزل الانجليز في مصر والسودان ، واحتاج الانكليز إلى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون أن يتعاونوا معهم ، وسد اللبنانيون والعوريون الفراغ ، لذلك وصفهم الأورد كرومر في مذكراته بأنهم منحة من السماء وأنهم نخيرة البلاد ومنهم من أثنأ صحفاً وأشهرها صحيفتا المقطم وللقطن ، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق للسلطات والاحتلال باللغة العربية فأبدتا ذلك الاحتلال وهاجنا الحركة الوطنية . »

ويقول كابتن غوردون كاتنج . إن الأفليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام بغير معاملة في البلدان الإسلامية إلى أن تأتي دولة أوربية وتستخدم تلك الأفليات لقاب الحاة كما حدث في مسألة الأكرمن والأتراك ، ويقول بيير روندو كان في وسع الإسلام حل مشكلة الأفليات في الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولكنه لم يفعل ، لأن دعوته لم تقم على الفتح في الأساس ولم يكن ثمة إكراه في الدين لهذا لم يتعرض الإسلام للنصارى واليهود ولم يفرض عليهم بين الموت واعتناق الدين الجديد بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يفرض عليهم شريعتهم (٢) واستغل النفوذ الاستعماري في مجال التبشير والتفريب (نظرية دارون) وعمل على توجيهها لتكون سلاحاً من أسلحة معارضة الفكر الإسلامي ومنازلته في أهم قيمه وهي التوحيد ، وقد تنبه لذلك السيد جمال الدين الأفغاني حين ألف رسالة الرد على الدهريين ، وحين وجد أن التبشير الاستعماري في الهند لم يشتر بين المسلمين لتحويلهم عن الإسلام ، فتحول عن دعوته إلى إذاعة نظرية (النيشيرية) التي تقول إن الكون مادي ولا صانع له ، وذلك رغبة في إخراج المسلمين من إيمانهم بالله . ولم يكن دارون في الحق قد قال ذلك أو تعرض للتوحيد أو الأديان ، وليس في منطق نظريته ما يتصل بذلك ، ولكن النفوذ الاستعماري وحركة التبشير ومن وراءها قوى التفريب استغلت هذه النظرية لإفارة جو من الشكوك والروب وفلسفة النشوء والارتقاء تنافي الإسلام في مجلتها ، كما أشار إلى ذلك السيد رشيد رضا ولكن الخطر هو في الآثار التي ترتبت على نظرية دارون حين حاول مكسلي وسبنسر وغيرهم استغلالها في شتوي الاجتماع والتاريخ ، وإخراجها من مضمونها العلمي الخالص لتكون نظرية عامة تطبق على الجنس البشري كله . ومعنى هذا أن خلفاء دارون من الفلاسفة - لا العلماء - أخذوا مذهب النشوء فنقلوه من تفسير توالد أنواع الحيوان والإنسان بعضها من بعض إلى توالد الأخلاق والشرائع والقوانين وكل أعمال البشر . وقد مضى شبلي شميل خلف هؤلاء مقلداً وناقلاً آرائهم ونظرياتهم التي لم تكن قد نضجت بعد أو تبلورت إلى اللغة العربية فأثار بها شبهات كثيرة . وقد عارضه الدكتور صروف في هذا الاتهام ورفضه بأنه ليس عالماً متخصصاً في العلوم الطبيعية ولكنه طبيب ، ويقول دكتور صروف : إن شبلي لم يدرس العلوم الرياضية وكان حاد الذهن سريع التصور فيبادر إلى المجاهرة بما يعتقد صواباً ولو لم تكن له أدلة قاطعة على تأييده . ويقول السيد رضا إن الدكتور شبلي قد كلف له عن حقيقة خطيرة اتصل بتحويله على هذا النحو إلى الدعوة المادية بعد أن كان مبالغاً في الدين مواظباً في العبادة ، وأن فكرة التمهليل ما طرأت عليه إلا بعد سفره إلى أوروبا فقد لقي في فرنسا عالماً مادياً قال له كلمة دمدمت عقيدته الدينية دمداً ، ولم تكن دعوة شبلي شميل خالصة لوجه العلم أو تقدم الأمة العربية فقد سجلت له مواقف تأييد صريح للاستعمار البريطاني ، وقد أيد مد امتياز قناة السويس ، وله كتابات يقول فيها (الإنجليز يصلحون فلماذا يكرهون وأن مصر تحت سيطرة الإنجليز انتظم ربحها واتسعت زراعتها وأزرى فلاحها وبشنت فيها الحرية ونفتحت لها أبواب السجون ، وأن الفورد كرومر لا يسمح باستخدام الحقوق (البصير ١٨٩٨) وقد هاجم إسماجيل مظهر اتجاه شبلي شميل وقال إنه اتخذ مذهب النشوء والارتقاء منسوباً إلى دارون فريضة لا نبات المذهب المادي الذي اعتنقه طوال حياته وأن حملته على الدين هي متابعة لرأيه المادي وجرياً وراء غاية محدودة ، تلك الغاية هي أن يقبله الناس بينهم الأول ديناً آخر ، ذلك الدين هو

عبادة المادة ، وقد أشارت بعض مصادر التعريب إلى أن الاستعمار والغزو الثقافي قد استغل نظرية دارون لحلق تيار المادية التي برزت فيه من بعد ومثلة في نظريات لورنس وفرويد ودوركايم وماركس . وفي مقدمة الذين استغلوا نظرية دارون : . لينين ، الذي اتخذ من (زرادشت) مؤسس الجمهورية معلماً مثالياً وضع على أسانه ما أراد لشره من آراء قوامها الإلحاد والإباحة في كتابه (هكذا قال زرادشت) (٢) وجرت محاولات التبشير والتعريب إلى إعلال شأن التاريخ القديم على تاريخ الإسلام أو خلط قيم الإسلام بالمعادن القديمة المتوارية ، وبصور هذا الدكتور محمد عبد الرؤوف فيقول : إن للمستعمرين أرادوا أن يصدوا الناس عن مبادئ الإسلام بالمغالاة في تعجيد العادات التي ورثوها عن أجدادهم وأسلافهم وأدخلوا في روحهم أن لها قداسة حيث أنها تمثل تراث أسلافهم ، وكان مبادئ الإسلام دخيلة أجنبية جلبها الأجانب من العرب ، وكانت المحاولات تستهدف رفع شأن العادة التي اكتسبت تدرجياً أهمية وقداسة تعارض ما للدين ومبادئه حتى ليكاد يجهل الكثير أن مجموع ما خلفه الآباء ديناً كان أو عادة وحدة غير متميزة كما عمل الاستعمار ما استطاع وبمعمل ما يستطيع نحو إيهام البعض أن لإسلام القوم إسلاماً خاصاً بهم : أي إسلام عربي أو صيني أو غير ذلك (٤) ومن أم الهناري التي أثارها التعريب للتشويه الحقائق : دهرى الأثر الذي تركته الثورة الفرنسية ، في المسلمين والعرب . وافتد أن الوقت لأن يعرف الكتاب الذين يتصدقون بالكلمات التي توضع على أفلامهم خدمة لأهداف التبشير والاستشراق والاستعمار حقيقة الثورة الفرنسية ودور الماسونية ، تلك المنظمة التي استعرت وراء الصهيونية في القيام بها لتحقيق هدف خطير هو إعلان مساواة اليهود الذين كانوا إلى ذلك الوقت يبعثون في أحياء الجيتا المنعزلة - إعلان مساواتهم بأهالي الأوطان ومنحهم حق الاشتراك في الحياة السياسية والوصول إلى كبريات المناصب ، وحين يقول المدعاة إن الثورة الفرنسية عمت الفوارق التي كانت قائمة بين طبقات الشعب الفرنسي فإنما يعنون أنها أنهت حقبة اليهود وفتحت لهم الطريق إلى ما حققوه اليوم في العالم كله من السيطرة على كثير من المراكز الكبرى في مجال السياسة والاقتصاد والثقافة والصحافة والمال . وغير ما في الثورة الفرنسية إنما يعود إلى غلبة الفكر الإسلامي في أوروبا في هذه الفترة وتأثر الغربيين بمفاهيم الإسلام في الحرية والشورى والعدل والمساواة . ولقد أكرت دوائر التبشير والاستشراق ترديد القول بفضل الثورة الفرنسية على النهضة العربية والإسلامية ، وهذا القول الظاهر الخطأ ما زالت تردده أقلام دعاة التعريب والصهيبيين تأييداً لخطط الاستعمار الذي يحاول أن يورم المسلمين والعرب أن يقاتلهم لم تبدأ إلا بوصول النفوة الغربي إليهم ، ومن الحق أن يقال أن يقظة العرب والمسلمين بدأت قبل الثورة الفرنسية بكثير وقبل الحملة الفرنسية على مصر بوقت طويل أيضاً ، وأن هذه الحملة الفرنسية لم يكن لها أي أثر في النهضة العربية أو المصرية التي كانت قد بدأت فعلاً قبل ذلك واتخذت خطواتها الثابتة . إن ربط اليقظة في العالم الإسلامي أو البلاد العربية بالحملة الفرنسية هو من كلام المبشرين والمستشرقين أصلاً وكل من يردده عن وعي إنما يؤكد هذا المعنى . والاستعمار في هذا يريد أن يخلق فهماً باطلاً هو أن العالم الإسلامي لم يبدأ نهضته ولم يستيقظ من مجتمه إلا عندما جاء الأوروبيون فأيقظوه . ومن هنا فإن كل فضل في هذه النهضة يرجع إليهم . وهذا رأي باطل بواقع التاريخ نفسه وقد تناوله كثير من

الباحثين ، وتناولناه في كثير من مؤلفاتنا (هـ) وقد عمل التغريب والتبشير على اتخاذ الدعوة العربية سلاحاً لتزريق الدولة العثمانية فلما عرقت ناض الدعوة العربية وغلب عليها نزعات الإقليمية الضيقة فلما بلغت الدعوة العربية مكانها بحسبانها وحدة فكر مصدره الإسلام ظهرت الفلسفات والدعوات إلى تزريق هذا المفهوم وإحلال مفهوم آخر قوامه وحدة عربية علمانية تقوم على التاريخ واللغة وحدما . وجرى ضرب الإسلام بالعروبة والعروبة بالإسلام والقول بأن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية هو مفهوم إحدى النظريات الغربية التي حاول ساطع المصري وغيره فرضها على الثقافة العربية . والقول بأن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية ينطبق على مفاهيم الفسك العربي ولكنه يحتاج إلى بيان في مفاهيم الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، وإذا كان يراد بالدين هنا الإسلام رغبة في عزله فإن الإسلام ليس ديناً لا هوياً تبعدياً الحسب ، ولو كان كذلك لتمكن عزله عن أي حركة فكرية ، سواء أكانت قومية أم اشتراكية أم ديمقراطية ، ولكن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، فهو بوصفه هذا يمد الأوعية الطبيعية لمفهوم الوحدة ، وما اللغة والتاريخ من عناصره الجامعة إذ ليس هناك انفصال حقيقي بين تاريخ العرب وبين الإسلام ، كما أنه لا سبيل إلى فصل اللغة العربية عن الفكر الإسلامي . والعربي هو من يفكر عربياً لا من يتكلم عربياً وما تزال اللغة هي أم الفكر وبوقته ، ومن الأسف أن نستورد نظرية القومية من الغرب ونطبق نفس مضمون النظرية التي طبقتها شعوب وأمم تختلف في واقعها وطبيعتها ومزاجها وظروفها هنا . وهناك رأى قاطع يكاد يكون موضع الإجماع بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي : أن الفكر الإسلامي هو فكرهم هيباً ، وأن ليس للمسلمين فكر مستقل عن فكر المسيحيين وإن كان هناك دين مختلف . وأمامي نصوص كثيرة كتبها كتاب مسيحيون عرب منصفون في هذا الصدد تحدوا بها محاربة التبشير والتغريب في إثارة القضايا حول هذه الوحدة الفكرية ، وفي هذا يقول عيسى البندك : إن العربي مسلماً كان أم مسيحياً يرتبط بالإسلام والعربية اللغة التي يتكلم بها والأخلاق التي يتخلق بها والتقاليد التي يراولها وما يمتز به من إباء وشهامة ومروءة ، إننا نؤمن بأن كيان النصارى العرب جزء من كيان إخوانهم المسلمين العرب . وفي أوروبا حاول التبشير والتغريب أن يفرض مفهومها للقومية المنفصلة عن الدين حيث يوجد الدين عاملاً أساسياً في القومية : فالبروتستانتية جزء لا يتجزأ من القومية الهولندية والإنكليزية والأرثوذكسية جزء أصيل من القومية اليونانية والبلغارية . ومن الحق أن يقال إن التبشير والتغريب في كل هذه المحاولات يهدف إلى تزريق القوى المتجمعة ، وإحلال الخلاف محل الوحدة ، ولذلك فهو لا يتوقف عن بذل الجهد في إحلال نظرية مكان أخرى ، ولما فرض العروانية والفينيقية ثم تبين أن الفراخنة والفينيقيون عرباً ، عاد يذهب إلى تعزيز الإقليمية بطوايع جديدة ، ولما ظهرت دعوة العروبة حاول إلباسها ثوباً جديداً تكون فيه مناهضة للإسلام ومنافضة له ودعا إلى عروبة علمانية أو عروبة مجردة من الإسلام . وقد كذبت الوقائع والأحداث فإن كل الحركات التحررية لما ولن تنفصل فيها العروبة عن الإسلام وتشهد بذلك ثورة الجزائر التي أكدت الجانب الإسلامي في كفاحها وكان الإسلام - لا ريب - هو العامل الفعال في قتال الجزائريين لحصونهم . والفكر الإسلامي حين يتقبل العروبة إنما يتقبلها بمفهومه ووفق قيمه الأساسية حيث لا خلاف بين المسلمين والمسيحيين في وحدة الفكر والتقاليد والقيم ، وإن اختلفت الأديان من جانبها العبادي وليس

الامة العربية يستطيع ان تكون امة منفصلة عن الاسلام تاريخاً ولاءً . ولا يستطيع اللغة العربية ولا التاريخ ان يكونا بمفردهما مقوماً للعروبة دون ان يرتبطا بأرضية الفكر الاسلامي الذي انبثقت منه الثقافة العربية . وكما أثار التبهير والتغريب الالتباس بين فكرتي العروبة والاسلام أثار الالتباس بين فكرة البنائية والنصرانية (٦) كما حرص التبهير والتغريب على وضع حالات من البطولة حول كثير من الشخصيات الاستعمارية التي عملت على خدمة أهدافه ، فهناك لورنس ملك العرب غير المتوج ، وهناك غردون بطل تحرير السودان ، وهناك ولفنجهستون وستافلي المكتشفين العالميين ، وهناك فلورانس بانتجيل وهنري الملاح وهم جواسيس أو مبشرين . ولقد كشفت صفحات التاريخ الحديثة خدعة هذه الأسماء اللامعة بعد أن عثفت صحف التبهير والاستعمار بشمعة هؤلاء . والمعروف أن لورنس كان جاسوساً بريطانياً خطيراً دفع العرب إلى الانفصال عن الترك لحساب بريطانيا والصهيونية ، وكانت يعلم مقدماً مدى هذه الخدعة الكبرى التي تمكشفت فيما بعد وهي احتلال الوطن العربي والمحيلة دون قيام الدولة العربية الموحدة . وقد سجل ذلك في مؤلفاته وكتابه . وكذلك أمر غوردون داعية تحويل السودان بالتبهير إلى نفوذ الغربي . أما هنري الملاح وولفنجهستون وستافلي فهؤلاء مبشرون كشفت هويتهم نصرجاتهم وملايسهم التي كانوا يرمون عليها الصليب .

التبشير والتبشير

التبشير والاستشراق

لا شك أن الاستشراق حركة مستقلة والتبشير حركة أخرى مستقلة والواقع أن مصدرهما بدأ في أول أمره واحداً ثم اختلفا في طريقتيهما ولكن التعاون والتنسيق بينهما ظل مستمراً وقائماً ومتصلاً ، وما يزال ، ويمكن أن يوصف الاستشراق بأنه المصنع والتبشير بأنه المصدر أو المورد للشبه الذي يصنعه الاستشراق . والاستشراق بعضه متصل بالنفرة الاستعمارية وبعضه متصل بالثقافات الغربية المسيحية ، وبعضه نزيه وبعضه متعصب . ومن هذا فقد كانت معطيائه في الأغلب نافعة لتنفيذ حركة التبشير وكانت آرائه وملقطاته ومادته ، خام يستطيع التبشير استعمالها في دعم خطته وفي إثارة حوامل الخلاف وتأريث الشبهات بما يحقق خطته . والاستشراق إذا كان خاضعاً لنفوذ ديني أو سياسي فإنما هو يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقرر وبأهداف واضح فيها سوء النية في الأغلب الأهم قوامه تعصب وإتهام للشرق والاسلام والعربية . ومهما صيغت كتاباته في أسلوب له طابع علمي فإنها تكشف عن عدم الحيطة وطابع الانحياز . وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق في مجال التبشير وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً في أيدي زعماء وأصحابه . من هؤلاء : مرجليوث وماسنيون وهنري لافنس ولويس شينغو وفنسك وجوردن زهر وهم من أشد المستشرقين تعصباً على الاسلام واللغة العربية . ويؤكد مجال العمل واتجاهه أن يجمع بين حركة التبشير وحركة الاستشراق الخاضع للنفوذ السياسي

والله في الغرب فهو يتمتع نفس الأهداف وهي الحيلولة دون وحدة المسلمين باستمرار تمريرها والحيلولة دون الالتقاء على مقومات فكرهم بالطن فيها وإثارة الشبهات حولها . وربما أعطت كلية الاستشراق طابعا من التكريم ، وما زالت في نظر الكثيرين تحتفظ بشيء من التقدير من حيث وجود طبقة من المستشرقين الذين يعملون في نزاهة ، ومن هنا أيضا يمكن أن يقال أن حركة التبشير قد اعتصمت بعد الحرب العالمية الثانية بحركة الاستشراق بعد أن أسودت صفحاتها وكرهها الناس ونفروا من المتصلين بها وبعد أن كشفت الأحداث أعمالها المهيئة . ومن هنا فقد خلعت حركة التبشير أثوابها في السنوات الأخيرة واختفت وراء ستار الاستشراق ، ولذلك فذهبن في أشد الحاجة إلى التنبيه والالتفات إلى الفوارق التي يجب أن تكون واضحة في تقدير الباحثين المسلمين لكتابات المستشرقين والمؤلفين منهم وهم قلة قليلة . وبين المبشرين الذين لبسوا ملابس الاستشراق . وما يذكر في هذا الصدد من المستشرق ماسينيون الذي كان تابعا في عمله لوزارات الاستعمار قد عاد في السنوات الأخيرة من عمره فعمل جهده في مسكر المبشرين معتمداً على اسمه اللامع المحاط بقدر كبير من سمعة العلماء . وقد تبلورت في السنوات الأخيرة مراكز العمل بين التبشير والاستشراق ، فالأول قد ركز في مجال التعليم المدرسي والجامعات والهيئات الإرسالية المختلفة وأصبحت دور الحضارة ورباطة الأطفال والمراحل الابتدائية بحسبانها المجال الأسهل والأفدر على صياغة الأطفال المسلمين صياغة تجعلهم مرتين في حياتهم الجامعية وفي تقبل آراء التغريب والدموية وتقبل النفوذ الاستعماري على أنه حضارة ، وتقدير فضل الغرب بمدى الأم والشعوب وصاحب الحضارة وانتقاص أمته ووطنه ودينه بحسبان أن بلاده المتأخرة إنما يرجع تأخرها إلى دينها وثقافتها القديمة . هذا هو ما تريد أن تركز عليه المعاهد والجامعات والمدارس التابعة للنفوذ الأجنبي وإرساليات التبشير ، وهي دعوى خطيرة يجب أن يكشف عنها في التعريف بالفارق البعيد بين الحضارة والاستعمار ، وقد حرص التبشير في مخططاته المدروسة على تلقف الأطفال قبل أن تتكون فيهم مفاهيم الإسلام بحكم البيئة الطبيعية الإسلامية . وبينما حمل التبشير في مجال التعليم والمستشفيات والملاجئ والجمعيات الأدبية وجامعات الشباب عمل الاستشراق في مجال البحث باسم المنهج العلمي ، وقد استخدم الاستشراق الكتاب والمقال وكرسى التدريس في الجامعة والمشاركة في المؤتمرات العلمية العامة . ومن هنا يقع التلاقى والتنسيق بين العاملين في دور العلم والصحافة بين الدعوة الصريحة في التبشير وبين الدعوة المستورة في الصحافة والكتاب والدراسات ذات الطابع العلمي ، وهكذا يشترك التبشير والاستشراق في العمل من خلال أم الجوانب التوجيهية الهامة في التعليم والثقافة بوسائلها المختلفة . ولم يعد عمل التبشير واضحا صريحا اليوم . بعد أن تكونت الأجيال الأولى الذي عملت ومهدت طريق المسرح والقصة والسينما فأمكن عن طريقها اليوم تقديم الآراء وجهات النظر التغريبية في لباقة ومرورة من خلال هذه النصوص سواء من حيث دعم المفاهيم الغربية أو تحطيم المفاهيم العربية الإسلامية ، وما تزال المجلات والأفلام السينمائية ترد إلى العالم الإسلامي من مختلف دول العالم باسم التبادل الثقافي . وهذه الدول ذات المصالح الاستعمارية في العالم الإسلامي لا تقدم إلا أنواعا معينة من هذه الأفلام والكتب والقصاص التي كتبت خصيصاً لتنفذ إلى أعماق النفس العربية والإسلامية لترويج هذه المفاهيم . حتى تصبح حقائق موحى بها تصل إلى مرحلة الافتتاح بتوالي ترديدها ، وقد وصل الدكتور محمد البهي

في بحثه إلى أن التبشير والاستشراق كلاهما دعاة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي ، فكلما دعاة إلى توهين القيم الإسلامية والغرض من اللغة العربية الفصحى وتقطيع أواصر القرى بين الشعوب العربية وكذا بين الشعوب الإسلامية والتشديد بحالة الشعوب الإسلامية المحاطة والازدواء بها في المجالات الدولية العالمية . . ولما كان الاستشراق معنياً بالتراث القديم فهو يستطيع أن يخدم التبشير حين يولي اهتماماً كبيراً إلى شخصيات مضطربة في الفكر الإسلامي أمثال الحلاج المهروردي وأبونواس وبهار وإعلاها . وكذلك اهتمامه بكتاب الأغاني وألف ليلة وشعر حر الحيام (وهو في الحق مذسوب إليه) وذلك بالإضافة إلى ما يستطيع أن يحصل عليه من الروايات الغامضة أو المضطربة زوراً وبهتاناً التي يتصيد منها كتب المحاضرات التي كانت تهاجم ما يرويه القصاصون في عصور الاضطراب والاضغاضة وتقديم هذا كله على أنه حقائق علمية يمكن استغلالها كأسلحة لإثارة الشبهات حول حقائق الإسلام والفكر الإسلامي . والمعروف أن التبشير والاستشراق لهما معاً بعد الحروب الصليبية في حضارة الكنيسة وكان الاستشراق يستهدف ترجمة القرآن إلى لغات أوروبا للرد عليه وإثارة الشبهات حوله بما يصل إلى أن يكون أداة طيعة في يد المبشرين الذين انبثوا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يجادلون المسلمين . وإذا كان لنا أن نأخذ برأى واحد من أتباع المبشرين هو فارس الشدياق فربما استطعنا إلقاء الضوء على حياتهم العلمية . يقول في كتابه (فليل القاريات ص ٢) . إن مؤلفه الآساتيذ لم يأخذوا العلم من شيوخه وإنما عطفوا عليه أطفالاً وتوئبوا توئباً ، ومن تخرج فيه بشيء فإنما تفرج على القسس ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهل ، وكل منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها يحبط فيها يحبط عضو أو يشبه عليه منها رفته من عنده بما شاء ، وما كان بين الطلبة والتبين خدس فيه فرجع منه المرجوح وغفل المفضول . . وهكذا نرى فساد عمل الآساتيذ الذين يعول عليهم كثير من باحثينا وأساتذة الجامعات عندنا ، حتى أنهم يأخذون آرائهم حقائق مقررة ويرددونها كالبخاريات . وقد أكد الدارسون المنصفون أن أعمال البعثات التي قام بها المستشرقون إلى بلاد الشرق والعالم الإسلامي لم تكن بثبات علمية خالصة وإن قامت باسم العلم وحملت أسماء الجامعات والمعاهد العلمية ، وإنما هي بعثات سياسية ذهب محصولها إلى وزارة المستعمرات ، ولا زلنا نذكر البعثات العلمية التي وردت إلى العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى والتي ساحت في صحراء سيناء وجزيرة العرب وكيف أنها كانت في الحقيقة بعثات سياسية حربية أرادت أن تكشف عن الطرق والمياه والسكك الحديدية ومواقع الجيوش وتحركات العدو ، وقد جاء الجاسوس (لورنس) على هيئة عالم مستشرق ، ثم تبين من بعد أن هو لورنس الذي قاد العرب في قتال الترك شركائهم في الإسلام ، ثم تبين كيف خدم الاستعمار العرب بعد أن حاربوا الترك واستولى على أرضهم التي وهبهم بأن يحقق لهم فيها قيام دولة عربية . من طريق الاستشراق ظهرت مختلف النظريات التي استخدمها التبشير والتفريب والاستعمار في توهين القيم الإسلامية وتفتيت الشعوب العربية الإسلامية ، فمن طريق الاستشراق ظهرت نظريات السامية والآرية من ناحية والفرعونية والفينيقية والبربرية من ناحية أخرى ، وقد كانت مؤثرات الاستشراق ولا تزال لا يدهى إليها في الأغلب إلا أصحاب الولاء الواضح

لنفوذ الاستعماري والتبشير . وقد وجد في الأروام المتقدمة من كان يقف في مؤتمرات المستشرقين فيرد عليهم ويكشف اتهاماتهم ويصحح أخطائهم أمثال عبد العزيز جاويز وأحمد زكي باشا ، أما الآن فإن الأعلام الذين يحضرونها فإنما هم من يرددون ما قاله المبشرون والمستشرقون جميعاً لأنهم من تلاميذهم وأتباعهم .

(٢) الاستشراق في خدمة التبشير : إن أبسط تصوير للاستشراق وأحقه هو أنه استخدام العلم في خدمة السياسة . ولقد يتحدث الكتاب ببساطة عن الدور الذي حققه الاستشراق في التراث العربي والإسلامي ، ونحن نقول إن مصدر اهتمام المستشرقين بالشرق والإسلام ووضع الدراسات المختلفة إنما يرجع إلى أن العالم الإسلامي واقع في قبضة استعمارهم ، فهم يدرسون تاريخه وأدبه ليدرّسوا نفسية هذه الأمم ليكيفوا موقفهم معها ويعرفون من أي جهة يستطيعون إخضاعها وما هي جوانب الضعف فيها للاستفاح بها وما هي جوانب القوة للقضاء عليها وذلك بقصد أن يبقى نفوذهم ويستمر ، وهم في كل ما كتبوه قد عمدوا إلى وضع الإسلام واللغة العربية والثقافة والتاريخ في قفص الاتهام وحلّوها على أن نقف موقف الدفاع ورد المساهم : ومن أجل هذا الهدف يركز الاستشراق في جوانب معينة فهم يركزون على التصوف الفاسي وأعلامه وإذاعة آرائهم وآثارهم وذلك غرض خبيث ولا شك فقد وصل الفكر الإسلامي إلى تصفية مثل هذه الموجات التي مرّت بالعالم الإسلامي نتيجة اتصاله بالفكر اليوناني والفارسي والهندي منذ وقت طويل ، والإسلام مفهومه الأصيل في التصوف ، فحالة الاستشراق لبعض لون معين واحد هو اللون المشبوه المتصل بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود أمر لا يقره الإسلام أصلاً وإنما يكشف عن الغرض الخبيث . ويبدو هذا الاتجاه من الاستشراق في الاهتمام بشخصيات بعينها في تاريخ الإسلام والأدب العربي : كالاتهام بالحلاج في التصوف وأبو نواس في الأدب (أهتم لويس ماسنيون بدراسة موسعة للحلاج وأتم بلاشيد بدراسة المتنبي) . وفي نفس الوقت تساق إليهم وأعمال الانتقاص إلى التخصصات الأصلية التي أضافت إلى الفكر الإسلامي إضافات هامة ولها مكانها الأصيل : كالحلة الموجهة إلى ابن خلدون والمتنبي والفزالي . وقد أصدر أولياء الاستشراق والتبشير من الكتابين باللغة العربية دراسات في هذا الصدد جرّوا فيها وراء أهداف الاستعمار والتفريب ، وهناك ثلاثة رسائل معروفة : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطف حسين ، ومع المتنبي لطف حسين ، والأخلاق عند الفزالي لوكي مبارك . وهي في مجموعها ترديد للاتهامات والشبهات التي أثارها المستشرقون والمبشرون وهناك محاولة دائمة لتصوير الفكر الإسلامي بأنه واجه الاضطهاد وحيل بينه وبين الحرية وأن هناك دأباً له استشهدوا في هذا الصدد ، وتلك محاولة باطلة لا أساس لها ، فإن الفكر الإسلامي ظل حراً قادراً على التعبير ، ما لم يصطدم المتكلمون باسمه صراحة بالحياة ، أو الاتهام بمؤالاة أعداء المسلمين ، وهم يقدمون دائماً في هذا السبيل : أسماء الحلاج والسهوردي . ومن الحق أن يقال إن الحلاج ظل ممتنعاً بحريته في أن يقول ما يشاء إلى اليوم الذي ثبت فيه أن بينه وبين رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الحولة ، عندئذ قتل لحياته لا لحرية فكره ، وكذلك الأمر بالنسبة للسهوردي . فليس هناك في الحق قضية اضطهاد لحرية الفكر في الإسلام كما حاول الذين كتبوا عن الحلاج وفيه أن يشوهوا الحقيقة . ثم إن هناك محاولات تفريبية دائمة إلى تدمير أعلام الإسلام وإحياء خصومه

والشعوب من أسماء أمثال بشار وابن الرومى وأبو نواس والونج والقرامطة . وقد ركز الاستغراق على الأفكار الدخيلة على الإسلام ومن ذلك اهتمامه بفكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد . وفكرة وحدة الوجود معنانيا تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله ، وهذا هو سر اهتمام المستشرقين والمبشرين بابن عربى والحلاج . أما مفهوم الإسلام فهو أن للوجود إثنان : واجب الوجود ويمكن الوجود . وواجب الوجود هو صالها الواحد الفرد الصمد ، ويمكن الوجود هو هذه الكائنات كلها التى ندركها بحواسنا الخمس مباشرة . أما أصحاب مذهب وحدة الوجود فيقولون : إن كلاهما واحد ، ومعنى هذا أن الكون هو الله ، وقد أنكر الإسلام حقيقة الاتحاد : أى حلول الخالق فى المخلوق واستغراق المخلوق فى الخالق والإسلام يعطى كل منهما ولذا أنكر الإسلام فكرة الحلول والاتحاد والتجسيد . ولا يتقبل الإسلام (وحدة الوجود) لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله الفلاسفة (لا موجود فى الحقيقة إلا الله) وشتان بينهما وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف لنتائج الأخرى والنصوف فى مفهوم الإسلام يبدأ من القرآن والسنة وينتهى إليهما . وهكذا فإن فلسفة وحدة الوجود والحلول والاتحاد هى مفاهيم غريبة أصيلة فى الفكر الإسلامى ومستمدة من فلسفات وافدة وعامية وجوسية ، وهذا هو ما يعجب المبشرين والمستشرقين فى الصوفية ، وهو الذى يدهمهم إلى الاهتمام بها . وقد كانت المستشرقين جولات جريئة يهاجمون فيها الإسلام واللغة العربية فى مؤتمراتهم . وكانوا يهدون من أمثال عبد العزيز جارىش وأحمد زكى باشا وغيرهم قوى عاتية تقف فى وجههم وتكشف شبهاتهم . ولا تزال نذكر ما وقع فى مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ حين نهض مسيو فولار وتحدث عن اللغة العربية الفصحى وهون من شأنها . وأعلى شأن اللهجة الدارجة وقال : إنه لا يرى أن لغة القرآن هى أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضة للناسخة التى تتخذ قاعدة من بين اللغات العربية وقال إذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصع فصاحة والأصح أصلا وتركيبا فعلينا أن نرجع بالبحث إلى المصور التى حُبقت ظهور الإسلام . وقال إن القرآن مديج على طراز خاص من النثر . وقد رد عليه العلامة عبد العزيز جارىش باللغة الإنجلىزية ودحض شبهاته وألقى بيانا مطولا عن اللغة العربية والقرآن وقال : ه أن لكم وأنتم الأغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد والفصيح والأفصح فإن محمدا الحكيم فى اللغة استوجب وجود ملكة اللغة راسخة فى الحس عربىة فى النفس وهو ما لا يؤق بالكسب إلا بعد انقضاء السنين الطويلة . وقد اصطدم المفكرون المسلمون بالتشهير والاستغراق وقادته عندما رشع أحدهم وهو فنسك رابى تحرير دائرة المعارف الإسلامية ليكون عضوا فى المجتمع العلمى فى مصر وهاجم هذا الإجراء : الدكتور حسين المرادى وقدم صورة لآراء فنسك فى رسول الله وكشف عن اتهامه واتهام زملائه فى النيل من الإسلام . وقال إنه إذا أراد أن يتال من الإسلام أمرا فإنه يفرض فرضا ، ثم يبحث عن الآيات التى قد تتناسب مع هذا الرأى الذى يفرضه فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها وحذفها وأنكرها إنكارا حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع اليك فى فؤاد من يطالع على أقواله من غير تحيى ، وقال إن هذه هى طريقة المبشرين التى يتبعونها عند بحثهم فى الإسلام نفسه أو فى حياة محمد ﷺ أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة فى القرآن ، وهذه الطريقة لم يتقدها فنسك ، بل هى طريقة قديمة فى أقدم ما ورد فى كتب المستشرقين والفرس منها ظاهر جلى

وهو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بجميع شبه منطقية يدعون بها هفائد المسلمين ويقالون من تمسكهم بدينهم ، وهي إحدى الطرق التي وضعها رواد الاستعمار من زمن قديم ، وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللغات العامية حتى لا يتفاهم بها المسلمون ولا يفهمون لغة قرائهم . وفي تقرير لجنة العمل المغربي يقول المستعمر سيكاردي : إن الإسلام في روحه الخاصة قوة معارضة لاحتياجاتنا ورغائبنا ونزعاتنا فن مصاحبتنا للتفليل منه بين الشعوب الخاضعة لحطانتنا . وقد نقل التقرير نفرة من كتاب ربيو الذي يدرس لفريق من طلبة أوروبا اللغة العربية حيث يقول : « أريد يا صاح أن تعلم الكلام مع الأهالي الذين حولك . . إلى أن يقول : لا تظن أني سأعذك لغة القرآن ، هذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهي (الانتهية) العربي ، وهي اللغة المستعملة في جنة محمد وسأحب إليك دراستها في المستقبل إذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحواراءين . ويقول الدكتور المراوي : ويشمل لك نتيجة عمل المستشرقين جلياً في كل كتاب علمي أو عراني أو اجتماعي يكتب شيئاً عن الشرق وعن الإسلام فإنك ما تكاد تقرأ أي هذه الكتب حتى الأفريقية منها حتى ترى إجماعاً على الجهل بالإسلام أو إجماعاً على الطعن في النبي الكريم ، وقد أنتج ذلك أن بعض المتعلمين من المسلمين الذين لم يلجوا إلماً كافياً بدينهم أخذوا يتبعون خطأ المستشرقين ويقتفون أثرهم بالطعن في نفس دينهم واختاروها لنا اسماً غريباً في هذه الحالة هو حرية الفكر والتجديد في الأدب العربي ومباحث الشعر الجاهلي إلى غير ذلك من التفنن في أنواع الهجاء المشعوذة بلباس سطحي من القيم لا تكاد تلمسه حتى يتمزق ويمتلك سر لا يسه ، إنه قليل الثقة عالة في معلوماته من دينه على جماعة المستشرقين . . وضرب الدكتور المراوي مثلاً بما ورد في دائرة المعارف الإسلامية في مادي إراهم والسكبة ، من شبهات ومغالطات . ودائرة المعارف الإسلامية : هي في ذاتها عمل من أعمال التبشير والاستشراق لوضع الشبهات المختلفة التي توصل إليها خصوم الإسلام في ثوب له مظهر علمي ، ولذلك فإن مراجعة مواد هذه الموسوعة يحتاج من الباحثين المسلمين إلى حذر شديد . وقد عرض كثير من الباحثين لأخطاء دائرة المعارف المتعمدة ، وأشار العلامة فريد وجدي إلى سيطرة البدع الدخيلة على الإسلام على مواد هذه الدائرة باستفاضة مشيرة ، فقد أمعن مؤلفو الدائرة في تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة . وتورد هذه (البدع) على أنها من المعارف الإسلامية بينما يبرأ الإسلام منها ، وهو ما جاء إلا ليحاربها ، وقد اعتمد المبشرون في إبراد ذلك على كتب ليست علمية قاصدين التقوية بإدخال الأساطير والبدع إلى حقائق الشريعة كأنها كلها مواد الإسلام وقيمه . ومن أم الكتب المشبوهة التي اعتمدت عليها دائرة المعارف الإسلامية كتاب (شقائق المصريين المحدثين وعاداتهم) التي كتبه إدوارد وإيم اين عام ١٨٢٥ عن المصريين ، وقد كان كاتبه من الخصوم القاصدين إلى تشويه الحقائق ، ثم جاء مبشرو دائرة المعارف فنقلوا عنه غرافاته كأنها حقائق مقررة . وكأفاب (شقائق المصريين المحدثين وعاداتهم) يدرس الآن في بعض المعاهد والجامعات في العالم العربي . ألفه المستشرق المبشر (إدوارد وإيم اين) الذي قدم مصر ١٨٢٥ بهدف واضح هو جمع عدد من الشبهات والصور المثيرة لصياغتها على نهر يوحى بأنها أخلاق المصريين ، وتحقيقاً لهذه الغاية المأكرة فقد أغنى حقيقته وسمى نفسه منصور أفندي وتوابعه الأتراك وادعى الإسلام ليتمكن من محاربة المسلمين

في أسرار معتقداتهم (كما يقول) وجعل يقضي للمساجد وحفلات الذكر وموائد الأولياء ويستمع إلى أحاديث المعجزات والخوارق حتى يتسنى له أن يكتب مؤلفه الذي اهتم به دوائر الاستشراق في أوروبا وثاقفته وترجم إلى اللغات المختلفة في الشرق والغرب وأصبح بتوجيه الاستعمار والتبشير ونفوذهما مرجعاً شعبياً لمن يدرس العادات والتقاليد ، كما أصبح أحد المراجع الهامة التي اعتمد عليها مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية الذين كانوا ينقلون عنه هذه الحقائق على أنها حقائق . وكذلك فعل التبشير والتغريب بكتاني الأغاني وألف ليرة إذ جعلها من المصادر العلمية التي يعتمد عليها ، ولا شك أن من أخطر أعمال التبشير هو وضع موسوعات كاملة أمام الباحثين العرب والمسلمين تمكنهم من أن يجدوا فيها ما يريدون البحث عنه في سرعة وسعة ، فيلجأون إليها دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث عما يتضمنه من حقائق أو باطلين وذلك اعتماداً على طبيعة بعض المؤلفين والباحثين والعلماء من الثقة بالكلمة المطبوعة ومن الاعتماد على شهرة الأسماء التي وضعت على صدر هذه الأبحاث ، ومن هذه المراجع المشهورة دائرة المعارف الإسلامية والمنجد والموسوعة العربية وبروكلمان وغيرها . ونظراً لتقصير المفكرين المسلمين في وضع مثل هذه الموسوعات فإن دائرة المعارف الإسلامية هذه تجد مكانها لدى الباحثين الذين لا يمتنعون إلى بعض التعليقات القصيرة والحوامش التي وضعها بعض ذوي النيرة للكشف عن القبهات المدسوسة في تلك النصوص . والمهدف الأكبر من مثل هذه الأعمال القاصدة إلى تقوية الحقائق هو خلق شعور بالنقص وإحساس بالازدراء من شأنه أن يحيط على نفوس المسلمين والعرب . ويصدق في هذا قول الدكتور عرفان عبد الحميد من أن هدف الاستشراق هو خلق جيل يتنكر لآثار هذه الأمة ليصير إلى حيرة واضطراب فكري فيسهل عنده غزو المجتمع الإسلامي بالغزو والمباديء والمفاهيم والتصورات الغربية . وقد أشار مالك بن نبي إلى أنه في كل قضية أو مسألة أو معضلة تواجه المسلمين فإن الاستعمار والتبشير والاستشراق والتغريب قادر على طرح إجابات من محاولته المستمرة لتغير مجرى التفكير الإسلامي . ولقد ينوي هذا الاهدأ تمام الذي يوليه المستشرقون للتراث العربي الإسلامي إلى إنصافهم ، وقد ينبغي عن بال هؤلاء أن مصدر اهتمام المستشرقين بالإسلام والشرق إنما ينصب أساساً على دراسة نفسية هذه الأمة للتعامل معها بما يحقق لهم هدفهم في إذلالها وتغيير مجرى تفكيرها بحيث تصبح مستسلمة خاضعة لهم . وقد أجمعت كتابات المستشرقين على أنهم لم يخلصوا بعد من نقصهم وأن عليهم لم يتحرروا من الهوى وقد سجل برنارد لويس وجب هذا المعنى حيث أشار وناراد إلى ظاهرة التعصب الديني الظاهرة في مؤلفاتهم وأشار جب إلى ظاهرة الأحكام المسبقة على الإسلام التي لا تزال تحكم هذه الأعمال بالرغم من محاولات التحرر منها ولا شك أن زعم المستشرقين بأن أبحاثهم قد أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأخذ بأسباب البحث العلمي ، هذا الوهم لا يثبت أبداً أمام الصور المشوهة والمعارات الحاقدة الدفينة التي تظهر هنا وهناك من وراء الوهم بالرغم من محاولة إخفاؤها . وبجمل القول أن آراء المستشرقين منحرفة وهي منصبية على القرآن والرسول والإسلام فالقرآن عندهم صورة من الكتب الأخرى وأن له لغة في مكة تختلف عن لغة المدينة والإسلام صورة مستفانة من الديانت اليهودية والمسيحية . وإن الرسول كان راهباً رومانياً غضب على البابوية وخرج

ها . وما تزال كتابات ورسوم ذاتي وفرجيل وفولتير وديدرو وهي من أوائل السكتانات المبعضة ،
ما تزال تؤثر في كتابات من تبعهم من أمثال لامنس ومرجليوث ولويس شيخو وسنوك وفنسك وقد
انتقلت آراهم إلى طه حسين وعلى عبد الرازقي ومحمود عزمي وسلامة موسى وحسين فوزي وزكي نجيب
عمود ولويس عوض وتوفيق الحكيم .

الفصل الرابع

الدائرة المرنّة والدائرة الصماء

إن هناك قوى ثلاث خطيرة تعمل في مجال الفكر الغربي وتلقي ظلمها على الفكر الإسلامي والثقافة
العربية وهي :

[الصهيونية — التبشير — التغريب]

وجميعها قوى استعمارية فكرية تتغنى خلف الطامعين : النفوذ الغربي والصهيوني والشيوعي ولا بد
— إزاء ذلك — من اليقظة النامية في تقويم الآراء والمذاهب ، والدعوات التي توجه إلينا كالمساهم ،
ولا بد أن يكون لدينا قاعدة عربية مستمدة من مقومات فكرنا وذاتنا وعقائدنا وشخصيتنا أساساً .
وعلينا أن لا ننق موقف المبهورين أمام ضخامة الصحف أو جلالة الأسماء والألقاب ذات الشهرة المادية
فإن أغلب هذه الشهرة التي حصل عليها المفكرون إنما صنعت لهم صنعا لإغراء الباطل بهم ، فيصعدوا
إلى آرائهم وكأنها حقائق صحيحة ، وعلينا أن نلتبس مفهوم فكرنا في هذا ولو أن كل كلام يؤخذ منه
ويترك إلا القرآن والسنة الصحيحة ، وقاعدة الحق الذي تقبله أن يطابق د التوحيد ، ومنهج القرآن وأن
نقره عقلياً ونثق ثقة كاملة بأن قائله ليس من ينطبق عليهم قانون د المرح والتمديد ، أي أن يكون
اسمه نقياً بعيداً عن شبهة الولاء الثقافي والتبشير أو الاستشراق أو الاستعمار وفي ضوء هذا علينا أن ننظر
في هذه الحقائق . (أولاً) أن اليقظة العربية الإسلامية قد طلعت براكدها في منتصف القرن الثامن
عشر (١٧٤٠ م تقريباً) بدعوة التوحيد التي قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ومن
هذه الدعوة انفجرت كل هذه الدعوات والحركات التي أتت والتي كانت امتداداً واستمراراً لمفهوم
اليقظة ، كانت الحركات السنوسية في طرابلس الغرب والمهدية في السودان امتداداً لها ، كما كانت حركة
جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده من بعدها . وعندما جاء النفوذ الفرنسي إلى العالم الاسلامى واجهته
حركة اليقظة النامية التي بدأت تعمل في مجال مقاومته بالإضافة إلى عملها في مجال تحرير الفكر الاسلامى
وإعادة تشكيله من جديد . وقد أزهج النفوذ الاستعماري ذلك الأسلوب العنيف الذي بدأ به د الجهاد
والمقاومة : فقد واجهه المسلمون المنوذ في سنة ١٧٨٥ في مقاومة حادة كانت تستند مفهومها من

حركة التوحيد التي قادها محمد عبد الوهاب في الجزيرة العربية ، وفي مصر واجه الانجليز أحمد عرابي ، الذي اُعلم في الأزهر ، وفي القرم واجه الاستعمار الروسي القبيح شامل . وفي الجزائر واجه الفرنسيون الأمير عبد القادر الجزائري وكان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده يؤلبون عليهم في كل مكان وحل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لمواجهة الخطر الزاجف واستجاب له المسلمون خارج الدولة العثمانية والسنوس في ليبيا والمهدي في السودان إلخ . هذا هو الخطر الذي واجهه النفوذ الاستعماري الواضح ، ولذلك فإن العمل الأول الذي اتجه إليه هو خلق قوة تؤمن به ولا مانع أن تكون معارضة له شريطة أن تحمل لواء التقام معه . واستطاع كرومر في مصر خلال ربع قرن تنمية هذه الدائرة التي خدمت الناس وموت عليهم بأن اتباعها من تلاميذ جمال الدين ومحمد عبده ، فلما تمت هذه الدائرة الصماء واستحدثت قضي الاستعمار على الدائرة المراتة الأصلية وصفاها قبل الحرب العالمية الأولى وأفسح الطريق لدائرته الصماء لأن تتولى أمور الحكم وتصدر . واعتقد أنه فعل مثل ذلك في كل أرجاء العالم الإسلامي وكان من نتيجته ظهور : رضا شاه ومصطفى كمال وأمان الله خان وسعد زغلول . وقد استطاع النفوذ الاستعماري بدعائه ومكره إسقاط الوهابية ١٨١٨ في الجزيرة العربية وإسقاط محمد علي في مصر ١٨٤٠ وإسقاط عبد الحميد في تركيا ١٩٠٩ .

وبذلك صنف كل القوى الشابة التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر ثم مهد لعملية أمكن إتمامها من بعد وهي إلغاء الخلافة الإسلامية ١٩٢٤ وإقامة إسرائيل ١٩١٨ - ١٩٤٨ . (ثانياً) أن النفوذ الاستعماري لم يقبل أن تتحرك اليقظة من خلال هذه الدائرة وحدها وفرض دائرة أخرى استندما من معاهد الارساليات الأجنبية التي تركزت في استانبول والقاهرة وبيروت . ومن هنا فقد ظهر جيل جديد من دائرة اليقظة ، وجيل مصادره من دائرة النفوذ الغربي . وقد أطلق على الجيل الأول اسم المحافظين ، وأطلق على الجيل الآخر دعاة الحضارة الغربية غير أن هذا الجيل الذي وصف بالحافظة لم يكن كذلك إلا بمعنى إقامة النهضة على قاعدة الفكر الإسلامي وقيمه الأساسية وإخضاع النقل والاقتباس من الحضارة والفكر الغربي لهذه القيم أما الجيل الذي ظهر في الدائرة الصماء (الغربية) فأبرز دعائه فرح أنطون وهدقوب صروف وشبلي شمسيل وجرجي زيدان وأديب اسحق من اللبنانيين . ولطفي السيد وسد زغلول من المصريين وظهر في دائرة اليقظة الإسلامية العربية : رشيد رضا والكواكي ومصطفى الفلايين وحلي يوسف وعبد العزيز جاويز ومصطفى كامل وطنطاوي جوهرى وفريد وجدى وقد تطعم هذا الجيل بعدد كبير من الباشا- ثين المسلمين الذين أحرزوا أرقى الدرجات العلمية في أوروبا من أمثال : فريد وجدى وعبد العزيز جاويز والدكتور يحيى الدرديري والدكتور محمد أحمد الغمراوي والدكتور مظهر والسيد محب الدين الخطيب والدكتور عبد الحميد سميد فسكل هؤلاء تعلموا في الجامعات الحديثة .

أما في المرحلة التالية بعد الحرب العالمية الأولى فقد ظهر في الدائرة الغربية : طه حسين وإسلامة موسى ومحمود هزنى وإسماعيل مظهر وحلي عبد الرزاق وساطع المصرى . وظهر في دائرة اليقظة العربية الإسلامية : مصطفى صادق الرافعى ومنصور فهمى والدكتور محمد حسين هيكل

وهي أساس العقاد ولطفي جمعه وشكيب أرسلان . (ثالثاً) إن مختلف النظريات والشبهات التي بردها المبشرون والشعوبيون ودعاة التغريب قد أوردتها لورد كرومر في تقاريره السنوية التي كان يصدرها كل عام وبجعلها رسالته إلى الجبل الجديد من المثقفين الذين كان يقدم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطاني . وفي هذه التقارير سجل كرومر الخطوط العامة لتهديم كل هوامل الإيمان الوطني والاعتزاز العربي الإسلامي . وكان أول من ساق الأكتوبة الضخمة التي تقول إن المصريين كانوا خاضعين أكثر زمانهم فقد حكمتهم دول الفرس واليونان فالرومان فعرب جزيرة العرب وبغداد فالجراكسة فالترك آل عثمان . وهذا بالضبط الذي كتبه كرومر ١٩٠٦ رده الدكتور طه حسين عام ١٩٣٩ ومن قبله سلامة موسى ولطفي السيد . ولقد كان كرومر وطه حسين ولطفي السيد جميعاً يعلمون أن صلة المصريين بالعرب لم تكن صلة استعمار وأن الرابطة بين العرب والدولة العثمانية لم تكن احتلالاً . وخلق كرومر فكرة تقول بأن مصر لم تبق جزءاً من آسيا أو من أفريقيا أو من الشرق وهو ما رده سلامة موسى من بعد . وتحديث كرومر عن الحكومة الإسلامية ووصفها بالحكومة النيو قراطية وهي العبارة التي ما يزال يرددتها الشعوبيون ودعاة التغريب والمبشرون وكذلك فإن كرومر هو الذي شن الغارة على الجامعة الإسلامية ورمها بمباراة الازدراء ، ونسب إليها التعصب . وقد أشار كرومر في هذا المجال إلى أن أوروبا ستحول بكل ما تملك دون وحدة المسلمين حين قال : « إنني واثق من قوة أوروبا واقتدارها عند الاقتضاء على تلافى هذه الحركة من الجهة للادية وإن تكن غير قادرة على ذلك من الوجهة الروحية » (تقرير ١٩٠٩) . وفي تقارير كرومر : « منهج كامل الحلة على الإسلام والتشريع الإسلامي وما تزال عبارات كرومر هي نفس العبارات التي ترددها حتى الآن كتابات المبشرين ودعاة الشعوبية والتغريب ، ومن ذلك قوله : « إن الجامعة الإسلامية تستلزم السعي في إصلاح أمر الإسلام على المنهج الإسلامي والسمي في القرن العشرين في إعادة مبادئه وضمت من ألف سنة صدى لطيفة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة هذه المبادئ مناقضة لآراء أهل البصر ، وقد راد الكهنة من كتاب المسلمين على شبهات كرومر ودحضوا اتهاماته وكشفوا عن طالية الشريعة الإسلامية وقدرتها الخارقة على منح الإنسانية في كل عصر ومصر حاجتها وحل معضلاتها وقد شهدت بذلك مؤتمرات القانون والتشريع ، وهدد من أعلام الفكر الغربي المنصفين وبالرغم من تحذيرات كرومر فإن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية استمرت ولم تتوقف وأن الحركات الوطنية والقومية في العالم الإسلامي كله إنما هي مستمدة من مفهوم الوحدة الإسلامية . وفي تقارير كرومر توجهات إلى الجبل الذي أعده لتسلم مقاليد الحكم في البلاد وفي مقدمة الأذكياء الذين استجابوا إليه : لطفي السيد وسعد زغلول وهيد المرز فهدى وقد كان لهم مكان الصدارة عام ١٩٠٠ قبل أن يبارح كرومر مصر فتولى سعد زغلول وزارة المعارف وأصبح مشرفاً على شئون التربية والتعليم وتولى لطفي السيد قيادة الحركة الفكرية والصحفية رئيساً لتحرير « الحريدة » ، أسان « حزب الأمة » وهو صاحب الفلسفة الإقليمية الأرستقراطية المخافية للعروبة والإسلام وقيم الفكر الإسلامي نفسه وهو يتحدث مؤلاء الطاعين حين يقول : لا ريب أن أحداث المصريين يبدأون يصبحون الحصول على نصيب أعم في حكومة بلادهم وإدارتها ، إن صديق المصريين أصدق من أن اتلفهم أو أضلهم ولذلك

أسأل نفسي قائلاً : ما الذي يروق الأحداث المصريين، فهم يريدون أن يرتقوا إلى مناصب الحكومة العالمية التي يتقلدها الأوروبيون الآن وليس عندي كلمة ضد هذه الأمنية . ثم أشار توأ إلى ما أسماه أتباع الشيخ محمد عبده الذين يشبهون في آرائهم أحمد خان مؤسس مدرسة هليكرة وقال عنهم إنهم يرغبون في ترقية مصالح أبناء بلادهم وأبناء ماتهم وليسكنهم مجردون من صيغة الجامعة الإسلامية ، وهكذا حدد كرومر مفهوم مدرسته وهدفها حين قال من بعد . وبيان مقاصدهم ومطالبهم لا يتضمن معارضة الأوروبيين في إدخال عمدين الغربيين إلى بلادهم بل معاونتهم في ذلك ولهذا حقق كرومر هدفه في بناء جيل على نفس المخطط الذي رسمه الاستعمار (رابعاً) حاول كثير من الكتاب أن يصف حزب الأمة الذي تصدره لطفى السيد عام ١٩٠٧ بأنه حزب وطني عاقل الوطني وأنه كان خصماً للاستعمار ولقد قدمنا في منتصف كتبنا الدليل بعد الدليل على أن كرومر هو منشئ هذا الحزب ومخطط فلسفة أستاذ الجيل وأن سعد زغلول هو أبرز تلاميذ هذه المدرسة . ونورد هنا عبارة اللورد لويد في هذا العدد من كتابه (مضر منذ عهد كرومر) الذي صدر عام ١٩٣٣ وترجمته الصحف المصرية ونشرت فصولاً منه يقول اللورد : كان كرومر يعمل على إيجاد خطة تكون الغاية فيها في رأيه إيجاد حقبة أو حائل دون حملة الحزب الوطني وكان يعرف أن في مصر عدداً كبيراً من المعتدلين ذوي النفوذ والمسكان الذين كانوا أوسع مدارك وأبعد نظراً وكانوا يريدون تحقيق الرقي جذرياً بالوسائل الدستورية وكان كرومر يسمى بينهم لسكى يؤلف منهم هيئة تنشر آرائهم . وكان من نتائج ذلك أن ألف حزب الأمة في أكتوبر ١٩٠٧ وصدرت جريدته الجريدة وكان أحد أعضاء هذا الحزب الذي ينهى عن مستقبل عظيم ذلك الرجل الذي أصبح اسمه أعظم الأسماء في تاريخ مصر الحديث وهو سعد زغلول . وكان قد اشتغل بالمحاماة وتولى قضايا الأميرة نازلي وكانت هذه السيدة هي التي شجعتة على تعلم اللغة الفرنسية التي لولاها لما اشتغل بالسياسة وكانت خطواته الثانية زواجه بابنة رئيس الوزراء صديق كرومر فهمى باشا . وكان إذن متصلاً اتصالات حميمة من هذه الناحية وكان قد انبرى بصفات تميزه من ناحية الاعتدال والهدوء وكان إذن من الطبيعي أن يعتمد كرومر وهو مقتنع بضرورة تجميع الآراء المعتدلة ثم لمروره بأن يؤدى لصديقه مصطفى فهمى باشا معروفاً بترقية سعد زغلول فيجعله وزيراً لوزارة المعارف الجديدة وكان هذا العمل افتتاحاً لخطة جديدة غايتها تقوية الرابطة بين مصر وإنجلترا .

الباب الرابع

التبشير وآثاره في بناء الفكر والثقافة

- الفصل الأول : التعليم في أحضان التبشير .
الفصل الثاني : الشبهات التي أثارها التبشير .
الفصل الثالث : التبشير والفكر الإسلامي .
الفصل الرابع : التبشير واللغة العربية .
الفصل الخامس : أثر التبشير في الثقافة العربية والفنون .
الفصل السادس : التبشير والأدب العربي .
الفصل السابع : التبشير وتاريخ الإسلام .
الفصل الثامن : التبشير والوحدة الإسلامية .

الفصل الأول

التعليم في أحضان التبشير

اغلب التبشير من التعليم أكبر أهدافه وأبسطها من وأعظمها أثراً في تشكيل أجيال المسلمين والعرب الجديدة على النحو الذي يضمن له استسلامهم لنفوذه وتقبلهم واعتناقهم لمفاهيمه وقيمه وإذا كان التبشير بوصفه أداة الاستعمار الأولى والكبرى قد عمل في ميادين الثقافة واللغة والتأليف والصحافة فإن مكانة الأول هو التعليم على حد قول عميد المبشرين : (المبشر الأول هو المدرسة) . وقد سجل دعاة التبشير هذه الحقيقة في كثير من نصرياتهم ومؤلفاتهم . ففي المؤتمر التبشيري العام الذي عقد عام ١٩٢٤ سجلاً تسجل محاضره المنشورة يوجه العمل إلى الأطفال : « في كل حق من حقوق العمل يجب أن يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين وموزعاً فيما بين المسلمين باعتبارهم البذرة الجديدة الهامية القطوف ليحيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة ، ويجب أن يقدم هذا على كل عمل سواء في الأقطار الإسلامية . فإن تنور روح الإسلام في النافس الحديث تبتدىء باكراً من عمره ، فيجب في الحالة هذه أن يؤتى بالنشء الصغير من المسلمين إلى (الرسائل) قبل أن يتكامل نمو عقليتهم وأخلاقيهم على القوالب الإسلامية فتفسد عقليتهم وأخلاقيهم حينئذ تستعصر على المبشر . ومن الأدلة والبراهين الجديدة التي تؤيد هذه الحقيقة ما تقرروا وسجل في سجلات بعثات التبشير في الجزائر وفي شمال إفريقيا ويمكن أن يكون من القضايا المسئلة أن الجري على قاعدة للعمل في النشء الصغير من المسلمين هو أفضل الأعمال وأعودها بالخير وحسن الثمار . ونقول المبشرة أنا مليحان : ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة ، فإن المدرسة أقوى قوة لعمل الناشئين تحت تأثير (الغرب والمسيحية) ، وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة أوطانهم ،

وهذا هو الهدف في الحقيقة : السيطرة على الجيل الجديد منذ مطالعته لإعداده على النحو الذي يكفل له عندما يصبح في مكان القيادة السياسية والاجتماعية والثقافية في وطنه أن يكون صاحب ولاء فطري وثقافي قوامه الحب والإعجاب والتقدير للذين هلبوه ولشئوه . ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة ما بين الحربين بتنقيف أبناء الأمراء والعظماء وكبار رجال السياسة وتلقهم إلى التعليم في المعاهد الأجنبية وذلك لخلق هذه الطبقة وإعدادها وقد كان بإغراؤهم هجيباً لسكنهم من أصحاب ، المرا كوالية - حتى بعض كبار المسئولين في مجال الاسلام - على تعليم أبنائهم وبناتهم وقد أشارت تقاريرهم إلى ذلك بما أسسته نزوع الطبقة الراقية إلى للدارس الأجنبية ، وقد أكد المراقبون للنتائج الخطيرة التي حققها التعليم التبشيري في تقريب المسافة بين الاستعمار وأهل الاوطان الاسلامية وما حققه من حل كثير من المشاكل ، وأهمها المسألة الشرقية وقيام إسرائيل في قلب العالم العربي ، وليس أدل على أهمية ذلك من أن الذين حلوا لواء التبشير بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وحلوا على تمزيق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الأوروبية من تقسيم الفريسة فيما بينها كانوا من الذين عملوا في معاهد الارسلالات التبشيرية هؤلاء الذين خدموا النفوذ الأجنبي في مصر وكافوا على إخلاص لكرورهم والاستعمار وهم أصحاب الصحف الكبرى في مصر (للقطم والحلال والأمرام) إنما كانوا من هؤلاء ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ودولة مسيحية في لبنان ، ومنهم من عاود الدعوة عام ١٩٤٥ إلى أن تكون لبنان وطناً قومياً النصراني في الشرق الأدنى ومنهم الدعاة إلى العامة والحروف اللاتينية وكل الدعوات التي تعمل على تعميق الاقليمية وتمزيق وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العرب والاسلام بعد أن تحقق إيقاع الخلاف بين العرب والترك وترجع أهمية مدارس الارسلالات التبشيرية والمعاهد الأجنبية إلى أنها لا تدرس الاسلام ولا اللغة كليات ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدة من التوراة والانجيل في أبواب الاخلاق وبعضها هلماني محض ينظر إلى الأديان والأخلاق والعروبة والاسلام والسايخ الاسلامي نظرة احتقار وتشكيك ويتناول تناول للنقد المشوب بروح الازدراء . والمعروف أن المعاهد الفرنسية تعلم منجهاً فلسفياً استعماريّاً في كل شيء ، يعرف فيه الطلبة جغرافية فرنسا وتاريخ فرنسا والكتب التي تدرس هي كتب فرنسا ولا يعرفون في نفس الوقت أي شيء عن وطنهم العربي أو عالمهم الاسلامي والمعاهد التابعة لبريطانيا تعمل نفس الشيء وكذلك المعاهد التابعة لأمريكا وقد فرضت أغلب هذه المعاهد على الطلبة المسلمين الالتزام بتعاليمها الخاصة وأرغمتهم على حضور الصلوات برميا في الكنيسة . ولما احتج الطلبة أصدرت إحدى الجامعات سنة ١٩٠٩ منشوراً قال فيه : إن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي ثم اشتروا الأرض ، وأقاموا الأبنية وأنشأوا المستشفى وجوهوه ولا يمكن المؤسسة أن تستمر إذا لم يستندوا هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء لوجودنا تعليمياً يكون الانجيل من مادته فتعرض منافع المسيحية وعلى كل تلميذ وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه ، إن الكلية لم تؤسس لتعليم الهلماني ولا لبعث الأخلاق الحميدة وإنما من أول غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة وأن تكون مركزاً للتوراة المسيحية والتأثير المسيحي وأن تخرج بذلك على الناس ونوصيهم به

وفي هذا القدر كفاية عن أهداف التعليم التبشيري ، وفضلا عن ذلك فقد أشارت تقارير المبشرين المختلفة إلى أن التعليم التبشيري ما زال أفضل طريقة للوصول إلى عقول المسلمين وأن الحاجة إلى توسيع هذا التعليم وزيادة نشره تزايد وتمتد يوما فيوما من كل جهة . ويكاد يكون هناك إجماع بين المفكرين المسلمين والعرب ، وبهذه دعاة التبشير وكتاب الغرب من ناحية أخرى وبين خريجي هذه المعاهد من ناحية ثالثة على هذا الهدف الواضح الصريح وهو تحويل المسلمين والعرب عن قيمهم ودينهم وتاريخهم وأخلاقهم . (١) أما المفكرون والمسلمون العرب فإنهم يعتقدون أن أول هم للبشر هو عدم الاعتقاد في تليذه فيصبح الطالب مستغنياً بالمعتقدات . أما الخطوة الثانية فهي محاولة حرس تعاليم جديدة في أرض لم تعد صالحة للاعتقاد ، وذلك يؤدي إلى أشد النتائج إقظاعة ، وهو حرض المبشرين الطلبة على المراماة فالسلوك (المصري الغربي المسيحي) هو مقياس الاستقامة التي يتوقف عليها تمييز الطريق للراغب في النجاح المدرسي . هذا ما سجله أحد خريجي هذه المعاهد إذ قال : إن قولي ذات مرة إن لا أوافق على هذه الأخلاق في مناقشة مع مدير المدرسة وكان يحثني على التمسك بها كاد يدخلني مستشفى المجاذيب لعدة الاضطهاد الذي واجهته في وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة . وقد أشار ساطع المصري إلى تصريح المارشال ليوني مؤسس الامبراطورية الفرنسية في إفريقيا الشمالية في خطبته عن اختياره عضواً في الأكاديمية الفرنسية الذي قال فيه : أعترف بأن فرنسا قد استفادت من مدارس المستعمرات استفادة كبيرة ، فإن أبناء المستعمرات الذين جندوا في الحرب العالمية قد وفروا على فرنسا بما قدموه من تضحيات بأرواحهم ملايين من الأنفس الفرنسية . ويصور جبران خليل جبران أثر مدارس الإرساليات التبشيرية في نفسه وفي جيله فيقول : في سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة وقد كنا ولم نزل نلهم (خبر الصدقة) لأننا جياع متضورون ولقد أحيانا ذلك الحبر ولما أحيانا أما أننا أحيانا لا نه أيقظ (بعض) مداركنا وبه عقولنا (قليلا) وأما أننا بأن فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا بحيرة مستعمرات صغيرة مختلفة الأفراق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالثاب الذي يتناول لفحة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي ، والثاب الذي تخرج رشفة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والثاب الذي لبس قيصاً من مسيح مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا ، إلى آخر ما هنالك من المدارس وما تخرجه كل طام من الممثلين والمعتمدين والسفراء . وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع ، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانجليزية يريدون أمريكا أو انكلترا وصية على بلادهم ، والذين درسوا بالفرنسية يطلبون فرنسا تتول أعزهم ، وقد يكون ميلنا إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجليل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبنى حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ، ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع خبابة ، ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهرأ . ومفكر آخر تعلم في الإرساليات التبشيرية هو ميخائيل نعيمة : يقول رأيه : فإذا يقول : لقد عرفت سوريا غزاة كثرين فلم يكن من شأننا وإليها دهن الله برفقة أن نرى هجاعة فوق قوتها ، إلا أنهم

منذ أواسط القرن الماضي اتخذت مهدياً لفرازة ما عرفت مثلام من قبل ، غزاة جاءوها لا ليأكلوا جسدتها بل يقبضوا روحها ، فقد شنوا عليها الغارة بالتوراة والإنجيل والريالات والمعاقير ، فكانوا أشد قسوة عليها من كل من سبقهم ، افتتح هؤلاء سوريا باسم الدين ، كان على المبشرين أن يزينوا مدينتهم للسوريين كما لو أنها صفوة السكالك ، لعلوم على احتقار مدينتهم واحتقار أنفسهم ، ومن ثم فقد صورهم الغرباء الذين أرسلهم في حالة تقارب الحمجية فسلمهم جاهل ونصرائهم وثني وكلهم حكيمة عند المدينية . . . أما الغربيون فقد كشفوا عن هدفهم واضعاً : قال الكاتب الفرنسي إيتين لامي : « إن مقاومة الإسلام بالقوة تزيد انتشاراً ، أما الوسيلة الفعالة لهدمه وتقويض دعامته فهي تربية دينية في المدارس التبشيرية أو المسيحية ونصت جرائم الإلحاد في صدورهم منذ نشأتهم من حيث لا يشعرون ، فإن لم ينتصروا فقد أصبحوا لا مسلمين ولا مسيحيين ، . والمستغرق ماملتون جب يكشف في جلاء ووضوح عن أهمية التعليم في غطة نفريب المسلمين والعرب في كتابه (وجهة الإسلام) فيقول : التعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب ، والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدخل عليه ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقدار دراسته لفكر الغربي وللبداء والنظم الغربية . إن انتشار التعليم (الغربي) سيثبت بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتمميته ولا سيما لاقتراحه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريق . وقد ذكر الدكتور زويمر كبير المبشرين في العالم الإسلامي أهمية ما قام به الاستعمار من إخراج القرآن وتاريخ الإسلام من برامج التعليم مما أخرج ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية ناشئة مضطربة مادية الأهراس لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة ، وقد علق الدكتور واطسون على هذا التصريح بعد أكثر من عشر سنين فقال : « إننا نراقب سير القرآن في المدارس الإسلامية ونجد فيه الخطر الدائم : ذلك أن القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخضعهما سياسة التبشير . (٣) أما خرجي هذه المعاهد فإن أكبر حدث في هذا المجال هو موقف عبد القادر الحسيني الذي كان طالباً بإحدى هذه المعاهد وتخرج منها . فقد وقف في يوم الاحتفال بتخريج زملائه وتخرجيه ، وفي يده الشهادة التي أحرزها ، وقال إن لديه كلمة يريد أن يقولها إن هذه الجامعة تظهر أمام الناس في مظهر المدرسة العلمية ولكنها في الحقيقة بؤرة لإفساد العقائد الدينية وهي تظمن في الإسلام ، ولذلك لا يصح للمسلمين أن يبقوا أولادهم فيها ، وكشف عن عدد من الكتب المقررة التي تحمى للذي والإسلام . وقال مدير الكلية إن هذه الكتب ليست مقررة على الطلبة وإنما هي من بين أربعة عشر ألف كتاب في مكتبة الجامعة ، وبعضها يشتمل على الطعن في الدين المسيحي وقد نشرت الصحف في هذه الفترة فقرات من هذه الكتب وبموصفاً ثبت صدق ما قاله عبد القادر الحسيني . وأشار الدكتور عمر فروج في كتابه التبشير والاستعمار إلى الموضوعات التي تدرس في بعض معاهد الإرساليات ومنها ما يأتي : (٩) نصاري لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية . (٢) يقول آرست رهنان : إن الفلسفة العربية ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية وقاله الويل للتلميذ الذي ينتصر للفلسفة العربية انتصاراً ظاهراً ، أما كلية الإسلام وحدها فقد تفسح للطالب المجال ليحرب حظه مرة أخرى في دورة تالية . .

(٢) التعليم التبشيري والمرأة المسلمة

لم يقف أمر التبشير عند الإرساليات والتعليم الأجنبي وحسب ولكنه سيطر أيضاً بغاياته ومفاهيمه على التعليم الحكومي وفوزا وزارات التعليم والمعارف في العالم الإسلامي كله حيث فرض على هذه الوزارات عدداً من المبشرين ، وفي مصر أولى الاستعمار اهتماماً كبيراً بالنزول التبشيري للتعليم فكانت خطط كرومر التي نفذها المبشر دنلوب ودعها رجلاان من تلاميذ المدرسة العربية هما إلهي السيد في الجريدة وسعد زغلول وزير المعارف . وقد استهدفت حملة كرومر التي نفذها دنلوب ومن بعده : عزل مصر عن الأمة العربية وعن العالم الإسلامي وعن جذور الفكر الإسلامي المستمد من القرآن ، وقد جرى بالتقسيم دنلوب من مدارس إرساليات التبشير الإنجيلية إلى وزارة المعارف المصرية وسرعان ما أصبح مستشارها النافذ الرأي وقد عرف عنه أنه كان إذا رأى الرأي الذي يحقق غرضه دعا إليه موظفاً مصرياً من موظفي وزارة المعارف فذاكره فيه واستدرجه لاستحسانه ، ومن خلق الموظف أن يستحسن ما يستحسنه رئيسه ، ولو لم يكن مقتنعاً به ، فإذا أعرب لدنلوب عن استحسانه ذلك الرأي اقترح عليه أن يكتب له فيه تقريراً ثم يمرض التقرير على الجهات المختصة مع التوصية بترويجه ، ثم يقال : إن الموظف المصري فلاناً هو مقترح هذا الرأي ويكافئه (خيال الظل) على الدور الذي مثله بترويجه إلى درجة أعلا . وهكذا وضعت مناهج التعليم المصري بكل درجاته وهكذا رسمت طرائق تكوين الفئس في المدارس المصرية وهذه الطريقة رسمت في وزارة المعارف المبادئ التي نفذوها ، ومنها جعل التعليم الديني صورة بنهر روح وتجهيد المدارس من التربية الإسلامية ومن تربية الرجولة ، واعتبار الإسلام احتلالاً وترويضاً أحاديث في بعض كتب الدراسة منها أن مصر احتلتها الفرنج ثم البطالسة ثم العرب . وتجاهل الروابط الحقيقية في الجنس واللغة وذلك جرياً على خطة دنلوب التي ترمى إلى قطع أواصر مصر بكل من يرتبط معها في اللغة أو الدين لإضعافها وإليها ما لأبنائها بأنهم منفردون ولا علاقة لهم بالآفطار الأخرى ، وكثير من الكتب التي كانت تدرس كانت تورد اسم العرب والإسلام في سلسلة الأمم المحتلة لمصر ولا تذكر من علاقات مصر بحارائها قبل الإسلام وبعد الإسلام إلا الحروب إياها بأن هذه الشعوب والآفطار كانت أعداء لمصر ولم يكونوا وإياها في كيان واحد . . وقد أشار الدكتور هيكل إلى دور وزارة المعارف وهدفها الحقيقي فقال : إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غد إلى أن يتاح لها النصر السياسي إلى السياسة التي كانت تخضع لها أيام أن كان (دنلوب) مستشاراً لها مع فوارق عدد المدارس وعدد الأساتذة ، إن سياسة التعليم في وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية والحضارة الغربية في روحها والحضارة الغربية بالمعنى الذي يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون ، هذه الحضارة استعمارية هدوة للعالم على خط مستقيم ، وهي كذلك حيثما حاربت العلم وحاربت حصرة في طبقة ضيقة وفي حدود هيمنة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج الاستعمار ، أي لاستغلال البلاد التي تنزل فيها استغلالاً مادياً يذهب كل خبرة للغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية ، وكذلك وضعت يدما على وزارات المعارف حيثما ذهبت وعملت دائبة على إفساد هذه الحفومات النفسية والحفوية والقومية

مكتفية بطائفة من المعلومات العملية التي تحتاج إليها أداة الحكم : لاشك تعطى هذه النظرة من أحمد اساطين التغريب ورأس مدرسة السياسة التي خدمت طوال (١٩٢٢-١٩٣٢) طه حسين وعلى عبدالرازق ومحمود عزمي ودعمت مخططاً بالغ الخطورة في طريق حرب الامة ثمرة النفوذ الاستعماري والتبشيري والتغربي التي رسمها لطفي السيد سنة ١٩٠٧ في الجريدة ونفذها سعد زغلول في وزارة المعارف بالاشتراك مع دتلوب والتي طبقت تطبيقاً حاسماً مخطط اللورد كرومر في السيطرة الفكرية والثقافية على العالم الاسلامي كل عن طريق مصر ومخافتها ، هذه النظرة لم تنفجر في نفس الدكتور هيكل إلا من خلال عاصفة التبشير المكشوف العاتية التي مرت على مصر عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ حولت اتجاهه نحوyla ضغنا إلى مقاومة التبشير بالقاس الحضارة الاسلامية وسيرة الرسول على النحو الذي أشار إليه حين قال : لقد استطاعت السياسة في هذه المرحلة أن تكشف دور التبشير في خدمة الاستعمار في ظل تحدى سياسي هو خصومتها للحكومة صدق باشا التي تحالفت حزب الاحرار الدستوريين أول الامر ثم تخطت هذه ومن هنا خرج الدكتور على مفاهيمه للتدعيم كهاو تحرر منها ، غير أنه يمكن أن يقال - مع الأسف - أنه حين تول وزارة المعارف بعد ذلك بسنوات قليلة صدق حدسه في أنه لم يستطع أن يمررها من نفوذ دتلوب ، هذا النفوذ العميق البالغ الخطر بعد أن ترك دتلوب وزارة المعارف عام ١٩١٧ . ومن الحق أن يقال إن حملة التبشير قد كشفت آمال الاجيال في العالم الاسلامي كله عن حقيقة واقعة هي أن التبشير قد تخفى وجهه جلده ونحوط من أن يكون هدفاً مكشوفاً سرعان ما يهاجم أو يعطب ، بأن غير أساسيه لجعلها مرة بارعة دقيقة ودخل بها إلى مجال الجامعات والمعاهد والمدارس (الأجنبية) وتلك التي توضع لمناهجها وأساسيه ، وأنه اتخذ مجال الثقافة والمصاحفة عاملاً هاماً وخطيراً في سبيل تحقيق غايته - التي لم تكن بمفهوم التبشير لنفس التبشير ، ولكنها التبشير للتغريب ، وإخراج المسلمين من قيمهم ومفاهيمهم وخاصة في أمرين : القضاء على الرابطة الاسلامية التي تجمعهم وأن يكون الاسلام دين عبادة ولاهوت وليس دين مجتمع ومنهج حياة صالح للتطبيق . وقد استطاعت مناهجهم في الجامعات والمعاهد والمدارس أن تحقق ذلك الهدف : هدف إبعاد مفهوم الاسلام والعروة والقرآن ومحو التاريخ العربي الاسلامي وإقامة مفاهيم أخرى ، وقد استخدم التعليم ، كسلاح غاية في القوة والنفوذ في سبيل تغيير النفس المسلمة والعقل المسلم وخلق قيم جديدة تجعل من المسلمين اقباهاً للثقافة الغربية وأولياء لها . وكذلك استطاع الاستعمار أن يحقق هدفاً من أكبر أهدافه وهو اتخاذ العلم وسيلة إلى استعباد الافراد والامم وخلق طابع الاستكانة والاستسلام مع التقبل لسلطان العرب وحضارته ونفوذه - وفي هذا يقول المبشر الأشهر : يجب ، إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير ، إن المدارس قوة تجعل الناشئين تحت تأثير التعليم الغربي المسيحي ، أكثر من كل قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة لأوطانهم . ومن توجهات قوله إن : جون موت ، للدارس الأجنبية رسالة ولرسلاتها غاية قصوى هي أن تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للغرب وأوروبا والكنيسة . . وعن طريق المناهج التي تدرس في هذه المعاهد تتحقق المعقيدة التي تتكون في نفس الطالب .

أولاً : عندما تعرض الأديان بمرض الإسلام عرض عداه وخصومة . ثانياً : القدس على الإسلام وتاريخ الإسلام . ثالثاً : النهضة في العالم العربي تنصب إلى الإرساليات . رابعاً : ليس هناك وحدة بين هذه الأقطار ولا كل منها جذوره الإقليمية . خامساً : هذه الهلاك كانت عتلة بالرومان والفرس ويعتبر العرب والأتراك من قوى الاحتلال وتحمل هذه الدراسات في ثناياها محاولة لإيقاع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين والسنة والشيعة ، والعرب والترك والفرس وذلك بإثارة مرافق الخلاف القديمة بينهم وتحاول هذه الدراسات دائماً أن تعرض الحروب الصليبية وموقف شارل مارتل من المسلمين في مواجهة بلاط القسطنطينية وتحاول أن تصور المسلمين وقد تفهقروا أمام الغرب وأن الهلال تأخر والغرب تقدم . ومن عجب أن هذه الكتب والدراسات والمناهج لم تقتصر على معاهد التبشير والإرساليات بل تعرضت إلى المهامد والجامعات الوطنية وأنها أصبحت مراجع وطنية يعتمد عليها ولذلك فقد حاضرت الطلاب المسلم في مختلف مراحل الدراسة وأنواعها بحيث لا يفتك من التأثير بها وقد حرصت حكومات الانتداب والاستقلال الذاتي عن طريق دهاة التبشير وأعدائهم وأتباعهم على تأصيل هذه الأبحاث كمرجع وما تزال إلى اليوم عشرات من هذه الكتب موجودة في أيدي طلاب العرب والمسلمين ، بل وهناك موسوعات ودوائر معارف ومراجع أساسية ، وكلها مليئة بالأخطاء والسهوات . وقد تعددت مدارس الإرساليات الأجنبية ومعاهده حتى شملت جميع فروع التعليم وأهمها :

(١) مدارس وباض الأطفال (٢) مدارس البنات وذلك إيماناً بأن الأطفال هم الصفحة البيضاء السهلة لتركيز مفاهيمهم . أما مدارس البنات فقد كان التركيز عليها مهما جداً باعتبارها : الأم ، التي ستخرج الأجيال القادمة فإذا صيغت بنفسيتها وعقليتها وفق مناهج التبشير والاستعمار والتغريب فإنها ستؤثر في الأجيال أسوأ الأثر والأم مدرسة إذا أعددتها : وتمحطت المدارس الداخلية بعناية خاصة واهتمام أكبر ، حيث يفصل الطالبات عن بيئاتهن الإسلامية ويصل التفوذ الغربي للمسيحي إلى مداه في كل تفاصيل تلك الحياة ، وأغلب البنات في هذه المعاهد من أبناء الأسر الراقية وقد وصفت هذه الحظوة بأنه ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أفصر من هذه المدرسة ، ويعتقد دهاة التبشير أن المدارس العالية هي أقرب الطريق إلى الطبقات المثقفة ، وأن الآراء (الغربية المسيحية) إذا اعتنقتها هؤلاء فإنها سرعان ما تقرب من تلقاء نفسها إلى المجتمع الإسلامي ذلك أن هؤلاء الطلاب الجامعين هم من بد قادة الرأي في بلادهم ولذلك فقد أجهت مختلف المؤسسات التبشيرية (الإنكليزية وإيرلندية وألمانية وسويدية ودايمركية وأمريكية) على وضع التوراة في أيدي الطلاب على أنه كتاب لتدريس أساسياتهم . أما في نطاق المدارس الأولية فقد حرصت جهات التبشير على البحث عن الأسر الفقيرة لاصطاد أبنائها وبناتها باسم التربية والتعلم واستهوا الأطفال بتوزيع الحلوى كما عمد إلى نشر المبشرات في مختلف القرى والبلدات وهم يجمعون طبقة معينة من التلاميذ هم طبقة المقراء والمؤذنين ويحشرونهم في مدارسهم ويلقونهم مع المعارف الأولية مبادئ دينهم ويستغلون حداثة التلاميذ بهم كإساقفة لهم وشكرهم لهم لتفخيمهم عليهم بالكسوة والطعام والتعليم فإذا هم يغزونهم عقلياً وجسمياً ويفسدون أخلاقهم ويستنهون شهراتهم وقد حدث هذا في مصر وكشفت الصحف المصرية عن نماذج مخزية استعملت فيها أجهزة

التقويم المغناطيسي وحالات الامتيازات دون إيقافه أو معاقبة فاعليه . وقد طالت دعوى حماية هذه الهيئات عن طريق الامتيازات سيفاً مصاتاً على مختلف بلاد العالم الاسلامي وكانت مصدر صدام كبير عندما حاولت مصر إلغاء الامتيازات الأجنبية في مؤتمر مونتريو سنة ١٩٣٧ فقد طلبت كل دولة لها امتيازات ومعاهد في مصر حماية معاهداً ، وأعلنت الحكومة البريطانية أنها هي المستولة عن سلامة الارشاليات الأجنبية جميعها .

(٢) التبشير والمرأة المسلمة

وقد عن التبشير بأعداد دور خاص للمرأة المسلمة واعتبر أن العمل في مجالها من أخطر الأعمال وتلك خطته بالنص . وبما أن الآثار الذي تحدثه الام في أطفالها - ذكوراً وأناً - حتى السنة العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية ، وبما أن النساء من العناصر المحافظ في المقام عن العقيدة فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التمجيد بفتح البلاد الإسلامية . وقد أشار مسيو اتين لامي منذ عام ١٩٠١ في مجلة العالمين الفرنسية إلى أنه يمكن استغلال المدارس التبشيرية في إلغاء بذور الشك في نفوس النشء المسلم وإفساد عقيدتهم وأن الوسيلة لتقويض بنيانه هي تربية بنيت في مدارس التبشير وإلقاء بذور الشك في نفوسهم منذ عهد النشأة ، ثم قال د إن تربية البنات في مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ، ووصلنا إلى نفس الغاية التي من وراءها نسعى بل أقول إن تربية البنات بهذه السكيفية هي الطريقة الوحيدة للقضاء على الاسلام بين أهله ومن هذه التوصيات ما تردد من أن تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للاسلام في داخل حصنه المنيع حدة لوداً لا يمكن للرجل قهرها ، لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته فتبطله من الاسلام وترى أولادها عن غير دين أبيهم . وفي ضوء هذه التوجيهات عمل التبشير فأنشأ أول مدرسة للبنات في الامبراطورية العثمانية في بيروت سنة ١٨٣٠ وكان من أوائل عمل التبشير في مصر في أواخر عصر إسماعيل ١٨٧٠ تقريباً لإشياء مدرسة للبنات في أسبوط كالشع مدارس البنات في سورية والسودان وقال رجال التبشير في نتائج هذا العمل د إن التبشير يكون أنم حيكاً في مدارس البنات الداخلية حيث الصلة بالطالبات أو ثل لأنهن ينفذن من نفوذ حياة بيئية غير مسيحية حيث ترى بنات مسلمات من أسر باشوات وبكوات مجتمعن تحت النفوذ المسيحي وليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة (المبشرة أنا مليحان) وقد أشار الدكتور هيكل عام ١٩٣٢ إلى دور الارشاليات التبشيرية في مجال تعليم الفتاة المسلمة وتربيتها وما يغرض عليهن من ضرورة أداء الصلوات ، وما قاله أن بنات الامتياز أحد حلوله الخامس بأسبوط وكن في إحدى مدارس التبشير قد لاحظ أبوهم عليهن قلقاً وارتاباً كالأدى إلى حالة عصبية جعلت الكبيري منهن تكي حين سألهما والدهما عما بهما وأخيراً قالت وبهذه إلحاح . أنها لكثرة ما تسمع من الدين المسيحي ولما يشار به من عبارات موجزة ومن طرف غني تشع وهي مسلمة صالحة تحب الاسلام ورسوله بشيء من تزعم العقيدة هو

الذي يدهوها لذلك الذي تعاني من ألم وحزن فإن الصلاة التي يؤديها التلاميذ والطلبة كل يوم وما يعمرهم به من عطف الأساتذة والمعلمين وإزاهم وإزاهم من تهماتهم يملون إلى دين ينافس في قلوبهم وأفتدنتهم دين آبائهم وأجدادهم ويورثهم هذا الفراق وينتهي بين هذا التطاحن بين العقيدتين آخر الأمر إلى إسكات الضمير الديني إسكاتاً هو الإلحاد واللاإرادية والشك وهو الرغبة عن دينهم إلى دين معلمهم وأساتذتهم وقد كتب الأستاذ أحمد علي إلى السككية الملاحقة بها بنائه مراعاة الماطفة الدينية للطلاليات فلا تهمجوا كرماني ومن مسلمات على حضور الصلاة في كنيسة المدرسة وعلى حفظ الانجيل وحضور الاجتماعات التي تبحث في الأمور الدينية وقد أرسلت إليه الناطرة (١٩٣٢/٢/٢٧) تقول إنها تأسف لعدم إمكانها إجابة طلبه لأنه مخالف للقواعد التي وضعتها الإرسالية لجميع مدارسها وليس في مقدور مدرسة واحدة أن تسير على غير ما هو متبع في غيرها ، وكانت النتيجة أن سحب الرجل بثاقه من المدرسة . وهذه واقعة تاريخية نشرت على صفحات الجرائد تكشف عن مدى عذرات الضحايا الأخريات اللاتي تخرجن وتزوين وقدن لوطن أبناء ربوا وفق مفاهيم غير مفهومة الإسلام ومدى خطر ذلك على وجود أمتنا ومستقبلها .

الفصل الثاني

الشبهات التي أثارها التبشير

إن نستطيع التخلص من نفوذ الاستعمار إلا إذا تعرفنا على وسائله وأسلحته المختلفة : الخفية والظاهرة . لقد أصبحت حرب الاستعمار للعالم الإسلامي والأمة العربية منصبة على الغزو الثقافي عن طريق التبشير والتبشير الآن وسيلتان كبيرتان : التعليم والثقافة ، لقد رفض التبشير يده من الصورة القديمة والمحاولة الأولى الساذجة بعد أن تأكد من أنه ليس من سبيل لتحويل المسلم إلى دين آخر ، ولكنّه ركز على إخراج الإسلام من مفاهيم الإسلام وقيمه الأساسية عن طرق مختلفة : (١) إغلاء شأن الثقافات الغربية وتاريخ عظماء الغرب . (٢) إثارة الشبهات حول حقائق الإسلام والأمة العربية والتاريخ العربي الإسلامي . (٣) إذاعة فلسفات مادية من شأنها انتزاع الشخصية الإسلامية والعربية من الأخلاق والدين ودفعها إلى الانحلال والإباحة ، إن التبشير الآن إنما يعمل على هدم مقومات الفرد والمجتمع بحيث يصبح عاجزاً عن مقاومة النفوذ الأجنبي ، بل خاضعاً له ، متحلاً من عوامل القوة والنضال والإيمان ، متقبلاً للاستعمار والنفوذ الأجنبي تقبل تقدير وتسليم وانصهار . إن التبشير قائم وإن تعدلت مناهجه وأساليه ووسائله ودخل في غلاف رقيق لا يكشفه البسطاء . إن الهدف الذي طاش في نفس الغرب زمناً وتوارثوه جيلاً بعد جيل هو أن تأتي الفرصة يوماً لتحويل المسلمين عن الإسلام وما تزال مخططاتهم تسمى إلى ذلك مهما غيرت أوصافها . وفي سبيل تثبيت نفوذ الاستعمار ومن أجل خلق ركائز أساسية للوجود الأجنبي في العالم الإسلامي كانت الأسلحة هي التبشير والاستغراق

وكانت الوسيلة هي المدرسة والصحيفة والكتاب عن طريق القرية والتعليم والثقافة وكانت الغاية هي تفريب المسلمين والعرب ولذلك فقد تلاقى مختلف الدعوات في أهدافها، على النحو الذي رسمه لها عدها الاستعمار مخططيها أمثال : كرومر ولويون . ونفذا : دنلوب في مجال التعليم المصري . لا فيجى في مجال التبشير في المغرب زويجر في مجال التبشير في العالم العربي وقد صورت مؤلفاتهم المتعددة أهدافهم المصري بحسب وضاعتهم الواضحة وأهمها كتاب العالم الإسلامي اليوم لمجموعة من المبشرين وكتاب الإسلام : ماضيه وحاضره ومستقبله لويجر وكتاب وجهة الإسلام لجب أربعة من المشرقين وقد ركزوا على أهداف عامة : هي الحيلولة دون وحدة المسلمين والقضاء عن جامعتهم الفكرية السياسية وقد ركزوا على الوسائل المختلفة وأهمها التعليم والسيطرة عليه عن طريق المدارس الأجنبية والسيطرة على مناهج المدارس الأجنبية والسيطرة على مناهج المدارس التي تديرها الحكومات المحلية وجعلوا هدفهم النهائي هو : التفريب . يقول جب : تفريب الشرق إنما يقصده إلى قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع في كل ناحية من النواحي ، وإذا أمكن قطع صلة التفكير والعقيدة بين الماضي والحاضر حتى إذا أمكن صيغ ماضي الشرق بلون قائم مظلم يرغب عنه أهله فقدت شعوب الشرق صلتها بماضيهما ففقدت بذلك أعظم جانب من حيويتها وبقية هيا لا على الغرب تتطلع إليه تطلع إعجاب وتقديس وعادة ترى في خضوعها له شرفاً كبيراً ، هذا هو الهدف كما صوروه ، فإذا أردنا أن نعرف إلى أي حد مضى العمل والمعروف أن هذا التقرير صدر عام ١٩٣١ قال لنا مستر جب : وقد بدأت المجهودات ولا تزال تبذل في هذه النواحي جميعاً مهمة لا نعرف اليأس ولا تعرف الملل وأحسب كتاب الغرب كانوا قد نجحوا إلى حد كبير في تصوير تاريخ أمم الشرق في لون قائم جعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين إمام محمد الوفا من اللتين تقضت وكانوا أثباتها خاضعين الألوان من الدلة لا يستطيعون اليوم أن يشعروا معها بمعنى الحرية . . وهكذا يتجلى أن العمل الأساسي كان ولا يزال تزيف تاريخ الإسلام والعرب ، ومن بعدها تزيف العقيدة الإسلامية ليحمل المسلمون والعرب على الاعتقاد بأنها سبب تأخرهم ، وأن مصدر القوة والنهضة هي في التخلي عنها . وهكذا يجعل التبشير أم أهدافه قطع الصلة بين الماضي والحاضر ، وقد وكل هذا إلى المبشرين الذين كان أبرز أدواتهم في العمل بالمدارس الأجنبية ، فإلى أي حد يرى مستر جب دور هذه المدارس والإرساليات يقول : إنه منذ منتصف القرن التاسع عشر انتشرت شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية لا سيما في تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عدداً المدارس الفرنسية ، وقد كانت المدارس الإنجليزية في الامبراطورية العثمانية أقل منها في الهند وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية ، ماذا فعلت هذه المدارس ؟ ويجيب : هذه المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكوت أدواقهم ، واللام أنها علمتهم اللغات الأوروبية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي فصاروا في مستقبل حياتهم قابلين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فعلها أيام الطفولة . وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإتمام التعليم المدني تحت الإشراف الإنجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهم التي ترمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية

التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أحدثت هذه التهمة ، ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية والسياسية إلى حد ما في أوطانهم الأصلية ، وأضعف من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأخلت في بناء المجتمع الإسلامي أداة هامة وقطعة بعض الأواصر التي كانت تربطه وتحفظه وقد تحققت نتائج التعليم عن طريق الكتاب والمقال والمنهج الدراسي وقد كانت كتابات المبشرين الأولى كتابات قاطعة تحمل طابع الحقد الواضح والشك العميق والمقصود الجامعة والمطبعة المتدعة ضد الإسلام وهذه مرحلة انطوت بعد أن تحقق دهاقنة التبعية وأسائفة الاستعمار من أنها لم تحقق شيئاً ، بل ربما حققت ردود فعل معارضة وقضت على الأهداف المقصودة منها فقد كان المبشرون السابقون يكشفون عن هويتهم ويذكرون الأديان في مجال المقارنة ويستعملون الاصطلاحات العريضة ، والمعارات المقتبسة من الكتب الدينية فكل من المسلمون يعرضون عنها لإعراضاً ويوضع الباحثون منهم في صفوف المبشرين تَوْأً ولكن هذا الأسلوب قد تحول بعد تحولا خطيراً ودخل مرحلة غاية في الدقة فقد اختفت أساليب الماطفة والحاسة ، والمعارات الاصطلاحية والكلمات الموحية واختفى المبشرون تحت أسماء وألقاب تستطيع أن تجعلهم في صفوف المستشرقين أو الكتاب الغربيين المتخصصين في الدراسات الإسلامية واتسمت مؤلفاتهم ودراساتهم الجديدة بطابع أكثر مرونة ، وربما يبدأ أحدهم كتابه على نحو من التقدير والإعجاب بالإسلام وترديد عبارات الثناء على القرآن والرسول ، وربما طوى فصولاً من كتابه دون أن يكلف عن الشبهات التي يريد أن يردّها ، والأكاذيب التي ينشرها في دقة وقد استعمل هذا الأسلوب رغبة في كسب ثقة القارئ وخداعة ، فإذا مرت الصفحات الممدودة وأحسن بثقة القارئ به ، بدأ يثير الشبهات في دقة وخفاء ثم أخذ في أسلوب الاحتمال والالتمام وربما نفاهما بعد ذلك ثم أوردّها مرة أخرى ، وذلك بهدف واضح هو أن لا يدع قارئه حتى يكون قد أثار في صدره مزيجاً من التحفظ والشك والحلّط وزلزل قواعد الإيمان في قلبه والمبشرون ليسوا فقط هم الذين يدعون إلى المسيحية ويحاولون نقل المسلمين إليها فهذا عهد مضى ، أما المبشرون اليوم فإنما هم أذباء ومفكرون ومؤرخون يحملون أجازات من الجامعات الغربية الكبرى ويكتبون دراسات يهيئ لها التقدير والشهرة في العالم الإسلامي ، وهم حملة جميع الآراء الجريئة الخطرة التي تدوى بين حين وحين بقصد جس النبض ، ثم يقيمها صحتاً شديدة ، إلى أن تعاد صياغتها من جديد وكل هذه الأفكار إنما تمثل نقاط حساسة من مخططات الاستعمار والنفوذ الأجنبية تحاول أن تأخذ طابعا من طوابع الفكر أو الوطنية أو غيرها . ولعل النجاح الذي حققته هذه المخططات إنما يعود إلى جرأة هؤلاء المبشرين وبراعتهم على سبك كتاباتهم المليئة بالشبهات في قالب علمي يحاول أن يعطيها صورة البحث المجرد البعيد عن الأهواء . وهي جرأة وبراعة ما زال نفتقدها في كتابنا المسلمين والعرب الذين مازالوا يتدفعون وفق أساليب عاطفية ووجدانية صاخبة ، ومن حق أن هؤلاء المبشرين قد تلقوا هذه المناهج في دراسات مستفيضة وعاشوا سنوات تحت إشراف أساتذة متخصصين حتى أحسنوا أداء هذا الأسلوب وأجلدوا مناهجه وأبرع ما في هذا الأسلوب البرود العاطفي والذكاء الذهني والتخطيط والتحليل ثم فرس الأكاذيب والشبهات برفق وتوزعها بدقة وإثباتها على نحو يحتمل الخطأ

والصواب دون القطع بها وقد تبين بوضوح أن كل الآراء التي يريد الاستعمار تداولها وانتقارها حل لواءها المبشرون عن الاسلام ، عن العرب ، عن اللغة العربية ، عن التاريخ ، وذلك بهدف :

(أولاً) هو القضاء على الوحدة الإسلامية سياسياً بإيجاد الخلافات الضخمة بين الدول الإسلامية ، عن طريق السياسة والمذاهب واللغات والثقافة . (ثانياً) القضاء على الفكر الإسلامي المستمد من القرآن والإسلام كأساس للثقافات . (ثالثاً) قيام دعوات وأحزاب وهيئات تحمل طابع الاقليمية السياسية والعلمانية الفكرية لمقاومة الوحدة السياسية والأصالة الفكرية المستمدة من المنابع .

الشبهات الفكرية التي أثارها التبشير

(٢)

قدم التبشير ، عدداً من الشبهات في مختلف مجالات الفكر الإسلامي والثقافة العربية ومآزوال هذه الشبهات تنردد على أيدي دعاة التغريب والشموعية من خلفاء المبشرين . ومن الحق أن يقال أن مختلف النظريات والشبهات التي ورددها المبشرون والشمويون ودعاة التغريب قد وضع بذرتها دهانقة الاستعمار من أمثال كرومر وليوتق وثابهم عليها هداء التبشير : لافيحري وزويمر ودلوب .

وإذا راجعنا تقارير اللورد كرومر السنوية التي جعلها رسالته إلى الجيل الجديد من المثقفين الذين كان يعدم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطاني ، نجد قد وضع أسس هذه الحملات الضارية على الاسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية والتاريخ . فقد سجلت هذه التقارير الخطوط العامة لنهديم كل حوامل الايمان الوطني والاعتزاز العربي الاسلامي وعندما نقرأ اليوم مايكتبه خلفاء المبشرين ودعاة التغريب لانجب لأننا أحياناً نجد العبارات منقولة بنصها . وأن معظم ما كتبه كرومر قد رددته من بعد سلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق وإطفي السيد ومن هذه الاتهامات :

- (١) أن المصريين كانوا مستعبدين على مدى التاريخ . حكمهم الفرس واليونان والرومان والعرب والترك (ذكر ذلك كرومر في تقرير ١٩٠٦ وردده الدكتور طه حسين في حديث له عام ١٩٣٩) .
- (٢) وصف الحكومة الإسلامية بالحكومة الشيوقراطية وهي العبارة التي ما يزال يرددها الشمويون ودعاة التغريب . (٣) هاجم الشريعة الإسلامية وقال : إنها مبادئ وضعت من ألف سنة لخدمة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة ومناقضة لآراء أهل العصر . (٤) هاجم الجامعة الإسلامية . كما استغل التبشير الحملات التي وجهها خصوم الاسلام في القديم من الشمويين والنجوس والباطنية فأعاد صياقتها من جديد ورددها بحسبانها شبهات جديدة ولم يقف الأمر عند هذا بل استغلها في سبيل إثارة الإحن وإيقاظ الخلافات القديمة . كما استغل كتابات بعض خصوم الأديان ، من معسرى الغرب كسلاح لهاجمة الاسلام نفسه مع الفارق الواضح والبعيد بين مفهوم الدين وهو لا هوذا خالص في الغرب ومفهوم الاسلام وهو نظام مجتمع والدين جزء منه وفي مقدمة ذلك ما كتبه أوجست كومت وينقه وظهورها

عن حاربوا الفكر المسيحي والكنيسة وقد أصبحت هذه الآراء تنقل لتقال في مواجهة الاسلام. تعرض
ليحارب بها الإسلام. أم هذه القضايا : (أولاً) : محاولة التفرقة بين المسلمين وذلك بتقسيمهم إلى
عرب وغير عرب والادعاء بأن الذين نبغوا في تاريخ الإسلام لم يكونوا عرباً ، وأن العرب والمسلمين
لم يكونوا منسحق حضارة وإنما هم مجرد نقلة لقراث من سبقهم من الأمم وهم دائماً يرددون تساؤلاً يرمي
إلى تزييق الأواصر : هل الحضارة الإسلامية عربية أو إسلامية : والواقع أن مفهوم الفكر الإسلامي
والثقافة العربية تقوم أساساً على وحدة الفكر لا على وحدة الجنس أو الدم وأنه كان للإسلام ولا يزال
بيئة فكرية تجمع كل المسلمين على وحدة فكر قوامها القرآن فلا هجرة في هذا بالفارسي أو للعربي أو
الهندي وأن الساز العربي والفكر الإسلامي يعد بمثابة الجامع الأكبر ومن هنا فإن نتاج هذه الحضارة
وهذا الفكر كان نتاجاً إسلامياً شارك فيه العرب والترك والفرس وكل عربي اللسان إسلامي الفكر .
أما دور المسلمين في الحضارة فقد تولت الرد عليه أبحاث كثيرة ورد عليه الغربيون أنفسهم وفي مقدمة
الكتابات الحديثة كتاب الدكتور هونكه ، شمس الله تشرق على الغرب ، . (ثانياً) : إثارة الشبهات
حول الحديث النبوي والسنة . في محاولة الوصول إلى رأي يقول بأن يركز الاعتماد كله على القرآن ، وهي
دهوة خطيرة بعيدة المدى بما لا يقع تحت النظرة السريعة . إن رفض الحديث والاكتفاء بالنص القرآني
هي محاولة لفصل بين النص والتطبيق ، والتطبيق في الإسلام أخطر الجوانب وأهمها ، وهذا التطبيق
المتنمى في أسلوب ، الذي اتبعه الرسول ﷺ في تنفيذ النص القرآن . ومن هنا فإن النص القرآني
لا يكفي المسلمين اليوم ، ولا يحقق لهم إسلاماً حقيقياً هذا فضلاً عن أن السنة جزء من القرآن ووزلنا إليك
الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، فهذا البيان الذي يفسر للناس ويطبق ، هو بإقرار القرآن جزء أساس
وفي هذا المعنى يقوله محمد أسد ، إن رفض الحديث يرجع إلى استعالة الجمع بين حياتنا العاصرة للثقافة
وبين روح الإسلام الصحيح كما يظهر في سنة النبي - في نظام واحد ، ولكن يستطيع نقدة الحديث
المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بائنتهم ، فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورية اتباع السنة ، لأنهم
إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير
السطحي أي حسب قبول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو ، وهذا هو الخطر السكمن وراء
مهاجمة السنة ، وإثارة الشبهة حول الحديث النبوي .

(ثالثاً) منطق القرآن ومنطق أرسطو . ويردد المبشرون والمستشرقون القول بأن الفكر الإسلامي ليس
منطق أرسطو ، وأن أرسطو أصبح في الفكر الإسلامي أساساً والحق أن هذا القول ما زال ادعاء يفترق
إلى الدليل ، فقد أخذ بعض الفلاسفة المسلمين منطق أرسطو كسلاح لمواجهة خصوم الإسلام ، وفي
الرد على دعاة اليهود والمسيحيين والمجوس لأنهم كانوا يصنعون نفس السلاح ، ولكن الإسلام لم يتقبل
منهج أرسطو أساساً للمنطق الإسلامي . وقد كشف الامام ابن تيمية عن (منطق القرآن) في كتاب
له أما الغزالي فقد فرق بين منطق القرآن ومنطق الكلام ، المستمد من أرسطو وقال : إن أسلوب
القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة وإن علم الكلام
علاج مؤقت ومنغص بما نشأ من شكوك وشبهات ولا حاجة للطوائف السالبة إليه فائدة القرآن مثل

الغذاء ينتفع به كل إنسان . (رابعاً) : ويعرض التبشير والاستقدام إلى " الجهاد " في الإسلام بمراعاة وتفضيل كبيرين وقد عمد إلى إغائه من جميع مناهج الدراسات التي سيطر عليها وفي الجزائر كان لا يسمح بدراسته وكذلك في الهند . بل إن الاستعمار عمد إلى تأييد طائفتين دعنا إلى ترك الجهاد واحتضنهما بل ربما هو الذي أوجع إلى أربابهما وهما البهائية والقاديانية ومازال كتاب التبشير والتغريب يضمون هاتين الدعويان في صف دعوات الإصلاح والتجديد الإسلامي مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، بينما لا يرى المفكرون المسلمون هذا الرأي وربما يرون حكمه تماماً ، والمعروف أن النفوذ الاستعماري قد اعتمد على هاتين الحركتين في فارس والهند وكلا الحركتين قد اعتمدت على إلغاء أصل ثابت وخطير من أصول الإسلام وهو الجهاد ، تقريباً إلى الاستعمار وقد أتاح النفوذ الاستعماري للحركة البهائية حرية الحركة في العالم الإسلامي واهتمت الصحافة التبشيرية التبشيرية في مصر بالمركة وأوتها قدراً كبيراً من العناية فكتبت عنها المقتطف والحلال والمجلة الجديدة والصور . ومن العجيب أنه عندما فضحت مخططات التبشير في مصر ١٩٣٢ و ١٩٣٣ خفت صوت التبشير وعلا صوت الحركة البهائية التي انعطت إلى العمل لقد التفترة ، وكانت لها مراكز مفتوحة في القاهرة والاسكندرية وبور سعيد وغيرها ولها نشرات متنوعة ، وكتب يمان عنها مؤلفوها أن بهاء الله مؤسس البهائية هو رسول الله الأعظم وسفيره الذي جاء بما يحقق آمي رغبات الانسان وتوحيد الاديان جميعاً تحت علم البهائية وأن الإسلام كان العصر خاص وعقليات خاصة أما البهائية فهي دين العصر الجديد وقد أشار الأستاذ محمد محمود بهير إلى منهج البهائية فقال إن لها أساليب تختلف عن أساليب المبشرين وإن لهم في إباحتهم الأخلاقية أكبر مبرر لهم ، والذين يعمدون المبشرين بالأموال يعمدون البهائية ، والحركتان تلتقيان عند نقطة أساسية : هي إخراج المسلم من عقيدته الإسلامية وجعله يشكك في رسالة محمد ﷺ وأنه خاتم النبيين وأن الإسلام هو خاتم الشرائع السارية . (خامساً) : يرده المبشرون والمستشرقون عبارة " مزيفة الممتزلة " ، وهمانون أسهم البالغ ويتباكون عليها بينما مزيفة الممتزلة نفسها ليست إلا مرحلة من مراحل تطور الفكر الإسلامي في طريقه إلى منهجه الأصل مذهب أهل السنة والجماعة وموقف الممتزلة من الإسلام كوقف الصوفية من الإسلام ، لا يمثل أحدهما الإسلام بغيره ، والإسلام يجمع بين ثقافة العقل وثقافة القلب ومنهج المعرفة فيه لا يعتمد على القلب وحده وإنما يجمع بينهما ولم يكن الممتزلة في حقيقة الأمر يمثلون الإسلام تمثيلاً صحيحاً ، ولكنهم كانوا مرحلة من مراحل الدفاع عن الإسلام بأسلحة الفلاسفات الأجنبية التي كان يجيدها أصحاب الاديان الذين كانوا يمارعون دعاة الإسلام (سادساً) : هناك صحيفة تتردد كثيراً على أقلام المبشرين ودعاة التغريب هي نقض الثقافة العربية من جانب الفلاسفات والدراسات الفلسفية ، وهناك دعوة ملحة على ضرورة ترجمة الفلاسفات الحديثة بحسبان أن العرب والمسلمين لن يصلوا إلى مجال الصدارة إلا إذا هوزوا هذا الجانب والواقع أن المحلدين والعرب لهم فلسفتهم المستمدة من قيمهم ومفاهيمهم . وهي تختلف عن الفلسفة الغربية أساساً من حيث أنها تقوم على عنصر التوحيد المستمد من الإسلام . ونحن نلقى نظرة هامة على الفلاسفات الحديثة فهدما جميعاً " مادية " الأساس ، رافضة للقيم التي جاءت بها الاديان المنزلة رفضاً تاماً . وهي جميعاً تعمل على تفويض دعائم الاعتقاد بوجود (الله واحد) بنقض النظر عن البديل المقترح ، فمنها من يقترح ألوهية المادة أو ألوهية الانسان

ومنها من يجعل الحرية محور تفهيم الوجود، وما يزال الإسلام هو الدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة التوحيد من الشوائب وبالجملة فإن هدف دعوة التغريب في الاهتمام بالفلسفات الغربية الحديثة إنما ترمى إلى تدمير العقيدة الإسلامية لأنها العقيدة الضخمة في طريق سيطرة الأهواء الحديثة . (سابعاً) : يتخذ المشرعون ودعاة التغريب البسطاء حين يربطون بين واقع المسلمين الآن وبين الإسلام ويقارنون بين واقع الأوروبيين وبين المسيحية والحقيقة في هذا أن الأمم الأوروبية دخلت في المسيحية بين القرنين الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك في غفوتها طوال عشرة قرون ثم تيقظت من نحو أربعة قرون بينما نهض الإسلام بمعتقديه في إقامة حضارة الباهرة منذ القرن الأول للهجرة ، لقد كانت الأمم الأوروبية مثل الإغريق والرومان أكثر رقباً بل كانت أرقى أمم الأرض أو من أرقاها قبل اعتناقها المسيحية وتبنيها فيها من الفلاسفة والعلماء رجال لم تول آثارهم قائمة . ويقول العلامة مصدر الفرنسي : إن الغربي إذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً ، وبأى وجه يمكن نسبة التمدن الحالي إلى الدين النصراني والحال أنه ما جاء إلا بعد خمسة عشر قرناً من ظهوره وبأى وجه يمكن نسبة انحطاط المسلمين الحالي إلى دينهم وفي عام ٧٤٣ أي بعد مائة وأحد عشر عاماً بعد وفاة محمد كانت دولة الإسلام أكبر من دولة الإسكندر المقدوني وفي عام ١٥٦٦ عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين وبذلك يتضح أن عظمة الإسلام مكنته ألف سنة ولا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة من الأمور السياسية والحربية إلا بالعلوم والتمدن . (ثامناً) : ومن اتهامات التبشير والتغريب للفكر الإسلامي أنه فسكر تهرىدى غر أن ثمرات الفقه والتشريع الإسلامي تكلف هذه الشبهة وهذا الاتهام فإن الأصول ترينا واقعية الفسكر الإسلامي وكيف أنه كان يتناول كل حادث يقع في حينه ثم يتناوله بالبحث ويضع له الحلول بل إن الفسكر الإسلامي قد أثبت أنه أكثر إقبالاً في الواقع من الفكر الغربي حيث تناول التشريع الإسلامي تفصيلات الحياة اليومية ولم يقتصر على مسائل اللاهوت كما هو الأمر في الشرائع الأخرى . (تاسعاً) : قد حاول التبشير والنفوذ الاستعماري إثارة طابع من طوابع الاستسلام والعنف في الأدب العربي وذلك بالدعوة إلى فسكر مستمد من تولستوى وهابدى أساسه السلام والبعد عن العنف وهي محاولة للقضاء على مفهوم مقاومة العرب والمسلمين للنفوذ الأجنبي ، ولا شك أن هذه الدعوة غر أصيلة الجذور في الفسكر الإسلامي والثقافة العربية . فالإسلام يقرر السلام أصلاً ولكنه لا يقبل العدوان ولا يستسلم للنفوذ الأجنبي وفكره وأدبه وثقافته تحمل هذا الطابع أساساً (هاشماً) : هاجم التبشير والاستشراق (الشرعية الإسلامية) ووصفها بأنها مستمدة من القانون اليوناني ، ومرة أخرى رامها بالجهود والتخلف ، وغر ما تواجه به هذه الحلات تلك القرارات الروصل إليها علماء القانون على غير هوى أو تمصب وأقربها ماقرره مؤتمر لاهاي سنة ١٩٢٥ ومؤتمر واشنطن سنة ١٩٤٨ من أن الشريعة الإسلامية شريعة لما طامها الخاص وأنها صالحة لأن تكون مصدراً عالمياً للقانون وتحضرنى هنا عبارة الدكتور مختار القاضى في كتابه (تأديخ القانون) حيث يقول : إن الشريعة الإسلامية تجمع بين عنصرى الاستقرار والتطور وتوفى بينهما توفيقاً دائماً فنبأ ديناً نجد في هذه الشريعة نصوصاً تنزل إلى التفصيلات وتنبأ من التأويل والتغير والتبديل كنصوص الموارد

والحدود والكفارات نرى نصوصاً أخرى تبيح الشرع أن يستدع أحكاماً في غير الحالات التي جاءت بها النصوص التفصيلية ، مادام الأمر يحقق مسألة عامة للمسلمين وأصاح مثل هذه النصوص المرخصة هي المصالح المرسله والاستحسان بالضرورة وقياس ما لم يرد فيه نص ولعل الشريعة الإسلامية هي الشريعة الوحيدة في الدنيا التي تطورت بوسائل داخلية دون أن تستعير نصاً من خارج نصوصها أو حكمها غير مستنبط من أحكامها ، وكل القوانين والشرائع تطورت بوسائل خارجية ما عدا الشريعة الإسلامية وفي العصور الأخيرة حاول المستشرقون في مؤتمراتهم التي يستقدمون إليها بعض المشهورين من الأسماء العربية والإسلامية محاولة خطرة ترمي إلى استخدام نصوص الشريعة في تبرير أنماط الفرب الفكرية والاجتماعية وهو شر من تقليد هذه الأنماط تقليداً أعمى لأن الناس يمكن أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل إذا قامت حركة أصيلة الإحياء . ويقول العلامة سائتلانا في شبهه المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني : « حيثما نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقي ههنا الشريعتان الإسلامية والرومانية » . إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبها إلى شرائعنا وقوانيننا لأنها شريعة نفاير ففكرنا أصلاً . (حادي عشر) حاول جبران ومينخايل نعية نقل الأسلوب العربي عن أصول البلاغة القرآنية في محاولة خلقت أسلوب جديد يحوى تضميناً مختلفاً من الظلال والأصواء للصوفية الفارسية والهندية القديمة الفارقة في الأوامر والإضلال والتي تعتمد على بعض عبارات التوراة والشعر المنثور والمجازاة لاقضاء على أصالة البلاغة العربية ولكن هذه المحاولة ولدت في مهدها ولم تحقق نتيجة ما ، وغلب منهج البلاغة القرآنية الذي حل لوائه مغايرها المنفلوطي الذي كسب الجولة .

(ثاني عشر) : من الشبهات التي أثارها التنوير والتفريب إدخال مفاهيم غامضة على القيم الأصيلة ومن الكلمات التي تتروء كثيراً اليوم : الخطيئة ، الخلاص ، التكريس ، والواقع أن هذه الكلمات لها مدلول تاريخي وديني خاص يجب أن يكون واضحاً في تقدير الباحث أو القاهر وهي تفرى على قلبه . وهناك خلاف بين الفكر الإسلامي وبين الفكر الغربي في أمر الخطيئة التي ترى المسيحية أنها مصدر أساسى للدين وهو ما يوصف بأن ما فعله آدم عليه السلام كان : طيئة ورثها عنه البشر ثم رأت المسيحية أن تكفر عنها وذلك بما يوصف بأنه تضحية المسيح بنفسه وهذه النظرية قد كانت بعيدة الأثر في الذهنية الأوروبية وكانت منفذاً كثيراً من الملحمة وقد ظهر الخلاف حولها في الأدب الغربي والفلسفة الغربية وفي كثر من النظريات السياسية الأوروبية وحين يمرض هذا الأمر كله على الفكر الإسلامي نجد خلافاً واضحاً فالقرآن يثبت أن آدم عصاره ففوى ولكنه يثبت بعد ذلك أن الله تقبل توبته (ثم اجتبهه ربه فتاب عليه وهدى) والإسلام يقرر بمقتضى هذا عدم ، وراثة الخطيئة ، وأن (كل امرئ بما كسب رهين) فالفكر الإسلامي يمرض على أن لا يتأثر بما هو خارج عن عقيدته . ومن هنا فإن الخلاص الذي يتمثل في مفهوم المسيحية أن صلب المسيح قد حققه ، يكون بالطبع غير موجود مادامت الخطيئة نفسها غير موجودة ، وفي الإسلام أن المسيح لم يصلب وأن من كرامة النبي الذي أرسله الحق تبارك وتعالى أن لا يجوز عليه الصلب بين أعدائه فإن الحق الذي أرسله لا يسله إلى خصومه لأنه قد أرسله بمجانيه وحفظه من أن تناله يد العدو .

وقد تأثر الفكر الغربي بالفكر الاسلامي في هذا المفهوم وتحرر كثير من المفكرين المسيحيين من نظرية (الخطيئة الأصلية) متأثرين بالاسلام وبذلك أقرّوا بأن الجنس البشري قادر على إدراك السكّال كما في الاسلام . (ثالث عشر) من الغريب أن تدرس الجامعات في العالم الاسلامي : الطب والعلوم والفلسفة والآداب والتاريخ والقانون بحسبانها علوما غريبة صرفة ، دون أن تكشف لهم عن الحقيقة التي تقرر أن هذه العلوم قد بدأها أجدادهم الذين وضعوا أسسها وبنو المذهب العلمي التجريبي ، قاعدة العلم والحضارة ، بل إن تدرّس هذه العلوم على هذا النحو إنما يصورهم لأنفسهم على أنهم حبيد للثقافة الغربية بينما ليس الأمر كذلك ، ولعل الأمر الجدير بالنظر هو أن يدرس المسلمون والمغرب وجهة نظرهم الأصلية في هذه العلوم إلى جانب وجهة نظر الغرب ، وبماضلوا بينهما ، إلا أن يدرسوا وجهة نظر الغرب وحدها على اعتبار أنها هي الحقيقة التي لا نقض لها . والواقع أن الفكر الاسلامي له نظريات كاملة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والقانون والتربية هي أصلح لمجتمعاتنا من نظريات الغرب التي أنشأها انبعاثا من واقعها والتي تختلف مع أمزجتنا ونفسياتنا اختلافا جوهريا .

الفصل الثاني

التبشير والفكر الاسلامي

من أخطر الشبهات الفكرية التي أثارها التبشير فكرة : (علمانية الدولة) أو لا دينية الدولة وهي هدف الاستعمار الأول في البلاد الإسلامية والممول الأكبر لحكم القيم الإسلامية وعزل الفكر الاسلامي عزلا تاما عن مجال المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية وهو هدف استعماري صيغ في أساسه يفسح المجال أمام النفوذ الأجنبي حتى لا يقف الإسلام حائلا دون مصالحهم ومطامعهم ومن الحق أن يقال إن هناك فارقا جديرا بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي يتعلق بوحدة الارتباط العضوي في الفكر الاسلامي بين الدين والمجتمع ، حيث لا سبيل إلى عزلهما . وكل محاولة لفصل بينهما هي محاولة فاشلة ولن تتحقق إلا إذا انهدمت قوائم الفكر الاسلامي انهداما كاملا وهذا ما ليس هناك سبيل إليه . ذلك لأن أول ركائز الاجتماع والثقافة في العالم الاسلامي هو أن الاسلام دين ونظام مجتمع غير منفصلين . ومن الحق أن يقال إن المجتمع الاسلامي قد بنى والدين جزء منه لا ينفصل عنه ، وأم سمات الاسلام وبالتالي الفكر الاسلامي والثقافة العربية أنه لا يفصل بين الديني والدنيوي والقيم الروحية فيه فهي مستقلة عن القيم المادية بل هي مكحلة لها وكل محاولة لفصل الروح عن المادة تعد عملا عقيما . ولعل من أول ما يحاول التبشير والتغريب أن يركز عليه لتحقيق هذا الغرض هو الانجاء إلى العلوم العصرية باعتبارها الهدف الحضاري الذي يوصف بأنه عامل النهضة والتقدم ، بينما تحقّق وراءها غرضا أساسيا هو عزل الفكر الاسلامي عن قيمته الأساسية . ولقد قلبه إلى ذلك رجل خبير منصف هو العلامة جوستاف لوبون ونصح بها الشباب المسلم في باريس حين قال لهم : « إن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين

إلا إذا افترعوا بتريخهم الدينية وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم ، وإن تذهب المسلمين بالمعارف المعاصرة الأوروبية خارجاً عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم يريدهم انحطاطاً وفساد أخلاق ولن تنضمهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم وقد صور هذه الرابطة بين العلم والدين في الفكر الإسلامي كاتبان غربيان هما (رنفلان وسيلوفيكس) في كتابهما الشرق الأوسط المعاصر : « إن أول ركائز الاجتماع والثقافة في الشرق الأوسط هو الدين ، الذي يحدد العلاقات بين أفراد المجتمع . ففي مجتمعات الشرق الأوسط خلافاً للمعهود في المجتمعات الغربية وحدة وثيقة بين الدين والمجتمع ولا انفصال هنا بين مذهب ديني ومذهب آخرى ، والروح الدينية منبثة في جوارب الحياة كلها في مواضعها ولغاتها ولهجتها . ولنا حاجة إلى أن نصف الدور الهام الذي يقوم به الدين في الحياة الثقافية والاجتماعية في الشرق فإن في تاريخ أي بلد شرق ما يثبت أن الدين ينفذ إلى كل نشاط اجتماعي وعقلي للشعوب ، بل إنه في الواقع هو العامل المسيطر على حياة الشرق ، رجاله وأساته ، ولا يمكننا أن ندهي وجود طائفة لها اعتبارها من أبناء الشرق لا تهتم بشئون الدين السائد في مجتمعاتها ، لهذا من الميسر على الغربي أن يفهم حياة الشرق الاجتماعية دون أن يفهم الدين الذي تدين به الجماعة والتي تحاول دراسة ثقافتها ويفهم من هذا د. أميل درمنجيم ، ويذهب عنه أصدق تعبير حين يقول : إن حضارة الإسلام ترمى مثلاً أعلى رفيعاً يجمع بين الدين والدنيا والبعد عن التفرقة والرهبانة إلى سواء . ولم يكن الإسلام هو مصدر تأخر المسلمين بل كان مصدر تقدمها بينما كان الموقف مختلفاً بالنسبة للغرب والمسيحية . فإن الإسلام لم يلبث في خلال قرن واحد من بزوغ مجرى أن أقام حضارة باهرة بينما ظلت الأمم الغربية عشرة قرون بعد دخول المسيحية قبل أن ينهضوا وكانت الإغريق والرومان أرقى أمم الأرض قبل اعتناقها المسيحية والعرايط بين الدين والمجتمع في مفهوم الإسلام بوصفه نظام مجتمع ودين عبادة معاً واضح في مختلف كتابات الغربيين والباحثين الذين تخرجوا من المعاهد الأجنبية وأمامي كتاب الفكر العربي في مائة عام يستجلي هذه الحقيقة في بحث الأستاذ نعم عطيه ص ٤٠٨ حيث يقول : إن الإسلام في جوهره أكثر من مجرد إيمان ديني . إنه نظام حياة ، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية . الدينية منها والومنية ، فكل جهد الإنسان في الإسلام ما يهيج تفوقه الروحي عن طريق الإيمان بالله والتعبّد له بالصوم والصلاة والزكاة والحج كذلك يجد فيه نظاماً من القيم الأخلاقية والشرائع المدنية التي تعطيه أجوبة مفصلة لما يفرضه من مشكلات في المعاملات اليومية . فالإسلام نظام روحي ونظام زماني كلاهما متصل بالآخر والانعكاس له فلا مجال للفصل بينهما : ومن مبادئ الإسلام أن المسلم أخو المسلم وأن المسلمين أمة واحدة ذات رابطة روحية تشهد جوارها في التسليم بالله والاعتراف بأحكام الشريعة وما تنص عليه من واجبات على المسلم نحو المسلم ومن حقوق المسلم على المسلم ، فالشريعة هي القاعدة التي يجب أن تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين . وتبين عليها حياتهم المدنية بكاملها كما أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب ديني لأن وحدة الأمة روحياً منوطة بوحدة سياسياً ولذلك فالأمة في الإسلام لن تكتمل إلا لم تتجسد في دولة تتبع المسلمين أن يمشوا بحسب فرائض دينهم ، لذلك ينبغي أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليسهر على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحماية مصالح المسلمين ونشر الإسلام

والمدافعة عنه ضد أعدائه ويجمع بين السلطين الزمنية والروحية . . وهكذا يبدو مفهوم الاسلام واضحا في الجمع بين الدين والمجتمع . أما التبشير والاستفراق والتغريب ودعاوى كتابهم فإنها مستمدة من مفهوم خاطئ . أصلا وهو خطأ متعمد ، هذا الخطأ يحول دون التفرقة الواضحة بين الاسلام وبين الأديان الأخرى فالاسلام ليس ديناً تعبدياً قاصراً على العلاقة بين الله والناس ، ولكنه دين ونظام مجتمع ، وهو منهج حياة متكامل ، ولما كان هذا هو عنصر الخطر فيه لمطالبته بإقامة هذا النظام وتطبيقه فإن (علانية الدولة) التي تبناها معاهد الارساليات وتمثل الآن في مختلف الأحزاب التي يتصدرها رجال هذه المعاهد ، لا تمثل مفهوم الاسلام أو مفهوم المسار الاسلامي المتكامل ديناً وديناً ، ومادة وروحاً ، وعقلاً وقلباً . ومن مفهوم الاسلام الاصيل يجب أن تستمد جميع الحركات الاصلاحية والسياسية ، والوطنية والقومية وقد كشف جهاد المسلمين في الجزائر بصورة واضحة عن مفهوم الترابط بين الدين والمجتمع في الاسلام ، ولقد تأكد الفرنسيون أن الجزائريين كانوا يحاربون كسليين في الدرجة الاولى وأن فرنسا كانت تحاربهم للقضاء على الاسلام ، وأن المعنى الاسلامي كان هو العامل الاول في النصر وقد اعترف كتاب الغرب بهذه الحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها وهي : أنه لم تهم حركة وطنية في العالم العربي إلا وكانت الروح الاسلامية أساسها ، وأكد يجب وكثيرون أن العرب متمسكون بلغتهم وأديهم ويعنون بجهاد الاسلام ، كما أكد كثيرون أن العرب لن يقتنعوا عن لغة القرآن التي تربطهم بالعالم الاسلامي كافة وأن الروح الاسلامية ستبقى تسود بلادهم وتتقدم أبداً بلا كلل ولا ملل ، وإن يطرأ عليها أي ضعف أو وهن ولذلك فإن الدعوة المضلة التي تنطلق تحت عنوان "تحرير الذات العربية من الاسلام" ، لن تجدي قليلاً ومستواجه ما واجهته الدعوات التي سبقتها . وأن الشمويين ودعاة التغريب الذين يتحدثون عن هذا ويظنون أنه سيحقق لهم تغييراً في مختلف علاقات الانسان بالدولة وبزوجته وأولاده لن يكون لأن الدعوة إلى "علانية الذات العربية" ، وإخراج الجيل الجديد من أطر الدارين ، إنما هي صيغة امتثل الاستعمار والتبشير فثرة للنكسة لإذاعتها وقد كانت المسألة ولا تزال بين كل الثورات المقاومة للاستعمار والاسلام وثيقة مستمدة من المفهوم الصريح : مفهوم الجهاد ، ومفهوم المقاومة وقد ولدت ثورة ١٩١٩ في ساحة الأزهر وولدت ثورات المغرب في ساحة الويتونة والقرويين وثورات العراق في ساحة النجف الأشرف . ومن هذه الاهدات أيضاً ما يحاول التبشير إذاعته من أن أسباب التخلف في العالم الاسلامي إنما تعود إلى عوامل أساسية في صلب الاسلام ، وهي دعوة أهلها كرومر قبل سبعين عاماً وما زال اتباعه يرددونها وكل الدلائل تسكنها لأن المسلمين هم الذين أنشأوا المنهج العلمي التجريبي الذي يقوم على الحضارة الحديثة وأن الاسلام بدعوته إلى العلم وإلى النظر في الطبيعة هو الذي حصرهم إلى ذلك ومن خلال مفهوم الاسلام كدين ومجتمع يمكن النظر إلى قضية فلسطين أيضاً ، فقضية فلسطين لا يمكن أن تعالج إلا على أساس إسلامي قوامه الجهاد على نفس الدق الذي عرفته ثورة الجزائر وفي هذا يقول الكولونيل عبد الله التل : "إن قضية فلسطين دينية مقدسة في المقام الاول وإن أية معالجة لها لا تكون على أساس ديني جهادي مكتوب عليها الاخفاق لا محالة ، وأن هذا الايمان مبني على تجارب عسكرية طامها وحقائق تاريخية لمسها ووعاها .

وقال إن الوم على دعاة العلمانية ولايك ، في الوطن العربي الذين تناسوا من حسابهم العامل الديني في قضية فلسطين وانها القضية الوحيدة التي قامت في العالم منذ ثلاثين عاماً وما زالت تقوم على أسس روحية دينية ، وأنه إذا أمكن أن تعالج أى قضية على أسس مادية فإن قضية فلسطين لا تعالج إلا على أسس دينية بالدرجة الأولى وأسس مادية بالدرجة الثانية .

ويتصل هذا القول بأن الإسلام ليس له هيئة خاصة تشرف عليه ولا يقال للعالم المسلم (رجل دين) وأن وحدة الإسلام هي وحدة فكر لا وحدة جنس ولا عنصر . وأنه لا توجد في الاسلام الحكومة الشيوعية التي يحكم بها رجال الدين من حيث أنه منتف قطعاً في الاسلام وجود رجال الدين أو هيئة لاهوتية ما .

ومن النظريات التي يحاول النفوذ الاستعماري فرضها على المسلمين النظرية القائلة بتقبل الحضارة العربية تقبلاً كاملاً . والتي رددتها طه حسين وأحمد أهاف ومن الغربيين رددوها أرنولد توينبي هذه النظرية تتطلب منا إلقاء نظرة على موقف الغرب من الحضارة الإسلامية عندما حاول اقتباسها وإلى أي حد بلغ به تقبلها وتكثف وقائع التاريخ الصحيح على أن حركة النقل والرجعة من اللغة العربية إلى اللغات الحديثة بدأت منذ ١١٠٠ م إلى ١٥٠٠ تقريباً وقد سارت هذه الحركة على نحو يشهد بالقدره الفائقة على حماية (الفكر العربي الاسلامي) بأقصاه وروحه وقيمه ، والارتفاع بشكل ما أضافه الفكر الاسلامي دون فسبته إليه ، ثم اقتباس منهج الفكر الاسلامي التجريبي وتحويله إلى منهج عربي خالص ثم الإصرار على عدم الاعتراف بأي فضل للحضارة أو الفكر الاسلاميين وإمامانا في التعصب والحققد عمدوا إلى إطلاق اسم القرون الوسطى المظلمة ، على مرحلة مظلمة الحضارة العربية الاسلامية ثم للفرز من الحضارة الرومانية التي بادت حوالي ٤٠٠ م إلى الحضارة الحديثة التي نهضت عام ١٥٠٠ م تقريباً وتجاهل فترة أكثر من ألف عام هي فترة ضياء الحضارة الاسلامية في المشرق وأسيايا بينما هو فترة القرون الوسطى المظلمة للغرب وحده . وقد سار منهج الفكر الغربي على قاعدة مخالفة للأسس الاسلامية وتجاهل الأثر العربي الاسلامي وعمد إلى معارضته واتهامه والحقده عليه ونقده بتمصب . ويبدو في هذا المجال (توماس الأكوين) علم الاصلاح في نظر الفكر الغربي ، فهو الرجل الذي تصدى للفكر الاسلام وعمد إلى غرلة الفكر الغربي وتخليصه من آثاره ، وقد استطاع أن يبعد طابع التوحيد وروح الاسلام ومفهوم التكامل والوسطية في الفكر الاسلامي ، وأخذ مصارة هذا الفكر في مجالات المختلفة (الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية) ثم لعبها إلى محصلات الفكر الغربي وبالجملة فقد عمد إلى تصفية أثر الفكر الاسلامي من الفكر الغربي نهائياً ، ولا يمنع هذا من أن تذكر أنه في السنوات الأخيرة برزت حركة منصفة تحاول أن ترد للفكر الاسلامي حقه في كثير من معطيات العلوم الاجتماعية والطبيعية . ولطالما ردد الاستعمار الغربي نظرية أمانة الحضارة الموكولة إلى الجنس الأبيض . وهذه نظرية قوامها تفرقة عنصرية غالبية بين الأجناس وهي مستمدة من نظرية رومانية قديمة ، فالانسان الأبيض (لا الانسان عامة) هو تاج الخليفة وهو السيد وهو صاحب الغلبة في كل صراع يذشب على وجه الأرض

وهبارة شتا يفتك تمثل هذا المعنى الرجل الأبيض لا يغلب ، والغريون عندما يكتبون تاريخ العالم يبدأون تاريخ شعب أبيض ، هو شعب اليونان وينقلون زعامة البشر من بعده بين أجناس بيضاء من رومان وطلين وجرمان . فإذا ظهر شعب ملون وارتفع إلى مستواهم عملوا على إسقاطه تأكيداً لنظريتهم الغالية في التمسك وهم يجهلون الغرب طرفاً والعالم طرفاً آخر على حد تعبير توينبي في رأس كتابه (العالم والغرب) ويقول لورد لويدي في كتابه (مصر منذ عهد كرومر) إن الغربيين حقبة تمنح بهم إلى الاحتقاد بأن مبادئهم هي حقائق زاهية يجب على العالم أجمع أن يتقبلها وكثيراً ما يدعفهم أن يروا هذا غير الواقع والحضارة الغربية التي يريد الغرب أن يفرضها على الحضارة الإسلامية هي اليوم موضع النقد والتجريح من أهلها أنفسهم وقد تعددت الآراء التي تشير إلى قصورها في تحقيق الأمن والطمأنينة لذويها فكيف يمكن أن تحقق ذلك لغرب أهلها . يقول أحد الباحثين الغربيين المتصفين : قصرت المهلة الغربية في المهلة التي أقيمت على عاتقها في الأجيال الأخيرة ، أهي المهلة التي ترمى إلى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه الأرض بحيث تؤدي إلى الوحدة الإنسانية ، لقد وقع اختيار الغرب على أسلوب عبث الذات وكان اختياره له جريمة ، وكان من أثر ذلك ضياعه واضمحلال نفوذه ، لقد أراد الغرب أن يرحل العالم ولكن تحت سلطانه ومصالحته ، والعالم لا يسأس إلا بالعدل والحب والإخاء ورد الحقوق إلى أهلها ، ويمكن الغرب لجأ إلى القوة الفاشية واعتمد عليها وعبث بالشرائع ، ومن الحق أن يقال إن : وحدة الثقافة العالمية ، ليست فكرة خالصة وإنما تجوى في أحافها هدفاً مضللاً . وهي عبارة خلاصة المظهر ولكنها تضمر التعصب والاحتقار للثقافات الانسانية ، وهي تمنى في الواقع سيادة الثقافة الغربية وسوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية لسيادة الغربية في الفكر وإحلال قيم للفكر الغربي ومفاهيمه محل القيم الفكرية الإسلامية كما أجمع المصلحون والباحثون المنصفون على أن الدهوة إلى العالمية في فترة كفاح الأمم لمقاومة الاستعمار هي دعوة منحرفة لأنها ستكون بمثابة انصهار لهذه الأمم - التي لم تستكمل وجودها الذاتي النفسي - في كيان الأمم الغالبة . وبالرغم من كل محاولة إلى دهوة عالمية فإن الفوارق الطبيعية والأخلاقية والاجتماعية والروحية والتاريخية للأمم مازال عميقة الجذور ولن تستطیع قوى الاستعمار صهر الأمم الإسلامية ذات الحضارة والثقافة العميقة الجذور في بوتقة الأممية أو العالمية . ومن الحق أن يقال إن الفكر الإسلامي لا يحاكم إلى مقاييس الفكر الغربي ذلك لأن لكل ثقافة طابعها الخاص وطريقها المتميزة . إن كفاح المفكرين المسلمين اليوم في تحرير الفكر الإسلامي من سيطرة الفكر الغربي هي من أقوى المثل الدالة على سلامة الذاتية الإسلامية وقد ظل المفكرون المسلمون أكثر من ثلاثة قرون يعملون في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية القديمة . لقد كان شغل المفكرين المسلمين للشاغل هو الحيلولة دون أن يذوب طابع الإسلام الحضاري في حضارة أخرى ، هذا الرفض بالذات هو الذي مكن الجزائريين من الصمود في وجه الاستعمار الفرنسي مائة وأربعة وثلاثين عاماً وهذا الإيمان بنفسه هو الذي مكن المسلمين الهنود أن يصمدوا ولا يذكروا في وجه أغلبية ساحقة وما يزال الإسلام هو وسيلة الاحتجاج والمقاومة والإرادة العمالة وراء كل حركات التحرر والأساة ودعوات الإصلاح والتجديد . وما يزال هو القوة التي تواجه الغزو الصهيوني في فلسطين والفكر الإسلامي لا يرفض ثمرات الفكر الإنساني بل يتقبلها على أساس قيمه وذاتيته ومن هنا فهو يفرق بين الحضارة وبين الاستعمار .

هذه الحضارة التي يفرضها الغرب على العالم الإسلامي اليوم هي حضارة استعمارية قوامها إقطاعية منتجاتها المصنعة والحصول على خاماته بأبض الأثمان ودون أن يعطيه مصادر الإنتاج وهو يهدف العالم الإسلامي بالجوانب الاستهلاكية التي تتصل بالترف في التجارة والشهوات في الأفلام الإباحية والمطور والصور وأدوات التجميل والزينة وتطورات الأزياء أو القصص والمذاهب الضالة في الفكر ولكنه يحول بيننا وبين الجوانب القوية الإيجابية في الحضارة كالصناعة والأسلحة والتكنولوجيا والابحاث الذرية. ويعرض أدنولد تروينبي في سخرية بالغة بتركيا الحديثة حين ولت وجهها شطر الغرب ولم تأخذ معه إلا هذه القصور المدمرة للشخصية الإنسانية والمجتمعات ويقول إن تركيا قد تغربت منذ أكثر من أربعين عاماً ولكنها لم تستطع حتى اليوم أن تقدم العلم الحديث أو الحضارة أي إضافة بسيطة ويعني هذا بالطبع أن الغرب لم يرد أن يجعل من تركيا دولة غربية فاعلة ولكنه أرادها دولة مسخرة تفضع عنها كل مقومات الفكر الإسلامي وأصبحت ذليلة على أبواب الاستجداء الأوربي، وهذا هو الواقع الحى والنتيجة الطبيعية لا هتاف تركيا نظرية تقبل الحضارة ككل خيرها وشرها. والواقع أن هذه التجربة هي موضع نظر الباحثين المسلمين جيداً فنحن في الواقع لسنا في حاجة إلى أن نصرحنا هذه الحضارة وليس من مصلحتنا كسليمين وعرباً أن نذوب في خضمها وأن نغرقنا بتياراتها وصراعاتها ، وعلينا أن نقبل منها ما ينصير في كيانتنا ويزودنا قوة وفاعلية وأن نقيم ذلك على أساس من كيانتنا وقيمنا وذاتنا وانحذر من أن نمنسج وجودنا أو ندمر شخصيتنا ومقوماتنا ومازلنا نذكر قول ذلك المصلح الجليل الذي قال : «علينا أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التي سخرت الشعوب الإسلامية فأبمدتها عن هداية القرآن .

وفي مقابل هدف الغرب الاستيلاء في فرض حضارته ووجهت إلى الحضارة الإسلامية حملات ضارية لا يعرف في العالم حضارة هوجت بمثل ما هوجت به ولولا أنها تملك ما تملك من عظمة الأصول وثبات الجذور ما استطاعت أن تقارم هذه الحملات الطاغية الظلمة . ونحن نعرف جوهر الحضارة الغربية الذي لا يتقبله الفكر الإسلامي والذي يتمثل في تلك الصورة البشعة التي حملها التاريخ إلينا عندما أهلك توركاذا الهونمينكي الأسباني ستة آلاف بالنار وأهلكك الأمبراطورة تيودورا وحدها نحو مائة ألف من الماسونيين وأهلك الكاثوليك من البروتستانت في مذبح سانت بارتلمى مائة ألف أيضاً أما ديوان التحقن في أسبانيا فقد قتل وحده نحو مائة ألف كما يقول (دنباح) في كتابه (تاريخ الأديان) . ولقد كانت كل محاولات التبهر والتفريب ترمى إلى تصوير الفكر الغربي والحضارة الغربية بصورة المثل الأعلى السامى الذي يقدم المجتمع الإنساني الحر الكريم ولكن الأوربيين أنفسهم أصحاب هذه الحضارة يكذبون هذه الصورة الخادعة وأمامنا عشرات الأمثلة على تقديم لما وتصويرها بالهجر والقصور هن إعطائنا طابع المجتمع الحر السعيد. تقول مدام سنت بوانت : أنهم المدينية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها أقيمت على عاتقها، أغنى لشر تعاليم الإنسانية ونعميمها ، لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه وأجأ في ذلك إلى القوة الفاشية ولم يرحمهم مصلحته وحدها وأبكر فضل الشرق وحجب فضل الغرب وجبت بقواعد الحضارة الحقيقية . وقال د هيريت سينسر ، الفيلسوف البريطاني للشيخ محمد عبده في حديث لهما عام ١٩٢١ هـ : لقد عني الحق من حقول أهل أوروبا واستحوذت عليها

الأفكار المادية فذهبت الفضيلة وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفقدت الأخلاق واضطربت الفضيلة ثم سرت عديداً منهم إلى الإنجليز فهم الآن يرحمون الفقير بذلك وسنرى هذه الأمم يحتبط بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طاحنة . وقال جمال الدين الأفغاني : (إن الثقافة الأوروبية لم تتخل قط عن ذمرايتها وطمعها . وقد أشار هاملتون جب إلى هذا المعنى حين قال : إن ثورة المسلمين على مبادئ الحضارة الأوروبية التي تعارض قواعد الأخلاق سيدفع المثقفين حتماً إلى أن يردادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وأن يصبروا خاصة على مبدأ الأخلاق الإنساني الذي هو أساس الأخلاق الاجتماعية في الإسلام ؟ بل إن أمانتنا المثل الواضح في تحول الكثيرين من وثقوا أول الأمر بكلمات الحضارة الغربية البراقة : ثم تغيروا أنهم تحدوها .

يقول الدكتور هيكل : إنني كنت عظيم الثقة بالعلم وبالطريقة العلمية الحديثة أنها ستؤدي بالإنسانية إلى معرفة الكون معرفة هي ملاك سعادة الانسانية فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها لبثت أنتظر نتائجها العالمية في السلام العام وخربة الشعوب وحققا في تقرير مصورها وكانت السنوات كلها توالى بعد الصلح انفتحت عيني على حقيقة بدأت تقوى صورتها عندي حتى بلغت غاية القوة سنة ١٩٢٠ وهذه الحقيقة هي أن العالم يعاني قبل كل شيء أزمة روحية ، إذ ذاك رأيته أن أدرس حياة النبي لملي أحمد الوصيلة لملاج أزمة العالم الروحية ولإنهاض الشرق نهضة تسمي منه حياة جديدة كحياة الغرب بعد القرن الخامس عشر ووجدت في دراستي للنبي العربي ودينه وأعماله والحضارة التي وضع أساسها ما خلق أمامي عالماً جديداً من عالم التفكير لم يكن ذهني متجهاً إليه من قبل . ولقد حاولت أن انقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً مدي وبراساً ولكني أدركت بعد لأي أني أضع البذر في غير منبته فإذا الأرض تهضمه ولا تنمض عنه ، ولا تبث الحياة فيه . وانقلبت ألتبس تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة مونيلاً لوحى هذا العصر فنشء فيه نضأة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من أسباب وبخنت فرائضه أن تاريخنا الإسلامي هو مصدر البذر الذي يفت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجهلها تهز وترجو .

وهكذا ندور دورة الفكر حول الفكر الغربي الذي يبرز في أول أمره مثاليًا ثم إذا به ينكشف عن حقيقة قاسية هي أن الاستعمار يقتل كل ما فيه من قيم ومثل والتبشير ينحرف به إلى عمل من شأنه أن يركز النفوذ الأجنبي ويهدد الباحث المسلم نفسه أخيراً أمام ضرورة ملحة هي أن الفكر الإسلامي هو المصدر الحقيقي الذي يستطيع أن يعطي هذه الأمة عوامل قوتها وحيويتها . وامل أم ما يتصل بهذا وهو وجه جديد من وجوه التغريب يحتاج إلى الالتفات إليه وهو ما يطلق عليه «التبادل الثقافي» . ومن الحق أنه ما يسمى «التبادل الثقافي بين الشرق والغرب» . إنما هو في حقيقته «إمداد ثقافي» من جانب واحد هو جانب الغرب إذ ماذا يأخذ منا الغرب الآن : هل يترجم كتبنا أو يعرض أفلامنا . الواقع أننا نحن الذين يفرقنا الغرب بمؤلفاته وأفلامه ومجلاته وإلا فما معنى تبادل الأسانفة : البديل الوحيد هو التقدم من الغرب ولا بديل له فالغرب الآن في موضع السيطرة ولذلك فإنه يفرض ثقافته فرضاً ولذلك يجب علينا

أن نحتاج أشد الحاجة فلا نتقبل كل ما يقدمه لنا بل نختار كل ما يزيد شخصيتنا قوة . والموقف اليوم هو أن الغرب خطة مرسومة في هذا التبادل ، فهو لا يقدم لنا خير ما عنده ولكنه يقدم لنا أفلاما وكتبا قد وضعها على نحو خاص ليقدّمها لنا ، يستهدف بها إما إهلاك شأن ثقافته وأبطاله وتاريخه ، أو هدم مقوماتنا وخاصة الأخلاقية ، ونشر سموم الإلحاد والاباحية . والهداة إلى التبادل الثقافي هم دائما من رجال التغريب وهم يفهمون الغرض الذي يرمون إليه ولا يكفون عنه بل يقولون نحن أعطينا الغرب في الماضي ولا بد أن نأخذ منه في الحاضر . ومن حق أن يقال إننا أعطينا الغرب ولكن هل أخذ الغرب منا إلا مآراء مناسبة له دافعا له إلى القوة والنهضة ، لقد تغير الغرب في النقل والاقتباس والقرعة . بل لم يقف أمره عند هذا ، لقد صبغ كل مانته وأعطاه طابعه وشخصيته وصهره في برقته وكان حقا علينا أن نلتصق بهذا الهرس وأن نطبقه . إن أصدق نظرة إلى التبادل الثقافي تحتّم علينا أن نضع قيمة موضع الأساس ثم نتقبل على ضوءها ما يقدمه الغرب من ثقافته على أن تظل ذاتيتنا موضع القوة . أما القول بمالية الثقافة فذلك من مؤامرات التغريب بالنسبة للعالم الاسلامي وهو في موضع التخلف والوقوع تحت السيطرة الاستعمارية ، ويمكن أن يقال بمالية الثقافة بين الثقافات القوية كالأمريكيين والأوربيين . أما بالنسبة لنا فإن الأمر يجعلنا منصهرين في بوتقة الانتمية عما يفقدنا ذاتيتنا وشخصيتنا وهو ما تسعى إليه حركات التبشير والاستشراق والتغريب جميعا ويقول البعض : « إن جميع الثقافات تتلاقح ولا تكشف عن الاقتباس من الأمم ، وهو قول له ظاهر الحق ، ولكنه في حاجة إلى تحديد وتعميق ، فما هي حدود الاقتباس ، إن هناك مجالين : مجال القيم ومجال الثقافة . أما في مجال العلم فلا شك في القول بماليتها وسلامة الاقتباس فيها ، أما في مجال الثقافة المتصلة بالمزاج والذات والشخصية والقيم المختلفة فللأقتباس فيها إنما يجري بتحفّظ وتحريز شديد ، وما ينقل يجب أن يصاغ في صورة ملائمة ، ولا بد أن يدوب في ثقافة الأمة فيصانف إليها كعامل قوة ، ينصهر في أعماقها ويتشكل بها ، لا أن يحولها ويخرجها من صورتها وطابعها . إن أي أمة تقبّض ثقافة أمة أخرى لا بد أن تتخلّى عن ثقافتها ولو في حدود الحيز الذي تشغله الثقافة الجديدة وهي بالطبع ستتخلّى بهذا القدر عن شخصيتها وذاتيتها ومن ثم فهي لن تكون الأمة الأصلية ولا الأمة البديلة ، بل ستكون شيئا آخر مضطربا مهزوزا ، وهو ما يطلق عليه « الانتمية » .

الفصل الرابع

التبشير واللغة العربية

وجه التبشير إلى اللغة العربية حلة ضخمة قوامها حقيقة أساسية هي أن القضاء على القرآن : مصدر الاسلام وقانونه الاسلامي يتطلب القضاء على اللغة الفصحى ، ولما كان التبشير والنفوس الاستعماري لا يستطيعان أن يكشفوا هذه الحقيقة صراحة فإنه قد أخضاها وراء كل خطوة اتخذها بشأن الدعوة إلى العمامة

أو مهاجمة اللغة العربية وانتفاصها أو الدهوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية . وتكشف جميع النصوص
 من أن هذا الغرض الدفين الذي بين أيدينا واضح في عقل وتدين كل من تصدى لهذا الغرض ، ويبدو
 خطر الدهوة إلى تحطيم اللغة العربية واضحا حينما نرى أن عددا كبيرا من المبشرين والمستشرقين قد
 تصدوا للكتابة في هذا الموضوع وأقاموا من أنفسهم خداما لهذه الغاية لا يرون بأسا في التخلي وتغيير
 شخصياتهم في سبيل تحقيق ما يريدون ، حتى أن د. وللم سبيتا ، أول الدعاة إلى العامية ومدير دار الكتب
 بالقاهرة يختار أن يعيش في حي وطني ، لكي يستقي العامية من منابها الأصيلة ولا يدون إلا ما يسمعه ،
 ثم يدون ما يسمعه بأذنه على كم قبيصة خوفا من أن يلاحظه أحد المتكلمين فيفقد طبيعته وحرية في
 الكلام . وقد شغل عدد من هؤلاء الأجانب بأمر العامية واهتموا بها وألفوا عنها وفي مقدمتهم في
 مصر : وللم سبيتا ، وكارل فولرس وسليمان ولور ورايم ويلكوكس وقد بدأ ذلك منذ ١٨٨٠ واستمر
 حتى عام ١٩٢٦ تقريبا . وفي خلال ذلك كان لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى قد حملوا هذه الدهوة
 ثم اتصل ذلك بالدهوة التي دعاها عبدالمعز فهمي عام ١٩٤١ عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية ،
 هذا في مصر وأما في المغرب فقد تولى كولان ومن بعده ماسيتون لواء هذه الدهوة وفي لبنان ظهر
 كثير من الدعاة إلى الحروف اللاتينية والعامية اللبنانية ، وقد كان هدف هذه الدهوة التي حمل لوائها
 التبشير أساسا لخدمة مخطط السيطرة الاستعمارية الثقافية إنما يرمى إلى تمزيق اللسان العربي في العالم
 الإسلامي كله وليس العربي وحده ، والقضاء على لغة القرآن كلية بإحلال اللهجات العامية محل اللغة
 الفصحى في كل قطر وبذلك ينفرط عقد الوحدة الجامعة التي يكون قوامها هذا الكتاب المنول والذي
 حفظ وحدة اللغة العربية طوال أربعة عشر قرنا . ويؤكد الباحثون على أن اهتمام الأجانب بالعامية ولم
 يكن من أجل البحث العلمي ولا من أجل حاجتهم إلى معرفة اللهجات البلاد العربية التي تقضى مصالحهم
 أن يعيشوا فيها ويتعاملوا مع أهلها وإنما هو من أجل القضاء على العربية الفصحى وإحلال العامية عليها
 ومن الواضح أن هؤلاء الأجانب من المبشرين ثم الذين وضعوا في مؤلفاتهم هذه الخطه السكاملة التي
 ما يزال يستقي منها كل دعاة الصهيونية والتغريب واتباع المستشرقين والمبشرين من إبداعات حول ما يصفونه
 بصعوبة اللغة العربية ، وصعوبة الحروف العربية ، واهتمام اللغة العربية بأنها لا تستطيع مجازاة العلوم
 الحديثة وما يطلق عليه اسم الفوارق الواضحة بين لغة الحديث ولغة الكتابة . ولقد يدهش بعض
 البسطاء لاهتمام الاستعمار والنفوذ الأجنبي باللغة العربية بغية القضاء عليها ، ولو علموا مكان اللغة العربية
 من الإسلام والثقافة وكيان الأمم لها دهبوا ، فاللغة هي روح الأمة ومزاجها ، وهي ينبوع ما عند الأمة
 من المزاج الخلق والشعور النفسى ، ولا تفكر الأمة إلا ببلغتها ، فالرابطة بين الفكر وبين اللغة دقيقة
 وخطيرة ، ولذلك فإن القضاء على اللغة أو تهديدها إنما يراد به القضاء على روح الأمة وإفساده . وفي هذا
 يقول المازني : « إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر إلا بالألفاظ فهي وحدها أداة التفكير فلا سبيل
 إليه بدونها ومن المستحيل أن تتمثل معنى مجردا عن ألفاظ معينة ، ولكل لغة أساليبها وطرائقها ،
 فأساليب التفكير وطريقة التصور خاضعة للأساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات
 المختلفة ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى ، وهذا فرق بين الانجليزي
 والفرنسي ، وما بين الانجليزي والهندي ، وتمتاز اللغة العربية في هذا المجال عن اللغات الأخرى بأن لها

كتاب هو رسالة السبيل إلى المسلمين ، ومن هنا فهم ترابط بعد الجماعة العربية التي تشكلها جماعة أخرى تريد على خمسة أضعاف من المسلمين الذين يمدون في هذا الكتاب لغة ذنهم ولغة ثقافتهم ومن هنا فقد أصبح لغة العربية بهذا الوضع مكان فريد وخطير كان على الاستعمار أن يواجهه بحسم ، خيف يذهب الإسلام تذهب اللغة العربية ، ومن هنا فقد عمد الاستعمار إلى تهديد اللغة العربية ومن هنا وفي سبيل إقصاء القرآن عن ثقافات الأمم المسلمة سيطر النفوذ الأجنبي على وسائل التعليم وأدارها بلفته التي أصبحت هي اللغة الأولى في كل قطر محتل ، وجرى تهديد المعاهد الإسلامية الخاصة كالأزهر والقرويين ، وقد أشار المبشر الأكبر زويمر ، إلى خطورة اللغة العربية حين قال : إن اللغة العربية هي الرابطة الوثيقة الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، وكان هذا إشارة إلى ضرورة العمل على عدم اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القرآن . وهذا هو المعنى الذي تلفه إليه المرحوم مصطفى صادق الرافعي في حلقته على (لطف السيد) ودعاة التسوية بين العامية والفصحى ، فقد كانت الرافعي يعرف أن الهدف من ذلك هو إحلال لغة وسطى بسيطة قريبة من العامية لتكون لغة الكتابة وبذلك يبتعد المسلمون عن لغة القرآن البليغة ويصبحون طاجرين عن فهم القرآن أو التعامل معه وهذا هو ما يهدف إليه الاستعمار ومن أخطر دهوات التبشير والتفريب تلك الدعوى التي تتحدث كثيراً عن الأدب الشعبي والفلكلور ولا يفهم سر الإلحاح في هذه الدعوة إلا حين ترى حمرة سبينا وفولرس ولورد وويلكوس في البحث عن ثقافة شعبية يرددون إسنادها إلى اللهجات العامية وبذلك يستطيعون أن يقولوا إنها لغة وشرط اللغة أن تكون لها ثقافة ومن هنا عمدوا جميعاً إلى جمع الماويل والأزجال وقد جرت هذه الدعوة في الوقت الذي كان دلولب ، يستولى فيه على مقاليد التعليم في مصر ويضع النظام الذي يجرى به تقليب العامية والانجليزية وحين فرض دلولب تعميم العلوم كلها بالإنجليزية واحتقر دراسة العربية وكل ما اتصل بها ثم جاء سلفن ولورد بعد الإحتلال فأضاف إلى دعوة من سبقوه إلى العامية ، العمل على كتابة العامية بالحروف اللاتينية وآذرت حملة للمفطف والجماعة من غريحي الإرساليات والمعاهد الأجنبية هذه الدعوة ورددوا آراء هؤلاء التي تتلخص بإفارة الشبهات عن الخلاف بين لغة السلام ولغة الكتابة وضرورة إحلال اللغة الأجنبية في التعليم نتيجة الإرتباط بالدول الأوروبية وكان سعد زغلول أول ناظر للمازف المعمومة ، هو أكبر دعاة بقاء اللغة الانجليزية لغة عامة للتعليم وقد استطاع به الاستعمار والنفوذ الأجنبي أن ينقل السهام الموجهة إلى كرومر وإلى دلولب إلى قلب وزير مصري عربي هو الذي يحمل لواء الدفاع عن بقاء اللغة الإنجليزية وإبعاد اللغة العربية .

قال سعد زغلول : إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبته أو اتباعها لشبهتها ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة ، إن مركز الأمة من الأمم الأخرى واحتلالها بالأجانب واثباتك المصالح الأجنبية بالمصالح الوطنية كل ذلك أوجب تعميم العلوم باللغة الانجليزية لكي يتقوى بها التلاميذ . ويمكنهم أن يستفيدوا ويغيدوا بلادهم ويقووا على الدخول مع الأجانب في معترك الحياة . وقال إن الذين يتعلمون باللغة العربية لا يمكن أن يوظفوا في الجمارك أو البوسطة أو المحاكم المختففة ، وقد واجهت سعد زغلول حملات عنيفة لأنه إنما كان يقول بلسان عربي ما كان يقوله كرومر في تقاريره وما يحاول

الاستعمار فرضه على مصر وقد أشار الفيلسوف على يوسف صاحب المؤيد إلى مدى الخطر في التعليم باللغة الإنجليزية وكيف أنه يؤدي إلى حصر العلم في طبقة ضيقة جداً من الأمة ويقلل الاستاذة الأكفأ. ويلقى القدرة العلمية والفنية التي بلغة البلاد بل ويميت هذه اللغة شيئاً فشيئاً وقال : إن التعليم بلغة الأمة ينقل العلوم بكليةها بخلاف التعليم باللغة الأجنبية فإنه ينقل أفراد المتعلمين فقط من الأمة لهذه العلوم ، وإذا كان بالعلم حياة الأمة فهو لا يحياها إلا إذا ذاب في جسمها كالدم في الشرايين وكشف مصطنع كامل مغطط النشور والتغريب حين قال : لما طلب اللورد كرومر تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف حدثت في مصر دهشة ورجاء وتساءل الناس لامي غرض اختار المعتمد البريطاني هذا القاضى لا كبر وأهم النظارات أحو لإصلاح شأن المعارف وترقيتها مرضاة الأمة أو هو لمحض خدمة السياسة الإنجليزية ، هل أن كثر من الناس كانوا يحسنون الظن بسعد باشا وبصدق أمانته ونياته .

وأشار مصطفي كامل إلى دفاع سعد زغلول عن اللغة الإنجليزية في التعليم المصرى ثم قال : يدعونا من هذا الرجل جرأته على التأكيد في تعليم العلوم باللغات الأجنبية . إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف صهر رئيس الوزارة الأمين على وحيه الخادم لسياسته وفهموا أيضاً لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحيزة للإنجليز وذرت الرماد في العيون قائلة : إن الوزير المجهده هو من الحزب الوطنى وعرف الناس الآن لامي غرض اختار كرومر لإدارة المعارف الأهلية رجلاً لم يدخل في حياته مدرسة ولا علم تليداً ، ولا عنى مطلقاً بدرس شيء من مسائل التعليم والتربية إنه قد يمكن للرأ أن يكون محاسباً عظيمًا وقاضياً فاضلاً ولكن لا يرام من هذا أن يكون أهلاً لإدارة شئون تربية الشبيبة وتعليمها . إن سعد باشا قد فشل فشلاً عظيماً في الجمعية العمومية لو كان وزيراً أوربياً يتكلم أمام البرلمان لكان قد استقال في المجلس ، ولكنه وزير في مصر يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته . إن سعد باشا يخطئ بهذا الاعتقاد كل الخطأ فهو كلما اعتمد على هذه الثقة ، فقد ثقة بلاده وتأيدتها له ، وإن كل النفاق اللورد كرومر وإحسانه ولطفه لا يمكن أن يمحور فشلاً كذلك الفشل الذى دوى غيره في كل أنحاء مصر إلا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كفاخى ليأسفون على حاضره كل الأسف ولينحافون على مستقبله كل الخوف ! (ونقول : من الحق ان يقال أن مستقبله ظهر بعد ذلك في زعامة عامة شاملة للبلاد حيث توارى مصطفي كامل ومحمد فريد والحزب الوطنى) .

وقد أشار إلى هذا الخطر مستر بلانت في تقريره الذى نشره الواه : يظهر لمن يتحقق في شئون مصر أن اللورد كرومر وضع قانوناً لسياسة التعليم وقرر في هذا القانون أن لا يتعلم النشء المصرى الحديث إلا لغة إنجليزية وكل ما كان مخالفاً للدين الإسلامى وإلا فليبقى هذا النشء بغير علم على الإطلاق ولذا رأينا على رأس المعارف في مصر المستر دنلوب وهو رجل إنجليزى ذو شهرة سيئة لأنه عدو للمسلمين وعدو لغة العربية ويساعده في عمله رجل أرمنى مسيحي اسمه يدقوب أرتمين وهو بلا ريب عمل مشين وقبيح في بلاد إسلامية وإذا أراد المصريون أن ينالوا استقلالهم وبحروروا وطنهم فعليه

الاحتفاظ بما احتفظت به كل أمة مهذومة وهو الدين واللغة فإن الأمة التي تقبل لغة الغالب القاطع تسجل على نفسها اللال والطاعة العبياء والأمة التي تقبل دين من اغتصب بلادها تخون شرفها الوطني وأنا أنصح المصريين أن لا يسمعوإلى أقوال بعض الصحف الفرنسية في القاهرة التي تقول أن التعليم إذا كان وطنياً فلا ينبغي أن يكون دينياً على الإطلاق وأشهر على مصر بأن لا تضيق على نفسها نطاق التعليم فإن الإسلام دين حق تام ولا يعرف حداً يقف عنده في سبيل التقدم الحقيقي ويمكن لمن يعرفه جيداً أن يصل إلى أعلى درجات المدنية الحديثة وحل أغوص للمسائل العلمية الكبرى . . ولعل أخطر مانحمله خطلة التبشير بالنسبة للغة العربية هو ما حاول ويلكوكس أن يدعو إليه حين قال أن العامية في مصر هي لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية فقد نشر عام ١٩٢٦ رسالة بعنوان (سوريا ومصر وشمال إفريقيا وماطة تتكلم البونية لا العربية . . زعم فيها أن اللغة التي يتعلمها الناس من حلب إلى مراكش بما في ذلك ماطة هي اللغة السكتانية أو اللافينية أو البونية ، كما زعم أن اللغة البونية التي هي أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها باللغة العربية الفصحى ، فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألف سنة وأنها انحدرت إليها من المكسوس ، وهذه محاولة جريئة ومبذلة للقول بأن اللهجة العامية هي لغة قائمة بذاتها وأنها كانت موجودة قبل الإسلام والهدف من هذا هو تأصيل الدعوة إلى العامية في محاولة لاحتلالها محل لغاية السكتانية ، حيث يرده هؤلاء جميعاً العلاقة بين العامية والعربية ويقارنوها باللغة اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة وهي مقارنة باطلة وقد رددنا على هذه الاتهامات في كتابنا اللغة العربية بين حاتمها وخصومها . . والمعروف أن ويلكوكس كان من أكبر دعاة العامية وأنه ترجم الإنجيل بالعامية كما ترجم بعض قطع لشكسبير وقد وجدت هذه المترجمات ازدرأ واحتقاراً كبيرين ولم يتقبلها أحد كما أجرى هؤلاء الأربعة (سينا ، فوارس ، ولور ، ويلكوكس) محاولات متعددة للدفاع عن العامية وذلك بادعاء القول بأن لها قواعد محددة وكان الهدف واضحاً من هذه الحملات المتواليه التي بدأت (١٨٧٠ - واستمرت إلى ١٩٧٦) هو ليس فقط كما يقول بعض الباحثين الذين لم ينظروا إلى الأمور نظرة عميقة : د أن الهدف هو فصل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم اللغوية بالقضاء على العربية الفصحى . . ليس هذا فقط بل إن الهدف أكبر من ذلك وأخطر وهو السر المكتوم في حنايا الصدور : القضاء على لغة القرآن وإحلال لغات تصبح لغات فينطوي كتاب الإسلام الأكبر ويفقد خاصيته الكبرى وهي وحدة الفكر بين المسلمين .

ومن خلال هذه المخططات التي رسمها التبشير والاستشراق ، انبثقت دهوات افان السيد وسلامه موسى وعبد العزيز فهمي في مصر وفصيرم في لبنان (اسكندر المطوف والحوري مارون غصن) وما تزال كتابات دعاة العامية في مصر والعالم العربي إلى اليوم تستمد مصادرها ومجوسها . على الفصحى من هذه الكتابات وكذلك فعل التبشير والاستشراق في كل جوانب الفكر الإسلامي هذا العمل ، فأعد ركبوة أساسية بأقلام رجاله وترك لتابعيه وخداه الانتفاع بها وترديدها ولقد قرأت في الأعوام الأخيرة رسالة أقيمت في أحد المؤتمرات القريبة من العامية ، لا تكاد تخرج في مضه ونها عن كلام ويلور وويلكوكس ولبن كانت بحروف عربية ويتوقع اسم عربي . وقد واجهت هذه الحلة ردود فعل قوية وكتب الكثيرون

يفتدرون آراء لطفى السيدورد عليه مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي، وقد اكدكتور أحمد الحوفي آراء سلامة موسى وقد عبد الوهاب عزام وكثيرون آراء عبد العزيز فهمي وما يزال يردد هذه الهدوى بعض التغريبيين في هذا الجيل من أمثال : ميخائيل نعيمة ولويس عوض وسعيد نعل وسوف لا يكون رجاءهم بأكثر من رجاء من سبقوهم .

الفصل الخامس

أثر التبشير في الثقافة العربية والتراث

لم يقف أثر التبشير عند ميدان واحد بل عمد إلى التأثير في جميع الميادين وكان أبرز هذه الميادين ميدان التأليف فقد استطاعت معاهد الإرساليات التبشيرية التي تعمل في العالم الإسلامي منذ مائة عام تقريباً أن تتحقق نتائج ضخمة في هذا المجال وأن تقدم مؤلفات وكتباً تعد الآن (وكانز هامة) في مختلف فنون البحث العلمي والأدبي والتاريخي . هذه المؤلفات الأمهات هي الآن مراجع هيلة ومصادر أساسية في يد أساتذة الجامعات والمدرسين في مختلف أنحاء البلاد يرجعون إليها ويعيدون فيها حاجتهم دون أن يجهدوا أنفسهم في سبيل البحث ، وفي مقدمة هذه المؤلفات : الأدب العربي لبروكلان ودائرة المعارف الإسلامية التي ألفها بحرمة . من المبشرين المنعصبين ضد الإسلام والقرآن وقاموس المنجد والموسوعة العربية (فرانسكلين) وتاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو والفتن الإسلامي لجرسي زيدان وعشرات من المؤلفات التي تضم آراء فرح أنطون . وشيل سميل . وولي الدين يكن وطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرازقي . أما الكتب التي تدرس في الجامعات والمعاهد التابعة للإرساليات التبشيرية فإنها تفوق الحصر ، بالإضافة إلى عشرات أخرى تظهر بين حين وحين وتتداولها الأيدي . ولقد حارل كتابنا وفكرونا طوال الأعوام الخمسين الماضية متابعة هذه الكتب واستعراضها والرد عليها وكان أكثر المشغولين بهذا العمل : فريد وجدي وشكيب أرسلان وزيكي علي وهي في مجموعها كتب لا تخضع للبحث العلمي وإنما هي حملات من الحقد والافتراءات وبمجموعة من الآلاظ النابية ومحاولة لوصف الرسول والمسلمين والقرآن بأوصاف بعيدة عن الحقيقة . وهدف هذه المؤلفات تشويه الإسلام والمسلمين ، بضية توهينهم وإضعاف وحدتهم ، وإثارة الهديات في تاريخهم وفكرهم وخلق النزعات الشموية التي تفرقهم ونقضى على وحدتهم ولجهاز التبشير مؤلفات وكتاب ، هؤلاء واضح هدفهم . ولذلك فإن كتاباتهم تسقط في نظر القارئ المنصف غير أن التبشير استعان بجماعة من الكتاب الاستعماريين الذين زاروا العالم الإسلامي بروح الاستعلاء والمصيبة وانظروا إليه بروح الرجل الأبيض عدن العالم فهاجموه ، فاستغل التبشير كتابات مثل هؤلاء للكتاب كما انتفع بكتابات المستشرقين واستغل ثنائياتهم وقصورهم في فهم بعض النصوص واستهدف آراء التابعين منهم لوزارات الاستعمار وهي آراء مفرضة سلفاً ، وقد حمل هذا كله إلى العالم الإسلامي وأذاهه بأسلوب وأسلوب ، وفق مخطط نفسي دقيق ، وعلى مراحل ، فأثار به حملة ضخمة من الطعن في الإسلام والقرآن نفوه صورتهما في نفوس الناس ، وتخلق تياراً من الاستهانة الاستخفاف والكراهية له بين أهله .

ويمكن القول بأن دوائر المستشرقين إنما تمثل المصنع حيث تمثل دوائر المبشرين « السوق » التي تعرض البضاعة وتذيعها وتعلن عنها وأما الدائرة التي تمثلها في كل مناسبة وفي مقدمة كتابها : الحسن وعفري جوب وفردريك بلس وإيفولييان وهاربر ولافيجرى وبرلوس رشترو وماسينون . وقد أحدثت هذه المؤلفات أثراً بعيداً في تغيير مناهج الأدب العربي والفكر الإسلامي بما حاولت إثارة من شبهات حول بعض الحقائق الأساسية ، ففي مجال التنقيح الإسلامي تجري مضاربتة بالفسريج الروماني واتهامه بأنه تابع له ، وفي مجال الأدب تجري المقارنة بينه وبين الأدب اليوناني بهدف انتقاصه في مجال الأسطورة والخرافة . ومن أمثلة اعتقاد الكاتبين باللغة العربية على كتب المبشرين ما افتضح سره عندما أصدر الدكتور طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) وما حمله من آراء حول إبراهيم وإسماعيل عندما أراد المؤلف إنكار القرآن والتوراة وقال : إن وود وإسميها في القرآن والتوراة لا يمكن للإثبات وجودهما التاريخي) فقد تبين أن هذه الآراء منقولة من كتاب المبشرين طبعته في القاهرة (مطبعة النيل للبيبي) اسمه : فيل مقال في الإسلام باسم رمزي هو : هاشم العربي وهو كتاب مطبوع للمرة السادسة سنة ١٩٢٥ وهو العام الذي كتب فيه طه حسين كتابه ، وأقيم طبعته لهذا الكتاب عام ١٨٩١ . وهكذا خلق طه حسين هذه البادرة في اتخاذ كتب المبشرين مصدراً للأدب العربي ونجد كثيراً مما أورده بروكلمان ومرجليوت وغيره عن الإسلام مسبوفاً في كتب لويس شيخو وجرجي زيدان في الأدب العربي وهما الكتابان اللذان اعتمد عليهما معظم الباحثين في الشام ومصر منذ ذلك الوقت البعيد عام ١٩١٠ وما بعدها ويتصل بهذا عدد من المؤلفات التي نشرها المبشرون في بيروت عن الأدب العربي وقصد بها إخراج الأدب العربي من روحه الإسلامية وتعمير روحه الجاهلية . وفي القاهرة وإلى عهد غير بعيد كانت المدارس الإيطالية ومدارس الفرير تدرس كتباً مثل كتاب (غاية الأدب في لغة العرب) وهو كتاب موضوع لتعليم اللغة العربية ، ومن نماذج ما جاء به من إساءة للإسلام والعرب ما جاء في صفحة ٢٨١ حيث يقول : وبالجملية يمكننا القول بأنه حينما حل العرب أكرهوا شعوب تلك البلاد على اعتناق الدين الإسلامي فكان الفضل الأعظم في هذا الانقراض العظيم راجعاً إلى السيف لا إلى الحجية والبرهان على حد قول شاعرهم أبي الطيب المتنبي : « الحمد للسيف ليس الحمد للعلم » . ومقالة الإسلام والسيف هي من هذه الاتهامات الكبرى التي وجهها المبشرون وأكثرها من ترديدتها : وذلك بالإضافة إلى عذرات الموضوعات والشبهات التي لا يتوقف ترديدتها وأهمها إنكار فضل المسلمين في الأدب والفلسفة والمجهر على اللغة العربية والهدوء إلى العامة ، واتهام القرآن بالوضع وبأنه مجموعة من آراء الكتب المقدسة السابقة عليه وإثارة الشبهات حول بعض النصوص وإعلاء الروايات الضعيفة ، ومحاولة جعل المؤلفات التي وضعت لتعرف مصادر أساسية للبحث كالأغاني وألف ليلة . والواقع أن المجال الثقافي بعد الوسيلة الكبرى الثانية للتبشير بعد مجال التعليم ، وقد ركز المبشرون شبهاتهم في قضايا كثيرة ونثروها في عديد من المؤلفات وخاصة دائرة المعارف الإسلامية التي أشرف على إصدارها فندسك وليني بروفنسك وشاخس ومايمان وهيمهم من المبشرين اللابسين طيالة العلماء حيث تتحرك في مواد هذه الموسوعة نجد السموم والشبهات مثارة على نصوص وأخرى وفي مادة أصول ، مثلاً التي كتبها شاخس ، يحاول أن ينسب إلى القرآن الخطأ ، واتهام الرسول بالنسيان ووجود المتناقضات واتهام الرسول بأنه لم يكن يقصد

إلى خلق نظام يضبط به حياة أعباءه بل ظل القانون العرفي العربي القديم يسير في الإسلام سهو الطبعي وهذا كله خطأ مقصود وليس مقصداً في الفهم أو عجزاً من الباحثين ، وإنما هي جراءة هادفة إلى رسم صورة مضللة من معرفة الإسلام أمام قراء دائرة المعارف الذين يعدون في معاهد التبشير والاستشراف للعمل في العالم الإسلامي . كما ضم قاموس المنجد دسائس كبيرة أريد بها إدخال عبارات جديدة فيه عربية أصلاً وتفسير بعض الإصلاحات تفسيراً مختلفاً عن تاريخ الكلمات الأساسية بل بعض المصطلحات الإسلامية قد فسرت تفسيراً خاطئاً وقد قدم كتبه من الباحثين مراجعات هامة في هذا الصدد في مقدمتها ما كتبه العلامة عبد الله كفون . ومن أهم القضايا التي ركز عليها التبشير في مجال الثقافة :

(١) الدعوات القومية والإقليمية في مواجهة الوحدة الإسلامية والاهتمام بدعوات القهرونية والفيزيقية والبربرية ودعوة البحر الأبيض المتوسط . وقد أشاد زويمر بروح القوميات وحرص زعماءه وتلاميذه على اتخاذها وسيلة للقضاء على الإسلام حين قال في كتابه (الإسلام : ماضيه ، حاضره ، مستقبله) . إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيهام القوميات . وقد أشاد بالتطورات التي حدثت بعد سقوط الخلافة الإسلامية واتجاه المسلمين إلى الإعلاء من شأن أسماهم الوطنية على اسمهم الإسلامي كما ركز على الدعوة الدائمة على مقاومة التعليم الديني في برامج التعليم ، وعلى إقامة الثورة ضد كل ما هو مأثور وقديم (مؤتمر التبشير ، ١٩٢٤) .

وأولى اهتمامه القضية تحرير المرأة على أنها الوسيلة إلى إخراج المرأة المسلمة من دينها وقيمها حيث يقصر المسلمون - على حد قوله - في الموازنة بين تعليم المرأة ومهارتها في الحياة العامة وبين إبعادها إسلامياً لمواجهة أخطار الاختلاط والمجتمع والمحافظة على شخصيتها سليمة أمام تيارات الإباحة الواحفة . ومن أهم ما عني به المبشرون : التركيز على جوانب الإباحة في المجتمع والاحاد والفكر ، ويقول في هذا زويمر : إن عدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو قبول الفكر الغربي كصديق ، دولي ، وهذا يعني أن إبعاد القيم الإسلامية من مجال الثقافة يبعد من النفس المسلم عناصر المقاومة للاستعمار ويخلق بدلاً منها روح الولاء والصدقة والتقبل للفرز الأجنبي . ويرحب كثيرون بما يسمونه « كبت الأفكار المصرية والحضارة الأفريقية للمسلمين » ويمرون أن في ذلك قضاء هائلاً على مقومات الإسلام ، وهذا ما يدفع اليقظين من مفكرى الإسلام إلى الالتفات أولاً على التفرقة بين الحضارة والثقافة وبين العلم والثقافة وبين الفلسفة والثقافة ، فنحن المسلمين والعرب نتقبل من الغرب جوانب القوة من حضارته ونتقبل العلم بحسبانه عالمياً ولكننا لا نعتنق ثقافته الغرب ، إيماناً منا بأن الثقافة قومية منبثقة من أمزجة الأمم وأرواحها وخصائرها وقيمها الأساسية ، ولذلك فإن الغرب نفسه عندما مر بهذه التجربة حين نقل الفكر الإسلامي في أوائل عصر النهضة تقبل الحقائق العلمية وحدها ورفض الطابع الإسلامي وأحل بدلاً منه طابعه الغربي . وقد أجرى المبشرون حول هذه النقطة بالذات أبحاثاً طويلاً وحاولوا فرض نظرية خاطئة هي أن على المسلمين والعرب أن يتقبلوا الحضارة الغربية متصلة بثقافتها غير منفصلة عنها ، « خبزها وشرها وحلوها ومرها » كما أشار إلى ذلك طه حسين في مصر وأحمد أغايف في تركيا ، وقد أثبتت التجربة كذب هذه النظرية وتضليلها ، وقد رفضها الفسفر

الإسلامي كما عارضتها الثقافة العربية استمداداً من قيمها الأساسية التي كانت دائماً قادرة على التقبل من ثقافات الأمم وحضاراتها بالقدر الذي يتفق مع طابعها ومزاجها ورفض ما سوى ذلك ، وقد تساءل زويمر على سبيل التشكيك كما تساءل المبشرون والامبيذم في كل عصر : عما إذا كان في إمكان الإسلام تجارة تيار الحضارة مع مبادئ القرآن وتعاليمه . وبالرغم من الأخطار التي واجهها المسلمون في خلال السنوات السبعين الماضية من نفوذ الاستعمار العسكري والسياسي والثقافي فإنهم ما زالوا مصممين على الاحتفاظ بقيمتهم الأساسية المستمدة من القرآن ولا أعتقد أنهم سيضعفون في الأيام القادمة من هذا الإصرار ، بل المعتقد أنهم سيكونون أكثر قوة وتصميماً عليه .

(٣) مكتب التراث :

كان الغزو الثقافي والاستعماري والعسكري من أكبر أعمال حركة التبشير بالاشتراك مع حركتي الاستشراق والتغريب ، وهي حركات ثلاث تتلاقى في عمل واحد أو هي مراحل ثلاث لصورة واحدة أو وجوه مختلفة لحقيقة واحدة هي إقامة ركائز أساسية للاستعمار في عقول المسلمين وقلوبهم عن طريق الثقافة والفكر وفي مجال الدراسات العقلية والروحية ، وقد عني المبشرون منذ وقت طويل بترجمة القرآن وترجمة السنة ، والحصول على عشرات الألوف من كتب التراث الإسلامي التي تملأ الآن جامعات أوروبا وأمريكا حيث تباع فهارس المخطوطات العربية في مكتبة برلين وحدها حتى عام ١٩٣٠ ما يلا عشرة مجلدات ضخمة ومثلها في روما وميلانو والأسكوريال في مدريد والناسيونال في باريس والمتحف البريطاني في لندن ومكتبات فيينا وبرلين ولندن وموسكو . وقد بدأ العمل في التراث الإسلامي برأى مسبق وحرره ميت هو استغلال الضحايا والآراء المتضاربة والأخطاء في سبيل ضرب الفكر الإسلامي في نظر أهله وإثارة الشكوك حوله ، وخلق جو من الاحتقار والكراهية له ، ولذلك فقد عكف المبشرون وأهوانهم على استعراض آراء معينة ما زالوا يرددونها بعد عشرات الأعوام ويعيدون ترديدها وكلها تدور في دائرة اتهام القرآن بالوضع والرسول بأنه كرمينال روماني والإسلام مقتبس من المسيحية واليهودية ، وأن الإسلام انتشر بالسيف . وقد كانت حركة التبشير وحركة الاستشراق جميعاً في خدمة الاستعمار . ثم برزت حركة التغريب التي تعمل على صياغة الفكر الإسلامي صياغة غريبة توارثية تهدف أساساً إلى انتزاع الإسلام من حقيقته واعتباره ديناً تمهيدياً وإنكار وتجاهل ومحاربة كل رأى يقول بأنه دين مجتمع وأنه جماع الدين والمجتمع وأنه نظام حياة وذلك هو أخطر هدف يرمى إليه الغزو الثقافي ، إبعاد الإسلام عن مجال العمل في المجتمع والدولة والقانون والاقتصاد والسياسة والتربية وإحلال مفاهيم الغرب في هذه الأمور بدلاً منه وفرضها فرضاً ، وهذا ما استطاع الاستعمار أن يحققه خلال فترة الاحتلال الطويلة للعالم الإسلامي ، وهو ما تملأ الأصوات الآن إلى النظر فيه بروح الإصالة والاستمداد من الشريعة الإسلامية والقيم الأساسية لفكر الإسلام المستمدة من القرآن . ولا شك كان القرآن ، هو أخطر الأصول التي حرص التبشير على توجيها سبيلها إليها وإبعاده عن مجال التعليم والتربية والمجتمع والثقافة عامة ، فإذا عرض في بعض الجامعات عرض على أحد من أساليب البلاغة والبيان .

وكان الدكتور طه حسين في هذا آراء مثيرة استمدها من كتب المبشرين عندما حاول اتهام القرآن بالوضع ، وأنه من صياغة محمد وأن له أسلوباً في مكة يختلف عن أسلوبه في المدينة إلخ وقد أورد ذلك الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس القبان المسلمين في البرلمان قارئاً آياه من كراسة طالب في كلية الآداب

(٢) أولى المبشرون الاهتمام ببعض الأعلام والشخصيات على أساس (أولاً) الانتقاص والفض من قدر كثير من الشخصيات ذات الفاعلية الهامة في التاريخ والثقافة أمثال : الممرى وابن خلدون والغزالي والمتنبي وقد وجه بعض المبشرين انتقادات ظالمة إلى هذه الشخصيات وغيرها وتأثر بها كثير من الباحثين الذين يكتبون بالعربية أمثال لويس عوض وطه حسين وزكي مبارك . (ثانياً) ركز التبشير على الاهتمام بشخصيات أخرى وإعلاء قدرها أمثال : أبو نواس ، بشار بن برد ، الخلاج .

(ثالثاً) : أولى اهتمامه بالدراسات الفلسفية الصوفية وإذاعتها رغبة في أن تكون أفكارها عاملاً في بلبلة أفكار المسلمين وإدخال أفكار غير أصيلة عن الإسلام ، وقد عنى المبشرون والمبشرون بالمروردي وابن عربي ومذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد وهي مذاهب ليست إسلامية أساساً وإنما دخلت إلى الفكر الإسلامي من الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية القديمة . وبما اهتمت به هذه الدراسات كتابية بحث مطول عن مسيليه ، الكذاب ومن الأسف أن بعض المجلات العربية قد عنيت بترجمة هذا البحث ونشره ، وبالطبع فإن مجلة (الرابطة الشرقية) التي كان برأس تحريرها على عبد الرزاق التي ترجمت البحث إنما قصدت إلى هدف محدد في مخطط التبشير والاستعمار والتغريب . وبالجملة فإن تعويه الثقافة العربية والفكر الإسلامي كان هدفاً أساسياً للتبشير ، كوسيلة للحط من شأن العرب والمسلمين في نفوسهم وأهلبيهم وقومهم ، والمعروف أن القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية هي الوسيلة الأساسية للنهضة واليقظة بين المسلمين ، ولذلك فإن مخطط التبشير كان عاملاً أساسياً في الحيولة دون تحقيق ذلك وقد استخدم في هذا السبيل عدداً كبيراً من الكتاب الذين يكتبون بالعربية وأحاط أسمائهم باللعان والبريق عن طريق الصحف الكبرى ودور النشر والمنابر البارزة في الجامعات والجمعيات العالمية الكبرى .

وعلى الجملة فإنه يمكن أن يقال إن التبشير كمنحط للاستعمار قد عمد إلى النظر إلى الفكر الإسلامي على أنه (تراث) بينما هو ليس كذلك في الحقيقة ، فالتراث عبارة لا تزال تعطي معنى القديم المتجمد بينما الفكر الإسلامي مازال حياً ، متفاعلاً مع الثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية والاندونيسية والافريقية وغيرها . وإنما استهدف التبشير هذا لكي يوحى بأن الفكر الإسلامي شيء قد وضع على رفوف المتاحف . وفي مواجهة هذا التراث عمد إلى تحقيق عدة أهداف يندسها ويدسها كتابة من المبشرين وخلفائهم عن يكتبون باللغة العربية ترمي إلى توهين القيم الإسلامية وتفتيت وحدة الفكر الإسلامي والثقافة العربية وإثارة الخلافات بين الشعوب الإسلامية والعربية ووضع أسفين ضخم بين العرب والترك والفرس والعمل على بمررة القوى الوطنية في كل بلد عربي .

من خلال هذه الأهداف الخفية تبدو الغبشات المثارة والعبارات التي تحمل طابع العلم وأسلوب البحث الجاد وهي تدس السموم وتحاول أن تسخر من هذا النص أو ذاك رغبة في خلق جو نفسي من الشك والاستهانة وعدم التقدير للقيم والأصول التي قام على أساسها هذا الفكر الإسلامي الشامخ .

الفصل السادس

التبشير والأدب العربي

وجه التبشير حلة ضخمة إلى الأدب والتراث العربي استمدت شهبانها من كتابات المستشرقين وحمل على إذاعة أنواع معينة من التراث والإغضاء عن أنواع وفنون أخرى وكان من أبرز ما هني به إذاعة وطبع كتابي ألف ليلة والأغانى وإذاعة شعر منسوب إلى عمر الخيام . والمعروف أن بعض الكتب القديمة من التراث قد كتبت في ظروف مختلفة ، وقصد بها إلى ترقية الفراغ لجامت هذه الكتب حافلة بالقصص والفكاهة وضمنت خليطاً من المتعة والتسلية ، وحاولت أن تجمع الطرائف وأحاديث الأندية وروايات الرواة الذين انتشروا في القرن الثالث في أنحاء العالم الإسلامي وفي عواصمه من القصاص والمداح ، هؤلاء الذين ملأوا أجواء الحياة بعشرات الحكايات التي تضمنتها من بعد كتب المحاضرات والأفاصيص ، هذه الكتب التي كتبت لغاية خاصة ، لا يجوز أن تترك دون تذكرة بأنها لا تصلح وحدها كراجع علمية لدراسة عصر من العصور أو تصور حالة المجتمع الإسلامي في ضوءها . وفي مقدمة هذه الكتب : كتاب الأغانى الشهير بأجزائه ومجلداته العديدة . وكتاب ألف ليلة . وقد كان يوضع هذان الكتابان في مكانهما المعروف الممزول عن كتب الثقافة والعلوم والأبحاث الجادة لولا تلك المحاولة الذي قام بها بعض الناشريين الغربيين الذين جاءوا إلى البلاد العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر واعتصموا اهتماماً كبيراً بإذاعة هذين الكتابين وإعادة طبعهما بكميات كثيرة ، وألوان فاخرة ، بالإضافة إلى ذلك الإهتمام الذي وجه إلى الشعر المنسوب إلى العلامة الفلسفي الأشهر عمر الخيام .

واقدر شكلت هذه الظاهرة في نظر الباحثين المنصفين بالإضافة إلى اهتمام المبشرين والمستشرقين بشخصيات معينة في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي وإبرازها والعناية بها ، والحلة على شخصيات أخرى وإثارة الغبشات حولها . كل هذا شكل ظاهرة جديدة تحتاج دوماً إلى الكشف عنها والتذكير بها . فقد كان العرب والمسلمون دوماً في مراحل اليقظة والنهضة يتحركون في مجال تجديد فكرهم بحرية مطلقة ودون ضابط ، ولكنهم في مرحلة اليقظة الحديثة كان النفوذ الاستعماري قد سيطر على معظم أجزاء العالم الإسلامي والامة العربية ومن هنا فقد حدث نوع من التداخل والضغط بالنسبة لما يهتم من التراث وما يترجم من الآداب العربية فلم تمكن للفكر الإسلامي حريته المطلقة ولا قدرته المحررة في تقبل ما يجده موافقاً لمجاري فكرة ولقيمة الأساسية ، من خلال هذا التحدى جرى ذلك الضغط على نشر بعض الكتب وفي مقدمتها ألف ليلة والأغانى والشعر المنسوب إلى عمر الخيام .

(ألف ليلة)

حاولت حركات التبشير والتغريب التي رافقت النفوذ الغربي والاستعمار أن تجعل من كتاب ألف ليلة وليلة ، وثيقة ، لدراسة صورة المجتمع الاسلامي ولذلك فقد ترجم إلى مختلف اللغات وأعيدت حوله اهتمامات كبرى ، وذلك ضمن المخطط المدرس والمنفذ الذي يشمل الأغاني ورباعيات الخيام وغيرها من المؤلفات المملوءة بالصور الإباحية في محاولة خطيرة لإلقاء ظلال من العكس على سلامة الفكر العربي الاسلامي ومحاولة لاثارة هذه الموجة من العكس والاباحة عن بعضها من دترات العرب والمسلمين أنفسهم ويتميز كتاب ألف ليلة وليلة في نظرم بأنه يعطى صورة مختلفة للطبقات في المجتمع ويخلط بين الامم والصعولة والتاجر والشرير ، وأنه لا يقف بالصورة عند مجتمع السراة والولاء . والمعروف أن كتاب ألف ليلة ليس وثيقة تاريخية وليست له مصادر أساسية وإنما هو مجموعة من القصص الخيالية التي جمعت ورويت في ظل اضطراب المجتمع الاسلامي وضعفه ، وقد تولى ترجمته المستشرق الفرنسي غالان هام ١٧٠٤ ومن ثم انتشر بصورة مذهلة في جميع اللغات الأوروبية وأعيدت طبعاته في الإنجليزية والألمانية وغيرها . وكانت الصورة التي أريد فرضها بالباطل من خلال هذا الكتاب أن الشرق يعيش في الحرمان والترف والبخور والخمر ، هي الصورة التي أفرزت كثيرًا من الكتاب الغربيين بالرحلة إلى الشرق ورددت كلمات الإعجاب والتقدير ، فقد كتب جوتة وبايرون وغيرهما كلمات تحمل معنى التطلمع إلى الصورة المغلفة بالضباب الشرق والتي رسمتها ألف ليلة في نفوس وعقول هؤلاء الكتاب وقد ظنوا أنها حقيقة وأن المجتمع الاسلامي كله يعيشها . وفي ظل هذه الصورة كون الغرب رأيته في الشرق ، وحاول أن يستخرج منها قواعد للاجتماع والأسرة والمفاهيم ، وكان في ذلك غلطًا أشد الخطأ فلم يكن الشرق في حقيقته يعيش هذه الصورة ، ولم تكن مفاهيم الترف والجنس والشهوات هي التي تسيطر عليه أو توجه فكره ولقد عرف الغرب عندما زار الشرق كيف أن هذه الصورة لم تكن واقعية ، وأن قيم العرب والمسلمين كانت لا تزال حية قوية ومفاهيمه سليمة ، وذلك بالرغم من الضعف الذي كان قد انتاب الدولة والفساد الذي حل بالطبقات العليا منه أما الطبقات الوسطى والدنيا فلم يكن قد أصابها الانحراف وإن كانت قد تفوقست وتجمدت . وعرف بالتأكيد عن طريق البحث العلمي النزيه أن د ألف ليلة ، لم تكن إلا مجرد صور خيالية تمثل الأساطير والأحلام والأوهام التي تعيش في خيالات القصص وهي في مجموعها مستمدة من تراث الأساطير الشرقية والغربية القديمة ، وقد استطاعت براعة الرواة أن تخلق منها جواً عصرياً فتضم إليها أسماء جديدة . ولذلك فقد كانت محاولة دعاة التغريب المركزة على اعتبار ألف ليلة صورة واقعية للمجتمع الاسلامي العربي ، كانت مضللة وكاذبة أساساً ولا تعتمد على سند علمي صحيح وإن محاولات المستشرقين ، لين ، في أن يتخذ من هذا الكتاب أساساً لشرح عادات العرب والمصريين وكتابة بحث تاريخي عن المجتمع الاسلامي ليست إلا محاولة زائفة تخدم أغراض التبشير والاستعمار والتغريب والغزو الثقافي ، وكذلك كان مستر د بيرتون ، غير منصف حين اعتبر أن ألف ليلة تستطيع أن تقدم لأهل طباع المسلمين وعاداتهم وأخلافهم وذلك على حد قوله لتسكون لديهم د الحسنة الضرورية ليحكموا المسلمين

الرافعين ضد امبراطوريتهم ، وقد كشف هذا عن الاتجاه الاستعماري وبقي أن نقول أنه بهذا الاعتماد على ألف ليلة فإن المستعمرين لم يعرفوا حقيقة المجتمع العربي الاسلامي ولم ينفذوا إلى جوهره ، ولأن ألف ليلة من صنع القصص والرواة — وهم غالباً غير حائزين على قدر من الثقافة يؤهلهم لفهم مقومات الفكر العربي الاسلامي فإن ما يجري فيها من حوار ساذج لا يمثل حقيقة الروح العربية الاسلامية ، ومن هنا . كان خطأ الويف اعتبار الاحاديث التي جرت فيها بأنها مصدر لاستخلاص قيم معينة حيث يقال بأن « حكاية الوزير نور الدين ابن شمس الدين » هي أكثر بدائية وفيها حرية الأطفال على حد تعبير المستشرقين وعلى ضوء هذا الكتاب الملق الذي لا يعرف مؤلفه ولا تاريخ تأليفه تقوم نظريات عربية تحاول أن تصطبغ بطابع العلم والبحث المجرد ، وأن تجد من يدافع عنها ويتبنّاها من دعاة التغريب والشموعية كالقول بأن العرب عاطفيون يحبون من أول نظرة . وقد بلغ الامر في استغلال ألف ليلة إلى حد أن أضاف بعض المترجمين إليها ما ليس فيها من أقدم عبارات الوصف الجنسي كما فعل المستشرق الإنجليزى الدكتور مارد روس في أوائل القرن فاختفى معالم الاصل وحول ألف ليلة إلى كتاب لإثارة الشهوة والغريزة الجنسية .

﴿ الاغانى ﴾

وكذلك كان كتاب الاغانى في مقدمة الكتب التي حرص التغريب على أن تكون مرجعاً أساسياً لدراسة الادب العربى والحياة العربية في القرنين الاول والثاني وعليه اعتمد كثير من الكتاب الذين قالوا : إن العصر الثاني الاسلامى — كذبا — كان عصر شك وبخون . وقد حاول بعض دارسى الاغانى أن يعتبروه « مصدراً لتصوير حياة ، وجرعة محاولات كثيرة للكشف عن جوانب شعبية والتعامل والخطأ الوارد فيه وأنه لا يصلح كمرجع تاريخى لتصوير الامة العربية ولا مرجعاً أدبياً لأنه اقتصر على لون واحد من الادب في عصره هو أدب الاغانى يستباح فى الادب العربى في عصره بفنون عديدة مختلفة . وأبو الفرج الاصفهاني مؤلف الاغانى ليس مؤرخاً وقد وصفه العلامة الیوسفى بأنه كان أ كذب الناس لأنه كان يدخل سوق الوراقين وهى عادة الهكاكيين وهى ملوثة بالكتب فيشتري منها شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها . كما ذكر عنه صاحب معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥٣ قوله « كان شأنه في معاورة الخمر ووصف النساء شأن الشعراء والأدباء الذين كانوا في عصره أو قبله حيث يقدم دكاكين الخمارين وجلهم من اليهود أو الصابئة والمجوس ، وقد عرف — أى مؤلف ألف ليلة — بمعارفته للخمر ، ولم تكن له هناية بنظافة جسمه وثيابه ، كما قال عنه الصابى في كتابه الذى ألفه في أخبار الوزير المهلبى وكان أبو الفرج الاصفهاني وسخا قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصله إلى أن قطعه وكان الناس يحفرون لسانه ويتقون هجاءه ويصدون عن مجالسته ومعاشرته على كل صعب في أمره لأنه كان وسخا في نفسه ثم في ثوبه وفعله ، وحكى الفاضل أبو على الحسنى للتوخذى في كتابه « مشوار المخاطرة » أن أبا الفرج كان أ كولا نهما وكان إذا نفل لقطام على معدته تناول خمسة دراهم فلئلا مذقوقاً ولا يؤذيه ولا تدمع له عين وبعد ساعة أو ساعتين يفسد ، .

أمثل هذا يصلح كتابه مرجعاً ، إننا ننظر إلى الكتاب قبل أن ننظر إلى الكتاب . فإذا كان أميناً شريفاً نزيهاً قبلنا منه وإلا رفضناه وذلك وفق منهج والجرح والتعديل ، التي رجمته ثقافتنا العربية الإسلامية وجاء المنهج العلمي الحديث على قاعدتها . وقد أشار الدكتور زكي مبارك في كتابه « النثر الفني » إلى مكانة الأصفهاني وكتابته الأغاني يقول : « وشهرة الأصفهاني وكتابته مستفيضة ، وإنما أريد أن أخص على ناحيتين في الأصفهاني وكتابته لم أجده من ثقبه لها من الباحثين ، وهاتين الناحيتين أهمية عظيمة في فهم الحياة الأدبية وسيكون لها أثر عظيم في دهوة المؤلفين إلى الاحتياط - ينرجعون إلى كتاب الأغاني يلمسون الشواهد في الأدب والتاريخ . الناحية الأولى خاصة بالأصفهاني ، تلك الناحية هي خلقه الشخصي فقد كان الأصفهاني مسرفاً أشد الإسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب في تكوينه الخلق أثر ظاهر في كتابه ، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلافة والمجون ، وهو حين يمرض للكتاب والشعراء يتم بسرد الجواب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ويهمل الجواب الجدية إجمالاً ظاهراً يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدد والرواة ، والتجمل والاعتدال ، وهذه الناحية من الأصفهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه للمرحوم جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ، وما كتبه مؤلف حديث الأربعة - يقصد الدكتور طه حسين - تكفي للإقناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جر هذين الباحثين إلى الخط من أخلاق الجاهل في عصر الدولة العباسية وحلها على الحكم بأن ذلك المصركان عصر فسق وشك ومجون . ولا شك أن إكتثار الأصفهاني من تتبع سفطات الشعراء وتلصق هفوات الكتاب جعل في كتابه جواً مشبعاً بأوزار الإيثار والفجوة وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقرية بالفسق والعلش .

أما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الأغاني : تلك هي لظن ذلك الكتاب ، ففي مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق ، فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ ، وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تغني بها الأندية ومجامع السر ومواطن اللهو ، وأنه ليحدثنا في المقدمة بأنه أتى في كل فصل من كتابه بفقرة إذا تأملها قارئها لم يزل منتقلاً بها من فائدة إلى مثلاً ، ومتصرفاً فيما بين جد وهزل ، وأخبرنا بعد ذلك أنه اهتم بالغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن ، وحلل لذلك بقوله : إذ ليس لكل الأغاني خبر يعرفه . وهذه كلها شهادات باحثين منصفين في تقدير كتاب الأغاني ووزنه بميزان الإنصاف ، وهذه صورة مؤلفه وحقيقة جوهره ، ومن هنا كان علينا أن نذكر إخواننا الباحثين دائماً أن يقتنبوا إلى هذه الحقيقة ، حقيقة أن كتاب الأغاني ليس له قيمة تاريخية وأنه لا يصلح مرجعاً علمياً ، فقد كان مؤلفه منحرفاً وكان اتجاه الأغاني واضحاً أنه لا يرسم صورة المجتمع كله ، وإنما يرسم ذلك الجانب القليل المضطرب منه . وهناك رأي بأن الأصفهاني له يد في تكوين هذه الأخبار التي ساقها للمختصيات كتابه وأنه وضعها في قوالب يغلب عليها اللهو والمجون ، فهو لم يخلفها كلها ولكنه نفخ فيها من روحه .

حول كتابي ألف ليلة والأغاني وقصائد رباعيات الخيام ردد المبهثون والمستشرقون كثيراً من

التشبهات، وجرى كثير من المحاولات لفرض هذه الآثار كأنها هي مراجع أساسية يستمد منها مفهوم الحياة الاجتماعية والفكرية للمسلمين. وقد ثبت أن بعض المراسلين الأجانب في بيروت هم الذين أعادوا طبع كتاب «ألف ليلة» عام ١٨٨٨ وحفلوا بنشره ونوالى طبعاته عن طريق دور النشر الموجهة من الاستعمار والنفوذ الغربى. ثم جرت أبحاث متعددة في محاولة للقول بأن القصص الذى يضمه «ألف ليلة» بصور حياة العرب أو المسلمين بصفة عامة بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر «ألف ليلة» عن أن قصصها مأخوذة من المراجع الفارسية قبل الإسلام، وأنها لا تمثل مجال «مفاهيم الفكر العربى الإسلامى» وأنها فى الأغلب مجموعة أساطير هندية بدأت بحكايات السباع الضواري والمرجع لها «هزارافسانه» ومعناه «ألف رواية» وقيل أن الجهمشارى قد ترجمها إلى العربية، وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودى المتوفى ٩٥٦ م القرن الثالث الهجرى فى كتابه «مروج الذهب» عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالبهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره «شهر زاد» و«خادمتها دين زاد»، وكذلك أشار النديم مؤلف الفهرست المتوفى ١٩٠٥ م إلى كتاب ألف ليلة بمجلا وقال إنه كتاب الحلاوة والسيئات وأشار إليه المؤرخ القرطبي، وقد كانت كل إشارات الكتاب والمؤرخين العرب والمسلمين إليه إشارات مقبحة على أنه مصدر سافط فى أنظار البعثات وعلماء العرب على حد عبارة الدكتور ستينى كاجترجى (مجلة ثقافة الهند - يناير ١٩٦٢). ومعنى هذا أن كتاب «ألف ليلة» أصلاً كان سابقاً للإسلام، وأن مصدره أساطير هندية وفارسية، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل التسلية، ويضيفون إليه حكايات جديدة، كما أضيفت إليه صور من المهود المختلفة وآخرها عهد دولة المماليك حيث أضيفت مسامرات أهل بغداد والقاهرة، فهو مجموعة أساطير فارسية وتركى وهندية قديمة، ومن هنا يمكن تقدير الموقف حين يراد أن يكون مرجعاً من مراجع دراسة حياة المجتمع الإسلامى، بل المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه كثير من المستشرقين والباحثين ودلوا عليه تلاميذهم فى محاولة لرسم صورة ظلمة غير حقيقية. وقد أشار الدكتور (ستينى كاجترجى) إلى أن الحكايات الأصلية الواردة فى كتاب «ألف ليلة» هى التى تسكون فى منزلتها أساسية، هذه الحكايات كانت مستعارة من الهند بواسطة الفرس،. وعندما أنه مهما تكن صورة الحياة التى ترسمها «ألف ليلة» فهى ليست الصورة التى يرسمها المجتمع الإسلامى، والمرأة التى تصورها «ألف ليلة» ليست قطعاً المرأة العربية أو المسلمة، فقد غمى الإسلام نظرة المرأة إلى الحياة ونظرة الرجل إلى المرأة، فلم تكن قط فى مفهوم الإسلام أداة جنس أو مصدر غايات حسية إلا فى مفاهيم المجتمع الجاهلى أو الوثنى، وحتى بعد أن اضطربت الحياة السياسية فى العالم الإسلامى، فقد ظل هناك فارق واضح وحاجز كبير بين ما يسمونه اللغائية و«بنت الأصول». والواقع أن الأدب العربى يحوى عدداً من الآثار من مثل كتاب «ألف ليلة» كالأغاني وكتب المحاضرات والاشعار وهذه كلها لم تصكب أساساً بروح البحث العلمى أو التاريخى، وإنما كانت جملاً لاشمار وقصص الطرفاء والندماء وكان جامعوها وكاتبوها ضمافاً للمكانة بحيث لا يستطيع أحد أن يضعهم فى صف العلماء والباحثين ذوى القدر والاحترام، وإنما يقوم البحث فى مجال الفكر الإسلامى أساساً على الثقة فى الكتاب من حيث شخصيته وخلفه وعقائده، فإذا عرف

عنه سواء في شخصيته أو خلقه أو تصرفاته كان ذلك عاملاً من عوامل عدم التقدير له وبالتالي لا تكون آثاره موضع الثقة الكاملة . ولذلك فإن (الأصفهاني) مؤلف (الأغاني) وغيره كثيرون قد عرفوا بإغراقهم في حياة الظهور والعبث وبذلك ضلعت نفوس الباحثين عن الثقة في كتاباتهم . وبشهادة ابن الجوزي في ترجمته لأبي الفرج الأصفهاني بأنه كان من « بذاة اللسان » بحيث « جعلت الناس يتعاشونه ويخشون لسانه ، وإنهم ليدذكرون لنا أنه لم يسلم أحد من مجاته » . ويقول مؤرخه « إنه كان من الغدابة بمكان . دلس في نفسه وفي ثيابه ، ولعله من هنا كان بذية اللسان ، لا يتورع عن دنس ولا يتعفف عن مكروه ولعل هذه الصفات لازمته منذ الصغر » . ويقول صديقه التنوخي « إذا ثقل الطعام في معدته - وكان أكلوا نهماً - يتناول خمسة دراهم فلفلاً ممدقوقاً فلا تؤذيه ولا تدممه ، وأراه يأكل حلوة واحدة أو أو يصبغ بمزقة قدر فيها حمص فيسهرج بدنه كله من ذلك ، وبعد ساعة أو ساعتين يفصد وربما فصد لذلك دفتين ، وأسأله عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه » . وهكذا يسطر أمثال « الأصفهاني ، أمام ميزان الجرح والتعديل ، ويسقط كتابه وتسقط كل هذه السكتب التي لم يرد بها وجه العلم الخاص ، وإنما أريد بها تقديم قصص مثيرة يتلها بها الناس ويرجون بها فراغهم . ومثل هذه السكتب لا يمكن أن تكون مصدرأ تاريخياً لأنها لا تستوعب صورة كاملة للمجتمع ، بل لأنها لم تستوعب صورة كاملة للشخصيات التي تناولتها . يقول الدكتور محمد أحمد خلف في كتابه عن الأصفهاني وكتابه الأغاني : « إن كل هؤلاء المغنين والشعراء الذين ترجم لهم في كتاب الأغاني وصور لنا هذه الألوان من حياتهم لم يكونوا من اللاهين العابثين ، وإنما أبو الفرج هو الذي يتبصع هذه الجوانب في حياتهم ويحرص عليها إن أبا الفرج قصد إلى المزحل ببداية مؤرخه لعوامل نفسية دقيقة وأنه لم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية . قصد إلى الرواية ولم يقصد إلى التاريخ ، واختار من المرويات ما جعل الخبر الدأ وأمتع والقصة أشهى وأحلى ، ليكون السمر اللذيذ والتسكون اللذوة المريحة » . ومعنى هذا أن كتاب الأصفهاني إنما قصد إلى : « إدخال السرور - مادة السمر - للتنفيس وإزجاء الوقت ، وليس للحقيقة والتاريخ مطلقاً . وقد لبه كثير من مؤرخي أبي الفرج إلى أهوائه الشخصية . ويصف الدكتور محمد أحمد خلف الله (الأصفهاني) غير وصف بأنه « حديد ، سريع الغضب بذية اللسان ، يغضب لاتفه الأشياء ، ويضيق من أسر الأمور ، ويطلق لسانه فيمن يستثير فيه الغضب حتى ولو كان من أوفى الأوفياء وأخلص الأصدقاء » . واعتقد أن هذا شأنه وهو شأن كتابه فإنه لا يصلح أساساً كمصدر ومرجع للدراسة الجادة ، واعتقد أنه قد تأكد في اعتبار الباحثين منذ وقت بعيد أن كتب الأدب التي يقصد بها عادة إلى الفكاهة والسمر وكتب المحاضرات هي عماليجرو باحث أو عالم على أن يعتبرها ميزاناً صحيحاً يزن به رجال التاريخ أو تؤخذ منه تراجم العظماء ، أو ترسم به الصورة الاجتماعية للأمم ؛ وإذا كان مفهوم التاريخ في أحدث مذاهبه هو اعتبار الوثائق مشكوكاً فيها وباطلة أساساً حتى تثبت صحتها ، فالقول في هذه الصور الأدبية المروية بنقد توثيق أكيد ، ومن خلال أسماء كلها موضع للتجريح والانتقام في علامة خلقها أو إيمانها بالتحقيق العلمي ، أو اتصالها بالصوفييين أو الباطنية أو الوادقة . وإذا كان كتاب الأغاني يقصر حياة الأنرف والمجون على طبقة معينة أو مجموعات من الناس فإنه بلاشك أقل خطراً من كتاب « ألف ليلة » الذي يصور المجتمع كله على هذا النحو من التحلل والانحراف

وقد كان لألف ليلة أثر جرد مرير في رسم صورة مشوهه عن المجتمع العربي الإسلامي ، وقد أضاف المترجمون الغربيون إلى بشاعة الصورة التي يحملها الكتاب إضافات زائدة بشاعة فقد أشار المستشرق الفرنسي د غالان ، الذي ترجم ألف ليلة لأول مرة عام ١٩٠٧ م بأنه د فرنج ، الكتاب ليلاثم ذوق قرائه ، وأنه ركز صورته على رفاهية الشرق وترفه ، وأنه رسم صورة الشرق الحيواني ؛ وكان من نتيجة ذلك أن كتب كتبه من الباحثين وفي مقدمتهم المستشرق د لين ، كتاباً عن المجتمع الإسلامي اعتياداً على د ألف ليلة ، وأشار د شارل بيرنون الإنجليزى في مقدمة ترجمته إلى ، أنها ترجمة تهدف إلى أن يتمتع أهل موطنه بما فيه الكفاية على طبع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية ليحكموا المسلمين الواقعيين ضمن امبراطوريتهم ، . أما وابعيات الحيام فقد أخذنا السيد مبشر الدين الطوازي بكتابه د كشف اللثام عن رابعيات الحيام ، أن نفيض في موضوع دعوى نسبة هذه الاشعار التي تلتم بالانحلال إلى عالم مسام تابه كان متخصصاً في الفلك وله في تاريخ العلوم الاسلامية مكان جلي ، ولكن هكذا أراد الشاعر الانجليزى د فيتجيرالد ، حين نسب إليه - ظلماً وزوراً - هذه الافكار المجهولة الاصل . وجملة القول أن هذه الاشعار إنما أريد بها أن ترسم صورة مغايرة تماماً لمفهوم الاسلام للنفس الانسانية ، وقد كان للاستعمار دخل كبير في التركيب على هذه الاشعار التي جرى ذكرها على الالسنه في مختلف أنحاء العالم الاسلامى وخاصة في فارس والهند مستهدفة لشر هذه السموم بين الشباب معرضه إياهم على تناول الخمر وملازمة السرور والغناء ومعجاجة السعى والعمل وحتم على الاباحية والوندقة والحرية المعالفة ، وكان ذلك ضمن منخطط النفوذ الاستعماري لدفع الشرق إلى التراخي في مقاومة الغزو والاستسلام له . وقد أشار السيد الطوازي في بحثه القيم ، كما أشارت مصادر كثيرة إلى أنه ليس هناك من مصادر أكيدة تؤيد نسبة هذا الشعر إلى عمر الحيام وأنه لا وجود لمصدره الاصلى وإنما أسند إلى عالم عظيم شرق وحكيم فلسفى رائع ، ومنجم لامع في نفس الوقت الذى انخفضوا فيه ابصارهم عما ثبت عنه - عن عمر الحيام - في مقولاته وآثاره التي تدل على ديانته وتمسكه بتمام الشريعة الاسلامية وحرصه على تطبيقها في كل شئون الحياة وهم لم يكرموا عمر الحيام لمساكنته في العلوم الرباعية وعلوم الفلك وإنما من أجل الاهداف السياسية في إذاعة قصائد التحلل والمجون المنسوبة إليه وأنهم لم يفعلوا ذلك لابن سينا أو الفردوسى أو الفزائى أو الونخشري من اعلام الفكر الاسلامى ، لقد كان معظم الغربيين موجهاً في الواقع إلى تلك الرباعيات الخليفة التي مهدت لهم سبيلا النيل من الاسلام وتعاليمه ودعوة أهل الشرق إلى التحلل الخلقى والحرية المطلقة والضعف والخوان . وقد أشار مبشر الطوازي - وعشرات غيره من لباحثين - إلى أنه لم يثبت أصلاً وجود نص حقيقى كتبه عمر الحيام وأن النسخة التي نسبوها إليه كتبت بعد وفاة للحيام بأكثر من ثلاثمائة وخمسون عاماً مما يؤكد أن الرباعيات موضوعة لأصل لها ، استغلها دعاة التبشير والاستعمار وساروا بها إلى كل مكان مستغلين إسماعظيا وباحثاً مسلماً كبيراً في سبيل تحقيق خطة من خطط التغريب والغزو الثقافى .

الفصل السابع

التبشير وتاريخ الاسلام

وجه التبشير إلى التاريخ العربي الإسلامي حملات عنيفة متنوعة استمدت شتماتها من نظرات بعض المستشرقين وحرص دعاة التغريب والشمونية على إذاعة هذه الشبهات وترديدها من بعد لتشويه التاريخ الوطني والإسلامي جميعاً. وفي هذه الشبهات حول حياة الرسول وحياة الخلفاء والأبطال والفائزين وعديد من المواقع والمواقف المختلفة مستهدفة الغرض من قدر تاريخ الإسلام والعرب ولعل الشبهة الكبرى التي توجه إلى تاريخ العرب والمسلمين هي أنه لم يرق إلى أساس علمي، وهي فرية باطلة، فقد عمد المؤرخون العرب إلى منهج علمي دقيق أشبه بطريقة المحدثين في التثبت والدقة والتحري. وساروا أن يستفيدوا من قواعد علم الحديث في الجرح والتمديد ونقد النص، ويفاضر الدكتور أسد رستم في كتابه مصطلح التاريخ، يسبق المحدثين إلى هذه القواعد الجميلة التي تفوق دقة وضبط ما وصل إليه أساطين علم التاريخ ونقدته في أوروبا وأمريكا وذلك وفق طريقة جمع الأصول ونقدها وتنظيمها، وتفسير النصوص والتعليل والإيضاح والعرض. وقد أشار العلامة د. تالينو، إلى مدى دقة العرب في كتابة التاريخ، وأنهم اتخذوا لذلك طرقاً بالغة الحيلة (أولاهما) ذكر عدد السنين سنة فسنة ورواية ما جرى من الحوادث في كل منها مهما كانت البلاد التي وقعت فيها كما فعل الطبري وابن الأثير وأبو الفداء. وذلك بخلاف القدماء من اليونان الذين جعلوا غاية التاريخ في حكاية الحوادث (ثانياً) العناية برواية الحوادث باعتبار سياقها على قدر الاستطاعة كما فعل المسعودي في مروج الذهب وابن خلدون وابن القفطي. ومن حاول إتهام المؤرخين العرب بأن كتابتهم لتاريخ شيدت على أسس الطريفة الفارسية، الكاتب فيليب حتى، صاحب كتاب العرب، غير أن المنصفين من الباحثين أمثال الدكتور عبد العزيز الدوري والاستاذ محمد عبد الفتى حسن أكدوا في مواجهة هذه الشبهة، أن عام التاريخ كان عربى النشأة والأصول وأن خطوطه الأساسية تمددت واستكملت قبل الترجمة من الفارسية ولذا فإن قول فيليب متى: بأن المثال الذي احتذاه المؤلفون فارسى في الأصل على طريقة (خدائنامة) هذا القول مردود الدكتور الدوري: هو مردود لأننا نعرف أن كتابة التاريخ على أساس السيرة، وعلى أساس الأسر الحاكمة عرفها العرب قبل ترجمة الخدائنامة. وقد بدأ علم التاريخ عند العرب من أصول منهجية بدراسة الحديث (الغازي) من جهة ومتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالإمام كما ظهر لدى الأخباريين وعندنا أن اضطراب فهم الغربيين لتاريخ الإسلامى - فيما غير الحوى والمتمصّب - يرجع إلى جوهر الخلاف الأساسى بينه وبين التاريخ العربى.

والحق أن فهم المؤرخين الغربيين لتاريخ الإسلامى يحتاج إلى نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرهم إلى التاريخ العربى الذى يمارسونه، وأن المقاييس التى يتبعونها فى فهم تاريخهم قد تختلف اختلافاً واضحاً

في التطبيق على التاريخ الإسلامي العربي ونأتى بنتائج قاهرة أو مختلفة تماماً ، وأنه لابد في دراسة التاريخ العربي الإسلامي من مفاهيم مختلفة ، باعتبار أن التاريخ الإسلامي صورة من النفسية العربية الإسلامية التي صاغته . وقد تنبه إلى هذا المعنى كثيرون ، من بينهم مستر هاملتون جب ، حين يقول : إن التاريخ الإسلامي سار في وجهة معاكسة للتاريخ الأوروبي ، على نحو ينير الاستغراب ، كلاهما قام على انقاص الامبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا أصيلاً ، فبينما خرجت أوروبا على نحو متدرج لاشعوري ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة من غزوات البرابرة ، أُنشئ الإسلام أبشفاً مفاجئاً في بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد تميز على التصديق في أقل من قرن من الزمان ، امبراطورية جديدة في غربي آسيا وشواطئ البحر المتوسط .

وراجع هذا المعنى الأستاذ تربتون ، في كتابه « الإسلام : عقائده وعبادته » ، حين قال : إذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تحليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب أن يعلل وحدة العرب وغلبيتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد وهو الإسلام وما أثير من شبهات حول مفهوم التاريخ العربي الإسلامي ، إنكار أن العرب والمسلمين قد بلغوا مستوى اليونان وبالتالي مستوى الأوروبيين المحدثين في إدراك فكرة الانسانية ، والحق أن فكرة الانسانية ليست واضحة في أمة ولا حضارة ولادين وضوحها في الفكر العربي الإسلامي ، وقد تنبه إلى هذا المعنى ، وافرد كاتون سميث ، الذي قال إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ ، أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ويؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعاً ، يسهل البشر على الأرض بمقتضاه ويحاولون أيضاً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش في كل عمل فردي أو جماعي ، وكل شعور فردي أو جماعي بمقدار قربة أو بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة ، وأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضرة . ويرى الدكتور (البان وايد غراي) في كتابه « تفسيرات التاريخ » أن نظرة المسلمين نظرة بناء ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي والقرآن ، فإن إرادتها حينئذ تنطبق وإرادة الله ولا يوجد من يعصى أوامرهم ويعم الرخاء بين البشر ومن صفات المؤمن أنه صار ، ويعلم أنه لا مرد لإرادة الله ، وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ مثلاً بالفيلسوف ابن خلدون فكان أول فيلسوف حلل درجات تأنيث المحيط والدوافع النفسية التي تعمز عملها في الحياة الانسانية وبسبب لشوء الحضارات وانقراضها . ومن الأمور التي يضطرب فيها رأى المؤرخين الغربيين العلاقة بين التاريخ والاسطورة بقوله العلامة محمد فريد وجدي : « كان القائلون بتمحيص التاريخ في الثلاثة قرون الأخيرة من الملحدن الذين لا يؤمنون بخالق الكون ولا بالنبوات ولا بالوحي ، فإنهم نظروا إلى التواريخ المقدمة بإسم « الميثولوجيا » أي علم الاساطير ، وذهبوا في تفسير هذه الميثولوجيا

كل مذهب غير مفرق بين ما يصح أن تنطبق عليه هذه الكلمة من العوائد الوثنية والتقاليد الخرافية وبين الحوادث النبوية القيمة . وجاءت الأجيال الحديثة قرأت بنفسها من أخبار الأمم حيال التاريخ والنيولوجيا ودربت على أن تعتبر الأول خلاصة محضة من حوادث الشعوب الماضية وأن تعدد الثانية حكايات خيالية تدلت من عقول ساذجة اخترعها رجال مداسون فألقوا أنفسهم متحليين من كل ما حمل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية . وتقاليده ومهمة معتبرين كل ما يوجد في تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لا يتفق والتاريخ المذخور ، خرافات لأصل لها في الواقع . فكان إنكار المعجزات التي أيدت المرسلين في دعواتهم الدينية باعتبار أنها تناقض العلم وتخالف قوانين الطبيعة وأن تعتبر كل هذه الأمور من الخرافات التي لا أساس لها في التاريخ ، وقد نوه الكتاب الكريم (القرآن) بأمم ماضية ومرسلين وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين وكلهم من غلاة الماديين أن من هذه القصص ما لم يرد في التاريخ وبعضه يعتبر من الخرافات وبالجملة فقد بحثوا التاريخ على ضوء المبادئ المادية البحتة التي لا ترى وجود الخالق والروح . .

ومن مجال التاريخ العربي الإسلامي شبهات متعددة . أهمها مرحلة الضعف والتخلف وأسبابها وعواملها وهي من أبرز قضايا التاريخ العربي . وقد اقتضت هذه القضية بحثاً موسعاً ، وحاول المستشرقون وكتاب الغرب من غير المنصفين أن يمزو هذا التخلف إلى الإسلام والفكر العربي الإسلامي .

وقامت الشبهة في هذا على وصف الإسلام بما وصفته به المسيحية الغربية التي كانت عائقاً للتقدم والنهضة في الغرب في عهد النهضة والريسانس ، ومن هنا نقلت نفس عبارات الاتهام إلى « الإسلام » بوصفه ديناً وعلى أساس أنه هو مصدر التخلف الذي أصاب المسلمين في القرون الثلاثة السابقة لهذا القرن والواقع أن الإسلام بوصفه ديناً وعملية لم يكن عاملاً من عوامل الضعف والتخلف ، بل كان الانفصال عن مفاهيمه وقيمه ، والجور من آفاته الواسعة الفسيحة هو في الأهم مصدر ما أصاب العالم الإسلامي من الاضطرابات . وقد ذهب بعض الغربيين إلى وصف هذه المرحلة بأسماء كثيرة ، كان أقساماً واشدها إمعاناً في التعصب ، تسميتها باسم « مرحلة الانحطاط » ، والواقع أن هذا الوصف لتلك المرحلة ليس منصفاً ، وأن كل الأسماء التي يمكن أن تطلق كالتأخر والانحدار والتخلف والضعف . ربما كانت كافية لوصف هذه المرحلة ، دون أن توصف بالانحطاط الذي يتمثل في حالة سقوط النهاية ، والواقع أن الجماعة الإسلامية بالرغم من أزمة الضعف الشديدة التي مرت بها فإنها لم تسقط . وكانت أزمتها قد وقعت في ظل مؤامرة كبرى استطاع النفوذ الأجنبي أن يحيكها أكثر من ثلاثة قرون ، وإذا كانت الرابطة السياسية الإسلامية ممثلة في السلطنة العثمانية قد سقطت فإن الفكر العربي الإسلامي لم يسقط . وظل حياً قائماً منفعلاً مع (عالم الإسلام) الذي لم يتفصل عن جذوره ، ومقوماته ، هذا بالإضافة إلى ما برز في فترة الضعف هذه من مواجهة للتحدي ورد الفعل المتمثل في القدرة على حماية التراث والفكر والمخطوطات واللغة والعلوم عن ثلاث طرق هامة (أولاً) للمعاهد والجامعات الإسلامية الكبرى التي ظلت حية قائمة تؤدي دورها بالرغم مما أصابها من الجور كالأزهر والزيوتنة والقرويين ومعاهد النجف الأشرف والشام والمسجد

الأقصى ومكة والمدينة وزوايا صحراء ليبيا وخلاوى السودان (ثانياً) هذه الحركة الضخمة لتأليف الموسوعات وطب مختلف فنون الفكر العربى الاسلامى إليها مجمعا من نحو وأدب ولغة وفقه وتشرىع وفلسفة ونصوص . (ثالثاً) الحركة الصوفية مثلة في تجمعاتها الواسعة وتحركاتها الضخمة في إفريقيا ، وهجرات العرب في جنوب شرق آسيا وما كان لها من الحركتين من أثر في نشر الاسلام والثقافة العربية إلى أبعد مدى ، وفي ظل هذه الفترة التي وصفها بعض كتاب الغرب بفترة الانحطاط ظلماً .

وقد عرض القضية التأخير والتخلف كثير من الباحثين وأعلام الفكر العربى الاسلامى المعاصرون مقدمتهم الامير شكيب أرسلان فقال إن أهم أسباب تأخر المسلمين هو العلم الناقص الذى هو أشد خطراً من الجهل ، وفساد الاخلاق بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن ، وبنوع خاص فساد اخلاق أمراء المسلمين ، والعلماء الذين اتخذوا العلم مهنة العيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدينا فسوفوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم . ومن أعظم عوامل تدهور المسلمين : الجبن والخلع بعد أن كانوا أشهر الأمم في الشجاعة ، واحتقار الموت .

وقد انضم إلى الجبن والخلع ، الذين أصابا المسلمين ، اليأس والفتنوط من رحمة الله . وفقدوا كل ثقة بأنفسهم حتى أصبح المسلمون في العصر الاخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والاروبى ، إلا سينتهى بهصرع المسلم ولو طال كفاحه ، وقد ذلك في نفوسهم ، لاسيما هذه الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكرة العاقلة المواقفة بالحقائق الصادقة عن الحياتيات برعها ، ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هي متردية متدنية بل زعمت أن التعب في مجارة المسلمين للافرنج من علم أو صناعة أو كسب أو تجارة أو حرب أو سلم أو أى منحنى من مناحى العمران ، وهو ضرب من المحال ، وكان المسلمين من طينة والافرنج من طينة أخرى ، ونحن نريد أن نقول إن كل من صار على الحرب وصل . وأن المسلمين إذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا أن يعملوا الاعمال العمرانية التي يقوم بها الافرنج وأنه ليس هناك فرق في القابلية البشرية ، واسكن على شرط أن ينفذ المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التي قد كانت أسباب شقاوتهم زمناً طويلاً وهي أن كل عمل عمرانى في الشرق لابد أن يستعار له شركة أوروبية تقوم به وإلا فلا يستطيع عمله . ويرى الامام الشيخ محمد عبده أن التأخر الذي أصاب الخلافة زمن العباسيين كان نتيجة لتسرب العناصر الأجنبية إلى جهاز الامبراطورية الاسلامية وأن تأخر العالم الاسلامى ووهن السلطة السياسية الاسلامية ايما ناشئين من فساد الاسلام ذاته بل من تقاعس المسلمين وإغفالهم لتعاليم دينهم . وقد دافع كثير من المنصفين عن إتهام الغرب لما رمى به الاسلام والفكر العربى الاسلامى من أنه مصدر للتأخر ، يقول الدكتور تيمية أمين فارس : إذا حسبنا أن الاسلام هو سبب تأخر الاقطار الاسلامية فبماذا تعمل تأخر أقطار مصرانية في البلقان وفي أمريكا الوسطى والجنوبية وفي أوروبا نفسها . وقال : إن ما قدمه المسلمون في القرون الوسطى من ما أثر في شتى ميادين العلم والفكر يثبت أنه لم يكن في الاسلام - آتئذ - وليس فيه اليوم شيء أساسى معاد التقدم لا - بل إن الأدلة تثبت عكس ذلك - أى أن الاسلام مؤات للتقدم - هي أكثر عدداً وإقناهاً .

ولما هنا في موقف الدفاع عن الإسلام أو النيل منه ، لقد حمل المسلمون تحت لواء الإسلام وفي نطاق نظم أعيان البشرية المدنية والفكرية في ميادين مختلفة ، وطوال مدة غير يسيرة ، ولم تقم أمامهم أي صعوبة ، إلا عندما ابتدأوا تدريجياً يشعرون بالقناعة بما صنعت أيديهم ، وفي محاولات متعددة لكتابة تاريخ العرب والمسلمين نجد أن المنصدين لذلك هم من غير المتخصصين ، أو من كتاب اتصلوا بدوائر الاستعراق وعن حارلوا إثارة الشبهات عن طريق كتب المحاضرات وبعض المؤلفات التي كتبت للترفيه والتسلية وكتب الأدب ، وهم جميعهم لم يكتبوا للبحث العلمي الخالص وفي مقدمتها الأغاني ، ويبدو ذلك في كتابات فيليب - دي بروكلان وولاس أو ايرى وغيرهم . وهناك من يمر على مرحلة المدنية الإسلامية خلال ألف سنة دون أن يذكرها بكلمة واحدة ، ويربط الحضارة الغربية الحديثة بالحضارة الرومانية على مسافة ألف عام بينها . وأخطر ما يتعرض له تاريخ العرب المسلمين : والتفسيرات الخاطئة ، سواء في هجر عن الاستقصاء أو التعمص لوجهة نظر مسبقة . أو الخطأ في فهم النص . وفي أكثر من موقف حاول كتاب العرب ومن تابعهم من كتاب التغريب تصوير التاريخ العربي الإسلامي بصورة الانقراض ، وفي معركة بلاط الشهداء يتعدد قول هؤلاء الكتاب عما يدعونه من المكسب الذي حققه الغرب بإيقاف تقدم المسلمين إلى غرب أوروبا بينما يرى المؤرخون المنصفون الغربيون عكس ذلك ، فهنري دي شامبيون يقول : لولا انتصار جيش كارل مارتل الهمجى على تقدم العرب في فرنسا لما وُضعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائنها وكادت المذابح الأمامية الناشئة عن التعمص الديني والمذهبي ، ولولا ذلك الانتصار اليربري على العرب لنتجت أسبانيا من رحمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون . وعبر عن هذا المعنى : الكاتب الفرنسي كلود فاريو ، وكذلك عرض له العلامة جيمس ريسند ، والمؤرخ مارك سنفوف .

من مجموع لموص ما أورده هؤلاء المؤرخون المنصفون يكاد يتعمد الإجماع على أن انتصار كارل مارتل على تقدم الإسلام في قلب فرنسا هو الذي أخرج سمر المدنية . وأنه لم يكن كسباً بأي حال . وفي قضية حريق مكتبة الإسكندرية ، تكاد مصادر التغريب أن تتناول العرب والمسلمين بالالتهام الباطل واستغلال نتائج غير صحيحة ، وقد تابع كتاب الغرب في ذلك مؤرخون أمثال : إلياس الأيوبي وطه حسين وجرجي زيدان . بينما أنصف العرب وأيد وجهة نظرم غربيون كثيرون في مقدمتهم العلامة جيبون في كتابه (سقوط الدولة الرومانية) حيث قال : إن القرية لفقها على المسلمين وأبو الفرج العبري ، في كتابه (مختصر الدول) وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية فنلقفها أهل الغرض من الترجمة فأذاعوها ، وأشار (جيبون) إلى رداءة عمر بن الخطاب وعمر بن العاص من التأمر على حرق مكتبة الإسكندرية وأثبت أن الذي حرقها هم الرومان بمراكبهم الحربية في حصارهم لجيوش كايو باطرة بقيادة يوليوس قيصر وقال جيبون : لقد تأكدت من أنها حُرقت قبل الإسلام بما تقي عام وأن أبو الفرج بن العبري لفق هذه القرية بعد الإسلام بنحو ستائة سنة . ولم يتعرض قبل أبو الفرج مؤرخ واحد لذلك ، حتى أن بطريك الإسكندرية دافتيكوس ، مع توسعه في الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة ، وكان الرحالة البغدادى قد زار مصر في عهد الملك الكامل فنقل هذه التهمة وقد طبعت وحجته في اكتشافه سنة ١٨٠٠ وهي عشوة بالخرافات والأكاذيب

وقد نقض هذه الرواية واشنطون آرفنج وفليبه وغيرهم ، كما نقضها آرنست رينان في خطاب له في الجمع العلمي الفرنسي حيث قال : إنه لا يمتد أن عمر هو الذي أحرق خزاية الإسكندرية لأنها أحرقت قبله بزم طويل . وكشف هذا المعنى العلامة « اليسيم » في خطاب إلى العلامة كرد علي وقد شهد للعرب الدكتور غريفيي أستاذ جامعة فلورنسا وأكده أن اتهام العرب بحرق المكتبة فرية زائفة . وما يزال كتب مرجي زيدان (تاريخ التقدم الإسلامي ، وتاريخ الآداب العربية ، وتاريخ العرب قبل الإسلام) تحمل كثيراً من الأخطاء والآراء المنحرفة وقد رجعت إليها نقداً متعددة ، وهي في مجموعها متتابعة لأراء الغربيين وخاصة متعصبة المستشرقين منهم . وما يزال كتاب (تاريخ العرب) لفيليب حتى وتاريخ (الشعوب الإسلامية) لبروكلمان من المراجع التي يعتمد عليها الباحثون وأساتذة الجامعات ، كمصدر سهل ميسور بالرغم مما يحمل كل منهما في تضاعيفه من أخطاء وشبهات . وقد أشار الدكتور عبد العزيز الدوري إلى أن تسمية (فيليب حتى) لمؤلفه (تاريخ العرب) يشعر بوجهة نظر مؤلفه الخاصة ، فلم يسمه تاريخ الإسلام مثلاً وأن التسمية تبين الكتاب في استعملها ، وقال إن نظريته إلى دور العرب الحضاري فيها مجال لإعادة النظر ، غير أنه يشعر بأن العرب هم محور هذا التاريخ وقاعدته ، وقال إن مؤلف تاريخ العرب قد وقع تحت تأثير مصادره فلم تمكن له وجهة نظر واضحة ، وأن في بعض نواحي الكتاب تلخيصاً لأراء حديثة لبعض المستشرقين وأنه لم يحاول وضع مفهوم جديد للفتوحات العربية ، وردد مع غيره من غلاة كتاب الغرب الشبهة التي تقول بأن العرب الفاتحين لم يكن لهم أي ثقافة أو تراث فكري ، وأنهم تملقوا بحضارة الأمم التي غلبوها فنقلوا عنها ، وقال : إن شجرة الفكر (العربي) التي ازدهرت في العصر العباسي تأصلت جذورها في ثقافات اليهود السابقة في الإغريق والفرس واليونان ، وقال الدكتور الدوري : ونحن نعرف النشاط الفكري في العصر الأموي كما بان في حرف المؤلف نفسه ، وأن هذا النشاط الفكري ظهر في مراكز عربية صرفة ، وهي المدينة والمكوفة والبصرة ، وأن الخطوط لهذه الدراسات وضعت في العصر الأموي . وقال الدكتور الدوري : إن المؤلف (فيليب حتى) يتابع نفس الوجهة حين يتحدث عن الاندلس فهو يرى أن سبب تأخر أسبانيا في نشوء فقه اللغة العربية والعلوم الدينية وكتابة التاريخ يرجع إلى أنه لم يكن عند الأسبان أهل البلاد من العلم والفن ما يفيدون به العرب بخلاف ما كانت عليه الحال في الشام والعراق حين دخلها الفاتحون ونسى المؤلف أن مركز الدراسات العربية الإسلامية كانت في المدن العربية الخالصة ، وليس في المدن القديمة كدمشق والإسكندرية . وناقش الدكتور الدوري ما ذهب إليه (فيليب حتى) من أن كتابة التاريخ عند العرب شيدت على أساس الطريقة الفارسية ، وأكد ما أجمع عليه الباحثون من أن علم التاريخ عند العرب عربي النشأة والأسول . وأشار الدوري إلى عدد من الأخطاء التي وقع فيها فيليب حتى ، ومنها تفسيره لانتشار الإسلام بأسباب مادية ، وقال إنه قد فاتته أن انتشار الإسلام في أدوار ضعفه السياسي كان أوسع من انتشاره قبل ذلك . ومن أخطائه قبوله لأسطورة النباسة لنفسه مكتبة البرامكة دون تمحيص . ومن وجوه تحمل الكتاب الغربيين على تاريخ الإسلام محاولة تصوير فترة ما قبل الإسلام من حياة العرب بصورة براقة زاهية . وفي هذا محاولة واضحة للانتقاص من أثر الإسلام وقاعدته الواضحة في خلق الوحدة الروحية والفكرية والاجتماعية في حياة العرب .

ومن ذلك ما يذهب إليه كتاب الغرب بوصف الرسول محمد ﷺ بهفة ، الزعامة ، أو العبقرية فإن المقصود من ذلك هو نفي النبوة أو تجاهلها وهضم الإنرار بها . أما ما يتردد كثيراً من القول بأن الإسلام مشابه في أصوله لليهودية والمسيحية وأن ما في القرآن مشابه لما في التوراة ، فإن ذلك حق يراد به باطل ، وهي محاربة واضحة لا تقتضى الإسلام والقرآن ، ولكن الواقع يؤكد أن الأديان الثلاثة كلها مستمدة من الدين الأول : دين إبراهيم ، وأن ما للعرب من فضائل عرفت قبل الإسلام فهي البقية الصالحة من ملة إبراهيم وأن مصدر المكتتب الدجاية الأصلية كلها واحد . أما ما أخذ على جرجي زيدان فإنه قسم عصر الإسلام إلى ثلاثة أدوار : مدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها : « على أن سياسة الراشدين ليست على الإجمال بما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك ، وإنما هي خلافة دينية توفقت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر . فأهل العلم بالعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب ، وأن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسي لم يكن منه بد ، فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليس فيها أسوة للناس وأنها من مستقنات الطبيعة ، أما دور العباسيين فدحه ، لا لأجل أهادولة عربية ، بل لسكونها فارسية مادة وقواماً . أما دور بني أمية فلا يمثّل الأمة العربية فقد حل عليه حملة كبرى وقد وجه له هذا البعد العلامة شبلي النعماني في كتاب مطبوع ، كما وجه إليه العلامة رفيع المظفر ونشره في مجلته الهلال ، وقد أشار النعماني إلى أن معظم ما روى به جرجي زيدان العرب في كتابه منقول من الفصل الذي عقده ابن عبد ربه في كتابه ، المقدم المفرد ، وأن صاحب العقد حين نقل هذه الأقوال صدرها بقوله : قال أصحاب العصبية على العرب ، وهي أقوال رددتها الشموبية من الحاقدين على العرب والإسلام ودحضها النظام والجاهل وان فتية وغيرهم . ومن المصادر التي كثر الاعتماد عليها من كتاب الغريب في تصوير الإسلام والعرب ، الأغاني وألف ليلة ، وقد اعتمد فيليب حتى على كتاب الأغاني وكتب المحاضرات اعتماداً كبيراً واعتبر ما جاء بهما من قصص ونوادير مصادر لنا كبد بعض ما نسبته إلى المسلمين من وقائع التاريخ لرسم صورة المجتمع الاسلامي ، والحق أن أي كاتب منصف لا يستطيع أن يعتبر مثل كتاب ألف ليلة وقصص المسامرات والمحاضرات وكتاب الأغاني أساساً علمياً للتاريخ ، لأنها ليست من المصادر العلمية ولكنها من كتب التسلية ، وبعد فهل توقفت الاتهامات لتاريخ الاسلام عند هذا الحد ؟

الفصل السابع

التبشير والوحدة الاسلامية

ركز التبشير على عدة أهداف كبرى : كان في مقدمتها هدفين أساسيين :
(الأول) إبعاد الاسلام عن مجال التأثير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي باعتباره ديناً ونظاماً مجتمع ، في محاولة لتصوير الاسلام على أنه دين عبادة قاصر على صلة بين الله وعباده . مباعدين بينه

وبين مفهومه الاجتماعي الأساسي في بناء منهج حياة للأفراد والمجتمعات التي يحكمها . (الثاني) القضاء على وحده الجامعة الإسلامية ، وفكرة الوحدة الإسلامية وذلك بمخلق تيار قوى من الاقليميات وإقامتها على أساس التاريخ القديم ، والحيلولة دون قيام الوحدة العربية بحسبانها عاملاً هاماً من عوامل قيام الرابطة الإسلامية . ومن هنا كانت الجامعة الإسلامية أكبر أهداف التبشير منذ وقت بعيد فكان له عمله الخاطيء في تحطيمها والقضاء على الدولة العثمانية حاملة لوائها وإسقاط الخلافة الإسلامية ثم أعلاء أمر الاقليميات والدعوات القومية الضيقة ، حتى اختفى فعلاً من وجه الدراسات والكتابات التاريخية والسياسية كل ما يتصل بالعالم الإسلامي بحيث أصبح لا يوجد كاتب في العصر الحديث يعرض لهذا العالم كقوة متكاملة وإفا تجري الأبحاث كلها حول الروابط الإفريقية والآسيوية والعربية ، ولقد بعدت الأبحاث عن العالم الإسلامي وكل ما يتصل بالأخوة الإسلامية أو الوحدة إلا في فترات متباعدة بمقد عدد من المؤتمرات الجامعة التي كانت تنطلق آثارها بعد انقراضها مباشرة وتعلو عليها موجات الإنليمية والقومية حتى لا تترك أثراً في النفوس بعيداً إلى مكان الصدارة . ولقد عرض كثير من المبشرين والمستشرقين لهذا الأمر وكشفوا عن هدفهم واضحاً صريحاً من مقاومة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية : يقول لورانس براون : إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يهبطوا لعنة على العالم وخطراً أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظنون حينئذ بلا وزن ولا تأثير . ويقول القس سيمون : أن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر ، وتساعد على التخلص من الشعوب الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عاملاً مهماً في كسر شركة هذه الحركة ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين في نور جديد جذاب وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصرى القوة والمركز الذين هما فيها ، وإذا كانت الوحدة الإسلامية تكتللاً ضد الاستعمار الأوربي فقد استطاع المبشرون أن يظهروا الأوروبيين في غير مظهر المستعمر فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسبباً من أسباب وجودها ، من أجل ذلك قالوا : يجب أن نحول بالتبشير مجارى التفكير في الوحدة الإسلامية حتى تستطيع الفكرة (الغربية المسيحية) أن تغفل في المسلمين . ولا شك أن هذين النصين بالإضافة إلى نصوص أخرى تكشف بوضوح عن سر الكلمات الغامضة التي يسرع بعض الكتاب ذوى الولاء للحركة التبشيرية والتغريب في إطلاقها عندما يتحدث أى باحث عن الجامعة الإسلامية ، ومحاولة تصويرها في صورة تاريخية رديئة . حين يجرى عرض تاريخ العثمانيين مع العرب ومحاولة تصوير العلاقة بينهما على أنها كانت نوعاً من الإستعمار الغربى .

ولقد أولى التبشير اهتمامه منذ وقت بعيد (بالجامعة الإسلامية) وتناولها بالبحث والدراسة ، وخاصة في مؤتمر ١٩١١ بعد أن سقط السلطان عبد الحميد حامل لواء هذه الدعوة وسيطرة تركيا الفتاة من الاتحاديين أصحاب الدعوة إلى الجامعة الطورانية على أزمة الحكم وانفتاح الطريق إلى النفوذ التبشيري والاستعماري والصهيوني جميعاً إلى قلب العالم الاسلامى . وقد أشار القس ناسن والقس ورنر في تقريرهما إلى أن اجتماع المسلمين بجامعة إسلامية بكل المعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ قد أصبح أمراً وهمياً لا ثمرة له غير توليد أحلام تفتاق رجال السياسة ، وأشار إلى أن مكة والطرق الصوفية هما من أكبر العوامل في بث شعور الوحدة بين المسلمين .

ثم أشار إلى المخطط المنفذ والذي يقضى باستحالة تحقق للوحدة الإسلامية حين قال : عبثاً يبنى هؤلاء آمالهم على الجامعة الإسلامية لأن التربية الغربية المسيحية التي تقوم بها (الرساليات التبشيرية) قد أثبتت في دماهم بفصل مدارس التبشير وباحتياجات استمدتها حكومة هولانده - والإشارة هنا إلى أندونيسيا - من شأنها أن تزعم آمال المسلمين . ولكنه أشار إلى هدف للجامعة الإسلامية الحقيقي حين قال : « إن العامل الذي يجمع الشعوب ويربطها برابطة الجامعة الإسلامية هو (الحقد) الذي يضره سكان البلاد للفاتحين الأوروبيين ، ولكن (الحبة) التي بثتها لرساليات التبشير ستضعف هذه الرابطة وتوجد رابطة جديدة تحت ظل الفاتح الأجنبي » .

وعما يتصل بالتركيز على الإقليمية ما تحفل به الأبحاث عن تنمية (السكان البنائي) والاهتمام بالهوية الفينيقية في ربوع لبنان حتى يقول (رجب) ينتهي الصراع إن المدارس التبشيرية والصحافة شبه التبشيرية والكنيسة ستتصانفر على تحقيق ميلاد فينيقية جديدة تكون النصرانية فيها أوسع انتشاراً . وأمل من أكبر المخططات التي قادتها حركة التبشير بنجاح وحققتها نتائج طيرة هي خططها في القضاء على الوحدة الإسلامية وإسقاط الدولة العثمانية - بحسبانها نقطة تجمع في مواجهة النفوذ الأجنبي الواحف وإلغاء الخلافة . لقد ركزت قوى التبشير على الدولة العثمانية بهدف إسقاطها وتمزيق الوحدة بين العرب والترك وتسليم الأجواء العربية للاستعمار الغربي . وقد استطاعت قوى التبشير بالاتفاق مع المحافظ للماسونية لخدمة النفوذ الاستعماري والصهيوني السيطرة على حزب الاتحاد والترقي وجهاة تركيا الفتاة ، في مرحلتها المتوالتين : مرحلة حكم الاتحاديين ١٩٠٨-١٩١٨ ومرحلة حكم السكاليين ١٩١٩-١٩٢٩ . والرساليات التي قدمت إلى استانبول وبغروت ومصر في منتصف القرن التاسع عشر قد استعانت بالقوى الماسونية في العراق والشام ومصر على تنفيذ مخططاتها ، وللمعروف أن المركز الضخم للعمل كله إنما كان في سلاطيك مقر الدعوة ، وهم اليهود الذين أسلموا قبة رحلوا على تقويض الإسلام بالتعاون مع نفوذ الاستعمار والصهيونية . ويمكن القول بأن هذا العمل أخذ مجراه الجدي بعد عام ١٩٠١ على أثر للمقابلة التي تمت بين مرتزل زعيم الصهيونية وبين السلطان عبد الحميد وانتهت بقرار حاسم من السلطان هو استحالة التفريط للصهيونية في شبر واحد من فلسطين ، وكانت الخطوة هي اقتطاع فلسطين لإنشاء كيان يهودي يمثل رأس جسر للاستعمار ، وتحقيق خطة الاستعمار التي تقررت عام ١٩٠٧ وهي لإيجاد حاجز يشرى بين المسلمين في قارتي إفريقيا وآسيا .

وقد سيطر الدعوة على حركة الاتحاديين الذين كانوا أساساً يتطلعون إلى تحرير بلادهم من التآخر ومن النفوذ الأجنبي بالتماس أساليب الغرب ومناهجه في الحكم والحضارة ، ومن هذا المنفذ الدقيق استطاع مخطط التبشير أن يحطم القيم الإسلامية تعظيماً تاماً في حركة الاتحاديين ، ويدفعهم دفعا إلى مفهوم عنصري خطير هو الهجمة الطورانية ويدفعهم دفعا إلى تحويل الرابطة التركية إلى صراع دموي وقد ظل هذا العمل يهرى في الخفاء حيث انطلقت دعوة الجامعة الإسلامية التي حل لوائها السلطان عبد الحميد ، والتي بثت الرعب والفزع في صفوف الاستعمار والنفوذ الأجنبي حين استجاب وحداه

للعالم الإسلامي إلى الواد الذي رفعه السلطان عبد الحميد ليس بحسبانه سلطان الدولة العثمانية ، بل به صفه خليفة المسلمين وكان هدف دعوته التجمع والوحدة في مواجهة الوحف الاستعماري هنالك شعر النفوذ الاجنبي بالخمر الماحق ، فلم يتردد الإتحاديون ثمرة التبشير والنفوذ الاستعماري الاول وخريجي الإرساليات الاجنبية عن العمل على تفويض النظام السياسي القائم وتسلم أداء الحكم لتصفية الدولة في فترة لم تزد من عشر سنوات ونقلها إلى مرحلة أخرى أشد خطورة هي مرحلة الانقلاب الذي قاده مصطفى كال لتصفية الطابع الإسلامي كاية وإلغاء الخلافة وتحويل تركيا إلى دولة غربية خالصة . وهذا العمل الذي حققه الاتحاديون للمسألة الشرقية التي كانت أخطر قضايا أوروبا في هذه المرحلة هو ما أشار إليه شير من المبشرين وسجله مؤتمر التبشير العام المنعقد ١٩١٠ في أدبره وجاء بالنص .

، اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم التي أسسها الأوروبيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلها . ، لقد تأكد مدى الترابط الخطير بين الإرساليات التبشيرية والحافل الماسونية التي تقدمت بخطوط الصهيونية عام ١٨٩٦ وكان الانقلاب العثماني بالنسبة لها سبباً مهماً عملاً بعيد المدى في فتح الطريق أمام إرساليات التبشير للعمل بحرية على النحو الذي صوره دكتور زويمر كبير المبشرين في مؤتمر التبشير العام في اسكنو ١٩١١ حيث قال مشيراً إلى الانقلاب العثماني ١٩٠٨ بأنه فتح طريق المبشرين التجول في البلاد العثمانية والعربية دون موانع ، وفتحت الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين . أما الموقف الثاني الذي استطاع أن يحققه حركة التبشير في تلك المعاهدة السرية التي ألحقت بمعاهدة لوزان التي وافق عليها مصطفى كال وحكومة أنقرة وهي تصفية الاسلام ، إسقاط الخلافة وإلغاء الحروف العربية وذلك كشرط لتحرير تركيا وجلاء القوات المحتلة عنها وكان ذلك نصراً لا حدة لحركة التبشير استطاعت أن تستغل آثاره في العالم العربي وفي فارس والافغان . وإذا كانت الدول الأوروبية قد اتفقت على أن التبشير هو الذي قام بحل المسألة الشرقية فإن التبشير هو الذي ألقى فلسطين كنزاً ناضجة في يد الصهيونية العالمية لقاتما ، وقد كان الاستثمار والتبشير والصهيونية جميعاً يتنافسون على فلسطين منذ ذلك الوقت البعيد ، بحسبانها قوة ضاربة في وجه الحربة والكرامة الاسلامية والعربية ، فقد كانت الصهيونية هي الجسم الغريب الذي حلم به دكاميل ، وزير خارجية بريطانيا في تصريحه الشهير . وما يتحقق اليوم على ايدي الصهيونية من آثار بعيدة المدى ، إنما كان محسوباً في ذلك الوقت ، لقد كانت كل الاهداف تلتقي حول هذا العمل ، وكان روتشلد المليونير اليهودي يساعد هذه القوى جميعاً ، واقد جاء اليوم الذي تقول فيه البرقيات إنه لولا بعض المدارس الاجنبية الكبرى في الشرق لسكان الحال أسوأ بين العرب وإسرائيل ، وإن هذه المعاهد كانت في مستوى الهدف الذي أنشئت من أجله وأنها على كل حال قد بررت تماماً كل قرش وضع فيها (إنراً تصريح أوتواسمان في جريدة النهار البيروتية ٢٣ / ١٩٦٨) . وإذا كانت دول كثيرة قد شاركت في تمزيق وحدة العالم الاسلامي فإن بريطانيا هي أكبر الدول عملاً في هذا المجال : مجال تثبت النفوذ الاجنبي في العالم الاسلامي والقضاء على وحدة المسلمين فقد كانت تملك فيه أضخم

لصيب من الغنيمة الهند درة التاج البريطاني ومصر والعراق والسودان ولذلك فهي تعد في مجال الغزو الفكري عن طريق التبشير أكبر مخطط ومنفذ . ويبدو هذا في مراجعة ما ذكره غلادستون رئيس وزراء بريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا وهو يسكن بيده المصحف ويقول لأعضاء مجلس العموم البريطاني : « إنه مادام هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقرر لنا قرار في تلك البلاد ، ومن خلال هذه الصيحة بدأت حملة الغزو التبشيري تنفيذ مخططاتها الذي برز في « تعليمات » دوفرين ، الرجل الاستعماري الذي قدم مصر بعد الاحتلال ووضع أسلوب العمل وركز على التعليم بحسبانه العامل الأساسي لتدهيم نفوذ الاستعمار البريطاني . وجاء بعده كرومر الذي فتن النفوذ الاستعماري الثقافي وأشار في تقاريره المختلفة إلى أهمية التبشير والعمل في مجال الصحافة والثقافة . وعن طريق كرومر عمل في مصر المبشر ودوجلاس دنلوب ، مستشاراً لوزارة المعارف منذ ١٨٨٥ تقريباً إلى ١٩١٩ . تقريباً وجاء بعده قرم آخر من أقرام الاستعمار الثقافي . ومنذ صيحة غلادستون وضع الانجليز سياسة تعليمية وتبشيرية خطيرة الأثر تركز على إقصاء الدين عن مناهج التربية والاسلام عن مناهج التعليم والثقافة ، فهو ليس سوى هبادات وصلوات وطرق صوفية ، والقرآن يقرأ للبركة أما الاسلام كدين ومنهج مجتمع ونظام صالح للتطبيق في مجال القانون والدولة فقد إقصاه كرومر وماجه هجومياً عنيفاً وكانت مدرسته الفكرية هي التي حكمت بعد ثورة ١٩١٩ برحامة سعد زغلول ولطفي السيد .

ثانياً : مخططات الاستشراق

مدخل إلى البحث

المقاصد والغايات التي يقوم عليها الاستشراق

(أولاً) : إذا أردنا أن نعرف ما الذي يهدف إليه الاستشراق وما هي مقاصد ذلك العمل الواسع الضخم المتصل بالتراث الاسلامي والفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية فإن وقائع كثيرة نستطيع أن نلقى الاطواء السكافة على هذه الغايات . إنهم يصدرون عن ثقافتهم وعقيدتهم التي تختلف عن الاسلام من وجوه كثيرة .

ولا يستطيعون أن ينسوا ارتباطاتهم بأقوامهم وحضارتهم ونفوذهم السياسي المتمثل في الاستعمار والتمزقة المصرية بين جنسهم الأبيض وبين الاجناس الملونة يقول محمد كرد علي : « إنني أعلم أنهم يعملون لسياسة بلادهم أولاً وأن منهم متعصبين يتخذون الاستشراق سلماً لخدمة دينهم على نحو ما كان أسلافهم في القرون الوسطى . . وهكذا تتقاسم انهماقاتهم وأهدافهم الروابط السياسية والروابط الدينية ، ومن وراءهما وجوه أخرى في الاختلاف والانجاء ، فهناك روابط سياسية بالاستعمار البريطاني والاستعمار الفرنسي ، وهناك ارتباطات بالمسيحية وارتباطات باليهودية وهم أحياناً يجمعون بين الهدفين والغايتين ، كما

تجدد في ماسينيون الفرنسي وجب الانجليزى فإنهما متصلين بالكنياسة ووزارات الاستعمار . ويرى كثيرون أن الاستعراق ولد من أبوين غير شرعيين هما : الاستعمار والتبشير وأيه مازال يعمل من أجل هذا الغرض الذي وجد من أجله وإن غير أمالية وجلده مرات ليتلائم مع الظروف المختلفة وخاصة بعد أن تكثفت أغراضه للمفكرين المسلمين الذين أخذوا يدحضون شبهاته . أما الاستعمار فهو يرى أن المفهوم الاسلامى السليم من شأنه أن يعطى المجتمع المسلم قوة تحول دون سيطرته واستمراره . فهو يستهدف تقويض هذه العقيدة وإحلال مفاهيم تحمل الولاء والصداقة مع الأمم المحتلة تحت اسم الحضارة أو العالمية أو وحدة الثقافة والفكر البشرى . أما التبشير فإنه يستهدف الحيلولة دون توسع الاسلام والتشاور حتى لا يكون منازها أو منافساً للمسيحية في البلاد التي يحاول أن يقوم بالتبشير فيها والخطر الأكبر هو أن تصل مفاهيم الاسلام الصحيحة إلى عالم الغرب نفسه . وقد أضيف إلى هذين الأبوين أب ثالث هو الصهيونية التي تستهدف من سيطرتها على الاستعراق الحيلولة دون تجمع العرب في وحدة تفارم الصهيونية وتواجه إسرائيل ولذلك فإن مستشرقى اليهود يعملون في هذا المجال . ولقد كان الارتباط الجذوى بين التبشير والاستعراق أخذاً وعطاء ، أثره وأن كل ما أورده كتاب التغريب من العرب الذين صادتهم معاهد الغرب هو من نتائج التبشير والاستعراق . ولقد كانت أهداف التبشير واردة في أعمال المستشرقين ، ولقد وجد إنتاج المستشرقين رواجاً على أيدي المبشرين ومعاهدهم وإرسالياتهم وجامعاتهم على صورة مناهج ودراسات في مجال الدراسات الانسانية على النحو الذي ينتقى القيم الاسلامية في التاريخ والعقيدة واللغة وفي مجال الشريعة والاقتصاد والتربية . وإذا كان بعض المستشرقين يرى أن هدف الاستعراق هو تقديم أضواء على الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى من أجل القدرة على وضع المخطط السياسى للسيطرة الاستعمارية والبحث عن ثغرات في الفكر الاسلامى لاثارة الشبهات حولها وتحوير القيم الأساسية وتأويل بعضها كما حاول الاستعراق بالنسبة لقضية الجهاد وقضية كون الاسلام ديناً ودولة ونظام مجتمع . ولعل أخطر ما يتصل بعمل المستشرقين هو النفوذ والقدرة على فرض هذا العمل الملى بالمعاهدات والزيغ على مناهج التعليم والثقافة والفكر في عالم الاسلام وكسب الانصار له . هذا هو الخطر الحقيقى لمخططات الاستعراق ، القدرة على فرض هذا الاهتمام وإذاعته وتسليله من يد إلى يد ونقله إلى أهل التبعية للعرب من الشعوبيين وترديده في كل مناسبة وخفاق معارك حوله لتعميق مفهومه وتوسيع دائرة الانتفاع به ولقد كان الدكتور طه حسين في مقدمة الذين أعلنوا الإعجاب والتقدير لمناهج المستشرقين كما أنه هو حامل لواء الدفاع عنهم بل والدفاع عن أهوائهم حين كان يقول إن هذه الحقيقة أو تلك في تاريخ المسلمين أو فكرهم مما لا يرضى عنها الاستعراق ويدعو إلى التغلغل فيها ، وهذا أسلوب لا يقوم عليه إلا واحد من أهل التبعية الكبرى حتى قال بعضهم إن طه حسين ليس إلا مستشرقاً من أصل عربى كانت أمانته للفكر الغربى ولذا هب الاستعراق تفوق أمانة المستشرقين أنفسهم وكان متابعا لهم مقتنعا بما يقولون إلى أبعد حدود الافتناع حتى في تلك المسائل الخطيرة كقولهم بشرية الرسول وبشرية القرآن ، وكانت كتاباته توحى بذلك وإن لم يعلنه جهاراً ، وكان أبلغ مافيه من ولاء وعاطفته لانطواء المسلمين تحت لواء الغرب وإنصار الاسلام في بوتقة الامة والمسيحية

واليهودية والغرب جميعاً ، لا يرى للعرب والمسلمين سيلاً للحياة أو نهضة إلا في هذا الانهيار وهذا الاحتواء وهذا الذوبان وقد صرح بذلك في كتبه وخاصة ما أورده في كتاب (مستقبل الثقافة) وكان يرى أن العرب قوم مستعمرون كالرومان والفرس وقد حرص على طبع الكتب التي تنهض الشبهات وفي مقدمتها رسائل إخوان الصفا ووجد ألف ليلة ووجد سيرة الجان جيماً وخرج من دراستهم بشبهة مسمومة هي قوله إن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون وقد اعتمد على مصادر الاستشراق اليهودي في كتاب المسابب الأشراف الذي طبع في الجامعة العبرية في إسرائيل وجارام في إنكار شخصية عبد الله ابن سبأ وجاري الاستشراق اليهودي رأي في إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأعلن أنه يشك في وجودهما بالرغم من الإشارة إليهما في التوراة والقرآن وقد تابع طه حسين كثيرون في هذا منهم سلامة موسى وحسين فوزي وزكي نجيب محمود وعزمي وحلي عبد الرازق ، ولقد ألفت مناهج المستشرقين في البحث والنقد العلمي قرائع كثيرة من تلاميذ المستشرقين فنهجوا نهجهم وأخذوا طريقهم فيما حاولوا من دراسات وخاصة في مجال الجامعة والثقافة والصحافة وحلوا نفس خصومة المستشرقين الدينية والسياسية للإسلام والمسلمين وكانوا أشد قسوة على أهلهم من الغربيين . وفي مختلف الدعوات الخطيرة التي أحدثت تحولات فاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الحديث كان الاستشراق هو قائد الفبهة ثم يتبعه الكتاب الذين يكتبون بالعربية من أهل النسمية والتغريب والشعوبيين ، وكان ذلك واضعاً في الدعوة إلى العالمية التي بدأها ويلكوكس وويلفور وغيرهم وتابعتها سلامة موسى ولطفي السيد وفي الدعوة إلى الإقليمية والقوميات الضيقة والفنية والفرعونية التي بدأها فبري وكرومر وتابعتها طه حسين ولطفي السيد وغيرهم .

ومن آثار الاستشراق الخطيرة تلك التوجيهات التي يقدمها للمستشرقون لأنهم وأغلب المبدعين يجمعون بين العمل التبشيري والعمل مع دوائر الاستعمار في وقت واحد وأبرز هؤلاء (جب في الاستعمار البريطاني) و (ماسينيون في الإستعمار الفرنسي) (سنوك هونجو ونجه في الاستعمار الهولندي) ومن توجيهات هذا الأخير لأمته التي كانت تحتل الملايو وأندونيسيا قوله : « يجب على الحكومات الأوروبية التي استولت على بلاد الإسلام أن تهتد في إظهار التناقض بين الإسلام والمدنية المصرية وإقناع ناشئة المسلمين بأنهما ضدان لا يجتمعان فلا بد من رفع أحدهما : ولما كانت للمدنية الحاضرة هي نظام كل شيء ولا عيب عنها لمن يريد أن يعيش . كان البديهي أن الذي سيرتفع من النقيضين هو الإسلام ، وقد هلك الأمير شكيب أرسلان على هذا التوجيه الخطير فقال هذا المشرق الهولندي وكرومر من قادة الاستعمار في العمل على إظهار عجز الإسلام عن امتصاص الأحكام المصرية وإثبات كونه نظاماً قديماً قد بلى ولم يعد صالحاً للحياة على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبدون الإسلام ظهرياً وينبذونه تسكون أوربا قد تحصصت من أكبر خطر يحيق بها وهو الحكم الشرعي الذي لا يجبر المسلم أن يخضع لأمه لم يكن على غير دينه . إنهم يتواجدون خيفة من الحكم الذي هو واجب على المسلم أن لا يطاع غير المسلم إلا ريثما يتيسر له نفس طاعته وما هناك من أحكام الجهاد ومن وجوب تضامن المسلم مع أخيه بما جعل الإسلام بناءً واحداً ولا ريب أن الاستشراق قد استهدف من محاولاته تزييف الفكر الإسلامي الوصول إلى غاية أساسية وهي إخضاع المسلمين لحكم الاستعماريين سواء كانوا بأنفسهم أم باتباعهم

ولذلك فإن أكبر ما يركز عليه هو هدم قاعدة الترابط بين الدين والدولة في الاسلام وهدم قاعدة الجهاد وهدم قاعدة القرآن كمصدر أساسي للتشريع وهدم الشريعة الاسلامية كمصدر أساسي للقوانين وفصل الفكر الاسلامي الحديث عن الفكر الاسلامي العام تحت أسماء الثقافات العربية والفارسية والفرسية وغيرها وإسقاط الخطر السامن في تأثير التاريخ الاسلامي بيطولاته وأجاده بإثارة الشبهات حول وقائع التاريخ الاسلامي وحجب جواذب عظمتة وقوته وإجهايباته وإعلاء شأن الخلافات والصراعات والفرق ومظاهر الانقسام والتفسيق وكذلك العمل بالخداع على استسلام الفكر الاسلامي المعاصر لفكر الغربي تحت دعوى رافعة بأن الفكر الاسلامي الاصل قد تأثر بالفكر اليوناني وأنه لم يكن للمسلمين حضارة مستقلة وإنما كانت حضارتهم جزءاً من حضارة الغرب التي بدأت باليونان وانتهت بالإنگليز والفرنسيين . وهكذا نجد أن الهدف الأساسي واضح وهو محاولة دفع هذه الأمة الإسلامية عن النهوض وحبها في دائرة الزبوف ومحاولة احتوائها في دائرة التبعية العثمانية والاممية ،

(١) يدرس الاستشراق خصائص الفكر الإسلامي بروح مسبقة قائمة على أحكام متعارضة تستهدف القضاء على روح الاسلام وهو في سبيل ذلك يحاول استغلال الثغرات الموجودة في المراجع العربية القديمة ليخرج منها استدلالات وتخریجات جديدة تتفق مع مقاصد الاستشراق الأساسية وهم يعمدون إلى تصيد النصوص لتأييد الفكرة المسبقة القائمة في نفس الباحث أساساً والإغضاء عما يعارضها أو يضادها . كذلك فإن اختيار المخطوطات التي يقومون بإحيائها له غاية واضحة ضمن غططهم هذا ، فالتراث مسروق أساساً ، وهم يخفونه ولا يمكنون أهله من الإطلاع على بعضه ، وينشرون منه ما يتفق مع أهدافهم واتجاهاتهم المتأثرة بالكنيسة والاستعمار والصهيونية .

يقوله الدكتور حسين المرأوى (متحدثاً عن المستشرق "ففسك") إذا أراد أن ينال من الاسلام أمراً فإنه يفرض فرضاً ثم يبحث عن الآيات التي قد تتناسب مع هذا الرأي الذي فرضه ، فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها حذفاً وأنكرها إنكاراً حتى يخرج بالنتيجة التي تزرع الشك في فؤاد من يطلع عليها من غير تمحيص . هذه طريقة المستشرقين التي يتبعونها في كتابتهم عن الاسلام نفسه أو عن حياة محمد ﷺ أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة في القرآن وهي طريقة قديمة في أقدم ما ورد في كتب المستشرقين والفرض منها ظاهر جلي هو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يوردهون بها الشك في عقائد المسلمين ويحولون بها دون تمسكهم بدينهم وهم لأحمدي الطارق التي وصفها رواد الاستعمار منذ زمن قديم وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللهجات العامية حتى لا يتفهم المسلمون ولا يفهموا لغة قرآنهم ويقول المستشرق (سيكارو) إن الاسلام في روحه الخاص قسوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزواتنا فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطاننا .

(٢) لا ريب أن التهم على القرآن الكريم والرسول ﷺ هو أكبر مقاصد الاستشراق ولأنه يخدم كلا من الفايئين السياسية والدينية فقد ركز المستشرقون معظم أبحاثهم حول هذا الموضوع .

وكانت وجهات نظرهم مشوبة بالهوى حين يقارنون القرآن بالسكتب المقدسة لا ينتمون إلى قارق بعيد المدى وهو أن القرآن كتاب موثق لم يتصل به أى تغيير أو تحريف بينما أصاب السكتب المقدسة التحريف والتغيير . فالمقارنة بينهما باطلة . كذلك فإن القول بأن هناك تشابها بين ماورد في القرآن وماورد في السكتب المقدسة فإن ذلك لا ينقص من قدر القرآن ، لأن مصدر السكتب السماوية واحداً وهو من عند الله ولكن القرآن هو الذى احتفظ بالنص الربانى الاصيل بينما حرفت السكتب الاخرى ، هذا فضلاً عن أن القرآن فيه بيانات إضافية لم ترد في السكتب المقدسة السابقة له .

(٢) يعمل الاستشراق على السكسب من الدراسات الاسلاميه من أجل تحسين وسائل التبشير وتجنب الثغرات ومعرفة الجواب التى يستطيع أن يثير الشبهات منها في وجه المسلمين . وقد صور هذا المعنى في وضوح وصراحة كامدين المستشرق هو مان استنجل أكبر في كتابه (عقائد الاسلام) حيث يقول لنا يجب أن نكسب وجهات نظر جديد بديلة لعقائدنا المسيحية بناء على فهمنا العميق للتعاليم الإسلامية وفهمنا لنفسية المسلم المتدين وذلك حتى نتجنب نقاط الضعف فيما يستخدمه من أوله حتى اليوم . وحتى نبنى من جديد دفاعاً جديداً عن العقيدة المسيحية ، دفاعاً يضع في حسابه روح الاسلام والتطور الفكرى للمسلمين فيما يتعلق بعائدهم خلال مايزيد على ألف عام وقد جرى هذا الاتجاه في ظل الخطوة الذى عمل الاستشراق لها منذ وقت بعيد وهى أن يضع لكل مسألة أو قضية أو معضلة لإجابة مستمدة من محاولته المتعمدة لتغيير مجرى الفكر الاسلامى وإخراجه من هدفه الحقيقى وغايته الاساسية .

(٤) البحث عن العوامل الاجنبية التى كثرت في آداب الامم الاسلاميه والبحث عن الفكر اليونانى في دراسات الفلسفة وعلم الكلام والتوسع مع المغالاة في تصوير أثر الغرب في الفكر الاسلامى، ومحاولة القول بأن هناك حضارة واحدة وأن حضارة الإسلام رافدة من روافدها ، وتسمية مراحل التاريخ الأدنى بأسماء أوربية والسيطرة على مناهج البحث وأساليبه وخاصة نظرية النقد الأدنى ونظريات الاجتماع والاقتصاد والسياسة . هذا مع أن هذه العوامل الاجنبية لم تكن إلا على هامش الفكر الإسلامى الذى تشكل منهجه اساساً بالقرآن الكريم واكتمل في حياة الرسول، حيث اكتملت أصول العلوم الإسلامية قبل توجه الفكر اليونانى .

(٥) المبالغة في العمل لإيقاع الشك في أصالة الفكر الإسلامى وإلى الادعاء بأن كل ما قدم من جهات بناءة إيجابية إنما جاءته من الفكر الوافد بينما المكس هو الصحيح إذ أن الفكر الوافد لم يقدم للفكر الإسلامى شيئاً ذا بال فقد كان قد تكامل قبل ذلك وأن كل ما قدمه الفكر الوافد هو عبارة عن شبهات أمضى المفكرون المسلمون قرنين كاملين في الرد عليها ودحضها وتحرير الفكر الإسلامى منها ورده إلى أصلاته .

(٦) يكشف الاستشراق عن غلبة الهوى والفرس حين تمنى نهاية شديدة بالخصميات الموصومة

في الفكر الاسلامي أمثال ابن الراوندي ومسيمة الكذاب والملاح والمهروردي وبشار بن برد وأبي نواس. ويعمل من شأنها بينما يتجاهل الشخصيات السوية ولا شك تجد هذا الاتجاه واضحاً في مختلف المجالات التاريخية. في دراسات بركلان ولا مافس وفي مجال الشريعة الاسلامية في دراسات جولدسيير وشاخس وفي مجال الأدب ودراسات جب ولويس شينغو وبلاشير بهك في السيرة وتاريخ النبي في دراسات مرجليوث وفنسنك. بل نجد كثيراً من المستشرقين يهتمون بمسائل فرعية متناثرة يتصيدون منها شبكات فيجمعون بينها ليجهلوا منها كياناً متكاملاً. كذلك على الاستشراق بدراسة الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسيق ودراسة الحركات المضادة للإسلام بما أسماه دراسة إسلامية، وحين يركزون الاهتمام بالتصوف الفلسفي - وهو بما يخرج به علماء المسلمون عن أصول الفكر الاسلامي لاختلافه مع الأصول الأصلية للتوحيد - تدل وجهتهم على المدى والغرض ذلك أن الإلحاح على هذه الدراسات والأصرار على نشرها وإذاعتها وطبع كتبها في أفق الفكر الاسلامي بعد أن تجاوزها هذا الفكر وحدد موقفه منها لا ريب تدل على سواء النية والهدف المقصود والغرض المبيت. ويرمى إلحاح الاستشراق على التصوف إلى هدم القواعد الكبرى التي تضع الإسلام ذاتيته الخاصة بما يؤدي إلى إنصهاره في أتون ما يسمى بالتصوف البشري بما فيه من ممارسات للتوحيد وما فيه من صوم كوحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ وغيرها.

(٧) التركيز على العاميات والعناية بدراساتها واعتبارها اللغة المستعملة، وإثارة الاهتمام بالبلغ بها ويستهدفون من هذه العناية القضاء على اللغة الفصحى والقرآن ولا ريب أن وراء العاميات نوايا استعمارية وتبشيرية واستشرافية تستهدف القرآن بالذات وتعمل على توسيع الفجوة بين اللغة الفصحى والعامية لتزيق الوحدة العربية ولبناء آداب عامية تجعل من المسير الارتفاع إلى مستوى اللغة الفصحى وبذلك يعجز المسلمون عن فهم القرآن الكريم الذي يرتفع إلى مستوى عال من البيان.

(٨) التوسع في بيان الفروق بين الشرق والغرب وإنكار تقدم العرب والمسلمين واتجاههم إلى مستوى الغربيين ومحاولة إعلاء الغرب واعتبار الشرق تابعاً له في الحضارة والثقافة والقول بأن منهمجهم في البحث وأسلوبهم في الثقافة هو الأسلوب الوحيد الذي يجب أن يخضع له الشرق وأن تاريخ العالم هو تاريخ الغرب وحده، وأن على الشرق أن يتبع أسلوبهم في البحث العلمي وطرائقهم في التفكير مهما كانت مختلفة ومتباينة ويغلب عليها الهوى.

(٩) يبدو مكر المستشرقين وذكاهم في تقديم كتب رئيسية عامة يرجع إليها الباحث المريع فلا يحتاج إلى الأصول الأساسية قدموا للباحثين كتباً في التاريخ الاسلامي والحضارة والثقافة من قواميس ودوائر معارف مكنت المتقنين من الحصول على المعلومات العامة في سرعة ويسر وهي مطبوعة طباعة جيدة فأغنت الباحثين عن مراجعة الكتب الاسلامية الأصلية، لقد وجد المنفقون والباحثون في آن واحد كتب الاستشراق حيث لم يتيسر لهم مراجعة المطبوعات من المصادر الاسلامية وقد أمكن أن يقدموا من خلال هذه الكتب وجهات النظر المضطربة الغازية التي تحقق أهدافهم في تزيق وحدة الفكر الاسلامي

ونقله إلى مستويات إقليمية وإثارة السموم والشبهات . (١٠) في خطة الاستشراف تمزيق الجبهات الواحدة إلى أكثر من جبهة ومن ذلك محاولة خلق تصور بوجود أكثر من إسلام . القول بأن الإسلام يتشكل في كل مجتمع بصورة خاصة سواء من طريق المجتمعات أو المصور التاريخية أو المذاهب (إسلام إفريقي أو آسيوي - إسلام شيعة وسنة) (إسلام عصر الخلفاء وعصر الأمويين) الهدف تفريق وحدة المسلمين الفكرية والادعاء بأنهم لا يلتزمون على عقيدة واحدة . والهدف هو تفريق المسلمين لصالح الاستعمار . والمعروف أن المسلمين مهما تفرقوا في مجتمعات وكانت لهذه المجتمعات عادات وتقاليدها أو اهتمام بمنصر الوطن أو الأمة فإن ذلك لا يؤثر في القيم الأساسية العامة التي هي أعلى عند المسلمين من الوطن أو الأمة ، والتي هي بمثابة الإطار العام للكراسي الإسلامي الذي يربط هذه المجتمعات بوحدة أساسية شاملة ، كذلك فإن اختلاف مذاهب المسلمين إلى سنة أو شيعة أو غيرها فإنها لا تريد عن الاختلاف في الفروع مع وحدة المسلمين جميعاً في الأصول العامة وليس الأمر في هذا شائهاً بالاختلاف بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس فذلك خلاف يصل إلى الأصول العامة في العقيدة .

(١١) يحاول المستشرقون أن يصوروا الدين بأنه جملة من التقاليد والعادات ، في محاولة لإحلام شأن هذه التقاليد وإعطائها قوة السيطرة في المجتمعات بما يعجب الأخلاق التي هي جزء أصاصي من الدين والتي هي من الأسس الثابتة التي تختلف مع العادات التي تشكلت في المجتمعات نتيجة عادات وثنية سابقة والتي قضى عليها الإسلام .

(١٢) أهداف المستشرقين :

(أولاً) إقناع قومهم أولاً بعدم صلاحية الإسلام لم كنظام حياة وذلك بإثارة الشبهات حول جزئيات عقائده وتاريخه ولعل هذا هو أخطر الجوانب التي قام من أجلها الاستشراق والتبشير وذلك على أثر ما حدث بعد انتهاء الحروب الصليبية وعودة المحاربين إلى أوروبا وما حلوه من صورة باهرة لمعاملات المسلمين لهم ولسماحة الإسلام بما اعتبرته الكنيسة معارضة لوجهة نظرها التي دفعت بها حملاتها الصليبية وأدعائها المضلل عن المسلمين ولذلك فقد عمدت الكنيسة إلى إغراس الأسنة المنهضة ومحاولة ترجمة القرآن لتزييف مفاهيمه ومحاولة انتقاص مفاهيمه وذلك هدف غربي خالص مصدره خشية الغرب من اقتحام المسلمين لفكرهم وبلادهم وكسب أنصار لهم ، ومن هنا كانت الحملة المضادة بالتبشير في محيط المسلمين ومحاولة نشر شبهات الاستشراق في المدارس والصحف والكتب الثقافية . وقد استغل الاستشراق كراهية أوروبا التي جاءت بعد السيطرة التركية على أجزاء من أوروبا خلال ثلاثمائة سنة تقريباً وما صاحبها من كراهية وتعصب عمل الاستشراق على تعديقه وتعميقه بالشبهات والباطل بهدف حجب الإسلام عن أوروبا والحيلولة دون نفاذه إليها (ثانياً) تأييد الاستعمار وخدمته في تحطيم العوامل التي تحول بين المسلمين وبين الاستسلام للغزو الاستعماري والنموذ الغربي وهي تأويل مادة الجهاد وتحطيم وحدة الدين والدولة في الإسلام وعزل الشريعة الإسلامية عن التطبيق في المجتمع الإسلامي وإحلال أنظمة قانونية واقتصادية ربوية وسياسية لتعمل محل النظام الإسلامي بالقوة .

(١٣) فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة بشوبه تلك الأصول وتقطيعها وهزلها عن مصادرها وأصولها وهدم المقومات الأساسية للكيان الفردي والاجتماعي والنفسي والعقلي للمسلمين ومن شأن هذا أن يفتح الباب إلى الاسلام أمام الاستعمار وثقافته وفكره من ناحية ، والتأثير في نفوس المسلمين وزحزحة عقائدهم بما يفتح للتبشير المسيحي طريقاً إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة إلى ملاحظة وأتباع . إن (العلاقة الجذرية بين التبشير والاستشراق) يجمعهما الحق على الاسلام والتعصب والنزعة الاستعمارية .

(١٤) لم تتوافر في المستشرقين شروط العلماء المتخصصين المنعمقين ولم يتوفروا في الاستشراق القول بأنه منبج وفلسفة له مفاهيم أساسية وثابتة ذلك أنهم أقاموا مفاهيمهم وكتاباتهم على الرأي المسبق المصبوغ بالهوى والتعصب وعدم الانصاف والرغبة في الاتهام بالفرق والشخصيات المنحرفة والمذاهب الضالة وإنكار أعظم ما يؤمن به المسلمون وهو الوحي والنبوة . وأهم وجوه الخلاف هو خطأ المقارنة بين المسيحية والاسلام أو بين القرآن والتوراة والانجيل لما بينهما من فروق في التفسيرات التي طرأت على الكتب والرسالات السابقة للاسلام غولتها عن طابعها الاصيل . وكذلك الاعتماد على اختلاف المصادر وتضارب الروايات . ومن لإخطائهم وضع مسلمة وأسس مفترضة حسب الهوى والفرض ثم البحث عن نصوص تؤيدها ، ومنها غلبة الهوى على مقاييس النقد التي وضعوها ثم فضلاً عن إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص . وتخرجهم لهذه النصوص في كثير من الاحيان تحريفاً مقصوداً وإساءتهم فهم العبارات حين لا يحدون مجالاً للتحريف وتحكمهم في المصادر التي ينقلونها منها .

(١٥) نقطة الخطأ التي ينطلق منها المستشرقون في البحث هي : إنكار الوحي عما يصلهم إلى القول بأن القرآن من عمل محمد ﷺ وأنه متأثر بالتعاليم اليهودية والنصرانية ، وأنه اعتمد على الحضارة الرومانية وأن القانون الاسلامي متأثر بالقانون الروماني . وتتركز أبحاثهم جميعاً حول هذه الشبهات فنههم من يتحدث عن التأثيرات الخاصة بالتوراة أو بالانجيل . ويرجع هذا إلى عدم قدرته على التحرر من الهوى والمعز عن استيعاب خصائص المصور الاسلامية ومقومات الاسلام ، ولاريب أن أموراً كثيرة يعجز المستشرق بتكوينه النفسي وهضاده العقلية عن فهم هذه المعاني وخاصة منها ما يتصل بالهجرة ومفهوم الاسلام كوطن وجنسية ومن حيث أن الهجرة مبدأ التحول من الجماعة إلى الفرد ، فإن المؤرخ توينبي يعتبر الهجرة مبدأ التدهور في تاريخ الرسالة المحمدية .

ثانياً : دوافع الاستشراق

يجمع المستشرقون في دوافعهم : بين الدافع الديني والدافع الديامي وكلاهما مما يشكلان تحدياً واضحاً يرمى إلى استدامة سيطرة النفوذ الغربي على البلاد الإسلامية وهم يستجيبون لغاياتهم ومطالبهم ولا يندسون عواطفهم .

يقول الدكتور هيكل إنهم متأثرون بالنصرانية الأوروبية تأثراً يجعل أكثرهم ينظر إلى الأديان نظرة
تأوها الزينة ويحمل الأقلية المتسككة بمسيحياتها يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من تضال فيخضعون
في بحوثهم الإسلامية لمثل ماخضع له أمثالهم في بحوثهم المسيحية أو بحوثهم الدينية بوجه عام . ويذهب
الباحثون إلى أن أهم بواعث الاستشراق تلك المصالح المرتبطة بالشرق ، وأهداف التوسع في الميدان
الاقتصادي والتجاري . ويقول الدكتور حسين المواري : إن المستشرقين هم طلائع المبشرين وهم الذين
يهدون السبيل لتشكيك المسلمين في عقائدهم كما أنهم يهدون المبشرين سبيل الطعن في الإسلام وفي نبينا
ويزودونهم بأنواع شتى من الشهادة العلمية باسم الاستنتاج التجليلي . أجمع الباحثون على أن المستشرقين
يحملون على (أولاً) إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه أو
يقبلونه من النصوص : (ثانياً) تحريف النصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً وإساءة فهم
المعارف حين لا يجدون مجالاً للتحريف : (ثالثاً) تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها فهم ينقلون مثلاً
من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث ، ومن كتب للتاريخ ما يحكمون به في تاريخ اللغة ،
وبصحة ما ينقله الدميري في كتاب الحيوان ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ . (رابعاً) وضع
مسلمات وأسس مفترضة حسب الهوى والبحث عن نصوص تؤيدها . (خامساً) جمع ما تفرق من
شبهات لإعطائها صورة كاملة : مثال ذلك ما قام به المستشرق الألماني وللم هو رقباج من جامعة بون
من جمع قطع وانتق وشطائر من كتاب الإصابة لابن حجر على أنها كتاب الردة لابن حجر والكتاب ألفه
أبو زيد وثيمه بن موسى بن الفرات المتوفى عام ٣٧٠ وهو فارسي الأصل وقد ضاع هذا الكتاب وإن
كان ابن حجر قد أشار إليه في بعض المواضع فما كان من المستشرق وللم إلا أن يجمع هذه القطع على
أنها تراجم الأشخاص الذين أرتدوا عن الإسلام ، ولا يعمل مثل هذا العمل إلا مغرض صاحب هوى
لأنه لا يتفق أساساً مع البحث العلمي الصحيح ولكن الهدف هو جمع أسماء المرتدين عن الإسلام .

ومن أهوائهم : شبهة القول بأن العرب كانوا قبل البعثة الإسلامية على حضارة ونهضة وأن دور
النبي ﷺ لم يرد على أنه نهض بهم فنهضوا والحقيقة أن العرب كانوا قبل الإسلام قبائل متفرقة متصارعة
والإسلام هو الذي وحدهم في أمة ودفعهم إلى آفاق النهم والتوسع . من أساليب الفكرة المسبقة
بالهوى والفرض القول بأن القوامطة وهم الذين انقضوا على الدولة الإسلامية بالتآمر وتعاونوا مع
خصوم المسلمين هم : طلاب عدل وإصلاح وهم الذين دجروا عندما امتسكوا بإرادة الحكم أن يحققوا
أي منهج يمكن أن يصودم بأنهم دعاة حق بل انكشف باطلهم وزيغهم : ومن المفكره المسبقة بالهوى
للقول باختلاف الشعوب وأن هناك إسلام الهند وإسلام تركيا وإسلام مصر وهذا القول ينكشف
زيغه عندما نجد أن المسلمين جميعاً في مختلف أجزاء الأرض مجتمعون على الأصول العامة للعقيدة
والشرعية الإسلامية وأن الخلاف هو في الفروع . ومن الفكرة المشبهة بالهوى : الادعاء بأن المجتمع
الإسلامي مجتمع مضطرب واعتمادهم في ذلك على قصص ألف ليلة أو شعر أبي نواس وبشار .
كذلك عند الاستشراق إلى إحياء التراث الباطني المجوسي والمنحرف القديم مستهدفاً من ذلك أن يعطى
أصالة مفهوم الإسلام ولذلك ركز على إحياء كل المخطوطات القديمة التي تحمل هذه السموم وخاصة

ما يتصل بالاحاد والاباحية وما يتصل بوحدة الوجود والحلول وكل ما له صلة بالجنس والكشف . من الأدب القديم أمثال كاتبة ودمته ورسائل إخوان الصفا وشعر بهار وأبي نواس ومن الصوفية الحلّاج وابن عربي ومن ذلك قولهم بتأثر الثقافة الإسلامية بالفكر الإغريقي والفارسي ، والغرض من شأن العرب وإضمار لغة القرآن وإحياء النزعات القديمة كالفرونية والفيزيقية والآشورية وأمثالها ورفع لواء الدعوات إلى الانسلاخ من الماضي والتراث والتهوين من شأن فريضة الجماد والتشكيك في ترابط الدين والدولة والدين والأخلاق . ولا ريب أن أخطر ما يقع في المجتمع الإسلامي هو إعتبار كتب المستشرقين مراجع أساسية في التاريخ أو اللغة أو السيرة أو الفقه وخاصة في الجامعات والمعاهد العالية . أو في دراسات المبعوثين إلى الجامعات الغربية والذين يقعون دائماً تحت سيطرة الاستشراق والأساتذة اليهود والصهيونيين والمتعصبين من الغربيين (ومعظم الدراسات الإسلامية بالجامعات الأوروبية والأمريكية مركزة في أيدي اليهود ، والهدف هو تلقين المبعوثين (الإسلام) من خلال فهم المستشرقين له ومن خلال شبكاتهم وأباطيلهم . حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم واحتلوا مراكز الترجمة الثقافية والتعليمية فرضوا ما تلقوه في الغرب من سموم باسم التجديد والحريّة في البحث . وتنكشف آثارهم واضحة في عدة مجالات :

- (١) أضعاف لغة القرآن . (٢) الدعوة إلى اتخاذ الحضارة الغربية المثل الأعلى للمسلم .
- (٣) دعوات الانسلاخ من الماضي والتراث . (٤) دعوات الإقلاعية والتجزئة (الفرونية والفيزيقية) . (٥) فهم التاريخ القائم على البحث عن التناقضات (٦) تشويه تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بالإدعاء بأن المصادر الإغريقية . وقد كان هذا الخطر ولا زال متمثلاً فيما يحاول أتباع المستشرقين في الجامعات وهو أثر للثقافة والصحافة من إسباغ الثقة والتقدير على أعمال هؤلاء المستشرقين بما يؤدي إلى الإعجاب بأرائهم والتسليم بها واحتشد في الجامعة المصرية منذ نشأتها مجموعة منهم كانت آراءهم حجة لا تقبل الجدل وكتبهم مراجع مقدّمة بيننا هي مجموعة من لزوف والسموم التي لا تثبت الحقيقة العلمية .

ثالثاً : نماذج من أخطاء الاستشراق

- ترجع أخطاء الاستشراق في الأغلب إلى عوامل عدة (١) ضعف الملمكة الأدبية في فهم النصوص العربية (٢) جهلهم بعمق التراث الإسلامي وعدم اطلاعهم عليه في بنائهم الصافية .
- (٣) انخداعهم بالأسلوب العلمي المزعوم الذي يدعون به (٤) وقوعهم تحت تأثير أهواء وانحرافات فكرية . (٥) تتبعهم الأخبار الساقطة والمبتورة والمختبة فيها . (٦) فهم النصوص على غير حقيقتها . وهم يعملون على استقطاع النصوص ، وقالب الحاسن إلى سيئات والتشكيك في كل شيء إيجاجي بهدف تحطيم روح الأمة وإخضاع المسلمين بإضعاف الثقة في مقوماتهم العقلية وإشعارهم بحاجة إلى الأمم الغربية .

(١) ومن أساليب المستشرقين في تحريف النصوص : كأن يشهد أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفي ، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ، ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرتبة النظرية أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة وهكذا تتطور للفكرة أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهي بها المطاف لأن تصبح حقيقة مقررة . أشار إلى هذا الأستاذ خوجه كال الدين في كتابه المثل الأعلى في الانبياء وهو بصدد الحديث عن تجربة واقعة اشترك فيها جماعة من المستشرقين يقول : جاء الدكتور (فيجانا) بقصة غواما أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائه ، يريد بذلك أن يرمي القارئ أنه ربما ضاع شيء من القرآن وكان فيجانا قبل هذا يشكك في صحة القرآن فباء بالفشل الفريع لذلك تراه الآن يحاذر أن يجازف برأيه بيد أنه وضع العربية أمام الجواد لإقامة البرهان على أن هذا الأمر لا يعني الآن لأنى أحب فقط أن أبين للناس عادة هؤلاء الدعاة وطريقتهم الغفلة وخلق (قصة من حبة) وقد ضربت المثل بهذين السبدين بنوع خاص لأنهما فرسا رهان في هذا الميدان . يشير الواحد إلى فكرة ما ، ولكن يرحى الثقة إلى القارئ . يحاول أن يصوغ فكرته في عبارة تنطوي على الجذر وهو يعلم تمام العلم أن زميلا له من حملة الأقلام سيتقدم ليتعم مبادئه من إنكار وسيلة تتحول بها إشاراته وتليجالاته الخفية إلى مرتبة الحقائق الثابتة (فيما هو ظاهر) ولا يترك الأمر إيصاحاً أذكر أن الدكتور فيجانا نفسه شديد الإرتياب في قدم هذه الترجمة السريانية المزعومة وإنما أنقل للقارئ ما قاله بنصه ونصه ، ونحن أشد الناس إدراكا لخطورة ما أشرنا إليه آنفاً من قدم الترجمة السريانية ونرجو أن يكون ما حرصنا عليه من دقة التعبير رادعاً قوياً كما يقول المثل السرياني لكل عالم عربي أو سرياني سواء كان مسلماً أو مسيحياً يحاول أن يتهمنا بعدم الخذر أو القسرح في الحكم ونحن الآن أمام نص سرياني لا نعرف على وجه الدقة صفته وكنهه وقد ذكرنا أسباباً تجعل على الاعتقاد بأنه لم يصدر عن (بارساليني) ولكننا لا نستطيع الجزم في ثقة بوقت خطه بالضبط . والآن أنقل لأمره كلام (مرجليوث) في مقالته (اختلاف القراءات في القرآن) قال : لم يتعرض حتى شهر يناير في هذا العام إلى نقد أي نسخ قديمة للقرآن ، وقد عثر الدكتور فيجانا على نسخة سريانية عريقة في القدم ووصفها في لشرة مكتبة جون وايلاند ملك فضل السبق في هذا الأمر وقد لفت المؤلف نفسه للنظر في كتابه (صحائف من ثلاثة مصاحف قرآنية قديمة) إلى وجود اختلافات ذات بال في المخطوطات القديمة ، يقول خوجه كال الدين . إن الإنسان ليحاول في فهم المعيار الأدبي الذي يتوخاه المؤلف فيما يكتب عن الإسلام فالأمر الذي يشك في قدمه نفس الشخص الذي عثر عليه يصبح أمراً عريقاً في القدم عند مرجليوث في أقل من عام . وتعتبر الجملة الأخيرة فيما اقتبسناه عن كلام مرجليوث مفتاحاً لسر المؤلف الحقيقي فإن العناية التي قامت على تلك الصحائف المزعومة قد تحلى عنها صاحبها لأنه قطع الأمل منها . ولكن ما هو ذا آخر يقوم فيذكرها بعبارات لا ليس فيها ولا لإيهام وإلنى لا توقع أن يقوم ثالث يكتفى باقتباس هذه العبارة من كلام مرجليوث (اختلافات ذات بال في المخطوطات القديمة) وبذلك تصبح حجة في التدايل على عدم صحة القرآن في الكتاب المقدس .

هذا هو الأسلوب الذي يلجأ إليه هؤلاء الخذاق في استغلال الجماهير فليدير مرغليوث الأمر قبل أن يندم على أمر جديد ، أليس قد وضع في يد الخصم سلاحاً يحارب به القرآن ، إن ما كتبه فنجائنا قد يحتق ولكن اسمه سوف يحتج به في تأييد هذه الزعم الذي لم يقله فهل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريضة في التقدم) مع أن الدكتور فنجائنا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأي ، ا . هـ

رابعاً : تزيف للنصوص

من أبرز أخطاء الاستشراق تزيف النصوص . فقد اتجه كثير من المستشرقين إلى تزيف النصوص لإثبات الافتراضات التي قدروها : وأمامنا عبارة المستشرق الأشهر (هاملتون جب) - حين نقل نصاً من كتاب حجة الله البالغة للعلاء ولي الله الدهلوي ج ١ ص ١٢٢ حيث قال الدهلوي إن النبي ﷺ بعث بعثة تتضمن مائة أخرى ، فالأولى إنما كانت إلى بنو إسماعيل هذه البعثة تستوجب أن تكون مادة شريعتهم ما عندهم من الفعائر ومن العبادات ووجوه الاعتقادات إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلاً ، نقل جب هذه العبارة تاركاً ما قبلها وما بعدها ، العبارة مغمورة في كلام طويل من حولها وذلك ليحاول أن يستشهد بالدهلوي على ما ذهب إليه من انقطاع الصلة بين محمد وبين دين إبراهيم .

هذا الذي اتزعه جب له تمكئة جاءت بعد ذلك مباشرة بقول الدهلوي : اعلم أنه ﷺ بعث بالحنيفية الإسماعيلية لإقامة روحها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة وسنتها مقررة إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة فلا معنى لتغييرها وتبديلها بل الواجب أن يقرروا لأنها أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم وكان بنو إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو بن لحي فأدخل أشياء برأيه السكاسد فضل وأضل ، وشرع عبادة الأوثان وسبب السوائب وبحر البحار فهناك بطل الدين واختلط الصحيح بالفساد وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر فبعث الله سيدنا محمداً مقياً لوجههم ومصلحاً لفسادهم إلخ ولا ريب أن (جب) وقف على هذا للنص وتجاهله وتناقل عنه واستند على الدهلوي في نص آخر سابق له بأسطر يؤدي به ففكرة تتعارض تماماً مع ما جاء به الدهلوي .

(٢) من أخطائهم سوق الخبر مقطوعاً عن مصدره ومصبوغاً بصيغة التعميم . ومن عاوماتهم اتخاذ أخبار الأحاد التي لم تثبت مصدراً لوضع قاعدة بينما لا توضع القواعد إلا نتيجة لأخبار متعدد صدوراً في اتجاه واحد وثبتت مصادرهما . ومن هذا نرى فون كريم وجوله زير بقولان إن المسلمين بحثوا في موهوع غريب وهو هل تنكح المعجم نساء العرب في الجنة . والمهدف المسموم من وراء أمراد مثل هذه الأخبار معروف وذلك هو إيقاع الخصومة بين العرب والمعجم من ناحية والقول بأن الفتوحات الإسلامية لم يكن وراءها إلا محاولة للسيطرة العربية والموضوع كما أورده المحدث في كتابه المكامل لا يرحى بمثل هذه النظرية فإن الذين بحثوا هذا الموضوع لم يكونوا غير أمراء واحد جاء من

للهادية وصحة الأصحى يقول للأخر أترى هذه المعجم تنكح نساءنا في الجنة فقال : أرى ذلك واقفاً بالعمل
للصالح : وهذا الخبر قد رواه المبرد وضعف بثبوته أى أنه شك فيه ولسكن المستشرقين كيف يتركونه
من دون أن يعتبروه ظاهرة عامة ويستخلصوا منه قاعدة مريضة :

(٣) من أعمال المستشرقين : التزوير ، وقد كشف الأستاذ محمد إبراهيم خبير الخطوط عن أنه
في سنة ١٨٥٠ قام أحد المستشرقين الفرنسيين بتزوير أم وثيقة تاريخية إسلامية تم العالم الإسلامي
كله ومضت الوثيقة المزيفة مكانها طوال هذه السنين دون أن يكتشف حقيقتها أحد . هذه الوثيقة هي
كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر الذي بعث به النبي في العام السابع من الهجرة ضمن
الكتب الثمانية المرسلة إلى الملوك والقيصرة والعظماء . يدعوم فيها الرسول إلى الدخول في دين الله ولم
يقف المسلمون على أثر هذه الكتب الثمانية إلا الكتاب الذي أرسله النبي محمد إلى المقوقس حاكم مصر
والذي نقلت صورته كتب التاريخ منذ أوائل القرن العشرين . هذا الكتاب قد تبين للأستاذ محمد إبراهيم
الذي حصل على صورة منه من دار الآثار النبوية في استانبول واستخدم خبرته في الخط العربي وقراءة
بعض الكتب التاريخية والإسلامية القديمة أنه خطاب مزيف . وأنه في ذلك العصر لم يمكن تنقيط
الحروف مستعملاً بل كانت مهمة ولم تستعمل إلا في أواخر القرن الأول الهجري .

تزوير كتاب النبي محمد إلى المقوقس

منذ أكثر من ١١٧ عاماً قام أحد المستشرقين الفرنسيين بتزوير أم وثيقة تاريخية إسلامية .
وبقيت الوثيقة المزيفة مكانها طوال هذه السنين دون أن يكتشف حقيقتها أحد رغم أن كثيراً من علماء
الدين والآثار رأوها أكثر من مرة ولم يكتشفوا التزوير الذي كان واضحاً بها . الوثيقة هي كتاب
النبي محمد ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر الذي بعث به النبي في العام السابع من الهجرة ضمن
الكتب الثمانية المرسلة إلى الملوك والقيصرة والعظماء يدعوم فيها إلى الإسلام .

في عام ١٨٥٠ كان المستشرق الفرنسي (إيتان بارتلي) يزور أحد الأديرة في صعيد (أنخم) فلفظ
نظره مغلف بالجلد وعليه حروف وكلمات بالخط السكوفي استعان بالمستشرق الإنجليزى (لين) لحل
رموز هذه الأحرف وأعلن الإثنان أن الورقة ربما تكون خطاب النبي محمد إلى المقوقس حاكم مصر
ثم حملها المستشرق الفرنسي بارتلي إلى الأستاذ اعرضها على السلطان عبد الحيد خليفة المسلمين . نشر
بعد ذلك في الصحف الفرنسية أن المستشرق الفرنسي بارتلي عثر في ديسمبر سنة ١٩٥٠ على رق بال
قرب دير أنخم فيه أثار كتابة عربية وأن الرق كان ملصقاً بأوراق أخرى قبطية على جلد كتاب قديم
فاضطر لفصله باستخدام الماء ولكنه ازداد تهرقاً إلا أنه احتال في حفظه ونسويته وتسوية صحيفته ولكنه
لم يحد عليه من الكتابة إلا كلمات متقطعة وأحرفاً مبعثرة وتبادر إلى ذهنه أنه خطاب النبي محمد إلى
المقوقس ولما عاد إلى الكتب التاريخية القديمة المكتوبة بحبر مشابه لما كان يستعمله العرب قام بإضافة
بعض الحروف والكلمات التي دلت عندما اضطر الله لالرق بالماء ورده إلى نحو ما كان عليه من قبل

ويقول محمد إبراهيم أستاذ الخط العربي في حديث إلى محمد حسين شعبان أنه بعد أن سافر في رحلة قصيرة إلى تركيا وزار دار الآثار النبوية في استنبول وقام بنقل صورة خطاب النبي محمد إلى المقوقس عكف على دراسة هذا الخطاب المدعى لاستخلاص الحقيقة مستخدماً خبرته وفنه في الخط العربي وقراءة بعض الكتب التاريخية الإسلامية القديمة وخلاصة الرأي قوله : تبين من الوثائق التي بين أيدينا من الخطوط القبطية المقطوعة إلى العربية ما يؤكد أن الخط الذي كتب النبي إلى المقوقس لم يكن هو المستعمل في عصر الرسول لأن الكتابة العربية في أول عهد ما كانت متشابهة ولم تكن هي الكتابة الكوفية كما هو شائع لأن مدينة الكوفة التي نسب إليها الخط الكوفي لم تكن قد أُنشئت بعد بل تم إنشاؤها عام عشرين للهجرة ومن ثم فلم يكن ظهور الخط الكوفي إلا بداية تطور جديد للخطوط التي سبقته منذ عصر النبي وورد في الرسالة كثير من الأخطاء كوضع النقط فوق الحروف والنقط في ذلك العصر كانت مهتلة ولم تستعمل إلا في أواخر القرن الأول الهجري .

الباب الأول

صفحات من تاريخ الاستشراق

(١) الاستشراق غربياً . (٢) الاستشراق يهودياً .

الفصل الأول

الاستشراق غربياً

بدأ الاستشراق د نصرايياً ، يصدر عن الكنيسة التي خشيت أثر الإسلام في نفوس أهل أوروبا بعد عود بقايا الحملات الصليبية التي عادت تحمل إلى الغرب صورة رائمة عن سماحة الإسلام والمسلمين ثم لم يلبث الاستشراق أن تحول استعماريّاً ، في خدمة الدول الاستعمارية وخاصة إنجلترا وفرنسا وهولندا وبين أن العدد الأكبر من المستشرقين كانوا على صلات وثيقة مع الكنيسة وفي نفس الوقت مع وزارات الاستعمار . ويمكن أن يوصف الاستشراق في هذه الفترة بأنه استشراق د غربي ، عهد أن نوحاً آخر من الاستعمار ما لبث أن ظهر : ذلك هو الاستشراق اليهودي الذي قام به أمثال مرجليوث وبرنارد لويس ، وجوليه زيهير وأمثال جارودي وردنسون في السنوات الأخيرة . ولا ريب أن الاستشراق اليهودي كانت له أهدافه وغاياته التي قد تتفق مع أهداف الاستشراق الغربي وقد تختلف عنه والمعروف أن الاستشراق اليهودي قد عمل ومارال يعمل في خدمة أهداف الصهيونية ويحمل لواء فكرها ومفاهيمها في محاولة لتزييف مفهوم الإسلام وفرض مفهوم اليهودية للتلودية . وقد تطورت أساليب الاستشراق مع هذا الزمن الطويل ، ولكن هذا التطور لم يكن إلا محاولة للتداع وتغطية الغايات الحقيقية وتجنب أساليب المواجهة ، غير أن هذه الأساليب وإن بدت تحمل طابع الاعتدال أو الترفق في المواجهة إلا أنها مازالت تستهدف إثارة الشبهات وبث السموم . وآية ذلك مايقوله المستشرقون المحدثون أنفسهم : فيقول د هاملتون جب : لقد قامت في صفوف المستشرقين في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين بدلا من السطحية التي صبغت دراساتهم السابقة ولكن رغم ذلك فإن التأثير بالأحكام التي صدرت مسبقاً على الإسلام والتي اتخذت صورة تقليد منهجي في الغرب لا يزال قوياً ويعوهم لا يمكن إغفالها في أية دراسة لم من الإسلام . ويقول برنارد لويس إن آثار التعصب الديني القرن لا تزال ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومسترة وراء الحواشي المروصصة في الأبحاث العلمية . ويقول الباحثون إنه رغم أدعاء المستشرقين بأن أبحاثهم أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأغراض أسباب البحث العلمي

وما عليه النزاع العلمية فإن الصورة المشوذة والمقدد الدفين مازال قائماً وخاصة في تصور القرآن وتصور الإسلام وتصور الرسول . ذلك أن الصورة التي شكلها الاستشراق إنما استمدت من مصادر كنسية بيزنطية وأسبانية كتبت إبان الصراع الشديد وخلال الحروب الصليبية وحملات بطرس الناسك . وقد ظلت هذه الكتابات مصدراً لكل كتاب الغرب وفنانيه سجلها دافني وفرجيل وفولته وديدرو وقد ركز الاستشراق الغربي على حلين أساسيين :

أولاً : إثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله وكتابه وحول تاريخ الإسلام . ثانياً : إغلاء شأن الجوارب الضعيفة والمضطربة كالتصوف الفسافي وللغربي المعارضة للإسلام وشعراء المهجاء والغزل الجنسي وشخصيات الرنادقة والشعوبيين أمثال : أبو نواس وبشار وابن الراوندي والحلاج وابن عربي . وقد حرف عن أبرز هؤلاء المستشرقين اتصالهم بالكنيسة ودوائر الاستعمار في نفس الوقت وخدماتهم المزدوجة للعالمين بمفهوم أن الاستعمار هو المنطلق الطبيعي للتبشير وإفساح المجال أمام الإرساليات وإعداد الأجيال المسلمة إعداداً يجعلها خاضعة لبرامج التغريب والنزوة الثقافي فليس هناك في الواقع خلاف بين المدفنين المتكاملين . ولقد كان من أخطر أعمال الاستشراق : العمل على فرض السيطرة على الجامعات ومجامع اللغة ودوائر التعليم والثقافة واستقطاب المفكرين المسلمين لأراء الغرب في محاولات دائبة للسيطرة على مناهج البحث وفرض نظريات النقد الأدبي ودراسات الاجتماع والاقتصاد . كما تمت السيطرة على دوائر المعارف وخاصة دائرة المعارف الإسلامية والمنجد والموسوعة الميمنية وهي جميعها موجودة الآن في أيدي باحثينا وشبابنا وكلها مائة بالسموم . وقد ضمت دائرة المعارف الإسلامية عند صدور ما عدداً من متعصبين المستشرقين أمثال : هوار ، فولوس ، برتولد ، زرنستين ، هورفيس ، بكير ، مارسي ، باسي ، وغيرهم من الهولنديين والفرنسيين والألمان وأغلب هؤلاء مسيحيون متعصبون أو موالون للصهيونية أو يهود ولهم دراسات معروفة من قبل عن الإسلام استهدفوا فيها إثارة الشبهات وإلقاء بذور الشك حول مفاهيم الإسلام وقيمه الثوابت ، ومن هنا فقد أصبحت دائرة المعارف الإسلامية حصيلة جامدة ومختصرة لكل السموم التي وزعها هؤلاء المستشرقون على مئات من الدراسات . كذلك فقد سيطر المستشرقون على مجامع اللغة ، ومثلاً فإن مجمع القاهرة الذي أنشئ عام ١٩٧٣ ، هم جب (لندن) فيشر (لينبرج) نلينو (روما) ماسينيون (فرنسا) فنسك (لندن) وكلم من متعصبين للمستشرقين ومن الذين يجهلون بين العمل في دوائر الاستشراق الكنسي والاستشراق الاستعماري . وفي الجامعة المصرية كان حشدهم الأكبر . وكانت آراءهم حجة لا تقبل الجدل وكتبهم مراجع مقدسة . (٢) إذا أردنا أن نلم لإمامة مربعة بأعمال الاستشراق الغربي (المسيحي الاستعماري) لتتعرف على الوجهة التي يقصد إليها فإننا نجد هذه الاتجاهات : نجد (ديلاس أوليري) مؤلف كتاب الفكر العربي ومكانه في التاريخ المترجم إلى اللغة العربية يضع نصب عينيه التفرقة بين الشعوب السامية والآرية في الأصالة والحلق والتفكير ويبالغ في دعوى تأثر الفكر الإسلامي بالفكر الإغريقي .

والغرب في نظر أوليري ليسوا إلا مجرد نقلة للتراث الإغريقي الذي لم يكن لهم فضل الاتصال به مباشرة وإنما قدمه لهم السريان .

وغير من الذين يرددون دعوى النصرانية فيقول إنه لم يحمل الثقافة العربية رجال من دم عربي محض بل موالى من الشعوب التي فتح العرب بلادها. ويسرف أو لهدى في تصوير تأثير القرائن الإغريقية المترجم فيها الأساس الذي تشكلت وفقاً لمقتضياته الحضارة الإسلامية وهو رأى باطل ويتجاهل الأساس الأصيل للثقافة والحضارة الإسلامية وهو القرآن وللهنة كذلك فإن أوله لا يفوته أن يتم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه كان على صلة بمعلمين من النساطرة (لسان الذي ياحدون إليه أعجبي وهذا لسان عربي مبين) . أما المستشرق أرثر جفوى فقد كان اهتمامه بالبحث عن عمل من أعمال خصوم الإسلام ليجدده ويحييه ويثري عن طريق إعادة طبعه الشبهات ولذلك فقد قام على نشر كتاب عنوانه للمصاحف وهو الكتاب الذي ألفه عبد الله بن داود السجستاني وهو من آثار التشكيك التي أنكرها العالم الإسلامي منذ صدورهما .

ويقوم هذا الكتاب على فكره التشكيك في القرآن الكريم على ما جمعه الخليفة هثان وفي الادعاء بأنه وقع بالكتاب الكريم كثير من الحذف والزيادة في موطن مختلفة ينوء بها مؤلفه ويورد عليها أمثلة وعندما صدر هذا الكتاب لم يحفل به علماء القرآن والمنكلمون المسلمون ، وبقي طموراً في أقبية بعض المكاتب العامة والخاصة حتى فكر المستشرقون في نشره ، وتولى ذلك المستشرق أرثر جفوى ومهد له بمقدمة طويلة بها كثير من المغامرات التي تؤيد غايته من نشر الكتاب . أما المستشرق بلييف فهو يرى أن مسيلته وتعاليمه سبقت القرآن ومحمداً ويصل في مفاصله إلى حد قوله أو مسيلة كان معاصراً أسبق ومعلماً وحليفاً فيما بعد لصاحب الشريعة الإسلامية ، وإن مواعظه تكاد تسبق السور المسكية ، ثم يقول إن القرآن قد اشترك في وضعه أناس من جزيرة العرب وخارجها وليس من تأليف شخص فرد (يعني النبي) إذ أنه يجد مآذيه شديدة التنوع والاختلاف وكذلك ديباجته .

أما المستشرق يوسف شخت فهو يتابع أستاذه اليهودي (جولده سيهر) في النقص من شأن الشريعة الإسلامية ويحاول الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراف الجاهلية وهو ادعاء مكذوب تصدى له كثير من الباحثين . ومن أكاذيبه وأحاليه الادعاء بأن لفكر الإغريق فضلاً على الحضارة الإسلامية ، وقد أثبت علماء الغرب أنفسهم (سيدير - درابر - سارطون) وغيرهم أن الإسلام هو الذي أدخل إلى الغرب المنهج العلمي التجريبي وأن الحضارة العالمية مدينة للمسلمين بهذا المنهج الذي هو أساسها الأصيل . وقد أهتم (إدوارد وايم اين) برسم صورة للمجتمع المصري في سنوات طويلة والقول بأن هذا هو المجتمع الإسلامي المصري . وقد عمد إلى جمع كل الخرافات والأساطير والتقاليد وقد كان من أحماه ترجمة ألف لية ولية ليتخذها ذريعة لتصوير المجتمع الإسلامي القديم في حين أن هذا الكتاب لا يمثل إلا مجتمعا جاهلياً سابقاً للإسلام وأهتم كونيوس فان ديك بالتركيز على المترجمين السريانيين والنصارى ودراستهم ومحاولة نسبة الفضل في الترجمة إليهم لا للعرب ولا للمسلمين والقول زوراً بأن هذه الترجمات هي التي أعطت الفكر الإسلامي مصادره . وعن (استانلي لين بول) بتثريه تاريخ المسلمين في المغرب وصور تضالم في مواجهة الغزوات البحرية الأوروبية بأنه عمل من أعمال القرمصة وله

كتاب أطلق عليه فرسان البربر وفيه فصل عن الفارات البحرية التي كان يقوم بها حرب شمال إفريقيا ودأ على الفروات الأوربية النصرانية على الإسلام والمسلمين في الأندلس خلال القرون ١٦ و ١٧ و ١٨ وكان معظم قادة هذه الحملات من سلالة المسلمين الذين تفوا من أسبانيا . وعنى (نولك) بالهجمات الدامية الحديثة وبذل مجهوداً كبيراً في دراستها كما اهتم بالنحو العربي في محاولة لتدويره متأزراً بالنحو الفارسي وهي نظرية باطلة حاول هذا المستشرق الترويج لها . وعنى المستشرق (جلارزا) بأن يصور المسلمين والغرت كأتباع للفلسفة اليونانية وأنهم لم يعرفوا إلا ما ترجم من أرسطو وأفلاطون وقال إن الفلسفة الإسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية . أما سيديرو فإنه حاول التقليل من شأن الدور الذي قام به المسلمون في مجال الحضارة والعلم .

وأنكر (برتلو) الكتب اللاتينية الكيماوية التي تحمل اسم جابر ابن حيان ليجرد أن أصولها العربية فقدت وقد تصدى لبرتلو علماء راسخون وأوضحوا أنه كان مخطئاً تماماً بل لقد اتهمه البعض بالجهل والتعير والممد . وقال جورج سارتون إن أى شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقاً في اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية إذ تبدو الأساليب العربية واضحة من الترجمة اللاتينية سواء أ كانت لجابر أم لغيره من العرب .

وأنكر دوزي تأثر شعراء التروبادور بالشعر الأندلسي وقد أثبت كثير من علماء الغرب فساد وجهة نظر دوزي ووجهة هذا التأثر . أما جيوم فيفترى على الرسول إفتراءات لا توجد في أى كتاب سيرة ويدهى أن لديه بقايا من سيرة ابن إسحق . واهتم بلاشير بالمتنبى من أجل التشكيك في نسبه وتقديم حكاية تبوء المتنبى وقد نظر إلى شعر المتنبى بعين الغربى المتمصب فلم يفهم مداه من ناحية البلاغة فضلاً عن أنه أراد الغرض من شأن هذا الشاعر الذى جده الأدباء العرب لأنه يمثل بطولة العرب ومقاومتهم للظلم : والمعروف أن أغلب شعر المتنبى كان في مدح سيف الدولة الذى هاجم الغزو الرومانى ويحظره المستشرق كرويتو في ترجمة الأسفار للملا صدراً فيتهم أن المقصود بالأسفار السياحات واذلك اختار كلمة (Voyage) والحال أن مقصود المؤلف من كلمة أسفار جمع سفر ومعناها الكتاب ومقصود المؤلف من الأسفار الأربعة الكتب الأربعة لا السياحات الأربعة كما فهم المستشرق المذكور . ويرهم سدرسكى أن جانباً عظيماً ورد في القرآن والفنفسى والسهر من الأخبار يرجع إلى (الإجابة اليهودية) والأفاجيل والتوراة الموضوعة وقد أشار الدكتور بشر فارس إلى فساد هذا الرأى وقال إن بين النصوص الإسلامية والنصوص اليهودية والمسيحية مصافات وإن اتفق لبعضها أن تتمازب .

وحاول (كارل نلينو) أن يبنى الحقيقة التى تقول بأن قريشاً كانت أفصح العرب وله في ذلك مقالات واسعة ترمى إلى التشكيك في هذه الحقيقة ويقول إن تفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب العرب للرسول . وهو من أوائل المشككين في وحدة اللغة العربية في الجزيرة ومحاولة القول بأن هناك لغتين ، هما لغة الجنوب وهي النظرية الباطلة التى ردها كثير من الباحثين واعتمد عليها الدكتور طه حسين في التشكيك في وحدة اللغة العربية .

وقد أول الجاهلية هتافاً قائمة وأتم بها من باب الدهوى بأن العرب كانت لهم حضارة قبل الإسلام وأن ما جاء به الإسلام لم يكن أمراً ذا باله . أما لويس شيخو فأخذ على نفسه أمراً قايمة في الصعوبة هو تنصير بعض شعراء الجاهلية عن لم يكن لهم من النصرانية حظ كما فعل بالصموه وقوله إن بنى غسان نصارى وهو قول لا يسلم به الماطلون على أخبار العرب في عهد الجاهلية لأن من غسان من كان على الوثنية ومنهم من دان باليهودية وطائفة كانت على النصرانية ومن نصروا من شعراء العرب الأحنس بن شهاب وأمرؤ القيس ، وأمية بن الصلت وحسان بن مرة كما نصروا عدة قبائل وبطون مثل كندة ومذحج وطىء وتغلب . أما منى لامنس فقد كان عمله هو تحريف النصوص وتهويها والتلاعب بالمعاني لظلم العرب والمسلمين لم يقصد الكشف عن الحقيقة بل القس والتضليل ومن هدفه التشكيك في تاريخ ميلاد الرسول المجمع عليه ٧٠٠ هـ وحاول أن يرسم صورة مشوهة لفاطمة الزهراء دون أى مستند تاريخى موثوق ، كما اندفع في أهوائه ونسب إلى الرسول الخداع والتضليل ، وأكثر الباحثين الغربيين قد انتقدوا لامنس وفضحوا مغالطاته وحذروا من الاعتماد عليه وقد وصف أكثر غلط مارجليوث بأنه يرجع إلى التحكم في الاستنباط القياسى الجزئى وبيان أسباب الحوادث . وقد كان لامنس حرصاً على إيقاع التناقض بين نصوص القرآن بين الأحاديث النبوية بهدف التشكيك في الاستناد على الحديث كمصدر وثيق ، أما محاولة بروكلمان فهي للقول بأن المصادر الأصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية فقد حاول كل منهم أن يتخصص في جانب من جوانب الشبهات المثارة : قال كارنونا إن القرآن في مكة من وحى النصرانية وفي المدينة من وحى اليهود .

وقال مرجليوث : إن الإسلام معناه الذل والخضوع . وقال توينبى : إن اللغة العربية لغة دينية .

وحاولت إتهامات المستشرقين أن تقول بأن القرآن فيه تعارض وتضارب وجرت أبحاثهم وراء كل الشبهات حول لغة القرآن وهل هي لغة قريش أو لغة الدمر الجاهلى . نزول القرآن هل باللفظ أم بالمعنى ، المحكم والمتشابه ، الناسخ والمنسوخ وهناك محاولة للقول بأن العرب كانوا أمة قبل الإسلام وكانت لهم حضارة وأن دور الإسلام فيهم لأهمية له . والواقع أن العرب لم يكونوا أمة قبل الإسلام ولم تكن لهم حضارة ولم يكونوا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام ولم يكن لهم أدب إلا قصائد المعصية وسجع الكهان .

(٢) وقد ركز الاستشراق العربى (للمسيحي الاستعماري) على دراسة :

(١) الحركات المضادة للإسلام والتوسع فيها (٢) الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ (٣) النصوص المتناقضة والاهتمام بما كان منها مفرداً شاذاً مغالطاً للاجماع .

(٤) محاولة إعلاء الحضارات الشرقية القديمة . (٥) للبحث عن الأثر اليونانى والمباليغنى تعديده وإكباره وجعله كآبه هو كل شيء (٦) التوسع في بيان الفروق الجوهرية بين الشرق والغرب ، في محاولة لغرض من شأن أمم الشرق والإسلام ورميها بالتخلف .

(٧) الاهتمام بالمذاهب الكلامية والفرق والتصوف والزندقة ، وهم يركزون دائماً على الأهتمام :
 لإتنام الأدب العربي والشرعية والفكر وغيره بأنه إما فارسي الأصل أو يوناني الأصل . والهدف الأكبر
 هو تصوير الإسلام في صور التجهزة والضعف والصراع بين المذاهب المختلفة وتحديد بعض الفرق
 القديمة حتى لا يلتزم جميع المسلمين . ولقد حمل المستشرقون كل بذور السموم والدعوات الهدامة التي
 انتشرت في عالم الإسلام فهم الذين حملوا مفاهيم القوميات والإقليميات بهدف تزييق الوحدة الإسلامية
 ومن أبرز هؤلاء (ليون كامون) الذي كتب عن الترك والمغول القدامى ، وفبري المستشرق اليهودي
 الذي عمل في الآستانة ودعا الأتراك إلى الخروج من الوحدة الإسلامية ، ومن أم الذين حملوا لواء الدعوة
 إلى العامية وإلى الحروف اللاتينية : ويلسكوكس ، وولور ، وسيتا ، وماسينيون وغيرهم وهم أصحاب
 دعوى أن هناك لغة عامية غير العربية هي البونية ، ومنهم جماعة للسياسيين الذين عملوا على تزييق البلاد
 العربية وإثارة الصراع فيما بينها أمثال لورنس وفيلبي ، وهم أصحاب المحاولة المضللة التي تقول بأن نصارى
 لبنان هم الذين بمنوا النهضة العربية وليس المسلمون . ومن أعمال الاستشراق (سرقة) المخطوطات
 الإسلامية من الشرق وهي جريمة بدأت منذ عام ١٣١١ م قام بها القناصل والرحبان واستولوا بها على
 كل المخطوطات الموجودة في المساجد والأرباب وقد جمع أحد الرحبان (زانسي) سنة آلاف مخطوطات
 من الشرق نقلها إلى ميلانو وقد توالت بعثات الاستعمار والفاتيكان إلى العالم الإسلامي لجمع المخطوطات
 وكان الهدف هو حبس التراث الإسلامي في مكتبات الغرب واتخاذ سلاحاً ضد المسلمين ، فم بيرزون
 المكتب التي تثير الفتن : كتب الخلاف المذهبي والتصوف الفلسفي والشبهات ويخفون كتب العلوم فيأخذون
 نظرياتنا وينسبونها إلى أنفسهم وعلمائهم ويحرمون أصحابها . أنها إن معظم المكتب التي جردها المستشرقون
 وأطادوا ابتنائها كانت تستهدف إذاعة آراء معينة وتيارات مضللة ولذلك فإنه لا يمكن القول بأن هذه
 المكتب قد طبعت أو حققت لخدمة الأدب العربي أو اللغة العربية ومن هذه المكتب : ألف لية ولية ،
 تهافت التهافت لايح رشد ، انساب الأشراف للبلاذري ، أخبار الحلاج ، الأغانى ، رسائل إخوان الصفا
 إلخ .

ثانياً : المستشرقون في حملة الحق والتمعصب

من أبرز المستشرقين الذين لهم دور خطير في توجيه حركة الاستشراق الغربي لويس ماسينيون
 وهاملتون جب وهنري لامنس وجوستاف فون جردنيوم وكريستيان سنوك هرنجورنجه . أما لويس
 ماسينيون فقد كان يعمل في وزارة المستعمرات الفرنسية وقد حمل لواء الدعوة إلى الحروف اللاتينية
 وأهتم اهتماماً شديداً ببحث التراث الصوفي الفلسفي الذي لا يعترف به الإسلام مثلاً في الحلاج وكتابه
 الطواسين ودأب على ذلك أكثر من أربعين سنة وقد كان ماسينيون قاسماً مشتركاً على الجامعة المصرية
 القديمة والمجمع القوي وألقى أكثر من أربعين محاضرة حول المذاهب الفلسفية في الإسلام ، ولم يقف
 لإتهامه بنشر سموم الحلاج ، بل أهتم بآب سبين وأن الحسن التستري وروزيهان البقل كما أهتم بمذاهب
 الباطنية وما تفرع منها وأهتم بالفراطة والنصيرية ودرس المصطلحات الصوفية .

وكتب في دائرة المعارف الإسلامية ، مواد القرامطة ، التصرف ، الزنج ، ومادة زنديق ، وزهد وحاول أن ينسب الإنجازات الإسلامية في الفلك إلى الغرب فكتب مأسماه هيوم (مجملان) وهي السكواكب التي امتدى بها مجلان عندما دخل المحيط الهندي وبراسطتها استطاع أن يتم دورته حول الأرض والمعروف أن الملاحين العرب قد اكتشفوا هذه النجوم قبل (مجلان) زمن طويل وكانوا يهتمون بها في الملاحة ويسمونها (البقر) .

وقد أثار الباحثون إلى نشاطه الكبير بالتعاون مع تلاميذه في نشر العامية في المغرب والجزائر وتونس ومصر وسوريا ولبنان . ومن تصريحاته المشهورة قوله . لم نبحت في الشرق إلا عن مقتضاتنا ولقد همرنا كل ما هو خاص بهم فدمرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأديهم . والشرقيون ليسوا من السذاجة حتى يعتقدوا بكرم أخلاقنا وقد تحقروا بالشواهد أننا نعمل على أن نستقيم ضعفاء .

ولما هبط دمشق في أوائل الاحتلال الفرنسي كان عما قاله المجمع العلمي إن إحمال الإهراب بيسر تعلم اللغة العربية على الأجانب ويكون في الوقت نفسه تمهيداً يلقى بمؤسسة كالجمع . وكرر دعوته عام ١٩٢٨ في أندية الشباب العربي في باريس غير أنه لم يجد آذاناً صاغية بل وجد رداً عنيفاً ومعارضة شاملة وكان الدكتور زكي مبارك من أبرز الذين حملوا عليه وعارضوه فقد كتب في جريدة المساء القاهرية من باريس في ٢٧ فبراير ١٩٢١ تحت عنوان ماذا يريد بعض المستشرقين باللغة العربية قال :

إن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق هم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام وسيلهم إلى ذلك أن يقتنعوا بعض الأتذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت في عداد اللغات الميتة وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدينة جديدة ، وأنه لا يلقى بالرجل المصري أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلا لمداية الرعاع . ومن المحزن أن هذه الدعايات يقوم بها أناس كنا نظنهم من أهل المروءة والشرف فإنهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ولكن لا أفهم كيف يتفق لرجل قضى خمسين عاماً في التقرب إلى اللغة العربية والإسلام أن يزعم أن لغة العرب لا تستطيع وهي العلوم الحديثة ولا يمكن أن ينتشر بها التعليم الحديث وهم يقولون ذلك حرصاً على منفعة أتباعهم في المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون ولكن الغرض المستور هو القضاء على التقاليد العربية والإسلامية ليخلوا الجو للغة المستعمرين .

ولقد وقف أحد المستشرقين الفرنسيين (يعني لويس ماسينيون) يخطب في بيروت وكان من همه أن يبكى سمومه في الشباب السوري فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تنفزع إلى لغات حديثة كما تنفزع اللغة اللاتينية ، فبما سعادة الشرق العرب ، إذن حين تصير اللغة العربية إلى مثل صارت إليه اللاتينية فقد ماتت لغة الرومان حيث لا رجعة وهذا هو الفخار الذي يطلبه ذلك المستشرق للغة العربية فأكرم به من صديق . ومن نوع ذلك الخاط ما زعم المستشرق المغرض عن الحروف العربية فقد ألقى محاضرة في السكواكيب دي فرانس أبان فيها أن لا حياة للغة العربية إلا إذا كتبت بحروف لاتينية ، إن القوم يريدون تقطيع جزء مهم من شخصية اللغة العربية ليسلوا قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر

الأدبية والروحية وفي ذلك تيسير لمهمة الدارسين الذين يريدون قتل الشرق بأدم العلوم والآداب ، ا.هـ
ومع هذا الدور الخطير الذي قام به ماسنيون فإننا نجد من يكتب عنه بعد وفاته في المجلات العربية
مجدداً ومكرماً : هذا الرجل الذي لم يدع نخلة من النخل الغالية كالقراطة والنصيرية والاسماعيلية والحركات
الصيرية إلا بشر بها وأعاد نشرها .

٢ - هاملتون جب

عمل هاملتون جب في دوائر الاستعمار وكان من أبرز المستشرقين الإنجليز الذين يخدمون أهداف
الاحتلال البريطاني ، وقد عرف بقيادة أخطر حركة من حركات الاستشراق وهي حركة التغريب التي
تولى إعداد دراسة خطيرة عنها مع أربعة من المستشرقين تناولت العالم الإسلامي كله ، في محاولة لفحص
مدى ما وصلت إليه محاولة تغريب الإسلام والمسلمين وقد طبع هذا الكتاب وتوجم إلى
اللغة العربية تحت اسم (وجهة الإسلام) . وتناول الوسائل التي تعمل على إسقواء الفكر الإسلامي
والمجتمع الإسلامي وركز على التبشير في مدارس الإرساليات وتأثير الاستعمار في مناهج المدرسة الوطنية
وأشار إلى الدور الخطير الذي تقوم به الصحافة وكيف يتقدم على قيادتها العدائيون والمتفرنجون وأولياء
الثقافة الغربية حتى تظل تؤدي عملها الخطير . وأشار إلى الدور الذي قام به التغريب في تنحية الإسلام
عن مرشده من حيث هو قوة اجتماعية تسود الحياة وتوجهها وكيف أن القوانين الوضعية الغربية حملت
على تقليص ظل الشريعة الإسلامية في مجال الحياة والمجتمع . وأشار إلى التصدع الذي أصاب الجامعة
الإسلامية والوحدة التي كانت تؤلف بين وحدات المجتمع الإسلامي بعد سقوط الخلافة التي كانت
تعد حجر الزاوية في بناء هذه الوحدة وإن كان جب قد أشار إلى أن زوال الخلافة لم يزل من وحدة
المجتمع الإسلامي . ومن أخطر السدوم التي أثارها جب في كتابه (بنية الفكر الديني في الإسلام) هو
ادعائه بأن الإسلام جاء ليضفي الصفة الدينية على تلك الأحيائية العربية القديمة التي تصحها الأعراف
والبيئة بعد أن لم يستطع محمد عليه السلام التخلص منها ويقتصد بالأحيائية : تلك العقائد الروحية الخرافية
كالإيمان بالسحر والتنجيم والكهانة .

وقد عرف هاملتون جب بأنه واحد من المستشرقين الذين عرفوا بمنهج محدد قوامه وضع
فرضيات مسبقة يعبر بها عن غاية له ثم ينطلق فيبحث لها عن شواهد وأدلة ويجعل طرائق بحثه كلها
خاضعة لسلطان تلك الفرضيات وإن جب كما يقول الدكتور البوطي وضع أمام القارئ جملة من
الدعوى والمزاعم العجيبة بأسلوب من التقرير الثابت دون أن يعد بينه وبينها أي خيط أو شريان من
المؤيدات أو البراهين العلمية ، خلاصة هذه المزاعم أن بنية الفكر في الإسلام إنما هي معظم ما كان لدى
العرب في جاهليتهم من العقائد الفيتية والطقوس الشكلية النابعة عن عقيدتهم بالأرواح (الأحيائية
العربية) فقد تأمل محمد ﷺ فيها ففهم ما أمكن تغييره ثم عدل إلى الباقي مما استصى عليه التخلص منه
فكساه حلة الدين والإسلام ثم لم ينس أن يدعم جملة هذه العقائد والرموز بهيكل من الأفكار والمواقف

الدينية الملائمة ، وهو قد سار (جب) إلى هذه الآراء من ثلاث فرضيات . أولاً : فرض أن محمداً لم يكن نبياً ، ثانياً : فرض أن ما كان لدى العرب من بقايا عهد إبراهيم إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التي ابتدعوها من أنفسهم . ثالثاً : فرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية وإن كل ماجاء عنها في القرآن والأخبار مجرد وهم . وأنه في سبيل تأييد هذا الرأي الباطل نقل عبارة مغمورة من كلام طويل ولا ريب أن الإسلام جاء في جوهره ثورة جارفة على كل إحيائية عربية كانت أو غير عربية قديمة أو جديدة وأنه يجب التفرقة بين ما هو عادات اجتماعية وما هو طقوس دينية .

وغير صحيح مذهب إليه (جب) من أن القرآن يعتمد على لغة العصر ، إذ أن القرآن يلح على ناحيتين متكاملتين : ناحية القلب ويتحدث حديثاً موجهاً إلى العاطفة والعقل معاً ولا ريب أن السحر والجن حقيقة إن إسلاميتان لا ريب فيهما . ولكن ذلك لا يعنى خضوع المسلمين للسحر والجن أما السحر الأسود فهو رمز إسلامي وليس بمعبود لذاته وقد سجل هذا المعنى عمر بن الخطاب حين قال :

إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، وهو في دراساته عن الأدب العربي استعمل أسلوبه في انتقاص الفضل والنقص من قدر الجوانب الإيجابية وركز على السعويين والوفاة وشعراء الكشف أمثال بشار وأبو نواس والحلاج وابن عربي وحاول أن يصور اتصال الأدب العربي بالأدب الفارسي على أنه تأثير وتبعية .

٢ - سنوك هو رجرونيجه

عمل (سنوك هو رجرونيجه) مستشاراً بوزارة المستعمرات الهولندية في المسائل الإسلامية والعربية وقد استطاع أن يدخل مكة في زى طبيب عالم ويقضى بها خمسة أشهر درس خلالها المجتمع العربي هناك بين وصول قوافل الحجاج ورجوعها وفي عام ١٨٨٩ أصدر كتاباً عن مكة في مجلدين وصف المجتمع العربي في مكة (الأسواق - المبيد - الأماكن المقدسة - البيوت - الأحياء) .

كما درس الإسلام في جزائر الهند الشرقية وعين ١٩٠٧ مستشاراً في الشؤون الهندية والعربية لحكومة هولندا وكتب عن سياسة هولندا إزاء الإسلام وهو في خطته السياسية يريد أن يستبق النفوذ الهولندي في بلاد الملايو أساساً وعلى ضوء ذلك ينصح حكومته بالتخفيف من حمل جمعيات التبشير في تنصير المسلمين ويحذر حكومته من أخطار التعصب والانقطاع فيوصف بأنه من أقل المستشرقين تعصباً غير أن النظرة الفاحصة لتقاريره وكتاباتة تكشف عن خبيثته . يقول : يجب على الحكومات الأوروبية التي استولت على بلاد الإسلام أن تجتهد في إظهار التناقض بين الإسلام والمدنية العصرية وإقناع ناشئة المسلمين بأنهم ما ضدان لا يجتمعان فلا بد من رفع أحدهما ، ولما كانت المدينة الحاضرة هي نظام كل شيء ولا مندوحة عنها لمن : يريد أن يعيش ، كان من البديهي أن الذي سهرغ من النقيضين هو الإسلام .

قال شكيب أرسلان : هذا المشرق المولدى وكرومر (الإنجليزى) من قادة الاستعمار يريدون إظهار هجز الإسلام عن امتصاص الأسكام المصرية وإثبات كونه نظاماً قديماً قد هلى ولم يعد صالحاً للحياة على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبذون الإسلام وينبذه تكون أوروبا قد تخلصت من أكبر خطر يحيق بها وهو الحكم الشرعى الذى لا يجوز للسلطان أن يخضع لأمر لم يكن على غير دينه . ولقد كانت محاولة سنوك دائماً ترمى إلى دعوة الدول الأوروبية المستعمرة أن تتفاهم وتتفق على موقف موحد تجاه الإسلام حتى لا يتم تضامن بين المسلمين وقول أحد مؤرخيه إنه هو ويكر ومارتن هارتمان يتفقون على العداوة للمسلمين والتشكيك فى ثورتهم على الإصلاح والتحذير من خطرهم على المستعمرات الأوروبية . ومن أقواله : إن الإسلام دين الكراهية والحرب ويجب أن لا نسمح له بالسيادة على العالم المتحضر . ولا ريب أن الاستشراق الأمريكى هو امتداد للاستشراق الغربى وإن كان فى أغلبية استشرقاً صهيونياً يهودياً نتيجة سيطرة اليهود على مراكز البحث فى الجامعات الهامة أمثال كولومبيا وماقارد ، وپريستون ، وما تشجان وبروز عدد من المستشرقين الأمريكيين ذوى النحلة الصهيونية أمثال جوستاف فون جرنباوم ، وفرانز زتال ، وفيليب حتى . وهناك بعض المستشرقين المعتدلين أمثال جورج سارتون وتشارلوا دمن وقد قام الاستشراق الأمريكى بإرسال بعثات أثرية إلى بلاد العالم العربى الإسلامى ، وأبدت اهتمامها بحضارات آسيا وأفريقيا ودانانها . ولا تخلو محاولات الاستشراق الأمريكى من العمل على إحتواء الفكر الإسلامى والتعليم والثقافة وقد كان لها دورها القديم منذ إنشاء الجامعة الأمريكية فى العالم العربى وخاصة فى القاهرة وبيروت وإستانبول ،

٤ - جوستاف فون جرنباوم

أما جرنباوم فإنه يدرس الإسلام من منطلق التفوق الغربى والحضارة الأوروبية وتنظيم كتاباته مشاعر التعالى على الأمم والشعوب الأخرى ، وتدور دراسات جرنباوم فى فلك واحد هو إثبات فضل الحضارة الهيلىنية على الحضارة العربية الإسلامية وهو حين يتحدث عن الإسلام يستعمل مصطلح (المحمدية) لأنه لا يريد أن يعترف بالوحى والرسالة وينسب الإسلام إلى محمد ﷺ . ويمثل جرنباوم ذلك التيار الجديد الذى يحاول أن يرد نهضات الأمم إلى مصادر ثلاث تاريخ الإغريق وتاريخ بنى إسرائيل وتاريخ روما ويحاول جرنباوم أن يقيم نظريته على قاعدة أن بغداد وادى الحضارة الرومانية وبذلك يجرد الإسلام من ذاتيته الخاصة والدور الذاتى الذى قام به فى مجال الحضارة والذى يختلف اختلافاً كلياً من مفهوم الإغريق والرومان تماماً وإن كان الإسلام قد استه فى خمر مافى الحضارات القديمة التى يمكن رد أغلبها إلى الفراعنة والفينيقين وهم عرب أصلاً .

ويخطئ جرنباوم حين يحاول أن يرد تراث الإسلام إلى تعاليم المسيحية واليهودية من ناحية المعرفة والتاريخ اليونانى من ناحية الفكر التجريدى فإن الإسلام قد أقام فكراً جديداً على أساس

التوحيد الخاص يختلف بل ويتعارض مع مختلفات الفكر البشري والوثنى والإباحى والمادى الذى كان معروفاً قبل ظهوره . ولا ريب أن هذه المحاولة من جرباوم هى محاولة ضالة منهضبة ، كما يقول فاروق خورشيد حيث يحاول تفتيت معطيات الحضارة الإسلامية إلى جزئيات صغيرة ورد هذه الجزئيات إلى حضارات أخرى وشعوب أخرى بحيث يصبح كل ما فى الحضارة الإسلامية مقتبساً من الآخرين .

الفصل الثانى

الاستشراق يهودياً

منذ وقت بعيد جرت المحاولة على ظهور استشراق يهودى يتفق مع الاستشراق الغربى المسيحى فى الوجهة العامة من الهجوم على الاسلام واسكنه يختلف فى التماس جوانب معينة تخدم قضية الصهيونية ويستهدف القضاء على الوجود العربى فى فلسطين وماجاورها ويميل على تزييف الحقائق الخاصة بالاصول العامة للحنيفية السمحاء التى حمل لواءها ابراهيم عليه السلام وما يتصل بأمر النبيين الكريهين : إسماعيل وإسحق ، وقد ظهر فى أفق الاستشراق اليهودى : مرجايوت وإسرائيل ولفندون وإيفى بريل وجولد سيهر وبرنارد لويوس ومكسيم رودولسون وجار ودى ومير بيرجر ولم يتوقف الأمر عند هذا بل لقد استطاعت اليهودية استقطاب عدد من المستشرقين الغربيين لخدمة مفاهيمها فهم ألفريد جيوم وجرونيانوم ولا ريب أن اليهود فى الإسلام شبهات خاصة تتصل بموقفهم من النبى والاسلام وأنهم هم صناع الإسرائيليات القديمة والمتجددة ، وقد نشطوا فى السنوات الخمسين الأخيرة لتجديد ما كان يردده اليهود فى الماضى منذ أول الدهوة ولهم فى التاريخ الحديث مواقف تكشف هذا المخطط الخطير منها ما يردونه عن قضية الصلاة إلى بيت المقدس ، حتى أن زويمر زعيم التبشير المسيحى وزع مندوراً فى الأزهر محاولاً إثارة هذا الموضوع تحت عنوان (لماذا لا نعود إلى القبة القديمة) ونجد أن طه حسين كان من أوائل من ألقى بذور الشك حول ابراهيم وإسماعيل حين أعلن أنهما شخصيتان وهميتان وإن ورد اسمهما فى القرآن . واليهود هم الذين علموه ما أذاعه فى طلبة كلية الآداب من أن القرآن مكى ومدنى وأن القرآن المكى جاف وأن المدنى رقيق والسرى فى رفته هو اتصال النبى باليهود بعد الهجرة إلى المدينة وهذا من مضمون الاستشراق اليهودى أعلنه طه حسين فى محاضراته فى كلية الآداب فى القاهرة وتبين من بعد أنه مما دونه واحد من أخطر المستشرقين اليهود هو جولد سيهر فى كتابه التريمة والقصيدة فى الإسلام ومن العجيب أن طه حسين نشر هذا الكتاب للمستشرق اليهودى عام ١٩٤٦ بعد أن تولى إدارة دار الكتاب المصرى أى بعد أن أذاع هذه الآراء بأكثر من عشرين عاماً ومن محاولات الاستشراق اليهودى تلك الرسائل التى ألفها إسرائيل ولفندون عن اليهود فى جزيرة العرب وعن اللغات السامية تحت إشراف الدكتور طه حسين ثم تولى تدريسها فى دار العلوم ، وقد استطاع اليهود

التحكم في مختلف وسائل النشر والإعلام في العالم العربي تحكما مكنهم من بث أفكارهم وآرائهم في مختلف دوائر المعارف العالمية والصحف والدوريات ومن هذه المحاولات التي يدعون إليها ما يتصل بالتاريخ القديم وما يتصل بالأوضاع الحاضرة في البلاد العربية في محاولة لتصوير الرب أمام الغرب بأنهم أقل درجة في الحضارة وأنهم أي اليهود أحق منهم بأرض فلسطين وهم يقرمون بتزييف مجموعة من الحقائق التاريخية الصحيحة للتصويه بأن لهم حقاً تاريخياً في هذه المنطقة ، ومن أمثلة هذه الدعاوى قولهم بالنظرية السامية سواء في اللغة أو التاريخ وهي التي يستمدون من وراءها الادعاء بأن اللغة العبرية أخت اللغة العربية وأن لليهود أبناء عمومة العرب وكلها محارلات باطلة ومضللة وأن اليهود ديناً خير الصهيونية وأن عبد الله بن سبأ الذي أحدث الفتنة في عهد عثمان ليس شخصية حقيقية وإنما هو شخصية وهمية .

وقد استطاع الاستشراق الصهيوني تجميع عدد من كتاب الغرب ومنشوريه لخدمة أهدافه كأنكر من تجميع عدد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية لخل لواء هذه الأفكار ، وتمثل اتهامات الاستشراق اليهودي في عدة شهادات . أولاً (القول بأن المسلم معناه في الأصل الخائن ، وتعليل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلمة .) ثانياً (الادعاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام كانت تنتابه التوب العصبية وذليل ذلك ما كان يصيبه من الجهد خلال نزول الوحي مع أنه عليه السلام لم يعرف في تاريخه كله أنه كان يصاب بمنزل هذه التوبات العصبية قبل زمن البعثة ومقدماتها ،) ثالثاً (الزعم بأن الرسول عاشر بعض النصارى واليهود فاستفاد منهم كثيراً من القصر واقتبس بعض أساليب التعبير التي لم تكن معروفة للعرب مثل : ذاتي الموت ونفخ في الصور ، وفي آذانهم وقر : وهو ادعاء مسبق رده مشركوا مكة الذين قالوا : إنما يعلمه بشر ، وقد بكتهم القرآن فقال : (لسان الذين ياحدون إليه أجمعى وهذا لسان عرب ، مبين) (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون) رابعاً (الادعاء بأن محمداً ما كان رسولا ولا نبياً فزعم للعرب في تحسس الأخبار والإسراع بنقلها بطرق لم يوفق أحد من المتحضرين حتى اليوم إلى كشف سرها ،) خامساً (أن محمداً صادق الفراسة نقاداً للرجال إذا لقي أحدهم انكشف له سره واقتضت أمامه خفايا صدره وعرف كيف يستعمله ويحتذبه إليه .) سادساً (ما كان من بلاغ النبي ورسالاته لم يكن وحياً بوحى وإنما هي أنباء وروايات يجند لها جواسيسه ورجاله أو حقائق يبلغها حذقه وفراسته .) سابعاً (تزوج الرسول بالسيدة خديجة طمعا في ثروتها . وهي أكذوبة لا تتفق مع ما عرف عن رسول الله من زهد في الدنيا وأنه لم يورث أهقاه الوهيد بما خلفه بل جعله لعامة المسلمين بقوله (نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة) ثامناً (الزعم بأنه أنشأ جمعية سرية واختار أبا بكر الصديق رئيساً لها لجهل يروج لها ويتفانى في نشرها فكانوا يجتمعون في بيت الأرقم وأنهم كانوا يجتمعون سرّاً للصلاة وقد حاول (مرجليوث) تشييعهم بالماسون وأن هذا الجمع قد اتخذ رموزاً منها (السلام عليك) . (تاسعاً) الزعم بأن النبي نظر في تعاليم النصارى واليهود فأخرج منها ما لا يقبله العقل وأنه وحد بين إله اليهود والنصارى وجعلها واحداً .

ولا ريب أن هذا القول باطل من أساسه ، والحقيقة أن التوحيد هو دين جميع رسل الله وأنبيائه وأن النصرانية واليهودية حرفتا هذه العقيدة . على هذا النحو حاول الاستشراق اليهودي تصوير الإسلام ورسالاته وانيه ، وهو ما أورده مرجليوث في كتابه (محمد وظهور الإسلام) ورد عليه الشيخ عبد العزيز جابوش فوصف كتاب مرجليوث الذي ظهر عام ١٩٠٥ بأنه لم يؤلف كتاباً بالإنجليزية أشد تحاملاً على النبي منه فقد حاول أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة وأنه يشكك في أساسها ولم يأل جهداً في نقض ما أبرمه التاريخ . ويصور الشيخ عبد العزيز جابوش الذي كان أستاذاً بجامعة أكسفورد كيف يتعامل مرجليوث بالنصوص التاريخية فيقول : إنني كنت مدعواً معه في بعض المنازل فلما كنا على المائدة سألتني بعض الحاضرين : هل سبق لي أكل لحم الجوز فأجبتني : لا أذكر ذلك وربما اتفق لي هذا وأنا صغير فلما سمع الأستاذ مرجليوث هذا الكلام قال : وكيف ذلك وعلى كل مسلم أن يأكل لحم الجمال ولو مرة واحدة في حياته ، عند ذلك أجبتني وأنا دهش بما قال : يا سيدي : إنني أعرف أن قواعد الإسلام خمس أما هذا السادس فلا أهرقه ، بيد أنني استدعيح الأستاذ عفواً أن يذكر لي مأخذ هذا الحكم فقال ورد في صحيح البخاري أنه قد جاء أحد اليهود إلى الرسول وقال له إني جئت أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله فأجلسه وأمره بلحم جزور ومن هنا استنبط المستر مرجليوث أنه يجب على كل مسلم أن يأكل لحم الجوز وأن هذا من العقائد الإسلامية التي يتهدم الدين بانهدامها . فلما فرغ قلت له : إن مع وجود هذا الحديث في البخاري فالذي يفهمه المسلم الذي يفقه اللغة العربية منه أحد أمرين : فإما أن يكون الرسول أراد أن يقدم لذلك اليهودي شيئاً من الطعام لأنه ضيفه في بيته وإما أنه أراد أن يتبع إيمان اليهودي بإطعامه شيئاً مما حرمه الله على بني إسرائيل في التوراة من أجزاء اللحم . ثم قلت الآية المفيدة لذلك فهي الأستاذ ولكن لم يحضر قوة المسكبة وشدة العناد التي عليها الأوروبيون ولا سيما المستشرقون منهم . ويهتم الاستشراق اليهودي بإثارة مسائل ترتبط باليهود كخراج اليهود من خير وقصة قبيلة بني قريظة التي تعاونت مع المشركين يرمي الأحزاب فاقضين العهد الذي قطعوه على أنفسهم ، ويقف مرجليوث موقف العداء أمام الغزوات التي قام بها الرسول لاقتلاع الوجود اليهودي ويصفها بأنها حرب انتقامية مع أن وقائع التاريخ تثبت تأمر اليهود وحكم النبي وصبره عليهم وإدخالهم الفرجة لإثبات حسن النية في نفس الوقت الذي كانوا يواصلون مؤامراتهم وتعاونهم مع كل القوى المعادية للإسلام ، ويصل مرجليوث إلى أبعد حدود التمهيب والخفة والتجرد من كل أصول الفهم للتراث الإسلامية البشرية وأنظمة الدول حين يقول أن محاولة أحدهم تتل رسول الله لا يصح أن يكون سبباً يتدرج به الانتقام .

ومن أجل محاولة هدم اللغة العربية كانت محاولة الطعن في الشعر الجاهلي ، وهذه النظرية التي تلفها تابع الصهيونية الدكتور طه حسين والذي قال بما قالت به اليهودية في شأن إبراهيم وإسماعيل وفي شأن عبد الله بن سبأ ، والذي ادعى أنه كان لليهودية أثر أدبي وحضارة في الجزيرة العربية قبل الإسلام .

(٢)

وقد تابع مرجليوت على نفس الطريق في الاستشراق اليهودي « جولد سيهر » الذي نقل الدكتور طه حسين رأيه في القرآن المدنى والقرآن المدكى وبعد جولد سيهر من أكبر الدافين على الإسلام وبعد كتابه (العقيدة والشريعة) في الإسلام مثلاً لهذا التشويه الذى حاول به تمزيق الحقائق الإسلامية والذى يمثل تزويراً قاصداً وتحريفاً خطيراً لسمعة الإسلام بأسلوب مخالف كل مخالفة للدقة في النقد ومناقض أشد المناقضة للتمحيص في الاستنباط العلمى على حد أمير الأستاذ محمد المنتصر الرسونى .

ويضيف جولد سيهر إلى مفهوم الاستشراق اليهودى عدة شبهات . (أولاً) القول ببشرية القرآن أى أنه ليس وحياً إلهياً وأن القرآن لم يأخذ خطأ واحداً في التعبير عن مدلول القضايا التى ساقها . وأن أسلوبه متباين بين البيهتئين المسكية والمدنية وأنه كان في المرحلة الأولى سجع وفي المرحلة الثانية سجع مجرد من الاندفاع العاطفى ، (ثانياً) أن الثقافة الهلينية كانت صاحبة الأثر الأول في تطور الإسلام .

(ثالثاً) أن الإسلام كان مزيجاً منتجباً من الفكر اليهودى والمسيحى . (رابعاً) استقبال الرسول لبيت المقدس في الصلاة كان استرضاء لليهود . (خامساً) إن قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن مفتعلة وأنها نزلت في المدينة لإرضاء لليهود والواقع أن القرآن يتحدث عن إبراهيم في أكثر من موضع في القرآن المدكى وأهمها سورة إبراهيم . (سادساً) الفقه الإسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى . (سابعاً) أن الإسلام قام على السيف . (ثامناً) الحديث النبوى من صناعة الصحابة والتابعين . (تاسعاً) الجيوش العربية أخرجها القحط والجوع . (عاشراً) إنكار عالمية الرسالة ولا ريب أن هذه الشبهات كلها ليست جديدة وقد كشف كتاب المسلمين فسادها ولكن الاستشراق اليهودى يركز على جوانب معينة يحاول عن طريقها مواجهة مأسجة القرآن عليهم من تزيف وتحريف وإفساد لاتجاه رسالة الإسلام منذ جاءت على يد إبراهيم عليه السلام ولسانه وما حاولوه لينقلوا برسالة موسى عليه السلام التى جاءت على طريق الله الصحيح إلى محاورهم العنصرية التى حرقت التوراة ووقفت موقف المعارضة بما أنزل الله على موسى عليه السلام ومحمد ﷺ .

فهم يعرفون تاريخ إبراهيم عليه السلام تحريفاً يؤيدون به دعواهم الباطلة في أن يجعلوا وعد الله له ولذريته (إسماعيل وإسحق) قاصراً على أبناء إسحق وحدهم وينكرون رحلته إلى مكة وبنائه المسكية والبيت الحرام مع ابنه إسماعيل ويدعون أن الوعد لابناء إسرائيل وحدهم ، ومن ثم فهم ينسكرون عالمية الرسالة الإسلامية ويتهمون الإسلام بأنه قام على السيف ويعرفون موقف الرسول والمسلمين من الصلاة إلى بيت المقدس إلى عهد ذلك من القضايا التى ينهرونها بمفهوم التعصب والخصومة .

(٣)

ولا يقف الاستشراق اليهودى عند تزيف تاريخ الإسلام بل إنه يعتمد إلى مهاجمة واقع العرب القائم

باعتبارهم هم العدو الموجه لهم وخمسة منهم الأول، ويركزون على انتقاص الوجود العربي ووصفه بالتأخر ويحاولون خنق خصوصية بين العرب وبين أهل الغرب، ويتزعم هذه الدعوة كثيرون من كتابهم وفي مقدمتهم المستشرق برنارد لويس منحه الجامعة الصهيونية الدكتوراه الفخرية تقديراً لجهوده في خدمة الصهيونية ولعل أخطر أبحاث برنارد لويس : هو بحثه عن المساواة العنصرية في الإسلام في محاولة لتصوير الإسلام بأنه دعوة عنصرية معتمداً على بعض نصوص مقتطعة من سياقها من كتاب الأغاني وبعض كتب المحاضرات كالمجلد برنارد لويس في الاستدلال على نظريته بأحاديث مكذوبة عن الرسول وبعض الأمثلة السائرة التي لا يمكن أن تكون سنداً علمياً صحيحاً وهو في سبيل تأكيد رأيه يبتل قيمة الأحاديث الصحيحة التي جمعها ثقافة المسلم .

ولاريب أن موقف الرسول من بلال وصهيب وسلمان الفارسي معروف وكذلك موقفه من حادثة أبي ذر مع بلال ومن قوله لا إله إلا الله لا إله إلا الله على حجر ولا لا يبيض على أسود إلا بالقوى .

وقول الرسول : إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بالآباء . وقوله ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية . وركز برنارد لويس على تصوير العربي بصورة عبية وحاول استعلاء العالم الغربي على العرب بالإدعاء بأنهم شعب من المميج وأن اليهود أحق بأرض فلسطين وصحراء فلسطين منهم لأنهم مشتمدون . وهو في بحثه عن العربي في مقدمة كتاب (العرب في التاريخ) يدور ويأف ليحاول القول بأن العربي هو البدوي لا غير فيقول : أن العرب بالنسبة لمحمد ومعاصريه هم البدو سكان الصحراء وقد استعمل القرآن هذا النص (أي العرب) على التخصيص في هذا المعنى ولم يستعمله قط ليدل على سكان مكة والمدينة والمدن الأخرى .

ولاريب أن برنارد لويس يكشف بهذا القول عن تعصبه وعناده ذلك أن القرآن فرق بين لفظ عربي ولفظ الأعراب . وهو في هذا يحاول لصق صفة البداوة بالعربي حتى يظل الغربيون ينظرون إلى العرب هذه النظرة وفي لسان العرب وتاج العروس أن لفظ عرب اسم جنس يطلق على هذا الجنس من الناس الذين يقطنون بلاد العرب سواء كانوا بدوا أم حضراً وأن هناك تفرقاً بين عربي وأعرابي، وأن ذكر الأعراب تحديد لسكان الصحراء الرحل وقد جاء في القرآن هنر مرات وأنه لا يجوز أن يقال المهاجرين والأعراب وإنما هم عرب لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن (أورد هذا التعليق الأستاذ جلال مظهر) .

(٤)

حاولت الصهيونية منذ وقت باكر تركيز دعاتهم الاستشراق اليهودي في البلاد العربية وفرض مفاهيمها من خلاله . وقد فتح الدكتور طه حسين هذا الباب واسماً حين أتى العديد من محاضراته عن أثر اليهود في الأدب العربي ودورهم في الجزيرة العربية وتبعه في هذا نهضة اليهودي لإسرائيل وانفسون

كما عمل في هذا الميدان بمثابرة شديدة خرجوا مدارس الرسائل التابعة للبروتستانت والذين يؤمنون بدعوى اليهود من أن لهم حقاً في فلسطين ويعطفون عليهم وفي مقدمة هؤلاء رجال الصحافة منهم أمثال صروف ونمر ومكاريوس وتقلا وزيدان وسركيس وغيرهم الذين كانوا قد ألبسوا في مختلف أنحاء البلاد العربية وبدأ الحديث عما يسمى إذ ذاك (إحياء الآداب العبرانية ونشرها) وافتد شهد اطني السيد مثلا عن الجامعة المصرية افتتاح الجامعة العبرية في القدس كما احتفل بموسى بزميدون في الأوبرا المصرية في تنظيم حشد له أعلام الأدب والصحافة والجامعة وكان لإنشاء كرمي لدراسة ما أطلق عليه اللغات السامية في الجامعة عملاً من أهم الأعمال في نشر اللغة العبرية وآدابها وخلق المقارنات بينها وبين اللغة العربية وكذلك ظهر أمثال هلال فارسي ومراد فرج وإبراهيم شمس يدعون إلى إحياء الفكر اليهودي بسينوزا وغيره ويتحدثون عن تاريخ اليهود في جزيرة العرب ومصادر التاريخ الإسلامي وانضم إليهم إسماعيل آدم أحد واتسع نطاق البحث حول ما أسماه طه حسين (المستعمرات اليهودية في الجزيرة العربية) التي أثرت تأثيراً قوياً في الحياة العقلية والأدبية لجاهليين من أهل الحجاز وكتب مراد فرج: ما أسماه الشعراء اليهود العرب (١٩٣٩) جمع فيه عدداً من الشعراء القدماء وكان ذلك في مجال الاستشراق اليهودي عملاً لكتاب الشعراء الفصاري العرب الذي ألفه لويس شيخو.

وعقد في موناكو بإيطاليا مؤتمر اهتمت به الصحافة المصرية اهتماماً كبيراً أطلق عليه مؤتمر ثقافات البحر المتوسط وبرزت في هذا المؤتمر الدعوة السامية في الدين واللغة. وتمددت كتابات الأدباء عن آثار (ماكس نوردر) خليفة هرتزل فكتب عنه المازني والعقاد وإسماعيل مظهر عديداً من الفصول وتمددت الكتابات في الأهرام والمقام وصحف دار الهلال عن اللغات السامية وعلمية يهودا وعن هدد الفرجات التي نقلت إليها التوراة في متابعة مستمرة وقد عمل في هذا المجال كثير من الكتاب العرب الماسون أمثال محمود هزمي، وفيلسوف قارس وأمين الريحاني في بحث واستدراج وبدأ اهتمام الصحف بأمثال أميل ليفوفيج وفرويد وكارل ماركس. وبدأ طابع المعطف على الصهيونية من خلال الحديث عن اضطهادهم في أوروبا وعلقت نفمة كاذبة بالقول بأن اليهود أبناء همومة العرب وأن اليهود يدافعون عن السامية إزاء الآرية التي هي أساس الحضارة الغربية وأن الثقافة السامية هي مزيج من الثقافة العربية والعبرانية، بدعوى أن هناك ما يسمى بالحضارة السامية العربية اليهودية التي سادت التفكير الآري في أوروبا. ولاريد كانت هذه دعاوى باطلة فلم يكن لليهود أي أثر في الفكر الإسلامي الذي دخل أوروبا ولم تكن العبرانية أخت العربية ولم يكن لليهود ذلك الدور الذي خلعه عليهم طه حسين في الأدب العربي والحياة العربية قبل الإسلام وإذا كان لهم دور فهو دور للنقل من الفكر الإسلامي والأدب العربي، ووجدنا أمثال جاستون زناهرى وقدمى كوهين يدعون إلى ما أطلقوا عليه (الجامعة السامية) عام ١٩٢٩ وتقول الأبحاث المتعددة التي نشرت عنها أنها ترمي إلى إلهاء اتحاد سامي يضم جميع البلاد الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والإقيا نرس الهندي وإيران وتركيا وبين هذه الولايات المتحدة في الشرق الأدنى توجد ولاية يهودية كبرى تسم أبناء إسرائيل والدعوة إلى اتفاق العنصرين العربي واليهودي.

وقد انزلق كثير من الكتاب والوعاء إلى تقبل هذه الدعوى ومن هؤلاء فيصل بن الحسين وأحد زكي باشا شيخ العروبة وغيرهم ممن خدعهم القويمة الصهيونية الذي لم يستطع أن يستمر طويلاً والذي كشفت الحقائق عن فسادها وعن العدوانية الضارية التي بدأت بها الصهيونية رحلتها في الأرض العربية . كذلك جاءت كتابات دوزي ومارجليوث وصوريني لتناول صلة الإسرائيليين بالعرب في الجزيرة العربية وفي أرض كنعان في مغالطات وادعاءات باطلة ترمي إلى القول بأنه كان لليهود وجود في الجزيرة العربية ، وتشكر الحقيقة الواضحة وهي أن اليهود هاجروا من الشمال إلى الجنوب بعد أن حطم الرومان هيكل سليمان المرة الأخيرة عام ٨٠ ميلادية .

وقد حاول دوزي أن ينهر دعاوى باطلة ليس لها ما يؤيدها من دليل مثل ادعاءه أن المكعبة حديثة العهد عن عصر إبراهيم وإسماعيل وادعاءه إلهية القوى بين اليهود وأهل مكة وغير ذلك من كاذب الدعاوى التي استخدمت لحساب الصهيونية ، وأنه مهما كان يوجد في جزيرة العرب من فول يهودية هربت منذ هجوم بوختنصر عليهم إلى أرض الجزيرة العربية فإن ذلك لا يمثل (وجود يهودي) أصيل في بلاد العرب ، وإنما عاش اليهود في الجزيرة العربية غرباء ممزواين ، ولم يتركوا أسلوبيهم في الغدر والحيانة والإيقاع بين القبائل والطوائف ، ولذلك كانوا موضع الكراهية والاحتقار حتى جاء رسول الله إلى المدينة فأكرمهم وعقد معهم هدناً بالآمان ولكنهم لم يتركوا أسباب خيانتهم فسرطان ما تعاونوا مع خصوم الإسلام وتآمروا مع قريش ضد المجتمع الإسلامي ، بل إنهم تأثروا على الرسول نفسه لقتله والقضاء عليه في أكثر من مؤامرة مما حمل النبي إلى إجلالهم .

ولذلك فإن كل ما ألفاه الاستشراق اليهودي من القول بارتباط اليهود بالعرب وتعاونهم قبل الإسلام وبعده كان من أضاليل التاريخ التي جرت محاولة إذاعتها بالباطل في عملية خداع واسعة وكاذبة . وقد وجدت هذه المحاولة مواجهة ضخمة من حركة اليقظة الإسلامية كشفت زيفها وحضت شبهاتها وسومها ، أولاً : تبين أن ما كتبه إسرائيل ولفنسون في كتابة (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) هو بمثابة حلقة من حلقات الدعاية اليهودية التي نشرتها الصهيونية في العالم العربي وأنه لم يكن بحثاً علمياً بالمعنى المفهوم . ثانياً : تبين كذب دعوى الاستشراق الصهيوني في القول بأن اليهود أثروا ، الأدب العربي ، وأنهم قالوا كثيراً من الشعر في الدين وبعاء العرب وأنهم انتحلوا شعراً للإثبات سابقة لهم في الجاهلية . وقد كشف الدكتور فؤاد حسنين حقيقة موقف اليهود على هذا النحو الذي يدل على أنهم سرقوا من كل الحضارات وكانوا حالة على كل المذنبات فقد نقل اليهود من بابل وأشور وشريرة حورابو ومن مصر الفراعنة الكثير مما وضعوه في سفر التثنية ولما عاد اليهود من السبي البابلي نقلوا معهم من العرب البابليين الفراعنة الكثير مما نجد في كتابهم المقدس ، ومن المعنيين السبأيين نقلوا العمارة وهندسة الري والتجارة وقصة ملكة سبأ ، والدور الذي تلعبه في تاريخ الإسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد . والتاريخ اليهودي يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجهه الطفلة من حكام فلسطين أو فرجاً من اضطهاد اليونان والرومان فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية

فوجدوا أهلاً وسهلاً لهذه القبائل اليهودية التي كانت تنزل بيثرب وخيبر ووادي القرى، والتي وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التي مرت بهم منذ ووال دولتهم ولغتهم المقدسة تذوق اللغة العبرية وتجدد بها حتى أصبح من المؤلفين لدى اليهودى أن يميز عن أفسكاره وشعوره في أمة ركيكة هي خليط من العبرية والسكندانية واليونانية خالط ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية، فما كان أولئك اليهود يستطيعون قول الشعر أو إجادة النثر فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع بأخذ اليهود من جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأولون بأدب عربى ويتطعمون بطباخ عربية، وقد فتح العرب أمام اليهود دور العلم على مصراعيها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الصغراء والكبراء وانسابوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض علماء العرب يلقنون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم.

ويحدثنا التاريخ اليهودى أن الإسلام أحسن معاملة اليهود، وحتى أولئك الذين اضطروا للفرار والختفاء الراشدين إلى إجلالهم عن قلب الجزيرة العربية تأمينا لرسالة الإسلام وأتباعه فقد قطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام على كرم وجهه، الأراضي الواسعة بالقرب من السكوفة وعلى ضفاف الفرات بما دفع المؤرخ اليهودى الشهير جريتر إلى الإشادة بمعدالة العرب وإنسانيتهم في كتابه تاريخ اليهود فقال إن تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابق للنبوة المحمدية وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة في التاريخ اليهودى : لقد وزع عمر أراضي اليهود على المسلمين المحاربين وهو ض اليهود المطرودين - وهذه هي العدالة - أرضاً أخرى بالقرب من السكوفة على الفرات حوالى ٦٤٠ م : حقاً رب ضارة نافعة أن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها .

وهكذا نجد أن العرب هم الذين أمدوم العربية بعد الله كانوا يرطنون خليطاً لاثرياً ولا هرياً ولا سامياً ولا هندياً ولا أوربياً، والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوى ورفعوا مستواهم الأدبى فكانهم من خلق ملحة أدبية . وهكذا نجد أن كل شبهات اليهود ودعاواهم باطلة بالدليل والبرهان . وأن كل محاولاتهم في احتواء عدد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية لم يحقق لهم شيئاً ذا بال وأن الأمر قد انكشف عن فساد كل هذه الدعاوى . وقد أشار الدكتور حسن ظاظا إلى أن الصهيونية حاولت احتواء عدد من أمثال ولفنسون، شادة، برجستراسر، جويدى، كراوس، شاخنت، وغيرهم، كما تلذ طعيم عدد من الأسانذة العرب من أمثال على الضائى ومراد كامل ويحيى ناهى وغيرهم بما يدله دلالة قاطعة على ما بين الاستشراق والصهيونية من صلات يراد بها النفاذ إلى الفكر الإسلامى . واقد كان للدكتور فؤاد حنين صلة بالدراسات الصهيونية ولكننا نرى أنه كشف زيفهم في بحثه الذى أوردناه الآن .

وقد ذكر الدكتور اسماعيلوفيتش في أطروحة عن الاستشراق : أن أكثر المستشرقين الذين قاموا بدراسة الأدب العربى القديم والحديث هم اليهود :

ليني ، وفنساله ، وبول كراوس ، وإسرائيل وانفلسون ، كما أشار إلى أن أغلب هؤلاء : بريل ودوركايم وجوله زيهير ومرجليوث وبرنارد لويس وردونسون وغيرهم كانوا أساتذة لعدد من أعضاء البعثات العربية إلى الجامعات الغربية مثل طه حسين ومنصور فهمي وزكي مبارك ومحمود عزمي .

وإذا كنا قد أثرنا إلى دور الاستشراق الصهيوني في مجال الجامعات فإن دوره كان أكثر قوة في مجال الصحافة فقد كان جرجي زيدان واسكندر مكاربوس ويعقوب حروف وفارس نمر من أعيان المحافل الماسونية ولا كثرهم كتابات ومؤلفات وقد أصدر مكاربوس مجلة اللطائف في أول أمرها مجلة هالصة ثم حولها بعد الحرب العالمية الأولى لخدمة الاستعمار البريطاني والحلفاء وتأيدهم ونشر صور انتصاراتهم وكانت تطبع منها مئات الألوف وتنتقل بالطرقات لتوزع على معسكرات الجيوش المتحاففة . وكان داود بركات رئيس تحرير الأهرام أكثر من الثلاثين عاماً من أقرام الصحافة ودعايق الاستعمار وأولياء النفوذ الفرنسي كما كان فارس نمر وحروف وخليل ثابت من أولياء النفوذ البريطاني واسكنهم ومعه جرجي زيدان يعملون لغاية أكبر وأبعد من النفوذ الفرنسي والبريطاني ذلك هو النفوذ الصهيوني ، وهو دس السموم الخطيرة ثم يدعون بعض الكتاب المصريين ليجرونها بأسمائهم مؤيدين لتبشير وحارفين بحريات الأمور بالنسبة لترجمة التوراة ونشرها ، وبالنسبة للدعوة إلى ما أسموه اللغات السامية أو الجامعة السامية أو الروابط بين المسيحية والصهيونية ذلك لأن أغلب هؤلاء كانوا من المتخرجين في الجامعة الأمريكية في بيروت ذات الاتجاه البروتستانتي الموالي للصهيونية .

وإذا التفتنا إلى أثر الاستشراق اليهودي وجدنا أن رسالة طه حسين عن ابن خلدون وضعت تحت إشراف مستشرق يهودي هو دوركايم وأنها حملت على النيل من هذا الرائد العظيم وتوجيه الاتهام والشكوك إلى عمله العظيم وأن رسالة منصور فهمي وضعت تحت إشراف مستشرق يهودي هو ابني بريل وكان قد اتخذه من تعدد زوجات النبي منطلقاً للإتهام وقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية هذه المحاولة بالشجب والتفنيد وعرف منصور فهمي خبيثة المؤامرة بعد وقت ، ويتصل بهذا المخطط تلك الكتابات المؤيدة والمحبذة للبهائية التي كانت قد استقرت في فلسطين لخدمة أهداف الصهيونية وكذلك في الحملة على السلطان عبد الحميد الذي قاوم إغراءات ومطامع الصهيونية ثم ظهرت مقالات الحلال عن الحل اليهودي للمشكلة الصهيونية ثم الحملة على العرب التي وجهها أحد أمين ونوفيق الحسكيم .

وكان للتراث دور في هذا المخطط أبرزه : إعادة طبع جزء واحد من كتاب أنساب الاشراف للبلاذري للاعتناء عليه في إثارة قصة عبدة بن سبأ على النحو الذي كتبه عنها طه حسين في كتابه : (الفتنة الكبرى) قام للاميد الشرقي بالجامعة العبرية بالقدس بنشر الجزء الخامس من كتاب أنساب الاشراف ، وقد كان اختيار هذا الجزء وحده دون سائر الكتاب موضع الإشتباه . ولكن الامر تبين تماماً بعد أن كتب طه حسين معتمداً على كتاب البلاذري منكر وجود شخصية عبدة بن سبأ لأن البلاذري لم يورد ما في هذا الجزء وقد كشف الأستاذ محمد محمود شاكر هذا الادعاء وأشار إلى أن البلاذري ربما ذكر أمر عبدة بن سبأ في أي جزء من الأجزاء الأخرى .

(٥)

وفي السنوات الأخيرة حدثت الصهيونية إلى السيطرة على مؤتمرات الاستشراق وفرض وجهة نظرها ورجالها وقد شاركهم في هذا الاستشراق الروسي ، وقد أشار أحد الباحثين الذين حضروا مؤتمر المستشرقين الذي عقد في كبردج ١٩٥٥ إلى هذه الظاهرة الخطيرة فقال : دلت الممازلات التي وقعت في مؤتمر المستشرقين المنعقد في أغسطس ١٩٥٥ بمدينة كمبردج على أن الاستشراق أخذ ينحط فقد أثبت فيه يهود مغرضون وروس يهود متعصبون جاءوا لابتس الحماية الرخيصة . وقد كثر الأعضاء اليهود الذين جاءوا من مختلف البلدان يحملون في قلوبهم التعصب الإسرائيلي المنافي لأخلاق العلماء ، وقد زعم أحدهم أن قصر الحمراء الذي شيده ملوك بني نصر في غرناطة هو من صنع اليهود ، ولما عوقف لليهودى في دهواه تبين أنه على قوله من فرض الخيال مدفوعاً إلى ذلك بسقطة التعصب . أما مهولة الممازلات التي أتيج لها أن تمثل في مؤتمر المستشرقين هذا فهي أكاذيب ، وسكو على صدر الإسلام وادعاءها أن مسيئة الكذاب كانه تأييد مباشر في آيات القرآن وأنه كان قبل استاذاً ثم خليفة لخاتم رسل الله إلى غير ذلك من السفساف التي تحول بها مؤتمر المستشرقين إلى بيئة لا يليق بمن ينسب إلى العلم أن يتعاون معها ، ويتصل بهذا تهديد الصهيونية لعدد من المستشرقين الغربيين لخدمة أهداف الصهيونية وأمامى في هذا الصدد الفريد جيوم وجوستاف فون جرينباوم . أما الفريد جيوم فقد استخدمته الصهيونية في تأليف كتاب يهد به على كتاب (حجب) الحمديّة ومع أن كتاب حجب لا ينصف الإسلام وإنما يرفع عن لبس الإسلام بعض الاتهامات فقد أثار غضب اليهود والكنعانيين أكثر من غيرهم وقد نشرت دار النشر اليهودية (بنجوين) كتاب جيوم مرتين ولم تشر كتاب حجب .

وقد أعطته إسرائيل وساماً من الحكومة الإنجليزية ، يقول الدكتور عبد الجليل شلي أنه تخرج من أكسفورد واتصل بقمع الدراسات اللاهوتية والعبثية فيها ويبدو أنه من ذلك الوقت صهر في بركة يهودية وأصبح لا يهودياً فقط بل صهيونياً أشد تمسكاً من الصهيونيين وأذى لليهودية من اليهود ، ومن مؤلفاته كتابة الأحاديث النبوية وأثر اليهودية في الإسلام . ومن تاريخه أنه كان عضواً في مجمع اللغة في دمشق والقاهرة وبغداد وأنه كان مدرساً في الجامعة الأمريكية في بيروت وقد عمل طوال الحرب في المنابرات الإنجليزية بالشرق الأوسط إلى جانب حملة في مدارس التبشير وتلاميذه كانوا يعملون في الكنائس الشرقية . ويقول الدكتور عبد الجليل شلي أنه يجرى في ذلك المخطط الذي يقوم به اليهود والذي يرمى إلى تحطيم الأديان كافة ، ولأن اليهودية نفسها ديانة غير منتشرة لا تقبل بين أفرادها من ليسوا من سلالة اليهود فكثيراً ما يبدأ اليهودي بتفدية اليهودية وتحطيمها ولكن هذا مجرد قناع يتذرع به إلى الديانات الأخرى بينما هو مصر على دينه وعنصره وهذه الحركة أصبحت معروفة ويظهر أنها نشأت مع موجة الفكر للمادى منذ القرن الثامن عشر أو نتيجة لها . ولكن مما لا ريب فيه أن هناك تركيزاً أقوى على عاربة الإسلام فهذا التركيز ليس إلا نوحاً من الأسلحة الصهيونية . أما جوستاف فون جرينباوم فإنه يختلف عن المستشرقين الغربيين الذين يردون أصول الحضارة إلى الأصلين الإغريقي والروماني فإنه يضيف

إلى ذلك أصلاً ثالثاً هو تاريخ بني إسرائيل . ولا ريب أن التقسيم قد اعتمدته فرير في دراسة الخرافة والفلكور والأساطير القديمة ولكنه لا يكون صحيحاً في دراسة الحضارات ذلك أن اليهود كانوا حالة على الحضارة اليونانية بشهادة كل الباحثين والمؤرخين أمثال جوستاف لوبون وتوينبي وغيرهما . ويحاول جرونيام أن يربط بين المسيحية وبين التوراة ويدعى أنها مقدمة طبيعية ومسلم بها الإلهيبل وهو ادعاء باطل ولقد ثبت أن هناك عشرات التناقضات بين الكتابين ولكن اليهود عمدوا منذ وقت بعيد إلى الربط بينهما وإلزام البروتستانت والإنجيليين بهذا الربط وجعلوا في ذلك مادة في دراسات الجامعات وللعماد حتى يتمكنوا من احتواء الأجيال الجديدة من المسيحيين إلى دعواهم ومفاهيمهم الواقة .

والمعروف أن الحضارة العالمية القائمة الآن ذات مصادر إسلامية وأن المسيحيين والأوربيين هم الذين قاموا على تدميرها أما اليهود فلم يحضروا هذا العصر ولم يشاركوا في هذا العمل فقد كانوا مطرودين إذ ذاك من أوروبا فلما عادوا أنشأوا عليه عصر التنوير وهو عصر قام على أساس العلمانية المادية في النظرة إلى الأشياء وإخراج أوروبا من الدين بعامه إلى الفلسفة المادية وأن اليهود ليس لهم دور حقيقي في الحضارة إلا السيطرة عليها وإنشاء المذاهب الاجتماعية التي يرمون فيها تصوير الإنسان بصورة انداء الجنس في فلسفة فرويد أو انداء الطعام في فلسفة ماركس . وهكذا نجد أن محاولة جرونيام باعتبار اليهودية أصلاً للحضارة أ كذوبة ضخمة دحضها كتاب الغرب ، ولقد كان جرونيام عادماً الصهيونية جرياً مع كبار رجال الاستشراق اليهودي يحاول أن يحجب الحضارة الإسلامية عن دورها الأصيل وهي محاولة تبوء الآن بأشد الفشل بعد أن ظهر من مفكرى الغرب من يقررها ويؤمن بها ويعتذر عن مؤامرة الصمت التي قام بها الغرب ضد إعلان فضل المسلمين . ولستطيع أن نشهد إلى مخططات الاستشراق الروسي الذي احتفل بالذكرى التسعين لأقدم الجمعيات الاستشرافية التي تأسست ١٨٨٧ لقيام بنشاط في هذه المنطقة منذ ١٨٥٨ حيث أنشئت لجنة فلسطين حيث كانت روسيا تقوم باشتداع الوسائل لكي تقدم في القدس مأوى ومستشفيات للحجاج وإنهاء عصر البعثة الأرثوذكسية الروسية . وبواسطة اللجنة الاستشرافية الفلسطينية من إنشاء أ كثر من مائة مدرسة في أقطار الشرق الأوسط كان يطرقها حسب تقدير رسمي ١٠ آلاف تلميذ . كذلك فقد كوّنت الجمعية أفواجا من المستشرقين الروس اللامعين الذين اهتموا بالتاريخ والآداب العربية ، وفي ١٨٩١ نظمت بعثة أثرية إلى سوريا وفلسطين لدراسة الآثار القديمة وارتبطت أعمال الجمعية الفلسطينية الروسية ارتباطاً وثيقاً بالدراسات العربية في روسيا أمثال ستروف وكراسكوفسكي ، وبور تشيف ، تولستوف ، بليينو نغساليا ، وكان من أهم أعمالها بحث تأييد الهداية المصرية في نظرية التوحيد في الكتاب المقدس . ومن أبرز المستشرقين اليهود الماركسيين : جارودي وردنسون . ويحاول هذا الاستشراق اليهودي الماركسي تفسير الإسلام نفسه أ ماركسياً في محاولة تنفض من طوابقه واتجاهاته ، في نفس الوقت الذي يدعى فيه جارودي وردنسون أنهم أصدقاء العرب ، غير أن كتابة ردنسون في كتابه عن الإسلام والماركسية تبدو مسمومة عنيفة التمهصب والحق لا أنها تجمع بين الحق اليهودي والحق الماركسي ، وهو يصل في حقه إلى أن ينفي تقياً كاملاً أى علاقة بين الإسلام والحياة الاقتصادية للمسلمين ويدعى أن القرآن حيادي بالنسبة للاقتصاد ، وأبرز أخطائه هو

المخاطب بين عقيدة الإسلام وواقع المسلمين اليوم ، وتجاهله الحقيقة ومغالطته التي تقوم على أن واقع المسلمين ثمة عقيدتهم ودينهم ، وأن الإسلام قد طبق في فترات متعددة فكان كأروع ما يكون في نظام الاقتصاد والاجتماع وإن نفى الربا في المجتمع الإسلامي خلال العصر الحديث إنما كان نتيجة لسيطرة اليهودية العالمية على الاستثمار والاوضاع السياسية التي ظهرت في ظل الاستعمار البريطاني والفرنسي والهندي في العالم الإسلامي ، وفي هذه المرحلة - حجت الشريعة الإسلامية عن التطبيق ولا ريب أن هذه المرحلة لا تكون موضع محاسبة الإسلام من فساد المجتمع وهي كما يقول بعض الكتاب بمثابة بقعة ظلام في محيط نوراني . ولا ريب أن نظام الإسلام الاجتماعي والاقتصادي كان مثلاً عالياً في بناء المجتمع الرباني الذي ما زالت البشرية تنطلق إليه عندما قام على العدالة والأخاء والرحمة وهو ما تعمل الصهيونية والماركسية معاً على الحيلولة دون قيامه . وبالجملة فإن محاولة الاستشراق الصهيوني ترمي إلى تزييف وقائع التاريخ الإسلامي والعربي القديم وذلك بالسيطرة على دوائر المعارف العالمية والجامعات من أجل فرض نبوءات العهد القديم وفي سبيل فرض هذه النصوص من التوراة المكتوبة بأيدي الاحبار، والتلويح بربهم للاستشراق اليهودي دوره في تزييف الوعي الإسلامي وهم يركزون على العرب كأمة وقوة قائمة ويحاولون تهديم قيمها ومفهومها وتاريخها ويفسدون علاقتها بالغرب لتحقيق هدفهم في السيطرة على العالم الإسلامي وتركيز نفوذ امبراطورية الربا وخدمة أهداف الاستعمار الغربي والروسي على السواء ويرى الاستشراق الصهيوني أن تمزيق الأمة العربية فكرياً ونفوسياً وجغرافياً هو من أكبر الاهداف التي تقضى على وحدة العالم الإسلامي ، مما يمكنهم من السيطرة على فلسطين في طريق وثوبهم إلى ثروات العالم الإسلامي وقد حوى البروتوكول ١٤ الذي وضع عام ١٩٠٥ في بال مادة التآمر على شعوب العالم والسيطرة على الجويم باسم ملك داود .

الباب الثاني

سموم الاستشراق في الفكر الإسلامي

أولاً : الإسلام	ثانياً : الرسول	ثالثاً : القرآن	رابعاً : اللغة العربية
خامساً : التراث	سادساً : السنة	سابعاً : الحضارة .	
ثامناً : الشريعة	تاسعاً : الإدارة	عاشرأ : التاريخ .	

الفصل الأول

الإستشراق والإسلام

كان موقف الإستشراق من الإسلام موقفاً مستعداً من الفهم الديني الغربي أساساً وهو فهم قاصر ومحدود ومغلوط في نفس الوقت لأنه مأخوذ من التفسيرات التي قام بها الأحيار والرحمان لدين الله الحق، وهي تفسيرات تحول دون فهم الإسلام ديناً خاتماً للأديان المتباوية أو مصداقاً لما بين يديه من الأديان ذلك لأن هذه التفسيرات فصلت نفسها عن الإسلام بينما جاء الإسلام في كتب الأديان السابقة مرحلة تالية لها وجاءت رسالتها مبشرين به وبنييه ، ومن هنا فقد نظر الغربيون إلى الإسلام على أنه شيء معارض لما يعتقدون وماهو بمعارض ، ونظروا إلى أنه مأخوذ من كتبهم وماهو كذلك وإنما التفسير الصحيح هو أن الأديان كلها من عند الله ، وهي متكاملة كالمراحل يسلم بعضها إلى بعض حتى يكون الإسلام ختامها فالأصول العامة لدين الله في العقيدة واحدة ولذلك فلا عجب أن تلتقي فيه الأديان كلها وإن اختلفت في الشرائع والنظم، ومن هنا يغير المستشرقون الشبهات: شبهات مصدرها هذا الالتقاء في الأصول وإن تبين بعد أن وجه المقارنة مفقود من حيث أن القرآن كتاب سماوي وفهمه من الكتب قد أصابها التحريف .

(٢) ويذهب المستشرقون إلى فهم الإسلام فهماً مادياً خالصاً فهم ينكرون الوحي وينكرون النبوة وينكرون المصدر الرباني للقرآن وهم في ذلك يصدرون عن مفهومهم المحدود للأديان الأخرى حيث يوصف الإنجيل بأنه من كلام الرسل وحيث تحتلط المفاهيم في العلاقة بين الألوهية والنبوة . ويحاول المستشرقون تحليل معجزة الإسلام البكاسحة في الانتشار السريع في العالم وفي الجزيرة العربية بتعطيل بحال الحقيقة ويقال من حقيقة ذلك الأثر الذي أحدثه دين الله الحق في البشرية وخاصة في الشعوب المغلوبة التي حررها الإسلام من ظلم الرومان فيصورون ذلك بأن العرب كانت جاهلة ولها حضارة وأنها

كأن مستعدة للنهوض فلما جاء الرسول ﷺ قادها إلى النهوض فهزفت . وهذا التعليل لا يصور الحقيقة أساساً فضلاً عن أنه يقلل من أهمية الرسالة الإسلامية التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ، وبين أيدينا تاريخ الدعوة الإسلامية وكيف قاومها العرب ثلاثة عشر عاماً كاملة حتى اضطر الرسول إلى البحث عن بيئة أخرى تكون أكثر قابلية لدعوة الله وقد وجد ذلك في يثرب بعد أن عاند أهل مكة عناداً شديداً وعارضوا دعوة الله معارضة بالغة ولم يكونوا في حقيقة حياتهم مستعدين على النهوض الذي يعين على النهوض بل كانوا يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة ويثدنون البنات ويشربون الخمر ويقتلون ويرجون فلم يكونوا على أي وجه على صورة من صور الاستعداد للنهوض ولكن الإسلام هو الذي نقلهم هذه النقلة السريعة الخطيرة إلى الإيمان بالله وربهم على التصحية والبذل حتى إذا ما انطلقوا فتحت أمامهم أبواب الممالك وتقبلهم أهلها رضاء بهم وثقة في عدلهم ورحمتهم . ولقد أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً للجاهلية وحياة البداوة قبل الإسلام ، وأهم بالوثنية العربية ، وحاول أن يتخذ منها منافذ للدرس في عتبات المجالات وخاصة في مجال الشريعة ، لحاول أن يصور الجاهلية بأنها عصر البطولة كما عبر عن ذلك هاملتون جب ، مستهدفاً لإظهار بعض جوانب القوة والغنى في حياة الجاهلية ، ولا يجب أن تكون في الحياة الجاهلية جوانب قوة وهي بقية ما تركته الأديان من آثار خلقية واجتماعية وخاصة دين إبراهيم وإسماعيل الذي ظلت بقاياها قائمة في نفوس كثير من العرب حتى جاءت الرسالة الخاتمة . ولقد حاول الاستشراق إعلاء الجاهلية واعتبار الإسلام اقتباساً منها وخاصة ما حاولوا التشكيك فيه بما يتصل بآثار صلة المسلمين باليهود في المدينة ، كما أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً بالأديان السابقة للإسلام وبالفلسفة والمناذرة بالذات في طريق الإدعاء بأن المسلمين عرفوا عن طريقهم شيء من المكتبة القديمة .

(٣) ومن أخطاء الاستشراق ما يذهب إليه هاملتون جب في كتابه (بنية الفكر الديني في الإسلام) حين يقول أن الإسلام جاء ليضفي الصفة الدينية على تلك الأحياء العربية القديمة التي نسجت الأعراف والبيئة بعد أن لم يستطع النبي عليه السلام أن يتخلص منها ، ويقصد بالاحيائية القديمة تلك العقائد الروحية الخرافية كالسحر والتنجيم والكهانة . ولا ريب أن المستشرق جب قد اتخذ نفس طريقة الاستشراق التقليدية في أن يقدم فرضيات مسبقة ثم يحاول البحث عن نصوص وفرائد لكي يضعها موضع القطع واليقين لا يبالي في ذلك تزيف الأدلة أو نقصها أو نقل شطر منها وترك شطر آخر كما فعل فسيحا نقل في تأييد رأيه هذا من كتاب حجة الله البالغة لشمس ولي الله الدهلوي ، بينما لم تبعده السطور بعد ذلك عن نفى ما ذهب إليه . وقد ذهب جب إلى هذه الآراء من خلال افتراضه أن محمداً لم يكن نبياً ، وأن ما كان لدى العرب من بقايا عهد إبراهيم إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التي ابتدعوها من عند أنفسهم وقال أن تقديم الحكمة ليس أثراً من آثار دعوة إبراهيم وإنما هو شيء نسجت البيئة العربية فسكان تقليداً ، وفرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية وأن ما جاء عنها في القرآن والأخبار مجرد وهم ، وتعتمد تحريف الكلم عن مواضعه فنقل عبارة مغمورة من كلام طرزي . وتبدو غلبة الهوى على الاستشراق في معارضته للمحقق السكبري البارزة ، وحيث ينتصر المسلمون في جميع معاركهم وأعدادهم أقل من أعداد عدوهم بمراحل كنهية يحمي مثل الجنرال جلوب في كتابه الفتوحات العربية السكبري ليشير شبهة تخلف المسلمين من

لاحية الفن العسكري بينما هرف المسلمون بالافتقار في مجال العسكرية وأساليب الحرب وقد اعترف لهم المنصفون بالفن العسكري المتطور والقيادات الاستراتيجية والتكتيكية على أعلى مستوى . بل لقد انضمت الحروب التي عاينها المسلمون والمرب أيام الفتوحات الأولى بمزايا سبقت أو أنها بعصور (علم الحرب : لمنه شفيق) فقد قفز المسلمون في العصر الأول بفن الحرب قفزة هائلة على أية قوة سبقتها وقد بقيت أرقى من أي قوة بعدها حتى جاء نابليون : ولم يكن في الجهاد الإسلامي جانب الفن العسكري وحده وإنما كان إلى جانب ذلك الإيمان والحاسة التي تقوم على الرغبة في الاستفهام .

(٤) ويحاول بعض المستشرقين أن يثير شبهة الترابط بين الدنيا والآخرة في الإسلام بأنه انصراف عن الدنيا فيقول قرن جروبياوم : أن الإسلام يدعو المسلمين إلى الانصراف عن الدنيا ومظاهرها ويدهوهم إلى تركيز العمل من أجل الآخرة ونعيمها المقيم ، وهذه النظرة إلى الحياة يكون كل ما فيها عرض زائل بما فيه العلم والأدب والسياسة والاقتصاد أما الجوهر فهو عبادة الله من صوم وصلاة . ويرد على هذا الدكتور ابراهيم أحمد رزقانة فيقول : أن هذا التفسير لتخلف المسلمين لا يتفق مع روح الإسلام : فالإسلام لا يغلب العبادة على العمل بل إنه يغلب العمل على العبادة . والمسلمون كانوا قادة العلم وكانوا وراء النهضة الأوروبية الحديثة ودودها بالواد العلمي الذي لولاه لما قامت هذه النهضة ثم كان رد الجويل أن استمرت أوروبا العالم الإسلامي وعملت على تخلفه ومنعه بالقوة العسكرية من أن يسير الركب العلمي والاقتصادي ، فالتخلف فرض على المسلمين من أعدائهم وليس من دينهم ولعل المسلمين في المستقبل القريب يقدمون الدليل على أن التخلف ليس من صفات دينهم بل إن دينهم هو دائماً سبب كل تقدم . ذلك أن الإسلام يدهو إلى الربط بين الفسك بالدين وبين القوة الدينية برباط وثيق ويعتبر التسك بالدين دعامة لتقدم في العلم والعمل والاقتصاد والسياسة . وإذا كان هناك انحراف في التطبيق فليس معنى ذلك أن العيب كامن في المسلمين أو أن التخلف أصبح نمطاً حضارياً ثابتاً عند المسلمين كما أراد جريناوم أن يقول ، بل إن تخلف المسلمين عرض تاريخي لا يلبث أن يزول بزوال أسبابه ، وأكبر دليل على ذلك أن المسلمين شاعرون بتخلفهم ، ولو كان التخلف نمطاً من أنماط حضارتهم لما شعروا به . المسلمون في مختلف أنحاء العالم يتكلمون عن التخلف ويكادون يقفون على سبيله الرئيسي بانصرافهم عن الإسلام وهو الانصراف الذي أغرام به الاستعمار الغربي ومدى استبعاد المسلمين للنقل من الحضارات الغربية ، وقد حرص كتاب الغرب على دفع المسلمين إلى النقل من الحضارات الأخرى وتباكيهم على أن المسلمين لا ينقلون قبل أن يستوثقوا من أن ما ينقلوه لا يتعارض مع أصول دينهم ، ٥١ .

(٥) تحت جناح الهوى ومن وراء مشاعر التعصب طالع المستشرقون مستقبل الإسلام وحاول السكته منهم القول بأن الإسلام لا مستقبل له . أعلن ذلك مرجايوت منذ عام ١٩٠٤ (لامنس) منذ عام ١٩٣٠ وكذبته الأحداث وتدفق الإسلام في قوة فانتعش نطاقه في إفريقيا وجنوب شرق آسيا وظهرت دول إسلامية جديدة في باكستان وأندونيسيا وغيرها وعاش الإسلام بعد أن ذهبت الخلافة وكانوا ينتبئون أنه سيستطاع سقوط الدولة العثمانية وكانوا يدعون أن الإسلام لا يبقى وإذا ترك نفسه إذا ما احتك بالقدن الحديث فإنه يموت لا عمالة ، واتصل الإسلام بالحضارة الحديثة طويلاً وتعداها

وكشف عن زيفها وتحرر من محاولات احتوائها وسيطرتها عليه وتهددت الفكرة الإسلامية مستعدة قوتها من منابها الأولى . وقالوا أن التبشير المسيحي الغربي سوف يقضى على الإسلام ، وعجز التبشير بكل قوته وماله وموارده أن يخرج مسلماً واحداً من دينه إلا من كان بطبيعته غير صادق الإيمان بالله ودخل المسلمون أفواجا في دين الله في بلاد لم يكن الدولة للإسلام فيها نفوذ وفي نفس المناطق التي يتفق فيها التبشير المسيحي الملايين وبينى المؤسسات وليس المسلمين فيها نفوذ ، ولكن الإسلام كان دائماً القادر على كسب النفوس بالفضيلة والبساطة ، وبالرغم مما ذهب إليه المستشرقون من أن التبشير غالب على الديانة الإسلامية فإن آثار هذا الاستغراب قد أخذت تنقاص وقد تنبه المسلمون إلى منابهم الأولى وإلى شريعتهم بطالبتهم بتطبيقها وأن الإسلام يتصاعد الآن بحيث يكشف عن جوهره في مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية بعد أن انكشفت المناهج الغربية عن فساد كثير وتخلف كبير كان دائماً . وعندما كان مرجليوث يتحدث عن الإسلام كان يردد قول برائيس السياسي المؤرخ من أن الإسلام لم يبق من عمره إلا قرنان وأن عدد أهله لا يقلون عن مائتي مليون نفس . وقد تضاعف عدد المسلمين الآن حتى بلغ ألف مليون في أصدق التقديرات . وقد اتسع الإسلام خلال هذه الفترة بالحسنى والاقتناع ومن تحت حراش الاستعمار ومن خلف مدافعه فعاد مرة أخرى إلى أوروبا واقتحم أمريكا ولم يبق مكان في القارات الخمس لم يرتفع فيه مناره ويهتف باسم الله أكبر ، يقول مرجليوث المستشرق اليهودي : لا يخلو قول القائلين بسرعة زهاب الإسلام من وجه يستدعي النظر ، وجعلوا أنه هو الحق الباقي على وجه الأرض وأن البشرية تتقدم الآن يوماً بعد يوم وبالعالم لتعرف بها وتتعظم كل الأساطير والأوهام والتفسيحات الباطلة ، وأن الإسلام قد تحرر من كثير من نفوذ الدول العظمى السياسي والعسكري وبقي يقاوم نفوذها الاقتصادي والثقافي . وحين يرى (لامنس) أن الخلافة الإسلامية وسقوطها سيكون بعيد الأثر على مستقبل الإسلام تكشف الأحداث عن زيف هذا التوقع وأن المسلمين قد أقاموا بعد سقوط الخلافة قوائم وحدة ولقاءات ومؤتمرات تعالج قضاياهم ، كما وقع التقارب بين السنة والشيعة على نحو أذهل المراقبين الذين كانوا يظنون أن دعوات الإقليمية والقومية الطيفة والفرقة المنهزمة ستقضي على وحدة المسلمين العسكرية وتنقسم ثقافتهم وعقائدهم وقد وجد المسلمون حلولاً صحيحة لمعضلات الخلاف بين العرب والإسلام وبين الفرعونية والعروبة وبين الفينية والإسلام . وقد كشفت التقديرات عن زيادة عدد المسلمين في السنوات الأخيرة زيادة كبرى على نحو يجعل لهذا التفوق للبشرى آثاراً بعيدة المدى في قوتهم ونفوهم مستقبليهم . وكذلك فقد عاد التعليم القرآني بتوسيع من جديد بعد أن توقف تحت تأثير المناهج الدراسية الغربية والعلمانية وقد تأكدت المسلمين حقيقة لاسبيل إلى تجاوزهم أن التقدم في عالم الإسلام لن يكون إلا في إطار الشريعة الإسلامية وفي محيط مفهومها الجامع بين العلم والدين والروح والمادة والدين والآخرة .

الفصل الثاني

الاستشراق والرسول

كانت شخصية الرسول ﷺ محور المخطط المسموم الذي حل لوائه الاستشراق في مراحل الختافة ، سواء في مرحلة التعبير الجارح أو في مرحلة للدأرة الكاذبة . يقول الأستاذ كامل هياذة : ظل الأوربيون في العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر يتناقلون أسنخف الأساطير عن الإسلام ويوجهون إلى مؤسسه أشع المسبات والشكك . ثم يرى أن الاستشراق قد أعلن من بعد ذلك أظاهرة بالتححرر من التعصب الدينى وادهى أنه يريد معرفة سيرة محمد كا يروها المسلمون أنفسهم ، وفي هذه المرحلة أخذ بعض الكتاب الغربيين منذ القرن ١٨ يتعاشون الأهم على شخص الرسول ويحاولون التزام العدل والإنصاف في الحكم عليه ، ولكنه يشهد بأنهم لم ينفذوا هذا الالتزام ويقول : ولا بد من الاعتراف بأن أكثر المستشرقين ظلوا دوماً يقصدون تشويه الحقيقة وطمسها . ونجد من يمرض حياة الرسول من وجهة النظر المسيحية (غليوم بوستل) ومنهم من يستقى معلوماته من المصادر الكنائسية (ميشيل بوديه) ومنهم من يقصد إلى التبشير بالمسيحية من خلال عرض سيرة الرسول (هوينجر) ومنهم من اختار ما يعتقد أن فيه مجالا للظن ، ثم أضاف إليه الأساطير السخيفة والمزاعم الوقحة ، وفي الاستشهاد بالآيات وجه اهتمامه إلى الآيات التي فيها ذكر للمسيحية فادعى مخالفتها لما ورد في الكتاب المقدس .

(٢)

وقد ركز المستشرقون على حلة مواقف في حياة الرسول ، منها التقائه بالراهب ببحيرا وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة : وقد زعموا أن الرسول عليه السلام التقى ببحيرا الراهب وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن . والمعروف أن لقاء النبي ﷺ بالراهب ببحيرا كان في سن التاسعة أو الثانية عشرة ، وهذه سن لا تسمح بقلقين أو تعاليم ، فضلا عن أنها لا تمكن من استيعاب المسائل الدينية بحيث يمكن أن يلقها الرسول من بعد على الناس . وعنه الذي صحبه في هذه الرحلة لم يكن يفارقه البتة فكيف تسنى لبحيرا أن ينفرد بالطفل ليعلمه ؟ وبالرغم من أن هذه الحادثة لا أهمية لها فإن المستشرقين يركزون عليها ويجمعون على معرفته بورقة بن نوفل ويصورون ورقة كداعية إلى النصرانية مع أن ورقة كان موحداً وهو الذي تنبأ للرسول بأنه النبي المنتظر الذي ينشر به المسيح عيسى بن مريم ، ولو كان محمد قد أخذ من ورقة لروج ذلك أهدافه من المشركين واسار خبره في الناس جيماً . أما قس بن ساعدة فقد كان موحداً ومؤمناً بالبعث . (٢) يتعرض المستشرقون لعدد زوجات الرسول كي ينفذوا إلى الظن في شخصية الرسول والتشكيك في رسالته الخالصة وتصوره بصورة الميل إلى إشباع الجنس مع أن الرسول ﷺ لم يعدد زوجاته إلا بعد الأربعين لغايات تتعلق بالدعوة : أما في الفترة الأولى من عمره فإنه ﷺ قد اقتصر على زواج واحد هو زواج السيدة خديجة رضي الله عنها . (٣) ويتعرض المستشرقون للوحى ويصورونه بصورة الأمراض النفسية والعقلية ، وهم في ذلك عاجزون عن تصور هذه العلاقة التي تقوم

بين النبي المبعوث المرسل وبين سيدنا جبريل الملك الذي يحمل الوحي من الله إلى قلب النبي فمجزوا عن فهم هذه الأحاديث التي تكلم فيها النبي عن حالة الوحي وما يكون له من أثر عليه وصورها على ذلك النحو الباطل . (٤) ويحاول بعض المستشرقين الادعاء بأن النبي كان قادراً على معرفة حاجة عصره وتعديات بيئته وأنه صورها على صورة منهج إصلاحى فهو عندم مصالح أو داعية إلى الحرية أو العدل الاجتماعى أو غير ذلك مما يحرص به الوعاء والمصلحين . ويقوم هذا التصور على هجز من فهم الوحي ورسالة السماء أو إنكاره . ونرجع ذلك الخطأ إلى عدة أسباب أبرزها :

(١) حرص بعض المستشرقين على تحريف النصوص وتشويهها والتلاعب بالمعارات للطمع في العرب والمسلمين . (٢) عدم القدرة على التجرد من التعصب الدينى . (٣) القصد إلى الهدس والتضليل (ومن أشد هؤلاء تعصباً وانحرافاً مرجليوث ولامنس) . وقد أخذ على مرجليوث وهو الذى ألف كتاباً ضخماً عن سيرة النبي ﷺ ، كما أشار الباحثون إلى أن أكثر أخطائه ترجع إلى التحكم فى الاستنباط والقياس الجزئى وبيان أسباب الحوادث وقلة عدم فهم اللغة . كما أخذ عليه عدم فهم النبوة . أما لامنس فقد عمل على تحريف النصوص وحرف تاريخ ميلاد الرسول . وحاول أن يرسم صورة مشوهة من فاطمة الزهراء دون أى مستند تاريخى موثوق . وقد انتقد أكثر المستشرقين (لامنس) وفرضوا مغالطاته وحذروا من الاعتماد عليه . ويقول محمد كامل هياذ : إن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد ﷺ بسبب تعصبهم الدينى . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فمهم فشلهم فى فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم فى النظرة التاريخية .

(٢)

ومن نماذج كتب المستشرقين المليئة بالأخطاء والشبهات كتاب المستشرق (ز . ف . برودلى) الذى ترجم إلى اللغة العربية دون الاعتناء بإجراء التصحيح اللازم لأخطائه (١) بسبب برودلى إلى النبي ﷺ عبادة الأصنام ووصف النبي بأنه (وارث الهاشميين حراسى أصنام الركبة) . (٢) زل قدمه فى سيرة النبي وأزواجه للطاهرات . (٣) إدعائه استمداد الرسول من الرهبان فى رحلاته البعيدة والمتعددة ومن الواظ فى سوق عكاظ . وأبرز ما فى كتاباته (غلبة الروح التبشيرية) على كتابته عن النبي والقول بتأثره ببعضها وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل . (٤) إدعائه كثرة رحلات النبي إلى الشام والعين وفلسطين وآسيا الصغرى وفارس . وكل هذا غير صحيح فإن رحلات النبي بإجماع المؤرخين إلى الشام لم تزد على المراتين أو الثلاث ولم يهتتمع مع بحيرا إلا فى المرة الأولى . وهكذا نجد أن كتابات المستشرقين حول سيرة الرسول مفلوطة محرفة ، سداها الهوى ولحنها التعصب ، وقد أشار (إتيان دينيه) فى كتابه عن سيرة الرسول إلى هذا المعنى حين قال : إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة النبي ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شئ جديد ، بل إذا أمعنا النظر فى الآراء الجديدة التي جاء بها المستشرقون (فرلين ولانجلز وألمان وبلجيكيين وهولنديين) لا نجد إلا خطأ وخطأ .

وعلى الاحتمال فهم قد حاولوا إعطاء صورة خاطئة تماماً عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام .
(أولاً) بإيراد أحاديث غير ثابتة أو موضوعة . (ثانياً) بعرض الأخبار الثابتة بطريقة تعطي عكس المراد (ثالثاً) بإيراد مواضع مشكوك فيها أو آراء من كتب بعض رجال الدين المحدثين .
(رابعاً) إسقاط أجزاء من الأحاديث لتصويرها بصورة محرقة . مثال ذلك ما أورده مرجليوث في حديثه : إنما حبيب إلى في دنيا كم الطيب والنساء ، وإخفاء باقي الحديث ، وجعلت قرة عيني في الصلاة ، حتى يظهر شخصية الرسول مدفوفة بأمور الدنيا .

الفصل الثالث

الاستشراق والقرآن

وقف الاستشراق من القرآن الكريم موقفه من الإسلام والرسول : موقف الخصومة والإنكار . وهذا طبعى بالنسبة للاستشراق المسيحي الغربي وبالنسبة للاستشراق اليهودي ، ذلك أن القرآن وقف من التوراة والإنجيل الموجودين في أيدي الناس موقفاً واضحاً هو أنهما بما كتب البشر وليس بما نزل من عند الله . كذلك فإن القرآن هو الذي قدم تلك الحقائق المغايرة لما جاءت به التوراة المكتوبة بأيدي الأحبار والإنجيل المكتوب بأيدي الرهبان وخاصة في التوحيد الذي هو طبيعة دين الله الحق دون التعدد وتبوة المسيح عليه السلام وإنكار ألوهيته وفي رفع عيسى دون قتله أو صليبه ، وإنكار قضية الخطيئة والفداء ، وإنكار قضية شعب الله المختار إلى غير ذلك من القضايا . وقد أقام القرآن الحجج في أمور كثيرة اختلف فيها الرأي وخاصة في نبوات موسى وعيسى وداود ولوط وما ورد في الكتب القديمة من صور لهم مغايرة لمكاناتهم كأنبيا ورسل الله تعالى مكرمون معصومون .

وعندما نراجع ما كتبه الاستشراق عامة نجد أن هناك إجماعاً على الوقوف في وجه القرآن وإنكار مصدره الرباني والقول بأنه من عمل محمد ﷺ . ويحیی هذا الرأي تمصباً ضد القرآن ونبيه أو عجزاً عن فهم الوحي في تقدير الباحثين الذين يمتدنون النظرية المادية ، أو في التشابه مع موقف الفكر المسيحي الذي يرى أن الإنجيل ليس كتاباً من السماء وإنما هو من عمل الرسل . والشك في إلهية القرآن هو ما رددته المستشرقون وتأثر به كثير من الكتاب والباحثين العرب أمثال طه حسين وزكي مبارك وغيرهما . ثم هم يذهبون إلى القول بأن النبي استقى مادة القرآن ولا سيما قصصه من الأحبار والرهبان الذين كان يلقاهم أو يتصل بهم في مكة . ولكن هذه الشبهات سرعان ما تنبذ عندما نقارن بين روايات التوراة والإنجيل ورواية القرآن لقصة من القصص ، حيث يبدو حق الخلاف ، نجد في القرآن صياغة على قدر عال من البيان والحسكة وبيانات أعمق وأوسع ، هي فارق بين البيان الرباني وبين القصص البشري ، فالقرآن يتميز بالصدق المطلق ويتميز بالغناس العبرة والبعد عن التفصيلات الاسطورية ، ويرتفع عن سذاجة

العرص ، إلى قدر من الحسكة يتفق مع النظم القرآني الذي بدأ به دخول البشرية في عصر الرشد الفكري وعصر الرسالة الخالدة . وما يردده المستشرقون ليس جديداً فقد رددته في كل عصر خصوم الاسلام وقيل في عهد النبي نفسه عرض له القرآن وأشار إليه وكشف ديفه وكان معركوا مكة يزعمون أن القصص الذي جاء بها القرآن إنما تعلها محمد من نهراني أعجمي اللسان كان بهنك وقد رد القرآن على زعمهم في سورة النحل . ويردد هذا المعنى جولد زيهر المستشرق اليهودي : وبلا شبهة في كتابه معضلة محمد وذههم وجيهم يشهدون إلى ما جاء في العهد القديم أو الإنجيل . ويشهدون إلى رحلات النبي إلى الشام وغيرها ويردون إليها ما ورد في القرآن من قصص (ثانياً) حاول جولد زيهر ونولكه الإدعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة محمد ﷺ فيدهون أن اسم الرسول قثم أو قنامة ثم أبدل وصار محمداً لتيسير وضع الآية (وإشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) . ولقد كان الرسول ﷺ اسماً كثيرة ولقد التقط هذا الاسم مما جاء في الروايات التي تروى عن محاولة جده عبد المطلب في إطلاق اسم قثم عليه قبل اختيار اسم (محمد) . وتشهد روايات المستشرقين المبجلة إلى ما كان محمد له النبي ﷺ في حالة الوحي فيصودرون هذا بأنه آيات من العرج ، فيقولون أنه كان عليه الصلاة والسلام يفقد وعيه ويسيل منه العرق وتعتبره التشنجات وتخرج منه الرقوة فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه وتلاه على أتباعه ما يروهم أنه وحي من الله .

ولاريب أن مسألة اتصال البشرى في الرسول بالملائكي في جبريل إبان الوحي من الأمور الخطيرة التي تحدث عنها العلماء والباحثون والتي يمحور عنها مفهوم العلم للمادى فإذا أضيق إلى ذلك التعصب والتعدي والتباس العيب العراء كانت على هذه الصورة التي يرددها بعض متعصبى المستشرقين .

(ثالثاً) ذهب بعضهم إلى البحث عن الحروف المفردة في أوائل بعض سور القرآن وقال نولكه أنها اختصارات لأسماء مالكي النسخ التي استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن في مصحف واحد ، وهو استنتاج باطل وساذج ، وذهب أدوارد جوسفل إلى أن هذه الحروف المقطعة ليست إلا اختصارات للأسماء القديمة للصور ولا ريب أنها لو كانت أسماء للصور لوجب أن أوضع قبل البسملة لا بعدها . ولو كانت كذلك لعرضا المفسرون الأوائل وأشاروا إليها . وواضح أن المحاولة ترمي كلها إلى هدف واحد هو اعتبار هذه الحروف المقطعة ليست من الوحي وأنها عمل متأخر عن زمن الرسول والواقع غير ذلك تماماً وأن هذه الحروف هي من صلب القرآن وأن هذه الحروف قد وردت على لسان النبي ومن صميم الوحي . وقد أدهى لويس جاردي ، والأب قنواني في كتابهما (فلسفة الفكر الديني بين المسيحية والإسلام) أن عثمان بن عفان أقبل إلى القرآن في خلافته فقصمه إلى سور وآيات ورتب السور وواء بعضها حسب طولها فأطولها أولاً ثم مادونها طويلاً وهكذا . وهذا القول ينسب إلى سيدنا عثمان ما ليس واراداً بالتحقيق ذلك لأن ترتيب سور القرآن أمر توفيقي تم في عهد النبي ﷺ ولم يحسب تغييره أو تبديله من بعد . ولقد حاول بعض المستشرقين ترتيب القرآن ترتيباً آخر يختلف عن الترتيب القرآني الأصيل ومنهم وليم موير ، وويلن ورودويل وقد باءت محاولتهم بالفشل وهناك من حاول أن يهكك في لغة القرآن ذاتها وحاول أن يرميها بأنها لا تتميز بالعصمة ، وأستند في ذلك إلى بعض روايات حاول استخراجها من الروايات الضعيفة حاول

بما إثمارة الذهبية بأن هناك فقرات لم يتفق أصحاب النبي فيما بينهم عليها ، ولا ريب أن هذه محاولات باطلة لا يعتد بها .

(رابعاً) : هناك محاولة القول بأن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل وإنما هو محاولة للإصلاح اتجه إليها النبي نتيجة لما رآه من فساد النظام الطبقى عند قومه في عصره وأنه من أجل ذلك لجأ إلى التخويف بيوم القيامة لكي يرغب المعارضين في الإصلاح ومن ذلك الحديث عن المطففين والهمزة اللزجة ونبيه عن قهر اليتيم ونهر السائل ، وأن محمداً قد تأثر بالوضع الاجتماعي في مكة تأثراً شديداً . ولا ريب أن هذه المحاولة باطلة في أساسها ، إذ أن هذا النظام الكامل الجامع الذي جاء به القرآن وحياً من الله إلى رسوله محمد ﷺ ، حين يدرس دراسة عميقة فإن الباحث المنصف يجد فيه منجلاً متكاملًا جامعاً رباني المصدر بما لا يقدر بشر على تنسيقه على هذا النحو ، وهو في قدرته على البقاء خضاً طرئاً مع تغير الأزمنة والبيئات وعطائه المتصل في كل عصر وبيئة ، وعدم اصطدامه بالمتغيرات والتحولات ليؤكد كذب الإدعاء بأنه من صنع بشر . ومهما قال المستشرقون في تأثر النبي بتعاليم اليهود والنصارى - وهو ما لم يحدث لسبب أساس هو أن النبي كان لا يعرف القراءة والكتابة - فإن التوراة والإنجيل لم يرد في أحدهما مثل هذا النظام الذي قدمه القرآن وأن القرآن في مفهومه للتوحيد الخالص يختلف معها فضلاً عما قدمه من منافع : منهج المعرفة ومنهج الحزن الكونية وسنن الحضارات والأهم فإن ذلك كله لا يوجد منه شيء في كلا الكتابين المدعى أن الرسول محمد قد أطلع عليهما . (خامساً) : فساد القول بأن القرآن أسهل الصنيع والتفافية كما يقول لويس ماريه فإن في القرآن أساليب متعددة وأسلوب السجع واحد منها ، والقرآن له طابع خاص معجز مختلف أشد الاختلاف عن التأثير بسجع السكبان في الجاهلية ويختلف عن الصعركية حتى قيل عنه (واقع ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالسكبان) .

(٢) كانت ترجمة القرآن من خيوط المخطط الذي بدأه الغرب المسيحي بعد الحروب الصليبية تحقيقاً لتوصية لويس التاسع ، وفي محاولة لتحجيم الرأي العام الذي أخذ يتكون في أوروبا نتيجة لقوة العائدين من المعارك في الشرق والذين تحدثوا عن سماحة الإسلام في التعامل مع الفزاة ، وعظمة الإسلام في الأداء الحضاري ، مما أزعج الكنيسة ودفعا إلى العمل على مقاومة ذلك عن طريق ترجمة القرآن وتفسيره على النحو الذي يثير التكذيب لرسوله والتشكيك في سلامته ؛ يقول أحد الباحثين أنه بعد الفارة للصليبية الأولى رأى رجال الكنيسة أن استيلاء الأوربيين على البلاد المقدسة لم يأت بالنصر الحاسم ولم يؤد إلى اعتناق المسلمين للمسيحية بل على العكس قد نتج عنه أن تركت حضارة الإسلام ومقوماتهم وطرق معيشتهم تأثيراً ملموساً في الصليبيين وعند ذلك قامت الأصوات تدعو إلى ضرورة استخدام الوسائل العسكرية في محاربة الإسلام وفي مقدمة هؤلاء بطرس المحترم سنة ١٢٥٩ الذي أوفد إلى أسبانيا وسنحت له الفرص للاطلاع على المناقشات بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا وعلى سياسة الذين يرون أنه لا سيبل إلى مسكاخة العقيدة المحمدية إلا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومن أجل معرفة آراء الخصم جيداً تقرر ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية ، وتمتد أول طبعة لنص القرآن تلك التي نشرها باجاني في البندقية ١٥٢٠ وقد أحرقت جميع نسخها في الحال بأمر من البابا بولس الثالث . ثم أصدر البابا إسكندر الرابع

أمراً بمنع طبع نص القرآن وترجمته وحتى عام ١٦٦٧ لم يجسر القس الألماني إبراهيم ميكلان على طبع ترجمته التي نشرت ١٦٩٤ والتي قال في مقدمتها إنه من الضروري أن نعرف القرآن معرفة دقيقة إذا أردنا مكافئته ونهيئ السبيل لانتشار المسيحية في الشرق . وهكذا نجد أن المنطق في ترجمة القرآن كان لحساب التبشير والاستشراق على أساس إعطاء الغربيين القدرة التعرف على الجوانب التي يستطيعون منها مهاجمة الإسلام ومجادلة المسلمين . ومن هنا نجد أن جميع المستشرقين الذين كتبوا بعد ذلك أبحاثهم اعتمدوا هذه الوجهة وهذه الطريقة وكانت منطلقاتهم جميعاً الادعاء بنصرانية الأصل أو يهودية الأصل الذي جاء منه القرآن ، وماذا اقتبس محمد من التعاليم اليهودية وأن الإسلام من بنات أفكار محمد وأن القرآن من نصيب محمد . هكذا نجد كتابات بوهل عن مادة محمد في دائرة المعارف الإسلامية وتويني في بحثه لتاريخ ووارثه وجايهر وبوري كأنهم يجرؤون في طريق واحد لا يصدر عن أسلوب علمي ولكن عن هوى وتمسب قوامه الزعم بأن القرآن من تأليف محمد وأن الرسول أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بهما ، ويقول بروكلان إن النبوة كانت أمراً يتوقعه الرسول والذي كان يكلمه هو صديق له . واتفاق المستشرقين في ذلك كله ليس عفويّاً بل هو استنتاج متفق عليه على حد تعبير محمد أسد حين يقول : يظهر من بحوثهم وكان الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع من البحث العلمي بل أنه منهم يقف أمام قضائه . وقد رد مفسكروا الإسلام على هذه الشبهات جميعاً وزيّفوها ، وبما قالوا أنه لو كانت التوراة والإنجيل مصادر للقرآن كما يزعمون لكان اليهود أعرف الناس بهذا وهم من هم غيباً وحققاً على كل نبي ورسول ، ولقد كانت صداقتهم للمشركين فرصة لمساعدتهم في الطعن بوحى القرآن وبما يشابهه للتوراة لو كان ذلك به أدنى ذرة من الصحة . بل لقد شهد بعض كتاب الغرب بفساد رأى الاستغراق . يقول العالم أرنست في كتابه (الإسلام والمسيحية الحقيقية) أن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الأناجيل ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، أن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين المسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهودي المسيحي وشرحه للصدف المقدسة على طريق التجسيم وأن بولس هو واضع ذلك المزيج من القصص والاحاديث المتعارضة ومن هنا فإن هناك اختلافاً أساسياً من حيث الأسلوب لأن لكل إنجيل كاتباً (لوقا . متى . يوحنا . مرقس . برنابا) . ومن هنا جاء القرآن مخالفاً لهذه الأناجيل والتوراة مادة وأسلوباً .

أما الذين يدعون بأن القرآن مصدره من الإنجيل والتوراة فإنهم يجهلون ما أورده القرآن من أصول جديدة لم ترد في الكتابين ومن تفصيلات في بعض الأحداث لم يعرفها اليهود والنصارى . فقد أخبر القرآن بأشياء ما كان يعلمها أحد حتى أهل الكتاب أنفسهم مع أنها تتعلق بصميم مسائل دينهم فهم لم يكونوا يعرفون شيئاً من كفاية ذكرها للسيدة مريم بعد ولادتها . كذلك فقد أخبر القرآن بأشياء كثيرة تحققت تحقّقاً تاماً بعد الإخبار بها . منها إخباره عن انتصار الروم بعد انخراطهم . وكان الفرس قد غلبوا الروم عام ٦١٠ وأن دولة الروم كانت غتلة مضطربة بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكثرة والغلبة ومع ذلك فقد أخبر القرآن بانتصار الروم في بضع سنين ، والبضع مابين الثلاث والستم . هكذا فإن القرآن أخبر بأمور ما عرفت إلا في العصر الحديث وما كان أحد يعرفها أو يؤمن بها

إلا المسلمون ، ولم يرد بها أى إشارة من علم في النوراة أو الإنجيل . ومن ذلك إخباره بانخفاض الضغط الجوي في أقاليم الجبل (لن يرد الله أن يهديه بشرح صدره الإسلام ومن يرد أن يضل به يعمل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) وكذلك الإخبار عن امتواز الأرض عند نزول المطر عليها (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) . وفي القرآن أمور لا يمكن أن تنسب إلى الرسول ﷺ لأنها تحوى معانيه على تصرف من التصرفات . وما كان للرسول أن يكتب القرآن ثم يعاتب نفسه ، وذلك في أمر إطلاق أمرى بدر . وفي مسألة الأهمى . وفي مسألة الصلاة هل المنافقين . وفي مسألة زهنب بنت جحش . أما الزعم بأن النبي أخذ من النوراة والإنجيل وتأثر بأصولهما فأبسط الرد عليه أنه ما في القرآن مخالف للنوراة والإنجيل مخالفة عامة . وهناك أمور فيها مخالفة جوهرية وذلك شأن مريم وعيسى ومعارضة القرآن للتثليث والصلب والخطيئة . أما الزعم بأن النبوة أمر كان يتوقفه الرسول ويرغب فيه وبأن النبي كان له صديق يكلمه فإن الأخبار الثابتة الصحيحة لم ترد مطلقاً بأن النبي كان يرجو أن يكون النبي المنتظر ولو كان لدونه المحدثون والمؤرخون كما دونوا عن أمية بن الصلت بل لقد صرح القرآن (وما كنت مرجو أن يلقى إليك الكتاب إلا راحة من ربك) وقد شهد أعداءه جميعاً بالصدق وخاصة أبو جهل ولو كان شيء من ذلك صحيحاً لكان كفار قريش أدري به من (بروكلمان) ومن شاهده وكان يكون من أحكبر الحجج بين يد المشركين والمنافقين واليهود ، كذلك فقد برأ القرآن الرسول من أن يكون له من يعلنه (ولقد علم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) . كذلك فقد كشف الباحثون مقطع الأمر في قضية المفردات الأجنبية التي التقطها المستشرقون ليلزوا القرآن بأن عربيتهم ليست كاملة ، فهذه الكلمات التي تبدو أجنبية وهي ليست كذلك إنما جاءت عن طريق الاشتراك في أصل اللغات العربية القديمة أو اتصلت عن طريق النقل والتعريف بالتجارة والأسفار والمجاورة واستعملت في اللغة استعمالاً جارياً وفق قوايلها ، ولهذا استعملها القرآن وخطب بها ربنا العظيم عباده بلسانهم لأنه لا يعقل أن يستعمل القرآن كلمات غير عربية وغير مفهومة عند العرب ثم يخاطبهم القرآن بها ويسميه عربياً مبيناً ليكلفهم بعد هذا كله شيئاً لا يفهمونه (أحد نصيف الجناني) .

وقد أثبت حديد من الباحثين أن الكلمات الأجنبية التي أوردها بعض المستشرقين كانت في أصلها عربية نقلت إلى هذه اللغات الحبشية والسريانية والفارسية ثم عادت إلى عربيتها مرة أخرى . وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبري حين قال إنه غير جائز أن يتوهم ذى فطرة صحيحة مقر بكتاب الله من قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن قارى لا عربى وبعضه ببطى لا عربى وبعضه حبشى لا عربى بعد ما أخبر الله تعالى في ذكره عنه أنه جملة قرآناً عربياً ، بل إن الله تبارك وتعالى نبي هذه العجمة ونبي آت (يكون بعضه أعجمياً وبعضه عربياً) (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته) .

الفصل الرابع

الاستعراق واللغة العربية

كانت حملة الاستعراق على اللغة العربية مرتبطة بصلة على القرآن الكريم ، وكان الهدف واضحاً وهو خلق لجوة بين بيان القرآن وبين لغة الكتّاب ولذلك فقد توالى دهورات المستشرقين إلى العاميات والحروف اللاتينية ، قام ماسينيون المستشرق الفرنسي بذلك في المغرب وسوريا وقام بذلك مرجليوث المستشرق البريطاني اليهودي في البلاد العربية ، وكان التركيز على دمشق من كلا المستشرقين الكبيرين وكان الهدف أنه إذا حلت اللغة واستعجمت الألسنة انقطع الطريق إلى الإسلام وتمزقت الأواصر ، ولقد تجمعت شبهات الاستعراق حول اللغة العربية في أمور عديدة :

(أولاً) : رميها بالقصور وعدم الكفاية العلمية . (ثانياً) : صعوبة النطق وصعوبة الكتابة .

(ثالثاً) ارتفاع مستواها عن فهم الناس . (رابعاً) التفاوت بين طريقة النطق وطريقة الكتابة . وكان لويس ماسينيون من أخطر الدعاة إلى الحروف اللاتينية واتخاذها أداة لكتابة اللغة العربية وما كان يذهب إليه (إعمال الإهراب) على اعتبار أنه ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب وقد دعا ماسينيون رجال الجمع العلمي في دمشق إلى اتخاذه وسيلة للتجديد وكرر دعوته في أندية الشباب العربي في باريس وقد وجدت دعوته رداً عنيفاً ومعارضة واسعة كذلك فقد بذل مرجليوث جهوداً واسعة في محاربة الحرف العربي والعمل على استبداله بالحرف اللاتيني وركز دعوته على دمشق كما فعل ماسينيون كما حاول مرجليوث دعوته الإيرانيين إلى تغيير الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية وقد عارض الإيرانيون هذه الدعوة وشجبوها واحتفظوا بالحروف العربية أساساً للفهم الفارسية وقد جاء دور المستشرقين في مقاومة الفصحى لغة القرآن بعد دور المبشرين : واهم ويلكوس ، وويلبور وسبيتا ، الذين بدأوا حملتهم إلى العامية ثم جاء المستشرق فنسك فشر رسائل عديدة مكتوبة بحروف أوربية في اللغة المصرية القديمة ومن بينها رسالة المقتطف أحيائها (أجرومية مصرى) كتبها على هذا النحو :

(بل لسان المصرى ومما أمثلة) يقصد : باللسان المصرى ومما أمثلة .

(٢) تعددت محاولات المستشرقين للوصول إلى اغراضهم ، خاصة عن طريق مجامع اللغة العربية التي اشتركوا فيها ومنها دعوتهم إلى كتابة القرآن بلغة العصر في محاولة للقضاء على النهج الذي كتب به القرآن منذ عهد النبي ﷺ والذي وضع على النحو الذي يضمن الاستجابة لكل اللهجات العربية ولكل القراءات المنوالة وقد رد الامام أحمد بن حنبل رداً حازماً على هذه الدعوة منذ قديم وقال إن القراءة يجب أن تكون على ما كتبه الصحابة فقد نزل القرآن على سبعة أحرف وإن الكتابة جهات

موافقة لهذا فلو تفهنت الكتابة أضاعت هذه اللغة . (٢) حاول الاستشراق الغمز لعلوم النحو والصرف والادعاء بأنها من عوامل صعوبة اللغة العربية ؛ وهذه أيضاً من مؤامرات الاستشراق ذلك أن حامية اللغة العربية تتطلب المحافظة السكاملة على ما هو مقرر ومنقول من الأصول والفوائد السليمة في علمي النحو والصرف وعلى ما هو محدد مقبول في علوم البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع دون السماح بما يؤدي إلى اللحن أو مسخ الأسلوب العربي المبين والهدى به الرائعة والجل والأساليب التي تتناوبها اللغة العربية .

(٤) حرص الاستشراق بعض أهوائهم من رجال التفريب إلى إطلاق تلك النغمة التي تقول أن العربية هي لغتنا ولنا الحق في القبول منها والرفض والتغيير وهي نغمة مبطلّة لأن اللغة العربية ليست ملك المصريين أو السوريين أو العرب هيماً وإنما يشاركون فيها سبعة مائة مليون من المسلمين تمد اللغة العربية بالنسبة لهم هي لغة الثقافة والفكر والعقيدة ومن هنا فإن هذه الدعوى التي قد تصلح في اللغات الأوروبية القومية لا تصلح بالنسبة إلى اللغة العربية التي لا يملكها العرب وحدهم وليس لهم حق التصرف فيها تصرف الوارث القاصر . إن محاولة القول بأن اللغة العربية لغتنا ونحن أصحابها ولنا حق التصرف فيها قول مردود ، يردده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمي .

(٥) كذب الواقع دهوى المستشرقين من القول بأن هيوب اللغة العربية وجود لغة الكتابة ولغة الكلام وتبين من البحث العلمي الدقيق أن جميع لغات العالم تنقسم بهذه السمة وإن أرق اللغات الأوروبية تختلف فيما بين الكتابة والكلام ولكن هذه المسألة قد تقصر وقد تتسع حسبما يقتضيه التعليم الذي يرفع الأمم من لغة الكلام إلى لغة الكتابة ولذلك فإن الدعوى إلى إنزال لغة الكتابة إلى لغة الكلام هي عمل مضاد لطبيعة اللغة وتطورها .

(٦) عندما يتحدث المستشرقون عن ضعف اللغة العربية أو جودها فإنهم ينتكرون لمصدر هذا الجود أو الضعف وهو ما قام به الاستعمار في سبيل الحيلولة دون امتداد اللغة العربية وتغليب لغة المحتل عليها وتشجيع اللهجات العامية على النحو الذي حال بين اللغة العربية وبين التطور والفكر . وقد رسم دعاة الاستعمار من أمثال دالوب سياسة التعليم على أساس أن تحول بين اللغة العربية وبين أن تصبح الأداة الثقافية لآبناء الأمة المتطلعين إلى أن ينهلوا من معين التقدم العلمي فإذا أصابوا قسماً من علم أودعوه في قوالب أجنبية متضاربة منها ما هو محدود بولائه الثقافي باكسford أو كبرددج بترافكتها التقليدية، ومنها من لا يؤمن بالفكر السبروني الواضح الرقراق ومنها من اعجه كلية إلى الأسلوب الألماني الموهل في التحليل وقد حرم الاستعمار التعليم بلغة الأمة حتى لا تنقل العلوم بكتبتها إلى تلك الأمة في حين تلقى العلوم عن طريق اللغات الأجنبية بحيث نقل بعض من أفراد الأمة إلى تلك العلوم .

(٧) كشف رجال اللغة عن فساد المقارنة التي حاول المستشرقون عقدها بين اللغة العربية وبين اللغة اللاتينية ، تلك المحاولة التي يستهدفون بها وضع اللغة العربية في معصف اللاتينية وتحويل اللهجات المصرية والسورية والعراقية إلى لغات وهو ما لا يتحقق مع وجود القرآن الكريم الذي هو العروة الوثقى لوحدة اللغة العربية .

والواقع أنه لا يوجد أي تشابه سواء من ناحية التاريخ أو الأوزاع أو التحديات بين اللغتين : وأن اللغة اللاتينية إنما تقلصت وانفسخ المجال أمام لهجاتها لأسباب سياسية منها السكاش الدولة الرومانية وتقلص نفوذها السياسي ولأن الدين المسيحي كان عاملاً مساعداً على انتشار اللهجات العامية لأن التبشير بذلك الدين بدأ بين العوام فن الطبيعي أن تكون الدعوة له باللهجة العامية بينما كانت الدعوة إلى الإسلام عن طريق القرآن نفسه ببلاغة القرآن هي روح الدعوة إلى الإسلام ومن هنا قطعت العربية على السريانية والقبطية والعبرية والحبشية والآرامية .

(٨) إن اللهجات المحلية والعامية واللغة الوسطى، والحروف اللاتينية كلها من مؤامرات الاستشراق وهي التي تسربت إلى دعاة التغريب حتى نرى واحداً مثل الدكتور محمد كامل حسين يقول : أدهو إلى قتل الفصاحة وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كثير ، وهو قول يدل على العجز عن فهم علاقة اللغة بالعقيدة أو فهم تاريخ الإسلام وعلاقة العرب به وهي كلمة من كلمات استعلاء مفهوم عصر العلوم ولغة العلوم وهو تيار مهمما بلغ من سلطانه فلن يستطيع أن يقضى على سلطان العقائد والفكر وعلى المفهوم الاصيل بأن المسلمين هم حلة لواء البيان الذي ارتقى بالبشرية من الأساطير الساذجة والعاميات إلى عصر الرشد الفكري والأخلاق والإيمان وكلها ترتبط ارتباطاً أساسياً ببلاغة القرآن التي جاءت قمة لتعطي النفس الإنسانية اشواقها ومطامعها . ولاريب أن هناك دعاة لغة العربية مصدرها عجز المستشرقين عن فهم اللغة العربية ومصطلحات البلاغة والبيان ، وهي عدوى سرت إلى دعاة التغريب وإلى أولئك الذين يعادون القرآن والإسلام فهم يعادون النصيحة ومن هؤلاء من يدعوا إلى كسر اللغة العربية وكسر عمود الشعر العربي ولاريب أن الذين يشجعون اللهجات العامية هم أعداء الإسلام الذين يهمهم إبعاد المسلمين عن كتابهم الكريم وإضعاف شأن الفكر الإسلامي وتبديد قوى المسلمين الذين يوحدهم الإسلام وكتابهم الواحد كتاب لغتهم الواحدة وقد أصدر مؤتمر العالم الإسلامي قراراً تاريخياً عام ١٩٤٩ بوجوب اعتبار لغة القرآن لغة عامة للمسلمين في جميع أنحاء العالم والعمل على نشرها وكتابة لغات العالم الإسلامي بخط النسخ العرب .

(٩) حمد الاستشراق إلى إفساد اللغة العربية على النحو الذي نجده في كتاب المنجد من إدخال مصطلحات غير عربية إلى صميم النص العربي ، وما نجده من خطأ في تفسير بعض المصطلحات العربية : مثل محاولة تفسير كلمة (الطلاق) بقولهم أنهم الذين أدخلوا في الإسلام كرمأ ، وتفسيره كلمة (ع م د) بأنه غسيل الولد بماء العمودية في حين أن العمودية ليست كلمة عربية وإنما هي كلمة قبطية تنطق معموديت بالذال المعجمة يقول الدكتور مصطفى جواد أن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستغنيها وقد نجنا على ثلاثمائة وأربع وعشرين منها ونحن لم نقرأ فيه إلا عند الحاجة .

الفصل الخامس

الاستشراق والتراث

وقف الاستشراق من التراث الإسلامي موقفين متعارضين :

(١) موقف التنكر لقيمة هذا التراث وتصويره بأنه متخلف وأنه لا يستطيع أن يعطى العصر الحديث شيئاً مافياً ، وينكر أنه كان لهذا التراث فضل على الحضارة الحديثة .

(٢) بعض الجوانب الضعيفة والمختلف عليها من هذا التراث وخاصة ما يتعلق بالفرق السياسية ودعوات الباطنية والرنج والقرامطة وغيرها من الجوانب المضطربة والتي لا يتفق مع جوهر الإسلام . ولقد أنكر بعض المستشرقين نسبة الكتب اللاتينية للكنياوية التي تحمل اسم جابر بن حيان إليه لمرور أن أصولها العربية فقدت ومنهم المستشرق برتلو ، كذلك أنكر المستشرق دوزي الحقيقة التي اعترف بها المؤرخون المنصفون من أن الشعر الفرنسي (التروبادور) قد تأثر بالشعر الأندلسي الإسلامي وقد تصدى له علماء راسخون مثل لمبادر وستيل وأرضعوا أنه كان خطأً ومتممداً وقال جرج سارطون أن أى شخص يعرف العربية لا يعطيه مطلقاً في اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجعت لكتب عربية إذ تبدو الأساليب العربية واضحة في الترجمة اللاتينية وأثبت ربهما وبشكل بما لا يدع مجالاً لذلك أن شعر التروبادور متأثر إلى حد بعيد بالشعر العربي الأندلسي وبالموسيقى العربية ولولاها لما ظهر التروبادور . وقد يقال أنهم مستشرقون ينكرون ومستشرقون يعترفون . ونقول : أن حركة التغريب لا تنقل لنا إلا وجهات نظر المنكرين والمعارضين والمنتقسين لثرائنا في محاولتها الدائبة للنقض من شأن كل ما يتصل بالإسلام وتراثه ، وأن هؤلاء المنصفون في الأغلب علماء لا دخل لهم بدائرة الاستشراق ومن مثل هؤلاء العالم درابر الذي كتب في منتصف القرن التاسع عشر معاناً على أسلوب الإنكار الذي يتخذه الأدب الأوربي إزاء الأدب العربي وقال أنه آسف لهذه الطريقة التي عمد بها الأدب الأوربي إلى التعامل (لإخفاء أفضاله العرب العلمية علينا) وأشار سديو إلى ذلك فقال : يحاول الأوربيون التقليل من شأن الدور الذي قام به العرب ولكن الحقيقة ناصعة مشرقة ، ليس أمامنا من سبيل إلا أن نضفي عليهم الشرف الذي يستحقونه إن عاجلاً أو آجلاً . ولقد أشار جاردوى إلى ما أطلق عليه (مؤامرة الصمت) التي استمرت أكثر من ثلاثمائة عام تقريباً والتي تهدف على التنكر للتراث الإسلامي وآثاره في النهضة العلمية الحديثة .

(٢)

وفي الوقت نفسه عمدت حركة الاستشراق إلى استخدام التراث الإسلامي استخداماً سيئاً ، فقد

بدأت المؤامرة على التراث منذ وقت بعيد وهي ترمي إلى الإطلياء عليه بأى من وسائله إلى دوائر الغرب ثم كانت محاولة إبراز الجوانب الضعيفة منه والمقدمة والمتضاربة والمتصلة بالخلاف والصراع بين الفرق الإسلامية وكل ما يتصل بما يشكك في العقيدة الإسلامية وخاصة دعوات الباطنية والقرامطة والحلاج وابن عربي والهرودي حتى يكف ماسميون أربعين سنة على إحياء آثار الحلاج وإعادة طبعها ويجرى طبع كتب ابن عربي وابن سبعين وغيرهما . في نفس الوقت الذي يجري فيه التجاهل تماماً للكتب الإلهامية الإسلامية وأرد على النوادة والباطنية بما كتب الغزالي وابن تيمية وابن القيم . وكذلك نجد أن الاستشراق قد استخدم التراث استخداماً خاطئاً : أبرز ونشر وأذاع كل ما يفرق وأخفى كل ما يجمع وأحياناً كل ما يتصل بالشبهات والفرق ، وأغفل غيره : فقد جرى المستشرقون على إحياء أنواع معينة من التراث ليست من خيرها وفي مقدمتها النصوص الفلسفية وخلافات المذاهب وتضارب الآراء وأبحاث الاختلال والباطنية وكل هذا ليس من صميم الفكر الإسلامي ولا يخدمهم فصدوا من ذلك أحياء تلك الشبهات وإعادة طرح الخلافات القديمة في أفق الفكر الإسلامي لتزيق المسلمين شيئاً ومن ذلك اتهامهم بالأدب المكشوف مثلما في بشار وأبي نواس وألف ليلة واللاهاني والنوادة أمثال ابن المقفع وابن الروماني وكل عمامهم في مجال التراث يستهدف طرح مفاهيم من شأنها أن تراحم مفهوم الأصالة في الإسلام اتريفة وتفسده . ومع ذلك فقد وجدنا من يقول : سوف نرى عندما تخرج إلى النور تلك السكود المرددة في دور الكتب الأوروبية أن تأييد العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى كان أجمل شأنًا وأكبر خطراً مما عرفناه الآن .

الفصل السادس

الاستشراق والسنة

إن موقف الاستشراق من السنة هو موقفها من القرآن وسيرة الرسول ، تماماً ، فإن السنة هي جزء من حياة الرسول وهي تفسد القرآن فلا بد أن تنالها الشبهات وتصل إليها السموم وعوامل التزييف . ويقول العالم الفرنسي (إيتان دينيه) أنه من المأساة أن يتجرد المستشرقون من هوافظهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول أو يدرسون سنته وقد صرح في مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد) أنه من المتعذر بل من المستحيل أن يتحرر المستشرقون من هوافظهم ونزعاتهم المختلفة . وأنه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد ﷺ مبلغاً غطى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية وذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من انبائهم لأساليب النقد البريئة وأقوالهم بالبحث العلمي المحايد . وقد عرض إيتان دينيه لكتيب من اتهاماتهم للنبي ورد عليها واتخذ من لامنس مثلاً واضحاً على صحة ما ذهب إليه وحكم به وقال لقد اخبرت (لامنس) لأن شهرته العلمية خدمت الكثيرين فأحسنوا الثقة به مع أنه ما حاقه من أدلة وبراهين في كتبه أغابها من قبل القويبة على الفارسي والسكندري على الحق والتاريخ .

قال لامنس أن النبي ﷺ كان يكره الوحدة وأكده (دينه) أن النبي كان يتعبد في خار حراء بنفسه ليستجمع ذهنه ومعموره منصرفاً كل الإصراف عن هذا العالم المادي . وحكم لامنس على النبي بأنه كان ثوروما ، والقرآن يشهد للنبي (أن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثله) . واتهم لامنس النبي بأنه كان أكلولا وبين إيمان دينيه أن محمداً كان زاهداً في الطعام وملذات الدنيا . وحكم على لامنس بجنوحه وانحرافه بدليل أنه إذا تحدث عن النبي وأصحابه لم يسل أحد منهم من غوانه وطعناته أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام أبي جهل وأبي لهب والمنافقين وأعداء الدين فإنه يهيد بهم ويهدمهم . والمعروف أن إيمان دينيه قد آن بالإسلام وهو من أمثال القورده مدل و (ليوبولد فايس) محمد أسد وهيد الكريم جرمانوس . وهناك منصفون لم يملنوا إسلامهم أمثال : كارليل وهنري دي كاستري الذي يقول أن العقل يختار كيف يتأق أن تصدر الآيات عن رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فمكر بني الإنسان عن الايمان بمثلها لفظاً ومعنى ، لقد أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته والقرآن الذي نزل على محمد لا يزال إلى يومنا هذا سراً من الأسرار التي يتعذر فك طلاسمها .

(٢) وتتركز شكوك المستشرقين في السنة حول تأخر تدوين الحديث . فهم يرون أن تأخر تدوين الحديث الذي بدأ في المائة الثانية للهجرة أعطى فرصة للمسلمين ليزيدوا وينقصوا في الحديث وفي وضع أحاديث لخدمة أغراضهم . يردد هذا جولد زيهر ودوزي وسبرنجر . وقد شك جولد زيهر في صحة وجود صحف كثيرة في عهد الرسول ، ويرمى من وراء ذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور وهو يرمى أيضاً إلى وهم السنة كلها بالاختلاق والوضع على السنة المدونين وهو يزعم أن هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الأحاديث إلا ما يوافق هواهم ، ويرى سبرنجر في كتابة الحديث عند العرب ، أن الدروع في التعدين وقع في القرن الهجري الثاني وأن السنة انتقلت بطريق المغافرة ، أما دوزي فهو ينسك نسبة ماته (التركة المجهولة) من الأحاديث إلى الرسول . وقد رد عليهم دكتور صبحي الصالح في كتابه (علوم الحديث ومصطلحه) كارد عليهم كثيرون وكشفوا زيفهم . وجهة الرأي في هذا ما أورده الدكتور مصطفى السباعي حين قال : حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله ﷺ وحرص التابعون وتابعوا التابعين من بعدهم على نقل هذا الحديث وجمعه وتقنيته من شوائب التحريف والتزييد ومما قام به علماء السنة من جهود جبارة في تتبع الكذابين والوضاعين وفرض نواياهم ودخائلهم وبيان مآزده في السنة من أحاديث مكذوبة حتى جعت السنة في كتب صحيحة وأشبهها النقاد بمحاً وتجميعاً ثم خرجوا من ذلك بالاعتراف بصحتها والتسليم بها ، وإذا أمعن النظر في ذلك كله ايقنت أن هؤلاء المستشرقين يتعيطون في أودية الأوهام وهم يتأزرون بأوهامهم ونقصهم في الحكم على حقائق يعتبر المعبث بها في نظر الحق المنصف إسفافاً وتلاعباً بالعالم واخضاعاً لحقائق التاريخ إلى نظريات الهوى والبعض . ولعل من الحرافات التي جرى ورائها المستشرقون وأتباعهم فرحين بأنهم انفقوا شيئاً ما أطلق عليه دميراج ابن عباس ، والكتاب مكتوب لا يتداوله إلا عامة الناس وليس له سند يربطه به لا رواية ترقى

إلى مستوى الحسد، وقد احتفل به المستشرقون وقارنوا بينه وبين الكرميدين الإلهية. وليس أشد تمصّباً من مستشرق مثل أندرسن الذي أسقط أحد المتخرجين من الأزهر في رسالة عن حقوق المرأة في الإسلام لانه برهن على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة. وقد لحص الدكتور مصطفى السباعي بمدجوة ضخمة مع المستشرقين في جامعات أوروبا أشرنا إليها في كتابنا (الإسلام والثقافة العربية) أهدافهم على هذا النحو. (أولاً) إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم. (ثانياً) تحريف النصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً. (ثالثاً) إساءة فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف. (رابعاً) تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها: ينقلون من مكتب الأدب ما يحسبون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحسبون به في تاريخ الفقه. فهم يصححون ما يقوله الدهري في كتاب الحيوان، ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ.

الفصل السابع

الاستشراق والحضارة الإسلامية

وجهت حركة الاستشراق إلى الحضارة الإسلامية كثيراً من الاتهامات والشكوك والشبهات، فهم لا يطلقون اسم الحضارة الإسلامية عليها بل ينسبونها إلى العرب حتى يشعروا الخلافت ويوقعوا بين المسلمين والعرب، يقول رينان: أن الحضارة العربية - حضارة سطحية ظاهرة أنتجتها عقول أوروبية ومنابع يونانية فارسية هندية غوطية، وحيثما وجد الإنسان ظاهرة من ظواهر الحضارة في البلاد العربية فلا بد من إرجاعها إلى عقلية آرية وإنتاج غير سامي. ويرهم (يوسف شنت) أن أحد أركان المدنية الإسلامية راجع إلى المدنية الأغريقية في آخر مراحلها فلم يكن العرب يشتركون في تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلغتهم ودينهم. أما المواد الأخرى فإنها مأخوذة من ذلك التراث الذي تركه اليونان والذي قد توطد في البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر، ثم جاءت الدولة العربية فأكلت توطن العلوم والآداب الأغريقية في الشرق الأدنى. ويقول ماسينيون أن كبار رجال الحضارة والآداب لم يكونوا ذوي دم عربي محض بل كانوا موالى مستعربين. وقد رد كثير من كتاب العرب على هذه الاتهامات ويقول الدكتور جواد علي: أن هذه النظريات لا قيمة لها أبداً إذا لم تدعم بالنصوص والبراهين. كما أن الاستشهاد بمحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمه وإن استطيع أن أجعل من الأمة الجرمانية صبيحة بربرية مادية خاملة لم تنتهي إلا أخيراً بالاستناد إلى النصوص الجرمانية نفسها المجموعة من المصادر والمنابع عن التاريخ الجرمانى، واستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك في تاريخ أى أمة. واعتقد أنه لو كانت الأمة العربية قوية في الوقت الحاضر لكانت النظرة على حكمها دائماً. ويقول: أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة عنصرية وقد اشترك فيها كل الذين اعتنقوا الإسلام بصرف النظر عن أجناسهم، فإن القرآن

واللغة العربية والتوحيد كانت هي العناصر التي شككت القدر الذي صنع الحضارة ولقد جاءت حضارة الاسلام بعد حضارات العبودية الفارسية والفرعونية والرومانية وعبادة الفرعون والقيصر لتقدم للبشرية الإخاء البشري والعدل والرحمة والسباحة وترفع العبودية عن العقيدة وعن علاقة الإنسان بالإنسان وذلك هو جوهر الحضارة الإسلامية ، وقد قامت على التوحيد الخالص وبذلك فهي تختلف أشد الاختلاف عن الحضارات اليونانية وغيرها وعن الفكر اليوناني وغيره ، واسكن هذه الحضارة استطاعت أن تظهر في بورتقتها ما كان موجودا في العالم من علوم ومعارف بعد أن امتحنتها واستصغرتها في بورتقة التجريب الذي هو المنهج الذي صنعه المسلمون وقدموه للبشرية وقامت عليه الحضارة المعاصرة . وأن ما وجدته المسلمون لدى اليونان لم يكن سوى نظريات بعضها صحيح وبعضها خاطيء ، فضلا عن الأساطير والتنجيم والخرافات التي استبعدوها المسلمون تماما . ولقد حاول المستشرقون اتهام العرب والمسلمين بأنهم أحرقوا مكتبة الاسكندرية وهي دهمى باطلة كذبها المؤرخ البريطاني جيبون وكثير من المؤرخين الذين تبين لهم أن مكتبة الاسكندرية احترقت قبل الإسلام وقد أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان واتم احراق الجزء الباقي بطارقة الاسكندرية قبل الإسلام . وقد كذب الدكتور بطار رواية يوحنا النحوي وقال أنه مات قبل دخول عمرو بن العاص إلى الاسكندرية بأربعين سنة أو الثلاثين على الأقل وأن أبا الفرج روى عن يوحنا النحوي فإذا سقط البطل سقطت الرواية . كذلك ذكرت دائرة المعارف الفرنسية أن مجموعة المؤلفات التي كانت بالمرايوم قد احترقها للنصارى في القرن الرابع الميلادي .

ويقول الدكتور عمر فروخ ان محاولة المستشرقين إنما تهدف إلى أن لا يصل الاسلام صحيحاً إلى أهل الغرب فيؤمنوا به فهم يملكون على رد الإسلام وتشويهه بتقديمه مهلهلا وأن كتاباتهم مشوهة واحكامهم مرفقة قوامها الجهل والسطحية والتمصب ، وأنهم يهدفون إلى اقتناص الحجج القاطعة لتقدم إلى المبشرين حتى يستغلوها في الجدل ، وقد أشار إلى ذلك كرادى فرحين قال : أن محمداً ظل وقتاً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة أو فظاظاة إلا نسبوها إليه وقد رد ما زعم هؤلاء الكتاب والشعراء المرتوة من الغربيين يهاجون للعرب ولم تكن مواجهتهم إلا تمهاً باطلة بل متناقضة . وإن المستشرقين لا يرجون من تفضيل الآداب الغربية على أمثالها في تاريخ العرب إلا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق إلى الرضا بالخصوع المدنية الغربية .



الفصل التاسع

الاستشراق والشرعية

لما كانت الشريعة الإسلامية هي الغاية الكبرى من الإسلام فقد كان لابد للاستشراق من توجيه الشبهات إليها ومحاولة البحث عن تناقضات يستطيع من خلالها أن يصل إلى هواه، وقد وضع حشد المستشرقين على الشريعة الإسلامية فيها كتبه كوفن وريشان وكلامون وجانو وجولديزير ومرجاليوت ولامفس، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الإسلامية سبب تأخرهم وأنها عائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم، وأناروا الشبهات حول نصوصها وهرضوا لما اسعوه تطور الشريعة بتطور العصر وغير ذلك من المحاولات الباطلة التي عرفت عن الشرائع الوضعية التي تحتاج في كل عصر إلى تغير مع روح العصر بينما الشريعة الإسلامية شريعة ربانية منزلة قد وضعها الدارح الأكبر معققة لقيام مجتمع الأمن والسكينة وجعلها ذات أطر واسعة وافية وقادرة على تقبل تغيرات العصور والبيئات، وهي من أجل ذلك لا تحتاج إلى تطور لأن أسسها الثابتة راسخة البنيان ثم هي راسخة قادرة بعد ذلك على تقبل المتغيرات . ولقد حاول الاستشراق الادعاء بأن الشريعة الإسلامية نجاع ما كان لدى العرب من الأعراف وهو ظن كاذب ودعوى باطلة فندها علماء الإسلام وكسذبوا ما ذهب إليه أمثال شاخس وغيره . وكانت من أخطر مجادلاتهم الادعاء بأن الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الروماني وهي أيضاً دعوى ظاهرة البطلان وآية ذلك أن مؤتمر القانون الدول في لاهاي عام ١٩٣٧ قرر أن للشريعة الإسلامية نظام قانوني مستقل غير مأخوذ من التشريع الروماني وبذلك أقر تمثيل الشريعة الإسلامية في محكمة العدوابة كنظام، ومن تلك الفهات التي أنارها الاستشراق دعوى الفعل بين الدين والدولة واقول بأن الإسلام دين هبدي لا صلة له بنظم المجتمع، وهي محاولة لتصوير الإسلام على هيئة المسيحية الغربية، بينما الإسلام في جوهره وطبيعته دين ومنهج حياة لا سبيل إلى انفصالها ولقد كانت محاولة فصل الدين عن الدولة هي إحدى محاولات النفوذ الغربي الذي فرض على المجتمعات الإسلامية استعمال القانون الوضعي . واقد كانت محاولات الاستشراق لضرب الشريعة الإسلامية عاملاً ما يرمى إلى الحيلولة دون تطبيقها في المجتمع الإسلامي . أما محاولة الربط بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني فقد كشف علماء المسلمين عن فروق حقيقة بين الشريعة والقانون، أبرزها أن الشريعة لم تفرق بين الروح والجسد ولم تهمل إحدهما بحسبان أن الإنسان مركب منهما جيماً وأن الفقه الإسلامي قسم على أساس العبادات والمعاملات والمقوبات بينما قسم القانون الروماني على أساس الأشخاص والخصومات، وأن أساس القانون الإسلامي مستمد من كلام الله المنزل بالوحي أما أساس القانون الروماني فمستمد من مشيئة الإنسان، وأن خلاصة القانون الإسلامي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بينما بني الرومان أحكامهم إما على أوامر رئيس الحكومة أو العرف العام وقد أهملت كتب الفقه الروماني المسائل العمومية كالأمور الدستورية وأحكام

القانون الدولية وجعلتها من أمور العبادات بينما الإمام عند فقهاء المسلمين هو أمام صلاة الجماعة كما هو أمام دولة المسلمين، وفي القتل تشكل العقوبة عند المسلمين حسب النية من حيث العمد والخطأ ولا توجد هذه عند الرومان، وكذلك الهبة والقصاص عند المسلمين وكذلك الحدود التي تتعلق بالقتل والزنا والسرقة والقتل وشرب الخمر والارتداد، بينما الزنا والقتل وشرب الخمر ليست محرمة عند الرومان ومن ثم فلا عقاب عليها. وليست هناك مشابهة بين الفريعة الإسلامية والقانون الروماني في الزواج والطلاق فالإسلام لا يعرف إلا قسماً واحداً من الزواج وهو عقد يجمع الزوجين برضاها بينما يوجد عند الرومان أصناف عديدة للزواج الجائز يعتبر أكثرها عند المسلمين كالزنا. وقانون الوراثة وتقسيم التركة عند المسلمين يباير ما عند الرومان، وكذلك نظام القضاء وأدوات القصاص، والقانونان مختلفان حتى في المعاملات المالية، فنلا الربا فهو محرم عند الرومانيين وحتى أساس التجارة يختلف بينهما فالبيع عند فقهاء المسلمين (عقد برضا المتعاقدين) وهو عند الرومانيين عقد يتعلق بالمال. ويقول الدكتور محمد حيدان أن الفقهاء للمسلمين ما كانوا يعرفون اللغة اللاتينية التي كتب بها القانون الروماني ولم تترجم هذه القوانين إلى العربية قبل أوائل القرن العشرين، ومن المعروف أن المفتي عند الرومان هو موظف الدولة، أما عند المسلمين فالفقيه لم يكن أبداً إلا رجلاً من عامة الناس تعلم وتفقه فأفتى ودون كتب الفقه. وفيما أورده شاخت وجرونييه وجولد زيه من القول بأن التشريع الإسلامي المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الإسلام كان مستمداً من النظام القبلي وأن العقوبات في الإسلام كانت تحت السلطان القبلي فقد زيف الباحثون المسلمون هذه التبعات وكشفوا عن مصدرها المتمسب الحاقق الذي يمكن في صدور أهل الاستعراق الغربي والصهيوني. يقول الشيخ محمد أبو زهرة: هل كان في النظام القبلي أن الفرد يقتل بالفرد وأنه لا يسأل غير القاتل وأن النفس بالنفس ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد وليست متساوية بحكم القبائل فزعم القبيلة يقتل به العرب، وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحر بالعبد، بل إن السيد يقتل إذا قتل عبده، وهل كان في حكم القبيلة جلد لزانى بمائة جلدة أو الرجم وخذ الخمر بثمانين جلدة أو أوبعين وخذ القذف بثمانين جلدة؟ وهل كان في حكم القبيلة أن العبد تكون عقوبته هل النصف من عقوبة الحر؟ وهل كان في حكم القبيلة أن المارق تقطع يده؟ لقد أغفل (شاخت) كل الحقائق وقال في كلمة واحدة: إن حكم الإسلام في العقاب امتداد لحكم الأعراب. وفي شأن الطلاق الذي جاء به الإسلام، هل هو ما كان متبعاً في الجاهلية وهل حقوق المرأة كما قررها الإسلام هي التي كانت في الجاهلية أو عند الرومان؟ هل كان للمرأة عند العرب أو الرومان إرادة في تزويج نفسها والولاية الكاملة هل مالها، هل المرأة كان لها كيان كامل عند الروماني أو عند الفرس أو عند البدو. هل أقر الإسلام نظام التبني الذي كان معمولاً به عند العرب وعند الرومان، وهل نظام الولاية هل النفس والمال هو ما كان عند الرومان؟ الإسلام قد اعتبر الولد حراً في التصرف في نفسه وماله بمجرد بلوغه البلوغ الطبيعي والرومان كانوا يعتبرونه في ولاية أبيه ولو بلغ السنين، حتى يمنحه الأب حق التصرف، هل نظام الميراث كما قرره الإسلام سبق برأى في شرح من الشرائع؟ ويشهد فلاورن وتيمه آسرون من الاستشرقين أمثال كايثاني

وبيكر ديل وجرد هذان شبهة أن العرب لم يعرفوا سياسة المال ونظام الضرائب لما فتحوا البلاد ويوهى فلها وزن أن العرب كانوا يحبون من البلاد التي فتحوها أنماوات إجمالية وأنهم اتبعوا النظام الفارسي الروماني الذي كان سائداً في تلك البلاد في جمع الضرائب واستعملوا نفس أسماء ونظم الضرائب التي كانت مستعملة في المبرود السابقة ومن ضربية الأرض (الخراج) وضريبة الروموس (الجزية) ويرد الدكتور بدوي عبد الطيف على هذه الشبهات فيقول: من الحق أن الآراء التي ذهب إليها فلها وزن ومن تابعة من المستشرقين خطأ إلى خطأ وذلك لأن العرب عرفوا سياسة المال ونظام الضرائب الحقيقية منذ قيام الدولة الإسلامية ولم يطلبوا أنماوة معلومة ثابتة من البلاد التي فتحوها إلا في حالات قليلة معينة، وأنه كان هنالك منذ البداية أنواع من الضرائب المحددة لها قواعد وشروطها ولها نظام جبايتها وكيفية تحصيلها، وأنها كانت تريد وتنقص حسب الظروف والالاسات وأن خطة العمل في الجهاز الضريبي سادت في دقة ونظام في جميع الأقطار وبخاصة في مصر وأن مركز الخلافة كان شديد الرقابة والإشراف على الإدارة الضريبية وأجور الضرائب، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن العرب عرفوا النظام للمال والمعاني الاصطلاحية المتصلة به منذ الفتح الإسلامي وأن أقوال العرب من المؤرخين والفقهاء كمصادر تاريخية وتشريعية هامة جديرة بالثقة والاحترام وأنه يجب التدويل عليها ولا سيما إذا قلنا أن ما جاء بها يكاد يتفق مع ما جاء من شواهد البردي وغيره من الوثائق التاريخية للمادية، وبما يدل على أن نظرية فلها وزن في حاجة إلى إعادة نظر حين تناول النظم الإسلامية بالدراسة، ذلك أن العرب عرفوا نظام الضرائب الحقيقية في الفتح الإسلامي الأول ماثبت من أن ضريبة الروموس (الجزية) لم تسكن موجودة في مصر في العهد البيزنطي المتأخر وإن كانت موجودة في فترة أسبق وذلك يعني أن العرب استحدثوا ضريبة الجزية لما دخلوا مصر فتمخض أيام الخليفة عمر بن الخطاب وأنها كانت ضريبة حقيقية لها نظامها وسعرها الخاص، فرضت على أفراد بأعيانهم وأعطى منها آخرون حسب قواعد ثابتة فرعية لقد حدد عمر بن الخطاب وقت أداء هذه الضريبة (الجزية) بما يتفق ومصالح الدافعين وكان وقت تحصيلها في نهاية العام الزراعي حين تحين الغلات ويأتى وقت الحصاد شأنها في ذلك شأن الضرائب الأخرى كالخراج والزكاة، كذلك نص الخليفة صراحة على الأشخاص المسكفين بدفع ضريبة الجزية فأوجبها على الذكر البالغ الصحيح الجسم والعقل بشرط أن يكون له مال يدفع منه فافترض عليه وأعطى منها النساء والأطفال والشيخوخ لأن الحرب لا تمنع عليهم، ولا يدفعها العمى والمقعدون إلا إذا كانوا أغنياء. وكذلك الفقراء والمساكين والأرقاء والضعفاء ولم يكن يطالب بها الرهبان إذا كانوا في عزلة عن الناس أما إذا اختلطوا بهم فتموخذ منهم لأنه لا يؤمن خطرهم وشرم، فهذا وغيره من الصحيح الدامغة التي يطول ذكرها، وهذا يدل على عدم صحة فلها وزن ونظريته وكذلك يدل على خطأ من كانوا بعده وساروا على دبره، وأن العرب عرفوا منذ قيام الدولة الإسلامية النظام للمال والنظام الضرائبي في الإقاليم المختلفة وأن الإسلام عامل أهل البلاد المفتوحة على أساس إنساني كريم فأباح الفتح بكل ما فيه من خير ومزايا ولم يتم أمام أحد أي حاجز من الدين أو اللون أو الجنس أو اللغة. وقد أجاد المستشرقون طبعاً أمهات كتب الخراج فأنشروا كتاب الخراج لسكن من يحيى بن آدم والإمام أبي يوسف

يقول عبد الله مختار (مجلة المجمع - دمشق - إبريل ١٩٦٨) وكان هذان الكتابان قد طبعا عدة طبعا قبل ذلك بالعالم العربي وأوروبا والطبعة الحديثة التي طبعت ١٩٦٣ خير أمينة والواضح أن ددف هؤلاء في تقديم نصوص فقه الخراج بصورة مشوهة كانت غاية تقديم أسس نظرية واثقة يمكن استخدامها للنيل من عدالة تشريع الخراج في الإسلام ، فقد حاولوا تفسير وترجمة تلك النصوص الواضحة بشكل يخدم أغراضهم بعد تزيف تلك النصوص وقد حاول المستشرقون تفسير التطور في النظام الخراجي بين ما كان في عهده الأول وبين ما كان بعد أن أقام الله عليهم ووسع عليهم وفتحت بلاد القرم والروم ودخل أهلها ضمن إطار المجتمع الإسلامي ، حاولوا تفسير هذا بما يتفق مع ما يحملون من آراء مسممة ، وفي سبيل ذلك استخدموا التناقض الظاهري بين أحكام الشرع الخراجي وبين الوثائق المالية الخراجية للوصول إلى الزعم بأن هناك تضارباً حاداً بين التشريع وواقعه الحال . وبأن أهل العهد عاشوا أحقاباً طويلة من الاضطهاد والاستغلال . ولو فحص هؤلاء المستشرقون تلك الوثائق الخراجية وأحكام الخراج النظرية لتبين لهم بأن هذا التناقض الظاهري لم يتعارض مع روح التشريع الإسلامي ولتبين لهم بأن ذلك لم يكن إلا استجابة لحكم التشريع في التخفيف عن أهل الذمة وهذا ما أثبتته الوثائق الخراجية نفسها . وقد أشار الذين نشروا كتب الخراج حديثاً إلى مضمون الاصطلاح المميز للتشريع الخراجي (حقو - فضل - طاعة) وفسروه بشكل يفقد التشريع روحه العادلة . ويفضي إلى الجمع المطلق وقادم إلى ذلك الفهم عدم إمكانهم متابعة الأحكام العامة التي وهدمت من الناحية النظرية فقط في مسائل خراج البلاد المفتوحة عن طريق الصلح أو عن طريق الحرب والقوة وهو ما أدى بهم إلى التضارب في الرأي .

الفصل السابع

لاستشراق والاداب

أولى الاستشراق الادب العربي أمّا واضحاً وتخصص فيه أمثال :

مارجوليوث وكلان هوار ، وجب ولينو ، وبروكلمان وريچيسر بلاشير وكراشوفسكي . وقد أهدى الاستشراق الفكر الباطني وإخوان الصفا وأعلن تأثر الادب العربي بالفكر الفارسي وبالادب اليوناني .

أما مارجوليوث ، فقد فرض فرضاً في الشعر الجاهلي نشره في يوليو ١٩٢٥ في إحدى المجلات الاستشراقية ، وفي خلال عام ١٩٢٦ نشره طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) ولم تختلف وجهة نظر المستشرقين في الادب عن وجهة نظرهم في سائر العلوم ، فالغربيون منهم أمثال بروكلان يقول في كتابه عن الادب العربي : إن القرآن محاولة للقول بأن المصادر الاصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية ، وجولد سيجر يقول بأن هذه المصادر مأخوذة من التوراة ، ويحيى من يقسم القرآن بينهما فيقول إن

للملكي نصراني والمذني يهودي مجاورة للمسلمين في مكة انصارى نهران ومجاورة المسلمين في المدينة ليهود غطفان، وقد ركز الاستشراق في مجال الأدب على الأدب الشعبي والعاميات والاهتمام بشعر الغزل والمجون واعتبار ألف ليلة والأغاني من مصادر البحث الأدبي . وقال نولدكه ومولر أن قالب الشعر من الأقوال الشعرية وأنه تأثر بموعظة للبشر المسيحي على لسان المبشرين العرب في جنوبى الجزيرة .

واعتاد رجال التعريب من اتباع المستشرقين على تطبيق نظريات الأدب الغربي على الأدب العربي وهو نظريات مادية تقوم على مفهوم أن الإنسان خاضع للبيئة والعصر وأنه مجبور وليس له إرادة ، وأنه حيوان مادي يخضع للجنس أو لقمة العيش . وكان أبرز التراث الذي حققه الاستشراق : معلة لبيد ، ومقامات الحريري ، وكليلة ودمنة والمعلقات السبع ودويان امرئ القيس والطواسين للجلاح وألف ليلة ورسائل إخوان الصفا وكلها أعمال لا تشي بطابع الأدب العربي الحقيقي المعتمد من القرآن والسنة . وفي الشعر عمدوا إلى إحياء بشعار وأبي نواس والضحاك . ويطلق جب على عصر الجاهلية : العصر البطولي ويرفض المستشرقون مصطلح العصر الجاهلي إسماعيل لمصر ما قبل الإسلام ، ويحاولون لتشرقون تزييف عصر ما قبل الإسلام على أنه عصر استنارة وحضارة ويسمون عصر الإسلام عصر التوحش ليثبتوا أن الإسلام لم يقم بأى تغيير حقيقى وإنما جاء متأهباً لما قبله ، وفي مجال اللغة يرمون بأن اللغة العربية لغتان : شمالية وجنوبية . ويركز جب ونيكلسون وغيرهم من مؤرخى الأدب العربى على الإشادة بدور الثقافة اليونانية في المنطقة وأثرها ، ولديها يردون كل ما في الأدب العربى من كلام ، وإلى الثقافات الفارسية واليونانية يردون كل أمور النحو والبلاغة . ويقول جب : إن الذين رفضوا لواء الفكر والفن في العصر العباسى هم من أصل مسيحي أو نصف مسيحي ، وهناك الاهتمام الواضح بالمتولة وهم يردون الاعتزال إلى الفكر اليونانى ويهتمون بانتصار البوحيين والشيعة ، ويرى جب أن ذلك نتيجة الحيرة الحلينية ، ويهتمون بالموشحات والمقامات ويطلقون على العصر المملوكى عصر الانحطاط . مع أنه حافل بالموسوعات : المقرئى وهر بشاه والسيوطى ، ويكشفون عن إساءة تامة وتغصب كامل لعصر العثماني ويربطون النهضة العربية الحديثة بالحلة الفرنسية وأثر الإصلاحات .

ويركز جاك بترك (في كتابه مختارات من الأدب العربى المعاصر ١٩٦٤) على ما يدعيه النهضة التى بدأت في بيروت ١٨٨٠ (بطرس البستاني واليازجيان وجرجى زيدان . ويقول إن المجموعة المستنيرة بدأت من الأفليات ثم انضم إليها بعض المسلمين ، ويعنى نهاية وافرة بجيل المهجر : جبران ورميمية ويرى أن طه حسين هو الذى قام بدور البطل في حل لواء النوعة العقلية في أدب البحر المتوسط والواقع أن رؤياه لم تكن صادقة فقد تأثر بأدب كان مفروضاً على عصره ولم يكن نابعاً منه حين اهتم بالعصر الحر وبكتابات لويس عوض وحسين فوزى ونجيب محفوظ وصعيد عقل ، وعين جعل مصدر العمل الأدب العربى : مجلة شعر ومجلة حوار . وقد كشفت الدكتوراة بنت الشاطىء في مقدمة أطروحتها عن الغفران هدم فهم واحد منهم هونيكلسون لبيان العربى وقاله إن فيه للنصوص فيه أخطاء كثيرة بعضها حين يمكن التجاوز عنه أما الكثرة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهمه للنصوص العربية .

(راجع مقالنا الاستشراق والأدب في كتابنا خصائص الأدب العربى)

الفصل العاشر

الاستشراق والتاريخ

جرت محاولات الاستشراق حول تزييف تفصيل التاريخ الإسلامي وإخضاعه لمناهج وافدة تفسره مادياً أو اقتصادياً أو تخرجه عن منهجه الأصيل ومفهومه الأساسي ، وبذلك تبسّد صورة التاريخ المسلمين بمزقة مضطربة ، وبذلك يفقد الهدف الأصيل من دراسته والغاية المثلى من التعامل معه . ولما كان التاريخ عاملاً هاماً من عوامل بناء الأمم وتربية الأفراد فقد كان حرص الاستشراق على إفساد هذه الغاية وذلك ببعث الجوانب المضطربة والروايات الخلافية وصور التناقض والتحصنة وكلها صور لا قيمة لها في بحر التاريخ الإسلامي العريض الجياش المليء بصور البطولة والحيوية والقوة ، والذي كان قادراً على العطاء الهائم للأجيال المتجددة . ويستهدف عرض الاستشراق للتاريخ إلى إثارة الالتباس بين القيم المتكاملة بين العرب والإسلام وبين الموجات العربية التي خرجت من الجزيرة العربية إلى الآفاق تحت اسم الفرعونية والبابلية والفينيقية حتى تضطرح هذه الدعوات مع العروبة والإسلام . وكذلك العمل على تجميد الحضارات القديمة السابقة للإسلام مع التركيز على الحركات المضادة للإسلام والتوسع في دراسات الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفكك ، ويقوم هذا العمل على أساس دراسة الروايات المختلفة والنصوص المتعارضة وحرب بعضها ببعض لإثارة الشبهات ولإرباب أن الهدف من بعث دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية إنما يستهدف تمزيق وحدة المسلمين والغرض من شأن الإسلام .

وهكذا تبدو صورة الإسلام في كتابات الاستشراق مليئة بالسموم والالتباسات العقلية والتاريخية وأن نظرة إلى كتابات بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية لتوحى بهذا الهدف فهو يدين كل الحركات الإسلامية الصحيحة ويعلى من شأن الونج والقرامطة والباطنة ، أما روزنتال فإنه يصور التاريخ الإسلامي على أنه سلسلة متصلة من الحكام الطغاة وأن التاريخ الحضاري للإسلام كان تسكراً مسجلاً للأفكار ، وأن التاريخ الديني كان بغايا متحجرة متجمدة تناقلتها الأجيال بعضها عن بعض . وهناك الغدور بصلاح الدين والتكلم عن شجاعة الصليبيين ، والقول بأن المصريين لم يعرفوا الاستقلال وكانوا تاريخهم كله خاضعين للرومان والفرس والعرب لماذا لا يخضعون للإنجليز ، وكذلك اتهامهم المسلمين بحرق مكتبة الاسكندرية . ويحاول الاستشراق أن يصور الإسلام وقد قام بالسيف وأن المسلمين الجاهدين كانوا يطمعون من وراء الحرب إلى الغنائم ، كما يحاول القول بأن العرب بدؤوا بالخلاف بين العرب والأعراب .

وهناك محاولة للقول بأن العرب قبل الإسلام كانت لهم حضارة وذلك في محاولة إعلاء الجاهلية بأنها عصر البطولة واعتبار الإسلام امتداد لها والاهتمام بالفحاسة والمناذرة . وكذلك التشكيك في عالمية الرسالة الإسلامية وإثارة الشكوك حول الكتب التي بعث بها النبي عليه الصلاة والسلام إلى الملوك والوعم بأنها وضعت في صورتها الأولى بعد قرون من حياة النبي . وإذا راجعنا كتابات الاستغراق لتاريخ الإسلام وجدنا من يحاول استغلال الثغرات الموجودة في المراجع العربية - كما يقرر الأستاذ محمود بسيوني - لينخرج منها استدلالات وتخریجات جديدة تنفي وهوى أصحابها وأن هذه الكتب وإن اصطفت المنهج العلمي في دراستها إلا أننا لا نستطيع أن نطعن إلى ذلك كل الاطمئنان . ولذلك تعتبر بعض المراجع الأوروبية في التاريخ الإسلامي مراجع قاصرة قصوراً بقدر قيمة هذا العنصر الهام من عناصر الدراسة التاريخية فالمستشرق حينما يحاول أن يكتب التاريخ الإسلامي ينظر دائماً من وجهة نظره الخاصة كأوربي، فخذ مثلاً لين بول، في كتابه مصر في العصور الوسطى، وستجد حتى عنوان الكتاب يعبر بوضوح عن هذا القصور، فالوضع الطبيعي أن يقول مصر الإسلامية أو حتى العربية لأن تعبر القرون الوسطى قد اقترن في أذهان الأوروبيين خاصة بالتدهور والانحلال والإحطاط في حين أن هذه الفترة التاريخية كانت فترة ازدهار الوطن الإسلامي والغربي عما فيه مصر، ومن ناحية أخرى نلاحظ بوضوح تعليقات لين بول الحاطنة للحوادث فهو كأنسان لا يؤمن بالإسلام ولا يستطيع أن يضع أسباباً لحدث تاريخي عظيم مثل فتح المسلمين لمصر غير تلك الأسباب المادية التي تقفز إلى ذهن الأوربي إنسان العصر المادي ولا يستطيع تحليله القاصر أن يصل إلى أغوار الحقيقة العميقة الجانور، وإذا أخذنا ما كتبه (بول) عن الرسول عليه السلام نجد نفس القصور مع تعمد أكثر للطنق . ومكذفا نجد أن التفسير الغربي للتاريخ، عاجز عن فهم أبعاد التاريخ الإسلامي الذي يقوم على عنصرى المادة والروح مما متكاملين وعلى عنصرى الشهادة والغيب مجتمعين . أما التفسير المادي للتاريخ فإنه يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام فهو لا يرى أن هناك فيها أخرى كالدين والخلق والإيمان يمكن أن تكون دافعا من دوافع حركة التاريخ ويتجاهل القوى المعنوية للامم والشعوب . والتاريخ الإسلامي لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الإسلامية الجامعة المتكاملة للحياة الإنسانية وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمي . ومع الأسف فإن بعض العرب يطبقون هذه المذاهب ليفسروا بها تاريخ أمتهم فيخطئون أشد الخطأ .

ذلك أن روح الفكر الإسلامي وحضارته وتاريخه تقوم أساساً على وحدة الكون والانسجام الطبيعية ، وذلك على أساس أن الإسلام هو النظام الجامع المتكامل الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد في نظام الدين والسماء والأرض في نظام الكون ويسلكها في طريق واحد هو الطريق إلى الله ، وأن الإسلام والإسلام وحده هو الذي يجمع بين العلم والدين في وحدة تامة غير متنافسة، ومن هنا فإن تطبيق منهج المستشرقين في فهم التاريخ يحول بين الباحث المتطلع إلى الحقيقة وبين هذه الحقيقة ويجعل نتائج البحث مضطربة غامضة ، وقد تنبه إلى هذا المعنى كثير من كتاب الغرب . يقول الدكتور تريتون : إذا صح القول أن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحاً في تحليل بعض الظواهر

التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يملأ وحدة العرب وطلبهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلم الصحيح لهذه الظاهرة الفردية : هذه الظاهرة هي الإسلام، ويقول اليان وايدغراي : إن نظرة المسلمين إلى التاريخ نظر بناءة فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي (القرآن) فإن إرادتها حينئذ تتطابق مع إرادة الله . ويقول وليفرد كانتولي ميميت : إن المسلم يحس بالتاريخ إحساساً جاداً ، فهو يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، فالمسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو ساهع لها بالمرور ، فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتمتله ويكون ذلك أغل قريبان يتقدم به إلى الله ، فإن المسلم حين يضحى بنفسه في سبيل أن هناك نظاماً إلهياً يراد أن يطبق في واقع الأرض وهذا قائم في حسه وهو يضحى حتى يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الإمام .

الباب الثالث

خطط الاستشراق : بين التحول والثبات

اولاً : طريقة المستشرقين في البحث . ثانياً : مواجهة المستشرقين في مؤتمراتهم .
ثالثاً : وقفة في وجه الاستشراق . رابعاً : دراسات المستشرقين . خامساً : الاستشراق يغير جلده .

الفصل الأول

طريقة المستشرقين في البحث

عندما بدأ الدكتور محمد حسين هيكل ترجمة كتاب حياة محمد للمستشرق أميل درمنجم في السياسة الأسبوعية ١٩٣٢ خلق الدكتور حسين الهوارى على هذه الفصول فقال : وكأنى بالاستاذ يعجب بما في الكتاب وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلف بين الاسلام والنصرانية مع ما يفرضه من حسن النية في المؤلف والماعظة الدينية والأدبية في الناقد إلا أننا رأينا القلدين يسيران في ذلك الطريق الذى رسمه قديماً جماعة المستشرقين للبحث والاستقصاء في حياة النبي العربي مما يجب أن تلفت إليه نظر الباحثين والكتاب إلى هذا العصر الذى طغت عليه أفكار جماعة المستشرقين حتى أخذنا نقتبع آثارهم في كتاباتهم عن الشرق بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة أن حصر الأساس في مباحث المستشرقين عن النبي الكريم لا يخرج عما لحقه الاستاذ هيكل بقوله : «والواقع أنه منذ الساعة الأولى بل من قبل أن ينزل جبريل بالوحي كان محمد أشد ما يكون نفوراً من الوثنية التى نشأ ونشأ أهله في قريش فيها ، وأشد ما يكون ميلاً لهذه المعانى الروحية التى يتحدث عنها النصارى واليهود والمنهثون من أهل الكتاب في أنحاء شبه جزيرة العرب ممن كان يتصل بهم أثناء ذهابه إلى الشام وإلى اليمن في القوافل قبل أن يقوم في تجارة خديجة وبعد أن قام فيها ، وهذه المعانى المتوثبة فيه منذ صباها إلى السككالى هى التى دفعته إلى تحننه في كل عام بفارحراء شهوراً أو أكثر من شهر ، ثم قوله : «هذه الاتصال بأهل الكتاب وكتبهم هو الذى أدى بمحمد كما قدمنا لينصح إلى الذين اتبعوه بعد أن أمضوا أفى قريش أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية فإن بها ماسكاً لا يظلم عنده أحد ، قالدى نفهمه من ذلك أن قدامهم أهل الكتاب كانت قد انفتحت نظر سيدنا محمد إلى السككالى الروحي والمثل الأعلى وجعلته يتحنن في الغار . وهذه هى طريقة المستشرقين في البحث والنشر ، ولذلك هبنا قديماً أن تناقش هذه المسألة وبرهنا على أنهم يستخرجون من ذلك أن مصادر القرآن هى هذه الكتب التى استفاد منها النبي محمد في سياحاته ، وحزبنا مثلاً بما يقول المدهو مرجليوت في كتبه من الهديان والتعصب

الأعلى المنقوت وهل حقيقة كانت الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية ولأن النجاشي العادل كان مصدر هذه المسيحية المجردة من التعصب لأن الصلة بين الإسلام والنصرانية جعلته يفيثهم ويمنع جوارهم ، وهل حقيقة كانت الحبشة متمتعة بتلك المدنية والحضارة التي وصفها لنا درمنجيم وزعم منها أنه عطف على المسلمين لتقواه وورعه ولما بين النصرانية والإسلام من صلة لا تتجاوز ما شبه النجاشي بخط يرمحه على الأرض بعمود في يده . تاريخ الحبشة في هذه الفترة غامض وأغرض تاريخ في العالم فكيف إذن يمكن أن نعمل هذه الرواية أساساً لمسألة هامة كهذه وكان لابد لنا من الرجوع إلى التاريخ الإسلامي نفسه وتبصع آثار هؤلاء المهاجرين وإذا فعلنا ذلك نجد (درمنجيم) شأن المستشرقين ، يشر هذه القصة بصفة مفهومة الحقيقة فلم يكن الدافع للنجاشي ورعه وتقواه ولم يكن سبب عطفه ورحمته ذلك الدافع الديني الذي صور له لنا الكتاب بقوله أن النجاشي قال بعد اقتناعه الديني (ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط) بعد أن أخذ عوداً وخط به على الأرض ، بل الدافع الحقيقي هو أن هذا النجاشي كان عادلاً وهذه الحالة هي التي ذكرها النبي في حديثه لأصحابه قبل أن يهاجروا إلى الحبشة (لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أراض صدق) ولم تكن هذه هي الهجرة الأولى بل كانت الثانية وقد عاد من هاجروا أولاً بالخبر اليقين في بلاد الحبشة فإذا كان سبب عدله النجاشي ؟ كان سببه على ما روته عائشة أم المؤمنين أن أباه كان ملكاً على قومه ولم يكن له ولد إلا هذا النجاشي وكان للنجاشي هم له من صلبه إثنان قصر رجلاً فتأمر القوم على والده النجاشي وقتلوه وولد عنه ليوطد الملك له يافى عشر ولها للعهد ، وقام هذا العم ملكاً فباع النجاشي في سوق للنخاسة خوفاً منه لحزمه وعزيمه وعاش ربك أن يصعق هذا العم بصاحبة من السحاب برم باعه ، وابتلى أولاده فلم يجدوا بينهم من يصلح للملك فأرجعوا هذا النجاشي ثانية وولوه أمرهم فاشتهر بالعدل والعطف على الضعيف وحماية من استجاره . ومن هذا يتبين أن هذه الحادثة كانت مصدر عطف النجاشي وعدله ولم يكن للمعاطفة الدينية أثر في تصرفاته وإلا لجازت عليه حيلة حمراء إذ قال له إن الإسلام يعتبر السيد المسيح عبداً . وهناك نقطة ثانية هي تلك الآية العريضة التي اقتبسها درمنجيم من سورة يونس وهي (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من المتحيزين) فقد استدلل بها درمنجيم على أن الله تعالى رضى للناس الإسلام ديناً (مع بقاء الأديان التي سبقت وحدة مندمجة في هذا السكالك الروحي اندماجاً أشار إليه القرآن في قصص أصحاب هذه الأديان وما جاء به من الحق من عند ربهم وأشار إليه) حين أراد أن يثبت محمداً في أمر ما جاءه (أعترف بأنني لم أفهم شيئاً من هذه الجملة ولكن أنكر صراحة أن محمداً يحتلج به أي شك فيما جاءه وأن يثبت من صحته من يقرءون الكتاب قبله ، وإن هذا المعنى لا بعد ما يكون ما تخفى الصدور ومن أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وإذا صح ما زعمه درمنجيم لانهدم صرح الإسلام والقرآن من أساسه ولذلك قال ﷺ (لا أشك ولا أسأل) . إذن فالمقصود بهذه الآية ليس كما جاء على لسان درمنجيم أن يستشهد الله على صدق ما أنزل من يقرءون الكتاب ، وأن يلجأ نبيه لاستشارتهم ، بل المقصود على ما نرى أن أمثال هذه القصص وردت في الأديان السالفة لا أكثر ولا أقل وأن النبي لم يكن متصلاً بأهل الكتاب الآخرين لينقل عنهم . على أن هناك نقطة أخرى لم تطرح على بساط البحث وهي أن الدين الإسلامي بنصوص القرآن هو ملة إبراهيم والكعبة هي البيت الذي بناه وتذكره في التحيات في

الصلاة فكيف إذن لم تبحث الصلة بين هذا الدين وباقي الأديان؟ ولماذا لا يكون هذا الدين هو الوحدة التي يبحث عنها أولئك الذين يريدون إزالة الفوارق والمعادوات الدينية وامتداد الحروب الصليبية من عهدا الأول إلى اليوم في وسائل مقنعة من التبشير أو دور المستشفيات والمدارس؟ ولماذا لا تدع الأديان جانباً ونزيل هذه الخلافات بالاخلاق وحسن المعاملة التي هي الهدف الأكبر لجميع الأديان؟ إن في التأخر والحجة لآلف سبيل غير العريضة في البحوث الدينية التي تمس صميم المواطن والنفوس وتعمل الأديان في التقريب بين الأديان بفرض أن الصلة بين محمد وأهل الكتاب هي التي هيأت له سبيل السكال في التفكير قبل البحث، وهذه مسألة ذات خطر يجب على من يذكرها أن يقيم الدليل عليها، فنحن نعلم أن محمداً كان علياً في كل ما يختص الأديان قبل بعثه ولم تبد منه بادرة تعرف بها تلك الصلة، وفوق ذلك فإن بعثه بعد أربعين سنة من عمره تنافي تماماً أن صلته بالأديان الأخرى هي التي هيأت له طريق السكال الروحي وإلا لكان في نزق الشباب واشتغال الصبا أو القذهب بتلك الأديان وسيلة لإعلان ذلك السكال والتفكير، هل أننا لا نذكر أن تلك الصلة وجسدت بأظهر معانيها بعد البعث وبعد نزول القرآن فوجدنا فيها ما لا يعزز رأى درمنجم ولا كل المستشرقين الذين هم على شاكلته من حسن النية أو غير شاكلته ممن يستغلون العلم والماديات والطعن الجارح في الإسلام، وحسبك بالاختلاف بين رأى الإسلام والنصرانية عن السيد المسيح دليلاً على ذلك. وأبعد من ذلك فإن المدهور (مرجايوت) يدعى أن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة ويتخذ آية من القرآن دليلاً على ذلك (اقرأ وربك الأكرم) وهذا يدل على مبالغ الانعكاس النفس والفكرى من أمثال هؤلاء المفكرين، وإذا أردت أن تعرف كيف كانت الصلة بين محمد ﷺ والأديان التي سبقته وأنها لم تحصل إلا بعد البحث فارجم إلى حديثه مع هدى بن حاتم الطائي وفكر في تلك الروعة التي تملك عليك مشاعرك إذ تجد النبي يسهر معه سواء بسواء ويدعوه إلى منزله ويحمله على وسادة ويجلس الرسول على الأرض ثم يتحاورن. ففي مثل هذه الحادثة تجد السباحة والمودة، ولو أن تلك الحجج لم تأت إلا بعد الإسلام بما أنزله القرآن من تفصيل ولقي وإثبات فيما يختص بالأديان الأخرى، ولو كانت الصلة قبل البحث لوجدنا روحاً أخرى تنفيع لأحد الأديان قبل الدعوة للإسلام نفسه. والآن هل استفاد الشرق والإسلام من مباحث المستشرقين الذين أمعنوا في البحث والتنقيب والنشر والهداية؟ في رأيي — وهم الله أني لست ذا غرض إننا خسرنا كثيراً ولم نستفد شيئاً ولو أن أمثال درمنجم وغيره يريد حقيقة الدفاع عن الإسلام والشرق لكانوا أول من يعلن الحرب القلبية والكتابية على أبناء جلدتهم من المبشرين الذين ضجت منهم السماء والأرض وكانوا أول من يتكون ستر السياسة الاستعمارية التي تفرق بين الأديان تفرقاً يعلمه سكان البلاد الإسلامية عامة من أقصى الشرق لأقصى الغرب، ولوجدنا لمسلمي روسيا من يدافع عن حريتهم وينقذهم من ذلك المذاب الذي يحيق بهم من كل جانب. أما ما خسرته الشرق من نشر هذه المباحث فهو دخول أنواع التشكيك في كل ناحية من نواحي التفكير الديني والأدبي وطغيان تلك الأفكار على الهرق التفكير عاجله يعتمد على غيره في أم ما يختص بمباحثه وتاريخه ودينه ونحن نزع أن الشرق قوي برجال الفكر والثقافة ولم يعد في حاجة إلى الاسترشاد برأى المستشرقين فيما يختص بمناخه ودينه وزباً بأنفسنا وكرامتنا — أن نتعلم حياة نبينا من قم من لا يتبع دينه.

كنت أفهم أن معنى الدكتور هيكل بذلك النقد الطويل للمريض لو أن درمنهم أسلم واقتنع وسجل لنا أسباب اقتناعه وإسلامه البريء . إذا لكان في قوله عبرة وذكري : أما أن يكتب بمثل ما قدمنا فيبلغ الظن أنها صناعة قلبية ومعلومات تسجل لا أقل ولا أكثر . لقد خسر الشرق في تتبعه آراء المستشرقين أن فقد كثير من ثقله في البحث والتعبير لينخرج مما تكون لنا كتباً ومباحث مبتكرة في التأليف القومي والفكري والديني ونحن أحوج مما نكون للخصخصة المستقلة والتفكير الحر المستق من مصادرها المتعددة المكسدة في المكتب بما لم تمسها يد باحث حتى اليوم .

الفصل الثاني

مواجهة المستشرقين في مؤتمراتهم

منذ وقت بعيد ، والمستشرقون يستغلون مؤتمراتهم لينفثوا سمومهم في الهجوم على الفكر الإسلامي واللغة العربية، غير أن رجال حركة اليقظة كالوا لهم بالمرصاد، وهذه صورة تاريخية ننقلها هنا لتصور كيف كان هذا الموقف من الإستشراق قديماً وكيف كان الفكر الإسلامي قادراً على الردع والدحض لتلك السموم . ففي ٢٠ أبريل ١٩٠٥ بمدينة الجزائر عقد مؤتمر المستشرقين وكان البحث عن اللغات في العالم الإسلامي ووقف المسيو فولار لحصر بحثه في التهمج على اللغة العربية وقد نشرت جريدة الظاهر التي تصدر في القاهرة محضراً عن اجتماع المؤتمر في العدد المؤرخ ٦ مايو ١٩٠٥، قالت أن المسيو فولار حصر بحثه في تفرقة اللغة العربية الفصحى عن اللغة الدارجة على ألسنة الناس بين متحضرى البلاد العربية ثم استطرد إلى تمييز الفصحى والمقابلة بينهما ورد الذي فسد من كلام العامة إلى أصله من كلام الأفصح أو الفصحى، وفي كلامه خبط خبطة شاذة مؤلة للمسلمين في العالم كافة تؤذهم في إحساس نفوسهم وعقيدة شرعهم وإجماع كلمتهم ، أجل تهور هذا الأستاذ فقال في أثناء كلامه أنه لا يرى أن لغة القرآن هي أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضنة الناصحة التي تتخذ قاعدة من بين اللغات العربية ، وإذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصح فصاحة والارفع أصلاً وتركيباً من بين اللغات العربية وجب أن نرجع بالبحث إلى العصور التي سبقت ظهور الإسلام وكان عهداً السنة ٥٠٠ من بعد المسيح، فإننا نجد الكلام البليغ والأسلوب الصحيح الفصحى الذي لم يكن سواء بعد عند العرب بليغاً فصيحاً . وقال أن القرآن مديح على طراز خاص من النثر متأخر الآيات متفاصل ما بينها بمشابه السجعات ، وأن من قابل بين هذه السجعات التي تخللك كلام القرآن وقوافي المنظومات التي صبغت قبل ظهور الإسلام وجد هذه أمكن في اللفظ وأجزأ وأهرق في لغة العرب ووجد تلك ضعيفة رهوة أقرب في أغلبها إلى لهجة العامية منها إلى اللهجة الجذلة الفصحى .

وقد انبرى له من طارذه وخطاه ، واحتدم الجدل وكان الأعضاء في المؤتمر من المسلمين المصريين شاهدين لم يكونوا على علم باللغة الفرنسية فلم يفهموا موضوع البحث ولا لجهة المال قال ، فكفوا صلتين وادفئ " فقد الجلسة وقد استهين بالقرآن وأوذيت عقيدة الإسلام في الإيمان بأن القرآن كلام الله يجل عن أن يدانيه في فصاحته وبلاغته كلام بشر فخلا عن أن يماثله أو يفضله ، وفي الجلسة التالية تصدى له أحد العلماء وقال أن الوميل فولار قد أساء إلينا أعظم إساءة ونحن هنا في مجمع علم وأدب وأخلاق . بأى وجه يسوغ له انتهاك حرمة ديننا فيتلاهب المؤتمر بالقرآن الكريم والحط من شأن لغته يذمها لا يختر بخطر أحد من المسلمين أن يتعرض لجدال في التوراة والإنجيل أو غيرها من الكتب المقدسة عند الأمم حفظاً للآداب ؟ فكيف نرعى أن نضعوا قرأتنا في معرض البحث والمناقشة ، أن ما فعلتموه كشف عن تعدد التفسيرية لديننا والتضليل لعقيدتنا ونحن لانسكت عن ذلك . ومن أين لكم وأنتم الاغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد والفصيح والأفصح منها فإن صحة الحكم في اللغة تستوجب وجود ملكة راسخة في الحس عريقة في النفس وهذا مالا يؤتى بالكسب إلا بعد قضاء السنين الطوال في مواصلة الدرس وتتبع كل شعب من شعاب اللغة ومخالطة أهله ونسبه كلامهم وبلهجتهم إلى عاداتهم وطباعهم ، وللمقارنة بعد ذلك بين أهل الشعاب جميعاً في الكلام واللهجات وما وضعت له من أغراض وعادات ، فإذا تم ذلك لاجنب عن اللغة أمكنه أن يميز الفصيح من اللغات وأن يبدى رأياً ، وذلك يستحيل أو يصعب أشد الصعوبة أن يتم خصوصاً في اللغة العربية التي لا تحصى أجيالها ولا تنالها أما كتبها إلا بارتداد طويل الشقة . وهذا أمر لا يتسنى إلا للأهراب والعظماء والبلغاء الذين يحضوا اللغة العربية محض البن وأن على العرب أن يعرفوا ما هو أفصح الكلام وأبلغه في لغتهم وقد عرفوا فأصبحت حكمته من هنوا باللغة وكلامها عن شهداء الجاهلية والإسلام معاً ثم من حضروا الإسلام وجاءوا بعده ، إن كلام القرآن معجز لم يأت ولن يأت مثله أحد في فصاحته وبلاغته لفظاً وزكياً . وأزيد أن العرب في أيام عربانها ومستعربها اعترفت لقريش أنها أعلى القبائل كعباً في البيان فلما نزل القرآن أدهشت قريش وأخذ المعروفون بقوة المعارضة منهم في تحديه فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وأقرت نفوسهم على أن القرآن معجز للبشر .

وفولار هذا هو المعروف باسم فولرس الألماني الذي كان يومها مديراً لدار الكتب المصرية والمتحدث في الود عليه هو الشيخ عبد العزيز جاويز الذي كان يحضر المؤتمر مع الزعيم محمد فريد والفى كان أستاذاً بجامعة كبرج في ذلك الوقت ، وقد بهر جاويز السامعين بحديثه الذي وصفه محمد فريد ببلاغة العبارة وجزالة المعنى .

الفصل الثالث

وقفة في وجه الاستشراق

من المقطوع به أن الإستشراق من خلال هدفه ومهمته قدم للفكر الإسلامي العربي أشياء كثيرة نافعة لا يمكن إنكارها ولا تجاهلها وذلك في مجال إحياء التراث والتبويب والفهرسة . ولنا على ذلك تحفظان : (الأول) أن التراث الإسلامي العربي سرق من البلاد بأساليب متعددة يمكن الرجوع إليها فيما أشار إليه كثيرون ومن بينهم الدكتورة بنت الشاطيء في كتابها (تراثنا) وبعض الأبحاث الأخرى . وكان انتقال هذا التراث إلى أيدي دوائر الاستشراق واحداً من أخطر التحديات لأنه أصبح حبة طينا لا لنا ، وأصبح إحياءه يجري على النحو الذي يتخذه الاستشراق لا وفق إرادتنا الخاصة، وكل ما حاولناه في السنوات السبعين أو الثمانين الأخيرة لا يمدو قطرة من بحر ، هذا فضلا عن أن معارلاتنا كانت تطبعها طوابع ليست لها أبعاد التقدير الكامل وإنما كانت تجري في مجال الإحياء للأدب أو الشعر أو غيره مما هو ليس الأم من التراث .

(١) (التحفظ الثاني) : أن المستشرقين جروا على خطة إحياء أنواع معينة من هذا التراث، في مقدمتها التصوف الماسقي وعلم الكلام وأبحاث الاعتزال والباطنية وكل هذا ليس لنا ولمكنه علينا والمقصود به طرح خلافات سياسية قديمة أفسدت فكر المسلمين ومزقتهم شيئا في الماضي ثم تلاشت بعد أن تغلب عليها المنهج الاصيل الذي أقامه المسلمون تحت اسم : مذهب أهل السنة والجماعة .

(٢) عن المستشرقون بجوانب معينة من التراث وأولوها اهتماما كبيرا منها دراسات الخلاج التي عنى بها ماسنيون ودراسات عن السهروردي وبشار وأبي نواس وأخرى عن ألف ليلة وكنية ودمنة وما يتصل بآب الزاويدي وإحياء الأغاني وكل هذه الدراسات فيها شبهة طرح مفاهيم من شأنها أن تحطم مفهوم الإسلام الاصيل أو تزييفه .

(٣) كان المستشرقون في العصر الماضي يقفون من رجالنا موقف التلاميذ أمثال أحد ركي باشا وأحمد تيمور وعبد العزيز جاويش، وليراجع الباحثون مناقشات عبد العزيز جاويش في مؤتمرات المستشرقين في الجزائر عام ١٩٠٥ رداً على أحد المستشرقين عن القرآن واللغة العربية . ثم تفهت الخطط فأصبح مقفوناً في جامعات أوروبا تلاميذاً للمستشرقين في دراساتهم وجاء بعضهم إلى مصر من بعد فأعلى من شأن الاستشراق (راجع مقدمة طه حسين لكتابه عن الأدب الجاهلي) ومن المعروف أن طه حسين وزكي مبارك ومنصور فهمي ومحمود عزمي كانوا تلاميذاً لمستشرقين يهود هم دور كايم وليفي بريل . والآخر هو الذي حرض منصور فهمي على معالجة موضوع تعدد زوجات الرسول بأسلوب استشراقي .

(٤) خطأ الرأي الذي يردده المستشرقون ويتابعهم فيه طه حسين وزكي مبارك من أن العرب كانوا أمة لها حضارة كاملة ومجتمع منظم قبل بعثة الرسول ونزول الإسلام . والواقع أن العرب لم يكونوا أمة ولا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام وشعرهم يشهد بأن كلمة العروبة لم ترد فيه إطلاقاً وإفا وردت كلمة القبية فالإسلام هو الذي جعل العرب أمة .

(٥) المكتابة عن الاستشراق من وجهة نظر إسلامية أو عربية يقتضى الاعتماد على مصادر أصيلة وعلى الكتاب الموثوق بهم وفي مقدمتهم : مصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا وعبد عبيد والدكتور محمد محمد حسين ومحمد المبارك ودروزة والدكتور عزمين الحواري والدكتور محمد الهبي والدكتور عمر فروخ وعبد العزيز جوايش . ثم تأتي بعد ذلك كتابات المستشرقين عن الاستشراق لتكون موضع المناقشة ، أما أن تكون كتابات المستشرقين هي المصدر لدراسة الاستشراق فذلك مما يتعارض مع المنهج العلمي . فإذا جاء بعض الكتاب ممن تبعوا المستشرقين بشأنهم في ذلك شأن المستشرقين أنفسهم تؤخذ آراؤهم بحذر .

(٦) الحلة التي شنها الاستشراق على الدولة العثمانية حلة ظالمة وقد قامت أساساً منذ يرمها الأول إلى اليوم لحساب الصهيونية العالمية وجاءت على أثر الموقف التعريف الكريم التاريخي للسلطان عبد الحميد في وجهه . مرتكز ، ومطلب السماح لليهود بالإقامة في فلسطين (راجع في هذا بحث أحمد الشقيري وأحمد طربين عن القضية العربية) . ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة وثائق متعددة تكشف الكثير من هذه الحقائق ، هذا ولا يمكن إصدار حكم تاريخي على الدولة العثمانية كلها ويجب مراعاة مرحلة القوة ومرحلة الضعف . أما في الفترة الأخيرة فهناك أمران واضعان تمام الوضوح أمام الباحث : يحاول المستشرقون وأتباعهم طمس حقيقةهما ويدخلون الواحد منهم في الآخر لإدخالاً خريباً هما : مرحلة السلطان عبد الحميد التي انتهت عام ١٩٠٩ ومرحلة الاتحاديين التي بدأت في نفس العام وانتهت بنهاية الحرب العالمية الأولى . المرحلة الأولى هي مرحلة المقاومة الصاعدة برفع رايات الجامعة الإسلامية في وجه الاستعمار والصهيونية ، والثانية مرحلة الصراع الدموي وتسايم فلسطين لليهود وقتل العرب والقضاء على الدولة العثمانية بإدخالها في الحرب العالمية وتسايم طرابلس الغرب للإيطاليين .

(٧) لا ريب أن الأدب العربي هو من صنيع الإسلام ، فلم يكن للعرب قبل الإسلام أدب بالمعنى العلمي لهذه الكلمة إلا قصائد الشعر وسجع الكهان أما الأدب العربي فقد أقامه القرآن وإن كان قد انحرف من بعد على أيدي الشعوبية الفارسية .

(٨) إن أي محاولة لتصوير فلسفة الاستشراق لا تعدو ما أورده الباحثون المتصفون من أنها محاولة للاستعمار الغربي لدراسة العقيدة العربية الإسلامية والنفسية العربية الإسلامية بقصد الانتفاع بذلك في التعامل معها والسيطرة عليها وتدمير مقوماتها التي أعطتها القدرة على التفاسك والصمود .

(٩) من الخطر الكبير في مناهج العلم تصوير الحركة الاستشراقية بأنها حركة علمية بمنهج البحث

العلمي المنهجي القائم على الوصول إلى الحق . فالاستشراق في شطريه = طاملا مع الكنيسة أو عاملا مع وزارات الاستعمار - لا يستطيع أن يخلص إلى الحق ، وإنما هو يؤدي دوره في إثارة الشبهات وتقديم الزاد الكافي لدراسات التبشير ومعاهد الإرساليات لحاق تيار زائف مضلل . وإذا كان الاستشراق د علم ، كما يحاول البعض أن يقول فإن شرائط المنهج العلمي القائمة على البحث المتجرد والإنصاف ؟ ومن الحق أن يقال أن المستشرق إنما هو واحد من ثلاثة إما متصل بالكنيسة أو بالاستعمار وفي كليهما لن يكون منصفاً فإذا كان غير ذلك فإن هناك من هجره عن فهم البلاغة العربية ما يعوقه كثيراً عن تفهيم الحقائق والوصول إليها . ونحن نعرف كيف أن بعض المستشرقين فسر الآية القرآنية : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) بقوله : « إن كل إنسان يأتي يوم القيامة وفي رقبته حامة ، وهناك عشرات من مثل هذه الأخطاء أوردتها العقاد في كتابه (ما يقال عن الإسلام) . والعقاية الغربية التي ينبثق عنها الاستشراق لا تقبل بأى حال ظاهرة الإنصاف للعرب والمسلمين والقرآن وحمد الإسلام وصدق أحدهم حين قال : (إن كراهية العرب والإسلام إنما يرتفعها الأوروبي مع لبنان أمه) .

(١٠) أن هناك محاولة لتقسيم الاستشراق إلى مرحلتين : مرحلة عقديّة ومرحلة أخرى جديدة يطلق عليها اسم مرحلة علمية . أما العقديّة فهي تلك المرحلة التي هاجم فيها المستشرقون الإسلام بعنف وخرأوة . ولو أنها وصفت بأنها (سياسية) اسكان ذلك أصبح وأصدق (والمفكرون المسلمون يعرفون جميعاً أنه في العقدين الآخرين قد تراجع الاستشراق عن أسلوبه القديم المباشر واستعمل أسلوباً أشد مكرراً وأسوأ سيلاً ، وهو محاولة الدخول في الموضوعات من باب التقدير والمدح حتى يحطع القارئ . ويكسب ثقته ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يشهر شبهات خفيفة ، متتالية في إطار هذا التقدير العام الكاذب . ولقد تنبه لهذا كثير من الباحثين المسلمين اليقظين وأشاروا إلى خطورته ، وحذروا من الانخداع له . وغالباً ما يكون هذا الأسلوب بعد دخول الاستشراق اليهودي إلى ساحة الاستشراق : برنارد لويس . رود آسون ، جارودي ، م بيرجر) . ولا ريب أن الاستشراق في المجال العقدي يعمل على هدم الأمة العربية واللغة العربية والحضارة والتاريخ .

(١١) لم يكن الإسلام غامضاً أمام الفكر الأوروبي ، بل كان معروفاً ، وقد كشفت الحروب الصليبية لمن جاءوا إلى الشرق سماعة المسلمين والعرب ، وعرفوا قدر الإسلام وعظمته ، ولكن الذين طردوا إلى أوروبا وتحدّثوا عن ذلك جرت المحاولات لقتلهم والتخلص منهم (راجع أبحاث الحروب الصليبية) .

(١٢) أن أضخم صيحة كانت تصدر من الفكر الغربي هي صيحة (المنهج العلمي في البحث) وفي مختلف مجالات الدراسات التي انصابت بالإسلام والعرب كان هذا المنهج العلمي مسوخاً وقائماً على الأحكام المسبقة علينا بالتعصب والحقد والكراهية مما يدل دالة أكيدة على أن القيم في الفكر الغربي هي قيم خاصة ومحلية ولا تنطبق على الناس جميعاً . فالمعروف أن المنهج العلمي التجريبي قد أنشأه المسلمون ولكن الأوروبيين نقلوه وظلّوا أكثر من ثلاثمائة عام ينسكرون ذلك وفي نفس الوقت يهاجون الإسلام الذي هدام إلى هذا المنهج .

والمنهج العلمي في المعرفة هو من نتاج الإسلام أيضاً، فقد كان الإسلام منصفاً مع الأديان السابقة له فقد ناقشها في سماحة ولم تتم أحكامه على القوي أو الرأي المسبق وشهادة حامليها من المسلمين في هذا معروفة . أما الأوروبيون فيما نرى من كتابات المستشرقين عن الإسلام والعرب فإننا نرى أنهم تجاوزوا الحق إلى التعصب والكراهية والحقد وعدم الإنصاف .

(١٣) هناك رأى بأن الاستشراق قد يستطيع أن يتحرر مع الزمن وكيف يمكن للاستشراق أن يتحرر من ايدولوجيات الغرب ، وهو وليدها ومن صنعها وخادما والمربط بها ارتباطاً جذرياً وعضوياً وليس عنده باب واحد مفتوح إلى الحق أو الإنصاف أو للنظرة العلمية الصحيحة يستطيع أن ينفذ منه.

(١٤) حاول الاستشراق أن يهدي الغرب إلى فهم النفسية العربية الإسلامية والعقلية العربية الإسلامية ولكنه هجر حقيقة عن فهم هذه العقلية وهذه النفسية فقد قفلت أهواء وآراءه المسبقة وبذلك فشل الاستمرار نفسه في التعامل مع العرب والمسلمين . أما رحلات الاستشراق فقد كانت سرية خاطفة وكانت تحمل معها شعور الاستعلاء والحقد ، (نموذج ذلك في هانوتو وغيره) .

(١٥) لا ريب أن بحوث جولد زهر وسنوك هورجنية ويوسف شاخنت في الشريعة الإسلامية ليست علمية وهي تقوم على أساس فكر مسبق وهدف واحد يرمي إلى انتقاص أصالة الشريعة الإسلامية والفض من استقلاليتها . وقد عارض آراء هؤلاء كتبهون منهم العلامة (محمد الغزالي والشيخ أبو زهرة) .

الفصل الرابع

دوايات المستشرقين

تناول المستشرقون جوابات كثيرة من الفكر الإسلامى بالدراسة ولا ريب كان التراث الإسلامى هو أبرز ما تناولوه وطالجه بالبحث والتقصي من دراسات الفكر الإسلامى المتعددة ونحن نقدر لهم فضلهم في تبويب التراث وإعداد وفهرسته وتحليله ولكننا حين نتقصي وجهة نظرهم في كثير من القضايا فهي غالباً ما تكون : اضعاف لأحد أمور ثلاثة : أما محاولة فهم الإسلام على أنه دين لاهوتى خالص كالمسيحية بهذا الإسلام دين ومنهج حياة ، وأما أنهم تأثروا بوجهة نظر السبائية الإستعمارية فخصعوا لها ، وأما أن أدواتهم البيانية والفكرية قصرت عن فهم طبيعة الإسلام والفكر الإسلامى الجامعة التي تربط بين الثابت والمتغير والروحي والمادى والدينى والأخروى ، وأغلب ما تهيم أخطاؤهم في فهم الوحي والنبوة وعدم القدرة على التفرقة بين الألوهية والنبوة ولذلك فإن أغلبهم ينسبون القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ ويعتبر بعضهم الرسول مصلحاً اجتماعياً غير أن موقف الاستشراق من التراث الإسلامى ليس موقفاً سليماً من ناحية الحرص الواضح لدى المستشرقين على الاهتمام الجوانب الضعيفة والمضطربة من هذا التراث وخاصة جوانب الخلاف بين الفرق والاهتمام بالنصوص الفلسفية ومحاولة إبراز الأثر

الأجنبي في الفكر الإسلامي نتيجة الاتصال بالفكر اليوناني والتمويل في هذا الاتصال إلى حد القول بأنه أهم معطيات الفكر الإسلامي . لقد تشكل الفكر الإسلامي أساساً قبل الاتصال بالفكر اليوناني أو الفارسي أو الهندي وإن العلماء المسلمين حالوا دون سيطرة هذه المترجمات على جوهر الفكر الإسلامي وردوها وجردوا معطيات الإسلام منها ولم تمكن تلك الجوانب التي هم موضع اهتمامهم إلا محاولات لاحتماء الفكر الإسلامي . ولكنها لم تنجح ولم يلبث الفكر الإسلامي أن استعاد أصالته حين تشكل مذهب الجماعة واستعصى كل ما كان وافداً ، وأساغ الصالح منه وتخلص من كل ما يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص . لقد أولى الاستشراق اهتمامه البالغ للتصوف والفلسفة وهلم الكلام والاعتزال والباطنية وكل هذه جزئيات من صورة لم تكتمل ولا يجوز لها أن تنفصل عن الصورة العامة للكيان للفكر . وقد عكست في مرحلتين من مراحل تاريخ الفكر الإسلامي نزعة الاعتزال ثم نزعة التصوف الفلسفي ولكنها لم يلبث أن سقطا صريعين وثبتت تعارضهما مع جوهر الفكر الإسلامي الجامع الأصل الذي لم يقبل استعلاء النزعة العقلانية التي جاء بها الاعتزال أو النزعة الاشراقية الهندسية التي جاء بها التصوف الفلسفي وكل المحاولات التي ينيرها الاستشراق الآن لإعادة بعث هذا الركاب وإحيائه إنما تمثل هدفاً ما كراً من أهداف الاستشراق من ورائه حركة التغريب والغزو الفكري التي تحاول تزييف حقيقة الفكر الإسلامي وجوهره الأصل . وفي مجال التراث نجد عناية كبرى بالحلاج ، الذي وقف المستشرق د لويس ماسينيون ، حياته على جمع آثاره ، وبالسروردي وبشار وأبي نواس وكلها شخصيات موصومة مضطربة لم تكن بالتأذج الكريمة أو العالمة في التراث الإسلامي ، بل إن الاستشراق أولى اهتماماً كبيراً بشخصيات هاجت الإسلام وخاصمت رسوله ، كابن الراوندي ومسيئة الكذاب وقدم عنها وعن غيرها دراسات واسعة نشرت باللغة العربية وإن أي مراجعته لم تأثر المعارف الإسلامية لتكشف عن هذا الاتجاه الرامي إلى إدخال شبهات الإسلام كإداة أساسية فيه ، وتجد هذه المحاولات واضحة في جميع فروع التراث : القراءات وكتابة القرآن وسيرة الرسول ، وفي مجال التاريخ والشرعية الإسلامية وفي مجال اللغة والأدب . ويبدو أن جماعة المستشرقين قد فتشوا كتب التراث الإسلامي القديمة بغية اقتناص الروايات المضطربة والناقصة والمحرقة واستغلوها لإثبات وجهة نظر مسبقة واستعانوا بكتب الأدب والروايات والاشعار والف ليلة وغيرها لتكون مصادر لا سانيدهم بينما هذه الكتب لم تكن في الأساس مصادر علمية لفقه أو لتاريخ . يحرفون السكلم عن مواضعه ، وليست دائرة المعارف الإسلامية وحدها هي التي توصف بالانحراف بل إننا نواجه ذلك في قاموس المنجد (الذي تجده موضوعاً الآن في أيدي جميع الباحثين العرب وهذه شهادة عالم له صلة بدوائر الاستشراق هو الدكتور مصطفى جواد الذي يقول إن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها وقد نبه على ثلاثمائة وأربعة وعشرين منها واغاب أخطاء المنجد هي محاولة تفسير المصطلحات اللاهوتية الخاصة تفسيراً عربياً عاماً . وإنما كانت الأحداث ، لا النصوص أكثر أهمية في الكشف عن الأهداف : ألف أبو زيد وثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى ٢٣٧ هجرية وهو فارسي الأصل كتاباً باسمه كتاب (الردة) وقد ضاع هذا الكتاب وبقيت منه قطع قصار ذكرها ابن حجر في كتابه (الإصابة) فإذا المستشرق الألماني دكتور د ولهم هو نزباخ ، من جامعة بون يسئل هذه القطع

من كتاب الإصابة وقد فصلها وضبطها وشرحها . وأقامها كتاباً تحت اسم كتاب (الردة) الضائع. وتشمل هذه القطع على تراجم الأشخاص الذين ارتدوا عن الإسلام أو دافعوا عنه أيام الردة وقد رتبها المحقق على القبائل فبدأ بأسد وغطفان وفزارة ، ثم انتقل إلى طي ثم هوازن وعامر بن صدصمة ثم سليم ثم عيسى ثم تميم ثم حنيفة ثم ربيعة ، وهكذا سألخ هذه القصاصات والسطائر من كتاب الإصابة ووضع مقدمة لها ، وأمنى في تحقيق النصوص سبع سنوات كاملة . فأدّ هدف الاستشراق في هذا العمل إلا «تزيير والحقد . ولقد يقال أن الاستشراق في السنوات الأخيرة قد خفف من حدته وأدخل أساليب العلم وتحرر من الأهواء ، ولكن الواقع المشاهد غير ذلك ، والدكتور أحمد السمان عميد كلية الحقوق بدمشق وقد اشترك في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٦٠ يقول : « بدأ المستشرقون يلقون محاضراتهم وكانوا كمن يلقى البارود في النار ، والحق أنهم لم يخرجوا عن سمات هؤلاء الاستشراق من الأجانب فأهدافهم يرم أن يسلكوا طريق هذا العلم أن يهدوا مواضع التشكيك وأن يخلقوا أساطير تذهب مذهب الحقائق العلمية لينالوا من الفكر الإسلامي ، وكانوا يلقون من العالم أسماء مصغية عليها الجبن والسكوت ، والجمل الاستسلام ، وقد فوجئوا بجيل جديد تعلم علومهم وقرأ مصادرهم ، وتفوق عليهم بتفهمه روح العربية وبتجرده من النزعات المهذبة للعلم ، وكان يمثل البلاد صفوة من الشباب المسلم المتخرج في كبرى جامعات العالم وكان الصدام عنيفاً وكانت الغلبة للحق : ويذكر الدكتور السمان نماذج من عناوين البحوث .

(١) ايتسكهاوزن (جامعة ماتشجان) أنه لا يوجد فن إسلامي . (٢) بوسان (جامعة تايلي) أن للشعر الإسلامي شعر فجور وفسق (٣) جروينبارم تحدث عن ما أسماه المفارقات التي انفصل بين المسلمين وقاله أن ما يفرقهم أكثر مما يجمعهم . ويقول الدكتور عبد الكريم زيان :

« من سلم منهم من الهوى وسوء النية أوقعه جهله بمعاني الإسلام بأباطيل وافترادات ، والقليل منهم جدا من سلمت كتاباته من الهوى وأقل القليل من سلمت كتاباته من سوء النية والجمل ويحب عدم اتخاذ كتاباتهم مصدراً للمعرفة الإسلامية ، ونحن مستعرضون هنا على وجه السرعة تلك المحاولات عملة في أبرز القائمة بها :

(١) مرجليوث : الإسلام

أشار الأستاذ خوجة كمال الدين في كتابه للمثل الأهل في الانبياء إلى أسلوب الاستشراق فيقول : إليك بيان الطريقة التي دأبوا عليها في نقد الديانات الأخرى ، يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف غني ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرحلة النظرية أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة وهكذا تنطور الفكرة : أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهي بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة ، وبخاصة إذا كان الأمر يمس أحد الديانات أو المذاهب التي يتفرون على تقدمها ، والأستاذ مرجليوث جولات خاصة في هذا الميدان . وإليك للمثل : « جاء الدكتور « فيجانا ، فقدم قصة لحواها أنه تم على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منا بعض أجزائها يريد بذلك أن يرم القاري أنه ربما

ضاح شيء من القرآن وكان « فيجانا » هذا قد حاول قبل ذلك أن يفكك في صحة القرآن فباء بالفشل الفريع لجاء مرجليوث فالتقط الخيط فأشار إلى أن (فيجانا) هو على نسخ سريانية عريقة في القدم وأما إلى وجود خلافات ذات بال في المخطوطات القديمة ، وهذه العريقة في القدم التي أشار إليها مرجليوث لم يمر عليها إلا أقل من عام ، ولكنه يحاول أن يضع في يد الخصم سلاحاً يحارب به القرآن ، هل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريقة في القدم) مع أن فيجانا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأي . ومرجليوث هو أول من أثار الشك في الشعر الجاهلي ، وقد أشار في بحثه (الذي نقله طه حسين دون أي تغيير إليه في كتابه الشعر الجاهلي) إلى أن الذي يقرأ على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية ثم نحلة هؤلاء الواضعون المزيفون لشعر جاهلين . يقول الدكتور ناصر الدين الأسد الذي ناقش ذلك في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) أن الدكتور طه استقى أكبر مادة لبحثه من مرجليوث . ومرجليوث آراء خصيصة الإسلام والنبي أوردها كتابه محمد وظهور الإسلام مرطناً لها في كتابنا (الإسلام والثقافة العربية) وكلها تدور حول شبهات النقل من اليهود والنصارى والتفسيحات الباطلة لخصوص وفق مفهومة اليهودى البالغ الكره للإسلام .

(٢) جولدسيهر : الشريعة الإسلامية

تخصص هذا المستشرق اليهودى في إثارة الشبهات حول السنة والفقه والشريعة الإسلامية وفي قيمة الأحاديث النبوية وذلك بالقول بأن السنة بدأ تدوينها بعد وفاة النبي بتسعين عاماً وفي قوله في كتابه (العقيدة والشريعة) أن التوحيد الإسلامى ينطوى على غموض ، ومن ذلك قوله : أن الشريعة الإسلامية تأثرت بالقانون الرومانى في بداية تكوينها ، وقد لخص آراؤه كثير من الباحثين في مقدمتهم مصطفى السباعى ومحمد الفزالى وسليمان الندى ، وجولدسيهر يحاول في بحل رأيه أن يصور الفقه الإسلامى وكأنه من صنع الصحابة والتابعين ، وقد كشف الباحثون عن أن جولدسيهر كان مدفوعاً في كتاباته بفرض سياسى خاص هو إظهار أن التشريع الإسلامى قابل للتأثرات الغربية . ولقد صودرت لجولدسيهر مقالات وانحرافات كثيرة أراد بها المغالطة في الحقائق الأساسية ومنها أنه حرف قول الإمام الزهرى : (إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث) إلى لفظ (أحاديث) وذلك لفتح الباب أمام شبهة كبيرة كذلك فإنه إنهم الزهرى بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى لإرضاء لعبد الملك بن مروان مع أن الزهرى لم يأت بعد ذلك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزهرى . وقد كشف محمد أسد ، أيوب ولد دافيس ، للمير فى محاربة السنة ، فقال : إن الهدف هو إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لحياة رسول الله وللمسلمين وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته . ويقول : لى يستطيع نقد الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتناولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحي أى حسب ميول كل واحد منهم وبطريقة تفكره هو ، وبذلك تنتهى تلك المنزلة المحترمة التى للإسلام على أنه نظام خلقى وعمل ونظام شخصى واجتماعى إلى التهايب والإندثار .

(٣) لامنس : الإسلام وتاريخه :

ويعمد هغري لامنس من أشد المستشرقين تعصباً على الفكر الإسلامي ، وقد بالغ في التعصب على الإسلام حتى أعلن البعض للشك في أمانته العلمية وقالوا : إنه لا ينبغي هواطفه فيما يكتب عن النبي والإسلام وأنه كان داعية ولم يكن عالماً ، وقد عرف بتهكمه على النصوص العربية كما وصف يارهاقه للنصوص وتحصيلها أكثر مما تتحمل . فإذا وجد في الإسلام موضعاً للفضل ذهب بنفسه إلى مصدر غير إسلامي ، وقد تعصب لامنس للأمويين ، ومصدر إعجابه بهم أن دولتهم كانت في تفسيره لا دينية ، ولأنهم أقاموا ملكهم في الشام وتأثروا بالمدينة القديمة التي قامت في ربوعه . يقول دكتور زكي محمد حسن : إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين عامة وللعلميين والعباسيين خاصة ، وأنه كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجلية ، وأنه كان في خصوصته يعتمد على السفسطة والمغالطة ، وقد كتب لامنس عن الإسلام وعن الرسول وعن بنات النبي . وهو في كل هذه الكتب يتم رواة السيرة بأنهم هترويون ولكن لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم إذا استطاع أن يبلخ فيها مطلقاً على الإسلام ، وهو حين يروي رواية أو حديثاً فيه مصلحة الشيعة إنهم يرضونه ، حين يري رواية تعلى من ههنا السنيين ألصقها بكتائبهم ، حتى أنك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليقتنمك باضطراب كل هذه العناصر التي قامت عليها السيرة وليخرج عليك هنا وهناك بأرائه للفرقة . وهو حين يتكلم عن السيدة طائفة لا يجد في مفردات اللغة الفرنسية إلا كلمة تشبه كلمة (عظيمة) في اللغة العربية . والمستشرق لامنس تلك القرية الضخمة التي دحضها كثير من الكتاب المسلمين ، وهي نظرية تفكيك الحكومة الإسلامية التي قامت يوم «الصفيفة» واستمرت طوال عهد الشيخين (أبي بكر وعمر) فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية على النظام المعروف في التاريخ الروماني . وهو يتم الصحابة الثلاثة أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بأنهم تآمروا على احتكار الحكم بعد وفاة النبي وأن المؤامرة قد نهجت إلى حد بعيد ، وقد بين الأستاذ جه الحيد العبادي فساد هذه القرية الكاذبة .

(٤) جب : الأدب العربي :

في كتابه عن الأدب العربي الصادر في سنة ١٩٦٣ يعتبر القرآن من كلام «محمد» ﷺ . وهذه ظاهرة يشترك فيها بروكلمان ونيكلسون وغيرهما ، فالمستشرقون يعارضون المفهوم الإسلامي القائم على النبوة والوحى . وهو يطلق على العصر الجاهلي اسماً غريباً فيسيبه (العصر البطولي) وقد رفض المستشرق مصطلح (العصر الجاهلي) وعصر ما قبل الإسلام ، وكذلك فعل نيكلسون في كتابة التاريخ الأدبي للغرب ، ويعصر المستشرقون على وصف عصر الجاهلية بأنه عصر اسقنارة وأنه تمهيد للرسالة الإسلامية ، ويتهرون الشبهات حول اللغة العربية فهي عندم لغتان لا لغة واحدة : شمالية وجنوبية . وقد تابهم في ذلك الدكتور طه حسين ويسمى عصر الإسلام الذي هو تحول خطره في التاريخ العربي بعبارة عصر التوسع ارتباطاً بفكرته عن عصر بطولة الجاهلية . كذلك فإن جب يأخذ بالشبهة ويرى لنثر الفني العربي قاصي الأصل وينسب بلاغة عمر وعلى وعبد الله بن عباس وغيرهم . ويشيد «جب»

بثقافة اليونانية ويحاول أن يضيف إليها كل ما في الأدب العربي من تقدم . ويرد إلى الثقافات الفارسية واليونانية كل أسرار النحو والبلاغة العربية . مع أن النحو والبلاغة وغيرهما من هذه الفنون قد تم تشكيلها قبل الاتصال بالفكر اليوناني وقبل عصر الترجمة ، أما الفلسفة فإن (جب) يعتبر الفلسفة العربية فلسفة يونانية المصدر ، ويقول إن الذين - فعوا لواء الفكر والفن في العصر العباسي هم من أصل أعجمي أو نصف أعجمي - ناسياً أن القرآن الكريم هو الذي شكل عقليات المسلمين جميعاً . من العرب والترك والفرس . ويقف وقفة اهتمام لزاء أي ترأس وبشار . والمشتشرقون يبعثون تراثهما ويميدونهما إلى الحياة حتى تغشوا عبارتهما الإباحية والهجائية في العصر الحديث . وكذلك يؤول الاهتمام بالحلاج في مجال التصوف . أما المعتزلة فهو يوليهم اهتماماً كبيراً ويشرح فكرهم شرحاً مستفيضاً ويعتبرهم من أتباع الفكر اليوناني ومن أكثر ما أعطى من الفكر الغربي للإسلام . كذلك أولى (جب) اهتمامه بانتصار البويعيين وقال إنه نتيجة الخيرة الخليلية ، وكذلك الاهتمام بالموشحات والسجع والمقامات ، وقد ناقشنا هذه القضايا كلها بتوسع في كتابنا وخصائص الأدب العربي ، فليرجع إليه من يهواه .

(٥) نيكلسون : اللغة :

من أبرز أخطاء المشتشرقين عجزهم عن فهم النص والبيان العربي وقد أشارت الدكتورة بنت الشاطي إلى عجز (نيكلسون) عن فهم الغفران لابن المعتز ، وقالت إن فهمه للنص فيه أخطاء كثيرة بعضها يمكن التجاوز عنه ، أما والكثرة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهم هذا المشتشرق للنصوص العربية . يقول في الغفران ما نصه : (وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا القلب أول هو من النبوة أي المرتفع من الأرض) وغاب عن نيكلسون أن الحديث هنا عن المثنى وواقبه فمعجز عن فهم هذا الاشتقاق . وفطراً لا لالتباس الأمر عليه فقد أومأ أن الحديث عن شخص آخر هو (القطريلي) فليس بينه وبين النبوة صلة ما . وتقول : إن هناك أخطاء كانت في الأصل العربي صحيحة ففهمها نيكلسون بأخرى فهم مفهومة ولا صحيحة ففهمها نيكلسون بأخرى غير مفهومة ولا صحيحة وأخرى لم تنشأ من صعوبة العبارة في الغفران أو تعريفات النص وإنما نشأت عن عدم فهم الأسلوب العربي وعدم الانتهاء إلى الأشخاص الذي يتحدث عنهم أبو المعتز .

وبعد أن أوردت الدكتورة بنت الشاطي عديدًا من أخطائه (يستطيع القارئ أن يجدها في مقدمة كتابها عن الغفران) قالت : أقصد أن أتبه قومي إلى واجبه في حل هذه الأمانة - أي أمانة تحقيق التراث - بعد أن أدعو علماء العربية إلى نشر تراث لهم هم أولى به وأقدر على فهمه .

(٦) ماسنيون : التصوف :

اهتم لويس ماسنيون بأمرين : الدعوة إلى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية ، وقد أذاع دعوته هذه في كل مكان ذهب إليه وقد ووجهت بالرفض والمعارضة . أما اهتمامه الأكبر فكان بالترويج للتصوف الفلسفي والكرام المناهضة للتوحيد الإسلامي كوحدة الوجود والحلول ، وقد ركز على الحلاج

أكثر من ثلاثين عاماً حيث جمع كل ما يتعلق بأخباره وآرائه وأذاعها من جديد . والاستشراق اهتمام واضح بجوانب معينة من التصوف ، هي كل ما يتصل بممارسة فكرة التوحيد وخاصة الحلول والاتحاد ، ومن الأفكار المستمدة من الأصول للمسيحية واليونانية ، ولذلك يولى الاستشراق اهتمامه بالحلاج وابن عربي والسهورودي وابن سبعين وغيرهم .

(٧) شاخت : الشريعة الإسلامية :

تابع شاخت أستاذه جولد سيهر ، في الحلة على الشريعة الإسلامية ، وكانت دعوته أن الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأسرة والوراثة مستمدة من النظام القبلي الجاهلي . وقد رد على آرائه المرحوم الفيض محمد أبو زهرة وكان ما قاله : هل قرر الإسلام ما قرره البدو والرومان من ثبوت النسب ؟ هل أقر الإسلام نظام التبني الذي كان معمولاً به عند العرب والرومان ؟ هل نظام الولاية على النفس والمال كما كان عند الرومان ؟ والإسلام قد اعتبر الولد حراً في التصرف في نفسه وماله بمجرد البلوغ الطبيعي والرومان كانوا يعتبرون ولاية أبيه قائمة ولو بلغ السنين حتى يمنحه الأب حق التصرف . هل نظام المهرات كما قرره الإسلام سبق به أي شرع من الشرائع ؟ وفي العقوبة : هل كان الفرد يقتل بالفرد وأن النفس بالنفس ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس ، فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد وليست متساوية بحكم القبائل العربية ، فزعم القبيلة يقتل به الوف ، وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحرباء بعد ؟ وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده ؟ إلخ إلخ . وكرامية المستشرقين للشريعة الإسلامية واضحة : كوفين ، دهنان ، كلاون ، جانر ، جولد سيهر ، موجلويوت ، لامانس . وقد حاولوا إيهام المسلمين بأنها سبب تأخرهم وعاتق في سبيل تقدمهم ونهوضهم وأثاروا القبيات حول نصوصها المحكمة .

نهاية الاستشراق أو بداية مرحلة جديدة

واليوم نجد تصريحات جديدة تقول بنهاية الاستشراق ، فقد أعلن مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين الذي عقد في العام الماضي أنه تقرر أن يطلق على مؤتمر الاستشراق القادم (مؤتمر العلوم الانسانية) وبذلك ختمت جولة ضخمة بدأت بعد احتلال الجزائر ٨٢ . وامتدت على مدى مائة وخمسين عاماً ، وقد وصفت جريدة الموند الفرنسية هذا التحول بأنه موت الاستشراق ، وكان جاك بيرك قد أعلن بتصريحات خلال العام الماضي عبر فيها عن ما سماه انتهاء زمن الاستشراق ، ومن المصادفات المعجبة أنه خلال العام الماضي ترقشفت في جامعة الأزهر رسالة ضخمة عن حركة الاستشراق للدكتور أحمد اسماعيل أرزفتشي ، وقد عقدت مؤتمرات استشراقية كثيرة في الأعوام الأخيرة تناولت الأدب العربي والمصطلحات العامة ، كما أعلنت إسرائيل تكريمها للمستشرق (برنارد لويس) الذي هاجم البلاد العربية ووصفها بالمنصرية وحيث يوجد اليوم جناح ضخم من الاستشراق اليهودي قاده رندسون

وبرنارد لويس وهو يركز كل اهتمامه بقضايا فلسطين وإبراهيم وإسماعيل واليهود وهكذا .
ومن آثار هذا الاستشراق تلك الدعوى التي أثارها الدكتور طه حسين حول إنكار إبراهيم
وإسماعيل بالرغم من إشارة النوراة والقرآن لها والنصوص الخاصة بمروية إسماعيل ورباطته بإبراهيم
وما يتصل بذلك من دور العرب والمسلمين من ميراث الأنبياء . كل هذا يجعلنا في حذر دائم عما يكتبه
المستشرقون وما يكتب عنهم ، ونحن إذاء تحول الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانية نخص بأن الخطر
أصبح أهدق قوة وحققاً وأن الاستشراق يغير جلده ليدخل في مرحلة جديدة أكبر خطراً .

خاتمة البحث

التبشير + الاستشراق = التغريب

التغريب في أبسط مفهوم هو حل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والخضوع لنفوذه
وسلطانه وتقبل الاحتواء في بوتقته بحيث لا يجد نفوذه وسيطرته أى معارضة فهي ترمى إلى فرس
مبادئ التقبل والولاء والخضوع للغرب في نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وتفكيرهم
وحتى تحذف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية ، ويستهدف تخنيق ذلك إيجاد شعور بالنقص في نفوس
المسلمين والشرقيين عامة ، وذلك بإثارة الفجوات وتحريف التاريخ الإسلامى ومبادئ الإسلام وثقافته
وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أصله وانتقاص الدور الذى لعبه الإسلام في تاريخ البشرية ومحاولة إنكار
المقومات التاريخية والثقافية والروحية التى تتمثل في ماضى هذه الأمة وتراثها مع توهين القيم وتقطيع
أوصال الروابط والغنى من مقدرة اللغة العربية . والتغريب هو ثمرة المخطط الذى دعا إليه لويس التاسع
وتابعه فيه عشرات من دهاقين الاستعمار والنفوذ الأجنبى بقصد السيطرة على العالم الإسلامى عن
طريق إخضاع الفكر الإسلامى لنفوذ الغرب الفكرى ، وذلك بتمسيحه أو تهويله أو بلطفته ، وكل
هذه القوى تستهدف السيطرة عليه . الهدف الأكبر هو الحيلولة دون قيام وحدة فكري هي مقدمة
لوحدة الأمة الإسلامية وخلق جو من البلبلة للعقول والنفوس بطرح عشرات من المذاهب والدهوات
سواء في ميدان السياسة أو ميدان الإجماع أو ميدان الاقتصاد أو ميدان العقيدة بما يمزق الأمة الإسلامية
عنصرياً وثقافياً . والتغريب هو هدف النفوذ الأجنبى ، سواء أكان هذا النفوذ استعمارياً كالأستعمار
الغرب ، أو سلطاناً اقتصادياً أو عقائدياً أو إيديولوجياً ، والعالم الإسلامى الآن يتأرجع بين قوى ثلاث
تحاول أن تحتويه وتسيطر عليه هي الاستعمارية الغربية بمفهومها الديمقراطية الليبرالى والشيوعية الماركسية
والصهيونية التلويديّة التى تسيطر على الفكر الاجتاهى ، ومن ثم فقد اتحدت كل من هذه القوى وسياتها
في مؤسسات التبشير والاستشراق .

وإذا قلنا إن هدف التغريب الأكبر هو حمل المسلمين على الانصياع فى الأمية والنضاء على حضائهم
ضد الاحتواء ، وتمزيق وحدة الفكر والقضاء على الإصالة الذاتية التى تتميز عن الأمم الأخرى لها
علو نفاهم الهدف الحقيقى . وحركة التغريب دعوى كاملها لها نظمها وأهدافها ودعاتها تخدمها مؤسسات

كثيرة أهمها مؤسستان : مؤسسة التبشير ومؤسسة الاستشراق . وقد ركزت مؤسسة التبشير على المدرسة والجامعة من طريق الإرساليات والسيطرة على المناهج الدراسية واختصت شأن الزمن والعلم . وركزت مؤسسة الاستشراق على الصحافة والثقافة عن طريق الكتاب والصحيفة . وكانت مؤسسة الاستشراق هي المصنع الذي يصنع الشبهات والأكاذيب . وكانت مؤسسة التبشير هي التي تحمل ذلك إلى عقل الشباب وقلبه عن طريق مناهج الدراسة . .

٥ - أول من استعمل كلمة التغريب : المستشرق جب في كتابه (وجهة الإسلام) الذي أصدره في الثلاثينات واشترك معه فيه : ماسنيون ، كايغهاير ، برج ، كولونل قرار ، وبذلك انكشف أمامنا بوضوح ذلك الهدف الذي عرفناه منذ وقت بعيد بأنه محاولة احتواء هذه الأمة في فكرها لتتكون خاضعة للغرب . والحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها أن العالم الإسلامي واجه هذه المحاولة بمعارضة شديدة وحمية وأنه لم يستسلم مطلقاً للاحتواء ، ولم يلبث في الصمود إزاء المحافظة على شخصيته وظايته وقيمته الأساسية وإن كان النفوذ الغربي الذي كان ممثلاً في السلطان السيامي والعسكري استطاع فرض القانون الوضعي بدلاً عن الشريعة والتعليم العصري بدلاً من التربية الإسلامية ، وحاول في مختلف وجوه الثقافة واللغة والفكر محاولات ضخمة ، وكانت أخطر المحاولات فكرة القوميات والإقليميات الضيقة التي استهدفت تمزيق الأمة الإسلامية إلى أقطار .

٥ - عمل التبشير على تحقيق هدف النفوذ الأجنبي وهو إخراج المسلمين العرب من القيم التي تدفعهم إلى الأسالة ومقاومة النفوذ الأجنبي وعدم الانصياع في الآمية والعالمية وإقامة مجتمعهم الخاص المستمد من قيمتهم وتاريخهم ولغتهم ودينهم ، فإذا استطاع الاستعمار إذابة المسلمين والعرب في بوتقة العالمية وصهرهم في بوتقة الثقافة العالمية وإخراجهم من ثقافتهم وقيمتهم ، لم يعد هناك مجال لهكم بصورة خاصة ، ههذند يصبح التغريب وقد حقق أكبر انتصاراته . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم ، على أن الهدف من التبشير هو إنشاء عقلية عامة وتحترق كل مقومات الفكر الإسلامي وإبعاد العناصر التي تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه .

وقد كانت خطة المبشرين شاقة موحدة وذات مراحل ، وقد تأكد مدى التناسق بين القوى ذات النفوذ الأجنبي وبين مؤسسة الاستشراق ، وكشفت الوثائق عن أن وزارات الاستعمار تستخدم المبشرين داخل البلاد العربية والإسلامية .

٦ - عمل الاستشراق هو في أدق تعبير : إستخدام العلم في خدمة السياسة ، ومن هنا فقد كانت مادته مصدراً مؤثراً لمؤسسات التبشير تستعملها في دعم خططها وفي إثارة هوامل الخلاف وتأريض الشبهات بما يحتمل هدف غمط التغريب . وقد عرف أن الاستشراق يدرس القضايا من وجهة نظر مسبقة وبأحكام وقدرة وبأهداف واضحة ، أساسها خدمة النفوذ الاستعماري وقراءتها بالانتماء للفرق والإسلام والعربية ، وهما صيغتان كذبتان في أسلوب له طابع علمي فإنها تنطوي على عدم الحيدة

وعلى الانحياز الواضح ، وقد عمل كثير من رجال الاستشراق في مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً في أيدي المبشرين ، ومن هؤلاء مرجليوث وماسنيون وهنري لامنس ولويس شينغو وفستك وجوه زهير ، ومن أشد للاستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية . ولقد حاول البعض القول بأن الاستشراق عمل عالماً لوجه العلم ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا حرص على التركيب على الجواب الضعيفة والروايات المدخولة والشبهات المسمومة ، ولماذا ركز على الجواب الانهزامية بالباطنية والوهم والقرامطة وعلى الشخصيات المنحرفة : كالحلاج والسهروردي وأبونواس وبشار والرازي والراوندي . لقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية مؤامرة التخريب المتخفية وراء التبشير والاستشراق منذ اليوم الأول . ولقد فهم كل منهما إهابه وجهه في سبيل زيادة التخلي والحداد ، ومع ذلك فقد استطاع الفكر الإسلامي لعقب مؤامراته وشبهاته بالنقض والتزييف على ذلك المدى الطويل دون توقف .

عملت حركة اليقظة على مواجهة التبشير والاستشراق الغربي والماركسي والصهيوني وحملت قوائم المدافعين عن الإسلام بأسماء أعلام أبرار عاشوا حياتهم مدافعين عن الحق ، كاشفين عن الزيف ، جهلاً بعد جيل .

وكانت حركة اليقظة الإسلامية قادرة على المتابعة وكشف الزيف من خلال حلقات التخريب المتوالية أو المتجددة على مدى امتداد العالم الإسلامي كله وحظيت مدرسة اليقظة في الهند وبالكستان بقدر وافر (المردودي والتدوي) وفي مصر والشام والعراق والمغرب توالي ظهور هؤلاء الأبرار ، وما تزال كتاباتهم تكشف الزيف وتواصل تصحيح المفاهيم .

ولمنا في هذا الكتاب قد تابعنا هذه المواجهة الصريحة القوية التي مازالت صامدة في وجه التخريب كاشفة عن زيفه وشبهاته ومهمومه .

الرسالة الثانية

المؤامرة على تاريخ الإسلام

معدل :

كان تاريخ الإسلام هدفًا من أخطر أهداف الاستفراق والتخريب والتبغيع والغزو الثقافي في العصر الحديث منذ بدأت الحقبة الاستعمارية على عالم الإسلام والعرب من خلال الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي والهولندي ، ذلك لأن الاستعمار كان يستهدف استدامة سيطرته على الأمة الإسلامية من خلال تهريب تاريخها وتدمير مقومات فكرها أساساً ، ولذلك فقد بدأت المؤامرة على تاريخ الإسلام منذ وقت باكر وامتدت لتسلك سبلا مختلفة وأبعاداً واسعة . ويمكن القول أن المؤامرة على تاريخ الإسلام تعمل في حقل حديث أهمها :

(أولاً) التركيز على المناهج الدراسية وإفسادها . (ثانياً) إثارة الشبهات حول الخطط والمواقف والدول والحكام . (ثالثاً) تحريف النصوص وإعلاء الروايات الضعيفة . (رابعاً) تهديد إسرائيليات العقيدة وإعداد إسرائيليات جديدة . (خامساً) إفساد مفهوم فريضة الجهاد وتأويله . (سادساً) الدعوة إلى تحرير التاريخ من ارتباطه بالأمة ومقوماتها . (سابعاً) إثارة التعارض والتضارب بين القيم المتناقضة كالعروبة والإسلام وبين الفرعوية والاشورية والفينيقية وبين العروبة . (ثامناً) ابتعاد الأساطير وإطاعة صياها في داخل التاريخ الإسلامي وسهولة الرسول . (تاسعاً) محاولة تمزيق التاريخ الإسلامي إلى تواريخ مستقلة لأنظار مختلفة . (عاشراً) إذكاء روح القومية بمفاهيمها الضيقة والمنصرية للقضاء على الروح الإسلامية . (حادي عشر) محاولة تصوير المؤامرات التي قامت بها الفرق الضالة كالقرامطة والويع والباطنية على أنها دهوات عدل أو حرية . (ثاني عشر) محاولة اعتبار التاريخ الحديث في الأنظار العربية المختلفة تاريخاً مصرياً أو سورياً أو عراقياً أو مغربياً منفصلاً عن أصوله العربية والإسلامية . (ثالث عشر) إفساد الرابطة العميقة بين الحنيفية دين إبراهيم وبين الإسلام ، سواء من الناحية التاريخية أو العقيدة أو الارتباط بين الموجات العربية التي خرجت من الجزيرة العربية إلى الشام والعراق ومصر والمغرب . (رابع عشر) محاولة إحياء علاقة مقطوعة بين ما قبل الإسلام وما بعده عن طريق إحياء الفكر الرواني القديم ، سواء في الفرعوية أو الفينيقية أو اليونانية أو الفارسية .

(خامس عشر) محاولة تفسيد التاريخ الإسلامي والمعاصر وفق مذاهب غريبة وافدة كالتفسير الغربي المسمى والتفسير الماركسي . (سادس عشر) محاولة تصور القرن الهجري الثاني على أنه عصر شك ومجون عن طريق اعتبار بعض الشعراء المجان وممثلة معزولة يمثلين مصرهم فيما يتجاهل الباحث عشرات العلماء والفقهاء والأصوليين والمفكرين .

(سابع عشر) إغلاء شأن الشخصيات المنحرفة في الفكر والسلوك من شعراء مجان أو مشهورا فتنه أو اضطرابات وإخفاء البطولة عليهم أمثال أبو نواس وبشار والحلاج والسرودي .

(ثامن عشر) إنكار وجود شخصية عبد الله بن سبأ هدماً لآثره الواضح في تمزيق وحدة المسلمين .

(تاسع عشر) محاولة تفسير البطولة الإسلامية وفق المذاهب الغريبة اعتقاداً على موروثات البيعة والمروق بينما يقاس أبطال الإسلام على مفاهيم الإسلام نفسها التي شكلتهم من جديد . (عشرون) اتهام الدولة العثمانية بأنها دولة مستعمرة استعمرت بلاد العرب واتهام السلطان عبد الحميد بالاستبداد بينما وقف السلطان عبد الحميد موقفاً معترفاً في مواجهة مؤامرات الصهيونية وعائلاتها الاستيلاء على فلسطين .

(واحد وعشرون) محاولة القول بأن نهضة العرب لم تبدأ إلا برصول الحملة الفرنسية إلى مصر ، بينما النهضة العربية الإسلامية قد بدأت قبل ذلك بأكثر من خمسين عاماً بدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية وعلباء الأزمرد الذين دهموا إلى التوحيد .

(٢)

تشكل عنصر المؤامرة من عدة عوامل أساسية :

(أولاً) تحامل الغرب وخصوصته للإسلام ، من حيث الخلاف بين المسيحية والإسلام ومن حيث سيطرة الغرب السياسية والعسكرية عن طريق الاستعمار على أرض الإسلام ومحاولة استدامة هذه السيطرة بتقوية تاريخ الإسلام . (ثانياً) محاولة القول بأن تاريخ الإسلام لم يستطع أن يحقق مفهوم الإسلام ومنهجه ، وهذا يعني هجر الإسلام عن إقامة مجتمعه الأصلي . (ثالثاً) خلق عملية تمزيق ، وحدة الفكر الإسلامي والأمة الإسلامية والتاريخ الإسلامي إلى قوميات وإقليمات مختلف فيما بينها وتضارب . (رابعاً) القضاء على ذاتية الإسلام والأمة المتميزة التي أنشأها والمعمل على صهرها في بوتقة العالمية وأتون الأمية حتى لا يكون للامة الإسلامية ذلك الوجود الواضح المستقل القائم بنفسه . (خامساً) المحيولة دون انتقام المسلمين والعرب بتاريخهم : إجهالهم وسلبهم من حيث هو طائل القوة وإيجاد الثقة في إجهالهم والتعريف على الأخطاء لتفاديها بالنسبة لمليانهم .

(سادساً) محاولة تصوير المسلمين بصورة الأمة العاجزة عن أن تحمل لواء الحضارة وقيادة البشرية ، وإيجاد الخلاف بينها وبين الأمم الغربية وإفساد العلاقات بإثارة شبهات ترمي إلى تصوير المسلمين بصورة للتعصب أو دهاء العنف أو الحرب .

(٣)

كان التاريخ الإسلامي من خلال مفاهيم الرسائل الغربية والمعاد الوطنية في حالة حصار على نحو يستهدف إفساد تصور الناشئين لأمتهم وتاريخها وعقيدتها من خلال محاولة تصويرها على هذا

النحو المضطرب الغريب . أما في معاهد الإرساليات فإن الطريقة التي تهرى عليها هذه الجامعات لمور تعليم طلبتها أن يبحثوا التاريخ كأنه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء بل لا بد من تطبيقه على نواحي الاجتماع . م ٦١ (ديسمبر - يناير) المقتطف ، والهدف من هذا هو فتح الطريق أمام إثارة عهرات الشبهات في تاريخ العرب والاسلام من شأنها أن تحمل عقل الشباب على الانتفاص والاحتقار لبني أمته ، ذلك لأن التاريخ في تقدير العلم المنهجي الصحيح ليس من العلوم الرياضية والطبيعية التي تخاطم إلى منهج التجريب الذي يطبق على الماديات . ولا ريب أن الغربيين لا يطبقون هذا المنهج في دراسة تاريخهم ولكنهم يدفعون به إلى شباب المسلمين والعرب الذين يدرسون عندهم لأنهم يعملون لتشكيلهم على كراهية أمته واحتقار تاريخهم بإثارة الشبهات حوله .

أما في المدارس الوطنية فإن تاريخ الاسلام يدرس وفق أسلوب مفتعل من التشويه والتقزق من شأنه أن يسوده في أعينهم ويصرف أنفسهم عنه . وذلك منهج صنعته أيد استعمارية وغربية منذ وقف بميد في أبان الاحتلال ، ومع ذلك فقد استمر حتى الآن دون أن تكشف زيفه وتصادره القوى المتحررة . ومن أبرز عوامل الفساد في هذه المناهج : (أولا) تقديم التاريخ الاسلامي على صورة صراع بين القادة أو تضارب بين القوى المختلفة بإبراز رواية الخلاف والصراع والنشاحن دون غيرها . وهذا الأسلوب متخذ في تاريخ الاسلام وحده وليس مستعملا في تاريخ الفراعنة مثل الذي يدرس على أنه صورة حالية من الامجاد . ومن ذلك محاولة التوسع في مسألة الخلاف بين معاوية وعلي وتصوير الأمويين على أنهم فئة تسلطت بفهم الجاهلية وأعلنت الفرقة ، وأن العباسيين فرس تطلب طليهم روح البذخ والتبذير . وأن هناك تنافساً واضحاً على السلطة بين الوعاه ، سواء في العصر الأموي أو العباسي أو في تاريخ الأندلس . وهذه المنطلقات الخاطئة كلها لعرض تاريخنا في المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات موضوعة وفق منهج مسموم مأخوذ أساساً من هرجي زيدان وفيليب حتى وبروكلمان ودائرة المعارف الاسلامية ، وهو يستهدف في جلته حجب بطولات التاريخ الاسلامي وصفحاته المضيئة عن شباب المسلمين والعرب ، ويرجع هذا إلى أن هذه المناهج والكتب المقررة قد وضعت في ظل الاحتلال وبقيت حتى الآن تحمل روح الكراهية والخصومة الاسلام وصفحاته المفرقة . فهي تحجب هذه المعطيات وتبرز وجوه الصراع والخلاف والفرقة ، والافتتال بين المسلمين ، وقد حاولت هذه المناهج الاهتمام بوقائع صغيرة عادية تحدث في تواريخ كل الأمم ، وإبرازها على أنها خلافات جسيمة وهي ليست كذلك في الحقيقة لأن بعضها مكذوب وبعضها قليل الأثر بجموار الإجهائيات الضخمة الأخرى المنكورة والمحجوبة ، وهي تستهدف تفتيت وقائع التاريخ وتزيفها حتى تحول دون إعطاء المنظور الكامل والفكرة الجامعة التي تكشف الحقيقة ، وهي خادعة لأنها حاولت أن تظهر أشياء غير صحيحة . مثال ذلك محاولاتها لإطلاق اسم الكشوف الجغرافية على رحلات المبشرين المسيحيين الذين سبقوا حالات الاستعمار الغربي في أفريقيا وآسيا بينما تؤكد الحقيقة التاريخية أن ما وصل عنده الأوروبيون كان قد سبقهم إليه الرحالة العرب بمئات السنين ودونوه في كتبهم .

كذلك فإن من أخطر محاولات تشويه التاريخ الإسلامي : تهويته . ومحاولة تصويره على أنه تاريخ إقليمي مصري أو سوري وهو مدف أصيل من أهداف الاستعمار . ونحن نعرض لنموذج من هذه النماذج وهو كتاب (التاريخ السياسي للدولة العربية) للدكتور عبد المنعم ماجد فهد محمداً باقتراءات متعددة على الإسلام وهو كتاب ظل يدرس في كلية الآداب طيلة خمسة أعوام كاملة (ولعله لا زال يدرس) ومن أبرز أخطائه ما يأتي : (أولاً) قوله (ولجأة وفي سن الأربعين نملك محمد موعبة النبوة) . (ثانياً) : يقرر أن الوحي كان يتم في المنام فيقول أنه كان ينزل عليه وهو قائم . (ثالثاً) : أن النبي كان ينصنع بعض الآيات التي أملاها ويأتى بأخرى غيرها . (رابعاً) : النبي وإن كان مرسل إلى العرب إلا أنه اعتبر نفسه مرسل إلى كافة الناس . (خامساً) : قوله إن رسالة المسيحية رسالة عامة وليست كاليهودية مخالفاً نص القرآن (ورسولاً إلى بني إسرائيل) وقوله في نص إنجيل متى (لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة) . (سادساً) : كتب قصة البعث والحساب بعبارة توحى بالسخرية والشك . (سابعاً) : الوكأة في الإسلام ليست نوعاً من التضامن الاجتماعي كما في وقتنا وإنما يفسرها بأنها حصة على النفقة والرحمة واستئصال في الجهاد ونشر الدين . (ثامناً) : ينفي المؤلف أن الإسلام طالع نظم الحياة بنصوص صريحة (والواقع أن الإسلام لم يدع أنه بني مجتمعاً غاية في التنظيم) . (تاسعاً) : يذكر أن الإسلام حارب الربا لأن معظم القائمين به كانوا من اليهود وكان التشريع الإسلامي يقوم على الأغراض الشخصية وينسك المؤلف آثار التسامح الإسلامي في تحرير الشعوب من عماها مخالفاً آراء جميع المؤرخين العرب ويستقني برأى يوحنا اليفثوس الذي انفرد بذكر مقاومة الأقباط في مصر للفتح الإسلامي مدة اثني عشر عاماً دون مناقشة أو دليل ليخلص من هذا إلى أن الفتوح الإسلامية كانت قائمة على السلب والنهب واتباع شهوة سفك الدماء .

(من تقرير الاستاذ علي عبد العظيم إلى مجمع البحوث في الأزهر ١٩٧٢/١٢/٢٠) .

ونحن حين نراجع بروكلمان أو جرجي زيدان أو دائرة المعارف الإسلامية أو فيليب حقي وكل كتب هؤلاء تستعمل كمصادر لسكتابات مؤلفي كتب التاريخ نجد عشرات من مثل هذه السموم تركوها على المثالب التي تستهدف سوء القصد وسوء الفهم . وتحاول أن تصور القرآن بأنه دين عبادة وأن الإسلام دين صلاة وصوم وحج وهي تقدم حياة الرسول لأبنائنا منقطعة الصلة من حياتهم ودينهم . وتقتل دائرة المعارف الإسلامية بمجموعة إقتراءات كاذبة واتهامات جاحدة على الإسلام دينه وقرآنه وتقوم على تصوير الإسلام وكأنه من صنع النبي محمد وكذلك نجد بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) يدرس السم في الدم ويتعرض بالطمع والقدح لحلفاء المسلمين وحكامهم وقد حاول جرجي زيدان تصوير الحلفاء بصورة المحاكم المتنازعين على السلطة والخلافة ، وأن الأمويين فئة تسلطت على الرقاب فأقصت الموالي والأعاجم واعتمدت مبدأ الاستعلاء القومي والعرفي وأن العباسيون فرس غارقون في الآبهة والبلذخ . أما جواب القوة والبطولة والجد فإنها معجوبة تماماً حتى ليبدو تاريخ الإسلام وكأنه مجموعة من الدسمات والمؤامرات فضلاً عن أنه تاريخ دول ، وعلى الجملة فإن محاولة كتابة تاريخ الإسلام

التي تمت في العصر الحديث والذي عرفتها المعاهد الوطنية ومدارس الإرساليات تصور التاريخ الإسلامي :

(١) مليئاً بالهذائس والمؤامرات (٧) محشواً بالفساد والترويع (٢) مقسماً بالانشقاق والتزق فضلاً عن تحريكه في إطار صورة ضخمة من الخلاف المستعمر بين الحكام والفرق والاسر، (عبدالقاسم) وقد أشار الاستاذ يوسف المش إلى هذه الظاهرة في كتابه تاريخ الإسلام فقال : لقد حاول الكثيرون أن يصنعوا تاريخنا بكترة الفتن والحروب والمكائد والاضطرابات وليس هنا مجال الرد عليهم ، غير أن النظرة الصحيحة إلى التاريخ من خلال عوامه العديدة تعطى البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا أصل لها صحيح . وأن كل مافي الأمر أن هناك تفاعلات في المجتمع الإسلامي العربي كانت تأخذ طريقها ولا بد أن تأخذ طريقها في ذلك المجتمع وأن هذه التفاعلات سنة من سن الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وهي تفاعلات تحدث في كل أمة بل أن الأخرى كانت تلتفحها بعنف أكثر مما تلتفحها به المسلمون والعرب . وتاريخ الأمم مروج بالحرب والفتن والاضطرابات أكثر من التاريخ العربي فهذا تاريخ فرنسا وألمانيا منذ الثورة الفرنسية ، وأن تاريخهما مليء بالحروب : حروب الثورة الفرنسية ، حروب نابليون ، حروب ١٨٧٠ ، حرب ١٩١٤ ، حرب ١٩٢٩ ، كل ذلك في مدى لا يتجاوز قرناً ونصف قرن والضحايا التي وقعت في هذه الحروب تتجاوز أعداداً ضحايا الحروب في تاريخنا بأجمعه . ولا ريب أن مرجع هذا التشويه والفساد في طريقة عرض تاريخ الإسلام هو تسليم الأئمة تاريخها إلى أعدائها وهدم قدرتها بعد أن تسلمت إرادتها على أن تصحح هذا الوضع وأن تكشف هذا الزيف وهي تعلم أن التاريخ الصحيح مصدر أساسي في بناء الشباب وإعدادهم ولا ريب أن تاريخ الإسلام مليء بالعطولات حافل بالإنجازات ، وأنه قوة فعالة تستطيع أن تعد المنتقمين بإرادة دافعة تحول بينهم وبين مركبات النقص في النظر للأمم الغربية لا أن أمتهم قدمت إلى البشرية خير ما قدمت أمة ، ولأن أمتهم وإن كانت تمر اليوم بمرحلة من مراحل التخلف فإنها في طريقها إلى القوة والتمكين ، وأن دورة الحضارة قد مكنتها من العمل والتأثير في البشرية كلها خلال ألف عام كاملة ، فإن كانت قد جاءت بها بعد ذلك مرحلة تخلف فتلك طبيعة الأمم ودورات المجتمعات ، وأنها منذ وقت قد دخلت مرحلة اليقظة وقطعت أشراطاً واسعة في طريقها إلى النهضة ومن حقها أن تعرف تاريخها معرفة صحيحة . وأن تعرف دورها الحقيقي في عالم البشرية وعلاقتها الطبيعية بين مختلف الانجاس والفرق والدعوات .

(٤)

حاول الاستشراق في العصر الحديث أن يقدم تصوراً مضطرباً لتاريخ الإسلام على النحو الذي يستهدف تزييفه أو إنقاصه في نظر أصحابه ، فلما استجاشت حركة النهضة الإسلامية ظهرت عشرات المؤلفات من الإسلام والرسول تصحيح هذه الآراء وتفسد الحطة التي قام بها الاستشراق الذي أحس بأن هدفه قد أصيب بالانهيار والشك ، فكان لا بد من خطة جديدة لمعارضة كتابه المسلمين

لتاريخهم على النحو الذي عمد إلى كشف زيف الاستشراق ودحض شبهات التعريب وإعادة مكانة الخلق بأمة تسمى إلى استعادة مكانتها في العالمين وترد عليها خطراً يهددها من خلال الاستعمار نفسه وأثره في الفكر وهو محاولته تصويرها بأنها أمة قد خضعت للإستعمار وأصابها التأخر فقيحة دينها وعقيدتها ومحاولة إتخاذ تاريخها - بالتزوير والإفساد - وسيلة لتبرير هذا التخلف والتأخر . هنا لك جهات موجة الاتهام لكتاب التاريخ الاسلامي الحديث وتصويره بأنه يعتمد إلى إثارة حساسة القراء وبموت الفرور . يقول الدكتور نبيه أمين فارس - أحد رجال الإرساليات الغربية والجماعات الوافدة التي تدورس التاريخ المسلمين على أنه من العلوم التجريبية ١ - إن المؤلفات الحديثة في التاريخ العربي بصورة عامة تبحث في هذا التاريخ بحثاً أقرب إلى السطحية منه إلى الدراسة العميقة ، وأن هذه المؤلفات تستثير حساسة القراء وتبعث في نفوسهم الفرور . ويدعو نبيه أمين يونس (ومن وراءه حركة التعريب إلى معاملة الاسلام معاملة الظواهر الطبيعية والاجتماعية وأن يوضع الجانب الإلهي موضع البحث الواقعي أي أن يبحث كما يبحث أية حقيقة اجتماعية أو فكرية أو وجدانية ومعنى هذا الذي يدعو إليه أصحاب المؤامرة على تاريخ الاسلام : أن يحاكم تاريخ الاسلام والاسلام نفسه إلى المذهب المادي الذي لا يعترف بالالوهية أو الوحي أو النبوة والذي ينظر إلى رسالات السماء على أنها ظواهر اجتماعية قام بها أفراد مصلحون مستنبطون في مجتمعاتهم . حاولوا لإيجاد منهج إصلاح وتغيير ، ولذلك فإنهم يتصورون الأنبياء والرسول أبطالاً ودعاة الحرية والإصلاح الاجتماعي لحسب ، كانوا يعملون على النهوض بأمتهم ، ولا ريب أن هناك فوارق بعيدة وعميقة بين رسالات السماء وحركات الإصلاح . ويرى نبيه أمين فارس وغيره الدراسات التاريخية في العالم العربي الاسلامي بأنها بتأثير المؤرخين العرب القدماء سائرة على مناهجهم متبعة طرقهم في البحث والمعالجة . وأن هذا هو سر هجرها عن أن تحقق الهدف الذي يرمى إليه ، فهو يريد إخضاعها المناهج الغربية الوافدة التي صنعت في غيبة هذا التاريخ ، والتي صيغت للأمم والتاريخ وبينة مختلفة ، دون أن يقدر بأن كل تاريخ له منهجه في الصياغة والنقد مبايناً لغيره من الأمم والمقائيد ، وأن المنهج الغربي في دراسة التاريخ لا يصاح لتطبيق على التاريخ الاسلامي لأنه يقوم على أصول مادية صرفة ، وعلى إنكار الالوهية والنبوة والبحث والجزاء ، والمسلون يؤمنون بالالوهية والنبوة والبحث والجزاء ويعملونها أساساً في النظرة التاريخية إلى الحياة وفي حركة التاريخ ، كذلك فإن المنهج الغربي في التاريخ يفسر حركة المجتمعات تفسيراً مادياً صرفاً ، سواء أكان ذلك التفسير اقتصادياً أم جنسياً . وأنه يهمل ويحجب عوامل أخرى لحركة التاريخ يعترف بها التاريخ الاسلامي منها البطولة الفردية وعوامل العائد والاديان وأثر الإيمان بها . فإذا أخضعنا تاريخ الإسلام المنهج الغربي الذي يوصف بأنه منهج علمي وعصري وحديث فإننا نكون قد انتقصنا الآثار الحقيقية لحركة التاريخ الاسلامي ولا ريب أن خطه كتابة التاريخ الاسلامي لا تفنى بالامر الحاكمة والخصائص المشهورة من خلفاء وقواد إلا بالقدر الطبيعي مع الاهتمام الاصيل بالتاريخ الحضاري والآثار الاجتماعية والاقتصادية ويركز نبيه أمين فارس على العصر الجاهلي وعلى علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات السابقة والمعاصرة ومهدفه من هذا واضح وجلي ، ذلك أنه يريد أن يصور الإسلام بأنه إمتداد للجاهلية أو ثمرة لها وهذا افتراض زائف وشبهه استنرافية مردودة ومدحوضة ، كذلك فإن محاولة الغرب تصوير الحضارة

الإسلامية بأنها ذات صلة بالحضارات السابقة والمعاصرة إنما يرمى إلى اتهام هذه الحضارة بأنها ليست حضارة متميزة وأنها جزء من حضارة للغرب اليونانية الرومانية الغربية الحديثة وليس هذا القول صحيحاً على إطلاقه ، وإنما تتميز الحضارة الإسلامية بأنها جاءت بمنهج رباني خالص يحمل تحرير الإنسان من عبودية الإنسان مجتسماً ومن تحرير عقله وروحه من الوثنية وعبادة غير الله . وأنها هي التي حطمت في البشرية الوثنية والعبودية السائدة في فارس والروم والفراتنة ، وفي غير هذا الحضارات التالية تأخذ من الحضارات السابقة في مجال التقدير والإشياء والعلوم التجريبية وهذا يسرى على الحضارة الإسلامية في جانبها المأساوي ، أما جانبها المعنوي والفكري وهو ما يطلق عليه أسلوب العيش ، فالإسلام له منهجه الخاص ونظامه الاجتماعي ومفاهيمه الخاصة . أما محاولة القول بوضع التاريخ الإسلامي في مكانه من التاريخ البشري العام ، فهي في نظر التبشير والتفريب أن التاريخ البشري هو تاريخ الغرب وحضارتهم القائمة الآن ، والتي توحى كل الدلائل بأنها مهيمنة وأن حضارة الإسلام وتاريخه تقف في الظل لأن قومها مستعبدون وواقعون تحت سيطرة الغرب والاستعمار ومن هنا تأتي دهمى وحدة التاريخ البشري المسمومة التي تريد أن تضع التاريخ الإسلامي في مكان محدود بالنسبة لذلك التاريخ القديم المتعدد الصور ، أو التاريخ الحديث الذي تتمثل فيه عظمة الأمم الغربية ، وهنا يبدو أن موقع التاريخ الإسلامي متضاداً ، ولكن أسلوب القياس الصحيح والنظر المنصف في التاريخ لا يقرآن . تدرس الأمور على هذا النحو ، وإنما يدرس تاريخ الإسلام بإثارة العجيبة الذي أحدثها في البشرية ، وبذلك للتوسع الضخم الذي حققه في أقل من قرن من الزمان فنقل العدل والسلام والرحمة إلى عالم البشر من الصين إلى حدود فرنسا وكشف عن الناس المظالم والعبودية والفساد ثم قدم للبشرية بعد ذلك المنهج التجريبي في العالم الذي صنع الحضارة المادية الحديثة .

(٥)

وكذلك نجد أن هناك محاولة خطيرة من وراء كتابات التفريب والاستشراق ترى إلى قطع علاقة التاريخ بالآلة ومقوماتها والتحدث عن تاريخ بشري أو عالمي ؛ ولارباب أن محاولة تحرير التاريخ من ارتباطه بالآلة ومقوماتها من شأنه — كما يقول الاستاذ شبل العيسى — أن يكون دعوة شعوبية ، ذلك إنما تتطلع إلى بناء أممنا فلا بد أن يكون التاريخ سلاحاً من أسلحتنا في هذه المعركة ، ولذلك فإن محاولة التفريب في تقديم صورة قوامها الإستهانة والسخرية بأجاء الأمة الإسلامية وتاريخها من شأنها أن تدفع شباب هذه الأمة إلى احتقار هذا التاريخ ومن ثم فهو لا يستطيع أن يحمل أمانة بناء الأمة . وليس معنى هذا أن تقدم الجوانب الإيجابية وحدها وتجنب الجوانب السلبية . ولكن المطلوب أن تقدم الجوانب السلبية بروح الانصاف وبمبدأ عن أساليب السخرية أو الاحتقار أو الانتقاص ، ولارباب أن وضع الأمور في مواضعها الصحيحة من شأنه أن يوجه المثقفين إلى معرفة الاخطار التي أحاطت بأممهم من قبل حتى يتحرروا منها ، ولكن تقديم هذه الجوانب يجب أن يكون معكوماً بإعطاء الصورة السكاملة لهذه الأمة في مجال تقدمها وبطولاتها وعظمتها للبشرية وإقرار الدور الكريم الذي قامت به في

الجمال الإنساني لا أن يتخذ هذه السبلات -بيلا إلى الغض من قدرها ومكانتها . وأن من أخطرها تدعو إليه مناهج التغريب في كتابة التاريخ الاسلامي هو : إجهاد التضارب بين حلقات التاريخ : الوطنية والقومية والاسلامية العامة ومن حلقات متداخلة ليست منفصلة عن بعضها البعض وليس بينها خلاف أو صراع ، ولكن بينها لقاء وتجاوب وتكامل لأنها تستمد أصولها من القرآن والإسلام ، والعرب هم جزء من تاريخ الاسلام فهم الذين حملوا لواء حركة الانتشار والتوسع وقد انصهروا في الأمم والأجناس وتشكل من هذا اللقاء ما يسمى الآن الأمة الاسلامية وأن للقيم الاسلامية هي التي شكلت العقيدة الاسلامية وهي التي صنعت الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية . ولذلك فإن وصف التاريخ بأنه عربي أو الحضارة هو تجاود أراد به الاستئراق والتغريب الفصل بين العروبة والاسلام ومن شأن هذا اللقاء بين الدوائر الثلاثة : (الوطنية - العروبة - الاسلام) أن يحول دون وجود ذلك الصراع الذي هزته أوروبا بين أوطانها وقومياتها ؛ وأن للقومية في الفكر الاسلامي مفهوم مختلف عن مفهوم الغرب وأن العروبة شيء آخر يختلف عن القوميات الغربية .

(٦)

هناك محاولة خطيرة أخرى في طريق المؤامرة على الاسلام : هي إهلاك التنظير القومي لتاريخ الحديث في إطار الأمة العربية على نحو يفصل هذا التاريخ عن تاريخ الاسلام العام وعن الأمة الاسلامية ، يقود هذه المحاولة دعاة القوميات والاقليسيات ، أمثال قسطنطين زريق وساطع الحصري وميخيل عفلق . يقول قسطنطين زريق : إن هذا التيار هو التيار المساعد المتضخم يوماً بعد يوم سواء أ كان عربياً شاملاً أم اقلية محصورة . ولكن الذي لم يذكره الكاتب أن هذا التيار دجيل وأنه وافد وأنه قد ترك في المجتمع الاسلامي نتيجة الآثار التي رتبها الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي لتفتيت وحدة الأمة الاسلامية السياسية والاجتماعية وأنه لذلك يباو مصنوع وليس فيه من الأصالة ما يمكنه من الحياة والنمو ، ولقد امتد بحكم الضغوط والوسائل وجرباً مع التيار الغربي المثلث له والمنقول منه ولكنه لم يستطع أن يحقق نجاحاً ما ، ذلك لأنه لا يتفق مع طوابع الفكر الإسلامي والمجتمع الاسلامي وأن تجربته قد فشلت تماماً في أن تملأ شأن الهم والعرق والعنصر على وحدة الفكر والثقافة والعقيدة التي شكلت المجتمع الاسلامي .

ولاريد كانت فكرة القومية وفكرة الوطنية من الوسائل التي اتخذتها الاقطار الاسلامية والعربية في مواجهة الاستعمار والاحتلال ولكنها لم تكن في تقديرها مناهج أساسية أو ثابتة أو وجهة دائمة لأن هذه الدعوات هي في حقيقتها حلقات في عقد متكامل : الوطنية مرتبطة بالقوم والعنصر ، ولكنها كلها لا تنصب في الدائرة الواسعة الاحصائية الجامعة : جامعة الوحدة الاسلامية في الفكر والثقافة والعقيدة التي لا ترفض دعوات الوطنية والقومية في نطاقها المحدود ، وعلى النحو الذي يحقق والتعارف ، الذي دعا إليه الاسلام وبحيث لا تخلق الصراع ولا الخصومة ولا العزلة ولا الانفصال بين الوحدات

الوطنية والقومية : عربية أو إسلامية محض لواء لا إله إلا الله . هذا هو مفهوم المسكر الإسلامي الدعوات القومية ، والتاريخ القومي الذي ليس إلا قطاعاً من التاريخ الإسلامي ، والذي لا يمكن أن ينفصل أو يستقل أو يتجزأ بحيث يكون تاريخاً قومياً منفصلاً عن التاريخ الإسلامي للعام الجامع ، والمعروف أن العروبة جزء من الإسلام لا ينفصل عنه لأن الاحلام هو الذي أعطاهام مفهومهما وطابعهما فهي لا تستطيع أن تستقل بالانفصال أو الاستقلال ولا تستطيع أن تكون تاريخاً منفصلاً بالنسبة للعصر الحديث أو تحاول أن تقرر التاريخ العربي القديم على أساس القومية والمعروف أن النوعة القومية نزعة مستحدثة جاءت من خلال التحدي الذي قام به الاتحاديون في تركيا حين أعلنوا دعوة للثورية في بلادهم وحاولوا تفرق العرب عن العرب على اتحاد مفهوم القومية لحماية وجودهم وكيانهم ولقمتهم ولكن العرب لم يعرفوا مفهوم العروبة مثلاً لمفهوم القومية الغربية القائمة على الصراع والمخيمتين القوميات المختلفة كذلك فالعرب لم يعرفوا تاريخاً خاصاً مستقلاً بهم ولا وجوداً منفصلاً عن التاريخ الإسلامي أو الوجود الإسلامي في تاريخهم كله إلا بعد أن اشتعلت دعوة الثورية في الدولة العثمانية على أيدي الاتحاديين بهدف تزييق الوحدة الإسلامية الجامعة بين العرب والفكر والتي استهدفت إسقاط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة وتوزيع الأجزاء العربية بين الدول الاستعمارية وفتح الطريق الصهيونية إلى فلسطين .

(٧)

وهناك التيار الاقليمي والوطني وهو مستقابة تاريخ فطر من الافطار منفصلاً عن التاريخ الإسلامي العام ، وقد حرص الاستعمار على خلق هذا اللون من كتابه التاريخ الذي يستهدف إعلاء شأن الافطار التي فصلها الاستعمار عن بعضها البعض بعد أن كانت وحدة تامة . وقد جرى هذا الاتجاه في البلاد العربية بعد انتزاع الاستعمار للأجزاء من الدولة العثمانية كصر والسودان وفونس والجزائر ثم بإنهاء الدولة العثمانية نفسها عام ١٩١٨ واحتلال سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق . أن علاق هذه التاريخ الاقليمي منفصلاً عن دائرة الوطن العربي وعن دائرة العالم الإسلامي ثم تغير هذا الاتجاه بعد ظهور الدعوة إلى العروبة ، ظلت كثرأ من البلاد العربية تمل من شأن تاريخها الاقليمي في كلتا مرحلتيه السابقة للإسلام والتي جاءت في عصور الاحتلال كالفرونية والمصرية في مصر والفينيقية واللبانية في لبنان والسريانية والسورية في الشام والعبرية والمغربية في المغرب وقد جاءت هذه الدعوات من منطلق طبيعي هو مقاومة الاستعمار غير أن القوى التخريبية حاولت أن تجعل من هذه الدعوات محاولات لعزل الافطار عن أصولها العربية والإسلامية وربطها بتاريخ سابق للإسلام وقد جرت محاولات للبحث عن أصول يمكن تحقيق هذا الخطط غير أن المحاولات كلها هجرت عن أن تجد ما يمكنها من دعم الارتباط بين العصر وبين ما قبل الإسلام ولذلك فقد سقطت هذه الدعوات ، غير أن بعض خصوم الإسلام ما زالوا يجهلون هذه المحاولات دون جدوى .

وهكذا نجد أن مناهج الإرساليات وكتابات الاستشراق قد حرصت على أن تخرج للمسلمين والعرب من أصول تاريخهم ومن مفاهيمه وأن تزدري تراثهم ، ومن ثم تشكلت مدرسة التغريب من هؤلاء الذين حلوا ولواء الاستشراق ومناهجه إلى المدارس والكتليات والصحافة والمطبوعات الثقافية باللغة العربية ، تحمل الشبهات والشكوك والتي تظمن في العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ومقدمة هؤلاء : جرجي زيدان وفيليب حتي وطه حسين ونبيه أمين فارس وقسطنطين زريق ولادة هؤلاء م : جولد سيهر ومرجليوث ولامنس .

ولقد كان للاستشراق وجهات مختلفة في تسميم آبار التاريخ الإسلامي وفق الغايات التي تتصل بأهداف الاستعمار أو الشيوعية أو الصهيونية .

ولكل وجهة هدف معين يرمى إليه من إفساد مناهج دراسة التاريخ وإلقاء على الهدف الذي يستطيع أن تحققه أبحاد التاريخ الإسلامي في بعث الأمة الإسلامية وإحياءها ودفعها إلى التفكير في الأرض .

الباب الأول

تاريخ ما قبل الإسلام

من الخنيفية الإبراهيمية إلى الخنيفية المحمدية

- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) الخنيفية السمحاء . | (٧) الفلك في التوراة . |
| (٢) الجاهلية . | (٨) إسماعيل والتوراة . |
| (٣) اليهودية . | (٩) العروبة وليست السامية . |
| (٤) اليهود في جزيرة العرب . | (١٠) مؤامرة السامية . |
| (٥) اليهود في المدينة . | (١١) الغرب والمسيحية . |
| (٦) مبراهم النبوة . | |

الفصل الأول

الخنيفية السمحاء

يمكن تقسيم رسالة السماء إلى مرحلتين : المرحلة الأولى التي بدأها نبي الله نوح الذي دعا ربه ألف سنة إلا خمسين عاماً ووقع الطوفان في عصره . ومن بعده توالى رسالات السماء على النحو الذي أشار إليه القرآن (منهم من قصصنا عليك ومنهم لم نقصص عليك) وبدأ المرحلة الثانية بنبي الله إبراهيم عليه السلام الذي وصف بأنه أبو الأنبياء وخليل الله والنبي الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، والرجل الذي كان أمة . والنبي الذي ابتلاه ربه بكلمات فأمنهم لجعله للناس إماماً ، ومن عقبه خرج جميع الأنبياء والرسل من بعد حتى تمت رسالة السماء بخاتم النبيين : محمد ﷺ . وإبراهيم عليه السلام هو الذي حمل زوجته وإبنته إسماعيل إلى بلاد العرب فأسكنهم في مكة فلما شب إبراهيم رفعها معاً فقواعد من الكعبة البيت الحرام الذي جعله الله قياماً للناس ، وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان خنيفاً مسلماً . وفي إبنائه : إسماعيل وإسحاق ، انحصرت رسالة السماء ، بدأت في إسحاق حتى انتهت بالمسيح عيسى بن مريم ، ومن فروع إسماعيل جاء محمد ﷺ . ولا ريب أن الإسلام هو الدين الأقدم الذي أوحاه الله للبشرية كلها لحرفه رؤساء الأديان وأخرجوه من مضمونه فكان الله تبارك وتعالى يرسل المرسلين لتخليصه مما أدخل إليه شرع الله لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك

وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما عدوهم إليه . الله يجزي من يشاء ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . . ومن هنا فإن دراسة الاسلام يجب أن تبدأ بإبراهيم عليه السلام حيث تشكل هذه المرحلة كلها في إطار واحد (من إبراهيم إلى محمد) مروراً بإسرائيل وأنبياء بني إسرائيل وخاتمهم السيد المسيح الذي جاء بالإنجيل متمماً لرسالة موسى وتصديقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد) ولا ريب أن الحنفية السجاء هي التي شكلت هذه الأمة للوحدة التي انفصلت منها رسالته ورسالة أبنائه والتي امتدت من العراق إلى مصر إلى المغرب ، من خلال مختلف الموجات التي قذفت بها الجزيرة العربية خلال أكثر من ثلاثة آلاف عام وآخرها المرحلة العربية الاسلامية . ويرى الدكتور إسماعيل راجي الفاروق : أن رسالة إبراهيم وتوابعها قد شكلت تياراً ثقافياً ذا خصائص معينة نشأ من ذلك المادى البعيد وجعل يفصح محتواه شيئاً فشيئاً وخطوة خطوة على أيدي الآشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين والعبرانيين وغيرهم ، على أن هذا الإفصاح قد بلغ ذروته ثلاثاً عما قبل ، كانت كل ذروة منها تزيد الرسالة جلاء حتى بلغ الأمر اكتماله وكاله عند الذروة الثالثة . أما الذروات الثلاث فهي اليهودية والمسيحية والاسلام : هذا التيار الثقافي الواحد المتصل الذي كان من أهم خصائصه هو أنه يحمل رسالة إلهية خلقية هو ما يطلق عليه الدكتور الفاروق لاسم العروبة وتطلق عليه لاسم « العروبة الحنيفية » وقام ما يمكن أن يسمى تيار الحنيفية التي تكاملت بالاسلام ورسالة محمد وذلك في مواجهة التيار المسموم الذي حمل لواءه المفكرون الذين يتحركون في إطار اليهودية والتلودية والصيونية ، فقد أطلقوا على هذا التيار الحنفي الإبراهيمي الأصل اسم : « السامية » . يقول الدكتور الفاروق : خلال قرون طويلة قبل الاسلام لم ينقطع أهل هذه الرقعة من الأرض عن الاتصال بالالهية اتصالاً يبالغون فيه الرسالة ولقد هيأتهم ظروف حياتهم للاطلاع بهذه المهمة السجارية .

هذه الظروف جعلت من أرحمهم صحراء وجعلت لهم موقعهم المتوسط بين العالمين ، فقد جعلت بلادهم ممراً للرائج والغادي من الغزاة . وإذا كانت تلك العوامل الخارجية التي تهدمهم بالقضاء شيئاً مفروضاً عليهم ولا قبل لهم بتغييره ، فإنهم لم يجدوا مناصاً من تغيير أنفسهم من باطن بحيث يجعلونها كفتل هذا الخطر الداهم وابشوا ألوف السنين يحملون فقر بيئتهم في كبرياء لراهد الذي لا يلبث أن يناديه المتنادي إلى الحق حتى يجب للدهوة مستجيباً . ويرى الدكتور الفاروق أن المرحلة الأولى تبدأ بهجرة إبراهيم عليه السلام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وهي التي جاءت بداية خط طويل من النبوات التي بلغت ذروتها في العقيدة اليهودية والمرحلة اليهودية التي تمتد إلى مولد المسيح . والمرحلة الثانية هي مرحلة رسالة السيد المسيح . والمرحلة الثالثة هي رسالة محمد ﷺ : (الرسالة الخاتمة) .

وهكذا نجد أن الحنيفية السجاء هي منطلق الفكر الرباني في خلال هذه المرحلة كلها (١٧٥٠ قبل الميلاد + ٦٥٠ بعد الميلاد موعده رسالة محمد ﷺ) . أي أنه خلال ٢٤٠٠ سنة تقريباً عند مبعث محمد وإلى الآن ما يصل إلى ٢٨٠٠ سنة) من الحنيفية السجاء : دين إبراهيم وإسماعيل الطائفتان الدهوتان التي جاء الاسلام وهما قائمان : اليهودية والمسيحية ، والذي وجد المسلمون أنفسهم منذ اليوم الأول في

جدل وحوار معهما (النصرانية في نهران واليهودية في المدينة) ومن ثم فتح باب الحديث عن مفهوم الإسلام الموجد اليهودي والنصراني ومدى صلاته برسالة الله الخلق الأولى التي أنزلت على موسى وهيسى وما أصاب هذا المفهوم من انحراف في التفسير ، وما يتصل بموقف المسلمين من الغرب الذي عبرت إليه المسيحية وأقامت ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية ولأوروبا كلها من بعد وإلى اليوم . من هنا نحدد منطلق الخلاف في التفسيرات والشبهات التي تثار حول الإسلام أو محاولة القول بأن بين اليهودية والمسيحية من صلات على النحو الذي تحدث عنه المستشرقون اليهود والنصارى . وفي مقدمة ذلك ما يتصل بانكار الاستشراق الغربي (المسيحي واليهودي) هجرة إبراهيم وإسماعيل إلى الجزيرة العربية وكون إبراهيم وإسماعيل رسولين مبلغين إلى العرب وما يتصل بهذا من إنكار التوراة لرحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية ، ولارباب أن في ذلك الإنكار مساوقة مع هدف التوراة الذي حملت لواء التلويدي والصهيونية من بعد وهو إنكار حق العرب في إمامة إبراهيم وصهرها في ابنه إسحق وخده أباليهود وذلك بمحاولة مضلة نحت اسم د شعب الله المختار . يقول الكتائبان الفرنسيان : (جاك لرومالوماري لودوا) تطبيقاً على نص التوراة الذي يقول : : إن الرب أوحى إلى إبراهيم بالذهاب إلى فلسطين قائلا : : لنسلك أعلى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير : نهر الفرات . .

يقول الكتائبان : إن هذه الآية لو صحت فإن هذا الوعد ينصب على ابن إبراهيم إسماعيل أبي العرب يقول الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي : إن التوراة صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد النصرانية ، أما القرآن الكريم فقد قدمها في قالب يؤكد (الخيفية) ولكن المسألة ليست مجرد اختلاف وجهة النظر بين الكتائبين والتوراة يرما ما قدمت الحقائق من وجهة نظر الخيفية إلا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن ؛ وهذا دليل على أن الخيفية أو الخهر التاريخي كآله القرآن : هو الحق فوجود الخيفية في التوراة بشكل محرف دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم . : إن النصرانية تمثل حزبا أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات واتباع نظام أخلاقي يقضي بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار في أي قبيلة أو شعب أو أي أمة أخرى ، أما الخيفية فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كدوى رسالة يمدونها إلى البشر أجمع ويحققونها بالانصهار في جسم البشرية التي كانوا وبإهداء الذين ينصرون معهم عن طريق المصاهرة والمواخاة لمتهم وثقافتهم ورسالتهم . لذلك جاءت التوراة بعد بلورتها النصرانية تقول بأن إبراهيم هاجر لأن يهود أمره بذلك ، ولكنها تعتمد السكوت على أمر يهود فهي تقول أنه أمر تلقائي عرفي أي لا سبب له فآله في نظرها فضله لأنه هو ، ولقد فضل ذريته ، بل قطع عهداً (لاميثاقا) والفرق بين العهد والميثاق أن الأول ذو اتجاه واحد أي يلام وجهة نظر واحدة) على نفسه بتفضيلها مهما حصل إلى الأبد حتى تمثلته كآله هذا العنصر من دون الناس . أما القرآن الكريم فجاء يعلن أن الله إله الجميع لا قدرة وقهراً بل حبا ورحمة وجاء يؤكد أن هجرة إبراهيم لسبب وجهه ، هو التوحيد وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات والأرض وأنه تعالى سيماقبه أشد العقاب بل سيستبدله وقومه إذا لم يحققوا هذه الأمانة (مجلة كلية

الأدب م ١٩٥٩/٢١) . ويقول : كانت التوراة كتاباً إلهياً عزيزاً إلا أن اليهود حرقوها وذاغوا بها من أهدافها الإلهية ومراميها الأخلاقية المالية فجعلوها كتاباً تمصياً عنصرياً حتى اسم الإله بدل فبدل أن يدعى باسم الحق وهو إله العالمين ورب البشر جعلته العنصرية اليهودية : (إله إبراهيم ويعقوب وإسرائيل) غصب ، ادخل (عزرا) الحقد والتشني والكراهية والانتقام فأخذ يتغنى بأعمال العنف والقتل والتخريب بل ويخلق القصص اختلافاً لتجديد العنصرية اليهودية بها ، ليس الله بل عزرا هو القاتل : (إسمع عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاورهم وتخربون جميع مرتفعاتهم ، تملكون الأرض وتسكنون فيها لأنني أعطيتكم الأرض لكي تملكوها ، تهزمون مذابحهم وتقهضون سوارتهم لأنك أنت شعب مقدس) . ويقول الدكتور الفاروقى : إن عزرا بكل حق هو مؤسس الدين اليهودى كما نعرفه الآن ولا عجب أن اعقبه اليهود بإنبا لله ، وهو الذى اكتملت التوراة بعمله مسحة الوثيقة لآله بعمله هذا بعث الهوى اليهودية .

وقال : إن عدم إتقان عملية التحريف من قبل عزرا هو الذى جعل العلماء يكتشفون عزرا ، فالحنيفية لا تزال باقية فى التوراة لها آثارها وبالرغم من التحريف المزادوى الذى جاء مضاداً لها .

الفصل الثانى

الجاهلية

يقول عمر رضى الله عنه : (إنما ينقض الاسلام عروة عروة إذا نشأ فى الاسلام من لم يعرف الجاهلية) فمعرفة التاريخ السابق للإسلام ضرورة لفهم الإسلام نفسه والاسلام هو الذى اطلق على هذا التاريخ تعبه (الجاهلية) وهى جاهلية قريية وجاهلية قديمة أو أول ، ولما كان الاسلام هو خاتم رسالات السماء فقد كان من الضرورى أن يتعرف أممه على رسالة السماء منذ بدأت لأنهم مكافون بالإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب التى سبقت والتى هى فى مجموعها رسالة واحدة هى (الإسلام) والدعوة إلى توحيد الله وإن اختلفت باختلاف البيئات والعصور ، فقد أرسل الله تبارك وتعالى رسله وأنبيائه للبشرية منذ نوح إلى محمد ﷺ وقد كانت هذه الرسالات إلى كل أمة برسول منها إلى أن وصلت البشرية إلى مرحلة الرشد الفكري الذى أهلها لأن تتلقى الرسالة العالمية الخاتمة للإنسانية كلها وهى الرسالة التى حل لواثها محمد ﷺ بكتبه الخالد المعجز (القرآن) . وحين جاء القرآن كانت البشرية تعرف أدياناً منوثة انخرقت من طريقها وأدياناً بغيرية ، ومن الأولى اليهودية والمسيحية ومن الأخرى والديانات المجوسية وغيرها وكانت هناك الوثنية التى ليست لديها ولا كتبها انحرافاً ، وكانت تتمثل فى صورة ضخمى فى بلاد اليونان ومن بلاد العرب وفى قلب جزيرتهم جاء إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل يحملون لواء الحنيفية

السمعاء حيث أقاما القواعد من الكعبة البيت الحرام ونشأ في قلب جزيرة العرب في أم القرى ومن حولها وحول الكعبة دين الخيفية السمعاء الذي امتد في اسماعيل وأبنائه من بعد والذي ظل قائما في نفوس السكتهين حتى جاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة الأديان ومتصلة الأسباب بالهدوة الابراهيمية .

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) . ومن ثم فإن تراث النبوة التي هرفت هذه المنطقة العربية كلها بدأ بإبراهيم عليه السلام وختم محمد عليه الصلاة والسلام وفيما بينهما كانت النبوة والرسالة قد امتدت في بيت إبراهيم . امتدت في ولديه اسماعيل ونسحق ، ثم امتدت في فرع اسحق في يعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وجاء عيسى عليه السلام خاتما للنبوات في بني إسرائيل ثم جاء محمد ﷺ من العرب ومن فرع اسماعيل خاتما للنبوة والرسالة جميعا . ولا ريب أن بني إسرائيل قد عجزوا عن حمل رسالة الله تبارك وتعالى على وجهها الصحيح وأنهم قد حرفوا كتابية التوراة والانجيل فاستحقوا أن تنتزع منهم الرسالة إلى من هم أقدر على حملها .

(٢) الوثنية العربية

انحرف العرب بعد رسالة التوحيد الخيفية التي قام عليها إبراهيم واسماعيل إلى الوثنية والشرك فالوثنية العربية ليست وثنية حقيقة الجذور كالوثنية اليونانية ولكنها كانت أميل إلى الشرك فقد كان العرب يتخذون الأصنام على أنها وسائط وشفاعات تقربهم إلى الله . ويقول المؤرخون أن الذي سنج بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يطمئن من مكة طاعن إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصباية بمكة حينما حلوا وضعو وطافوا به طوافهم بالكعبة وجرور الزمن نسي الناس الملة في تقديس الحجارة على أنها أثر الكعبة وذكرى لها فانتقل التقديس للحجر نفسه وتجاوز الحجر إلى صنم ولكن بقيت فئة تتطلع إلى دين التوحيد : دين إبراهيم عرفته تلك الفئة بالاحناف ودينهم بالخيفية وكانوا قد اعتزلوا الأوثان وطافوا الميتة والدم والذبائح التي تذبح على للنصب لعهد الله وعرف من الاحناف زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل ولم تكن الخيفية امتدادا أو تقليدا لليهودية أو النصرانية بل لم يكن لها بها صلة أو شبيهة (وما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين) . وكانت الوثنية تشويها لدين إبراهيم وتحريف له وخروج عليه وليست الوثنية في حقيقتها ديننا ولكنها انحرفا عن الدين المنزل . كذلك فقد هرفت الجزيرة العربية اليهودية والمسيحية . وكذلك عرف العرب عبادة الكواكب وفي هذه الفترة أصاب فريضة الحج هذا الانحراف الوثني فكانوا يذبحون الذبائح لا يطعموها للفقراء ولكن ليأطعموا بها جدران الكعبة . وكانت صلاتهم عند البيت : مكاء ، كما وصفها القرآن . واقتدت قبائل العرب في الجزيرة العربية عددا من الأوثان كاللات والعزى ومناة والشمس والقمر والشمري والنجم (الثريا) وبرد وسواح ونسر ، ولم يكونوا يؤمنون بها من دون الله بل كانوا يشركونها مع الله تبارك وتعالى ويتخذونها وسطاء وقد سجل القرآن عليهم ذلك في قوله تعالى : (ألا الله الدين

الحال ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) . وقد واجه القرآن ودعوة الإسلام ظاهرة الشرك هذه مواجهة صريحة بالإضافة إلى مواجهة كل أسباب الوثنية وأنواعها من عبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر وعرض الإسلام لفساد كل الانحرافات التي عرفتها الأديان قبل الإسلام وخاصة ما يتصل باليهودية والمسيحية ، وهاجم الإسلام الوثنية وتعدد الآلهة ودعا إلى عبادة الله الواحد الأحد . وحين دخل الإسلام مكة فاتحاً كانت السكينة التي بنيت لعبادة الله الواحد الأحد تزعج الأصنام إذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صنماً غير الأصنام الأخرى التي كانت في جهات متفرقة . وكانت عقائد الوثنيين والمشركين من أهل مكة ممزقة منهارة فقد عبدوا الكواكب وزعموا أن الملائكة بنات الله ، وقال صاعد في طبقات الأمم أن حدير كانت تعبد الشمس وكثانة القمر وتميم الدوران ولحم وجذام المشتري وطى سهيلا وقيس الشمرى المبور وأسد عطار .

الفصل الثالث

(٣)

اليهودية

لم تدم للمملكة اليهودية سوى ٧٨ سنة انقسمت بعدها إلى شطرين متنازعين تحطم الأول عام ٧٢٢ ق . م على يد الآشوريين وتحطم الثاني ٥٨٦ ق . م على يد البابليين وفي منفى اليهود في بابل بين ٥٨٦ ، ٥٣٨ ق . م تفجرت العنصرية عن الحقد والكراهية للعالم والبنيت جذور الصهيونية بمعنى الانطباع السياسى والدينى إلى العودة إلى أرض الميعاد وعاد اليهود مرة أخرى إلى فلسطين . ثم كانت ثورتهم على الإمبراطورية الرومانية التي قضت على وجودهم وأبادت جوهرهم عام ٧٠ م ثم حرم عليهم الدخول إلى القدس وتفرق أكثر الباقين من اليهود في الأرض وجاء جماعة منهم إلى بلاد العرب لاجئين ، وكثروا في منطقة تمتد من يثرب إلى خيبر إلى تيماء ، وكلما وقع الصراع بين المذاهب المختلفة في أرض فلسطين بعد المسيحية كانت جزيرة العرب هي المساوى لأولئك المضطهدين لأن شبه الجزيرة لم تكن خاضعة للروم . إن التحريف الذى قام به اليهود للتوراة قد نقلها من المفهوم الربانى الذى يصل مراحل دعوة السماء من لدن نوح وفي إطار الخليفة السمعة التي جاء بها إبراهيم حتى تتم رسالتها ، إلى مفهوم العنصرية الغالبة التي تفرض سيادة عنصر اليهود تحت اسم د شمع الله المختار ، وهذا هو التحول الخطير الذى نقل دين الله المثل بالحنيفية السمحاء الممتدة من إبراهيم وإسماعيل وإسحق في أبنائهما إلى تلك العنصرية التي تجعل من الله تبارك وتعالى إلهاً خاصاً لليهود وتعمل من رسالة الرحمة إلى الناس ، عملاً مقصوداً على قوم وحدهم دون البشر جميعاً ، بل وتعمل لهم الحق في السيطرة على الأمم المختلفة واستغلالها رسلها ما تملك تحت اسم الجويم .

ويرى الباحثون أن هذا التحول من الحنيفية إلى النصرانية قد تم في فترات سابقة للسبي البابلي ولكنهم يركزون على أن التعريف في التوراة نفسها وقع لبأن السبي البابلي ؛ ويؤكدون — كما أشار إسحاق راجي الفاروق — أن التوراة التي بين أيدينا هي الكتاب الذي هبته هوردا حوالي عام ٤٣٥ قبل الميلاد وقد أحصى الباحثون مجموعة من العكوك في مقدمتها تغيير اسم الإله ومنها ما أدخله الكهنة إلى التوراة ولا سيما هوردا ومنها الطقوس التعبدية التي لم تكن من أصل الديانة . وأبرز الانحرافات هي مسألة إبراهيم عليه السلام ووعد الله له ولقديته فقد بنى اليهود نظرية تفوقهم على البشر وانفرادهم عن الناس وأنهم أختاروا الله على جميع المخلوقات في نظر الخالق على هذا التصور الباطل بأن الاختيار لم يكن للخليق فقط بل لأبنائه وسلالته وهم يملنون أن هذا الاختيار لم يكن أخلاقيا وليس له علة .

وهذا ما كشفه القراء الكرم من ديفه في قوله تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهم قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدى الظالمين » فالرسالة وجهت إلى بني إسرائيل على طريق الحنيفية السمحة فإن أقاموا عليها كانوا من أهل الوعد الإبراهيمي وإن عجزوا عنها وتظفروا فقد سقطوا ونقل الحق تبارك وتعالى الرسالة إلى غيرهم ، إلى الفرع الآخر . فرع إسحاق وفي هذا يقول القرآن : (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفهراً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ، فهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً ، للنساء (٥٠ : ٥٤) وهكذا نجد أن الانحراف الذي وقع فيه بني إسرائيل بعد أن أعطاهم الله الملك أكثر من ألف سنة ما بين (إسرائيل وهنري) فقد أثبتوا عجزهم عن حل الرسالة على النحو الذي رسمه الحق تبارك وتعالى وانحرفوا عن الحنيفية إلى النصرانية ولذلك نقل الله الملك من فرع إسحق إلى فرع إسحاق . ولقد كان اليهود يعرفون صفة النبي المنتظر ، وكانوا يسمون به في دعائهم ، فلما جاءت الرسالة إلى محمد بن عبد الله طارحوه لأنه ليس من فرع إسحق وخاصموه خصومة شديدة . ولاريد أن هذه القضية هي أخطر قضايا العصر الذي نعيش فيه فإن الصهيونية العالمية تحمل في دعواها لواء هذا الوعد على النحو الذي زيفه اليهود في التوراة وقاموه في التلويح وفي بروتوكولات صهيون وحين جعلوه قاصراً على فرع إسحق وأولاد إسرائيل . وحرروا منه فرع إسحاق وإسحاق هو الابن الأكبر لاسيدنا إبراهيم ، وأنسكروا رحلة إبراهيم وإسحاق إلى مكة وبناء الكعبة من أجل تزييف هذا الوعد . وتلك القضية تتمثل اليوم في تحد خطير : حيث استطاع اليهود تزييف دوائر المعارف العالمية وكان من عملهم الخطير فرض العهد القديم على المسيحيين الغربيين وربطه بالإنجيل ، واستطاعوا السيطرة على مناهج الدراسة في أكثر بلاد العالم الغربي وفي الجامعات ومناهج الدين وفرض هذا الارتباط بين التوراة التي كتبها الأحرار ومنها إلى الإنجيل من أجل الإقناع بهذا الوعد وقد نتج عن هذا أن اتباع البروتستانتية يتابعون الصهيونية في هذا المفهوم كذلك فنحن نجد هنا في أفق الفكر الإسلامي تلك الدهوات التي انتشرت منذ الثلاثينات حين أطلق بعض أتباع التعريب صيغة التفكير في وجود إبراهيم وإسحاق بالرغم من وجودهما في التوراة والقرآن . وكانت هذه علامة مبكرة على وجهة الدعوة الصهيونية نحو تزييف قضية إبراهيم وإسحاق .

اليهود في جزيرة العرب

كذلك فقد توارثت في أفق الفكر الإسلامي شبهات كثيرة تحاول أن تجعل لليهود في جزيرة العرب دور في الأدب أو الاجتماع . فقد ظهرت في الثلاثينات كتب ودراسات حول هذا الموضوع كتبها طه حسين وإسرائيل وانغرسون وغيرها في محاولة لخلق فضل وهمي لليهود واليهودية على اللغة العربية وآدابها لإبان إقامتهم في الجزيرة العربية قبل الإسلام منذ هجرتهم إليها هاريين من وجه الرومان في فلسطين سنة ٧٠ وما بعدها . وكان هذا العمل يجرى في إطار الدعاية الصهيونية التي كانت تريد أن تضع الشرقين بما أقدموا على تسجيله في دوائر المعارف وكتب التاريخ الغربي بما يبرر دخولهم إلى فلسطين . والواقع أنه التاريخ في أحداثه المتصلة منذ بزغ فجر الضمير تؤكد أن اليهود كانوا حالة على حضارات مصر وبابل وأشور ولما عاد اليهود من السبي تغلوا معهم من العرب البابليين للشيء الكنه بما نجده في كتابهم المقدس وكل أوردوه من الآداب إنما جمعوه من الأساطير التي كانت سائدة في تلك العصور أما الخليفة فباعتبارها إطار النبوات فقد حملت فكرأ ونثراً وأدباً وفلسفة وحكماً وأمثالا عرفتها البيئة العربية الممتدة من بين النهرين إلى الشام فصر . يقول الدكتور محمد فؤاد حسنين فالعرب لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجهل إلى حياة أفضل مكنته من التحكم في مصائر الكون فأطلق العرب الأخطار من عقابها وحررها من جود رجال المعبد اليهودي والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر أولئك للتدود وتعاليمه كما انكشف سلطان الكنيسة وقد مهد هذا التطور بدوره إلى ظهور حركة الإصلاح الديني وبعث النهضة العلمية . وبما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادؤهم الإنسانية التي أزالت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتقييد العنصري والخط من القيم الإنسانية ، أن العرب يؤمنون سواء في الجاهلية أو الإسلام بالحقوق الإنسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشري . فالدين الإسلامي الذي ثبت أسس هذه المبادئ يقرر في صراحة ووضوح أنه ليس لعرب على عجمي فضل إلا بالقوى ، ولذلك نجح العرب في تحقيق ما صعد عنه اليوناني والفلسفة اليونانية أهى مذمب الإنسانية . إن هذا المذهب لم يقر ولم ينتصر إلا بفضل العرب ولم تعرفه أوروبا إلا في العصور الوسطى وعلى يد العرب وبعد أن تملذت أوروبا على العرب في العصر الإسلامي حيث بلغ العرب مكانة اجتماعية لم تدانهم فيها الشعوب الأخرى ، كما شرح الإسلام لمعتقديه وغيرهم تشريعات أخرجه من الظلمات ، ويقرر الدكتور محمد فؤاد حسين أن نفراً كثيراً من الأوروبيين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهوداً يؤمنون بأن العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود ، والتاريخ اليهودي يحددنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم في فلسطين أو فرجاً من اضطهاد اليونان والرومان فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلاً وحلاً ، فهذه القبائل اليهودية التي كانت تنزل بشرب وخيبر ووادي القرى وفد أفرادها على العرب بعد أن أقعدتهم القرون

التي مرت بهم زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجهزها حتى أصبح من المؤلفين لدى اليهودي أن يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والسكندانية واليونانية لحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية . فما كان أولئك اليهود يستلهمين قول الشعر أو لإجادة النثر فنهر نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة فالعربي محبوب بأفته معنى بها نثراً وشعراً حرصاً على المحافظة عليها فصيحة نقية . أخذ اليهود عن جهرائهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو فينفاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغسهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربي ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم وإباء يقولون الشعر في مختلف فنونه ويمبرون عن خواطرهم في لغة هي أمة أهل الحجاز ، نزل أولئك اليهود في أوطانهم الجديدة فأثروا في أبناء ملتهم تأثيراً قوياً ، ولم يمض نصف قرن من الزمن على تحرير العرب اليهود لفلسطين والعراق وغيرها حتى أصبح في استطاعتهم التحرير في اللغة العربية ، ولم يقف أمر العرب والعربية في اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله ، وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد في عصورهم القديمة حتى في فلسطين وأبان قيام دولتهم وحياة لغتهم العبرية المقدسة وقد حبيب هذه الظاهرة إلى اليهود اقتفاء أثر العرب ومجاراتهم في طريقة دراسة القرآن الكريم وحاول اليهود الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقاً صحيحاً . فدفنهم هذا إلى التفكير في أجهام أسفارهم ولعرايتها مقلدين العرب وثاقسين عنهم ، وتأثر اليهود بالعرب أيضاً فأوجدوا ما يعرف في الأدب العربي بالشعر العبري الحديث أو (اليوتيم) ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه إلى النثر حيث استشهد كيائهم بالشعر العربي وأخذوا ينسجون على منواله . كذلك الأمثال العربية وجدت طريقها مع البيان والبديع إلى اليهود ولغتهم . فقد وضع يهوذا ابن تبون مثلاً كتابه المشهور (حكم العرب) وترجمه أسرة تبون وغيرها كثيراً من أمهات الكتب العربية سواء في الفلسفة أو الطب أو الرياضيات أو القصص الشعبية إلى العبرية وليس هذا بـ شتيد ، فالعرب ليسوا هم أصحاب فكرة المثل (الجيتو) فقد فتحوا أمام لليهود دور العلم على مصراعيها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم ، لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء أو أنسابوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوروبيين ما انتهت إليه معرفتهم ، وهكذا نجد كيف تلك الدعاوى التي حاول الاستشراق اليهودي وأتباعه أمثال طه حسين وإسرائيل ولفنسون وغيرهما لعبها في أفق التاريخ الإسلامي الحديث من خلق دور وهم لليهود في جزيرة العرب ، وقد فصلنا هذا في كتابنا (عن طه حسين في ضوء الإسلام) .

الفصل الخامس

(٥)

اليهود في المدينة

هدمت (القدس) التي يطلق عليها إيلياء ، أو أورشليم مرتين من أجل مؤامرات اليهود : ٥٩٧
قدم حيث سحقهم بنوخذنصر وساق من بقي منهم إلى السبي البابلي الذي لم يستمر أكثر من خمسة وأربعين
عاماً سمح بعده كورش لليهود بالعودة إلى فلسطين عام ٥٨٣ ، ثم كانت الضربة الثانية الماسقة عام ٧٠ م
على يد تيطس الروماني ، ومنها نشر اليهود إلى مختلف أطراف الأرض وإلى الجزيرة العربية ، وهذه
هي الهجرة الكبرى لليهود ، كما تصورها حكتب التاريخ في القرن الأول للميلادى بعد تشكيل
الرومان بهم جزاء مؤامراتهم وانتقامهم ، وقد قصد إلى أرض الجزيرة بنو النضيد وبنو قريظة حيث
ساروا إلى الجنوب في اتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضعاً هناك على ملتقى طرق القوافل أقاموا فيه . وتؤكد
أبحاث التاريخ ودراسات العالمين السكجيين محمد غره دروزه (تاريخ الجنس العربى) والدكتور جواد
على (تاريخ العرب قبل الإسلام) فساد النظرية اليهودية المطروحة التي تقول إن يهود الحجاز من قبائل
عربية تهودت وتؤكد الدلائل أن يهود الجزيرة العربية من بني إسرائيل . وخطاب القرآن الكريم لم
يدل على أنهم من نسل أولئك الآباء الذين آذوا أنبياء الله موسى وداود وعيسى ، وقتلوا يحيى وغيره
من الرسل ، وعندما نزلت الرسالة الإسلامية على محمد ﷺ كان اليهود يهودون في أحياء وقرى خاصة
بهم وكانت لهم لغتهم العبرية التي يتخاطبون بها فيما بينهم ولهم طقوسهم ومدارسهم ومعابدهم ، ولم يكن
في الحجاز في ذلك الوقت قبائل عربية متهودة . وإن كان لا يبعد أن يكون هناك بعض أفراد من العرب
دخلوا في دين اليهودية . وكانت معظم معاملات اليهود في المناطق التي أقاموا فيها سواء بالعالية بوادى
بطحان أو في منطقة مهزور على بعد بضعة أميال من المدينة تقوم على المراهنات والمعاطى الربا ، ولهم
سيطرة تامة على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها ، ولهم تحكمهم في الأسواق التجارية ، وهذا
ما حطمه الوجود الإسلامى في المدينة بعد الهجرة ، وكان واحداً من عوامل تأخرهم على الإسلام . ولا
رغب أن اختيار محمد بن عبد الله للنبوّة والرسالة الخاتمة كان علامة على الطريق الذي أعده الله للبشرية
ارتباطاً بالحنيفية الإبراهيمية وتحرراً من الانحراف الذي أحدثه اليهود ثم النصارى برسالة التوحيد الحق
وكان يعنى هذا من الله بعد أن امتحن بنى إسرائيل ألف سنة بالنبوّة والملك وأنزل فيهم التوراة والوعد
والإنجيل ، قد نقل منهم الأمانة إلى فرع إسماعيل وإلى العرب وأورثهم ذلك الميراث الذي جاء به
النبيات وجعلهم المؤمنون بكل ما أرسل الله من نبي وما أنزل من كتاب : (قولوا آمنا بما أنزل إلينا
وما أنزل إلى إبراهيم) الآية .

وكان هذا التحول من بني إسرائيل إلى فرع إسماعيل ناكيداً للحقيقة الإبراهيمية وإحياء لها ودعماً
وتكذيباً للتحريف اليهودي الذي ركزت عليه توراها بالعنصرية في اصطفاء يهود لإبراهيم اصطفاً
بدون سبب وجعل هذا الاصطفاء كيثاقاً أو عقد ذي اتجاه واحد أسمته الميثاق . ولقد كشف القرآن
من سمية إبراهيم جواباً عديدة لم تعرفها السكتب القديمة ومنها توحيد إبراهيم وتطعيمه للأوثان
التي كان يقدسها أبوه وأهله ، حيث لم يذكر في أي أثر قبل القرآن الكريم ، فالقرآن هو مصدرها الأول
والآخر ، ومن هنا فقد انتصرت بالإسلام الحنيفية على العنصرية . ومع هذا الموقف العنيد الخصم
الذي وقفه اليهود من النبي بعد الهجرة ، ومن الإسلام كان موقف الرسول ﷺ والإسلام منهم كريماً
غاية الكرم فقد عقد الرسول ﷺ معهم أمناً وأحسن معاملتهم وقصد إليهم أكثر من مرة يدعوهم إلى
الإسلام . وفي البخاري عن أبي هريرة : بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال
اطلقوا إلى يهود نجرنا معه حتى جئنا بيت المدارس فقام النبي ﷺ فننادم : يا معشر يهود : أسلموا
تسلموا فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم . فقال : ذلك أريد ثم قالها الثانية فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم
ثم قال في الثالثة : اعلوا أن الأرض لله ورسوله ، وإن أريد أن أجليكم فن وجد منكم بما له شيئاً فليبعه
وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله . ولقد قامت مجادلات دنيئة عديدة بين اليهود والنبي قصدوا بها
إحراجهم ، وقد أجاب الرسول ﷺ على أسئلتهم ومجادلاتهم بما يدحض حججهم . ثم انضم اليهود إلى
أعداء المسلمين وكانت لهم مواقف غاية في التآمر بالمسلمين فأجلاهم الرسول عن المدينة ، وقد استمر
الرسول ﷺ في معاملته الحسنة لليهود : ثم أجلهم نصارى العرب عن نجران ووجود الحجاز من
الجزيرة العربية تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ . روى أبو عبيدة رضى الله عنه أن آخر كلام قاله
رسول الله ﷺ هو وصيته بإخراج يهود الحجاز ونصارى نجران الذين من جزيرة العرب ، وقد أحسن
عمر إخراجهم واختار لهم أرضاً جديدة بين الهام والمراق . يقول الدكتور محمد فؤاد حسنين : إن
التاريخ اليهودي يتحدث عن إحسان الإسلام لمعاملة اليهود ، وحتى أولئك الذين اضطروا للنبي والخلفاء
الراشدين إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأمينا لرسالة الإسلام واتباعهم . أقطعهم أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب والإمام علي كرم الله وجهه الأراضي الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات
بما دفع المؤرخ اليهودي الشهير (جريتر) إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم في كتابه (تاريخ اليهود)
فقال : إن تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابع للنبوة المحمدية وأبان حياة الرسول صفحة
ناصعة من التاريخ اليهودي وقال : لقد وزع عمر أراضي اليهود على المسلمين المحاربين وهوض اليهود
المطرودين - وهذه هي العدالة - أرضاً أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالي ٦٥٠ م .
حقاً رب ضارة نافعة ، إن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها .

الفصل السادس

(٦)

ميراث النبوة

استعاد الروم بيت المقدس عام ٦٢٩ م من الفرس ودخل هرقل القدس وفي أبان ذلك حمل إليه دحية الكلبي ، كتاب النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام : (أسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين) وكان النبي ﷺ قد أورث ميراث النبوة كلها ، تحقيقاً لانطلاقة الإسلام بأمة العرب إلى غير أمة أخرجت للناس واستكلاً لرسالات الأنبياء جميعاً . ففي ٢٧ رجب قبل الهجرة بسنة وبضعة أشهر أسرى بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس ، حيث صلى بالأنبياء إماماً وكان ذلك مقدمة لمواجهه عليه الصلاة والسلام إلى السماء إلى سدرة المنتهى حيث تلقى أمر الله تبارك وتعالى بفريضة الصلاة ، وكان النبي ﷺ قد صلى بعد هجرته إلى المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، وما زال بيت المقدس عند المسلمين هو القبة الأولى ، ولما كان مفهوم الإسلام هو القرباط الكامل بين رسل الله وكتبه من نوح إلى محمد ﷺ ، ولما كان الإسلام كما جاء به محمد ﷺ هو الإسلام الذي جاء به كل نبي وكان محمد هو دعوة إبراهيم وسيد ولد إسماعيل فهو صاحب الميراث الحقيقي لإمامة إبراهيم عليه السلام . (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المخشكين) . وهكذا عاد الإسلام بالدين الحق إلى صفاء الأول وإلى طريقته إبراهيم الذي حرفته اليهودية والمسيحية فعزلت عن ميراث إبراهيم (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ولم تمض إلا سنوات قليلة من هجرة رسول الله إلى المدينة حتى فتح المسلمون مدينة القدس عام ١٥ هجرية ٦٣٦ م وتسلمها عمر بن الخطاب من البطريرك صفرونيوس وكتب العهد العربي لأهلها النصارى من أهل إيلياء ، وكان أخطر نصوصها التي أصر النصارى على إدراجها (النص القائل : ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود) . وتقرى كثير من المصادر أن (القدس) هي هدف الرسول في إسرائته : (سبحانه الذي أسرى بعبيده إيليا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله أنميه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وما كانت غزوة حنين وغزوة خيبر وغزوة أسامة بن زيد التي كان عليها مفروساً أمام المسجد قبل التحاق رسول الله بالرفيق الأعلى إلا علامات على الطريق الذي سلكه الفتح الإسلامي ، فإنه لم تمض بعد ذلك إلا القليل حتى تدفقت جيوش المسلمين إلى الفرات ومن ثم إلى فلسطين وهزمت جيوش القيصر هند (أجنادين) في يوليو ٦٣٤ م ١٣ هجرية واضطر القائد البيزنطي (ارطوبون) إلى الحرب إلى القدس ، وجاءت معركة اليرموك (أغسطس ٦٣٦ م) ١٥ هجرية فانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً وسقطت كل المدن الحصينة واحدة بعد أخرى في أيدي المسلمين ثم سلبت (بيت المقدس) إلى المسلمين صلحاً شرطاً أن يحضر عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ليأسرها . قال الطبري :

فتحت إيلياء وأرضها على يد عمر في ربيع الآخر سنة ستة عشر . ومنذ تسلم المسلمون بيت المقدس وهو لا يزال في أيديهم إلا في فقرات قليلة : المرة الأولى أبان الحروب الصليبية والمرة الأخرى بعد احتلال إسرائيل للقدس عام ١٩٦٧ .

الفصل السابع

(١)

الشك في التوراة

إن المحاولة اليهودية للتلودية التي استهدفت تزيف التوراة وتزييف وعد الله لإبراهيم وإلى اعتمدت عليها المسيحية الحديثة في دعواها بأن لها في أرض فلسطين حقاً قد كشف البحث العلمي عن فسادها من ناحيتين ، من ناحية تحايل النص التوراتي نفسه ، ومن ناحية نتائج الكشف الأثرية فقد أثبت التحايل العلمي أن التوراة المعاصرة قد كتبها الأحبار وليست هي كتاب الله المنزل من السماء . وأيدت الكشف الأثرية ما أورده القرآن وكذبت ما ذهبت إليه التوراة وخاصة فيما يتعلق بإبراهيم وإسماعيل ورحلتها إلى الجزيرة العربية ولبوة إسماعيل وعشرات من هذه القضايا التي زيفتها التوراة والتلود . يقول الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي : إن هناك مجموعة من العلماء (فون جران ، كوهن ، ويلهاوزن) في أواخر القرن الماضي دفعهم حبهم للاستطلاع لدراسة القرآن الكريم ببناء وراء ما يلقى الخوف على (العهد القديم) الذي كان يدرسونه بقصد تفهمه فهماً عالياً نقدياً تحاليلياً ، وفي دراستهم للقرن الكريم تشبهوا بالمبدأ القرآني القائل بأن بني إسرائيل تلاعبوا في كتابهم المقدس ولأنهم حرموه ماذفين منه ما حذفوا ومضيفين إليه ما أضافوا لطمع غير خلقي في نفوسهم ، فزعزع هذا المبدأ ما نادوا عليه من إيمان بأن التوراة هي نفسها في كل حرف من حروفها من صنع الله وأخذوا عنه نذ بدلا من الحيرة في تفسير النزعات المختلفة التي تم عنها تصور التوراة يبينون مختلف الأيدي وراء هذه النصوص فراحوا يبحثون في أصولها وعن الأحوال التاريخية التي أدخلت على المواد في التوراة تحت ظروفها فكانت علوم التوراة النقدية التي عرفها القرن الأخير .

هذه هي بداية نقد الكتاب المقدس ومنها تفرعت العلوم النقدية جيعاً ونشأ علم الآثار القديمة ونشأ علم التاريخ القديم ومنه ويلهاوزن وعلماء العهد القديم يقيمون النظرية تلو النظرية والتفسير التوراتي تلو التفسير ويهدمون ما حققه أسلافهم من قبل تبعاً لمكتشفات الآثار التي أخذت تتزايد بشكل عظيم سنة بعد سنة وتماشياً مع ما كانت تجلو عنه هذه المكتشفات من حقائق تاريخية . ومع أن المبدأ القرآني بقي وأكده مبدأ هذه العلوم كلها فهي جميعاً بكل ما حققه من تقدم للفكر الإنساني تعتبر حوائث علقته المبكرة الغربية والهاب العلمي الذي لا يعرف الكلل على القرآن الكريم حيث لم يتقدم أحد من الدارسين المسلمين لدراستها حتى الآن . ويصل الدكتور الفاروقي إلى حقيقة أصبحت واضحة الآن في بيئة الغرب

وهي أن الإيمان بأصل التوراة الإلهي قد زرع وألقى ، وبهذا أكمل القرآن الثورة العقلية التي أشعلها الإسلام على اللاهوتية في القرون الوسطى ، لم يجر علماء العهد القديم اتخاذ نصوص التوراة كأنها حقة فيما تقوله من الآباء إلا بالإثبات العلمي ، وهنا جاء علم الآثار يقدم دليلاً فآثار فلسطين ورأس شمرا وقمل الحريري في دارالشمس ثم آثار الممارنة وغيرها في مصر وآثار بابل وأشور في شمالي العراق وجنوبه كل هذه لها علاقة رئيسية بالتوراة والتاريخ اليهودي القديم .

(٢)

إبراهيم والتوراة

أخذ العلماء على التوراة التي نزلت على موسى أنها تروي تاريخ اليهودية من بعده حتى قيام المسيح بدعوته ، ومعنى هذا أن التوراة الموجودة في أيدي الناس ليست هي نورا السماء ، وتبين أن من التوراة ما كتب على أيام المملكة الإسرائيلية ، ومنها ما كتب في المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، ومن هنا جاء ما فيها من تعارض . وما يؤخذ على التوراة أنها لم تأت بذكر لذهاب إبراهيم إلى الحجاز ، وسكت المصادر اليهودية سكوتاً متعمداً — كما يقول عبد الحميد السحار — عن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة ، ثم هناك سكوت متعمد من كل النصوص الدينية في جزيرة العرب ، لم تذكر شيئاً عن هود أو صالح لأنها من أنبياء العرب ، كما لم يكن عاد وثمود هناك على مقربة من فلسطين . ولقد حدد بطليموس موقع عاد وثمود وكشفت الحفريات عن مدائن صالح وأثبت ذهاب إبراهيم إلى مكة وإقامة قوافد البيت يقول الاستاذ السحار : لعل ذلك يرجع إلى أن اليهود كانوا يحسون منافسة دينية مع العرب ، وكانوا ينعون عليهم أنه صار لهم (بيت محرم) منذ إبراهيم بينما لم يصبح لهم هيكل في بيت المقدس إلا في أيام سليمان بن داود . كذلك فقد تصمد كهان اليهود أن يخرجوا أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه فراحوا يحترقون أكفوبة أن بنى إسرائيل هم شعب الله المختار ، ويؤكدون على ذلك في كتابهم المقدس . ولو أن إبراهيم لم يقيم ببناء بيت الله بمكة لما كانت له رسالة ، فأورد عنه في العهد القديم لا جملة من أصحاب الرسالات ولا من أولى العزم من الرسل ، إنه رجل يتجول في مصر وسورية ليست له دعوة محددة كل هذه أن يحافظ على حياته وإن ضحي بشرفه . وفي العهد القديم ينسب إلى إبراهيم الحوان ويسكت عن بناء بيت الله المحرم ، لأن ذلك البناء سهرغ من شأن أبناء عمومته أبناء إسماعيل . لم يكتفوا بأن يحرموا أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه بل عمدوا لأن يسلبوا إسماعيل كل فضل فوجعوا أن الذبيح هو إسماعيل ، مع أن التقاليد كانت تقضي بتقديم الابن الأكبر قريشاً .

الفصل التاسع

(٢)

اسماعيل والتوراة

سكت اليهود وهم يعمدوا كتابة التوراة في المنقح متعمدين عن تاريخ اسماعيل وذريته ، وفي العصر الحديث أخذ مؤرخوا الصهيونية في إثارة الشبهات حول وجود اسماعيل ، وجرى طه حسين في مجرام فرهم أن وجود إبراهيم واسماعيل أسطورة من الأساطير . يقول الأستاذ عبد الحميد السحار : إن سرجن نون في العصر الفيكتوري هو الذي اكتشف العاصمة الآشورية الجديدة التي بناها سرجون الثاني في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد فأصبحت آشور فجأة ملء الأسباع وزخرف المجلات المصورة في كل من انجلترا وفرنسا بصور تمثل مناظر الحرب والفتح لمصب لم يكن يعرف عنه حتى ذلك الوقت إلا بعض لمحات في التوراة وبيانات غير واضحة . وقام هنري لايرد بالتنقيب عن نمرود وتكشفت حضارة بابل وأشور ، ولما كان بنو اسماعيل الذين انقشروا بين حدود بابل وحدود مصر على صلة وثيقة ببابل وأشور وقد لعبوا دوراً هاماً في تاريخ المنطقة إذ ذلك فقد سجل الآشوريين ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب من بني اسماعيل من مناوشات وحروب . أعطت ألواح الطين التي كتبت بالحظ المسباري والتي وجدت في أطلال بابل وأشور ونيينوى وبلاد ما بين النهرين ، إن بنو اسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناء الإثني عشر صاروا قبائل قوية تناوى بابل وأشور ومصر والإغريق والرومان . وأثبتت الحفريات والنقوش أن اسماعيل عليه السلام كان يمشي في الأحواض وكان صادق الوعد نبياً وهكذا كانت الكشوف الأثرية قد حررت التاريخ البشري من الويف الذي حاول دسه اليهود ، ومن المزايم التي حملوها دوائر المعارف المختلفة وحاولوا غرسها في عقول الشرق والغرب لتسكون أداة إلى فرض مؤامرتهم .

(٢) كذلك صححت الكشوف الأثرية ما رددته كتب التاريخ من أخطاء حول النبط وكشفت عن أنه دولة النبط كانت قبيلة ثابت بن اسماعيل ، وقد امتد سلطانها حتى احتلت دلتا النيل وطور سيناء ودمشق ووصلت إلى حدود بلاد النهرين ، وقد عرفها المؤرخ اليهودي بوسيفوس في القرن الأول الميلادي ، فقد هو على نصوص ببطية في التبراء وكانت تعرف من قبل بسلع - عاصمة ملكهم بوادي موسى والحجر والملا ونيينوى وصيدا ودمشق وطور سيناء والجرف واليمن ومصر وإيطاليا . وكانت كتب التاريخ تذكر أن النبط جيل من المعجم يتولون البطائح بين العراقيين . أما النبط الذين ورد ذكرهم في كتابات بوسيفوس فهم أبناء ثابت بن اسماعيل ، وقد أطلق اسم النبط على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات حتى تتصل بحدود الشام إلى البحر الأحمر ، وهما من مناطق أولاد اسماعيل . وقد عرفه مصر التوحيد قبل أخناتون : عرفته يوم جاء إبراهيم الخليل إلى مصر ويوم جاء يوسف وجاء

أبره يعقوب وإخوته واستقروا في الدلتا وكانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، وذلك قبل أن يدهو
أخناثون إلى عبادة الشمس ، ولم يكن أخناثون أول من عرف التوحيد كما قيل ، بل كانت دعوته لكسة
بعد دعوة إبراهيم وإسماعيل ويعقوب بل ردة عن التوحيد وتكشف الوثائق والأحافير أن إسحاق
ويعقوب ويوسف وموسى لم يكونوا هوداً بل كانوا مسلمين موحدين (أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل : أنتم أعلم أم الله) والواقع التاريخي ينفي
كونهم هوداً فقد كانوا مسلمين على ملة إبراهيم ، والأسباط هم إثنى عشر رجلاً من أبناء إسرائيل ينتسبون
إلى يعقوب (إسرائيل) حتى صار ملك إسرائيل داود وسليمان وكانا من نسل هودا فأرادت قبيلتهما
أن تستأثر بالفضل وحدها فانقسمت إسرائيل بعد موت إسرائيل ٩٣ ق م إلى دولتي هودا وإسرائيل
ومنذ ذلك الوقت بدأت اليهودية . وكان إبراهيم وإسحاق ويعقوب قبل هودا وكان يوسف سبطاً من
الأسباط مثل هودا وكان موسى من نسل (لاوى) ولم يكن من نسل هودا . وقد عرف بنو إسماعيل
وبنو إسرائيل ذلك الكثر الروحي الذي جاء به إبراهيم وكانوا يدعون الله رب العالمين حتى عرف قبيلة
(هودا) هذا التمسك المقيت بعد ملك سليمان فادعوا أنهم وحدهم الناس وأن من هدام أمم وأن الله
يبحث رسولا إلا منهم وإن يبعث في الأميين رسولا . وقد فرق القرآن بين بني إسرائيل وبين اليهود
فلم يأت ذكر اليهود في القرآن قبل ملك سليمان وقد ذكر الله بني إسرائيل بنعمته التي أنعم بها وبالهدى
وبالكتاب ولم يذكر اليهود بغيره . ذلك بأنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعبه المختار وقصروا
الحجر على أنفسهم دون الأميين . (وقالوا : إن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) . وما طرأ
على التوراة من تغيير بعد أيام المثنى وكيف بدلت صفات الله إلى صفات (يهوه) إله اليهود القاسي
المستبد (سبحانه الله عما يصفون) وكيف كان اليهود من أوائل الشعوب التي نادى بالفرقة المنصرية
بعد أن كان إبراهيم يدعو إلى العالمية وإلى الأخوة البشرية . وجاءت كلمة (أمي) في القرآن نسبة إلى
الامة والامم رداً على مزاعم اليهود فقد قالوا إن الله اصطفاهم على العالمين وإن يبعث في الأميين رسولا
لجاء القرآن يدحض هذا الوهم : (هو الذي بعث في الأميين رسولا) . (ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا
في الأميين سبيل) . (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) . وهم الذين كتبوا التوراة بأيديهم في أرض
النبي خملوا أنبياء الله كل نقائص البشر وجعلوا نوحاً شارب خمر وإبراهيم كذاباً وابنتاً لوطاً سكراناً
أبيهما . ورموا داود بالزنا ، وملتوا كتاب الله بأساطير الشعوب ، وكان الطبري من أكثر المؤرخين
الذين نهلوا من التوراة التي كتبها أحرار اليهود في بابل دون تحييص . وقال الإمام علي : من حدث
بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين جلدة .

وكان بنو إسرائيل عرباً كما كانوا بنو إسماعيل واسكن اليهود بعد أن انقسمت مملكتهم بني إسرائيل
إلى مملكتي إسرائيل ويهوذا عقب ملك سليمان حاولوا أن ينفصلوا عن أصلهم العربي بتأسيس (جنس)
لا سند له من التاريخ فأطلقوا على أنفسهم : اسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق . وطاش
بنو إسرائيل بين (الكنعانيين) وأخذوا العبرية عنهم وكانت بينهم وبين الكنعانيين أصحاب فاسطين
الاصليين حروب . وتعبد اليهود إقصاء الكنعانيين في توراتهم التي كتبوها في المثنى بعد عصر موسى
بمئات السنين من جدول أنساب (سام) لأسباب دينية وسياسية مع أنهم يملكون حق العلم ما بينهم وبين

السكنايين من الدولات المصرية والآشورية واشتد التعصب بين قبائل بني إسرائيل بعد أن صار ملك إسرائيل إلى داود وسليمان وكان من نسل يهوذا ، وقد ظهرت لك التعصب بوضوح في إصحاحات الأنبياء التي دونت في المنفى فلم يرد اسم موسى في أشعيا (لأن موسى من اللاويين ولم يكن نسل يهوذا . يقول وارد دورانت في كتابه (قصة الحضارة) وأكبر الظن أن للزمامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودي بزمان طويل ، ويقول : إذا ما وضعنا إلى جانب هذه للزمامير (نشيد سليمان) لاح لنا في الحياة اليهودية من عنصر شهواني دايوي ، ولعل كتاب العهد القديم قد أخفوه هنا ولستأ ندرى كيف غفل أو تنازل رجال الدين حما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية فأجازوا وصفها بين قول أشعيا والمطباء . كذلك ظلم اليهود سليمان وذموا أنه مات كافراً بالله ، وجاء القرآن لينصف داود وسليمان وينسل عنهما وعن أنبياء الله أدران من حكمتهم الكتاب بأيديهم : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) . ولقد حمى على اليهود الأمر فقتل قلوبهم ونسوا دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى يوم راحوا يكتبون التوراة بأيديهم في المنفى ونسوا الحياة الأخرى التي كانت دعوة جميع الأنبياء وحسبوا أن الإنسان يثاب على أعماله في الدنيا وإذا مات ذهب إلى الهاوية (كما كان يعتقد أهل بابل قبل بعثة إبراهيم الرسول وبعده) ومن هنا كانت حيرتهم ومشكلاتهم مع القدر ، إن مشكلة الإنسان وقدره وتصرف الإله معه على هذه الأرض لا حل إلا إذا آمن الإنسان بأن حياته على الأرض تقبها حياة أخرى ترفع عنها كل المظالم وتصحح كل الأخطاء ، واليهود كانوا يؤمنون بالدهرية وبأن حياتهم الدنياهي كل حياتهم ، ومن هنا جاءت الهيرة والقلق والشك والذاب : (أفن وعدناه وهذا حسناً فهو لاقبه كن متعنا متاع الحياة الدنيا) .

هذه هي الحقائق التي توصل إليها البحث العلمي بعد الحفريات والآثار التي كهفت في السنوات المائة الأخيرة وكلها تدحض نظريات اليهود التلمودية ودعاوهم وتؤيد القرآن الكريم ، ولقد استطاع الأستاذ عبد الحميد جودة السحار رحمه الله أن يصل إلى ما قدمناه من نصوص وأوردها في كتابه (محمد رسول الله والذين معه) وهي إضافات هامة للباحثين في عصر ما قبل الإسلام وهي تكشف عن الويف والسحوم والشبهات المعقدة التي قدمها الاسكندراني والتفريب والتي هي سائدة الآن في أفق البحث العلمي في تاريخ الإسلام في الجامعات والمعاهد .

يقول الأستاذ السحار : اندثرت الحضارة التي قامت في جزيرة العرب بعد الخليل إبراهيم إلى أن بعث محمد رسول الله . وقد بدأت بطن الأرض تكد أسرارها في هذه المنطقة وستكشف الأيام القادمة عن حقائق مذهلة وتوضح أثر تلك النهضة الروحية التي بشا الخليل وذريته والتي ظلت مؤمنة بالله وحده حول الكعبة ولم تعرف الشرك بالله إلا قبل بعث محمد بثلاثمائة سنة . لقد أشرك بنو إسرائيل بالله وموسى بينهم ، وعبدوا آلهة الشعوب في كل العصور ، أما بنو إسماعيل فقد ظلوا حول الكعبة ، فقد عبدوا الله وحده وازدهر فيهم دين إبراهيم ولم تقع لكسة الشرك فيهم إلا بعد أكثر من ألف سنة من بعثة الخليل ، وظلت مكة إبراهيم في الخفاء منهم إلى أن بعث محمد ﷺ ليعيد شريعة إبراهيم (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)

ومكنا نجد أن البحث العلمي الأصيل قد أنكر التوراة الحالية وأن الكهوف الأثرية قد كلفت زيف الدعوى الصهيونية وأن كلامها قد انتهت سلامة الحقيقة الإبراهيمية الحنيفة وفساد التلمودية .

الفصل التاسع

العروبة وليست السامية

لا ريب أن فكرة السامية ، التي طرحها البحث القرن الحديث في إطار دراسات العرب قبل الإسلام من الدعوات الخطيرة التي أريد بها انتقاص الدور الإبراهيمي الذي قامت به الحنيفة عملة في إبراهيم وإسماعيل في الجزيرة العربية وامتدادها في حواش الشام والعراق وإعلاء هذا الدور بنسبه إلى مجهول هو (سام) الذي لم تذكره غير التوراة المكتوبة بأقلام الأحبار ولا ريب أن الصهيونية التلمودية ، حين أرادت أن تخطط لدعوتها في أوائل العصر الحديث وفي ظل إهداد بروتوكولات صهيون أرادت أن توجد أصلا تجعل نفسها منه فرعاً مساريًا للعرب وموازيًا لهم بقصد إذهاء نوع من القرابة ولكي تصرف هذا المجد كله عن الإبراهيمية والإسماعيلية والعرب وتنسبه إلى سام بن نوح ، هذا هو المخطط الماكر الذي لا بد أن يكون قد عرفه العالم النحسأوي (أوغست لودولف شلوسر) عام ١٨٧١ حين تحدث عن جنس مشترك لهذه الشعوب التي عاشت في المنطقة العربية وأطلق عليه الجنس السامي وأخذ هذه التسمية من التوراة (التكوين : الإصحاح العاشر ١٢/١) أخذاً من اسم سام بن نوح . والواقع أن كل موجات الهجرة التي تدافعت من جزيرة العرب إلى أطراف المنطقة الممتدة من العراق إلى أقصى المغرب كالألبانيين والكنمانيين والعمبرانيين والفينيقيين والآراميين هي موجات عربية وأنها تدفقت بعد بناء الكعبة وقيام الأمة الإسماعيلية التي تشكلت من إسماعيل بن إبراهيم وقوم جرم في ظل البيت الحرام في مكة فربطت بين الجنوب والشمال وبين القطاعتين : قطاع تحطان وهدنان فيما بعد .

ولا ريب كأي مختلف الحضارات التي ظهرت في هذه المنطقة هي حضارات عربية : يقول عبد الحميد جودة السحار : كانت حضارة بابل عربية وحضارة المنوريين عربية وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة عمود عربية وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خاصة ولكن بعض العلماء رأوا أن ينسبونها إلى جد أعلى حتى لا يلقوا أضواء على مجد أقوام نافسوا بني إسرائيل منذ أيام خليل الرحمن إبراهيم فأطلق العالم الألماني سار تيسر اسم السامية نسبة إلى سام بن نوح وصادف ذلك هوى في نفوس الآخر فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية وتبهم الكتاب العرب .

ومن هنا نرى أن هناك مؤامرة صهيونية عن طريق الاستشراق تستهدف حجب هذا التاريخ العظيم ،

وأن هذه للزائرة تسمى في نطاق التوراة المكتوبة التي سكنت هن ذكر ذهاب إبراهيم إلى الحجاز ، وعن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية وبناءه للكمبة ، وذلك جرياً مع الهدف التلويهي الذي يرمي إلى إخراج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه . يقول السحار : حرم اليهود أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه بل وأرادوا أن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعوا أن الدبش هو إسماعيل . ثم من الصباح القبائل تحت راية الإسلام إلى بلاد الشام والعراق ووادي النيل شماله وجنوبه والأقطار المغربية في شمال أفريقيا ثم انسيح القبائل الذي استمر بمسح الموجة الإسلامية الأولى من الجزيرة إلى جميع الأنحاء وإلى سواحل أفريقيا والصومال دون انقطاع . فكل ما تقدم يبرز بوضوح أن كل العناصر إنما كانت من سكان جزيرة العرب الأصليين القدماء ومنهم هاجر منهم إلى الأقطار المجاورة ، فالعرب قبل دور العروبة الصحيح وبعده جنساً واحداً لا سبياً وأن التفارق في اللغة والأفكار والمعتقد والتقاليد ظل قائماً بين الباقيين في الجزيرة والنازحين منها في مختلف الأدوار . كذلك أشار الأستاذ دروزه إلى أن القول بأن لغة أهل جنوب الجزيرة غير لغة شمال الجزيرة ليس صحيحاً بمعناه الإجمالي وكل ما في الأمر تنوع في اللهجات واختلاف في المسميات .

(وهذه الشبهة مما أثاره طه حسين في كتابه العصر الجاهلي والأدب الجاهلي وإسرائيل ولفنسون تليذه في كتابه « اللغات السامية ») . يقول : أما الاشتراك الفعل فقد كان قائماً على ما تدل عليه نقوش الجنوب والشمال ، وقال إن غالبية سكان الهلال الخصيب ووادي النيل كانت وظلت تحت إلهيا وعظم بالهجرات المتوالية من الجزيرة العربية والتي لم يكن سميها ينقطع إلى دور العروبة الصريح ثم دور الإسلام والتي تمثل في وحدة العروبة الهائلة وطابعها الذي يطبع هذه البلاد وسيظل يطبعها إلى الأبد ما دام وراها الجزيرة وتظلها راية القرآن . ويقول : لقد حكم اليونان والرومان مصر وبلاد الشام ألف سنة (٢٣٠ ق م — ٦٤٠ م) وجاء منهم إليها وبخاصة اليونانيون الآلاف المؤلفة واستقروا فيها ونشروا لغتهم وثقافتهم ، وقد جمع بينهم دين واحد هو المسيحية قرابة أربع قرون ، وترجمت اليونان الكتب المقدسة وصارت لغة عبادة وطقوس لفرق كثيرة من النصارى ، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم وصيغتهم بل كان جمرة أهلها يرونهم غرباء وينقبضون عن معاشرتهم بل واعتبروهم أجهاساً . وكذلك شأن الفرس الذين كانت لهم السيادة على العراق أكثر من ألف ومائتي عام (٥٣٨ ق م — ٦٤٠ م) وكان لديهم وثقافتهم انتشار واسع حتى لقد مجسوا كثيراً من أهل البلاد ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم وصيغتهم في حين أن الموجات العربية الصريحة التي جاءت إلى الهلال الخصيب في حكمهم ورضخ ملوكها لسيادتهم العليا أخذت تفرض طابعها على البلاد وتمزج بأهلها القدماء بسهولة ويسر ، ثم جاءت موجة الفتح الكبير تحت راية الإسلام إلى بلاد الشام والعراق ووادي النيل فأخذ الفاتح يهتد بينها وبين السكان السابقين ، ولم تسكد تمحض بضعة أجيال أو قرون حتى توطنت السيادة في هذه البلاد للطابع العربي الصريح وغداً شاملاً عاماً ، وليس هناك من تعليل لهذه الظاهرة التي تكررت في عهد الإسلام بما كان من سيادة الترك على هذه البلاد قرابة أحد عشر قرناً (٢٠٠-١٧٣٢) وما كان من دحوف تركية كبيرة إليها واستقرارها فيها .

ولا ريب أن هذا كله يؤكد ذلك الترابط الذي أقامته الحنيفة السجحاء التي مدت أجنحتها هذه القرون المتوالية على هذه المنطقة الواسعة من العراق إلى مصر إلى أفريقيا ؛ وهذا مصداق وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام والذين ساروا على طريقه حتى جاء الإسلام ليبدد هذه الموجات كلها وقد شكلت ذلك المهاد الواسع الذي استقبل دعوة الحق وحقق قيام هذه الأمة الوسطى : الذي كانت خير أمة أخرجت للناس . ومعنى هذا أن (الحنيفة العربية) وليست (السامية) هو الإسم العلمي الصحيح ومصداق هذا إذا قلنا (إن جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصريحة في كتب اليونان والرومان وأسفار العهد القديم منذ ألفين وخمسمائة سنة واسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستعربين في داخلها وتخومها الشمالية جريئاً ثم كلياً منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك بل قبل ذلك بما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة واللغة العربية التي تكلم بها سكان الجزيرة والناحون منها منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك هي اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلاً أو كثيراً عن اللغة الفصحى على ما تدل عليه آثار وأسماء وأعلام ، ونفوس السبئيين والحجريين والنبطيين والتدمريين والحيامين والنفوذيين والصوفيون العائدة إلى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس بمسده ، وقد ساعدت عوامل متنوعة على سرعة تطورها بعد ذلك حتى بلغت ذروتها باللغة الفصحى قبل البعثة المحمدية بأمدها . كذلك فإن (الحنيفة العربية) هذه ظلت متصلة لم تقطع بين قدماء الجزيرة وقدماء الناحين فيها وبين الواقع الراهن الممتد إلى ألفين وخمسمائة عام ويصل بين قديم العروبة وحديثها ، وقد قال بهذا جبهة من علماء العرب وباحثيهم (أنظر جواد على ج ٢ ص ٢٨٧) .

وهكذا تلتقي الدراسات الحديثة في أوردة محمد عزه في ذروة كتابه الجنس العربي ، وما أورده هبة الحميد جوده الصحار في كتابه (محمد رسول الله والذين معه) وما أشارت إليه الدكتور بنت الشاطئ في كتابها (الإسرائيليات والغزو الفكري) . وذلك في مواجهة تلك الغلبة التي طرحتها الاستغراق والتغريب لإفساد تاريخ الحنيفة الإبراهيمية العربية الممتدة من إبراهيم عليه السلام إلى محمد ﷺ ونسبة فضلها وآثارها إلى جذر قديم لم يرد في العراق وهو (سام) الذي التقطه القفرييون التلويديون من التوراة المكتوبة بأيدي الأحبار ولا ريب أن محاولة السامية ترمي فضلاً عن ذلك إلى تموير الإقليمية المصرية والسورية والبنانية والعراقية ، وأن تلقى في أذهان سكان وادي النيل والجلال الخصيب ، وشمال أفريقيا ومن الصلة بين أصولهم القديمة وبين العروبة وتجعلهم يعتبرون العرب الذين جاءوا هذه المرة تحسب راية الإسلام (خرافة) كسائر الخرافة الذين طرأوا عليهم ووطدوا حكمهم في بلادهم بالقوة وحسب ويكون ما هنالك من فرق هوانهم أعطوهم دينهم ولغتهم حتى بالرغم من السيل الذي أخذ يتدفق من جزيرة العرب على هذه الأقطار في دور العربية الصريحة وقبل الإسلام وبعده بدون انقطاع ويغمر مدنها وقراها وصحاريها ويرادها استعماراً لما كان يجري قبل دور العروبة الصريحة والذي قد تفوق أعدادُه أعداد سكانها أضعافاً ، والذي يتمثل في كل ناحية من أبحاثها وفي كل مظهر من مظاهر حياتها وتقاليدها ولغتها تمثلاً هاملاً .

(٢)

اللغة

ولا ريب أن الأبحاث التي أجراها علماء اللغات والآثار قد كشفت عن حقيقة أساسية لا سبيل إلى إنكارها، وهي أن هذه المنطقة من جزيرة العرب ووادي النيل والحلال الحصب وأثيوبيا متشابهة ومشاركة في الفكر واللغة والعقائد والتقاليد منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد تقريباً. وأن ذلك يرجع أساساً إلى أصل واحد مشترك غير أنهم أخطأوا حين نسبوا هذا الأصل إلى سام بن نوح وهو أصل بعيد جداً، والحقيقة أن النسبة الحقيقية إنما تركز في إبراهيم عليه السلام. يقول الأستاذ محمد هزه دروذه: لقد أصبح أمر السباح الموجات من جزيرة العرب إلى الأفطار المجاورة لها منذ أقدم الأزمنة وكون الكلد والاشور والآكدين في العراق والسكنا والعمور والآراميين والعبرانيين في جزيرة الفرات وبلاد الشام ومعظم سكان وادي النيل شماله وجنوبه، ومعظم سكان أثيوبيا والصومال من هؤلاء المساحين في القرون التاريخية من الحقائق التي لم تتحمل جدلاً ولا سباً أن جزيرة العرب ظلت ترسل موجاتها إلى هذه الأفطار دون انقطاع قبل دور العروبة الصريح، أي قبل أن تغزو اللغة العربية الصريحة لغة العرب واسم العرب إسماعيل، ثم في دور العروبة الصريحة قبل الاسلام، ثم منذ الاسلام إلى اليوم بما سجلت أحداثه القديمة نفوس المصريين والاشوريين والكلدانيين وأسفار العهد القديم وكتب اليونان والرومان القديمة وما قرره علماء الآثار والتاريخ. ويقول عبد الحميد جوده السحار أن الأحافير والآثار التي قام بها علماء أجناب قد كشفت عن تقارب اللغات العربية القديمة هذا الأكادية في الآشورية والمنطوق بحيث تشترك كل لغة وما جاورها. ولا يلتفت الانتقال من لغة إلى لغة إلا كما يلاحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفارسية والجرمانية (أورد هذا البراهيت في كتابه عن أحافير فلسطين) وقد أكد غير واحد من الباحثين أن إبراهيم كان يتكلم العربية وإن لم تكن العربية التي نزل بها القرآن أو التي تتكلمها اليوم، وكانت اللغة في اليمن والعراق والشام والحجاز لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الأمم العربية هذه الأيام، ويستشهد على ذلك الأستاذ السحار بالآية الكريمة: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس).

الفصل العاشر

مؤامرة السامية

إن المؤامرة التي دبرتها الصهيونية التلودية هي طرح نظرية السامية ، لفضاء على الصلة التي قامت بين الحنيفية الإبراهيمية والرسالة المحمدية فأصبحت تشكل تاريخ ثلاثة آلاف عام على طريق التوحيد الحالي بدأ به ثم انصرف ثم عاد إليه مرة أخرى . كان الهدف متعدد ، يرمي أولاً إلى الغرض من العروبة الحنيفة التي تشكلت في هذه المنطقة الواسعة بالحجرة واللوجات البشرية المتتالية الخارجة من قلب الجزيرة إلى أطرافها ، ومحاولة القول بأن العرب واليهود من جنس واحد ، ومحاولة القول بأن اليهود في الجزيرة العربية هم عرب يهود وليسوا من الذين هربوا من مقتلة تيمطس عام ٨٠ ميلادية وما بعدها ، ومحاولة القول بأن العرب وبنو إسرائيل أولاد عم تربطهم أواصر الرحم والقرب المشدودة إلى عرقهم السامي الذي توغل جذره في أعماق بلاد العرب . ولذلك فقد كان من مخططات الصهيونية التلودية التي بدأت من خلال الفكر والثقافة في أوائل هذا القرن ، خلق هذه الدعوى العريضة ودعها وفرضها على مناهج الدراسة في الجامعات حيث نشأت دراسات باسم اللغات السامية والأديان السامية وما إلى ذلك من دعوات قام بها يهود في الجامعات ثم ورثها من ثم أتباع الاستشراق اليهودي والتلودية : إسرائيل ولفنسون ، يوسف شاخيت تحت مظلة الدكتور طه حسين .

تقول الدكتور بنت الشاطي : ليست غريباً وقد سيطرت فكرة السامية على المؤرخين الأوروبيين أن تابع العلماء هذه المقولة الإسرائيلية لما بدا لهم من ظواهر التشابه المدعى بين العرب وبنو إسرائيل وجهها الاستشراق إلى تأصيل القرابة المدعاة مع التركيز بوجه خاص في أول أمر على الحجاز مهد الإسلام وقربش صفوة العرب العدنانية وفيها نسب نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام وعلى اليمن منزل العرب القحطانية الصحيحة العاربة . (وكذلك أخذت اللغة العبرية مكانها في اللغات السامية ، اختاً للعربية بما كشف علم اللغات فيما علنا المستشرقون - من أن أما ذات لغة واحدة كانت تسكن البقاع الواقعة بين القفقاس وجنوب بلاد العرب ، وذلك درسي اللغات السامية أن لغات تلك الأمم وهي العبرية والفنيقية والسريانية والآشورية والكلدانية والعربية ، وثيقة القرابة متحدة الأصل . وفي مسمى الآن صدى باقي من صوت معلنا اليهودي الدكتور يوسف شاخيت وهو يكشف لنا في كلية الآداب بجامعة القاهرة عن أسرار فقه لغتنا العربية ويظهرنا بما في جميعته من حيل لغوية أفهمتنا بأن العربية ليست إلا مقلوب عبرية وأن العرب إنما أخذوا لانهم من عربيه التي هي في العربية بمعنى الصحراء ووهبت بين أيدينا محاضرات لسلفه اليهودي (إسرائيل ولفنسون) أبي ذؤيب فيما كنا نسميه - ألقاها على الطلاب الذين سبقونا بحجرة في كتاب (تاريخ اللغات السامية) ليقراها أفواج من الطلاب الذين لم

يسعدكم الحظ بقاء المعلم إسرائيل أب ذئيب والنذرة عليه ، فقرأ هذه المحاضرات فترى اليهودية اختلطت فيها بالعربية . ولطول ما ألح في تقرير وحدة أصلها السامي ، فما تكاد نميز فيها الحد الفاصل في تصور هذا المعلم الفقيه بين السامية واليهودية ولا بين اليهودية والعبرية . (راجع كتاب الدكتور بفت الشاطيء : الإسرائيليات في الغزو الفكري) . وهكذا واليهود في إسرائيل يعدون الجامعة العبرية ويعيدون لإحياء اللغة العبرية بعد اختفائها ألفي سنة كاملة ، تخدم يقومون هذه الدائرة الخطيرة من التآمر على العرب والعربية والإسلام في محاولة لا تقول كذباً وتضليلاً بأن العبرية أخت العربية أو أن اليهود أبناء هم العرب ، وتلك قضية لها أبعادها الدقيقة في داخل دائرة الحنيفية الإبراهيمية على مدى هذه القرون المتطاولة ، ولا يمكن أن تقدم بهذه الصورة التي يتضح فيها عنصر الخداع والتآمر . وقد دخل إلى هذا الميدان كثيرون من جنود الصهيونية التلودية . كتب روزي : كتابه (صلات بين العرب وبني إسرائيل) تحدث فيه عن ملامح متعاقبة بين قريش واليهود ، وكتب مارجاوث كتابه عن بني إسرائيل ومكة . ذهب فيه إلى أن الموطن الأصلي لبني إسرائيل كان بلاد اليمن ، ومنها خرجت هجرات إلى شمال بلاد العرب ، ودأبه بعض ألفاظ التقطها من لغة سبأ البائدة تشبه ألفاظاً عبرية وبعض عادات دينية . والوجهة المبتغاة هي : تأصيل القرابة المدعاة بين العرب واليهود مع التركيز على الحجاز مهد الإسلام وقريش صفوة العرب المدناية وعلى اليمن مغول العرب القحطانية . . والتاريخ الصحيح والوقائع الجلى تثبت أن اليهود ما كان لهم وجود في جزيرة العرب ، وإنما جاءوها من الشمال هاربين من تيملس الذي قتل منهم أرحالا كيرة في القدس . كذلك فقد جرت إعطاءات كثيرة مضللة كالقول بأنهم واضعوا شريعة هورابي وأن لهم أثر في حضارة بابل مع أن الحقيقة الأكيدة هو أنهم انتهبوا من مختلف الأمم والحضارات مظاهر ادعواها لأنفسهم وأنه لم تمكن لهم حضارة حقيقية لأنه لم يكن لهم وجود ثابت يمكن من قيام الحضارة .

وانتد أسرع الصهيونية التلودية ما أنت هذا الزكام كله الذي صنمته في إطار الدعوة إلى الدولة اليهودية وبروتوكولات صهيون ١٨٩٧ فأصق بأول الفرق التي هجرت إلى أوروبا في عصر النهضة (طه حسين ومحمود عزمي ومنصور فهمي وهيكسل وسلامه موسى وأمين الخولي) فسرعان ما أعلن الدكتور طه حسين في أول محاضراته في الجامعة إسقاط إبراهيم وإسماعيل وإنكار وجودهما وإنكار رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية وبناء الكعبة . وكان هذا أول السهام المسمومة التي وجهتها الصهيونية التلودية إلى التاريخ الإسلامي . ثم أسقط بعد ذلك عبد الله بن سبأ اليهودي وأنكر وجوده . ثم قدم إسرائيل ولفنسون الذي ادعى دعواه للمريضة المضللة بالروابط بين العرب واليهود وبين العربية والعبرية في محاولة زائفة لتقيد الطريق للصهيونية العالمية في قلب عالم الإسلام . والمعروف أنه قبل إبراز فكرة الصهيونية جرت عملية احتواء ضخمة لدوائر المعارف العالمية بطرح مسلسلات خطيرة عن وعد إبراهيم وحق شعب الله المختار فيه وإنكار إبراهيم وإسماعيل ، وقد طرحت هذه المفاهيم في دائرة المعارف الإسلامية التي كتبها المستشرقون اليهود والصيونيون ، والتي ضمت عشرات من الشبهات حول تاريخ الإسلام وأصوله وفي مقدمتها مؤامرة السامية وآثارها في علم الأجناس وعلم اللغات وبدأت المصطلحات

التقريبية تفرض على التاريخ الإسلامى ، فبرزت عبارة تاريخ العرب وحضارة العرب وتحريك هذه المصطلحات فى دائرة ما أسماه (بالسامية) ومضت الصهيونية التلودية فى التآمر ضد التاريخ الإسلامى فدعت إلى تجديد الحديث عن الثورات والمؤامرات التى وقعت ضد الاسلام ودولته وأطلق عليها اسم حركات العدل . ووقف طه حسين فى مهب التربية ١٩٤٧ ليتحدث عن الزنج والقرامطة على أنهم طلاب عدل وهم المتآمرون على الاسلام والمتصلون بالمجوسية والباطنية لهدم دولة الخلافة . وليس هناك من شك فى فساد هذه الدعوة إلى السامية وإلى تقسيم الجنس البشرى إلى ساميين وحاميين وآريين ، واتخاذ مصدر ذلك التوراة التى كتبها الاحبار فى منفى بابل ، ولقد وضعت هذه الدعوى منذ وقت بعيد تصف أحواء العلم الصحيح فتنين بطلانها لأن القرون البشرية أكثر من ثلاثة ولأن ثلاثة نفر من أبناء رجل واحد لا يمكن أن يخرج منهم أجناس ثلاثة متباينة بمثل هذه السرعة التى تخيلها أولئك المؤرخون . كذلك فإن رأى المسيح هو أن الشعوب التى سكنت بلاد العراق والشام ومصر وإفريقيا قد خرجت كلها من شبه جزيرة العرب فى أزمنة متعاقبة وفى موجات متلاحقة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة وفى إطار الدعوة الابراهيمية الخفيفة ، وأن آخر هذه الموجات هى الموجة الاسلامية المهدية ، وأن كل هذه الشعوب ذات الأسماء المختلفة هى عربية حثيفة ، وأن كل هذه اللغات إنما ترجع إلى اللغة الأم : اللغة العربية التى نضجت قبل لغة النبى محمد وآلته وجاء القرآن فاستصغى أجود لهجاتها : لغة قريش فقول بها . كذلك فقد ثبت كذب الدعوى المبجلة التى ساقها الاستعراق اليهودى الصهيونى التلودى وحمل لوائها الدكتور طه حسين بإيقاع الخلاف بين عدنان وقحطان : لغة وجنساً . وقد ذهب الباحثون إلى فساد هذه المحاولة الداخلة فى مؤامرة السامية فهى جزء منها وفى إنكار إبراهيم وإسماعيل والرأى على أنه لا توجد فرارق واسمة بين الحميرية والعدنانية أو أنهما لغتان متميزتان وأن الخلاف بينهما لا يزيد على اختلاف اللهجات بل إن العلماء يصلون فى تقدير الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى إلى أن هناك عوامل عديدة قربت بين لغة السبئيين والحميريين من لغة العدنانيين ، واستمر عمل هذه العوامل إلى ما قبل ظهور الاسلام ويقول مسائلاً : إلا فكيف كان يفهم ولادة رسول الله ﷺ على اليمن لغة أهل اليمن وكيف فهم رسول الله ﷺ لغة وفد اليمن الذى قدم المدينة عام الوفود ليسلم بين يدى الرسول : والواقع أن القحطانية والعدنانية هما فى الأصل لغة واحدة والخلاف بينهما ليس إلا خلافاً فى اللهجات.

الفصل الحادى عشر

الغرب والمسيحية

نزلت رسالة الاسلام بعد المسيحية بستة قرون . فى عام ٦٢٠ تقريباً من التاريخ المسيحى أنزل الله تبارك وتعالى رسالته ووحيه وقرآنه على سيدنا محمد ﷺ وكانت المسيحية إذ ذاك قد سيطرت على الدولة الرومانية فى الغرب بعد أن انتشرت فى مصر والشام وإفريقيا . وكانت أجيال معاصرة لمحمد الرسول وموعد رسالته تعرف أنه قد أظلم الناس وقت رسالة عالم النبيين ، فقد كانت التوراة المنزلة

والإنجيل للنزول بغير ان رسالة محمد ﷺ وكانت كتب القدماء نصف ذلك العصر حتى أن كثيراً من آمن رسول الله كان يعلم ذلك ، ومن هؤلاء بلال الحبشي الذي سعى إلى الجزيرة العربية بحثاً عن رسول الله الذي أوشك عصره . وكان اليهود يستفتحون باسم الرسول محمد على أعدائهم ، وقد ظل الكثيرون من آمنوا برسالة عيسى عليه السلام معتمدين بالجبال مؤمنون بالله رباً وبه نبياً جيلاً بعد جيل ينتظرون النبي الخاتم حتى جاءت البشري بنبو محمد ﷺ فأمنوا به حسبما جاءت الآيات في الإنجيل للنزول ، وقد كانت المفاهيم المسيحية الصحيحة التي حمل لواءها أريوس ومدرسته من بعده تؤمن بأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وأنه جاء مكلاً لهذه الرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام ومبشراً برسول من بعده اسمه أحمد . ولقد فصل القرآن الكريم في مختلف القضايا والخلاقات والتفسيرات والتفسيحات التي طرأت على طريق الله الحق وأعطى للمسيحية حجمها الحقيقي ودورها الطبيعي فليست المسيحية ديناً عاماً وإنما هي فرع من الدين الذي أنزل على موسى ، أرسل الله بها عيسى مصداقاً لما بين يديه من التوراة وليحل لهم بعض الذي حرم عليهم ومصححاً للانحرافات التي طرأت على دين موسى عليه السلام . فدعوة المسيح تركز على الممنوعات حيث تركز اليهودية على المأذونات وتعترف للمسيحية بالآخرة حيث تنكر اليهودية البعث والجزاء وتدعو إلى التفرق بالإنسانية إزاء ظلم اليهود وطعناتهم وتدعو إلى التواضع والمحاسنة في مواجهة استعلاء اليهودية وخطورتها وتدعو إلى (الله) رب العالمين لا رب الجنود فقط حيث يعبد اليهود إلههم (يهوه) ويرون أنه إلههم وحدهم . وكذلك فدعوة عيسى تدعو إلى العفو عند المقدرة واليهود لا يعرفون إلا المفاضة والربا ، وتدعو إلى احترام الحق العام بترك ما يقصر ليقصر وما لله لله ، واليهود لا يحرمون إلا حقوق طائفتهم فقط . هذه المعاني التي جاء القرآن بها نجد علماء الغرب لا يقبلون بها إلا بعد أربع عشر قرناً فيقول الدكتور جادو الأستاذ بكلية جيتون بكامبرج : « أن يسوع ظهر لمعاويه بصفة نبي تابع لكنيسة اليهود لا مضاد لما وأيده بعض القسوس وخالفه رئيس الشمامسة . وأن المسيحية ظهرت في أحضان البيئات الإسرائيلية مخالفة لتعاليم اليهودية حيث تركز اليهودية على المادة بينما تركز المسيحية على الممنوعات والإعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة » . ويرى كثيرون أن السيد المسيح قد عبر عن حجم رسالته حين قال : لا تظنوا إني جئت لأنقض التوراة أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل (متى : ١٧ : ١٠) . ويقول الدكتور راشد شماس كارليل إن قراءة الكتاب المقدس أثبتت أن المسيح ليس إلهاً ولم يدع الألوهية . وأن المسيح الأناجيل ومسيح بولس شخصان لا يتفقان . ويرى الكثيرون من الباحثين الغربيين أن المسيحية لا تعتبر ديانة مستقلة عن اليهودية إلا من حيث أنها حررتها من الانحراف الذي طرأ على اليهودية وأن المسيح عيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل .

(٢) وهكذا نجد أنه بظهور الإسلام تجدد الحديث عن دين عيسى عليه السلام ورسالته في إطار الواقع الذي تحركت فيه المسيحية إلى الغرب وسيطرت على عالم الغرب وفق المفاهيم والتفسيرات التي حوتها من وضعها الصحيح إلى وضع آخر مغاير لذلك تماماً . ومن الحق أن يقال إن المسيحية لم تتمكن من أن تكون ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية إلا عام ٣٢٥ تقريباً وأن روما لم تلبث أن سقطت

في برائن غزو القوى المغيرة عليها عام ٤٥٠ تقريباً . وعندما جاء الاسلام في القرن السابع كانت الدولة البيزنطية هي التي تحمل لواء المسيحية ، ثم لم تلبث كنيسة روما أن سيطرت على أوروبا سياسياً ودينياً . وعند نزول الاسلام كانت هناك فرقتان مختلفتان في المسيحية : فرقة رأيا قائم على التفریط في حق المسيح عليه السلام فتذهب إلى إنكاره تماماً ويقول أنه شخص غير تاريخي وأن صورة المسيح التي تريد الكنيسة أن تنقشها في عقول الناس وقلوبهم إنما هي صورة مزورة ورثها الناس عن الوثنيات القديمة وأن كل ما في المسيحية له أصل في ديانات الوثنيين التي جاءت قبل المسيحية بألوف السنين . والرأى الثاني قائم على الإفراط في حق المسيح عليه السلام ورفعته إلى منزلة الألوهية ، لجاء الإسلام ليصحح الوضع ويضع الأمور في نصابها فيعترف للسيد المسيح بالوجود التاريخي وهنذه وأمه عليهما السلام من الصفات المربية ويحفظ له المسكنة التي وضعه فيها الله عز وجل وينفي عنه تلك الصفات والتفسيرات الباطلة . فالمسيح هو نبي الله ورسوله إلى بن إسرائيل وكلته ألقاها إلى مريم ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، ويعارض الإسلام تلك الدعوات الثلاث التي جاءت في تفسيرات السكبان : الصلب والتثليث والخطيئة ، فالمسيح في نظر الإسلام رسول الله إلى بن إسرائيل خلقه أولاً كما خلق آدم عليه السلام ثم اصطفاه بعيداً عن التجسد والحلول . (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يا كلان الطعام) - (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) - (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) .

ويرفض الإسلام نظرية الأبوة رفضاً تاماً ويقيم بدلاً منها مفهوم (العبودية) فكل أنبياء الله عبيد لله . ويقرر القرآن أن عيسى عليه السلام لم يصاب وإنما شبه للذين حاولوا صلبه وأن الله رفعه إليه فالإسلام يقرر في وضوح وقاكيد أن المسيح لم يقتل ولم يصاب . (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وأن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) كذلك فإن الاسلام ينكر أن هناك خطيئة أصلية وقع فيها البشر كلهم نتيجة عصيان (آدم) عليه السلام أو أن السيد المسيح صلب فداء للبشر وتخليصاً لهم من الخطايا . فسأله آدم والخطيئة والفداء قال بها بولس تقيلاً من الأديان البشرية حيث يقول : إن الله لم يغفر لآدم خطيئته بل إن غضبه لم يقف عند حد آدم بل تناول كل ذريته من بعده فغضى عليهم أن يعيشوا في الخطيئة أبداً وأن يلاحقهم الموت بالتالي . ويقرر الاسلام أنه لا خطيئة أساساً وأن آدم أخطأ واستغفر وغفر الله له . (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) . كما يقرر أنه لا تور وازرة وزر أخرى ، وأن خطيئة أى فرد من البشر لا تنسحب على الآخرين . وأن الله تبارك وتعالى قادر على أن يرفع عن البشر لإصرهم والأغلال التي في أعناقهم بغفر حاجته إلى وساطة أحد ودون أن يصير رسوله وعبد عيسى عليه السلام إلى ما صورته التفسيرات المسيحية إننا لله يتجسد وينزل إلى الأرض (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) . وهكذا نجد أن الاسلام قد صحح دعوة عيسى عليه السلام ووضعا في مكانها بين دعوات الأنبياء ورسالات السماء المتوالية من نوح إلى محمد . ولقد حفظ الاسلام المسيحية ورسمها في أنقى صورة وجعل الاعتراف بها جزءاً أصيلاً من عقيدة المسلم ، كما اعترف بعيسى

عليه السلام ومعجزة ولادته وكرمه وكرم أمه المذراء مريم ، وكشف عن أن كلمة الله قد تمت حقاً
وعبداً برسالة محمد ﷺ التي هي كلمة الاسلام الأولى التي ألقاها الحق تبارك وتعالى إلى كل نبي ورسول ،
وأعلن أن الدين عند الله الاسلام ، وأن من يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه . ونزل القرآن حافظاً
وكاشفاً ومقرراً لكل ما جاءت به رسالات الله تبارك وتعالى ، ومهيئاً على جميع الكتب السابقة ،
فقد وعد الله بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) بينما استحفظ القائلون بالاديان السابقة على
كتبهم . وبهذا قرر الإسلام وحدة الأنبياء من لدن نوح إلى محمد ووحدة الرسالة : (قولوا آمنا بالله
وما أنزل إلينا) . وإن السيد المسيح رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه (مصدقاً لما بين
يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وأعلن أنه لا يتم إسلام المسلم إلا بالإيمان
بكل أنبياء الله وكتبه وملائكته واليوم الآخر .

وفي محيط هذه القضية كلها قرر الاسلام : أولاً : أن الله هو الله إبراهيم عليه السلام الذي أعطاه
الله الوعد والإمامة وجعلها فيه وفي عقبه من الصالحين : (إن أولى الناس لإبراهيم الذين اتبعوه وهذا
النبي) . ثانياً : أن المسيح عبد الله ونبيه أرسله إلى بني إسرائيل مكلاً للرسالة وليس إلهاً ولا ابن
الإله (تعالى الله عن أن يكون له ولد) وإن المسيح لم يصلب ولكنه شبه لهم ، وإن خطيئة آدم ليست
خطيئة للبشرية ، ولكنهما من عمل آدم الذي تاب منه إلى الله فتاب الله عليه . ولا ريب أن مفهوم
الاسلام الاصيل الذي طرحه القرآن قد كانت له آثاره البعيدة المدى في عصر النبي وبعده . فإن وفد
نصارى نجران حين حضروا إلى مسجد الرسول بالمدينة وأقاموا لديه أياماً يتحدثون إليه في هذه الأمور
وغیرها ، فإن الله تبارك وتعالى قد أوحى إليه أن يدعوهم إلى المباحة بشأن إصرارهم على مفاهيمهم
في المسيح والمسيحية وعدم تقبل مفاهيم الاسلام : (فن حاجلك فيه من بعد ما حاك من العلم فقل
تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبذل فتجعل الله على الظالمين) . فلما دعاهم الرسول
إلى المباحة ترددوا وتراجعوا والسحبوا . ومع ذلك فقد ظلت المسيحية مضطردة في مفاهيمها
وتفسيحاتها الخاصة للإسلام من أجل هذا الخلاف ، ولقد تدفق الاسلام وتلك شاطئ البحر الأبيض
المتوسط الشرقي والجنوبي ودخل للناس في دين الله أفواجا ، في هذه المنطقة التي سيطرت عليها
الامبراطورية الرومانية بيلينيته ووثنيته ثم بمسيحيته أكثر من ألف عام . وانطوت منها الفتن
السريانية في سوريا والمسيحية في مصر وخليفت العربية وبدا كان البحر الأبيض المتوسط مجال صراع
واسع ، حاولت فيه المسيحية اقتحام أرض الاسلام مرات وخاصة في الحروب الصليبية ثم في الحقبة
الاستعمارية الحديثة التي سيطرت على أغلب أراضي الاسلام والتي حملت لواء التهريب والاستفراق
والتبهر في محاولة تعريف تاريخ الاسلام ومفاهيمه . ولكن الاسلام لم يقف من المسيحية إلا موقف
السباحة والكرامة كما وقف من عيسى عليه السلام وأمه الصديقة ، ولا أدل على ذلك من اليهود التي
كتبها الرسول لأهل نجران ، والتي كتبها عمر لأهل إيلياء (بيت المقدس) وسماح المسلمين لأهل
الكنائس (يهوداً ومسيحيين) بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي في الوقت
الذي قامت فيه المسيحية الغربية بقتل ٧٠ ألف مسلم في بيت المقدس ومئات الألوف في الأندلس .

كما أحل الإسلام للمسلمين طعام أهل الكتاب . كذلك فقد حرصت كتابات الغرب أن تجعل لواء التعصب والكراهية والحقد للإسلام فهي لم تعترف بدور المسلمين في تحضير أوروبا وإلكار دور المنهج العلمى التجريبي الذى أنشأه المسلمون . كذلك فقد حاولت أن تصور تأخر المسلمين في هذه المرحلة بأن مرجعه إلى الإسلام :

يقول الكونت كاتيان : « من المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الأمر بعكس ذلك فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جليلة إلى المسيحية ، إذ لو لم تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التى يعتنقها الأروام والروس والتي لم يبق أى دليل على نهضتها أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدنية العرب والمسلمين فإذا يكون مصدر غربي آسيا وأوروبا في القرون الوسطى للظلمة أو لم تحمل النهضة الأوروبية التى ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية في هوة الانحطاط . بيد أن هذه الخدمات التى قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كانت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين هاتين الديانتين لحجب وجه الحقيقة . ولا ريب أنه كان من عوامل الخلاف بين الفكر الغربى وبين الإسلام تلك الحواجز التى حالت دون النظر الصحيح . (أولاً) عقيدة المسيحية في الألوهية والنبوة . (ثانياً) خصومة الكنيسة للإسلام وتحريضها على الحروب الصليبية . (ثالثاً) الصلة التى قامت بين الغرب والدولة العثمانية خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة . يقول م . ر . ك : إن الكثير من الغربيين شبوا على كراهية الدين الإسلامى وارتضعوا ذلك في لبنان أمهاتهم ، ويقول : بينما شب المسلمون جيلاً بعد جيل على الإيمان بموسى وعيسى وعلى حب المسيح ومريم والأديان والكتب السابقة جميعاً . ولا ريب أن الخلاف الأساسى بين الإسلام والمسيحية نشأ من اختلاف مفهومهما لله فإن التوحيد الخالص هو أساس الإسلام والتثليث هو أساس المسيحية وعن ذلك جرى الاختلاف في تفهيم الحياة والعقيدة والمجتمع ، كذلك فقد رفض الإسلام فكرة الآبرة والرهانية وفكرة طلمية المسيحية . ويقر الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى إن المسيحية الغربية هى التى أفسحت لتفسيرات على النحو الذى خرج بها عن الأصل المنزل . ولا ريب أن المسيحية استطاعت أن تدمر الوثنية وأن تمهد للإسلام وأن تعد للبشرية لدين الانسانية حين دعت إلى كسر عنصرية اليهودية وماديتها ، وإعلاء مبدأ الرحمة والأخوة البشرية والأخلاق غير أنها حين قضت على المادية لم تستطع أن تتوسط ومالت إلى الرهبانية وجاء الإسلام كما يقول الدكتور الفاروقى ليرد الأمور إلى طريقها الصحيح إلى الخلفية الابراهيمية القائمة على التوحيد والرحمة والأخاء البشرى ، ومن هنا ولإصااته ولعظمته انتشر بنفس السرعة الخاطفة في مختلف المواقع العربية التى كانت المسيحية مسيطرة عليها وفى الأندلس استقر سيمائة عام . جاء الإسلام مذكراً ومؤكداً لرسالة الله الحق : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب) . (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله) جاء لافضاء على حد الاقتراء وسواء فهم . جاء بكتاب على إملاء يكون نصه بمثابة الصخر الذى لا تتغير يتغير المفاهيم والثقافة . وهذا هو السبب التاريخى لقداسة لغة القرآن وحروفه ،

حصر القرآن في اللغة العربية ، حصر مبادئ التفهم بلا خوف مما حدث للكتب السابقة من تمزيق أو ترويم أو تفريس ، معلناً أرلية مامية الدين وجوهره . كذلك كهدف الاسلام حقائق جديدة جاء الاسلام ارتقاءً وتقدماً على ما سبقه من رسالات إلهية وإن اتفق معها في جوهر الرسالة بفتوحات جديدة في الدين والأخلاق . أهمها الميزان الأخلاقي وثبات القيم . لقد هجرت المسيحية عن العالمية التي حاولت أن تقوم بها لأنها ليست ديناً عالمياً بل ديناً مكانياً لآديان بني إسرائيل . جاء الاسلام بعالمية مبنية على الأخلاق والارادة و بناء الأمة ، (كنتم خير أمة أخرجت للناس) : تحقيق الخير والعدل . تحقيق الإرادة الإلهية حيث هجرت المسيحية واليهودية عن تحقيق الإرادة الإلهية أو إنشاء المجتمع الرباني . جاء الاسلام يقول بالآخرة العالمية تحت القانون الأخلاقي (آخرة عالمية مبنية على القانون الأخلاقي) . يقول تاريخ الآديان : إن الاسلام جاء بمنهجية جديدة لم تمكن مألوفة وإن كانت أصولها راسخة في الروح العربية وهي الدعوة إلى الله عن طريق تربية الأخ لأخيه الأصغر ، . ولا ريب أن هذا المرض يفسر الأخطاء والعيوب التي حاول التخريب والتبجح والاستشراق إمارتها في أفق الفكر الاسلامي ويرسم الخلفية التاريخية لموقف الغرب من الاسلام : ودعوته وتاريخه .

الفصل الثاني عشر

ما قبل الإسلام

هناك تلك المحاولة المسمومة لتزييف التاريخ الاسلامي بالقول بأن العرب قبل البعثة كانت أمة مهينة المحضرة والملك وأنه لما جاء النبي عليه السلام نهض بهم فنهضوا ووجههم إلى الفتح والسيطرة فوصلوا بعد زمن قليل إلى مايريدون، يردد هذه الشبهة أغلب المستشرقين وكتاب الغرب ومنهم هاسنيون ومرجليوث وغيرهما ، ومح تظني في نفوسهم تلك الاحقاد التي تظاقي ؛ لأن الاسلام استطاع في أقل من قرن من الزمان أن يمتد من الصين إلى حدود فرنسا ، ولا ريب أن هذه الدعوى باطلة بطلاناً شديداً لأن العرب قبل الاسلام لم يكونوا متحضرين على ذلك النحو الذي جعلهم مستعدين لاستقبال الاسلام فقد قاوموه مقاومة شديدة امتدت في مكة ثلاثة عشر عاماً ، واضطرت الرسول إلى أن يتخذ بمنة أخرى لنشر دعوته . ولو كانوا على استعداد سابق للحضارة أو الملك لما وقفوا موقف العناد والخصومة للشديدن على هذا النحو الذي وقفوه من الدعوة الاسلامية ولجروا تلك الحرب العنيفة التي حاربوا بها الرسول . يقول الأستاذ محمد فريد وجدي : « إن قريشاً وهي أرق القبائل لغة وفهماً ومكانة لم تقبل دعوة النبي إلا رجلاً ونساء لا يربو عددهم على بضع عشرات وأن أتباع الأوابين اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى هاجروا إلى بلاد الحبشة وأن النبي لبث على هذه الحالة من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة فلما أحست قريش من النبي الهجرة اعتزمت قتله وترصدت له ، ولما علم أهل مكة بإفلاته اقتفوا أثره .

كل هذا ينطابق بل ان فصيح أن قريشاً وهي مظنة للنجاسة والفهم من العرب في ذلك العهد لم تكن قد استمدت للملك ، فإن المجتمع الذي يقاوم الداعي للتجديد والنهوض بهذا النفوذ ويصر عليه ثلاث عشرة سنة لا يرداد بعد هذا عناداً وتعصداً . هذا المجتمع الذي يقاوم الداعي بهذا النفور العظيم وينتهي أمره معه إلى الخضوع له كرهاً لا يهيمر أنه استعد لإقامة دولة ، فلو ترك وشأنه لبقى على ما كان عليه ، ولو أن قريشاً وهي أقرب العرب إلى الحضارة قابلت دعوة (محمد) بصدر رحب وأحاطها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وإبطال وثنيتهم اساغ أن تقول : إن محمداً لم يعمل أكثر مما يعمل البناء ، وجد أحجاراً منحوتة ومواد جامزة فأقام بها قهراً غما ، أما وقد أراد أن يجعل محمداً مركز دعوته يثرب لائق يسكنها الأوس والخزرج ، وهما من مهاجرة اليمن ، وليس لهم أقل ميزة بين العرب . ولم تكن لمجتبىهم بالفصيحة المنتحلة ، ولا جماعتهم بذات القوة والمنمة ، بل كانوا أسوأ ما يكون عليه قبيلتان من القناحر وتنازع البقاء . أما وقد أراد الله أن يتخذ محمداً رجلاً هاتين القبيلتين أنصاراً لدعوته ومدينتهم عاصمة لدولته بعد أن خطه أقوم العرب لهجة ، وأقربهم للنهوض مطية ، فقد أمكن كل ناظر أن يقدر عظمة روحه العلوية ، إذ توالى بعد التباثل عن فطنة التأهل للنهوض ، وأهلها وسائل لتقويم دورها ، فصاغ منها نواة تصلح أن يجذب إليها مواد البناء والاكتمال وأن تحييها وتخرجها من جمدها القديم . وأن تضاف فيها مجتمعاً فتيماً علواً حياة وقوة يصلح القيام بنفسه ، وللإحداث أكبر حدث في العالمين ، إن هذه الآية من آيات التاريخ البشري لا تسمح لباحث باسم البحث العلمي أن يتجاهل أمرها .

والواقع أنه البحث العلمي الغربي لا يستطيع أن يستوعب أبعاد فهم التاريخ الإسلامي لأنه يضدر من مفهوم النظرية المادية أو المنهج التجريبي وكلاماً يعجز عن تقدير ما سوى المادة أو الاقتصاد من العوامل المعقدة التي تعمل عملها في التاريخ ، وبذلك لا يستطيع التصور العربي أن يرى أن الإيمان الذي ملا قلوب هذه الجماعة الصغيرة التي أنشأها الرسول ورباهما وكونها في مكة والتي تدافعت تحمل لواء الجهاد والفتح والتوسع إلى إقامة الأرض قد استطاعت في هذه الفترة القليلة أن تسيطر من حدود الصين إلى حدود فرنسا في فترة لا تزيد عن ثمانين عاماً بلغت أقل من ذلك الامبراطورية الرومانية في ثمانمائة عام . ولأن ما يوصف في الجزيرة العربية بأنه حضارة لم يكن إلا ذلك المون من التراث المادي الذي حققته رحلتا الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن ، ولكن هذا المجتمع لم يكن مؤهلاً قبل الإسلام ليحمل حضارة لأنه كان وثنيًا غارقاً في الفساد الاجتماعي مضطرباً أشد الاضطراب ، ولذلك فإنه عارض دعوة الحق إذ جاءت . وخاسم كلمة الحق عندما نزلت على رسول الله من أمه ، لأنه أحس بأن كلمة التوحيد سوف تغير نظامه الاجتماعي المتطاوّل بالربا والتراخي الفاحش والارذل والشرك والخمر وواد الأولاد ولعب الميسر والزنا . وإن هذه الصورة لمجتمع الجاهلية الواضحة معروفة في كتب التاريخ القديم ولكن كتاب الغرب يحاولون أن يفضوا من تلك المجهزة الحارقة التي حققت هذا الفتح الذي ركن كلمة الله في الأرض حقداً أو حسداً يحاولون أن يبرروها على هذا النحو الواثق .

إن الرسول ﷺ قد أنفق ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة إلى المدينة يدعو القبائل في مكة وما حولها

وما ترك قبيلًا إلا عرض عليه كلمة التوحيد فلم يجد إلا المعارضة والخصومة ولم يجد أنصاره إلا الإيذاء والقتل ، فكيف يمكن أن توصف الحياة في بلاد العرب في هذا الوقت بأنها حضارة مستعدة لأن تجد قائدًا يدفعها إلى النهضة .

الحقيقة أن الإسلام إنما الحضارة من الكلمة الأولى (لا إله إلا الله) وأنه بنى هذا المجتمع لبنة لبنة وفرداً فرداً هذه الجماعة الصغيرة هي التي شككت في يثرب المجتمع الإسلامي .

وإذا كان بعض الباحثين يحاولون أن يقدموا صوراً رائعة الحياة في الحياة الجاهلية من القوة والبطولة ومن الشعر والأدب الإنساني ومن المثل العليا . وجوانب المعرفة وصور الخلق الرميع ، وهذا أمر لا سبيل إلى إنكاره ، وليس غريباً أن يكون في الجاهلية لأنه ميراث النبوة ومهراث الخنيفية السمحاء التي حل لواءها إبراهيم وإسماعيل ، وكل ما وجد في التراث العربي قبل الإسلام من خير وإيمان وخلق وإبل وكرم فإنما هو بقية الخنيفية ، ولقد ظل أولئك المؤمنون بالخنيفية يتوارثون إيمانهم بالله حتى جاء رسول الله ﷺ وكان يطلق عليهم اسم (الخنفاء) .

الباب الثاني

تاريخ الإسلام اليوم

- أولاً : الإطار الذي تحرك فيه تاريخ الإسلام .
ثانياً : كتابة السيرة .
ثالثاً : الجهاد والفتح .
رابعاً : الخلاف بين الصحابة .
خامساً : ثورة الونج والقرامطة .
سادساً : مسألة الموالى والعرب .
سابعاً : المروبة والإسلام .

الفصل الأول

الإطار الذي تحرك فيه تاريخ الإسلام

عند ما أنزل الله الإسلام في شبه جزيرة العرب في مكة على محمد بن عبد الله كان ذلك علامة على أن البشرية قد دخلت مرحلة الرشد الفكري الذي يؤهلها لتلقي رسالة عالمية شاملة قوامها معجزة البيان القرآني الخالدة الباقية على الزمان ، بعد أن كانت رسالات الأنبياء والرسل للأمم مختلفة وعصور متباينة . وبذلك فصل الزمن بين رسالة الإسلام وبين الأمم السابقة له . بحيث يمكن القول أن دهر ما قبل الإسلام كله كان بمثابة تمهيداً لدخول البشرية إلى عصر الدين الخاتم : دين الإنسانية كلها بعد أن مرت بمرحلة التمهد لرسالة الخالدة بالهدوة إلى الله الواحد الأحد متمثلة في أنبياء الأمم وكتبها فكان الإسلام هو رسالة الله تبارك وتعالى منذ خرج الإنسان ألقاها إلى الرسل جيلاً بعد جيل حتى أصبحت البشرية مؤهلة لتقبل منهج الحياة الثابت بثبات في شريعة الإسلام التي أصبح على كل صاحب دين منذ نزلت أن يدخل في دين الإسلام كما بعثت به كتب السماء التي سبقت القرآن : التوراة والإنجيل وذلك ليظهره على الدين كله وليصبح كتابه (القرآن) مهيمناً على كل كتاب : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) ومن هنا فقد قدم القرآن للمسلمين صورتان كاملتا الأبعاد :

١ - صورة الكون كله والبياتيفيقيا ، منذ خلق الله الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو الغيب كلها التي وراء المنظور من سموات وجنة ونار .

٢ - صورة التاريخ البشري كله منذ خلق آدم وأمره في الجنة ونزوله إلى الأرض وامتداده في ذريته ونزول الأنبياء والرسل داعين إياه إلى الله بصفة عامة ثم لإيضاح المرحلة التي بدأت بالحنيفية السمحاء بملة إبراهيم عليه السلام الذي جعل الله النبوة والكتاب فيه وفي أبنائه إلى يوم القيامة والذي

جاء منه موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل والأنبياء ، وبذلك تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . قدم القرآن للمسلمين هذه الصورة الشاملة للتاريخ القديم ليبدل للمسلمين على الطريق الذي يسرون فيه على هدى الله : طريق النبوة : (يريد الله أن يهديكم سنن الدين من قبلكم) لقد كشف القرآن للمسلمين تاريخ البشرية وكيف قامت حضارتها وأممها وكيف سقطت . وقدم لهم صورة الحدث العظيم : حادث الطوفان ثم ما أصاب قوم عاد وثمود وقوم لوط ومدين وكيف تمطت حضاراتهم عندما انحرفوا عن طريق الله الذي رسمه للبشرية (تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) . (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) . (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) . كذلك دعا القرآن المسلمين إلى النظر في تاريخ من سلف من بني آدم : (وقد خلقنا من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان طاعة الكافرين) . وحذروا من التبعية ومن البطالة ومن السبل المتفرقة حتى يستطيعوا أن يستوعبوا حبرة التاريخ في العصور السابقة ويراجعوا الحياة وهم قادرين على النظرة الواسعة ذات الأبعاد المختلفة . يقول الأستاذ هلال الفاسي :

للتاريخ في نظر الإسلام مرحلتين لا بد من الوقوف عندهما . (أولاً) مرحلة العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلا تمهيداً لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل ، ولم يكن محمد بداً من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تعمل كل بقاع العالم ولكنها لم تنفك عن توفيق إلى البقاء وأصابها الانحراف الذي يستوجب أن تتجدد وتضلع لتفتح آفاق التقدم الإنساني فكان لابد أن يبعث الله الرسول الخاتم : وكانت مهمة النبي أن يضع الناس في جو الرشاد المبني على العقل والروح والقلب والجسم ، ومن هنا فإن كل ما سبق من عمليات التاريخ كأنه يهدف لغاية واحدة هي وجود الرسول نفسه ، وبذلك يصبح الماضي وكان ما قبل التاريخ . أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الإسلامي والبشرية كلها ، مخاطبه ليسير وفق ما يرشد إليه ناموس الكون وما بني عليه هذا المجتمع . كذلك فقد دعا الإسلام للبشرية إلى الوعي بالتاريخ الماضي والقائم جميعاً وصولاً إلى الحتمية الوحيدة وهي الحياة الآخرة : التي تكون هذه الحياة الدنيا منطلقاً ومجالاً للعمل ، وتكون هي المقر الأخير بالحساب والجزاء . هذه هي الغاية من فهم للتاريخ وفهم الميثاقين بقياماً معاً : الاستعداد للرحلة الأخيرة بالعمل في هذه الدنيا في ضوء حبرة التاريخ الماضي والنهاية الحتمية للكون والإنسان ، وكيف يمكن أن تكون الحياة الدنيا في ضوء هذا الفهم آمنة مليئة بالسكينة والخير والهدى لأن البشرية تسير في طريق الله وتعمل على إقامة المجتمع الرباني . هذا الإنسان الذي أعطاه ربه القدرة على الحركة والإرادة والمسئولية الأخلاقية ليكون له من وراء ذلك الجزاء ، هذه الإرادة مسئولة في حدود قدرتها وحريتها وما قدمت من عمل ، ومن هنا فإن للإنسان دوره في صناعة التاريخ وبناء المجتمعات وإنشاء الحضارة وله أيضاً مسئوليته عن الوجهة التي يتجه إليها في هذا العمل . (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) . وهكذا نجد أن الإسلام حين جاء فتح صفحة جديدة للبشرية من حيث طلبة الرسالة وخلودها . ودعا الأمم القائمة إلى الدخول في دين الله :

لأنه هو الدين الحق الذي قامت عليه السموات والأرض فقد خلق الله الإنسان الأول آدم ومنه أرسل الله أول أنبيائه نوح . (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) . أعلن الإسلام وحدة الدين ووحدة البشرية والتوحيد الخالص خلع الوثنية والأصنام وعبادة غير الله . وقدم للبشرية منهج الإخاء الإنسانى لحطم المعبودية والإذلال ومظالم الفرونية والقيصرية ودعا المسلمين إلى النظر في الكون فأنشأ المنهج العلمى التجريبي الذى هو قاعدة الحضارة العلمية اليوم ، ولقد استطاع الإسلام لأنه الفطرة والحق ورضياء النفس البشرية الاصيل أن يوحف فى خلال قرن لا يزيد حتى سيطر على ثلاث قارات : آسيا وأفريقيا وأوروبا من حدود الصين إلى نهر اللوار فى قلب فرنسا وقدم للبشرية ذلك الضياء الحق وتغلب على اللغات والأديان ، ونقل العالم كله إلى نور التوحيد ونفذ بأشهرته إلى قلب أوروبا محررها من الوثنية والرهبانية ، وأدخلها إلى عصر النهضة . وكان الإسلام هو العامل الأكبر الذى أدخل العالم كله إلى العصر الحديث .

(٢) ولا ريب أن الإسلام هو الحيد الفاصل بين القديم والجديد وأنه هو الحادث العظيم الذى غير مجرى التاريخ العالمى كله ، وهذا أن نزالت آياته إلى اليوم وهو بعيد الأثر فى كل أحداث البشرية وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولستنا نحن المسلمين الذين نقول هذا فيؤخذ على أنه تجاوز فى تقدير الأمور ولكن كتاب الغرب هم الذين يعترفون به ، فية قول هنرى بهرن مؤلف كتاب (محمد وشارلمان) إن الإسلام هو القوة المانعة التى حولت مجرى التاريخ الأوروبى وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة عمرتان من ثمار الإسلام وإن ما يقال من أن سقوط الامبراطورية الرومانية هو العامل المؤدى إلى هذا التحول فى التاريخ هو قول خاطئ . فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة اليبس إلى السادة فما كان يحظر لها بل ما كانت ترغب أبداً فى أن تناوى روما وتفرض عليها . أما المسلمون فكانوا يمتدحون أنهم أرقى وأسمى من الرومان فى جميع أساليب الحياة ولا سيما من الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تضرعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم . ولقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز (الوندال) حدودها واستقروا فى نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسى من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها العقلية والمادية شيء من الركود والفساد ، ولكن لم تمكث نهب (ثورة الإسلام) وتغير ركائبه إلى أراضى اليونان حتى تلاثى ما كان لهم من المعالم والآثار وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب فاضطرت ملوكها أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوروبا حيث قامت الممالك التى كتبت تاريخ أوروبا فى العصر الوسيط وأبان العصر الحديث . أما الجزء الجنوبى من أوروبا فلم تقع فيه فى تلك العهود إلا موقعة (بوآنيه) التى انتصر منها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولاً ظهور الإسلام اظلمت الامبراطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ، وظل البحر الأبيض المتوسط بحراً رومانيا ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوروبا الحديثة والثورات الفكرية التى تمخضت عنها الحضارة الراهنة ، وهكذا نجد أن الإسلام قد غمر العالم كله ، غمر الهامى الشرقى والجنوبى البحر الأبيض المتوسط فأدخله

في السلم كافة ، وقامت فيه كلمة التوحيد وامتدت نحو آسيا حتى أخرجت القبائل التركية من وراء النهر وواصل زحفه إلى الصين ، وفي الغرب اقتحم الأندلس ووصل إلى نهر الغوار ، ثم لم يلبث أن اقتحم أوروبا من البلقان حتى وصل إلى أسوار فيينا .

(٢) كذلك كان الإسلام عامل الانقطاع الحضارى بين الحضارات الفراعنة والرومان والفرس والهنود ، فبعد ألف عام تقريباً عاشتها هذه المنطقة التي انداح فيها الإسلام : (المنطقة العربية) (الهلال الخصيب والشام ومصر وأفريقيا) في أيدي اليونان والرومان ، لم تلبث بعد سنوات قليلة لا تزيد على قرن من الزمان أن تمحو تماماً إلى رسالة التوحيد فسيت لغاتها وأديانها ونحلها القديمة وأقبلت على الإسلام إقبالاً تاماً ، مع أن الإسلام حين سيطر على هذه المناطق لم يفرض عليها دينه وإنما أقام حكمه العادل وأفسح لأهل الكتاب الحرية الكاملة في حياتهم الدينية وحتى معابدهم وفتح لهم آفاق العمل في مختلف المجالات في ساحة ورحمة ، غير أن هذه الطوائف العربية المجددة سرعان ما انصهرت في البعثات التي عاشت فيها ولم تستعمل عليها استعملاء سلطان أو استعمار ، وإنما تأخدت معها وأصبحت أليها ، ومن ثم فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً ، من عرفوا أن ذلك الحكم يسمح للعادل الذي حررهم من مظالم الرومان هو من عند الله ، لذلك فقد دخلوا الإسلام الذي كان موجوداً في أحماقهم وضمائرهم منذ رسالة الحنيفية الإبراهيمية التي جدها محمد ﷺ واتصل بها بعد أن انخرقت في مرحلة ما بينهما . ومن هنا فإن الانقطاع ليس إلا عن المرحلة القليلة التي تعثرت فيها الطريق من الحنيفية إلى النصرانية وكان هذا أمراً طبيعياً في التاريخ فصر العربية قد انفصلت عن مصر الفرعونية انفصالاً تاماً لأن مرحلة الفرعونية انخرقت عن الإبراهيمية ، وكذلك فإن سوريا العربية قد انفصلت عن سوريا الفينيقية ، وإن العراق العربي قد انفصل عن العراق الآشوري والبابلي وبالإسلام عادت سميتها الأولى إلى الربط بين الحنيفية الإبراهيمية والحنيفية المهدية . وحين جرت المحاولات في العصر الحديث لإعادة البلاد العربية إلى تاريخها قبل الإسلام بإحياء الفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية ، ففلس هذه المحاولات فعلاً ذريعاً لأنها كانت تهرى ضد تيار التاريخ .

(٤) كذلك فإن رسالة محمد قد غيرت كل أساليب الحياة وظهرت أسلوب الدعوة إلى الله فقد توقفت منذ رسالة محمد أسلوب الآيات ، التي عرفت في رسالات الأنبياء الأولين من المعجزات والحوار كعصى موسى أو ناقة صالح أو إحياء عيسى للنوق فقد آذن الله تبارك وتعالى أن تدخل البشرية عصر الرشد الفكري فتخاطب بمعجزة البيان القرآن المعجز الذي تعدى الله الجن والإنس أن يأثرا بمثله ، وقد عجزت الجن والإنس وما يزال التحدى قائماً ، وأعلن القرآن موقفه من الآيات (وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) . كذلك جاء القرآن بنهج يسمح لكل الناس كل الطبقات ويحرم عليهم كل الحيلات ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم في العصور الماضية ، وكان ذلك إلهاداً بأن للبشرية أصبحت مؤهلة وراشدة . فألقى الإسلام زواج الأخت وزواج زوجة الأب وقتل الأبناء خشية إلقاء . فكان أن رفع الإصر ووضع الأغلال عما كان من عدم مؤاكلة الحائض وقطع أبواب النجسة وللقصاص حتى في الخطأ ، وقد حذف الله عن هذه الأمة كل ذلك وأباح مشروعية الدبة

(كتب عليكم القتلى) كذلك عفا الله عن حديث النفس ما لم تملكه الجوارح ، وأباح الصلاة للمسلمين في كل مكان وكانت تباح في أماكن مخصصة ، وأباح لها العمل كل الأيام ما عدا ساعة الصلاة من يوم الجمعة وأعطى الرحمة الخاصة للأمة المحمدية ومنحها صفة الأمة الوسط وأن قومها هم العهداء على الناس ، وهكذا جاء الإسلام بشريعة صحيحة رحيمة خالدة للعالمين بعد أن انتهى عهد الشرائع المؤقتة والخاصة بأسم بعبثها وللشريعة الموقوتة بأجال طويلة أو قصيرة ، ودعا الأمم كلها إلى الدخول في دين الله أفواجا ، وبذلك اكتمل في الشريعة الإسلامية : الثبات والحركة فاشتملت على عناصر الثبات والاستمرار والحدود والضوابط اللازمة لحماية المجتمع الإنساني وعناصر الحركة والتجديد والتعبير المناسب للمصور والبيئات . وهكذا ارتفع الإسلام بالشريعة الربانية درجة أخرى عما كان في شريعة التوراة وشريعة الإنجيل لجمع الله بين العبد والإحسان ، وبين الروح والمادة ، وبين الدنيا والآخرة ، وجعل جزاء الحسنة مضاعفاً إلى سبعمائة ضعف وجزاء السيئة سيئة مثلها . وجعل العفو درجة أعلى من درجة العقوبة . (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به وإن صبرتم فاصبروا) . وأعطى الشريعة صيغة الالتزام الأخلاقي وأعطى الإنسان حرية الإرادة مرتبطة بالجوارح الأخرى .

(هـ) وقد أثبت الإسلام قدرته على البقاء والاستمرار والتقدم ، فما دخل في أرض وخرج منها ، وما استطاعت الالتزامات أن تقضي عليه أو تجعله ينهار ، وظل محتفظاً بذاتيته الخاصة الواضحة عن غيره من النحل والأديان ، ذلك لأنه قام على أنه دين عبادة ومنهج حياة ، وأنه وضع تعامله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية في صبغ كلية وأصول عامة وأطلق المجتمعات حرية رسم طريقة الحركة والتفاصيل في ضوء متغيرات العصر والبيئة دون الإخلال بالأصول العامة والحدود الثابتة . ولقد ظهر الإسلام المجتمعات التي دخلها ، حررها من الوثنية ورفعها إلى مجال العزة والكرامة والنظافة والطهارة ، يقول أحد الباحثين الغربيين : « متى دخلت قبيلة من القبائل الوثنية في الإسلام اختفت عنها في الحال عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الإنسان وتقديم الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسحر ، وصاروا يرتدون الثياب وحلقت فيهم النظافة ، وشعروا بالمعظمة واحترام النفس وصار كرم الضيف عندهم من الواجبات الدينية وتدرشرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافي للعفة وفوحى اختلاط الجنسين وصار طهارة المرض من الفرائض ، وذهبت البطالة والكسل وحل العمل والمكد عليها وتغلب النظام والرياسة على العشاق وحرم القسوة على الحيوان والعبيد وعظم الشعور بالإنسانية والطف والآنحوة ودخل الرق وتمدد الزوجات تحت قانون يحدد شرعها ويخففه . » وألقى الإسلام التفرقة العنصرية والتعصب ودعا إلى الآنحوة البشرية والمساواة أمام الدولة وأمام الله وعرف الأمة الإسلامية بالأمة الوسط ليس فقط في تقريب الفرد من المجتمع ولا المجتمع من الفرد لحسب وإنما في السلوك الخلق بين الإفراط والتفريط . وتقوم المسئولية في الإسلام على أساس أن الأصل في الإنسان الخير على خلاف ما تقول به أديان أخرى من أن الإنسان خلق خاطئاً وخلاف ما جاءت به التعاليم الهندوكية من أن الإنسان كان في أول أمره دنساً فهو من أجل هذا محمول على أن يتغبط في سلسلة من التمتع بينما يقرر القرآن أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تاماً .

ولقد كان الإسلام منذ اليوم الأول دعوة عالمية للبشرية كلها وآيات القرآن الأول في مكة تشمل هذا ، فهو دعوة خاصة إلى أهل مكة ودعوة عامة للعالمين ؛ وصلة الإسلام بإبراهيم صلة جذرية بدأت مع بدأ الدعوة في مكة ولم تكن بما جاء بعد الهجرة إلى المدينة ، ودليل ذلك أن السور التي تسجل هذا كله مكية نزلت بمكة . وقد قام الإسلام على قاعدة (لا إكراه في الدين) ولذلك فهو لم يقم دعوته على الإكراه أو الفتح ، وإنما أقامها على الحجة والبرهان ولم يتعرض للتصاري واليهود بل حافظ على كياناتهم ومقدساتهم وسمح لهم بممارسة الحياة العامة دون أي نوع من أنواع الضغط أو الإرهاب . ومن أجل هذا طبع الإسلام حياة معتقيه وما زال يطبعها وسيظل يطبعها إلى ألوف السنين ، وإن أي حركة فكرية أو اجتماعية تتجاهل هذه الحقيقة البديهية ، فهي تتجاهل الإطار الطبيعي لحركة الفكر والمجتمع الإسلاميين .

(٥) إن أكبر ما أعطى الإسلام : الفكر والذكر والبيان والعلم في سبيل معرفة الله تبارك وتعالى وآثاره في السكون والإنسان والمجتمع والحياة . لتعرف على نوايس الله في السكون وسنن الله في المجتمعات ، تلك هي أعلى درجات الرشد الفكري الذي دخلت ساحته البشرية بالإسلام . الارتفاع فوق طفولته البشرية بالنظرة السامية ذات الأبعاد التي تربط الأزل بالأبد والدنيا بالآخرة ، وتستمد أول حركتها من نقطة التوحيد ، الخالص التعمد إليه في نهاية الجولة لا تنفك عنه ، ومن هنا كانت معجزة الإسلام هي معجزة بيان وفكر وأصالة . ولذلك جاء القرآن مفجراً في بيانه ومضمونه فدحا إلى الحوار والبرهان والتفكير والنظر في السكون : (قل سجدوا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) .

(٦) وبالجملة فإنه منذ ظهر الإسلام وكل حدث في العالم والبشرية مرتبط به على نحو من الأنحاء فلم يزل منذ ذلك التاريخ عاملاً مؤثراً في الأحداث لأنه قدم للبشرية الدين الأول من جديد وأقام عالماً خالصاً مستقلاً متديناً بنظرته الربانية إلى الحياة وأسلوبه الإنساني في العيش وحضارته القائمة على العدل والإخاء وفكره القائم على التوحيد .

لقد حمل الإسلام إلى البشرية في مرحلة استرشادها : العدل والإخاء والتقدم وأكد المساواة وعدم التفرقة العنصرية وحث على طلب العلم وأكد أن العلم فريضة ، ثم قدم منهاجاً كاملاً تلتقي فيه ظاهيات النفس ومطامعها العالية ويتم به بناء الفرد وبناء الجماعة متكاملين مترابطين دون أن ينقص عن قدر أحد منهما شيئاً . ولقد أعطى الإسلام القائم على التوحيد : أعطى الجماعة الإسلامية شحنة ضخمة من القوة والایمان وحب الاستشهاد والتضحية دفعت المسلمين في أقل من قرن إلى السيطرة على القارتين آسيا وأفريقيا وإلى الامتداد من الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا ، ثم كانت جولة الإسلام في توسعه وامتداده حين دخل أرضاً جديدة في جنوب شرق آسيا وغرب أفريقيا فافتتح قلوباً جديدة فأضاف إلى معتقيه الأول عدداً مضاعفاً ، ولقد كان الإسلام على مدى التاريخ : عامل القوة وعامل المواجهة لكل ما أصاب المسلمين من أخطاء وتحديات وأزمات ، وفي العصر الحديث كان مصدر كل حركات التحرر التي قامت بها

الغروب ، فقد انطلقت النضالات الوطنية كلها من تحت راية لا إله إلا الله والله أكبر وتحت إسم الجهاد في سبيل الله . ومن أبرز قوانين الإسلام وسننه التي لم تتخلف قدرة هذا النظام الفاتكة على تهديد نفسه وإطاعة صياغة فكره كلها انصرف هذا الفكر أو أصابته دخائل تحول بينه وبين جوهره الأصيل ، وبذلك كان دائماً كيئافاً حياً قادراً على الحركة والنمو والامتداد متمكناً من التجدد كلما أصيب أحد أطرافه بعطب . ومن هنا كانت قدرته الفاتكة على التوسع والاستقرار في هتلف البيئات والتكيف مع عديد المجتمعات . ومنذ أن برغ نفسه إلى اليوم لم يتطلب عليه متقلب من الدعوات أو الأمم وإن امتحن أهله بالآزمات والعدايد فكأنوا لا يخرجون منها حتى يعودوا إليه .

واقد كشف الإسلام عن قدرة كاملة على الحركة والنمو والتوليد والاخذ والمطاء . كل ذلك داخل إطاره الثابت الأصيل ومع احتفاظه بذاتيته فهو يراجه للثورات الأجنبية حين تفرض عليه فلا يخضع لها ولكنه يستفيد منها ويتقبل الصالح لنموه دون أن يدها يصطر عليه أو تغير ملامحه أو تحول طريقه أو تحتويه .

لقد جاء الإسلام حاكماً على الأمم والمدينيات ولم يهيء محكوماً فهو ليس مطية ذلولا للحضارة الحديثة وليس خادماً للمجتمعات أو الدعوات والمذاهب بل هو نظام مستقل كامل جامع في مقوماته الأصلية التي قد تنشأ به في بعض مظاهرها مع دعوات أو أديان ، ولكنه في مجموعه لا يخضع ولا يستسلم ولا يخشى . والمسلمون يرون أن كل وسائل الأمم وأدواتها في النهوض والتقدم بمثابة عن (مواد خام) يأخذون منها ما يهائمون دون أن يقهرهم هذا على ممارسة أصل من أصول نظامهم ، وهذه المواد من شأنها أن تنصر في بوتقة الإسلام فلا تنصره وتحول في إطاره ولا تتحول به .

(٧) وفي هذا الضوء الكاشف لهذا الإطار نسط تلك للبهات التي حاول طرحها أهل الكتاب في إطار الاسلام دون أن يتبينوا ذلك . البعد ، الذي امتد به الاسلام عن حدود ما وقفت البشرية قبل نوره . ومن هذا نعرف تلك الصلات بين الاسلام وبين اليهودية والمسيحية وبين كتاب القرآن وبين التوراة والانجيل (الأصليين الموجودين وليس الآن في أيدي الناس) لا ريب أنها صلة المصدر الواحد : الحق تبارك وتعالى الذي أنزل الدين والوحى والنبوات . ولكن : هناك في القرآن شيء يجعله مهيئاً على الكتب وفي الاسلام أشياء تجعله ظاهراً على الدين كله . وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : مثل ومثل الأنبياء من قبل كرجل بنى بيتاً فجعله وحسنه إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فكان الناس يطوفون بالبيت ويمجّدون ويقولون : هذا وحسنه هذه اللبنة . فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين .

الفصل الثاني

كتابة السيرة

كانت سيرة الرسول ﷺ باعتبارها رأس التاريخ الإسلامى هدفاً من أم الأهداف التى ركز عليها الاستشراق والتغريب والتفسير المادى للتاريخ . ولا ريب أن مولد محمد بن عبد الله وبعثه هو من أبرز الأحداث الفاصلة التى غيرت مجرى التاريخ الإنسانى كله ، وكانت علامة على عصر جديد هو عصر الإسلام الذى أزال عصور الجاهلية وأقر الرسالة الخاتمة ، فكان هو خاتم المرسلين وكتابه خاتم الكتب ودينه خاتم الأديان السماوية . ولا ريب أن جهاد النبي في سبيل تثبيت دعائم هذا الدين واحتمال عدوان الكافرين والمنافقين من أقوى المواقف التى لا يستطيع احتمالها إلا الأنبياء المؤيدون بالروح . ولقد قاده قريش رسول الله ثلاثة عشر عاماً وأدانت من المؤمنين وقاطعتهم واضطرتهم إلى حياة قاسية في الغمام وضيق الخناق عليهم ، آذتهم حتى نصرهم الله بالمجرة إلى المدينة بعد أن آمن الأنصار وبايعوا الرسول وأيدوه ، فاستطاع بعد سبع سنوات أن يعود ظافراً إلى مكة ، ومنها كانت له القبائل في الجزيرة كلها حين آمنت بدين الله الحق ، وبايعت رسول الله وأتم الله نعمته ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وتحقق قانون النصر الذى رسمه الله لرسالات السماء : (حتى إذا استبأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أتاهم نصرنا) .

وبذلك برز الإسلام العرب من جاهلية ضالة ضياء ، وأخرج البشرية كلها من الظلمات إلى النور ، فأنشأ الرسول على هذه المبادئ ذلك الجيل المعجوب من الصحابة الذين حلوا راية الإسلام فنشروها في آفاق الأرض في سنوات قليلة فامتد من حدود الصين إلى قلب أوروبا . هذا الأثر الخطير الذى قسم البحر الأبيض المتوسط إلى حضارتين ، وأزال أثر ألف عام من نفوذ اليونان والرومان من هذه الأرض المستعمرة الممتدة من العراق إلى الشام إلى مصر إلى أفريقيا حتى وقف (عقبة بن نافع) ودفع حافر فرسه في المحيط وقال : « رب لو أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لأذهب مجاهداً في سبيلك » . هذا الأثر الخطير هو الذى أثار حول الإسلام ورسوله تلك الحملات الضخمة التى حلها الاستشراق والتبشير سواء أكان مصدرها مقايضة خاطئة على أساس التفسير المادى للتاريخ . أو حقداً وكراهية نتيجة خصومة الكنيسة أو خصومة الغرب الذى كان يعتبر هذه الأرض ملكاً له باحتلال الرومان لها .

ولقد ظل الآثوريون في القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر يتناقلون أسنخف الأساطير عن الإسلام وظل أكثر المستشرقين يقصدون تقوية الحقيقة وطمسها عن الرسول ﷺ وتدنير السمات حول عدد من القضايا أهمها القول بأن القرآن من تأليف محمد وأن الحديث النبوى من صنع

الفتوح الإسلامية ليست إلا مطامع في الغنائم وأن فقر العرب هو الذي دفعهم إلى الخروج لالتماس كنوز اللدائن ودمشق وأن الحجاج والحزبة هما اللذان اضطرا الدمين إلى اعتناق الإسلام وهذا كله زيف لا يثبت أمام الحقائق التاريخية الصحيحة . وهم يزعمون أن الرسول عليه السلام التقى بالراهب بجها وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن مع أن لقاء الرسول مع بجها كان في سن التاسعة أو الثانية عشرة ، ومن الطبيعي أن الطفل في هذه المرحلة المبكرة لا يمكن له بحال أن يستوعب المسائل الدينية فضلا عن أن هذا اللقاء - إن كان صحيحاً قد حدث - وهناك شكوك كثيرة حول صحته لم تستمر إلا ساعة أو بعض ساعة ، وقد كان النبي في صحبة عمه فكيف نسي لبجها أن يفرد بالطفل ليلقنه . كذلك فهناك شبهة القول بأنه تلقى من ورقة بن نوفل مفاهيم المسيحية وورقة بن نوفل لم يدع إلى المسيحية ولكنه هو الذي قال حين سمع بنزول الوحي على محمد ﷺ أنه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم . ولو أن محمداً ﷺ أخذ من ورقة لزوج ذلك أهداؤه من المشركين ولساو خبره ، كذلك فإن القرآن قد كذب ما تردد من أنه تلقى شيئاً من إيفين الرومي الذي كان يصنع السيوف وكان الرسول يتوقف عنده أحياناً ، ولقد دحض القرآن هذا حين قال جل شأنه : : « وأقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر : لسان الذي يلحدون إليه أجمي وهذا لسان عربي مبين » .

وهناك شبهة القول بأن فكرة عموم الرسالة لم تكن في أول أمر الرسالة وإنما جاءت بعد ، وأن هذه الفكرة برهلم كثرة الآيات والأحاديث التي يؤيدها لم يفكر فيها محمد بنفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضاً فإن طاله الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب وأن محمد لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم - هذه الشبهة التي أوردتها (موير) في كتابه عن الخلافة ورددها كثيرون يدحضونها أن الآيات المبكية منذ أول الدعوة حملت فكرة عالمية الإسلام وعموم الرسالة وأن ما جاء في القرآن المبكي كله يثبت أن القرآن جاء مهيمناً على المكتوب السماوية وأن الإسلام إنما جاء ظاهراً على الدين كله . وهناك من المستشرقين من شكك في عام ولادة النبي وقد ادعى هنري لامنس أن ولادة النبي كانت عام ٥٨٠ م خلافاً لجميع الآراء التي تتفق على أنه كان عام ٥٧٠ م .

كما اتصل هذا التشويه ببيت النبي لحاول لامنس أن يرسم صورة مشوهة للسيدة فاطمة الزهراء دون أن يقدم أي مستند تاريخي موثق . وتعرض آخرون إلى زواج الرسول كي ينفذوا إلى الطعن في التعدد وفي شخصية الرسول وإثارة ظلال حول ميوله الجنسية وفاجهم أن الرسول لم يمدد زوجاته إلا بعد الأربعين وأنه إنما فعل ذلك من أجل تهيئة قواعد الدعوة ، وهناك من يحاول أن يستغل حديثاً ضعيفاً وصف فيه النبي بأن قوته تعادل قوة أربعين رجلاً ومنهم من يتحدث عن زواجه بعائشة ويصفها بأنها العروس البكر ومنهم من يتحدث عن زواجه بزَيْنَب بنت جحش ، وكل هذه محاولات تستهدف النيل من الرسول الكريم وتدور حول إعطاء صورة خاطئة تماماً عن شخصية النبي بإيراد أحاديث غيـر ثابتة أو موضوعة . أو عرض شبهات كهـمارة للفرانتيق المـلا التي يدعون أن الرسول رددها واهتمدوا

في ذلك على أقوال باطلة أو إيراد مواضع مشكوك فيها أو الوصول بالنصوص الناقصة والمبتورة إلى وصف الرسول بأنه كان قاسياً أو كان ناقضاً لليهود والمواثيق . وهناك شبهة القول بأن القرآن وما جاء به النبي ما هو إلا مزيج منقلب من معارف وآراء دينية سابقة جاءت بها اليهودية أو المسيحية وأنه تأثر بها ورأى أنها جدرة بأن توقف قومه وأن النبي محمد ما هو إلا واصل مصلح ذكرى استوعب معلومات عصره ولسقها في أسلوب جديد واقد رد القرآن على هذه الشبهات في قوله تبارك وتعالى : (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل نزل به روح القدس من ربك بالحق) . وهناك فرية برنارد لويس المستشرق اليهودي في كتابه « العرب في التاريخ » التي يزعم فيها أن محمداً كان يستقبل في صلاته بيت المقدس استرضاءاً لليهود وبعد ما رفضوا الإيمان به والتعاون معه تحول بصلاته إلى السكينة في مكة .

والمعروف أن الرسول ﷺ كان يصلي إلى بيت المقدس بأمر ربه وأنه كان يقلب وجهه في السماء متطلماً إلى هداية الله تبارك وتعالى لوجهة البيت الحرام وقد استجاب الله له ذلك وأثبت القرآن الحكمة من الأمر فقال تبارك وتعالى : [وما جعلنا القبلة التي كنت عليها (أي قبلة بيت المقدس) إلا لنعلم من يقبض الرسول من ينقلب على عقبيه] . أما القول ببشرية القرآن أي بأنه ليس وحياً إلهياً فهذه من التهم المبطلة التي لم يتوقف القول بها والتي يجتمع عليها المستشرقون النصارى واليهود ولكن اليهود هم الذين يركزون على هذه الفرية ليقولوا بأن قرآن مكة كان مختلفاً عن قرآن المدينة وينسبون أثر ذلك الاختلاف إلى اتصال الرسول بيهود المدينة وهذه كلها هبهات ردودها وسائرهم فيها أمثال الدهكثور طه حسين وغيره . ولا ريب أن المستشرقين إما يعضمون لتفسير المادى الذى ينكر الوحي كلية وإما أنهم يضدرون عن مفهومهم المسيحي في نسبة الكتب المنزلة إلى الخواريين على النحو الذى كتبت به كتبهم .

ويشير العلامة إيتان دينيه في كتابه عن سيرة الرسول إلى هدف المستشرقين من التحريف فيقول : أن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة الرسول لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد ، بل إنما إذا نعمنا لنظر في الآراء الجديدة التي جاء بها هؤلاء المستشرقون فرلسمين وإنهايز وألمان وبلجيكيين فلا نجد إلا خلطاً وخبطاً . . وكذلك نجد أولئك الذين يرون أن محمد ﷺ كان داعية إلى الإصلاح الاجتماعى يهدف إلى تغيير الأوضاع الاقتصادية أو إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء والفقراء المستضعفين لذلك نراه يفرض حرية معينة لمساعدة المحتاجين ويستعمل فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة لضغط المعنوى . وهكذا نجد اختلاف وجهات النظر في رسالة النبي ناتج من تبعية أولئك المستشرقين لمذاهب مختلفة بين النظرية المادية والتفسير الاقتصادى للتاريخ أو تفسير البطولة بالدعوة إلى الإصلاح وتجديد المجتمعات وكل هذا يختلف اختلافاً عميقاً بين ما يقولون وبين ما كان عليه ﷺ .

إن الشيء الذي يجهلونوه هو النبوة والوحى ورسالة السماء، فالنبي ليس بطلا ولا مصلحاً اجتماعياً ولا زهياً وإنما هو رسول الله يختلف في أسلوب دعوته وحياته من كل هذه الصور التي يدور حولها فكر الباحثين الغربيين . ويعجزون عن فهم النبوة وتأييد الله فهم يجهزون عن تفسير القدوة الفائقة التي انتشر بها الإسلام بعد وفاة النبي ولذلك فهم يحاولون أن يفسروا ذلك تفسيراً مادياً ولعلهم يصدر من عجزهم عن فهم المعجزة أو يصدر من حد في ذلك التعبير الخطير الذي لا ينطبق على قوانينهم القاصرة ؛ فيقولون أن العرب كانوا متحضرين وكانوا مستعدين للنهضة ولديهم كل أدواتها فلما جاء محمد قام بهم فقاموا ، وهذا كذب وتضليل تؤكد الحياة الاجتماعية في الجاهلية تماماً وآية ذلك أنهم صاروا الداهي وضيقوا عليه وأساءوا إليه ولم يقبلوا دعوته خلال ثلاثة عشر عاماً كاملة ، واضطروه إلى أن يبحث على أرض أخرى ينشر فيها دعوته .

وجملة دعاوى المستشرقين التي تبطلها الحقائق : قولهم أن القرآن ليس وحياً من الله . وإنما الله الرسول وأن الرسول عاش في فترة مزدهرة من الحضارة في شبه الجزيرة وأن الرسول نقل ما في قرآنه من أهل الكتاب أو تعلمه من الآخرين وكما شبهات مبطلات زائفة دحضتها الوقائع الثابتة والحقائق العلمية ولقد صدق كارليل حين نعى على قومه هذا وقال : « لقد أصبح من العار على كل فرد متمدين في هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمد خداع مزور وقد آن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا . أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة أما أنا فلا أرى مثل هذا الرأي أبداً » .

ويقول محمد كامل عياد : أستطيع أن أقول بأن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد ﷺ بسبب تعصبهم الديني . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فهمهم في فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم في النظرة التاريخية فقد انصرفت جهود الباحثين والكشف عن المنابع والاصول التي انتبست منها الحياة الإسلامية . وهذا يعني أن أحرار المستشرقين على محاولة رد الإسلام إلى الأديان السابقة له قد حججهم عن من معرفة حقيقية . وكانوا في ذلك ظالمين أو متعصبين ، ذلك أن دين الله واحد ولكن الإسلام جاء ليصحح الانحرافات التي اندفعت فيها تفسيراته رؤساء الأديان لأديانهم فخرجوا بها عن الأصول الربانية لها . وهذه الأصول التي جاء الإسلام ليحدثها ويكشف زيف المزيفين للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله . وبالجملة فإن الاستشراق قد عجز عن فهم كلا الأمرين : النبوة والوحى .

(٢) وحين تنتقل إلى كتابة السيرة في الأدب العربي الحديث نجد أن الشبهات التي أثارها الاستشراق الغربي واليهودي والنفس المادي للتاريخ قد ألقيت ظلالاً كثيفة على كتابة السيرة وخاصة فيما كتبه هيكل وطلح حسين وعبد الرحمن الشوقري وفيما ترجم من كتب عن الرسول إلى العربية . أما الدكتور هيكل

فقد بدأ بترجم كتاب محمد لأميل درمنج ، ثم تحول عنه إلى التأليف وقد وجهت إلى الطريقة التي اتخذها محققون من الانتقادات منها أنه أنكر معجزات الرسول فيها هذا القرآن وأول أسرار الرسول ومعراجه ، وحاول أن يدعي أنه وقع في منام الرسول ، وبذلك خالف الأصول الأصيلة السيرة الرسول وجري مع المستشرقين شوطاً وخضع لكثير من مفاهيمهم التي تختلف مع مفاهيم الإسلام الأصيلة . ومنها ما يراه درمنج من تأثر محمد ﷺ بكتب اليهود والنصارى قبل البعثة . ولقد حاول الدكتور هيكل أن يبرر أسلوبه هذا في كتابه السيرة بأنه إنما أراد مخاطبة غير المسلمين أو مخاطبة الذين لم يتصلوا بالثقافة الإسلامية في معاهدنا من المدارس في المعاهد العلمانية وغيرها بدعوى تقريبهم إلى الإسلام ، ولكن الأسلوب الذي اتخذه الدكتور هيكل لم يجد تقبلاً صحيحاً وغلب أسلوب السيرة الأميل الذي يرى في الرسول محمد ﷺ نبياً يوحى إليه ، له شخصيته النبوية الخاصة التي تختلف عن شخصيات المصلحين والأبطال والقادة والزعماء والتي عرفت صفاتها عشرات من المعجزات . ولقد كشف كثير من الباحثين فساد المنهج الذي عرفته الثلاثينات من إنكار المعجزات وتغليب روح العلمانية على السيرة وعلى فهم الإسلام ، وهو أسلوب تورط فيه كثيرون من أمثاله محمد فريد وحمدي ومحمد مصطفى المراغي وتابعه هيكل وكشف عنه شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه موقف العلم والعالم من الله عز وجل . غير أن أسلوب الدكتور هيكل على الرغم من نقصه وقصوره فإنه يختلف عن منهج طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) الذي أعاد فيه إحياء الأساطيليات والأساطير القديمة التي خلص منها علماء المسلمون سيرة الرسول فأعاد إضافتها مرة أخرى إليها . قال هيكل : أخالف طه في اتخاذه النبي وعصره مادة لأدب الأسطورة ، ومن رأي أن لاتتخذ حياة النبي مادة لأدب الأسطورة إنما يتخذ من التاريخ وأفانيسه مادة لهذا الأدب وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والمقائد أثراً ما ، والنبي وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي قلعة من هذه الحياة ومن أعز قلعاتها عليها وأكبرها أثراً . اهل أن هذه الأساطيليات قد أريد بها إقامة (مقبولة إسلامية) لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتفتيك المستعمرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ، وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت في الأدب الأخرى . من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام . ويرى كثير من الباحثين أن ما قاله طه حسين في هامش السيرة لا يبدو ما قاله في كتاب الشعر الجاهلي ولكن بطريقة أكثر مكرراً .

ولا ريب أن أسلوب العلمانية الذي اختطه هيكل وأسلوب السخرية الذي اختطه طه حسين كاف وأسلوب تفسير البطولات الإسلامية بالوراثة التي اختطه العقاد بمثابة المقدمة للبحاولات التي قدمت من بعد لتفسير حياة الرسول تفسيراً مادياً خالصاً على النحو الذي اصططنه عبد الرحمن الشرقاوي . فككتاب محمد رسول الحرية يحاول أن يكتب عن الرسول الكريم على أنه زعيم من زعماء الحرية ولذلك فهو ينكر الوحي إنكاراً تاماً خلال كتابه كله ، فضلاً عن أنه يجرى مجرى طه حسين في التفسير المادي ويحاول أن يصور الرسول على أنه مصلح اجتماعي وأن هدف رسالته اقتصادي يرى إلى إخراج الفقراء

من الفقر وبذلك يتخذ سيرة الرسول تعبيراً للفاهيم الماركسية ، فطه حسين وعبد الرحمن الشرقاوي لا يريان في رسالة الإسلام إلا جانباً واحداً هو أنها ثورة فقراء ، وبذلك تخرجان عن مفهوم الرسالة الجامعة التي لا يمكن أن توصف بأنها ثورة لأنها رسالة خالدة والثورة موقف متصل بعصر أو بيئة في حالة من أحوال التغيير ، وليس الدين آمنوا برسالة محمد م الفقراء وعدم ، وليس الهدف هو معالجة قضية الفقر وحدها . وينظر عبد الرحمن الشرقاوي إلى أمر الإسراء والمعراج على أنه منام ، كما يرى أن لقاء النبي لمجربيل أول مرة في غار حراء هو منام أيضاً . فهو يصور الرحلة إلى السماء التي وقعت بانتقال الرسول من مكة إلى بيت المقدس ومن بيت المقدس إلى السموات الملا على أنها رحلة في المنام وعلى أن الوحي بالرسالة هو أيضاً من الأحلام . وهو حين ينسكركلّة الوحي ينسكركلّة القرآن فلا يذكرها وينسب كل معاني القرآن إلى النبي وينسب قصص القرآن على أنها تجارب للنبي ، وهناك أيضاً محاولات الادعاء بأن النبي كان رجالة وأن ما جاء به كان نتيجة تجاربه لا بوحى من ربه ، وهو يسترسل في ادعاء أن محمداً كان رجالة معنياً بما عند الرومان والفرس ، ولا ريب في فساد هذا الادعاء وكذب القول بأن النبي جاب البلاد العربية شمالاً وجنوباً وأنه كان معنياً بما عند الرومان والفرس ، ولا يوجد ما يدل على ذلك في المصادر الصحيحة . أما ما ترجم من كتب عن الرسول إلى العربية فإننا نأخذ على المترجمين تركهم سوءات الكتاب الغربيين دون دحضها . ومثال ذلك كتاب المستشرق (ر.ف. بودل) الذي ترجمه السحار وفرج تحت اسم (الرسول) فقد نسب بودل إلى النبي ﷺ عبادة الأصنام ووصف النبي بأنه وارث الهاشميين حراس أصنام السكبة وزل قدمه في سيرة النبي وأزواجه الطاهرات وادهى استمداد الرسول من الرهبان في رحلاته البعيدة للتعبد ومن الوعاظ في سوق عكاظ .

وادهى أن النبي تأثر ببجها الراهب وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل وله إدهاءات كثيرة برحلاته النبي إلى الشام واليمن وفلسطين وآسيا وآسيا الصغرى وفارس ، وكلها غير صحيحة . فإن رحلات النبي إلى الشام لم تزد على المرتين أو الثلاث ، وهو لم يجتمع مع بجها إلا في المرة الأولى حيث كان في صحبة عمه أبي طالب وكان في الثالثة عشرة من عمره ، أما بجها فقد اعترف بنبوته النبي ومات قبل البعثة ، أما ورقة فكان موحداً ولم يعرف عنه دهوة إلى النصرانية . وأما قس بن ساعدة فقد كان موحداً مؤمناً بالبعث . أما أمية بن أبي الصلت فقد كان مثل قس في العقيدة ويعلم أن نبياً يبعث من العرب ، ولم يردده عن الإسلام إلا الحسد بعد بعثة النبي .

وهكذا نجد أن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام لم تلى ما هي مدبرة به من دراسة تاريخية أصيلة . في مواجهة تحديات الاستشراق والتفريب والماركسية .

الفصل الثالث

الجهاد والفتح

كان تركيب الاستشراق والقوى التغريبية يستهدف أساساً ضرب القيم الأساسية للإسلام المتمثلة في فريضة الجهاد التي كان لها الطابع المتميز الواضح المختلف عن أساليب الحرب والقتال التي عرفتها البشرية قبل الإسلام : فقد كان (الجهاد الإسلامي) عملاً وقائياً أساساً ولم يكن عملاً عدوانياً ولا حربياً بالمعنى المعروف ، فالمسلمون لم يتحركوا إلى الجهاد إلا عندما وقف العدو في وجه دعوتهم ومنعهم من تبليغها وحال دون مسيحتهم لإذاعة كلمة الله إلى العالمين . هذا المعنى كان وما يزال غير مفهوم تماماً وعلى وجهه الصحيح في دائرة الغرب التي عرفت مفهوم الحرب والقتال على غير هذا النحو . ولذلك كانت أكبر الشبهات التي وجهت إلى تاريخ الإسلام : فرية انتشار الإسلام بالسيوف والدعوى بأن الإسلام استولى على هذه البلاد التي دخلها عن طريق الحرب والقتال ، وهي فرية يرددها بعض الغربيين من المؤرخين في محاولة لإثارة الشبهة حول طبيعة الإسلام وجوهر عملية الفتح التي قادها المسلمون ويستهدفون من ذلك العلمن في الإسلام والتقايل من شأن إندفاعته وإثارة القبار حول أسلوبها الذي يختلف اختلافاً كبيراً عما فعل ملوك أوروبا حين افتحموا بلاد الغال وفرضوا المسيحية بالقوة على أهلها وقتلوا وشنقوا وأسألوا الدماء . لقد كانت حركة التوسع الإسلامي حركة واضحة الدلالة : إنها تستهدف صد القوى المعادية المتسلطة التي تأمرت على الإسلام في الجزيرة العربية وحاولت أن تتجمع لفتك به وهي القوى التي لم تكن إلا مقلطة مكروهة من أهل تلك الأقطار المسيطرة بأساليب القهر والعنف والظلم ، ولذلك فإن قوى الإسلام الفاتحة لم تكن تستهدف أكثر من تحرير هذه الشعوب من ذلك النفوذ الظالم دون أن تفرض على هذه الأمم دين الإسلام بل تركت لها حرية العبادة وأعطتها الفرصة الكاملة وأقامت لها جواً من السلام والرحمة والعدل . ثم كان أسلوب الحكم الإسلامي نفسه في سماحته وعده ورحمته هو الذي دفع هذه الشعوب التي استقبلته بالحماسة والفرحة لأنه خلاصها من الظالمين - دفعها إلى اعتناقه والدخول فيه ، وموقف كتاب الغرب من هذه القضية وغيرها يختلف باختلاف التيارات ، فإن الدول التي استعمرت العالم الإسلامي (الفرنسيين والانهليز والهلنديين) كانوا حريصين عن طريق الاستشراق أن يفضوا من قدر الاسلام وعظمته ليمهدوا لسيطرة نفوذهم ولإخضاع الأجيال الجديدة للإعجاب بمحضارهم والتشكر لعقيدتهم وتاريخهم ، وكان هناك تفسير مسيحي مصدره التبشير وهو مواد للتفسير الاستعماري مرتبط به ، يستهدف الانتفاص من قدر الإسلام حتى لا يجد ذلك في النفس الغربية إعجاباً وتقديراً ، ثم جاء التفسير الماركسي للتاريخ ، وهو تفسير مادي لا يرى في الفتح والجهاد إلا صورة الدافع الاقتصادي الذي جرى عليه في تفسير وقائع التاريخ كله ، ومن ثم فإنه يرى أن المسلمين خرجوا من جريرتهم من أجل الرزق وبجناً وراء الثروة وطمعاً في الغنائم ، وهذا التفسير لم يخدع أحداً ، فقد عرف المنفقون جيماً أن الانتفاص عامل من العوامل المحركة للتاريخ ولكنه ليس

العامل الوحيد وليس العامل الأكبر وأن هناك عوامل أخرى كثيرة حركت التاريخ وكان للإيمان والعقيدة أثرهما الكبير في حركة التاريخ وفي حدوث كثير من التغيرات الضخمة والتحولات الخطيرة البعيدة المدى ، كذلك فإن من يقرأ تاريخ الإسلام ويعرف القليل من هذه العقيدة يعرف أن ذلك التحول الخطير الذي أحدثه الإسلام في سبعين عاماً لا يقاس بالمقاييس المادية وأن المسلمين الذين خرجوا من ديارهم وتركوا أهليهم وذرواتهم وماتوا في سبيل كلمة الله لم يكونوا طلاب غنى أو مال وإنما كانوا يؤمنون بفكرة عميقة امتلكت عليهم أنفسهم فباعوا أنفسهم وأموالهم وقدموا أرواحهم رخيصة من أجل تحقيقها وصاروا الدولتين الكبيرتين في أوج مجدهما وهم الأقل عدداً وجاهةً وما كانوا ينظرون إلى هذا الأسلوب المادي من حساب النفوذ المادي فقد كانوا يؤمنون بأن تأييد الله لهم سوف يجعلهم أكبر من عددهم أضعافاً مضاعفة وأنه سيحقق لهم النصر لأنهم خرجوا في سبيل غاية عليا وفي سبيل إحقاق كلمة الله وتحرير الأمم والشعوب من ظلم الظالمين وإخراج الناس من عبادة الفرد إلى عبادة الواحد القهار . ولقد جاء التفهيم اليهودي للتاريخ أيضاً فكانت وجهة نظره مما لا يقنع العقل المتطلع إلى الحقيقة لأنها أفادت رأياً على الحق والمطعم والتوبيخ للحقائق لإقرار فكرة ليست لها في الفطرة الإنسانية قبلاً ولا في العلم الصحيح مكاناً ، هي فكرة السيطرة العرقية باستملاء للعصر والدعوى باسم شعب الله المختار وتزييف وعد الله لإبراهيم وأمه وقصره على إسرائيل وحده وإنكار إسماعيل وفرعه كله ومن هنا نرى أن التفهيمات الوافدة كلها للتاريخ تحمل أهواء وتسوقها أغراض ، وتقدم شبهات وزيف ونظريات لا تنبت كثيراً أمام الحقيقة . ولقد نجد في كتابات مؤرخي الغرب روح الانصاف الكاملة ، لأن اختلاف العقائد ووجهة الثقافة والغايات من شأنه أن يحول دون اعتناق مفهوم الإسلام وتفهمه الصحيح إلا أقلية من الذين آمنوا بالإسلام نفسه أمثال : محمد أسد وإتيان ديفيه وهيدالكريم جرمانوس ، ومع ذلك فإن هناك جزئية من الانصاف نجدها في قول أرنولد توينين الذي نرى الإكراه في الدعوة الإسلامية وأنكر أسطورة انتشار الإسلام بالسيف حين قال : من الميسور أن تسقط الدعوى التي شاعت بين جوارب العالم المسيحي غلواً في تهسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية ، إذ لم تكن لتتجهد ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف وإنما كان تخبهاً بين الإسلام والجزية وهي الخطة التي استنصحت الخناء لاستنارتها ،

ويعترف أرنولد توينين بأن الإسلام حرم ساحل البحر الأبيض من نفوذ استمر ألف عام قبل الإسلام فأصبح وكان لم يكن . يقول : حرر الإسلام ساحل البحر الأبيض المتوسط من سلطان أغريق روماني مسيحي من سوريا إلى أسبانيا عبر شمال أفريقيا ، وكانت تلك البلدان تحت الحكم الأغريق والروماني نحو ألف من السنين منذ فتح الاسكندر الأكبر الامبراطورية الفارسية وإسقاط الرومانيين لقرطاجنة ، وذلك بين القرن الحادي عشر والسادس عشر قبل الميلاد . وتلك هي القصة التي يلوكمها المختصون في الغرب من كتاب الاستشراق التابع للنفوذ الاستعماري ، أو كتاب التبشير التابعين للكنيسة وهي دعوى باطلة وزائفة حين يقول أحدهم : ورد ما أخذه الإسلام من المسيحية . .
والحق أن المسيحية لم تكن في هذه المناطق وإنما كان هناك النفوذ اليوناني والروماني المختص

السيطر بالظلم والاستبداد على هذه المنطقة التي لم تكن ملكاً له يوماً ، هذه المنطقة القائمة على ساحل البحر المتوسط من سوريا إلى المغرب لم تكن ملكاً للغرب ولا جزءاً من وطنه ، وإنما كانت عربية منذ آلاف السنين قبل الاسلام انداحت عليها موجات الهجرة المتلاحقة التي خرجت من الجزيرة العربية وتوالت والتي كانت بمثابة توسيد للموجة العربية الاسلامية الكبرى التي التقت مع جذورها الفينيقية والفردوسية والآشورية والبابلية والعبرية جميعاً . والحقيقة التاريخية تقرر أن العرب منذ عهد جاهليتهم يرون أن حدود جزيرتهم من الشمال هي جبال طوروس ، ولكن مؤرخي اليونان والرومان حاولوا بعد السيطرة على سوريا أن يجهلوا أحدها مشارف الشام فقدم من جاء بعدهم من العرب والفردوسية التي كتبوا تاريخاً غير منصف ، والمعروف أن مساحة الجزيرة العربية وحدها إلى مشارف الشام كساحة انجلترا ثمانى مرات ، توالت موجاتها بالشام والعراق ، ومنهم السومريون الذين أقاموا حضارة باذخة وهم الذين أنشأوا مخازن حبرب فلسطين بالزفت والتي تعود كما قدر العلماء لـ ١٢٠ ألف عام . أما الذين حلوا في مصر من هذه الموجة فقد حصروا اللغة الهيروغليفية في المعابد والدفاتر الرسمية ونشروا لغتهم بين الشعب قبل أن يعرف الناس اسم سام وحام ثم اتصلوا بالجزيرة الأم بقناة حفرها بين النيل والبحر الأحمر منذ أربعين قرناً ، ومنهم دولة حكمت القسم الشمال من العراق قبل أربعين قرناً ، أما الموجة العربية الثانية فقد اتجهت إلى الشام ومصر والعراق وشمال أفريقيا : كلدانيون وأثوديون وأشوريين وسوريين وسريان وأراميون . وجاءت موجة أخرى بعد سد مأرب نحو الشام ومصر والعراق وشمال أفريقيا ومنها ماذرة العراقي وحسانة الهام وغيرها من القبائل كريمة ومضر وبكر وتغلب ، وحتى أواخر العرة هؤلاء هم الذين واجهوا الاحتلال الروماني ثم الرومي والفارسي والحبشي قبل الاسلام . ولما دخلت الموجة الاسلامية مصر والسودان وشمال أفريقيا وجدت العربية سابقة لها ولكن حين دخلت فارس والهند والصين والتركستان لم تجد جذورها فعاشرت لغة للدولة ثم انسحبت بانسحابها . ولا ريب أن هذا الواقع التاريخي يدعوه تلك الشبهة التي ترددها كثير من كتب التاريخ عن هذه المنطقة التي وقعت تحت النفوذ اليوناني الروماني ألف عام ثم حررها الإسلام بأن أعادها إلى أهلها وإلى طبيعتها الأصلية ، والواقع أن كتب التاريخ التي بين أيدي طلبتنا وشبابنا لا توضح هذه النقطة وتتغافل عن أن تكشف حقيقة الرومان وأنهم كانوا أجانب عن سكان المنطقة التي انتشر فيها الاسلام وأن وجودهم هناك كان استعمارياً غاشياً ، وأن الرومان تأمروا على الدعوة الاسلامية وهي في قلب الجزيرة وحاولوا محاولات متعددة لقتل الرسول ﷺ وتجميع الجموع لاسحق الدولة الصغيرة قبل أن تستكمل قوتها . ومن هنا كان إهداد النبي لبعث أسامة قبل أن يختار الرفيق الأعلى وحشد كبار الصحابة فيه علامة على أهمية هذه الفترة .

وهكذا فإن رومية تركت في أفريقيا آثاراً لا تمحى ، وكان من تلك الآثار أنها تمسكت باللاتينية ستة قرون وأنشأت للكنيسة آباءاً عظاماً - على حد تعبير مجلة الشرق - مثل القديس أوغسطينوس ، ومع ذلك اختلعت فيها كل تلك الآثار الرومانية والمسيحية وبسط الإسلام نفوذه واكتسح ميرات الامبراطورية الرومانية خلال ألف عام في سنوات قليلة وسطر على الهام ومصر

والمنزلة كاه وأصبح البحر الأبيض المتوسط قاصدا حقيقيا بين حضاريتين ودينيتين .

(٢) إن القول بأن المسلمين هاجروا إلى المدينة أو خرجوا من الجزيرة لأن الصحراء مجدبة ، هو دعوى مبطلّة ورأى فاسد ، ذلك أن خروج المسلمين من مكة إلى المدينة حين هاجروا إنما كان عن إرادة حرة ولم يرض على أحد منهم أن يترك ماله ونزواته وآله وداره إلى مصير مجهول في يثرب ، وإنما جاء ذلك بدافع الإيمان العميق الذي ملا هذه النفوس ودفعها إلى التضحية بكل ما تملك في سبيل إعلاء كلمة الله . هؤلاء المؤمنون أنفسهم أصحاب الحجارة هم الذين تدافعوا تحت رايات الجهاد يطلبون إحدى الحسينين : الموت أو النصر من أجل تركيز رايات الإسلام في الأرض وإبلاغ العالمين كلمة التوحيد فلم تكن الغنيمة في تقديرهم في الأولى ولا في الآخرة ، وإنما كانت الفكرة المؤمنة والمقيدة الصاعدة القوية التي هي عامل أساسي في تفسيه التاريخ عجز عنه الذين قالوا بالتفسيه المادى أو التفسيه الاقتصادي أو التفسيه الجغرافي وهو عامل أشد قوة وأعظم أثرا من كل هذه العوامل ، لأنه هو العامل الأصيل في تفسيه أوضاع المجتمعات والذي أعاد رسم خريطة العالم ، وقد هب المسلمون عن هذا المعنى حين قال قائلهم : « احرص على الموت توجب لك الحياة » .

ومن هنا قلب المسلمون موازين التقديرات في الحروب وحققوا النصر بالقلة المؤمنة ذات العدة القليلة على الكثيرة الكاثرة حيث أصبحت فئة قليلة تغلب فئة كبيرة بإذن الله لأنها حيث تقاس قلتها وكثرتها إلى العدة والعدد يهيء عامل الإيمان فيضاهف بجانب القوة العددية فترجيح كفتها ، وفي مختلف المراكز التي عاضها المسلمون كانوا د القوة العددية بالنسبة لأعدائهم ، فقد كانوا في بدر ألفا أمام ثلاثة آلاف ، وفي اليرموك ثلاثة آلاف أمام مائة ألف ، وبهذه الأعداد القليلة انتصر المسلمون على قوى امبراطوريتي الفرس والروم وهي تملك الأعداد الضخمة والإمكانات الفائقة ، ولو كان المسلمون طلاب غنيمة لجهزوا عن أن يقتحموا آفاق الأرض معركة بعد معركة ولتغلبوا بمتاع الدنيا وحرصوا عليها ، ولستكنهم بشهادة التاريخ نفسه تدفقوا دون توقف حتى بلغ قائدهم المحيط الأطلسي وغرس أقدام فرسه في الماء ونظر فلم يجد في الأفق علامة على أرض أخرى فقال : يا رب لو أعلم أن وراء هذا الماء أرضا لحضته بجاهدا في سبيلك ، وصدق عبد الله بن رواحة الذي قال : ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنيما هي إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة . وصدق رسول الله ﷺ الذي رسم هذا الطريق واضحا : الرجل يقاتل للفهم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، والحق أن إيمان المسلمين بفريضة الجهاد هي العامل الأول في حركة انتشار الإسلام وحايته والدفاع عنه ، ولا يمنع هذا من أن هناك عوامل كثيرة تاريخية واقتصادية واجتماعية ومادية كانت وراء أحداث تاريخ الإسلام في مختلف مراحلها غير أن العامل الأول والأكبر ظل هو الإيمان بفريضة الجهاد لنشر الإسلام وحايته والدفاع عنه . ولقد كان الإيمان بأن الموت واجب الحياة هو علة المسلمين في مجال النصر وهو العامل الأول في معاركهم ، وقد كان هو مصدر اليقين في تحقيق النصر ، حيث كانت الغنيمة أو الحرية

حب السيطرة أو غلبة القبيلة أو الدم هي مصدر التحرك عند عدوم وخصمهم . فقد كانت حروب خصوم الاسلام قبل الاسلام وفي مواجته إنما تقوم على الشهوات والأهواء والمطامع يهددها حب المغنم والسلب والنهب وبذلك أوارها حب القدر والانتقام ثم هي تقوم في حركتها على التخريب والتدمير ونقض المهود والمواثيق . ولكن الاسلام جاء ليعلم البشرية كيف يكون الجهاد عملاً في سبيل الله وكيف يكون مأذوناً به حين يحال بين الدعوة وبين انطلاقها وحين يظلم أهلها ويخرجون من ديارهم ثم كان أسلوبه الكريم الرفيع الذي يعلو على الانتقام والتخريب ونقض المهود حيث لا مغنم ولا مجد شخصي للبلوك والقواد . ومن ثم تنفر الحرب في الاسلام إلا في حالتين الفتنين : الوقوف بالقوة المادية في وجه الدعوة السلبية أو الاعتداء على حرية العقيدة وقتلة المسلمين من ربهم أفراداً وجماعات . والهدف هو أن يكون الاسلام دين البشرية لا من طريق الاكراه ولكن من طريق الدعوة . وفي أسلوب الجهاد الاسلامي ومفهومه للحرب يمكن سر الانتصار ويمكن سر ذلك التوسع الذي أذهل فيه المسلمين من دارسى الحضارة والتاريخ نظراً للوقت القصير الذي تم فيه لنصر المأزور للكاسح . فقد كان الهدف ربانياً وحمله اللواء لا مطعم لهم في الدنيا وكانت الحرب غير عدوانية بل دفاعية ، وقد اقتصر على دفع الظلم ورد العدوان والدفاع عن النفس والمال والمرض والأهل والدين .

ولما كانت الحرب من فطرة الناس فقد جذب الاسلام فمكرتها وحصرها في أضيق الحدود .

(٣) كذلك نجد أن الذين ركزوا عن الأسباب الاقتصادية في الفتح الاسلامي كانوا واهمين وكانوا يهدفون إلى التقليل من شأن تلك الانطلاقة القوية المؤمنة أو تفهمها تفسها مادياً منكبين أثر الاسلام نفسه كمعقيدة في بناء هذه النفوس ودفعها إلى الجهاد في سبيل الله وتقديم أرواحهم رخيصة من أجل غاية معنوية عالية . وقد ردد هذا الرأي فيليب حتى في كتابه (تاريخ العرب) وذهب إليه مستشرقون كثيرون منهم كيناني وبيكر ، بل إن توماس أرنولد صاحب كتاب الدعوة الاسلامية الذي عرف بالانصاف لم يستطع أن يستوعب الحقيقة فقال : « ويصير توسع الجيش العربي على أصح تقدير هجرة جماعية نهضة قوية البأس دفعا للجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتحتاج بلاذاً أكثر خصباً كانت ملكا لجهنم أسعد منهم حظاً . ولم يكن هذا في الواقع إلا ترديداً لما قاله رسم لجيوش المسلمين حين قال : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أقم فيه إلا طيق المعاش وشدة الجهد ، ولكن قادة الفتح المسلمين دحضوا مقالته وكشفوا له عن الوجه الحقيقي لآمرهم ، حين قال ربي بن هاجر (إن الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام) ولم يصدق أرنولد حين قال : إن البلاد كانت ملكا لجهنم أسعد حظاً فإن الرومان لم يكونوا في الحقيقة يملكون الأرض ولكنهم كانوا مستعمرين ، بل إن التقدم الاسلامي نحو الشام كان تقدماً في المنطقة العربية الفسائية ولم يتجه إلى ما وراها إلا بعد أن حشدت الامبراطورية الرومانية حشودها لقتال العرب فاضطر المسلمون إلى مواجهة هذه الحشود في اجنادين عام ١٣ هـ .

وكما تأمرت الدولة الرومانية على الحدود الشمالية للجزيرة العربية على النحو الذي دفع النبي إلى موالاة إرسال حملات مؤنة وتبوك وبعث أسامة فإن عمال فارس كانوا يتحضرون لقتال العرب

وسحق انطلاق الإسلام ، فلما انتصر العرب على الفرس اكتفوا بضم العراق العرب ومنع الخليفة عمر جيوشه من دخول إقليم فارس واعتبر الجبال الفاصلة بين العراق وإيران حداً طبيعياً ، ولكن الفرس اخذوا يجمعون جيوشهم لإزالة المسلمين ، وأمام هذا التهديد تقدمت الجيوش ففتحت فارس كلها كما فكت في الجبهة الرومية أمام التهديد الروماني ففتحت الجزيرة وفتحت مصر ، وهذا كله يؤكد أن الفتوح الإسلامية كانت حركة سياسية وحركة اضطرابية اندفع إليها المسلمون بحق حاية النفس وهي حين انتصرت في الحرب لم تستبد بالشعوب وإنما أتاحت لها الحرية الدينية والحكم العادل الذي كانت تفقده ولذلك فإن الشعوب استقبلت الفتح الإسلامي في كل مكان بالفرحة الغامرة لتخليصهم من مظالم الحكم الروماني الظالم والفرسي المستبد ، ويصور بطل في كتابه فتح العرب لمصر جانباً من هذه الحقيقة حين يقول : إن كثيراً من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان فيها من عصيان لأصحابها إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ، ونسيت ذلك في ثورتها وحروبها التي كانت تذهب بين شعبها وأحزابها ، ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا به واستظلوا بوداعته وطمانينته وبساطته . وجماعة أخرى رأوا أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساوونهم بالفاتحين في شرف علمهم وبهمهم إخوانهم في كل شيء ، يسهم لهم في النية ولا يفرض عليهم الجزاء ولا سبياً وقد طعن المقوقس عقيدتهم طعناً وحطهم بقيمتهم باضطهاده .

والمعروف أن الفتح الإسلامي لم يكن في مواجهة أهالي البلاد وإنما كان في مواجهة المحتلين والمستعمرين وهم الدولة الرومانية .

(٣) لقد كان الفتح الإسلامي نموذجاً فريداً ، لم تكن غايته هم البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين وإنما كانت غايته إعلاء كلمة الله ، فسكناً وطناً أرضاً عرضوا على حكومتها وشعبها الإسلام فإن قبلوا به واتيحوا انصرفوا عنهم وعدوهم إخواناً لهم ، فإن لم يقبلوا أعطوهم الحرية في أمور دينهم وتمددوا لهم بالأمن الداخلي والخارجي لم يكرهوا أحداً على الإسلام . ولم يعمد الفاتحون المسلمون إلى إغناء السكان الأصليين أو إجلائهم ، ولا يقيمون المستعمرات أو يضعون الحواجز بينهم وبين سكان المدن التي انتقلوا إليها سكانها المقيمون من قبل والمهاجرون الوافدون إليها سواء في الاعتبار الإنساني أو الحقوق القانونية . كما اتسمت الفتوح الإسلامية بالسرعة الباهرة ، فقد سرت في أقطار آسيا وأفريقيا وأوروبا ومرع الناس إلى الفاتحين من كل جانب يتقبلون نظامهم . ولعل أبلغ عبارة في وصف الفتوح الإسلامية ما قاله الإمام ابن تيمية حين قال : إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ولسكنهم نقلوا الأمم إلى الإسلام ، فهو بذلك يسبق وحده في تاريخ البشر لا يشبهه فتح ولا يدأيه ولا يقاس به ، فقد خرج المسلمون يعلنون كلمة الله وينشرون دينه ويبذلون في سبيل الله دماءهم وأرواحهم ويفارقون من أجله ديارهم وأهلهم ، لا يفتنون علواً في الأرض ولا فساداً ، وهم في فتوحهم لا يفتقدون ولا يثقلون ولا يجهزون على جريح ولا يحاربون امرأة ، ولا يتعرضون لعاجز ولا يمسون معبدأ ولا يحرقون داراً .

والحق أن الأمم لم تعرف فاتحاً أرحم من العرب كما قال جوستاف لوبون حيث لا إكراه في الدين
وحيث من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ذلك كله بعل حريته . ولقد كان الاسلام في فتوحه
وحكمه قائماً على حرية العقيدة بعيداً عن القهر والظلم ، ويصدق في هذا ما أثبتته الديانة محمد عبده حين
قال : لم يمد في تاريخ الفتوح الاسلامية إن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم
العمل على نشره ويقفون مسامح على بث عقائده من غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة
من هدام ومحاكاة في المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان بعد جملة المغلوبين فضلاً وإحساناً
عند ما كان يهدمها الأوربيون ضمة وضعفاً . ولم يظهر في تاريخ الاسلام أفراد متعششون للدماء أمثال
الاسكندر وبهرمون وريثشارد وتابليون وإنما كان أبطال الجهاد الاسلامي رجال رحمة تملأ صدورهم
شوقاً إلى إنقاذ البشرية من الظلم والعبودية والانحلال .

وفي مجال البطولة والحرب كان أعلام المسلمين يتميذون بالبراعة والحنكة على نحو يرتفع ارتفاعاً
كبيراً عن تلك النماذج الغربية التي حاولت مناهج دراسات التاريخ في بلادنا أن تبرزها . وفي هذا
يقول العلامة رفيق العظم . أن من اشتهر في التاريخ ذكره وعظم في عهده أثره هينبال ، بطل قرطاجة
القهر الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم ، فاجتاز لإيهم جبال البرية
بجيوش جرارة وجند كثيف لينازلهم في صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم عن منصات مجدهم ، ومع هذا فإن
هو من موسى بن نصير ومولاه طارق الذين جاءا من أقصى العربية إلى أقصى المغرب ، فدعوا بمالك
هينبال القديرة في أفريقيا الشمالية وقطما بجندهما القليل للبالغ اثني عشر ألف مقاتل مضيق صيته إلى
القارة الأوربية ففتحا مملكة الأندلس وقضيا على دولة القوط بالبحار ، بل ابن هو من عبد الرحمن بن
عبد الله الغافقي ، الذي اقتحم ما وراء البرية على عهد الخليفة الأموي والساح جيهة القليل في أحشاء
المملكة الفراسية حتى بلغ براتو وبرغونيا على مسافة ألف ميل من جبل طارق ، فذهرت منه
سكان الممالك الأوربية واستجاشت لفته وحدته الجنود الفرسانية والكركون والقوط والجرمان
حتى تمكنوا من إرجاع جيشه على أدرجه وأوقفوا تياره الذي كاد يكتسح الممالك الأوربية بقوة مجاهده .
و ابن تابليون الذي طبقت شهرته تاريخية الآفاق وعده الأوربيون من أشهر القواد في العالم لحروب
طويلة أصلام نارها وأذاقهم شدة أوارها ، لم تأت لهولة بفتح جديد أو غير عتيق ، من قتيبة بن مسلم
فاتح السند وتركستان ، أو عبد الملك بن مروان الذي تولى منصب الخلافة وقد تنازعتها أطباع الطامعين
واشرأت إلى التحزب والانقسام أعتاق المسلمين فيأدر إلى تلاقى الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على
الشدايق بيمع النظر والرأي ، فذلل صواب الأمور وأرغم من مخالفه من الناس على الطاعة ، ثم بعد أن
استصحب لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك بحرى السداد والطمانية ، أطلق للجيش الاسلامي هنان
الفتح والغارة ، لجاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين مرفوعة أعلام الظفر واثقة من نصراته
لها وحضرة عاتية بها .

وهكذا نجد أن صفحات البطولة الإسلامية حافلة بما لم تحفل به بطولات الأمم من جهد وإحار قائم على الخلق والسياسة والمقدور والمرحمة وهو ما لم تعرفه بطولات الحرب في كل مكان ، وكانوا في حربهم لا ينفقون العهد ولا يهفرون الدمة ، تنكافأ دماؤهم ويسعى بدمتهم أديانهم ، وقد أزالوا سلطان الجبابرة عن الضعفاء والمساكين ، وآمنوا الناس على ما نعمة أيديهم وما ينافه جدمهم وسعيهم .

الفصل الرابع

الخلاف بين الصحابة

لم يستغل الاستشراق أمراً من أمور التاريخ الإسلامي كما استغل هذه المرحلة التي بدأت في أواخر ولاية عثمان بن عفان وبين ولاية علي ومعاوية ، فقد اتخذت مجالا لبسط عديد من القبهات ، وإثارة معاصر المسلمين بتصوير الموقف على أنه انحصر من أنهاء الخلاف العنيف والصراع العنيف ناسين أو متجاهلين أن هؤلاء الصحابة أبطال هذه المرحلة هم صحابة رسول الله ﷺ ، والذين تفككوا في ظل الدعوة الإسلامية تفكيلا خاصاً ، فكانوا نماذج من الإيمان والبطولة والوفاء ، ومن ثم فلا يمكن أن يقام بهم المؤرخون بمقاييس السياسة ورجال الأحزاب أن يصورونهم على أنهم يصارعون للطامع والأمواء . فضلاً عن أن المسلمين نهوا عن الخوض في شأن هذا الرحيل من الرواه الأول الذين حملوا راية الاسلام وفتحوا بها الآفاق داهين إلى الله ناشرين كلمته في الحافقين ولذلك فإن محاولة الاستشراق في إفساد هذه المرحلة وإثارة القبهات حولها والاعتقاد على بعض النصوص الواقعة أو التي لم تصح إنما كان يستهدف تدمير هذه الصورة الرائعة التي أقامت دولة الاسلام ودفعته إلى حدود الصين شرقاً ، وإلى حدود فرنسا غرباً . ومن يجب أن السكتب التي شاعت في أيدي الطلاب والشباب قد حملت هذه الصورة القسامة وما زالت تحملها ، لأن الذين كتبوا هذه الصفحات كانوا من أولياء الإشراف ودعاة التغريب ، وكان خليقاً بالعرب بعد أن تحررت إرادتهم من النفوذ الاستعماري والاحتلال الأجنبي أن يمداد صياغة تاريخ الاسلام من جديد في ضوء الحقائق الصادقة والوقائع الصحيحة ، وأن تستبعد هذه الروايات السكافبة والشوممة والواقعة . ونحن نعرف أن تاريخ الاسلام لم يبدأ تدوينه إلا في أوائل العصر العباسي ، وهو عصر كان لرجاله موقف من الدولة الأموية التي تربط بالأحداث منذ عهد عثمان رضي الله عنه ، كما أن لما موقفها من حكم علي بن أبي طالب وخلافه مع معاوية .

ولا شك أن صحابة رسول الله ﷺ قد اختلفوا ووقعت بينهم المواقف ، ولكن الأمر كان بفعل عوامل خارجية كثيرة ، أهمها هذه المؤامرة السبئية التي رسمها عبد الله بن سبا ، والتي يجب أن تدرس بتوسع

ويكف عن أبادها الخطيرة، هذه الأبعاد التي امتدت إلى الأمصار الإسلامية وتحركت بعنف في أواخر عصر عثمان وخلال عصر علي وتركته بصيانتها بعد ذلك، وعبد الله بن سبأ يهودي من صنعاء أمه سوداء نظام بالإسلام على عهد عثمان وتنقل في البلاد الإسلامية، وهو رأس المؤامرة التي أدت إلى مقتل عثمان ووقعة الجمل. بل إن ما يليق المؤرخون من تبعات على بعض الصحابة كعلي وطلحة والزبير وعائشة هو بعد التبعات الثانوية، أما أقوى الأسباب التي أرثت الشعب وأهاجت الاضطرابات فهي مؤامرة واسعة منظمة محكمة سهر عليها عبد الله بن سبأ ورجاله وتمهدها في جميع الأقطار حتى أتت ثمرها المر ومزقت وحدة الصف الإسلامي.

ولقد بدأ عبد الله بن سبأ مؤامراته من نقطة خطيرة هي إدخال فكرة الوصية والرجعة إلى الفكر الإسلامي بالقول برجعة محمد ﷺ بعد موته، والوصية لعلي بن أبي طالب، وقد أراد بذلك تسميم العقيدة الإسلامية، فكان يقول: «العجب من زعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع، ومحمد أحق بالرجوع من عيسى». وقوله: «إذا كان ألف نبي ولكل نبي وحى فإن علياً وحى محمد، ومحمد خاتم الأوصياء» (تاريخ الطبري ج ٢). وقد رحل بهذه الأفكار إلى الحجاز والبصرة والكوفة ودمشق ومصر يثبها وينشرها ويجمع حوله الاتباع، وقد بع دعاته في كل مكان، وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والظلم في الأمراء. ومضى رجاله يثيرون الناس على ولائهم تنفيذاً لحطة زعيمهم ويضعون كتباً في عيوب الأمراء ويرسلونها إلى غير مصر من الأمصار، وقد نتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين بتحرير بعض السبئيين وقدومهم إلى المدينة وحصارهم عثمان في داره. وكان ابن سبأ يقول: «إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وحى رسول الله فانهضوا في هذا الأمر لحراره وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعهم إلى هذا الأمر». وأتت حركة عبد الله بن سبأ نتائجها فشغلت القوى الإسلامية بعضها ببعض وحالت بينها وبين العمل لنشر الإسلام.

ولما سقط الخليفة عثمان وضع الناس من هول الفاجعة بدأ حلقة أخرى لينجوها هو ومن معه من القصاص ثم يتحضر لإحكام مؤامرة أكبر، وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر إلى جانبها كارثة مقتل عثمان، فانضم هو ومن تابعه إلى علي بن أبي طالب حين خرجت السيدة عائشة المطالبة بدم عثمان. ولما علموا بأن المسلمين قد تصالحوا على حل الأمور سلباً وإجراء الصلح، وإن رؤساء الجيش أخذوا يتماحمون وأنهم إن تم ذلك سيأخذون بدم عثمان، أجمعوا أمرهم لئلا فوزوها أنفسهم واندسوا بين الجيش ونثروا الحرب بكرة دون علم غيرهم واستطاعوا أن ينفذوا هذا القرار قبل أن يبدأ الجيشان المتقابلان فتاروش المندسون من السبئيين في جيش علي من كان بإزائهم من جيش البصرة، ففرح الجيشان وفرح رؤسائهما وظن كل بمخيمه شراً ووقعت الحرب.

وقد سجل الطبري هذه المؤامرة (ج ٢)، فنقل عن ابن السوداء قوله: «إن هركم في خاطرة الناس فسانعهم إذا التقى الناس غداً، فانشبوا القتال ولا تفرغهم للفرار، فإذا من أتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويقتل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما يكرهون فابصروا الرأي وتفرقوا عليه

والناس لا يشعرون ، . . ومن راجع أخبار موقعة الجبل في تاريخ ابن الأثير ترى مبلغ تأثير إفساد السبئين لذات البين والحيلولة دون وقوع الصاح . وهكذا خرج مضربهم إلى مضربهم ، وربيعهم إلى ربيعهم وبنائهم إلى بنائهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فنار أهل البصرة ونار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين يقتوم وحيثهم الصدمة ، وخرج طلحة والزبير فسألا : ما هذا ؟ قالوا : طرقتنا أهل الكوفة ليلاً فقالوا : قد علمنا أن هلياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمه وأنه لن يطاوعنا ، واستطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى هسكهم . وقال علي : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكوا الدماء ويستحلوا الحرمه . واتجهم الناس بعضهم ببعض ، وبدأت المعركة وانحسرت عن خمسة عشر ألف من القتل وما لا يحصى من الجرحى ، وكان من قتل رؤوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين .

ولما قتل عثمان انضم ابن سبأ ورجاله إلى علي ، فلما انكشف له أمرهم نظام إلى المدائن . وكان لابن سبأ مساجلات أثار فيها القذبات مع أبو ذر وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ، ولكن كثيراً منهم كشفوا زيفه ومؤامراته . ومع هذه الآثار الضخمة حاول الاستقرار ودعاة التغريب التنازل من شأن عبد الله بن سبأ ، بل ذهب البعض إلى إنكاره تماماً ، وقد ردد الدكتور طه حسين هذه المعاني بينما تكشف الوثائق التاريخية أن ابن سبأ ورجاله كانوا يعملون لحساب دولة أجنبية هي دولة الروم (سعيد الأفغاني : الرسالة ١٩٤٥) . وهكذا نجد أن تاريخ هذه المرحلة لم تكتب بعد كتابة علمية صحيحة ، بعيداً عن كل العوامل التي أثرت في المؤرخين القدامى ، على النحو الذي صور الخلاف بين الصحابة على أنه أشبه بمؤمرات ومناورات رجال الحكم الحديث بينما لم يكن صحابة رسول الله إلا مثلاً هالياً للخلق والنبل والفضل . ويشهد السيد محب الدين الخطيب ومن قبله القاضي بن العربي في كتابه : العواصم من القواصم إلى أن الذين تصدوا لتدوين تاريخ الإسلام في هذه المرحلة ثلاث طوائف :

(الأولى) تشدد الميث والجدد من التقرب إلى مبغضي بني أمية .

(الثانية) طائفة ظنت أن التدين لا يتم ولا يكون التقرب إلى الله إلا بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً .

(الثالثة) طائفة من أهل الإنصاف والدين (كالأطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير) رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الأخبارين من كل المذاهب والمشارب .

وقد وصلت إلينا هذه المركة لا على أنها تاريخ بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث نستخرج منها تاريخنا وهذا يمكن ميسور . ويقول السيد محب الدين الخطيب : إن أحداث المائة الأولى من عصور الإسلام كانت من معجزات التاريخ ، والعمل الذي عمله أهل المائة الأولى لم تعمل مثله أمة الرومان ، ولا أمة اليونان قبلها ، ولا أمة من أمم الأرض بعدها ، أما أبو بكر وعمر وسائر الخلفاء الأربعة الراشدين وإخوانهم من العشرة المبشرين بالجنة وطبقتهم من أصحاب رسول الله ﷺ خصوصاً الذين لازموا ورأبوا وتمعوا بهميل محبته - من أنفق منهم من قبل الفتح وقائل والذين أنفقوا من

بعد وقالوا - فإنهم جميعاً كانوا شيوخاً طلعت في سماء الإسلام مرة ولا تطمع الإسلام أن تطلع في سماتها شيوخ من طرازهم مرة أخرى إلا إذا هزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الإسلام ، وإذا بدأ المشتغلون بتاريخ الإسلام من أفاضل المسلمين في تمييز الأصيل من الدخيل من سير هؤلاء الأفاضل العظام فإنهم ستأخذهم الدهشة لما اخترعه إخوان أبي أولوة وتلاميذ عبد الله بن سبأ والمجوس الذين هجروا عن مقاومة الإسلام وجهاً لوجه في قتال شريف فادعوا الإسلام كذباً ودخلوا قلعه مع جنوده خلسة وقالوهم بسلاح النقية ، بعد أن حولوا مدلولها إلى التناق ، فأدخلوا في الإسلام ما ليس منه ، والصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها ولا من حجة أهلها .

ولقد كان الصحابة أسمى أخلاقاً وأصدق إخلاصاً لله وترفعاً عن خسائس الدنيا من أن يختلفوا للدنيا ولكن كان في عصرهم من الأيدي الخبيثة التي هملت على إجهاد الخلاف وتوسيعه مثل الأيدي الخبيثة التي جاءت فيما بعد فصورت الوقائع بغير صورتها . ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ هم قدوتنا في ديننا وهم حلة الكتاب الإلهي والسنة المحمدية إلى الذين حلوا عنهم أماناتها حتى وصلت إلينا ، فإن من حق هذه الأمانات على أمثالنا أن يدركنا عن سيرة حفظتها الأولين كل ما ألصق بهم من إفك ظلم وعدواناً لتسكون صورتهم التي تعرض على أنظار الناس هي النقية الصادقة التي كانوا عليها ، فتحسن القدرة بهم وتطمئن النفوس إلى الخير الذي ساقه الله للبشر على أيديهم . وقد اعتبر في التشريع الإسلامي أن العظم فيهم طعن في الدين الذي هم رواة ونفوسهم سيرة تشويه الأمانة التي حلوها وتشكيك في جميع الأسس التي قام عليها كيان التشريع في هذه الأمة الخفيفة السمحة ، وأوله نتائج حرام شهاب الجبل وكل جيل بعده من القدوة الصالحة التي من الله بها على المسلمين ليتأسوا بها لبواصلها حل أمانات الإسلام على آثارها ، ولا يكون ذلك إلا إذا ألوا بحسناتهم وعرفوا كريم بهاياتهم وأدركوا أن الدين شوهوا تلك الحسنات وصوروا تلك العجايا بغير صورتها إنما أرادوا أن يسيثوا إلى الإسلام نفسه بالإساءة إلى أهل الأولين .

ويدعو السيد محب الدين الخطيب إلى اليقظة إزاء هذه الدسيسة التي دسها عليهم أعداء الصحابة ومبغضوهم ليتخذوها نموذجاً لأمثالها من الدسائس . وعلى المؤرخين أن يتفرغوا لدراسة حقيقة التاريخ الإسلامي واكتشاف الصفات النبيلة في رجاله فيملأوا أن الله عز وجل قد كافأهم عليها بالمعجزات التي تمت على أيديهم وأيادي أعيانهم من أحداث أعظم انقلاب عرفه تاريخ الإسلام ؛ ولو كان الصحابة والتابعون بالصورة التي صورهم بها أعداؤهم ومبغضوهم لكان من غير المعقول أن تم على أيديهم تلك الفتوح وأن تستجيب لدعوتهم الأمم بالدخول في دين الله أفواجاً .

ويقول الأستاذ صادق هرجون : وإن العصر الذي دونت فيه أقدم مصادر التاريخ الإسلامي المتداولة بين يدي الناس لا بد من الغرض المائل عن جانب الحق في طريق إثبات الوقائع ولا سيما في هذه المرحلة التي اعتبرتها السياسة مبدأ للسلطان الأموي ، وقد كان هذا السلطان أيضاً أشد البغض إلى

خلافتهم على ملك الاسلام من العباسيين ، وفي ظل العباسيين وظل سلطانهم دون ما أدركنا من مصادر التاريخ الاسلامي . . . وهكذا نعرف اتجاه الريح ، ونضع أيدينا على مصادر الخطر ، فلاستغراق من طريق مدرسة من كتاب تاريخ الاسلام في خلال عصر الاستعمار وما بعده كانت تهدف إلى تزيف التاريخ الاسلامي في أعظم صفحات قوله ، وهي تصوير الصحابة في صورة قاسية من صور الخلاف بل والصراع بينما أن الأمر لم يكن كذلك وأن الروايات التي اعتمد عليها المؤرخون واهية وقصة ومبتورة فضلا عن أن العوامل الخارجية منكورة ومحجوبة ومطمون فيها بالثك . وليس معنى هذا ادعاء العصمة للصحابة ، فالمسلمون لا يعتقدون بعصمة أحد بعد رسول الله ﷺ وكل من ادعى العصمة لأحد بعد رسول الله فهو كاذب ، ولكن نحن نؤمن بأن هذه الجماعة من الصحابة هم أعظم أهل الاسلام امتيازاً فقد تروا في مدرسة رسول الله ﷺ وما صدر بينهم من خلاف هو من طبيعة الأمور ولكنه لا يصل إلى هذه الصورة القاسية التي تصورها كتب التاريخ محاولة استغلال بعض الوقائع لتجسيم الأحداث وتضخيمها وإعطائها صورة مزورة .

(٢) ولقد كان الدكتور طه حسين قد تزعم هذه المحاولة لينقلها من مجال التعليم إلى مجال الثقافة لحاول الادعاء بأن القرن الثاني الهجري قرن شك ورجون . وقد كانت المادة التي اعتمد عليها الدكتور طه مجموعة من شعر شعراء متعطلين منبوذين من المجتمع بينما ترك آفاقاً واسعة من أعمال العلماء والفقهاء والأدباء دون أن يدخلها في حكمه المبتور . وقد واجه العلامة رفيق العظم هذه المحاولة في تصويبه للتاريخ الاسلامي اعتياداً على القصاص والرواة . فقال في معارضته اتجاه طه حسين : « إن المقدمات التي استخرج منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة لأول وهلة لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناذليها وهم معروفون مشهورون في التاريخ ولكن هذا وحده لا يكفي لمثل هذا الاستنتاج ولا تنفي عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء .

ويقول العلامة رفيق العظم : « إن الأخبار الصحيحة للتاريخ الاسلامي هي أشبه بالدر الملقى بين أشواك تحتاج من يستطيع استخراجها من تلك الأشواك إلى أناة وروية ونظر في وجوه السلامة من أذى الشك ، وقد عانى رواة الحديث ونقله الأخبار النبوية من تمحيص تلك الأخبار وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وإن كان فيه مساس بالدين وتصويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة وانتمائها إلى صاحب الشرع ، فبالك بأخبار الخلفاء ووقائع الأخبار وأخبار الناس . وتحدث عما ورد من أخبار التنازع بين الشيع المذهبية والسياسية في عصور الحقبة التي مرت على المسلمين وما كتبه القصاصون فقال : « نقرأ في كتب التاريخ أخباراً نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية وأخبار نسبها شيع آل علي إلى خلفاء بني العباس وهي أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سجون ما شئت كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك . وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيادة في المنزل التي أنزلهم إليها الوهاعون ويدوم لهم

طويلاً ذلك الملك العربي والشهرة الدائمة في التاريخ ، وتقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب الفصاحين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب ، فلما سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة المصور الإسلامية الأولى التي اعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد ثم يصل العلامة رفيق العظيم إلى مقطع الأمر في ذلك الركام الذي يعتمد عليه المستشرقون ودعاة التعريب في رسم تاريخ زائف للمسلمين في هذا العصر الأول فيقول الحقيقة التي ينبغي أن نقول : إن التنازع السياسي بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست منه في شيء وإنما هي من وضع المتزافين لبيوت الإمارة أو الملك أو المقيمين لبعض المذاهب السياسية والدينية . ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة لم يكن في إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر في التاريخ وصحة بحثه في طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعاتها شأن كل مؤرخ بحاله لا ياتي الكلام على هواه ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوفى وأصدق كلاماً من أبي نواس وأمثاله من المجهولين . هذا إذا صحت أخبار الجون المنسوبة إلى هؤلاء . ويفرق العلامة رفيق العظيم بين كتب التاريخ وكتب الفصاحين فتقول : أما القصص أو كتب الفصاحين فلها شأن آخر لأن واضعها إما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو أدبية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع ، أما البواعث السياسية والدينية فهي منع العامة من الخوض في سياسة الخلفاء والحكام والخوض في أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن أو من للعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأما كمن اللو العامة ، ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ وهم بالضرورة في حاجة إلى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم في مجتمعاتهم تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجر في كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما نقرأ في أخبار أهل السنة والهيبة في بغداد عاصمة الملك والخلافة وكانت هذه المنازعات والفتن تفضي أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة الذي يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه بلا علم ينفع أو فهم يودع . فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء في وسيلة من وسائل لشغل العامة عن الخوض في مثل تلك الأفكار .

وقد أخذ المستشرقون كتب القصص واعتمدوها في كتب لتاريخ الإسلام وأغضوا العين عن كتب التاريخ وجاراهم الجماعة فأخذ بعض الأذكياء في وضع قصص تتلى في المجتمعات فيلهم بها العامة عن الأخبار المثيرة للمواطف أو الأحقاد فكان منها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع في كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات كفتوح الشام وفتوح مصر وفتوح اليمن المنسوبة إلى الوافدي وهي ليست له ، وكتاب قصة هنتر العيسى وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وكتابها مجهول أيضاً ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك ، ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار - وأصبحت ضرورية من ضرورات الحياة لأن منها نوعاً من التلهي

وترويح النفس - تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووصفها تارة بمجوعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والسكران وغير ذلك فكان فيها الفث والسمين ، ومنها الملقق والفريب من الصحة ، وقد خال بعض الأخباريين في إيراد أخبار المجنون والتهتك والافتلاس في الشهوات مبالاة تمكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب الذي أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم لسبب كبير يتناقى ما ينسب إليهم من أطراح رداء الحشمة والارومة . ووصل العلامة رفيق العظم إلى الغاية فقال : إن ما نسب إلى أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، وما يفضى إلى القول بأنه عصر شك ومجون هو تلفيق قصص يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ولما سد نهما من العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة على أنه لو صح شيء منه لما كان لنا أن نتخذة دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر لأنه مجنون لا يجوز أن يتعدى الماخذ منها تطاول إلى النيل من سواء باسم المجنون .

وإذا قرأت هذه القصص فإنما لأن فيها فكاهة وترويحاً للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لا هزل وعصر نهضة علمية بلغت أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة في عشرات السنين . والواقع أنه لا يمكن الحكم على العصر الثاني للهجرة عن طريق المجان والشكك فيه أو الأدباء والشعراء وهم قلة معزولة لا تمثل المجتمع الاسلامي تمثيلاً صحيحاً وإنما يحكم على المجتمع عن طريق العناصر الإيجابية منه والمنفعة والمصلحة ، وفي العصر الثاني للهجرة يوجد عدد ضخم من الفقهاء والمحدثين والزهاد على مرتبة عظيمة من الايمان واليقين ، منهم الحسن البصري وعمر بن عبد وعبد بن محمد بن إدريس القافسي ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأي وابن سديد والشمسي ، فكيف يمكن تجاهل آثار هؤلاء في هذا العصر فيجبون حجباً تاماً عن موازين التقدير إزاء طائفة من الشعراء المجان ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء الشعراء من أهل المجنون والفحش مراة لهذا العصر بينما يجب أهل العلم والفضل والرأى الذين أقاموا صرح الحضارة الاسلامية .

(٤) كذلك فإن الاستشراق والتبشير وحركة الغزو الثقافي والغريب قد عرست على البحث عن وجوه الخلاف ونقاط الضعف والروايات الضعيفة حول الشبهات والعمل على إعلائها وإذاعتها ، بل ذهب هذه القوى التي سيطرت على كتابة تاريخ الإسلام ونقده في العصر الحديث على ما يسميه الدكتور الشكمة : تعجيد الفئات التي تمردت على الشرعية أثناء مسيرة التاريخ الإسلامي وخلع صفات البطولة عليهم مثل الاهتمام بالفررد الذي قام به بابك الخرمي أو الفوضى التي أثارها الزنج أو التخريب الذي انتهجه القرامطة . ويقول : إن بعض الاوساط أصدرت كتباً تدخل من خلالها في روح الناشئة أن جماعة القرامطة جماعة اسلامية مصلحة استهدفت إشاعة العدل الاجتماعي بين الناس وفي الوقت الذي يقول وقائع التاريخ أن القرامطة هم المصابيات التي أسالت دماء المسلمين أنهاراً وقناعت الذماء والديوخ والاطفال واستباحات الاغراض والمحارم وماجت مكة في موسم الحج وسرفت الحجر الأسود وطمست بشر زمزم بجثث حجاج بيت الله .

(٥) بل إن الدكتور أحد شاي يذهب إلى أبعد من ذلك فيرى أن الاستشراق هو الذي وضع ذلك الأسلوب المسموم الذي تسير عليه كتابة تاريخ الإسلام حتى اليوم . يقول : إن للمستشرقين وضمو الأسس الحديثة لكتابة تاريخنا الإسلامي وتاريخنا الوطني ، وكانوا ملتزمين بما يفهم وما يفهمهم كان في الغالب يصيبنا بالضرر ، وقد لام مرشحو هذا الاتجاه عند الغربيين في كتابه (علم التاريخ) حيث يقول : قلنا كان التاريخ يدرس لذاته بمعنى أنه كان يدرس ويستغل لتأييد ما هو أجنبي عنه من الصوالم السياسية أو الدينية لا ابتغاء الوصول إلى الحقيقة في أحداث الماضي الخطيرة من حيث علمها ووضعها ونتائجها . ويقول الدكتور شاي : اتجه أكثر المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي لإتجاهها بشئ الفتنة بين المسلمين ويضعف كيانهم ويصور لهم تراثهم تصويراً تشمئز منه النفوس فأسرفوا في تصوير الصراع بين بني أمية والشيعة لتغفل عن تاريخ الأمويين لأن به رجالاً يمكن الافتخار بهم وماجوا تاريخ الأتراك العثمانيين ولم يدهو من وسيلة للحط منهم إلا أقدموا عليها ، وقدموا أسوأ صورة لإسماعيل وعمران واتخذوا بهذا وسرنا فيه إلى أبعد مدى .

(٧) ويذهب المستشرقين في النظر إلى وقائع التاريخ الإسلامي مذاهب شتى كلها عبارة وخصوصاً ، فمنهم من يصور الدولة الأموية بصورة مظلمة فاقمة حتى يحفي دورها الذي قامت به في نشر رسالة الإسلام وتركيز دعائمه ، ومنهم من يمدح الدولة الأموية لأن بني أمية كانوا خصوصاً للرسول ومن هؤلاء لأمس الذي اهتم بنى أمية في سوريا ، جامعاً بين رفع شأنهم وبين عدائه للرسول والإسلام قلائد أمويين عنده أحفاد أ ، سفيان الذي حل لواء المعارضة في وجه الإسلام وقاد الجيوش لحربه ، وهو يرى أن خلافة معاوية نصر معنوي للامة السورية على الإسلام كقوة قهرت سوريا ، وأن معاوية التي اعتمد القبائل السورية في حكمه كان يمدح صرح السيادة السورية السابقة لأن هذه القبائل هي بقايا الفساسنة النصارى وحلفائهم . وهكذا نجد أن خطة الاستشراق في دراسة تاريخ الاسلام تقوم على التآمر والهدس والكيد وقاب الحقائق وتزييف الصعائم والتركيز على الجوانب السلبية وإهمال الجوانب الإيجابية ، وهم يهدفون من ذلك إلى الانتقاص من شأن الإسلام وأن يضموه في الظل ولا يبرزوه إلى النور حتى لا يكثر معتقوه ، وكذلك نجد محاولة الاثريين في البحث عن الآثار في المصور السابقة للإسلام فهم إنما يقصدوا من ذلك إثارة الشبهة بأن الحضارات السابقة للإسلام كالرومانية والحيثية والآشورية كانت أعظم من حضارة الإسلام . ويركزون على التقليل من شأن الإسلام وتوسيعه ويرون الظروف والأوضاع التي حققت للإسلام هذا الانتشار السريع الواسع ، ويهدون الشبهات حول فقر الجزيرة العربية ويهدون أن المسلمين خرجوا منها بحثاً وراء الرزق ودخلوا الحروب طلباً للثنام . وهناك محاولة للتقليل من قدر الصحابة والجرأة في الحديث عنهم وانتقاص قدرهم وفتح طريق الهجوم على شخصياتهم على نحو يضمهم في صفوف رجال السياسة في العصر الحديث . وقد حمل الدكتور طه هذه المحاولة في كتابه الفتنة الكبرى في محاولة لتعميق الحقائق التي وقعت على نحو يقتل من أقدارهم في نظر القارئ المسلم ، وكان طه حسين هو أول من فتح هذا الباب أمام الكتاب الذين جاءوا من بعده في نفس الوقت الذي لم يكن فيه طه حسين من المؤرخين أو حائراً على صفة رجال التاريخ .

وفي الوقت الذي يقدر فيه طه حسين تاريخ اليونان والرومان ويقدمه في أسلوب من الإعجاب والتقدير نجده ينكر ذلك بالنسبة للتاريخ الإسلامي ويدعو إلى إلغاء صفة التقدير عن الصحابة ويدعو إلى النظر إليهم نظره إلى أي أناس ونحن لا نقدر الصحابة ولكن نضعهم في مكانهم الصحيح من الرسول ومن السابقة ومن تاريخ الإسلام ومن بطولات الفتح وبناء الدولة ، وبذلك لا يمكن أن تجعلهم في صف ساسة الدول في العصر الحديث ، ولا يعقل أن يكون مصدر خلافهم حراع على سلطة أو مطمح أو ملك أو هوى . وفرق بين التقدير مع النقد وبين المطمح الذي يحمل لواءه قلم الدكتور طه حسين وهو الاحتقار ونسبة الصغار إلى هذا الرميل الكريم نعت اسم النقد العلوي بينما هو يصدر عن هوى الاستشراق والاستهراق اليهودي أساساً الذي يطمح إلى تدمير تلك الشخصيات التي أفسحت للإسلام طريقاً إلى القوة والتوسع وهو ما يملأ قلوبهم بالحقد والكراهية .

وهناك من المستشرقين من يعمل من شأن كتب معينة ويتخذها مراجع كالأخاني ، وهو كتاب طو أو كتب المظاهرات ، أو ما جمعه الرواة ، كذلك فقد اتسكا السكتهون على كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة وقد كدفت المراجعات على أن نسبته إلى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ لم تصح وتبين أن كتاب الإمامة والسياسة مشحون بالجهل والغباء كما يقول السيد محب الدين الخطيب والكذب والتزوير . كذلك فإن هذا الأسلوب الاستشراقي والتفريبي في تصيد المغفوات الصغيرة والأحداث المحدودة ذات الروايات المكسوك فيها والتي لم ترق أو يجمع عليها المؤرخون في تاريخ طويل عريض كتاريخ الإسلام اتسمت آفاقه أربعة عشر قرناً وأقام ١٧٨ دولة وشمل أمماً متعددة منها العرب والفرس والترك والهند والديلم ، لا يمكن أن تكون ذات حساب أو أهمية ، وليس هناك كمال بشري مطلق ولا بد أن توجد هنات ، ولكن العبرة بأن هذه الهنات قليلة ويسيرة وأن الأمم المختلفة قد عرفت هذه الأمواء البهريّة التي تجد طريقها في مجال الحكم والسلطان ، غير أن العبرة بأن تكون النظرة بريئة وعاجزة وبعيدة عن الحقد أو التعصب أو القناس الغيب للبراء ، ولا ريب أن النظرة العامة المنصفة الصادقة تكشف عن أن تاريخ الإسلام تاريخ كله بطولة وسماحة وكرامة وجهاد في سبيل المثل الأعلى وأنه بمثابة نموذج طيب كريم لم تعرفه الأمم الأخرى .

كذلك فإن كتاب المسلمين المنصفين قد تعاهدوا اجتناب الخوض في الفتن التي تثار ثارها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين . هذا الاتجاه الذي عليه مؤرخو الإسلام بأن لا يعرضوا بما يسمى إلى بعض الصحابة أو يصفهم بما لا يناسب قدرهم تقديراً لكلمة الرسول عليه السلام منه حين قال : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وما أثره عليه الصلاة والسلام من كراهية انتقاصهم ، وهو الخط الذي سار عليه أكثر المؤرخين المسلمين . وقد أشار الدكتور أحمد شلبي إلى هذا المعنى حين قال : « إن على المؤرخ المسلم أن يرهى الدين والوطن في فلسفة التاريخ ، فإذا تحدث عن حروب الصحابة غيرها بدون إدانة ذاكرة وجهات النظر التي لا تخرج أحداً ولا تقوض تراثاً ، وأن يتعاشى الغموات التي تضر الوطن والدين . وقال : « إنى وإن كنت عرض على اجتناب الخوض في الفتن التي تثار ثارها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم جميعاً ،

لم أبدأ من إيراد ذكرهم مع الخلفين السابقين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأنهما جميعاً من دعاتهم الإسلام التي قامت على صروحه وأعضاء الدين الذين بان بهم صريحه ، فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يدلن بذكره من هذه الفتن أثر في النفس إلا ما كان فيه حجة بالغة يجرى بها العلم أو حكمة زائفة يحتاج إليها العاقل ويتعظ بها الجاهل .

ولا ريب أن طه حسين وجرجي زيدان قد أساء الفهم وزلا وتورطا في الخطأ حين وصفا القرن الثاني بأنه عصر إلحاد ومجون معتمدين على كتاب زائف لا يصلح مرجعاً تاريخياً أو علمياً وهو الأغاني للأصفهاني الذي لم يرسم إلا لوحة خلق مادتها من الكذب والتقية وصاغ مبادئها من الضلال والبهتان . ومكنا نهد من هذا العرض ما يلي :

(أولاً) أن تاريخ الإسلام كتب في العصر العباسي حيث كان الخلاف بين أصحاب الدولة الجديدة وبين الأمويين ولهم صلتهم بالخليفة عثمان وموقفه من الخلاف بين علي ومعاوية وكان بعض المؤرخون يسترضون الدول .

(ثانياً) إن بعض المستشرقين أعجب بتاريخ بنى أمية وكتب عنها على نحو من إبراز المحاسن بحجة أن هؤلاء أحفاد أبو سفيان الذي عرف بالخصومة مع النبي كما فعل لامنس وغيره ، وهؤلاء كانوا يرون أن تاريخ الشام هو تاريخ السريان القديم وتاريخ الدولة الرومانية وتاريخ النصارى حتى أن مؤرخاً مثل أدنولد توينبي لا يعترف بحضارة إسلامية في الشام ، ولكن يرى أن المجتمع السرياني نفسه الذي كان قائماً من قبل ما زال قائماً وإن تغيرت مظاهره ، وإن تاريخ الإسلام بكل معطياته وما أحدثه من تغيرات ليس إلا امتداد بثابة للعصر السرياني .

(ثالثاً) إن بعض المؤرخين أمثال جرجي زيدان عجز أن يهاجم الإسلام في عصر النبي والعصر العباسي فجعل حملته على الإسلام مركزة على عصر بنى أمية .

(رابعاً) أعطيت مسألة الموالي في عهد الدولة الأموية حججاً أكبر من حججها الطليعي . وقد جرى هذا المجرى بعد فهلوزن كنهون ، أمثال أحمد أمين وغيره .

(خامساً) عمد كثير من المؤرخين الأجانب إلى التقليل من الدور الخطير الذي قام به عبد الله بن سبأ ورجاله في تغيير مجرى الأحداث وفي مقتل عثمان وما بعد ذلك من أحداث في عهد علي بن أبي طالب وقد أدخل عبد الله بن سبأ مفاهيم جديدة مستمدة من اليهودية والفلسفة الهلينية كالرجمة والوصية وغيرها ، (سادساً) محاولة وضع الصحابة الأول في مقام مشابه السياسيين المحترفين في العصر الحديث والتقليل من كراماتهم ومكانتهم بنقدهم والإساءة إليهم واحتقارهم على النحو الذي فعله الدكتور طه حسين في كتاب الفتنة الكبرى .

(سابعاً) اتفق مؤرخو الإسلام على اجتناب الخوض في الفتن وعرض تاريخ عثمان وعلي ومعاوية عرضاً منصف مع تجاوز عوامل الخلاف .

(ثامناً) فساد القول بأن العصر الثاني كان عصر شك ومجون .

الفصل الخامس

مؤامرة الزنج والقرامطة

حاولت مؤامرة إفساد التاريخ الإسلامي التركيز على ثورة الزنج والقرامطة وتصويرها على أنها حركة تقدمية وأنها تمثل العدل الاجتماعي في الإسلام ، ولقد ركزت كثير من الكتابات على هذه الحركات الباطنية التي استهدفت تدمير القيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي وصولاً إلى إسقاط الدولة الإسلامية حامية النظام الاجتماعي . ولقد كانت هذه المحاولة واحدة من مخططات التبشير والاستشراق ، ولكن الصهيونية أرادت في السنوات الأخيرة أن توسع دائرة تزيف التاريخ الإسلامي لحساب أهدافها فعمدت مؤتمر بلتيمور الصهيوني في أمريكا عام ١٩٤٣ خلال الحرب العالمية الثانية الذي وصف بأنه نقطة تحول في اتجاه الصهيونية إلى تزيف التاريخ الإسلامي والعربي ، وقد حضر بن جوريين هذا المؤتمر وقاد أعماله بهارة إلى هدفها الأساسي من تنظيم ومضاهة عمليات التزيف لتاريخ العرب وملء العالم بالمطبوعات والوسائل الدعائية منه تمهيداً للغزو الصهيوني للندفع لأرضهم . ولقد استغلت الصهيونية مفاهيم الماركسية في تفسير التاريخ لإيجاد تصور كاذب عن الزنج والقرامطة على النحو الذي أعلنه جارودي في محاضراته المشهورة التي ألقاها في القاهرة وما كتبه أمثال محمد إسماعيل عبد الرزاق في كتابه « الحركات العربية في الإسلام » وهو مستمد مما كتبه بندلي جوزي في كتابه « من الحركات العسكرية في الإسلام » الذي صدر عام ١٩٢٨ من القدس . وتابع الدكتور طه حسين هذا في محاضراته عن العدل الاجتماعي التي نشرها في مجلة « الكتاب المصري » .

وقد كشفت الأبحاث العلمية الصحيحة في شأن مؤامرة الزنج والقرامطة الحقائق الآتية :

(أولاً) لم تكن هذه الحركة تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان بل كانت حركة انفصالية ولم تكن تستهدف العدل الاجتماعي بل كانت نوعاً من الأخذ بالتأثر ، فقد حرص هؤلاء المبيد الذهن حرروا أنفسهم من إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتشكيل بهم ، وكان أفسى أعمال القرامطة أنهم أقاموا سوقاً للرقيق يعرضون فيه الحرائر من نساء العرب .

(ثانياً) كانت هذه الحركة التي وصفت بأنها ثورة اجتماعية بمثابة مؤامرة سياسية إذ كانت على صلة بالحركة الإسماعيلية في دور الست ، فإن الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم في المغرب أن يستغلوا بتوجيه السياسة في ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية بعد نجاح الدولة الفاطمية في المغرب العربي .

(ثالثاً) كان الخلاص المتصوف المشهور من أكبر الدعاة لتعظيم الدولة العباسية إذ كانت على صلة بالقرامطة . وقد روى عنه أنه أقسم في أحد أحاديثه القدسية التي كان يزعما نفسه أن سنة ٢٩٢ هـ ستكون حاسمة ، وحر السنة التي شهدت الثورة الكبرى للقرامطة .

(رابعاً) ظهر التناقض بين ادعاء الحركة بالشيع والميل إلى البيت العلوي بينما قامت بالاعتداء على الأماكن المقدسة وتخرج أصحاب الرسول . فقد هاجم القرامطة موسم الحج وقتلوا نحواً من ثلاثين ألفاً من هؤلاء المهاجرات وانتزعو الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج .

(خامساً) انكشفت صلات عميقة بين الباطنية وبين الصليبيين .

(سادساً) قال القرامطة بالهيوغية في المال والنساء وكانوا دعاة تخريب وسفك دماء .

(سابعاً) لم تصدر هذه الحركات عن منهج أسامي يتيح لها صفة البقاء ، واتخذت أساليب غاية في العنف والتدمير ، إذ قام الداعون إليها بفظائع لا حد لها ، فقد حل لواء الدعوتين متأمرين ادعوا الانقسام إلى أهل البيت واستهدفوا القضاء على الدولة .

(ثامناً) صاغ القرامطة مفاهيمهم من المجوسية والتنوية والوثنية فادعوا أن الجنة هي الدنيا ونعيمها وأحلوا للناس المحرمات ورفعوا عنهم الحدود ووجهوا خصومتهم للإسلام كدين ، وحاولوا لإحلال مفهوم الفلسفة بديلاً منه .

(تاسعاً) اتفقت جميع الدعوات المتأمرة تحت لواء الباطنية على غلطت مقهاهه . سواء الونج أو القرامطة أو البابكية أو الاقشين والحرمية ، واتخذت الباطنية من الحشيفة وسيلة إلى إغراء الشباب المنظم إليها باعتناق مذهبها .

(عاشرأ) عجزت هذه الدعوات أن تحقق لمجتمعاتها أى قدر من العدل أو الخير ، وكانت نهايتها نهاية كل فرقة ، وظل الإسلام بأصوله الكبرى وعقيدته الواضحة ومنهجه الحضارى هو الإسلام ، وبقيت روحه هي روحه في أركانه وملاحه ومجتمعه واتجاهاته العامة ، ولم تفعل هذه الفرق إلا وضع المراقيل في طريق الركب السائر الجاد تحاول أن تصده وتريد أن تنحرف به وتحاول لو تحلل الناس منه من هصبية وجنسية ، أو حقد قديم موروث ، أو شذوذ واضح . (شكرو فيصل) .

وقد سجل التاريخ لهذه الفرق ما سفكت من دماء وما هدمت من أرض وما استباححت من حرمان ومع ذلك فقد جاء من يصف هذه الجماعات بأنها ثورات إصلاحية أو دعوات إلى العدل الاجتماعى وكذبوا . . .

الفصل السادس

دور اليهود في الفتنة الكبرى

خاض الدكتور طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى - علي وبنوه) في تاريخ عثمان وعلى ومعاوية على نحو أراد به - جرياً على منهجه - إثارة الشكوك والشبهات في محاولة خطيرة لتصوير الصحابة على أنهم رجال سياسة ، موحياً أن صراهم إنما كان من أجل الطعام والأموال ، واعتمد في كتابته على مصادر غامضة وروايات مبثوثة تاركا للمصادر الأساسية مثل شرح التهج لابن أبي الحديد ، وتاريخ ابن واضح البعقوني ونقل روايات الفتنة كما رواها رواةا دون أن يحقق هذه الروايات ، وكان له هوى واضح لم يكشف عنه إلا بعد أن قطع شوطاً طويلاً هو تفسير التاريخ الاسلامي تفسيراً مادياً واقتصادياً وفق مفهوم الماركسية والمذاهب المادية وإنكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودي أو التهمين من شأنها ، ولم يرجع في تحقيق ذلك إلى أعلام السنة أو علماء الحديث الذين يجب أن يرجع إليهم المؤرخ في دراسة تاريخ الصدر الأول . وصور الفتنة على أنها كانت عربية لهاأت من نزاحم الأغنياء على الفقراء والساكنين ، ومن حشد العامة العربية لقتل الأغنياء ، وكرر صفة هربية في أكثر من موضع على نحو يوحي بأنه لا يريد أن يشرك أحداً غير العرب في دم عثمان ومهد بذلك لإنكار شخصية ابن سبأ ، فإنه لم يلبس أن قال : وهناك قصة أكثر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والحديثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ولما أورد هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تمنح آثارها بعد ، وهي قصة عبد الله بن سبأ الذي يعرف بابن السوداء .

ثم يقول : است أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن ولكنني أقطع بأن خطره إن كان له خطر ليس ذا شأن ، وما كان المسلمون في عصر عثمان ليعيث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طأري من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان . ثم قال : إن قصد الكتاب الذي يقال إن الرواة المصريين قد أخذوه أثناء هودتهم إلى مصر فمكروا راجعين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها .

وقد كشف الأستاذ محمد حمزة شاكر هذا الموقف :

(أولاً) قول الدكتور (الرواة المتأخرون) فيه إيهام شديد متعمد ، فإن الطبري الذي روى قصة ابن سبأ ليس من الرواة المتأخرين ، فقد ولد عام ٥٢٥ هـ ومات عام ٥٣١ هـ فهو معاصر للبلاذري ومن طبقة تلاميذ ابن سعد صاحب الطبقات ، وأن سيف ابن عمر الذي روى عنه الطبري هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبري والبلاذري وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد ، فلا يقال عنه ولا عن الطبري أنهم من الرواة المتأخرين كما أراد الدكتور طه أن يرمي به .

(ثانياً) إن ذكر الدكتور طه حسين المصادر المهمة ، فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبرى من المصادر المهمة فليت شعري ما هي المصادر المهمة التي بين أيدينا .

(ثالثاً) إن الدكتور طه اعتمد على كتاب ابن سعد الذى فى الأيدي كتاب ناقص ، وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر ، والدليل على ذلك فيما نحن بسبيله أنه ترجم لعمرو فى ٨٤ صفحة ولأبي بكر فى ٣٣ صفحة . فلما جاء إلى عثمان والأحداث فى خلافته هى ما يمام الدكتور ويعلم الناس لم يكتب سوى ٢٤ صفحة . فلما ذكر على بن أبى طالب والامر فى زمنه أفدح لم يكتب سوى ١٦ صفحة .

(رابعاً) اعتمد الدكتور طه حسين فى انى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين على أنه البلاذرى لم يذكره وهو فيما يرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً . ثم عاد فبنى أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال فيه وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجية على نفيه ، ثم بنى أيضاً خبراً آخر قد ذكره ورج فيه .

(خامساً) النسخة التى اعتمد عليها الدكتور طه من كتاب أنساب الأشراف طبع فى اورشليم وطبعها رجل من طغاة الصهيونية . وهى ليست كل الكتاب وإنما جزء منه . من أين عرف أنه لم يذكره ما دام ليس قد طبع إلا هذا الجزء . أفلا يكون البلاذرى قد ذكره فى ترجمة حماد بن ياسر أو فى ترجمة محمد بن أبى بكر أو فى ترجمة محمد بن حذيفة . أو أى رجل آخر ممن اشتبك فى الفتنة . كل هذا جازو ولكن الدكتور طه حسين يبنى شيئاً لا يبالي أن يمتاز كل هذا ويفضى عنه ليقول فيه بالوأتى الذى يشتميه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف . ثم كيف نسي الدكتور أن من لم يرو خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ، بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتفصيله له .

(سادساً) الهدف الذى هدف إليه الدكتور طه حسين هو أن يبنى من اليهود الشركة فى دم عثمان والتعرض على قتل الإمام فركب مركباً وحراً خالف فيه أسلوب العلماء فى تخريج الأخبار ، وكذب الرواة فى شئ بنير برهان ، وصدقهم فى شئ آخر بنير برهان . فقد بدأ حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ ، فذكر أن الرواة المتأخرين أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها وأنها لم توه فى المصادر المهمة ، وأن ابن سعد لم يذكرها وأن البلاذرى فى أنساب الأشراف وهو أهم المصادر فيما يرى لم يذكرها وأن الذى ذكرها هو الطبرى وعنه أخذها المؤرخون الذين جاءوا بعده .

(سابعاً) تأليه ابن السوداء لعل حقيقة لا يدفعها شك ، وقد رواها رجال لإثبات من السفين والشيعه وغيرهم منهم الشهرستاني (الملل ج ٢) وابن حزم فى الفصل ج ٤ ، وعبد القادر البغدادي فى الفرق بين الفرق ، والرسعة فى مختصر الفرق ، والاسفرايين فى التبعثر فى الدين ، وابن قتيبة فى تأويل

مختلف الحديث ، وابن قيم الجوزية في الفرق الحكيمة وجاء هذا رداً على ما أشكك فيه طه حسين من أن ابن السوداء وأتباعه ألهو علياً وأن علياً حرقهم بالنار . يقول : ولكنك تبحث عن هذا في كتب التاريخ فلا تجد له ذكراً . وفضلاً عما ذكرنا فإن اليعقوبي وهو مؤرخ مثقيف يحدثنا عن أن علياً حرق أماً بالنار . ويقول ابن عبد ربه في العقد الفريد : أما الرافضة ففيها غلو شديد في علي . ذهب بعضهم مذهب النصارى في المسيح وهم السبئية أصحاب عبد الله وقد أحرقهم علي رضي الله عنه بالنار . (العقد الفريد ج ٢) وأوردهما ابن أبي الجديد في شرح النهج .

(ثامناً) خلاصة المحاولة التي قام بها طه حسين ترى إلى القول بأنه ليس لهذا اليهودي الحديث عبد الله بن سبأ يد في هذه الفتنة وأن ليس لليهود عمل في تأريث ناراها ، وهو يخرج جد خطر . ويقول الدكتور ويجول إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً ، ولتقف من هذا كله موقف التحفظ والتعرج والاحتياط ولتكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياساتهم وعقولهم ودولهم وجل أبل من صنعاء ، وكان أبوه يهودياً وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغياً ولا رهباً ولكن مكرأ وخدعة وكيداً وخداعاً ، ثم أتبع له من النجاح ما كان ينبغي فخرض المسلمين على خلافتهم حتى قتلوه . ثم يقول : وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس ما ظهر من الفساد والاحتلال في البلاد الإسلامية أيام هتان ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيداً إحكاماً فنظم في الأمصار جماعات خفية تستمر بالكيد وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة حتى إذا تهيأت الأمور وثبت على الخليفة فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام .

فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور منذ قليل على أن يصف الفتنة بأنها عربية وأن العامة الذين كانوا شرار هذه الفتنة كانوا عامة عربية . وهكذا يبين الهدف من تبرئة اليهود من الاشتراك في الفتنة وهكذا توارثت كتابات المستشرقين على إنكار عبد الله بن سبأ والصحة والتجاهل إزاء دور المنافقين واليهود في هذا الأمر . يقول محمد محمود شاكر : دأبهم في العقول أن تظل يهود وأشياهم من المنافقين وقد ظفوا يكيدون الإسلام ولرسول الله وللمؤمنين عشر سنوات كاملة يوماً بعد يوم ، فإذا لحق رسول الله بالرفيق الأعلى في عام ١١ للهجرة نزعوا أيديهم من كل كيد وبرثوا من كل حدث كان بعد ذلك في تاريخ الإسلام ، برثوا من الردة عام ١١ من الهجرة وبرثوا من مقتل عمر عام ٢٢ هـ ، وبرثوا من الفتك بعثمان عام ٣٥ هـ . فكيف غاب عن أصحاب رسول الله معنى قوله ﷺ : أخرجوا اليهود من الحجاز أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب . . . يحدثنا أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فيقول : كان آخر ما تكلم به ﷺ أن قال : أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب . . . كان آخر كلامه وهو معرض عن الدنيا ومقبل على الآخرة . ابن بقيت لا أدع جزيرة العرب دينين . . . وهكذا نجد كاتباً مدعياً يكتب بالعربية هو الذي يبرى اليهود ، وفي أكثر من موقف حاول اليهود أن يكلفوا كتاب العرب والمسلمين أن يمتنعوا رأياً يوافق هواهم ويدافع عنه . وقبل مسألة عبد الله بن سبأ كانت مسألة إبراهيم وإسماعيل ومسألة تبرئة اليهود من المؤامرة التي أهداها اليهود على صلب المسيح وإن لم تتم .

وكان الدكتور طه موقفه من دهوة أبي ذر : فقد أشار إلى أن عثمان أخرج أبو ذر إلى الرملة ، والصواب في رأي أبو ذر ما رواه ابن خلدون : أن أبا ذر هو الذي استأذن عثمان في الخروج من المدينة إلى الرملة . وقال : إن وصول الله أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء مسلماً فأذن له ونزل الرملة وبني بها مسجداً وأقطعه عثمان حرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً ، وكان يتماهد المدينة وبين المدينة والرملة ثلاثة أميال . قال ياقوت : وكانت من أحسن منازل في طريق مكة . . وقد أثيرت شبهات كثيرة حول أبي ذر في العصر الأخير ، وحاولت كتابات أن تصفه على رأس الشيوعيين أو الاشتراكيين ، وجرت محاولات كثيرة لتزييف موقفه ، وحقيقة موقف أبو ذر هو كاحله الإمام عبد الحميد بن باديس كالآتي على هذا النحو : أنكر أبو ذر على معاوية أن يقول ماله الله وإنما يريد أن يقول ماله المسلمين ويتهمة بأنه يريد أن يحول اسم المسلمين لحجبه دونهم ويندد بالأغنياء أن يقتنوا الأموال ، قال له عثمان : يا أبا ذر : على أن أفضي ما على وأخذ ما على الرحية ولا أجبرم على الوجد ، وأن أدهرم إلى الاجتهاد والاقتصاد . وكان أبو ذر يرى أنه لا يجوز إدمار الذهب والفضة بعد أداء زكاتها ، والمعروف للتواتر عند النبي أنه كان يأخذ جزءاً من المال ويترك الباقي لصاحبه . وقد صح عنه عليه السلام قوله : ليس فيما دون خمس أواق صدقة (أي زكاة) . وقد أصاب أبو ذر فيما اختاره لنفسه من الوجد وعدم الإدمار ، ولكن أخطأ فيما أراد من حمل الناس على حالة فضل لم يوجبها الله عليهم ولن يستطيعوها .

وقد خالف أبو ذر لإجماع الصحابة بنظرته السابقة مع قيام الدليل للنطق من النقل للتواتر والنصوص القرآنية الكثيرة المتضاربة على خلاف رأيه . وكان خلافه هذا في مسألة من كبريات المسائل ومع ذلك تركوا له حرية النظر ، ولم يلق منهم من أجلبها أي ضغط ولا أقل تحقير ، فكانوا بذلك منفذين لما جاء به الإسلام من احترام الآراء وحرية النظر والتفكير ، ولم يتعرضوا له في نظره واجتهاده إلا عند ما خفوا من بث الفتنة بين الناس ، والمعروف أنه استأذن عثمان في الخروج . أو قال له عثمان : لو اعتزلت ، وعرض عليه ما رآه أصلح له فاختار الرملة وعلى كلتا الروايتين لم يأمره عثمان بالخروج حتى يقال أنه قد نفاه كما يقول المكمنون على عثمان ، وأقطعه عثمان حرمة من الإبل وأرسل إليه أن تماهد المدينة حتى لا ترند إعرابياً . وليس صحيحاً ما نسب إليه من نفي أبي ذر . والنظر في تاريخ عثمان عليه أن يثبت وأن يتحرى حتى لا يقع في ظلم وباطل .

ثانياً : عمرو بن العاص

وتحدث طه حسين جازياً بجرى المتفكرين فيما أحياه انحياز عمرو بن العاص إلى معاوية اعتماداً على رواية الطبري الذي قال أنه انحاز من عند دهوة معاوية له ، ولكن هناك رواية البيهقي الذي يقول أن معاوية هو الذي أرسل إلى عمرو يستجده ويهضمه إليه .

وقد تناول السيد هب المهن الخطيب موقف عمرو ، الذي شوه المفرضون موقفه من التحكيم فقال : إن من أعظم مناقب عمرو (التي كذب فيها الكاذبون فهو حقيقته) موقفه من التحكيم بين علي ومعاوية لحق دماء المسلمين ، فقد كان السكذابون أو هموا الناس أن الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري

كان أبه، وأن الفاتح العظيم عمرو بن العاص كان خداعاً ما كراً . وما كان الأشعري أبه : كان متقافاً تهاً عالماً . وما كان عمرو خداعاً ، بل كان كما قال رسول الله من صالح قريش . وصدق رسول الله فإن اختيار المسلمين هذين الرجلين العظيمين ليكونا حكاماً في دماء المسلمين وفي دولتهم ، كان شهادة لما بأنهما أهل لذلك ، وكافاً عند حسن ظن الفريقين . فرأيا حقناً لدماء المسلمين أن يمزلا الرئيسين وأن يهتار المسلمين رئيساً لهم من جديد أو لعلهما كانا يريدان لما عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكذلك واقراء على الله والتاريخ زعم الكذابين أن عمراً ظلم علياً وول معاوية بل ظلمهما معاً كما فعل أبو موسى . وقد عتب معاوية على عمرو وأرسل إليه أبا الأحواز الذكواني يعاتبه وتبادل عمرو ومعاوية الأحاديث في ذلك والواقعة على وجهها السليم رويت عن اثنين من كبار رجال الحديث أحدهما الحافظ الدارقطني والثاني الحافظ أبو عمر خليفة بن غياث البصري أحد أوعية العلم ، ومن الذين روى عنهم البخاري . فالحكاية خلافاً للمحدثين ولم يوليا عهدهما ، ولو وليا أحداً لسكان هواصا في ولاه عبد الله بن الخطاب وما يريده الكذابون بعد ذلك فإنما تقربوا به إلى عناصر معلومة عن يكره أكثر الصحابة ويعمل على تشويه سمعتهم . وقد يكون المخترع الأول لهذه الزيادة من صميم تلك العناصر ومن أهل الغلو فيها . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال في أصحابه : (والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحد منهم ولا نصيفه) والتحقيق في مسألة الحكم قد قام به خير قيام القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه المواعظ من القواصم الجزء الثاني ص ٣٥ وما بعدها .

وقد روى الترمذي وابن حبان في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : الله الله في أصحابي لا تتخذوهم هزواً فمن أحبهم أحبهم ومن أبغضهم فببغضيني أبغضهم ومن أذام فقد أذاني ومن أذاني فقد أذى الله فيوشك أن يأخذه .

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بعد حروب الردة وكان قد رجع إلى سواحل الخليج الفارسي يقول له : إني قد رددتك إلى العمل الذي كان رسول الله قد ولاك وسماه لك فبمنك إلى عمان إنهماذا لموايد رسول الله فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك ما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك . فقال عمرو بن العاص : أما بعد : فإنني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الراعي بها والجامع لها فانظروا أشدها وأخدها وأفضلها فمهم بها شيئاً إن جماعك من ناحية من النواحي .

فولاه قيادة جيش من الجيوش الأربعة وهو الجيش الذي فتح فلسطين وما زال يخرج من جهاد خلافة أبي بكر وصدرأ من خلافة عمر بعده إلى أن أزال ظلم الوثنية والشرك والعبودية والاحتلال عن مصر وأدخلها في أمة محمد .

الفصل التاسع

الحكومة الإسلامية الأولى

هناك دعوى عريضة بوجهها الاستشراق إلى حكومة الصديق أبو بكر ويصفها بالتأمر والانهزام ويوم أن أبو بكر وعمر وأبو عبيدة أقاموا حكومة ثلاثية حين اجتمعت كلمتهم في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته ويتداولوه واحداً بعد واحد ، وإن اثنتين من أزواج النبي صلى الله عليه وآله هما عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر مهبطا السيل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة نجحت إلى حد بعيد ، إذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم الحقيفة وفاز أبو بكر بالخلافة وقد عاوناه أصحابه في الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفقه . هذا هو الاتهام الذي وجهه أشد المستشرقين لمصنعي الآب لامنس إلى الحكومة الإسلامية الأولى .

وتجمع المصادر القديمة الموثوق بها على أن شيئاً من ذلك لم يحدث كما يقول عبد الحميد المبادئ : فالطبري والبلاذري اللذين استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية لا يأتیان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الآب لامنس ، وأن الأحاديث التي استشهد بها الآب لامنس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة وخصائصهم ، وهذا ينبغي أن تؤخذ بتحفظ وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح . إن الآب لامنس يهمل كل الإحمال الرواية التي تشير إلى الذهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي . وقد لحظ الدكتور السنهوري في كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية . وقد أوردها ابن إسحق عن الزهري وهي من الأهمية بمكان . إذن كيف توفق بين عمر المؤتمر على رأي لامنس وعمر الذاهل لموت الرسول كل هذا الذهول . وبعد فإن القول بانتماء أبي بكر وعمر قديم غير حديث فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكائها التاريخي في صدر الإسلام فزعموا أن أبا بكر وعثمان لا أبا عبيدة كما يرى لامنس قد اتتمروا بيني هاشم وغصبوم حقهم في الخلافة ، فالآب لامنس لم يرد على أن أخذ وجهة نظر روافض الشيعة وغلاتهم عن قيامه الخلافة وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى وهي بعد وجهة نظر ليست لها قيمة على الإطلاق .

والحق إن نظرية الآب لامنس لا تقوم على أساس تاريخي متين :

(أولاً) لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئاً من هذا القبيل . فالطبري والبلاذري اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية لا يأتیان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الآب لامنس .

(ثانياً) أن الأحاديث التي يستشهد بها الآب لامنس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة

وخصائصهم وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح لأن معظمها بلا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب السياسية أبان العصر الأموي وصدر العصر العباسي .

(ثالثاً) أن الأب لامس جمل كل الإجمال الرواية التي تشير إلى الدهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي . وقد لحظ الدكتور السنهوري في كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية ولكنه لا يعلق عليها الأهمية التي نعلقها نحن ولبيان هذه الأهمية نثبت نص الرواية كما ساقها ابن إسحق .

قال ابن إسحق : قال الزهري وحديثي سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي . وإن رسول الله ﷺ والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى ، ولية طلعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات ، . وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : بأبي أنت وأمي . أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لم يصبك بعدها موة أبداً . قال : ثم رد البرد على وجه رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر . انصت ، فإني إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . . قال : ثم تلا هذه الآية : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فإن يضر الله شيئاً وسيجزى الله العاكرين) .

قال : فواقة لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ . قال : وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم . قال : فقال أبو هريرة : قال عمر : وفواقه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فمقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي . وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات .

والقارى يرى أن هذه الرواية العالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهي تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن وهي من أجل ذلك بعيدة عن أن تكون مختلفة ، والمناسبة التي وردت في صدها لا شك صحيحة إذا كيف نوفق بين عمر المؤتمر على رأى لامس وعمر الداهل لموت الرسول ، كل هذا الدهول كما تدل الرواية المذكورة . وبعد : فإن القول بانتثار أب بكر وعمر قول قديم غير حديث فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكها التاريخي في صدر الإسلام . فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان (لا أبا عبيدة كما يرى لامس) قد اتهموا ببنى هاشم وخصبهم حقهم في الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا الوهم من شعر السيد الحميري الذي يفرض مدحاً لبنى هاشم وذماً للخلفاء الثلاثة الأوائل .

روى صاحب الأغانى (ج ٧ ص ٩) قال : جلس المهدي يوماً يعطى قريشاً صلوات لم وهو ول
 جد فبدأ يبنى هاشم ثم بشارت قريش وجاء السيد فرفع إلى الربيع رقعة عتومة وقال إن فيها نصيحة للأمم
 فأوصلها إليه فأوصلها فإذا بها :

قل لابن عباس سمى محمد لا تعطين بني هدى بني درهما
 وأحرم بني تميم بن مرة لأنهم شر البرية آخرأ ومقسدا
 إن تعطيهم لا يشكروا لك نعمة ويكافئك بأن تدم وتشتتم
 منعوا زنا محمد أحامه وبنيته وابنته عديدة مريضا

قال وهي قصيدة طويلة قال فرس بها إلى أبي عبيد الله ثم قال أقطع المعطاء فقطعه وانصرف الناس
 ودخل السيد إليه فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ولم تعطيهم شيئاً .
 قال الشهرستاني في الملل والنحل في كلامه على المفهية إحدى فرق غلاة الشيعة : إن زعيمها المفهية
 ابن سعيد العجل كان يزعم أن أول ما خلق الله هو ظل محمد وعلى قبل ظلاله الكل، ثم عرض على السموات
 والأرض أن تحملن الأمانة، وهي أن يضمن على بن أبي طالب من الإمامة فأبى ذلك، ثم عرضها على
 الناس فأمر هر بن الخطاب أباً بكر أن يتحمل منعه من ذلك، وضمن أن يعينه على الفدر به على شرط
 أن يجعل الخلافة له من بعده إلخ هاشم ابن حزم ج ٢ ص ١٤ قال لا ينس لم يرد على أن أخذ وجهة
 نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام الخلافة وبني عليا بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى
 وهي بعد وجهة نظر ليس لها قيمة علمية على الإطلاق .

والفصل التاسع

الموالى والعرب

لم تكن قضية الموالى والعرب قضية مثارة إلا في محاولة للمعرضين من كتاب الغرب والاستشراق
 لتاريخ الإسلام والنظر فيه في إطار فكرة العنصرية التي هرفت أوروباً في القرن التاسع عشر بعد أن
 أعلن جوبينو نظريته المعروفة، وقد جرى تطبيق هذه المحاولة فيما يسمى بالنظرة العنصرية إلى التاريخ
 العربى الإسلامى فأول بعض الباحثين تصوير أعدائهم في صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب
 المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم في محاولة لإثارة الصراع بين هذه الأجناس وبمك خيوط يمكن
 أن قصد النفوس تحت اسم العنصريات أو القوميات الضيقة وكأنها لم تكن العلاقة بهذه الأمم وبين
 العرب إلا تطاحنا على السلطة وصراعاً على السيادة، وذلك في محاولة تشويه دور العرب الحضارى .
 وقد ترجم إلى اللغة العربية كتابين يحملان هذه السموم هما :
 (١) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات : بقلم فان فلوتهن ترجم عام ١٩٢٤ .

(٢) الدولة العربية وسقوطها : بقلم ولهاوزن ترجم ١٩٥٦ . وقد حاول الكاتبان إظهار تاريخ القرن الأول الهجري وكأنه صراع دموي بين العرب كسادة وحكام وبين أهل البلاد المفتوحة ، وقد تأثر بهذا التفسير كثير من المؤرخين العرب فراحوا يطبقونه على مظاهر كثيرة في التاريخ العربي الإسلامي كما يقول الدكتور فاروق حمزة فوزي في نقده لما كتب عن الحركة البابكية التي صورها المفرضون في صورة انتفاضة قومية إيمانية حيث قام أصحاب الدراسة بتجريد الحركة من سياقها التاريخي الشامل وحصرها في جانب العنصرية . وقد واجه المؤرخون العرب المعاصرون هذه القضية المثارة فكشفوا وجه الحق فيها على هذا النحو : إن محاولة القول باضطهاد الحكم العربي للدوال واحتوائهم أمر يحتاج إلى تمحيص ونقد وأن مراجعة وقائع التاريخ تثبت العكس ، فإن الإسلام هو الذي دعا إلى التسوية بين العناصر الإسلامية جميعاً ، بل بين البشرية جميعاً . وأن دعوة الإسلام للمساواة بين المسلمين كانت موضع تنفيذ الدول الحاكمة ، وأن هذه الدعوة نفسها هي التي استغلها خصوم الإسلام في محاولة احتواء هذه العناصر ضد الدولة الإسلامية . والمعروف كما يقول الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه (جذور الشيوعية) إن الأمويين استخدموا الموال بكثرة في الدواوين وهي عماد الإدارة المحلية واستخدموهم في الجباية والأمور المالية واسكنهم لم يسلمهم الرقاسة حيث اقتضت الإمارة وقيادة الجيوش على العرب ، ومع ذلك فقد وصل إلى مكان القيادة طارق بن زياد ومقاتل بن حيان للنبطى وبعض الأمراء مثل يزيد بن أبي مسلم أمير أفريقيا . أما في مجال القضاء فقد فتح أمام الموال حتى أن قاضي الكوفة في زمن الحجاج كان سعيد بن جبير وهو مولى . وفي مجال الضرائب المعروفة والموروثة فإن الأمر لم يتجاوز حده . أما العطاء فقد شمل بعض الموال في صدر الإسلام ، وذلك عندما كان عددهم قليلاً وكانت حاجة العرب إليهم في الفتوح كبيرة ، ولكن اتساع الهجرة العربية من الجزيرة إلى البلاد الجديدة وانتظام الجميع في الجيش لم يدع مجالاً أو ضرورة الدوال ضمن صفوفه فافتقر العطاء على العرب .

وأما مسألة الزواج فقد كانت مسألة العناية بالانساب لا تزال قائمة بين القبائل وواحدة في ترويج البنات وهي قضية لا توجب السخط أو الثورة وقد ولد اثنين من الخلفاء الأمويين أحدهما مروان الثاني من أبناء الأمميات . يقول الدكتور عبد العزيز الدوري : إن ما يقال عن احتقار العرب للموال أمر فيه نظر ، فالموال لم يكونوا صنفًا واحداً في الأساس ، فهناك أناس من الحبش أو من أسرى الحرب الذي استرقوا ثم أعتقوا ، ومؤلافة بين الموال وهم عند تحررهم تبقى الفروق قائمة بينهم وبين أسيادهم وهم لا يرتقون إلى منزلتهم اجتماعياً ، ولكن جل الموال أناس دخلوا الإسلام ووجدوا أن المجتمع لا يزال يتألف من قبائل وأن دور القبائل كبير في الحياة الاجتماعية إذ لا كيان ولا منزلة اجتماعية خارج نطاقها فانتسب الموال إلى هذه القبائل أفراداً وجماعات ، وهو انساب ينطوي على الحلف يضمن للمول مكاناً في المخطط الاجتماعي ، فالولاء في هذه الحالة ولاء حلف لا ولاء حق ، ومع هذا الحلف يحصلون على الحماية اللازمة كما أنهم بدورهم يوزون مكان أحلافهم أو يساعدونهم مادياً ، وفي هذا الحلف شيء من عدم التكافؤ إلا أنه لا ينطوي على مهانة واحتقار ، ففي أول الأمر وافق اعتزاز القبائل بانسابهم ربط المنزلة الاجتماعية بالنسب ، وهذه وجهة قبلية لا تنجم والروح العربية السليمة التي

تجلى في الإسلام ، ولما تطور المجتمع باستقرار العرب وتعمودهم على الحياة الحضارية ضعفت الأسس القبلية وانتهت الإدارة إلى المركزية وازدادت سلاطنتها ولم تبق ضرورة لهذا الولاة لأن السلطة لم تعد تعتمد على القبائل بل على الخليفة وأمرائه فأخذ هذا الولاة يتقلص بوضوح . ونحن ننظر إلى فئات الموالي نجد كتاب الدواوين والتجار كانوا في مكانة طيبة ولديهم من النفوذ والتأثير الشيء الكثير . ومنهم الفلاحون وأصحاب الحرف وكانوا في منزلة اجتماعية متواضعة . فقد كانت القبائل تنظر إلى الفلاحة والحرف نظرة لا تخلو من استهانة ، وما نقله المستشرقون من إشارات وعبارات النقطوها من هنا وهناك لم تكن في الحقيقة شواهد صحيحة تشير إلى احتقار الموالي ، وهذه القصص التي رددوها إنما تسجل لحالات شاذة وفردية . ولقد كانت الموالي منقصة في عالم الإسلام كله آسيا وأفريقيا وأوربا ولم يكن لها مشكلة أو أزمة ، وأما مواقف الانتفاهي فكانت في منطقة فارس فقد استطاعت الشعوبية أن تحتوى الموالي تحت اسم المساواة والعدالة فحذتهم لمؤامراتها وكان بعض الموالي لا زالوا على ديانهم القديمة من المجوسية والمزدكية وإن غطوها بعمار من الإسلام ، ومن ثم استغلت في خطط المؤامرة الباطنية وهدمت في التعاليم السرية دون أن تعرف أبعاد المخطط .

الفصل العاشر

أولاً :

الشبهات والزيوف المثارة

إن مراجعة كتابات التاريخ خلال هذه الفترة التي تمثل العصر الإسلامي الأول تكشف عن كثير من الأخطاء والزيوف والشبهات بهدف انتقاص الدور الذي قام به الإسلام أو الغرض من قدر النتائج الخطيرة التي حققها . (أولاً) تهويل بعض الكتاب في معارضة قریش الإسلام : متأثرين في ذلك بدعيات طوائف مفرقة ذات نزعات خاصة نحو الصحابة جميعاً . لأن قریشاً والعرب هم الصحابة الذين اعتدوا بالتدريج ، فمنهم السابقون ومنهم اللاحقون وكلا وعد الله الحسن ، ولا ريب أن صحابة رسول الله كانوا من أكل الأخوان في أضعج شعوب الأرض أحلاماً وأسلبها فطرة وأسرعها إنصافاً وأصدقها في نصرة الحق بعد الاستجابة له ، نصرتهم وحفظ أمانته والنصيحة بكل ما يملكون . (ثانياً) إن ما وقع في عصر الخلفاء الراشدين من تعاون أو سوء فهم قد حققه أعلام السنة وديفوا ما دس فيه المعتزليون لتفويده هذا العصر وتسوي سمعة الصحابة والإيهام بأنهم في مستوى أوضع من مستواهم الرفيع الذي رفعهم الله إليه . (ثالثاً) ليس صحيحاً ما نسب في مسألة التحكيم إلى أبي موسى من بلاهة أو حمور من خدعة ، وقد كان كلاماً أعل منزلة وأبني وأبصر بينهما من أن يكونا كما صورهما أعداء الصحابة

بأقلام مؤرخين كانوا يلمسون الحق بالباطل بحسب الأهواء . (ثالثاً) تقدير المعجزة الاجتماعية التي تمت في مصر على يد عمرو بن العاص وإخوانه بتحويل هذا الوطن إلى دين الإسلام ودخوله في أسرة العرب و اختياره لسانها وبيانها حتى صارت له الإمامة كما هو في الواقع الآن ، وهو حادث لا تعرف مصر في تاريخها أعظم ولا أعجب منه في ألوف السنين ، وقد عجز الاستعمار الغربي أن يحدث مثل هذه المعجزة في الجزائر أو غيرها . (رابعاً) وجوب المدول عن اعتبار التاريخ الإسلامي تاريخ حروب وفتن وأحداث وأشخاص وأن ينظر إليه على أنه تاريخ الدعوة الإسلامية وكيفية انتشارها وأسباب نجاحها ومن الذي أعان على ذلك وكان له أثر فيه بأخلاقه وتضحيته ، ومن الذي أساء إلى هذه الدعوة وصار في غير طريقها وأفسد على الأمة دينها ودينامها ، وكيف طرأ على المجتمع الإسلامي الإنحطاط وظهرت فيه النزعات المذهبية والشعبوية وتطهير تاريخ الإسلام من الدسائس المكذوبة على أصحاب رسول الله اعتماداً على تحقيقات أعلام المسلمين وأئمتهم . ويقوم المنهج على أن تاريخ الإسلام نفسه وتطور العمل بالمبادئ التي جاء بها ، ومن هم الذين نشروا دعوة الإسلام وعرفوا الأمم بها ، ومن الذين تنكروا لها . (خامساً) التنبيه إلى محاولة الصهيونية التي تعمل على إخافة الغرب من قيام الدولة الإسلامية القوية . فهي تحاول أن تثير الهمم القديمة لترسم أمام الغرب صورة غير صحيحة للعرب والمسلمين ، هذه الحلة بدأت بالإسرائيليات التي رسمها خصوم الإسلام في روايات الأحاديث النبوية الشريفة (وصناعة اليهود المفضضة هي تحريف الكلم عن مواضعه) وهم يحرون منذ وقت طويل على تزيف تاريخ العالم وطمس ذاكرته وقد عمدت الصهيونية إلى مضاعفة عمليات تزيف العرب والإسلام ، وقد استطاعت أن تسيطر على بعض كراسي دراسة التاريخ في الجامعات الأوروبية والأمريكية .

والهدف هو دعم النشاط السياسي ضد العرب في العالم والتوصل إلى خلق ثقافة محرمة تساعد على قنيت العرب وهزيمتهم أمام العالم . ومن أمثال ذلك دعوتهم إلى تعبئة الرأي العام الأوروبي ضد العرب بإثارة شبهات قديمة مائت وانطوت تشبه انتشار الإسلام بالسيف والفرل بأن أوربا توجع بكل مقومات حضارتها إلى جذور يونانية ورومانية وحجب الأثر العربي الإسلامي ، بالرغم مما شهد به روجر بيكون وفرانسيس بيكون ، كذلك بإعادة بحث أحاديث الحركات الباطنية مثل الاسماهيلية والقرامطة والحلاج والادعاء بأنها نماذج للديمقراطية والاشتراكية في الإسلام . (سادساً) ليس الإسلام تاريخ حروب وليس تاريخ مناورات سياسية ، وليست حروب الإسلام بمعنى الغلب ولكنها تصدر عن مفهوم الجهاد في سبيل الله وقيامه السامية هي فتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية وإزاحة الذين يحولون دون انطلاقها لقد اندفع المسلمون لتحرير هذه الشعوب من أغلال الكسروية والفرعونية والقيصرية فوالع وهلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعده ، وهلك فرعون فلا فرعون بعده ، وتدفق السيل لأحد عشر سنة للهجرة النبوية (٦٢٢) في مروج الشام وفلسطين وسهول العراق وفارس ودروع مصر والمغرب الأقصى وأودية هملابا . (سابعاً) أكاذيب المستشرقين تتمثل في سوء الفهم أو سوء القصد ، فهم يدرسون الإسلام وفي عقولهم فكرة مسبقة وفي نفوسهم إحساس بالتمصّب والحقد لذلك الدين الذي اقتنم عليهم أوربا وصمّ فيها خمخانة عام ، فهم قد افتحموا بلادهم حاملين لواء التجارة

والتبشير والاستعمار لمحاربه وصده والحيلولة دون امتداده مرة أخرى ، وصدق الأمير شكيب أرسلان في تصوير عمل المستشرقين : هؤلاء المستشرقون إذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة قاردة في زاوية كتاب يكاد يكون محرراً سقطوا عليها تهاافت الذباب على الحلوى وجعلوها معياراً أو مقياساً ، لا بل صورها بحكايا مرضون عليها سائر الحوادث ويففلون ويتخافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناة . (ثامناً) استند الأثر التغريبي والاستشراقي إلى مجال اليونسكو في كتاب تاريخ البشرية الذي صدر عنه مجافياً للحقائق التاريخية عن الإسلام ، ففي القسم الثاني من المجلد الثالث من كتاب تاريخ البشرية حاولت اليونسكو إذاعة الشبهات والأكاذيب الآتية : (أولاً) إن الإسلام احتفظ في ركن الكعبة بالوثن المهم لأهل مكة وهو الحجر الأسود . (ثانياً) إن الإسلام كان توفيقاً من نظريات مسيحية ويهودية ووثنية . (ثالثاً) إن القرآن مؤلف تأليفاً بشرياً وأنه ذو مراتب مختلفة في نسقه وفي طريقة تبيجه . ولا ريب أن هذه الشبهات الكاذبة ليست إلا ما رددته الاستشراق اليهودي والاستشراق الغربي في تلك المحاولة الخطيرة لتزييف تاريخ الإسلام التي تقوم بها التغريب والاستشراق والاستعمار والصهيوية .

يقول الدكتور إبراهيم العدوي : إن منهج الغرب في كتابة التاريخ والذي سار في البداية على آثار هيردوت وديودور وخاصة بالنسبة لإخبار الشعوب الأخرى يعتمد على الأساطير وخدمة الملوك والقواد والسكان وأفراد الطبقات المسيطرة والقوى الاقتصادية الفعالة إلى اليوم وبالنسبة للتاريخ العرب الإسلامي وبخاصة بعد الحروب الصليبية ونشوء مدرسة الاستشراق بأهداف استعمارية وتغفلت النفوذ اليهودي الصهيوني في كل فروع الفكر والثقافة في أوروبا فقد برزت فيه النزعة إلى اقتناص الشوارد الصغيرة المثيرة وتكبيرها مع ثبوت كذبها بالاستحالة أو ضعف الرواية ، وذلك لتكون أساساً للنشر وترويج بعض النظريات الهدامة عن العرب والمسلمين والإسلام مما يكون تأثيره فعالاً بصفة عامة في إضعاف إمكانيات أي بعدد عربي على أساس العقيدة . ومهما يكون مفعوله مخزياً عندما ينتهي الأمر مواجهة جادة وحاشدة لعدو شر من مثل إسرائيل بما يشبه من تحالف الاستعمار مع الصهيونية . ومن أمثال هذه شبهة قيام الإسلام بالسيف ، وما يلقبه التعليم الاستعماري لطلاب المغرب من أن خروجه من الأندلس بعد قرون زاهرة هي حركة طرد للمستعمرين العرب وما بدأ يشيع في هيباب العرب من شبهات مثارة عن عروبة فلسطين من حكاية ما قرأوا في الكتب العربية وسمعوا ورواوا من الأفلام الاستعمارية عن أرض المعاد وعن ملك سليمان من التهاويل .

ولقد كان تاريخ الإسلام هو تاريخ الشعب والناس والمجاهد وتاريخ المؤمنين من ولاية وقضاة وفقهاء وعلماء ونحاه وشعراء وأدباء وأن الخطط الإسلامية كانت حافلة بالأخبار ناهضة بالحياة ، وذلك قبل قرون طويلة من محاولة أميل تدوين أن يجعل من البحار والأنهار أبطالاً للتاريخ كذلك حرص مصادر التاريخ الإسلامي على ربط المؤمنين باستمرار الجهاد الدفاع عن الدولة والشرعية والحضارة . وكشف الدكتور العدوي عن أن الهدف من كتابة التاريخ الاستعماري هو تغشيت أجيالنا على مفاهيم تاريخية خاطئة يصعب اقتلاعها ، وتقوم الصهيونية في بناء امبراطوريتها الرامية على أساس أن معركتها

مع العرب تاريخية ، أى أنها تقوم خلالها بتزييف التاريخ العربى لصالحها ، ولذلك فإن جزءاً أساسياً من جهادنا هو اعتبارنا للمركة معه تاريخية لأن هذه الصفة الأساسية لهذا الصراع الضارى تقتضى المبادرة بتصحيح التكوين التاريخى لجهادنا وشبابنا على أساس عقائدى (تاسمياً) يعجب المستشرقون بين أمة لأن أحدهم أباسقيان كان هو الرسول ويتمثل ذلك فيما كتبه هجرى لامنس عن معاوية ويريد وعبد الملك وبقية بنى أمية ويقف آخرون من الدولة الاموية موقفاً معارضاً فيصورون الدولة الاموية بأنها تعصب لمفهوم الجماهيرية فى الاستعلاء بالمنصر ويصورون الدولة العباسية بأنها فارسية خرجت من يد العرب . وهم لا يتحدثون عن القادة المصلحون الذين وطدوا الدول بل يتحدثون عن المتأمرين والمعاوذين ويسهبون فى تفصيل حركات التمرد والمعارضة ويتحدثون عن الرشيد على أنه صاحب متاع وترى ويفسدون سمته لأنه قضى على البرامكة الذين كانوا يمدون الدولة للخروج من الإسلام ، وحين يتحدثون عن المعتصم يتحدثون عن الأتراك وينقلون ما كتبه الجاحظ عن فضلهم ويضربون العناصر ببعضها ، طرب العرب بالترك ، وطرب العرب بالفرس ، وما كان تاريخ الإسلام قبل الإستشراق يفصل بين العرب أو الترك أو الفرس بل كان يرام أمة واحدة ، وهم يدعون أن القرامطة طلاب عدل وإصلاح وبأخذون من المنصور ما يوافق هواهم ، ففتنة الواجى فى جنوب العراق برويتها برواية النوبختى لأنها توافق هواهم .

أما الحديث عن القرامطة فهوونه برواية الطبرى ومأتون بخطاب أحمد القرطبي إلى الخليفة المقتدر وهو خطاب يصورهم فى صورة طلاب عدل وإصلاح ويتلذذ أحدهم بإيراد فقرة المصعودى تصف سرقة القرامطة للسجرات السوداء ويطيلون الاهتمام والتوسع بالدول المنشقة عن الدولة العباسية (الصفارين والساكانيين والطامريين والبويهيين) ويطيلون الوقوف عندهم لأنهم يرونهم دولاً فارسية ، ويبدون إعجاباً زائداً بالمعاطمين لأن مذهبهم لم يلق قبولا عند جماعة المسلمين . ويشككون فيما كان فى عهد الرسول ﷺ وما كان من بعده فيتحدثون عن أن هناك فارقاً بين النى . والغنيمة بين عصر النبى وما بعد ذلك وهم يسمون بلاد المغرب ببلاد البربر ، وهى محاولة لاتقصصهم ، بينما كانت عبارة (بربر) فى أساسها ذات معنى مختلف عما يستعمله المستشرقون .

وفى تاريخ المغرب يفضلون فى الحديث بين البربر والعرب ، وفى تاريخ المغرب يفضلون بين العرب والفرس حتى يقول تومبى إن هناك بعد الإسلام مجتمع فارس ومجتمع عربى ، وهم يسمون دعوة التوحيد التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب باسم (الوهابية) حتى يصوروها أمام الناس على أنها فرقة خارجة على الإسلام ، ويتحدثون طويلاً عن المترجمين وترجمة الفلسفة ويكرزون على مدرسة حران ويعلقون طويلاً عند ما كتبه المصعودى عن المعتزلة دون فهمه . ويبررون وجوه العنف الصليبي فى اعتداد عجيب وينقلون عبارة وليم المصوى التى تقول إن الصليبيين عندما دخلوا بيت المقدس قتلوا من أهله ألفاً وأن خيلهم كانت تفرس فى الدماء حتى صدورها ، كذلك صوروا العلاقة بين العرب والموالى على أنها خلاف وصراع ومؤامرة .

(طاشراً) حاول كثير من المستشرقين لسمية نمكة البرامكة إلى زواج جعفر البرمكي بالعباسة أخت الرشيد بادعاء أن الرشيد قد عقد لها الزواج دون الخلوة فتجاوزا أمره واتخذوا من هذه القصة طريقاً إلى تحليل موقف حاسم هو تصفية الرشيد للبرامكة وتدمير وجودهم السياسي والاجتماعي في الدولة العباسية . وقد أنكر ابن خلدون هذا الرأي وبين فسادة فقال: إنما تكب البرامكة لما كان من استبعادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وعمرها مراتب الدولة وخطتها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واجتازوها لمن سواهم .

وقد أشار المؤرخون إلى مؤامرة البرامكة التي كانوا يدبرونها لإخراج الملك من العرب والمسلمين وقد صرح بالتهمة ابن الأثير والمسمودي والطبري وابن بدرون والاريل . وقد وصفوا البرامكة بالزندقة بمعنى إضمار الكفر أو المخالفة لما أمرت به الشريعة الإسلامية وذهب قوم إلى أنهم كانوا يضمرون الجوسفة .

ثانياً : كتابات المستشرقين ودعاة التغريب

عن تاريخ الاسلام

إن كتابات المستشرقين عن تاريخ الإسلام قد ثبت اضطراب كثير منها وفساده ، وأحصيت أخطاء كثيرة لأعمال الاستشراق في مجال التاريخ :

- (١) أخطاء : دائرة المعارف الإسلامية . (٢) أخطاء : المنجد .
 - (٣) أخطاء : تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكدان . (٤) أخطاء : كتاب تاريخ العرب لفيليب حني
 - (٥) أخطاء كتابات جولدهسير ولامنس وونتجمري وات . وعقدت موسوعة تاريخ الجنس البشري التي تصدرها مؤسسة اليونسكو فصلاً عن العرب والمسلمين مليء بالشبهات والسوم والتشويبات .
 - ومن هذه المصادر أخذ كثير من كتاب العرب :
 - (١) جرجي زيدان في كتابه تاريخ الفتن الإسلامية . (٢) طه حسين في كتابه القضية الكبرى .
 - (٣) زكي مبارك في كتابه النشر الفني . (٤) أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام .
 - (٥) الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد . (٦) عباس محمود العقاد في كتب المعقريات .
 - (٧) إسماعيل آدم أحمد في كتابه عن مصادر التاريخ الإسلامي .
 - (٨) عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه رسول الحرية .
- أخذ طه حسين مفاهيم الاستشراق اليهودي في إنكار عبادة الله بن سبأ وتبني شبهات مرجليوت وجولدهسير في القرآن المبكي والقرآن المدني . وإنكار إبراهيم وإسماعيل ، وأخذ هيكل شبهات وإيم مدير واعتد جرجي زيدان في كتابه الفتن الإسلامية على مصنفات سيديو وكريمر وجولدهسير . ونقل نقلاً من دائرة المعارف الإسلامية . وقد استهدفت هذه المحاولة التي بدأها الاستشراق وأتمها التغريب :

(أولاً) تصوير التاريخ الإسلامى وكأنه ملىء بالهزائم والمآزير محشواً بالدعارة والترف مقعماً بالإلصاق والتزق كما يصور الخلفاء بصورة المتنازعين على السلطة والخلافة . والوجهة فى كتابات هؤلاء جميعاً تحمل طابع الإتهام ولا تقرر مرحلة من المراحل أو موقفاً من المواقف ، فالعباسيون غارقون فى الترف والأمويون مستلطون على الرقاب، وحينما تصور كل مرحلة التاريخ الإسلامى بالضعف والقرق تصف حركات القرامطة والرنج بأنها حركات تقدمية ، ودعاة عدل ، وأن هؤلاء المتآمرون على الإسلام هم حركات من صميم الإسلام .

(ثانياً) فرض التقسيم الغربى لمصور التاريخ الأوروبى على تاريخ العالم كله وتصور أن العصور الوسطى التى كانت عصور الظلام فى أوروبا هى أنها عصور ظلام فى العالم كله مع أن هذه المرحلة كانت عصر نور فى مختلف أجزاء آسيا وأفريقيا بفضل الإسلام . كذلك فرض المفاهيم المنصرية على الأجناس والأمم ووصف الغربيين وحدهم بأنه الجنس الأبيض صانع الحضارة ، وأن مختلف الأجناس شعوب متأخرة وهذه نظرية ثبت بطلانها .

وهكذا فرض الاستغراق والتغريب مقاييس التاريخ الأوروبى على تاريخنا ، وساكوا تاريخنا الإسلامى أساس القيم المسيحية الغربية ، كما أقحموا نظريات غريبة كانت وليدة ظروف وتواريخ شعوب أخرى وتمنخت منها أحوال وظروف مقابلة ، فهى لا يمكن اعتمادها أساساً لتفسير تاريخ الإسلام ، كذلك عمدوا إلى تجاهل الإسلام كمنخرج حقيقى لهذا التاريخ وصوره تصويراً مجرداً من هذه القيم ومن تأثيراتها وروحها . وهذا هو تهور فيليب حتى .

(ثالثاً) يعتمد الاستغراق والتغريب إلى محاولة تصوير التاريخ الإسلامى على أنه تاريخ العرب فيضع فيليب حتى تاريخ الإسلام كله تحت اسم تاريخ العرب ، ويصور جوسقاف لوبون حضارة الإسلام تحت اسم حضارة العرب . والواقع أن هذا التاريخ ليس تاريخ العرب وحدهم وأن هذه الحضارة ليست حضارة العرب وحدهم . ولكنه تاريخ الفرس والسلاجقة والمماليك والأتراك والمغول والبربر ، وأنه صنع فى إطار الإسلام وأن الحضارة قامت على مفهوم الإسلام .

(رابعاً) التوسع فى مسألة الفتوحات العربية والحروب بقصد تصوير الإسلام بأنه دين سيف بينما لا تمثل الفتوحات والحروب فى تاريخ الإسلام إلا مرحلة صغيرة إذا قيست بالنسبة لفتوحات وحروب الأمم والدول الأخرى .

(خامساً) يتابع فيليب حتى وغيره التفسير المادى للتاريخ فيرى وبرون أن الخفاف والفقير والغنيمة هى دوافع الفتح والهجرة .

(سادساً) ردد مع الغربيين أن العرب الفاتحين لم تكن لهم أى ثقافة أو تراث فكري وأنهم تعلموا بحضارة الأمم التى غلبوها فنقلوا منها وكانوا مهرة فى النقل .

(سابعاً) يذهب فيليب حتى إلى أن لكتابة التاريخ عند العرب أصول شيدت على أساس الطريقة الفارسية . وقد تبين للباحثين المنصفين كذب هذا الادعاء وأن دراسة نشأة علم التاريخ عند العرب تؤكد أن هذا العلم عربي النشأة ، وأن أصوله الأساسية قد تمت قبل الترجمة عن الفارسية ، وأن علم التاريخ عند العرب بدأ من أصول تتصل بدراسة الحديث والمغازي من جهة ومتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالإيام كما ظهر لدى الأخباريين (عبد العزيز الدوري) .

(ثامناً) نفسهه الشعوبية بعيد كل البعد عن تحليل دوافعها واتجاهاتها فهو يراها مجرد دعوة للفسوية بين المسلمين في حين أن الحركة لها جذور عميقة في الوعي القومي والديني للشعوب الأخرى وخاصة الإيرانيين وأنها وإن بدأت بنبرة التسوية في العصر الأموي فإنها سرعان ما انتقلت إلى تفصيل العجم على العرب وإلى مهاجمة التراث والسكيان العرب الإسلامى وكانت وثيقة الصلة بالوندقة وإن كانت قد برزت في صورة أدبية فخرية . كما أنه ردد كثيراً من الشبهات كأسطورة النباسة في نفسهه نمكة البرامكة . عن تصور (بروكلان) .

(تاسعاً) فساد مفهوم بروكلان للنبوة والقرآن فيدهى أن النبي اعترف في السنوات الأولى بأله الكعبة ويردد قصة الخرائيق ويدهى أنه ~~كان~~ كان يعرف مادة الكتاب المقدس والأساطير اليهودية ، وأن القرآن من تأليفه .

(عاشرأ) حاول الاستشراق تشويه موقف الإسلام من أهل الذمة ، ونجد هذا واضحاً في كتابات كثير من المستشرقين ومنهم الدكتور ا . س . تزتون في كتابه أهل الذمة في الإسلام الذي يحاول الادعاء باضطهاد المسلمين لأهل الذمة اضطهاداً ذاتياً قائماً على مجرد التعصب الديني . ويدهى (تزتون) أن هذا الاضطهاد بدأ من عهد عمر بن الخطاب وحاول أن يقول أن العهد المنسوب إلى عمر ليس موثقاً تاريخياً وأنه منحول وأنه منسوب إلى عمر افتراء وأن عمر استعمل النصارى في الدواوين مضطراً . ويحاول المستشرق التقاط أحداث جزئية ليفني بها هيكل تاريخياً يوحى بأن أهل الذمة في الإسلام هوملوا بتعصب ديني . والواقع أن أهل الذمة بشهادة الغربيين أنفسهم قد هوملوا أشرف معاملة وأكرمها في اليهود الإسلامية المختلفة .

(حادى عشر) حاول (ستافى لين بول) أن يصور حركة الفتح التي قامت بها أساطيل أسبانيا والبرتغال على أنها قرصنة . وألف كتاب سماه قرصان البربر ، صور فيه الغارات البحرية التي كان يقوم بها عرب شمال أفريقيا دقها عن أنفسهم ورداً على غزوات الغرب المسيحي بأنها قرصنة بربرية ، والمعروف أن معظم قادة هذه الحملات هم من المسلمين الأندلسيين الذين نفوا من وطنهم في الأندلس .

(ثاني عشر) حاول مونتيجرى وات في كتابه عن تاريخ أسبانيا الإسلامية إثارة عدد من الشبهات في مقدمتها الجهاد وموضوع الأقليات غير الإسلامية .

(ثالث عشر) حاول د لامنس ، تصوير سوريا بأنها بلاد لم تكن عربية قبل الإسلام وأنها

كانت رومانية وأنت العرب تسلطوا عليها للخلاص من الحرب والفقر وأن أهل سوريا كانوا رعايا الامبراطورية الشرقية وأنهم كانوا يعتبرون يونانيين لا عرباً . كما حاول توينبى أن يصور الحضارة الإسلامية ثمرة العصر السرياني . وتجاهل لامنس وتوينبى أن مناطق الشام كلها كانت قد غزتها منذ ألوف السنين هجرات متعددة وضخمة من عرب الجزيرة العربية الذين أداموا بها وهربوا هذه المناطق وخاصة الجزيرة وبين النهرين ومناطق الشام وقسم بين الفرات ووادي النيل والأردن . وأن هذه المناطق في مفهوم الجغرافيا القديم هي امتداد لجزيرة العرب وهي تمتد حتى جبال طوروس .

(رابع عشر) من أخطاء مونتهجرى وات قوله عن تمتد الرسول في غار حراء بأن أغنياء مكة كانوا يتخلصون من حرامهم بالذهاب إلى الطائف ، أما محمد فإنه كان يذهب إلى غار حراء ليصطاف فيه عارياً من حر مكة وهذا إرأى ليس له رد إلا السخرية بفهم وات للامور .

(٢) (الرد على مونتهجرى وات في كتابة تاريخ أسبانيا الإسلامية) :

يقول دكتور عبد الرحمن على الحجى : كانت دمشق تزاد كلما تقدمت في قراءة كتاب تاريخ أسبانيا الإسلامية ، تزاد غرابة لشدة بعده عن الحقيقة الأمر الذي لا يظهر في عموميه أنه ناتج عن الجهل بل عن التجامل والتعصب للذم مع تحاشي وصف الاستاذ وات بالغباء . وفي الكتاب أمور غريبة وشططاً كبيراً عن الحقائق ، وتفسيرات الأحداث لا تحمل طابعاً علمياً ، واضطراباً للأدلة التي ينبغي بها تأييد التعريفات فهو يتحدث عن (الجهاد) وله في الجهاد رأى غريب ، وإنه ليكاد ياتي الهك على نوايا الخلفاء والقادة في التاريخ الإسلامي فقرأه يحمل أموراً تاريخية يلزم ذكرها في أى حديث عن التاريخ الاندلسي لأنها قد تقف ضده بينما يفصل في موضوعات جزئية أو قضايا جانبية لأنها تؤيد رأيه الذي ليس فيه إنصاف .

وهو حين يتحدث عن الأقليات غير الإسلامية في الاندلس يكاد يحمل الحديث عن النسيج الرائع الذي تمتعت به هذه الأقليات ولكنه يفصل في الحديث عن انتشار الإسلام مؤكداً خلال ذلك دوافع المسلمين التي يقر أنها ليست دوافع عقائدية ولا تبتغي إدلاء كلمة الله ولفراية هذا الأمر تعود بالقارىء إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وأنه كان بالسيف وبدوافع غير دينية تماماً .

وهو يعتبر أن دافع ذلك هو الرغبة في الحرب وإن لبست ثوب الدين فهي أحياناً لا تختلف عن دوافعها في الجاهلية وغطه للحقائق بإهماله لذكرها أو تشويهها ظاهر في هذا الكتاب .

ويدافع (وات) عن إحدى الفكرتين القديمتين اللتين تبناها عدد من المستشرقين وما زالتا ترددان من قبل الإمعات في بلادنا ، ألا وهي أن الإسلام قام والشر تحت تأثير العوامل الاقتصادية وليست الفتوحات الإسلامية إلا مدفوعة ولو في حدود هذه العوامل .

وهنا يرد سؤاله : هل للعامل الاقتصادي أى مكان أو تأثير أو اعتبار في ظهور الإسلام في مكة

على يد رسول الله، وهل كان هذا العامل هو الدافع لانقصاره في المجاورة وخارجها . وهل هذا العامل هو الذي دفع المسلمين إلى أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم .

إن القول بأن ظهور الإسلام وانقصاره كان بسبب وبدافع العامل الاقتصادي يهدف إلى قطع صلة الإنسان بالسماء ويلقي وحى الانبياء، كما نشر الفكرة الأخرى : ف فكرة انقصار الإسلام بالسيف إلى أنه ليس في الإسلام من المثل والذريعات ما يجذب الناس، ولم يكن انتشاره قائماً على الاختيار، بل كان للقوة والقهر إلى تغيير اقتصادي أثر مشارك، فأدى إلى مجيء الإسلام وإلى حدوث الانقلاب الإسلامي الذي يعتبر أكبر تغيير وأعظم انتقال تقدمي شهده تاريخ الإنسان قاطبة . وهل اندفاع هؤلاء الحفنة من العرب من الأماصير يبشرون بالإسلام جاهلين جهادهم لإحلال كلمة الله في الأرض وتطعيم الطواغيت كل الطواغيت هدفاً ترخص في سيده النفوس، اندفعوا بتأثير عوامل اقتصادية . إن العقيدة الإسلامية لم تكن الحدث الذي غمر وسائل الإنتاج والمنافع الاقتصادية، بل وصاحبها حسب مفاهيمه كما تكون خادمة للحياة الإسلامية، متمشية ضمن منهاجها دائرة في فلكها . والإسلام نظامه الاقتصادي للاستقلال، بل إنه في سبيل الأهداف الإسلامية تنازلت تلك الجماعات التي حملت الإسلام إلى العالم من كافة منافعها الاقتصادية وكل الدوافع المادية وضحت بجميع إمكاناتها المالية .

الباب الثالث

التاريخ : وطني وقومي وإسلامي جامع

- (أولاً) روافد التاريخ الإسلامي .
(ثانياً) التاريخ وطني وقومي وإسلامي .
(ثالثاً) العروبة والإسلام .
(رابعاً) مصر للعربية الإسلامية .

الفصل الأول

روافد التاريخ الإسلامي

من أخطر المحاولات التي جرت في العصر الحديث وفي ظل المناهج الوافدة في كتابة التاريخ الانعطافية التي أُنشأت ثلاث روافد في الحقيقة نابعة من المجرى الأكبر ولكن الاستشراق والتغريب كان حريصاً على أن تستقل هذه الروافد وتنفصل عن المجرى الأصلي وأن يقوم لها وجود خاص : تلك هي الدعوة إلى كتابة التاريخ القومي وإلى كتابة التاريخ الإسلامي . ومن ثم نفدت دراسات تاريخية قائمة على الوطن والأرض وظهر ما يسمى تاريخ مصر ، تاريخ مصر ، تاريخ سوريا ، تاريخ العراق ، وتاريخ لبنان ... إلخ . وقد ظهرت هذه الدراسات في إبان سيطرة النفوذ الأجنبي وسعوية الاحتلال البريطاني والفرنسي ، وكان الاستعمار حريصاً على أن تقوم هذه الإقليميات في كل مجال : في مجال اللغة والتاريخ حتى تنفصل الأقطار وتنشأ أجيالها لا تعرف إلا تاريخاً محدوداً هو تاريخ قطعة الأرض التي يعيشون عليها وكأنها قد انفصلت عما يحاورها واستغلت منذ فجر التاريخ إلى الآن ، ولذلك فإن التاريخ الوطني كان في منطوقه زائفاً في غايته فأخيراً وكانت المحاولة مضللة ، فإن هذه التقسيمات التي سميت أقطاراً إنما جاءت بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن انفصلت عن دولة الخلافة الإسلامية التي كانت تجمع أغلب البلاد العربية تحت لوائها . والتي كان تاريخها كله متصلاً منذ ظهور الإسلام .

وافقد أهم التاريخ الوطني بدراسة الآثار القديمة حيث انبثقت الحفريات ما يسمى بالفرعونية في مصر بالآلهورية في العراق وبالفينيقية في لبنان ، وقد استهدفت كتابات التاريخ الوطني رد العرب والمسلمين إلى تاريخ سابق لتاريخ الإسلام من ناحية وإعلاء هذه العناصر التي لم تكن في حقيقتها إلا موجات انطلقت من الجزيرة العربية والتي تجمع بينها وحدة الأصل .

كذلك حاول الاستعمار السيطرة على هذا التاريخ الوطني وقد أطلق عليه التاريخ القومي على أساس أن المصريين قوم والسوريين قوم والعراقيين قوم وهو إطلاق زائف .

وقد فرض الاستعمار في دراسة تاريخ هذه الأوطان على أنها بلاد لم تتحرر طوال تاريخها وذلك
تدبيراً لوجودها تحت الاحتلال الغرب ، وبالنسبة لمصر فقد كانت دراسات التاريخ إبان الاحتلال تعلم
الغريب أن هناك تاريخ يوناني وفارسي وعربي وبريطاني ، وفي المغرب كانوا يعلمون أن تاريخ المغرب
هو تاريخ روماني خلال ألف سنة ، فلما بدأت هذه الأقطار تدخل مرحلة الاستقلال وكان النفوذ
الأجنبي لا يزال قائماً فإن هذه الأقطار ربطت نفسها بالتاريخ القديم السابق للإسلام في محاولة للاستعلاء
بالفرعونية في مصر وبالأشورية في العراق وبالفينيقية في لبنان .

وفي سوريا عندما دخلت مرحلة الاستقلال كانت الدعوة إلى العودة إلى العروبة القديمة الجاهلية ، وقد أهدى
شأن هذه العروبة القديمة حتى صورت بأنها عقيدة ، وجرت محاولات كثيرة لإعطائها ونسبت إليها
بطولات وحضارات وذلك حتى تصبح منافسة لمصر الإسلام ، بل لقد حاولت أن تنسب كل أجداد
الإسلام وحضارته إلى هذه المرحلة الجاهلية ، وهذا ما أخذت به بعض الدعوات السياسية ، وينقسم
التاريخ الحديث اليوم إلى تاريخ وطني وإلى تاريخ قومي ، فالتاريخ الوطني يتصل بالأرض ، والتاريخ
القومي يرتبط بالجنس العربي وكلاهما جزء من التاريخ الإسلامي العام الذي تضم الحلقات الثلاث ولا
يعتبر واحد منهما تاريخاً مستقلاً بذاته . ولا ريب أن المحاولات كلها كانت تستهدف قطع تاريخ
الأقطار العربية عن أصولها الإسلامية وخلق مقدمات زائفة لوضعها القائم ، ولكن كيف يمكن فصل
تاريخ مائة عام من حياة أمة عن تاريخها خلال أربعة عشر قرناً وكيف يمكن نقلها عن امتدادها القومي
إلى الوطن العربي ثم إلى الوطن الإسلامي الكبير والحق أن محاولات كتابة التاريخ على أنه (تاريخ
وطني أو تاريخ قومي) ما تزال قائمة في كثير من الأقطار وإن تحررت من التبعية الاستعمارية فإنها لم
تتمكن حتى الآن من التماس الأصالة في إعادة التاريخ الوطني أو التاريخ القومي إلى مكانهما الصحيح
باعتبارهما رافدين من روافد المجرى الأكبر الذي هو تاريخ الإسلام الذي يربط هذه الأقطار من
ناحية البدء ومن ناحية المراحل ، من ناحية الامتداد التاريخي وناحية الامتداد الجغرافي .
ومن حق الأصالة الإسلامية علينا أن نفهم وضع تاريخ الأقطار والأوطان العربية الإسلامية من
التاريخ الإسلامي العام فنعرف أن التاريخ المصري أو التاريخ السوري أو التاريخ العراقي أو التاريخ
المغربي ليس إلا حلقة من حلقات التاريخ الإسلامي ترتبط به ولا تنفك عنه ، ولا سبيل إلى انفصال
الوطن عن الأمة ولا انفصال الأمة عن وحدة الفكر الجامعة التي شكل بها الإسلام هذه الأمة الجامعة
عرباً وفرنساً وتركاً وغيرها من عناصر . الحق أنه لا سبيل إلى انفصال الحلقات الثلاث سواء في مجال
التاريخ أو الفكر أو الأدب ، كذلك فليس ذلك الماضي منذ ظهور الإسلام إلى الآن مما يمكن أن يوصف
بأنه منقطع أو أنه ميت بأي حال من الأحوال بل إنه ما زال يحيا في الحاضر ويمتد فيه ، وعلينا أن
نتقيظ إلى هذا التحدي الخطير الذي يحاول الاستشراق والتعريف تحقيقه هو قطع العصر الحديث عن
الحلقات المتتابعة من رسالة الإسلام وتاريخه واللغة العربية والأدب العربي ، فتلك محاولة متصلة في كل
هذه المجالات وهي مضادة للفطرة والعلم والطبيعة الأشياء . ولن يستطيع أي قطار من هذه الأقطار أن
يمش في تلك الحدود الجغرافية التي تحددها أرضه أو في الحدود التاريخية التي يحددها عمارته الإقليمية ،

فإن المنطقة كلها منذ جاء الإسلام فقد ارتبطت ارتباطاً فكرياً وتاريخياً وجغرافياً لا فواصل له من ناحية إمتداد المصوّر ولا في الإمتداد الأرضي. فإن هذا العالم الذي شكله القرآن إطار (لا إله إلا الله) قد ترابط بالعميقة والفكر والثقافة والمفاهيم والقيم ، ولذلك فإن كل محاولة لردّه إلى حدود ما فاصلا بين العرب والعفرس واليهود والترك هي لمحاولة باطلة . فليس الوطن إلا بمثابة حلقة صغيرة داخل دائرة أكبر هي دائرة العروبة ، ثم إن العروبة نفسها ليست إلا حلقة في دائرة الأمم التي جعلها الإسلام على فكر موحد وعلى عقيدة واحدة ، فهي متلاقية جميعاً بفكر صراع ولا انفصال على غير النحر الذي تمر به أوروبا والذي حاول دعاة الإقليميات الضيقة نقله إلى أفق الإسلام .

ونحن نرى أن الإمتداد التاريخي هو في حد ذاته ليس إمتداداً يقوم على العنصر ولكنه يقوم على الفكر منذ رسالة الحنيفية الإبراهيمية التي شكلت أهل التوحيد والتي واجهت كثيراً من التحديتات التي حاولت أن تخرجها عن جوهر الإخاء الإنساني إلى العنصرية التي فرضتها بعض تفسيرات اليهودية وغيره حتى جاء الإسلام ليربط نفسه من جديد بالحنيفية الإبراهيمية ليقم هذا المفهوم الجامع المتكامل .

(٢) إن النفوذ الغربي مثلاً في التغريب والاستشراق يعرف مدى خطر دراسة التاريخ في بناء الأمم وخاصة إذا كان للأمم تاريخاً قوياً مليئاً بماخر البطولات والمواقف الحاسمة على مقاومة الغاصب من ناحية ، ورحمة وسماحة وإخاء على النحو الذي تحفل به فصول تاريخ الإسلام ، ولذلك فقد كان (الاستعمار والصهيونية والمباركسية) في مجاهها كنفوذ يحاول التأثير على الوجود الإسلامي أن يعمل على تشويه هذا التاريخ في وقائعها ، وأن يعمل على تمزيقه تحت دعوات قومية التاريخ وعالمية التاريخ وكلا الدعوتين تعملان على مقاومة وحدة التاريخ الإسلامي الذي تعتبر التاريخ الحديث الآن في البلاد العربية وفي مختلف أجزاء الوطن الإسلامي جزءاً منه لا ينفصل ، سواء من ناحية الفعل أو رد الفعل ، فإن ما يمر به التاريخ الإسلامي الآن في العالم الإسلامي ليس إلا ثمرة المرحلة السابقة له وإن تاريخ أي وطن عربي أو إسلامي لا يمكن أن يدرس أو يفهم إلا في هذا الإطار الجامع ، بل إن ظاهرة الاستعمار الغربي نفسه لا يمكن أن يدرس في الأقطار التي احتلها النفوذ الأجنبي منفصلة عن تاريخ الإسلام نفسه منذ مجره وفي خلال مراحل التوالي . كذلك فإن ظاهرة الغزوة الصهيونية لا يمكن أن تدرس منفصلة عن أبعادها التاريخية والجغرافية في العالم الإسلامي .

وكذلك لم يكن في الإمكان دراسة الحروب الصليبية وغيرها من المواقف الحاسمة في تاريخ الإسلام منفصلة عن التاريخ الإسلامي العام . بل إن التاريخ الوطني لأي قطر من هذه الأقطار لا يفهم ولا تفسر أحداثه إلا إذا نظر إليها في الإطار الجامع . ولقد كان هدف الاستشراق من الدعوة إلى قومية التاريخ أن يعزل المسلمين والعرب عن تاريخهم المديد المتصل وأن يفهم بأن يدهور إلى أن يكون لهم وجود حديث منفصل يقوم على الإقليمية منفصلاً عن العروبة والإسلام جميعاً . كذلك فإن الدعوة إلى (قومية التاريخ) التي تحمل لواءها مخططات النفوذ الأجنبي ، ليست هي الدعوة الوحيدة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي ، وإنما هناك الدعوة إلى عالمية التاريخ التي تحمل لواءها مخططات اليهودية العالمية وكلا الدعوتين تستهدف تحطيم وحدة التاريخ الإسلامي الذي أقامه الإسلام وتمزيق كيانه الأمة .

حول أحكـر من تيار ، وإذا كانت دعوة قومية التاريخ تعمل من شأن (الإقليمية) وترفع شأن (العنصرية) فإن الدعوة إلى عالمية التاريخ تستهدف القضاء على ذاتية الأمة الإسلامية وإفساد طابعها المستقل وصهرها في أتون العالمية والائمية التي تقضى على خصائصها الخاصة ووجودها القائم بذاته ، ولقد كان المسلمون حريصون دائماً على الأخوة الإسلامية الجامعة من ناحية ، فهم ينكرون الإقليميات والقوميات الضيقة ، ومن ناحية أخرى فهم حريصون على الاحتفاظ بذاتيتهم وشخصياتهم وكيانهم الخاص أن يذوب أو يتأثر بأي مؤثر من مؤثرات الاحتواء .

(٣) وبالجمله فإن محاولة تقسيم التاريخ الاسلامى إلى تاريخ وطنى وتاريخ عربى وتاريخ إقليمي وتاريخ قومى مصرى أو سورى أو مغربى الخ هو هدف ضخم من أهداف الاستعمار ، وقد تخصص أكر من مستشرق فى هذا المجال ، منهم من يخدم الاستعمار أو يخدم الماركسية أو يخدم الصهيونية ، وقد طرح التخریب والغزو الثقافي فى الثلاثينات (مؤامرة) الفرعونية والفينيقية والاشورية من أجل رد مصر والشام والعراق عن ارتباطها الاسلامى الممتد خلال أربع عشر قرناً إلى صلات قديمة تتعلق بما كُففت عنه حفريات الآثار ، وقد جرى الاستشراق شوطاً طويلاً فى محاولة إحياء هذه الدعوات ثم تبين له العجز المخزى عن وجود أى خيط من الخيوط التي تربط هذا الماضي البائد بالحاضر سواء من ناحية اللغة أو الاخلاق أو التقاليد ، ثم تبين أن هناك انقطاع حضارى عميق المدى بين هذه العصور البائدة وبين الاسلام .

ثم تبين بدلائل قومية أن ما يسمونه الفرعونية والاشورية والكنعانية والفينيقية ما هي إلا موجات عربية متتابعة تدافعت من داخل الجزيرة العربية حيث استطاعت أن تستقر فى أجزاء مختلفة من امتداد الجزيرة العربية إلى ما بين النهرين فى وديان العراق وسوريا وأرض النيل . كما تبين أن هذه المنطقة التي يطلق عليها الوطن العربى هي جزء من العالم الاسلامى مرتبطة به تاريخياً وجغرافياً وثقافياً وأن هناك تكامل اقتصادى واجتماعى بين مختلف أجزاء العالم الاسلامى وأنه من العسير أن تمثل هذه التفسيحات السياسية الاستعمارية أى معنى من معانى الاكتفاء الذاتى .

الفصل الثاني

التاريخ وطني وقومي وإسلامي أولاً: التاريخ الوطني

جرت المحاولة في ظل الاستعمار والنفوذ الغربي إلى ما أطلق عليه تصير التاريخ ، ويعني هذا خلق تاريخ مصري مستقل عن التاريخ الإسلامي ، ويقوم على أساس أن مصر كيان قائم بذاته منذ فجر التاريخ كانت لها حضارتها القديمة ومدنيتها قبل خمسة آلاف سنة . وهي حضارة سابقة للإسلام وغير متصلة بالعرب قوامها الأهرام والمعابد والنفيل ، وأن هذا الكيان قد واجه موجات الغزو الخارجي المختلفة . ثم يذهب دعاة هذا المفهوم إلى تصور أن دخول مصر في العروبة والإسلام إنما كان غزواً حربياً . وقد قال بهذا سلامة موسى وطه حسين . ثم يجرى للعرض التاريخي على أساس أن مصر ظلت بعد تمزيقها وإسلامها كياناً مستقلاً إلى اليوم . ولا يذهب أن هذا العرض خاطئ من الوجهة العلمية التاريخية ، ولكن مبرر هذه الهوى في نظر البعض أنها دفاع عن الكيان الوطني في وجه حملات الاستعمار الذي صور مصر على أنها ليست وجوداً وطنياً ، فاستخدم للتاريخ الفرعوني وامتداده القديم ليكون رداً على هذه الاتهامات غير أن النفوذ الأجنبي استغل هذا ليكون دهوة إقليمية وانفصالية من العنصرية العربية والهجرة الإسلامية وقد تمكشفت في دحض هذه المحاولة حقيقتان :

(الأول) أن للموجة الفرعونية إلى مصر كانت موجة عربية من قلب الجزيرة وأن اللغة المصرية وخليفتها ذات صلة وطيدة باللغة العربية في غالب مصطلحاتها وتركيبها .

(الثاني) أن هناك (انقطاع حضاري) ثابتاً وكيداً وحميق بين عصر الإسلام وكل ما قبل الإسلام . ولقد جرت محاولة أخرى لكتابة تاريخ مصر الحديث على أنه تاريخ وطني ، وأطلق عليه عبد الرحمن الرافعي (تاريخ القومية المصرية) استمداداً من محاولات قام بها الجبرتي . ومضى في هذا الطريق محمد صبري وشفيق غربال وغيرهم في محاولة لحصر تاريخ مصر في حدوده التاريخية والجغرافية في العصر الحديث منفصلاً عن الكيان العرب المتصل بها من حولها والعالم الإسلامي كله .

وقد حاولت هذه الأبحاث تصوير الحركة الوطنية في مواجهة الاحتلال البريطاني الذي بدأ عام ١٨٨٢ وما قبل ذلك من إرهابات في مصر إجماعاً على أنها حركة وطنية مجردة ، ولكن المؤرخين والباحثين الغربيين وغيرهم كشفوا فساد هذا المفهوم وبينوا أن الحركة الوطنية في مصر والحركات الوطنية في طائفت أجزاء البلاد العربية والإسلامية كانت إسلامية المصدر وأن حركات المقاومة كلها استمدت

فوتها من مفهوم الجهاد الاسلامي وأن الأذهار في مصر كان هو المصدر الحقيقي لحركة المقاومة والحركة الوطنية نفسها ، وأن الحركة الوطنية أيام هرابي كانت إسلامية الوجهة وكانت تؤمن بالجهامة الإسلامية ، وكذلك كانت الحركة الوطنية التي حل لوائها الحزب الوطني إسلامية تؤمن بالحركة الوطنية داخل إطار المفهوم الإسلامي والجهامة الإسلامية التي كانت تمثلها الدولة العثمانية ، وقد كان الأمر كذلك في كل مكان وحصل إليه الاستعمار غير أن النفوذ الاستعماري عمد إلى القضاء على هذا الوكيل من المجاهدين (محمد فريد وعبد العزيز جاويز وغيرهم) لفتح الطريق أمام إعداد جيل جديد يؤمن بالنفوذ الأجنبي ويتعامل معه ولا يرفضه ، ويقبل سياسة المراحل وهو ما حقق كرومر إيجاده بإلغاء المدرسة المتفرجة الموالية للأجنبي والمعجبة بأوروبا والحضارة الغربية ، وعلى رأسها لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي وغيرهم (اقرأ تفصيل ذلك في كتابنا : حركة اليقظة) . وقد كشف هذا كثير من الباحثين فأثبتوا بأن زعماء السياسة في البلاد العربية كانوا يقاومون النفوذ الأجنبي فرسباً كان أو انجليزياً في نفس الوقت الذي كانوا يعتقدون فيه الفكر الغربي ويعجبون بالحضارة الغربية ويتحركون في إطار النظام السياسي الديمقراطي الغربي ، ومع ذلك فإن الحركة الوطنية والدعوة إلى مقاومة الاستعمار كانت إسلامية المصدر وبالرغم من إزاحة الاستعمار للزعيل الأول فإن روح الحركة الوطنية ظلت إسلامية وإن انحرفت عن مفهومها الجامع وقصرت نفسها في إطار العمل السياسي والحزبي الذي كان لا بد أن يتكامل بظهور الجماعات والهيئات الإسلامية التي حملت لواء تصحيح مفهوم الحرية والسياسة ودفع المفهوم الوطني إلى التكامل في إطار الاسلام الجامع .

وبصور هذا محرر جريدة سيكتيتور البريطانية عام ١٩٣٥ فيقول : دما هي حركة القومية المصرية وما قيمتها إذا كانت تتجاهل التقاليد القومية ، ولا تظهر شعورها نحو ماضي بلادها الحر . فالمصري العصري بدون استثناء تقريباً يفضل الطاهر الكاذب المموء وهو عادة مظهر فرنسي كاذب ويؤثره على تقاليده الثقافية . ومصر بلد إسلامي متعلم وبها حركة وطنية ومع ذلك فإن وطنيتها تستنكر كل مظهر للروح الاسلامي والمصري يحاول اليوم بإدراكه وشموه أن ينسى طبيعة الاسلام ، فتراه يقطع نفسه وينفصل عن أصوله الأدبية والثقافية في الحين الذي يستسلم فيه عن عجز وضعف إلى العوامل العصرية الخالية من الحياة الحقيقية .

لقد رأى اللورد كرومر الخطر السامن في ترسيخ الشقة بين مصر الإسلامية ومصر السياسية ولهذا السبب تأتي خطة الشيخ محمد عبده تأييداً صادقاً ولكن الرجال الذين يرون ما يرى الشيخ محمد عبده هم اليوم أقل عدداً منهم منذ أربعين سنة ولا ريب أن مصر السياسية تفقد تراثها شيئاً فشيئاً ، متى فاز الوطن المصري بالحكم الذاتي المطلق الذي يطلبه فإنه لا يجد لديه شيئاً من تقاليده الأدبية والفنية والثقافية تستطيع أن تستخدم هذا الاستقلال السياسي لفائدتها وترويضها . إن الوطنية دون الشعور بالتقاليد أو الجنس لا تصالح لأن تكون قاعدة تستطيع الطبقة المتعلمة أو تستمد منها أي ثبات أو تشريع له قيمته ، وقد علفت مجلة الفتح على هذه الكلمة فقالت : إن الزعماء السياسيين يتظاهرون بعدم التحسك بالاسلام تقريباً إلى الا فرج والا فرنج يبتسمون لذلك في سرهم ابتسامة الاستخفاف ، ولا يخفي على

كاتب مقالة السبكتينثر أن سياسة الاستعمار صاحبت طويلاً لإفراغ سياستنا في هذه القوالب بما لها من السلطان على مناهج التعليم والغربية وعلى حياة الصحافة التي تكون العقائد السياسية والأدبية في دروس قرائها وبما السياسة الاستعمارية من الأساليب في ترقية من يؤيدونها من المتعلمين إلى المناصب ذات التأثير في حياة الشرق ، فسياسة الشرق وقادته هم تلاميذ هؤلاء العاملين من الغربيين في الغالب ، وقدما بهذا من ذلك شرق يهتفل بالسياسة .

ثانياً : التاريخ العربي

طرح حركه التغريب والغزو الثقافي مفهوم (القومية) الغربي لتدمير مفهوم التاريخ الإسلامي الجامع بين المروية والإسلام ، ولقد كان مفهوم دعاة المروية منذ أن سقطت الدولة العثمانية يحصل هذا الترابط الجامع بين الإسلام والمروية ، غير أن المحاولات لم تلبث أن دفعت نظرية القومية العربية التي تقوم على أساس اللغة والتاريخ والتي عرفتها أوروبا في معارضة مفهوم الوحدة المسيحية الجامعة وعملاً على هدم الترابط القائم في ظل الكنيسة الغربية وإقامة الصراع بين العناصر المختلفة ، لاثنية وسكسونية وجرمانية . وقد اندلعت في أوروبا حروباً متعددة وخلافات كثيرة وسالت دماء كثيرة ، وقد استهدف الذين نقلوا مفهوم القومية الغربية إلى العالم الإسلامي خلق هذا الصراع بين المسلمين والعرب . ولقد حاولت حركه التغريب والغزو الثقافي ومن تابعها من الأحزاب العربية حول مفهوم المروية من أصالته والدعوة إلى علميتها بغية القضاء على مفهوم الأصالة الذي يقرر أن المروية ذات أرضية إسلامية أو على حد تعبير (ويفرد كاتول سميت) الذي يقول إن تاريخ الشرق الأدنى والحديث ، يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة للملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تنجح الجهود القائمة . ولقد استقلت نظرية السلالات والعنصرية استغلالاً شديداً في تدمير الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية . وذلك بدعوى أفضلية العنصر الأبيض صانع الحضارة . ومن هذه المحاولات ما قام به دعاة مفهوم القومية الغربية في الغرض من العود الذي قام به الإسلام ومحاولة إعلاء التاريخ العربي قبل الإسلام ، وقد تكشف زيف هذه للقايم جيماً وأثبتت الوثائق والأسانيد أن الإسلام بالنسبة للعرب هو مصدر كيانهم ووجودهم فإن الإسلام هو الذي صاغ العرب صياغة جديدة وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر والثقافة ، وليس على أساس الجنس والعرق ، وكان لهم بمثابة السور المنيع الذي حرم من المواد وحطم الطغاة ، وهو الذي دفعهم إلى أفق المجال العالمي ، وهكذا ندين أن موقف العرب من الإسلام يختلف عن مفهوم القوميات الأوروبية من دينها وعقائدها فضلاً عن أن الإسلام معارض لموجة العنصرية وإعلاء السلالات ، وهو الذي حلل إلى البشرية دعوة الأخاء البشري . إن ساطع الحضري ومبشعل عقل وأنطون سمادة قد عرضوا ونقضوا أكثر من مائة نظرية في القوميات والأفليميات ليس من بينها نظرية واحدة عربية أو إسلامية أصيلة ، وكلها نظريات واحدة من المسابيا وفرنسا وإيطاليا وبينها نظريات معارضة ومتضادة ونظريات تعتمد على المشيئة وأخرى على الثقافة للمعركة وثالثة على الأرض ورابعة على اللغة والتاريخ ، وكلها يختلف مع طبيعة الفكر الإسلامي

ومنطلقاً ومفاهيمه وقيمه . وقد تبين أن العروبة الحقة لا تنفصل عن أرضية الإسلام وقيمه وأن العروبة ليست مفهوماً مستقلاً بذاته وإن تكون معارضة أو مضادة للإسلام وقيمه وأن مصطلح القومية والدين الغربي يختلف عن مصطلح العروبة والإسلام وأن بين هذه وتلك فوارق بعيدة المدى فليس الإسلام ديناً كالاديان وإنما هو عقيدة ونظام مجتمع ، وليست العروبة كالقومية فإن هناك اختلاف بين حالة الصراع للعديد الذي عرفته أوروبا بين الدين والقومية وحالة الالتقاء العميق بين العروبة والإسلام . والواقع أن التاريخ الإسلامي في مراحله المتصلة والمجيدة خلال أربعة عشر قرناً لم يفصل بين المسلمين العرب والعرب ، ولا بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين إلا حين بدأ الاستعمار يستغل الشعور الديني لفرقة الأمة الواحدة واحتواء بعض الأقليات لخدمة أهدافه في حرب الإسلام ، وأن الخلافات التي وقعت بين المسيحيين والمسلمين كانت بفعل الاستعمار وأن المذابح من الدروز والسنّة كانت من تأثير النفوذ الأجنبي ، ولقد كان للاستعمار الغربي أثره في تغذية المصنّيات الدينية ولم تحدث في الدولة العثمانية تغذية للمصنّيات أو فرقة بين الأديان أو بين العرب والترك إلا حين تولى الحكم فيها الاتحاديون حلفاء اليهود وعملاء المحافل الماسونية الذين شكاهم الرسائل الأجنبية .

ولقد عمد التغريب والغزو الثقافي إلى تحويل الحركات الوطنية إلى عقائد قومية بإعلاء المصنّيات والعناصر وترسيخها في مجال الحياة الفكرية والسياسية مع تفكيك العرب في رسالة الإسلام والتخلص من العقائدية التي تقيم الترابط بين المسلمين ، وقد وصف الدوس هكسلي هذه الدعوات المنصرية والقومية والاقليمية بأنها الأصنام الجديدة التي رفعتها الحضارة الحديثة والتي جعلت من الوطنية أو القومية آلهة تعبد من دون الله .

ثالثاً : التاريخ الإسلامي

منعت التيارات الثلاث في ظل النفوذ الأجنبي والتغريب تعمل لتحريف مفهوم وحدة التاريخ الإسلامي الجامع بين عنصرى الوطن والقومية معاً ، وذلك لحث صراع لا يحقق الوصول إلى المفهوم الجامع وكتاب التاريخ الإسلامي لم يتمكنوا من وضع منهج جامع لأنهم كانوا يعملون داخل الدائرة المجرّفة فكانت كتابات جرجي زيدان تستهدف إعلاء شأن الأمويين والفض من شأن عصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين . أما كتابات محمد عبد الله هان فقد كانت صوراً لا تعكسها وحدة ولا هدف ، لا تستهدف الدعوة إلى وحدة التاريخ الإسلامي وإن كانت تعارض مفهوم العروبة ولكنها تملّ مفهوم المصرية ، وكانت كتابات أحمد دكي باشا تلاحق بعض القضايا المثيرة وقد قصرت كتابات عبد الحميد العبادي على سلامتها هذه العصر الأول ، كذلك فإن رفيق العظم توقف عند بعض البطولات الإسلامية الأولى ، وفي مقابل ذلك جرت محاولات طه حسين في إثارة الشبهات حول ما أسماه لفقنة الكبرى حين تعرض للخلاف بين هان وعلي ومعاوية لجمع مختلف الخيوط التي عرّض لها الاستشراف للدفاع عن وجهة نظر معينة قوامها إنكار وجود عبد الله بن سبأ اليهودي أو تبرئته من الاتهام في مؤامرة مقتل هان .

ولقد كان الهدف الرئيسى من مختلف كتابات الاستشراق ودعاة التغريب غاية واحدة هو (إيجاد الصراع والتناقض بين العروبة والاسلام ، وكان برنارد لويس قد تخصص في إثارة شبهة دهوة ممارسة العرب للمدء العرفى ضد الموالى والونوج ، بينما نجد عشرات الباحثين والمؤرخين يؤكدون المعاملة المكرمة التى عامل بها العرب الافارقة ، ويقول المؤرخ توينب : إن الحضارة العربية من الحضارات النادرة فى التاريخ التى لم تتخذ موقفاً عرقياً من الافارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لأنها اتخذت موقف الاستعلاء على العرق الأبيض فى بيئته وزوما ، كذلك وجهت شبهات نحو مفهوم الوحدة الاسلامية دون أن تلتفت إلى أن الوحدة التى دعا إليها الاسلام هي وحدة ثقافة فكرية وعقائدية لا فكرة عنصرية ، فقد عرف الاسلام وحدة الفكر وجعلها مقدمة على كل العناصر ، فالاسلام يقيم روابط المجتمع على العقيدة والاخاء بين المؤمنين بصرف النظر عن أجناسهم أو لغاتهم أو سابق تاريخهم . وقد أكدت حقائق التاريخ أن الاسلام قطع ما قبله من عصور الجاهلية وأن ذلك التاريخ القديم قد انطوى تماماً بعد أن عاشت اليونانية والرومانية والمسيحية أكثر من ألف سنة ، فلما جاء الاسلام قطع هذا التراث وقضى على الفكر واللغة وأقام مفهوم التوحيد الخالص بدلاً منه فى منطقة واسعة تمتد من الشام إلى مصر إلى المغرب كله ، ومن ثم أصبح البحر المتوسط فاصلاً حقيقياً بين حضارتين ودينين وثقافتين .

هكذا فقد استطاعت قوى الاستعمار والتغريب أن توقع الصراع بين العرب والأتراك العثمانيين على النحو الذى فصل بينهما وكان ذلك لحساب الاستعمار والنفوذ الأجنبى الذى استولى على هذه المناطق العربية وكانت المحاولة التاريخية ترمى إلى تزييف العلاقات بين العرب والأتراك منذ بدأت وتصورها على أنها علاقة استعمار بينما لم تكن كذلك وإنما كانت علاقة لقاء فى إطار الاسلام لمقاومة الغزو الغربى الذى كان يحضر لمجولة ثانية بعد هزيمته فى الحروب الصليبية .

لقد كانت محاولة الفصل بين العرب والترك من أكبر مخططات الاستعمار التى تمتع من طريق كتابة التاريخ على نحو من التزييف والتضليل فى محاولة لخلق تصور عربى منفصل عن الاسلام ، وقد حملت الارشاليات على تنفيذ هذه السحوم وتبناها دعاة الفينيقية والماسونية والاتحاديين فى سبيل تزييق وحدة التاريخ الاسلامى والوجود الاسلامى الجامع الذى يربط بين العرب والأتراك . وقد جرح المؤامرات نحو هذا الهدف حتى استطاعت أن تقيم خندقاً واسماً بين المعنصرين المسلمين كانت له آثار بعيدة المدى خلال أكثر من خمسين عاماً ؛ غير أن هذه العقبات لم تلبث أن ظهر فسادها ، كما تبين هدف المؤامرة من تزييق أديم العالم الاسلامى لحساب الصهيونية والاستعمار والشيوعية ، وتبين أن الوطن العربى جزء من العالم الاسلامى تجمعه رابطة الفكر والثقافة والعقيدة وأن الدولة العثمانية تمتد للعالم الاسلامى أكثر من أربعمئة سنة من الغزو الاستعمارى الغربى .

(راجع كتابنا : الاسلام والغرب : المجلد الثانى)

الفصل الثالث

العروبة والإسلام

في مجال تكامل العروبة والإسلام يمكن أن تقدم الحقائق الآن :
(أولاً) ليس بين العروبة والإسلام تناقض ولا تضاد بدليل أن كل إنسان يستطيع أن يكون عربياً ومسلماً في وقت واحد ، وقد اجتمعوا في الرسول وصحبه فكانوا عرباً وكانوا مسلمين ، وأن القرآن كتاب الإسلام وكتاب العربية ، فهو الدين لمن أراد الدين ، وهو البيان والبلاغة لمن أراد البيان والبلاغة . ويقول الأستاذ علي الطنطاوي : وما الذي يبقى من العربية إن لم يكن فيها محمد والقرآن ، هل يبقى إلا المملكات السبع وحرب البوس وموقعة ذي قار . إن هذه دائرة كبيرة ودائرة صغيرة : الكبرى هي الإسلام والصغرى هي العربية . فالعربية تنطوي في الإسلام إلا جانباً منها ، والعرب المسلمون لا يتناقضون مع أنفسهم حين يفرقون بين صفتين قائمتين ، والفكرتان من التداخل بحيث لا يظهر الخلاف بينهما ولا يستطيع التلاصق فحريده العربية من الإسلام .

(ثانياً) العروبة جزء من الإسلام بل هي نتاج الإسلام ، فالإسلام هو الحركة التي جمعت العرب كلهم على إيمان واحد ، ولولا الإسلام لبقي العرب في جزيرتهم قبائل متفرقة لا قدر لها في تاريخ الحضارة الإنسانية ، وللإسلام على العرب فضل توحيدهم وفضل إطلاعهم في معارج الحضارة وفي الحياة الإنسانية وأن العرب توحدوا بالإسلام وأن الإسلام جعل منهم قوة عالمية حاملة لواء الحضارة (عمر فروخ) .

(ثالثاً) الإسلام هو التراث الحضاري للعرب مسلمين ومسيحيين ، والإسلام هو الذي وحد مفاهيم العرب وحدد مقاييسهم الأخلاقية فنقلها من وحدة الأرض ووحدة الدم إلى وحدة الفكر والعقيدة .
(رابعاً) كانت فكرة القومية عند أمم الغرب مقترنة بالصرع واحتقار الأمم الأخرى ، ولكن العروبة لتتكامل مع الدول الإسلامية وتلتقي معها في الأخاء البشري والتعارف ، وقد اعترف للمستشرقون بأن الحركات القومية التي قامت في أنحاء العالم الإسلامي لم ترم إلى ما رمت إليه أوروبا من إجهاد قوميات مستقلة متنافسة ، هذا إلى أنه لم ينشب ولا ينتظر أن ينشب قريباً بين الشعوب الإسلامية منافسة اقتصادية كهذه المنافسة العنيفة التي طالما أوقدت نار الكفاح والنزاع بين الدول الأوروبية . وقد أراد الله تبارك وتعالى للأمم أن تسير في طريقها السوي وأن تتعارف بالمعنى الواسع الذي يقتضيه حسن الصلة والأخاء والامتزاج .

(خامساً) يجب معرفة الفرق بين مصطلح الدين بصفة عامة وبين مصطلح الإسلام ، فالدين بالمعنى الذي يستعمل به هو العلاقة بين الله والإنسان ، وإن كان الإسلام يجمع العلاقة بين الله والإنسان وبين الإنسان والإنسان ، فالإسلام ليس ديناً لاهوتياً لحسب وإن كان له ذلك نظام مجتمع . ومن هنا فإن

القول بإبعاد الدين عن مفهوم القومية هو مفهوم غربي ، لأن الغرب أقام الصراع بين الدين والقومية ، لأن الدين لم يكن نظاماً اجتماعياً كاملاً عنده ولا كذلك العروبة فهي مرتبطة بالاسلام لأنها منبثقة منه .

(سادساً) الاسلام لا يفصل العروبة عن الاسلام كما دعا إلى ذلك ساطع المصري ومدرسة التفريبيين ، ولا يفصل الدين عن السياسة كما دعا إلى ذلك علي عبد الرازق ودعاة الشعبوية .

(سابعاً) أكد الباحثون فضل الاسلام على الوجود العربي نفسه . يقول الفريد كانتول مهميث : الاسلام هو الذي خرج بالعرب من ديارهم إلى العالم . فالاسلام سبب عظمة العرب الدينية ، والعرب هم الذين نشروا الاسلام في بقاع العرب ، ونحن نؤمن بأن العرب مادة الاسلام ، حملوا رسالة الله إلى العالمين . ولكن ليس لهم من أجل ذلك من أثر يوحى بالاستعلاء على المسلمين . كذلك فإن الاسلام هو الذي حوّل اللغة العربية . حتى قال أحدهم : إن الاسلام هو الدين الوحيد في العالم الذي ملا نفوس معتنقة غراً وإعجاباً ، وهم ينظرون إلى لغتهم بوصفها اللغة التي اختارها الله لإظهار دينه ، وهي اللغة التي يتعلمها كل من أراد أن يتخذ الاسلام ديناً له . يقول الرسول ﷺ : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما العربية لسان . فمن تكلم بالعربية فهو عربي (رواه الحافظ بن حساكر بسنده إلى مالك عن الزهري) .

(ثامناً) غير الاسلام موقف الأمم فأعلى رابطة الفسك والعقيدة وحال دون الاستعلاء برابطة العنصر والعقيدة والنسب . ودعا إلى الخروج من عصبية الجاهلية وإبدالها بأخوة الاسلام ، فلم يبق بعد الاسلام نسب ولم تصبح القرابة هي الرابطة . فلا يفرق بين المسلمين اختلاف لون ولا تبين لسان . وعندما يدخل الإنسان في الاسلام يكون واحداً من جماعة له ما لها وعليه ما عليها ، ولا يفضل الاسلام عربياً على أعجمياً ، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى . وأدخل العجم في العربية لغة وفي الاسلام ديناً ، ففشا علماء لحول كاروا مصابيح الهدى (البخاري ، الطبري ، الموزري ، التفريزي ، الجرجاني ، الأصفهاني ، القزويني ، الفهرزبادي ، أبو حنيفة ، سيوطي ، ابن سيرين ، الرمشمري) . وكلهم كتبوا بالعربية . ويقول الرمشمري : الحمد لله الذي جعل من علماء العربية وجمالاً على الغضب للعرب . وقد أشار علماء الاسلام إلى أن الاسلام امتاز عن سائر الأديان بأنه دين وقومية جامعة وأه سياسة وعقيدة . يقول الأستاذ محمد سليمان : (ولما كان الاسلام ديناً وجنسية فقد رفع الحدود بين الأمم الثلاث تدين به ، وكره أن يدعى فيها بدعوى الجاهلية ، وجعل أصحابها جميعاً إخواناً تؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا فضل فيها لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . ولما لم يكن المجموعات البشرية من رابطة تنصب لها وتمتص بضرورتها فإنه هو دين التوحيد ودعوته للاتحاد ، كان لا بد للمسلمين من وحدة عامة وعصبية عامة ولسان عام . وقد ثبت الاسلام عربياً وبمث على لسان رسوله العربي ، ونزل قرآنه بلسان عربي مبين . فصح لهذا أن يتزوج الفرع بأصله وأن يتحد الاسلام بالعربية وأن يكون لسان شعوبها قاطبة . وقد نمت هذه النظرية أيما نمواً وأخلص المؤمنون العمل بها فمدت العربية ذلك المنبسط الأسوي الأفريقي إلى حدود جبال البرية في أوروبا وذلك ما يجب له علماء الاجتماع الآن .

لقد دعا الإسلام إلى استغراب هذه الأمم حين جعل العربية أساس العبادة بين العبد وربه ، وأوجب على كل مسلم تعلم شيء منها يقيم به صلاته ، وجعل فهم القرآن وهو غاية كل مسلم معلقاً على درس العربية وفهمها وجعل حب النبي وقومه من أصول الإسلام ، كما أوجب الحج لتكون تلك القبلة وهذا الوادي أحب إلى المؤمن من داره وبلده . وهكذا جاء الإسلام نصياً وجنسية ، فقد ربط الإسلام بين الجنس والوطن وجعل الفسكرة هي الفائرة الأوسع وأعلى من شأن الفسكرة والعقيدة عن الجنس (القومية) والوطن (الأرض) ولذلك فإن مفكرو الإسلام لم يكونوا يصعدون عن أقطارهم ولسكنهم كأولئك يصعدون عن فسكرة طائفة الإسلام .

(تاسعاً) لقد كان هدف التغريب والفرو الثقافي لإحلال العروبة بديلاً عن الإسلام وإعطائها صورة العقيدة وتمزيق الوحدة العقائدية الفسكرة بالسلالات القومية والدهوات العنصرية القائمة على استغلال الدماء ، وما سبق الإسلام من تاريخ وأحداث وآثار وهي قوميات وهمة اندثرت وماتت وانقطعت عن الحياة بالإسلام ، ولم تعد بأهل وأشور والفراشة تستطيع أن تبعث في النفس العربية والإسلامية شيئاً .

(عاشرأ) الإسلام وليس العروبة هو الذي حيى الوطن العربي من الصليبيين بعد أن تم تكوين أربع إمارات صليبية ، لجاء صلاح الدين الكردي المسلم لينشل العروبة من هونها التي كان في الإمكان أن تستمر ، والمماليك هم الذين حووا الأرض العربية من التتار الذين دخلوا بغداد وأزالوا الخلافة الإسلامية وجعلوها مدينة للموت والدمار . لقد قاتل المماليك الذين هم من جنس التتار لا من جنس العرب باسم الإسلام لإخوانهم في الجنس . وفي الجزائر بعد مائة وثلاثين عاماً من القضاء على الكيان الجزائري عثروا على اللغة العربية استطاع الإسلام أن يبعث الأمة من جديد ، فقد رفع ابن باديس راية الإسلام من جديد فأضاءت شعلة العروبة ، ومن هنا فقد تبين أنه حيث يسقط الإسلام يسقط العرب وأنه حيث يسقط العرب ليعدم عن الإسلام فإن الإسلام هو الذي يبقى لهم أملاً ومنقلاً .

(حادي عشر) يقول مورويديو في كتابه (العالم العربي اليوم) إن العروبة تعني الإسلام ، وإن الابتعاد بالعرب عن الإسلام معناه انفصال البناء عن أساسه ، وقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعني قوة الإسلام .

الفصل الرابع

مصر العربية الإسلامية

كانت حقيقة مصر العربية الإسلامية هدفاً من أهداف التغريب والغزو الثقافي في محاولة جارية لتزييف هذا المفهوم وإثارة الشبهات حوله ، وخلق عدد من الدعوات وفي مقدمتها المصرية الفرعونية والمصرية الخاصة ومصر العربية في محاولة للحيلولة دون قيام مفهوم مصر العربية الإسلامية الأصيل. فالعمل على تهمزة التاريخ إلى وطني وقومي كان عملاً أساسياً من أعمال الاستعمار والتغريب ، بل إن التاريخ الحديث عربياً ومصرياً يجب أن تهاد كتابته في ضوء مفهوم وحدة التاريخ الإسلامي ، ذلك أن هذا التاريخ الغام كُتب بطريقة مضلّة، حتى أن بعضاً من أبطال هذا التاريخ والذين لا يزال نعدم أبطالا تحوم حولهم كثير من الشبهات في خدمتهم الاستعمار والصهيونية . وقد رد كثير من الباحثين أسباب نمكة ١٩٦٧ إلى فساد كتابة التاريخ الوطني والقومي ، بل يقول البعض : أن السبب الحقيقي في النمكة يرجع إلى أن الجيلين الماضيين قد خططوا لتشكيل حياة الإنسان المصري تشكيلاً خاصاً وصيغه صيغة معينة لا تخدم في الواقع إلا الغرض الذي يخدم اليهودية العالمية والاستعمار والماركسية . إن أسئلة كثيرة حافلة بالشك تدور في عقول كل من يحاول الدرس على أساس سليم . ويرد البعض اضطراب مفهوم التاريخ الحديث إلى عدم وجود مدرسة أصيلة للتاريخ بدلا من الارتباط بركاب المدارس الأوروبية وفرض منهج وافد على تفسير التاريخ المصري العربي الإسلامي حتى أن بعض أساتذة التاريخ المعاصرين اعتكبروا مجتمع القرامطة مجتمعاً اشتراكياً ووصفوه بأنهم أول من سار في اليسار من العرب العاربة والمستعربة . يقول الدكتور سيد الناصري : إن الذي يشجع على عملية التزوير التاريخي هو غياب الوعي القومي . فإذ لنا ندرس التاريخ على أنه قصص حاملة دون الاستفادة من دروسه الأخلاقية والسياسية على أساس منهج عصري يخدم واقعنا ومستقبلنا ويضع أمام الناس خلاصة التجارب التي تناسب مشاكل الساعة وتساهم في عملية الخلق والابتكار خاصة وإن هناك أخطاراً تهدق ببلادنا وحضارتنا ، ولا ريب أن مقطع الأمر في دراسة التاريخ الحديث والمعاصر هو أن يكون وطاء لفهم الأخطار التي تحيط بهذه الأمة اليوم ومؤشراً لاتجاه الرياح وكاشفاً لمخططات الاستعمار والصهيونية والماركسية في التآمر على هذه المنطقة الواحدة : العربية الإسلامية . وقد أشار كثيرون من الباحثين إلى الأخطار التي أحدثت بكتابة التاريخ القومي والوطني لمصر وكثير من البلاد العربية في مواجهة تيارات ثلاث خطيرة :

(١) محاولات الاستعمار الغربي وتفسيراته . (٢) محاولات الصهيونية وتفسيراتها .

(٣) محاولات العرب والعرب وتفسيراتها .

ومن هنا نجد أن تاريخ مصر والبلاد العربية يكتبه إما أمريكيون أو بريطانيون أو يهوداً وماركسيين

وأن ما يكتبه رجال الجامعة الأمريكية إنما يكتب من وجهة نظر غربية أوروبية وما يكتبه أمثال الدكتور محمد أنيس وغيره إنما يكتب من وجهة نظر ماركسية، وبذلك فإن أجيالنا الجديدة تقرأ تاريخها الوطني (الذي هو جزء من التاريخ الاسلامي) على غير حقيقته فقد صور لها الأبطال في تاريخها تأتهم وراء سحب من الدخا والغموض بينما وضعت حالات التقيد والإكبار حول الذين خانوا كفاحها. ففي ظل الاستعمار البريطاني وصف زعماء مصر الموالون له بالبطولة بينما وصف الذين قاوموه بأنهم كانوا من الموالين للدولة العثمانية.

وكانت كتابات المؤرخين الأجانب ترى إلى رفع شأن أسرة محمد علي وتبرئة إسماعيل، وتفسير الأحداث التي كانت مقدمة للاحتلال البريطاني تفسيراً توصف فيه بأنها قبول الحضارة الحديثة. كذلك فإن أسماء المجري ورجال الدين الأفغان ومحمد عبده وعمران ظلت وقتاً طويلاً تحاك حولها الشبهات لأنها قاومت أسرة محمد علي وقاومت الاحتلال البريطاني. بل إن ما كتبه المجري عن أسرة محمد علي ظل وقتاً طويلاً مما يمنع إعادة نشره. وكانت الحكومة المصرية في عصر أسرة محمد علي (وفي عصر إسماعيل بالذات) تشترط في عقودها مع المطابع النص على عدم طبع الجزء الثالث من كتاب عجائب الآثار للجبرتي. وفي السنوات الأخيرة استغل الماركسيون رفاة الطباطبائي وصوروه على أنه داعية للإقليمية المصرية، كما استغلوا المؤرخ المقرئ، وصوروا أبحاثه بأنها تفسيراً ماركسياً لتاريخ المصري.

وجاءت كتابات الدكتور محمد حسين هيكل وعبد الرحمن الرافعي وأمين سعيد عن التاريخ الوطنى ملوثة باتجاه خاص لكل منهم، فالدكتور هيكل وبيب حزب الأحرار الدستوريين خصوم الوفد، والرافعي تلميذ مصطفى كامل ومحمد فريد وخصم الأحزاب السياسية الوفد والأحرار وغيرهم. وأمين سعيد كان موالياً للاحتلال البريطاني وله ولاء معه فلم تعطى أية كتابة من هذه الصورة الحقيقية للحركة الوطنية خلال الفترة التي أرغتها عند ما عكس كل مؤرخ انتماءه السياسى وتبعيته، وكذلك فإن كتابات محمد صبرى كانت تمثل المدرسة الفرنسية في التاريخ وكانت كتابات شفيق غريبال تمثل المدرسة البريطانية في كتابة التاريخ.

أما مذكرات أحمد شفيق فكانت تمثل الولاء للأسرة المالكة وإن تخرجت في بعض مراحلها من هذا الولاء وإن ظلت تمثل عقلية أحمد شفيق ربيب الدراسات الأجنبية. وكذلك كانت مذكرات إسماعيل صدق تمثل الدفاع عن جميل من الموالين للاستعمار والرأسمالية الغربية. وهكذا نجد أن جميع المادة التي بين أيدينا ذات انتماء غربي، ولما جاءت بعد ذلك كتابات محمد أنيس وجماعة الماركسيين فإنها كانت ذات انتماء لمذهب لتفسير المادى للتاريخ. وكلا الطريقتين لا يمثلان المفهوم الأصيل للتاريخ الوطنى كجزء من تاريخ الاسلام العام. وعند ما عقد مؤتمر لندن (أبريل ١٩٥٥) لمناقشة تاريخ مصر الحديث، كان المسيطرون على المؤتمر أمريكيون وبريطانيون يجمعون بين مفاهيم الرأسمالية الغربية واليهودية العالمية. وكانت أسماء الصهيونيون بارزة (ناداف هيرمان) جبرائيل باتر، جاكوب لانداد، فاينكوتش، برنارد لويس ومؤلاء جميعاً لهم مواقف ضد المصريين والعرب.

وقد أشار الباحثون إلى عشرات الكتب التي تصدر في مختلف أقطار العالم : بل إن هناك مؤلفات صدرت اشترك في كتابتها عدد من أساتذة مختلف الجامعات : الجامعة العبرية بالقدس وجامعة لندن وجامعة أكسفورد ومدرسة الفنون الشرقية والأفريقية في لندن وجامعة بنسلفانيا الأمريكية - حول تاريخ مصر الحديث بعنوان التغييرات الاجتماعية والسياسية في مصر ، والجديد في هذا الكتاب محاولة لتصوير مصر في الستينات بمصر أيام للماليك في ضوء تفسير مادي للتاريخ . ونرى الذين يعملون في حقل الدراسات التاريخية في مصر والبلاد العربية قد احتواهم أحد التيارين : التيار الرأسمالي والتيار الماركسي وكلاهما خاضع للتفسيرات الصهيونية ، ومن هنا فإنه كلما ارتفعت الأصوات بإعادة كتابة تاريخ مصر الحديث لغير بأن الأمر لن يكون أكثر من الانتقال من التبعية الغربية الرأسمالية إلى التبعية الماركسية الشيوعية في تفسير التاريخ من خلال العلاقات الاقتصادية . وأن المدرسة التي اشتغلت بكتابة تاريخ مصر كانت محتواه في إطار حوزيتها وفي مفاهيمها الضيقة ، ومعنى هذا أن كتابة تاريخ مصر ستظل مقيدة بسلاسل فوق سلاسل الأولى دون أن يكون قادراً على تفسير تاريخ مصر تفسيراً إسلامياً أصيلاً باعتبار أن مصر جزء من الوطن العربي والأمة الإسلامية ، بل إنه عندما يعلن أحد الكتاب أن الصحافة هي مصدر خطي لكتابة تاريخ مصر الحديث فإننا نجد أن الصحافة المصرية نفسها في هذه المرحلة كانت محتواه للتفوذ الفرنسي أو الإنجليزي وأن الصحف المصرية الحالية كانت محتواه للحرية السياسية التي كانت قد قامت على أساس مفهوم مصر المصريين ، فهي لم تكن في يوم من الأيام قائمة على فهم مصر في إطارها العربي الإسلامي ، فهي إما وطنية خالصة أو منتمية إلى العروبة ولكنها في نفس الوقت لا تتحرك في إطار المفهوم الإسلامي الجامع ، فإن هؤلاء الذين نشأوا في ظل المفهوم الحزبي والسياسي المصري كانوا يبدؤون تاريخ مصر من الحملة الفرنسية ويتحدثون عن عصر محمد علي وإسماعيل والثورة المصرية ١٩١٩ والأحزاب السياسية إلخ ، ويتحدثون عن بطولات هذه الفترة : عمر مكرم وهرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول إلخ ، وهذه الكتابات بلونها الغربي (شفيق غربال) والماركسي (لويس عوض - محمد أنيس إلخ) لا تخرج عن دائرة الإقليمية والسخط على الدولة العثمانية والإعجاب بالغرب والتألم في إطاراته ، ولا يزيد التفسير الماركسي عن التفسير الغربي للتاريخ إلا تلك المحاولات البهيمية التي ترمي إلى الحديث عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنهم جميعاً يفتقون موقفاً واضحاً من الخصومة للدائرة العربية والدائرة الإسلامية ، وهو نفس الامتداد الذي عرفته المدارس السياسية التي بدأها حزب الأمة ثم حزب الوفد والأحرار والسمديين وغيرهم ، وهو القائم على التحرك من داخل دائرة الولاء للحضارة الغربية والفكر الغربي ومخاضة الإنجليز سياسياً ومتابعة الغرب فكراً وقبول تنظيماته الديمقراطية .

ومن الحق أن يقال إن التحليل الغربي للتاريخ مغرض وناقص وأن التحليل الماركسي للتاريخ ليس كافياً فضلاً عن ماديته الخاصة ، وهناك عوامل أخرى كالعوامل الاقتصادية تؤثر في حركة التاريخ وخاصة للعوامل المعنوية . وما تحدث به عن مصر هو بمثابة الصورة المكررة في مختلف أجزاء الوطن العربي ، فإن الاستعمار الذي دفع مؤرخي مصر على اعتبار أن بداية تاريخهم هو الحملة الفرنسية هو

الذي أوم الجزائريين أن يبدؤوا تاريخهم هو عام ١٨٣٠ وهو العام الذي احتلت فيه فرنسا الجزائر . وقد أضاف الاحتلال في مصر ، كما أنشأ في كل مكان ، أجيالا تنتسب إلى الاستعمار (الانجليز في السودان والعراق) والفرنسيين في (تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان) كل ما تتكون منه شخصية هذه الأقطار الحديثة من أسباب الرفاهية والتقدم المادي ، وكما حجب على الجزائريين تاريخ الإسلام الحضاري في الشرق وفي بغداد وقرطبة ذلك التاريخ الذي أفادت منه أوروبا كل الفائدة ، فقد حجب عن المشاركة معرفة تاريخ المغرب والاندلس ، وظلت كتب التاريخ وخاصة تاريخ الأدب تناول مصر والشام والعراق والجزيرة وحدها على أنها هي الوطن العربي . ولقد حرص الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الإسلامي حجب ما سوى التاريخ الإقليمي الذي لونه بلون الولاء للدولة المحتلة وربطه بتاريخ العرب يقول أحمد سيكوتوري : لقد تعلمنا نحن المثقفين الأفريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياته جان دارك ومابلهون ، وقرأنا لامرتين وميرج موليه ودرسنا التنظيم الإداري لفرنسا كما لو كانت بلادا أوروبا وليست إفريقيا ، ولقد قدم الاستعمار لنا من العلم ولائفاقة القدر الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بمجلة الاستعمار .

(٢)

فتح مصر

يعد فتح مصر الإسلامي أضخم الأحداث فاطية في تاريخ هذا القطر ، بل إن بعض المؤرخين المنصفين يصفه بأنه أعظم انقلاب اجتماعي عرفته مصر في تاريخها القديم والحديث . يقول السيد عبد الدين الخطيب : كل الذين كتبوا تاريخ الفتح الإسلامي لمصر يقولون مهوتين أمام المعجزة التي تمت لعمر بن العاص من الوجهة الحربية بل إن نتائج المعجزة الأدبية والاجتماعية والقومية أعظم من ذلك بكثير لأنها قد عجز عن مثلها أمم الأرض وأقربهم الفرنسيون في الجزائر منذ ١١٥ عاما إلى الآن مع توفر وسائل الطباعة وأدوات التأثير والضغط . يقول : وليست معجزة الإسلام في فتح مصر تنحصر في عدد الجيش الفاتح ولا ما يحمله من عدة ولا بما كان لهذا الجيش من نصر عجيب وتوفيق لا مثيل له ولكن معجزة الاحلام الخالدة في هذا الفتح هي فيما أحدثت من انقلاب اجتماعي حول لغة مصر في أسواقها وبيوتها ومعاهد ثقافتها إلى صف اللغة المصرية التي تتكلم بها اليوم ، فقد حول الإسلام نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وإيمانهم إلى حالة عزت عقول آدمي الأمم عن أن توفق إلى مثلها أو إلى جزء منها فلم تفلح . هذا النجاح في الانقلاب الاجتماعي لم يقتصر به العرب على مصر حتى يبحث له المنتظمون عن حيل خيالية وأسباب وهمية ، بل سبق مثله في الشام والعراق وتلاه مثله في شمال أفريقيا والسودان ولو بقيت قيادة الإسلام في أيدي أمه الأولين واستمرت طريقتهم على ما كانت عليه لوصل هذا الانقلاب بلغته وآدابه وعقائده إلى اليابان وإلى أمريكا . والواقع أن دخول مصر في الإسلام ليس كما يصوره بعض خصوم التاريخ الإسلامي بأنه فتح عربي على النحو الذي عرفته مصر بالفتح اليوناني

والرومان والفراس ، فإن مصر كانت عربية أساساً قبل دخولها في الإسلام ، وكانت للوجعات العربية للتوالة قبل الإسلام بألاف السنين قد وجدت في هذه المنطقة وجوداً عربياً أصيلاً ، بل إن الأبحاث العلمية قد كشفت عن أن الفراعنة هرب وأن لغتهم متداخلة في اللغة العربية إلى نسبة كبيرة من حروفها ومبادئها . وقد كان دخول مصر في الإسلام عاملاً حاسماً في القضاء على العبودية الفرعونية والرومانية وإلغاء نظام الطبقات الذي كان سائداً في جميع حكومات الأسر الفرعونية ثم في زمن الاسكندر المقدوني تلميذ أرسطو وخلفائه البطالمة والرومانيين الجائرين ، أى أنه كان للإسلام شرف القضاء على هذا النظام البغيض بيد عمر بن العاص ، كذلك فقد أعلن الإسلام المساواة في الحقوق والواجبات القانونية والاجتماعية بين أهل مصر ، وأعلنت الدولة الفاتحة عن تنازلها عن حقها القانوني في إلزام غير المسلمين بالاحتكام إلى شريعة الدولة وقضاها في الأمور المتصلة بالدين كالأحوال الشخصية .

والواقع أن الاقباط أصل مصر الأصليين كانوا يتعلمون إلى التحرر من النفوذ الروماني البغيض المنسلط بأسلوبه العبودي العنيف ، ولذلك فقد حقق لهم الفتح الاسلامي هذه الحرية وقضى على هذا النفوذ ، وكان المسيحيون واليهود ينتظرون من قادة الفتح وعامة جندهم الطعن في الانبياء السابقين وفي المسيح وأمه ، فاثبتوا أن رؤوم أعظم حرمة لهذه الشخصيات المكرمة من أهل الديانتين وأبأن تعديها لهم حتى من بعض ما قيل عنهم في التوراة نفسها ، وكان الكهنة وعظام الكنييسة الأرثوذكسية يحسبون أن أبطال الدين الجديد سيحولون بينهم وبين استمرار رئاستهم الدينية على جماهير قومهم فمجبوا حين رأوا رؤساء المسلمين يقرون كل شيء على ما كان عليه ويحرمون معابدهم ، ووجدوا أن الرجال الجدد يكرهون الجدول والمراء ، وقد التزموا طريقة القرآن التي تقول لكل مسلم : ادفع بالتي هي أحسن وجادلهم بالتي هي أحسن ، وانقلب العدو صديقاً .

وكان الحكماء الجدد يعرضون الاسلام على المصريين ويعرفونهم بمبادئه وأهدافه بلسان الحال لا بلسان المثال . كان الاسلام الذي يعرضونه عليهم أخلاقاً يعاملون بها الناس ببساطة لا تصنع فيها ولا تكلف ولا رياء ، وإذا أخطأ جندي من جنود الفتح وجد المصري الذي يقع عليه الخطأ أبواب رؤساء ذلك الجندي مفتحة لكل صاحب ظلامة ، فأحب المصريون دين الاسلام لأنه دين الأخلاق الكريمة ولحبهم للإسلام أحبوا لغة الاسلام فعزموا على أن ينتقلوا إليه باتخاذ لغته ليوثهم وأسواقهم ومجتمعاتهم فتقرب المصريون ليقروا القرآن بلغته التي أنزله الله بها وايصلوا الصلاة الاسلامية بلغة العباد والتي اختارها الله لوحيه وكتابه ولآخر أديانه ، ومنذ ارتضى المصريون لانفسهم أن يتكلموا عربياً من أمة العرب أصبحوا أمة إسلامية في قلب وطن الاسلام ، وقد مضى عليهم بضعة عشر قرناً وهم ثابتون عليهم رغم ما نزل بهم من أحداث .

ويصور أحد الباحثين (مصر بعد الفتح العربي) فيقول : إن جيش الفتح إثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة ، وبدأت هجرات عربية إلى مصر ، أكثرها هجرة قبائل القيسية ثم الغنمية ، ونزلت بطون قيسر بالحدوف الشرقي حول بلبيس ، واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم المتلاحقة أما الاقباط فكانوا أكثرية من الفتح .

قال المقرئ : إنهم كانوا على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم . أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم وديانتهم أجمعهم ديانة الملكية . وكان عددهم يزيد على ثلاثمائة ألف رومي . والقسم الآخر عامة أهل مصر ويقال لهم القبط ، وألسانهم مختلفة لا يكاد أن يميز منهم الحبشي من النوبي من الإسرائيل الأصلي من غديره وكلهم يعاقبة ، وبينهم دين الملكية أهل الدولة من العداوة بما منع الزواج بينهم ويوجب قتل بعضهم ببعضاً .

ودارت الحرب بين العرب والروم وقت الفتح . أما القبط فكانوا هوناً للعرب ، وبعد الفتح كتب عمرو أمناً لبنيامين بطرك الأقباط ، خرج من بيته في الصحراء وطأ إلى كرمى بطروكيته بعد أن غاب عنه ثلاثة عشر سنة ، واعتبر الأقباط أهل ذمة وفرض على كل من بالغ الحلم (دهناران) واستثنى النساء والصبية والشيوخ ، وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة نحو قرن من الزمان ، واعتنى عدد كبير من الأقباط بالإسلام ، وكان من الطبيعي وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين أحدهما في الآخر أن تنشر اللغة العربية بين الأقباط ليكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم ، وظل انتشار اللغة العربية بطيئاً طوال القرن الأول للهجرة ، وقبل نهاية القرن عام ٨٧ - ٥٠٧ م . لجاء الأمر بالدواوين فنسخت إلى العربية وكانت من قبل تكتب بالقبطية واليونانية وتاريخ آخر ورقة كتبت باليونانية ٥١٠١ ، وأقدم ورقة بالعربية ٥٩٠ . وظل التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى إذا كان القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت غالبية الشعب المصري يتكلمون بالعربية ولا يفهمون القبطية بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا في هذا القرن أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية .

وفي القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند ومنعت إعطياتهم ، فانفثروا في القرى المصرية واشتغلوا بالزراعة وتزوجوا من المصريات . وفي هذا القرن امتزج الشعبين ولم يبدأ القرن الرابع حتى كانت مصر شعباً واحداً جديداً هو خليط من الشعبين العربي والقبطي يدين بمظلة الدين الإسلامي ويتكلم سواه مسلمين وأقباط باللغة العربية . واندج الأقباط في العرب واعتنقوا الإسلام .

وبعد تدوين الدواوين أدخلوا يدخلون في الإسلام ويتعلمون العربية لرغبتهم في الإحفاظ بمكانتهم وأعمالهم . وقد اعتنق بعض الأقباط الإسلام فراراً من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم . ولما كثر دخول الأقباط في الإسلام نقص الخراج ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) كتب عامله في مصر أيوب بن شرحبيل إليه يشكو لكثرة دخول الناس في الإسلام وما لذلك من أثر في نقص قيمة الخراج ، ثم استأذنه في فرض الجزية على من أسلم . فرد عليه عمر بن عبد العزيز : دقيج الله رأيك . إن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً . فضع الجزية عن أسلم ، ولعمري لعمري أشق من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يدي . .

وقد كان دخول الأقباط في الإسلام في مصر دخولا طبيعياً يسير مع التطور المنطقي للحوادث والتاريخ في مصر بعد الفتح العربي . ولقد كان لبساطة الإسلام ويسر تعالجه أبعد الأثر في جذب

هؤلاء الأقباط إليه ، وقد شهد بهذا الرأي شاهد من أهل الديانة المسيحية هو سهر توماس أرنولد قال :
والحق أن كثيراً من مسيحي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وهذه السرعة التي اعتنقوا بها
النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي ، كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال
العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون
راجعة إلى اليهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلية إلى الإسلام وأن الأساس اللاهوتي لبقاء
اليهوديين حروباً منفصلاً والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها ودفعوا ثمنها غالياً في هذا السبيل
قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإبهاماً من الناحية الميتافيزيقية ولا شك أن
كثيراً من هؤلاء تحولوا إلى عقيدة تخلص في وحدانية الله البسيطة الواضحة وهي دين محمد .

(٢)

عروبة مصر

جرت محاولات التفكير في عروبة مصر والادعاء بأن مصر شخصية فرعونية مسيحية ، وأن
المصر الإسلامي طارح يسير لم ينهر هذه الشخصية ، وأن مصر كانت مهد الحضارة التي قامت منذ فجر
التاريخ حول البحر المتوسط ، وأنها حملت الدعوة الموسوية والمسيحية ومدرسة الاسكندرية التي
جددت المعتقدات اللاهوتية . وترتبط هذه الدعوة بالدعوة إلى حضارة البحر المتوسط التي كانت فيها
مصر امتداداً للحضارة اليونانية والامبراطورية اليونانية ثم ترمي هذه الدعوة الدولة العثمانية بأنها دولة
استعمارية ، وأن مصر قد تعرض عليها نفوذ الأتراك ويطلق على هذا الاستعمار التركي . ويدعو حملة لواء
هذه الدعوة إلى الارتباط بالغرب وحضارته مع الاحتفاظ بالقومية المصرية ذات الجذور الفرعونية .

ومن هؤلاء الكتاب لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى ومريث بطرس غالى وغيرهم وكل هذه
محاولات تحاول أن تفكك في عروبة مصر وفي أن مصر جزء من الأمة الإسلامية . فإذا أريد معرفة
صلة مصر بالعرب قيل أن مصر يمكن أن تكون (واصلاً) بين البلاد العربية كما هي قادة على أن تكون
(فاصلاً بينها) . والهدف من هذا تحقيق مطمح النفوذ الاستعماري وإبعاد مصر عن الجامعة العربية
والإسلامية وإغرائها بطموح وهي زائف أن تكون أمة فرعونية مصرية قائمة بذاتها حتى يتحقق
هدف القوى الكبرى في الفصل بين الوجود الإسلامي المتكامل بين أفريقيا وآسيا ، وهو مشروع قديم
حاولت الدول الأجنبية تحقيقه للجيولة دون قيام وحدة عربية إسلامية تضم آسيا وأفريقيا .

وقد أثبتت هذه القضية خلال العصر الحديث مرة بعد مرة . وكانت تستهدف في تخطيطها تحقيق
هدف استعماري أو صهيوني أو لدعاة القوميات الوافدة ، فالمسألة لا تدرس أبداً على وجه صحيح ،
ولأننا ندرس بهدف مسبق يرمي إلى إعلاء إحدى التيارات ، ويختلف في هذا دعاة الفرعونية القبطية
عن دعاة الماركسية عن دعاة البعث . وقد تجاهل الجميع الواقع الحقيقي الذي وصلت إليه مكانة مصر

من العالم الإسلامي والوطن العربي ، على نحو قهري تاماً على كل العوامل السابقة لذلك سواء من ناحية مفاهيم الوثنية الفرعونية أو المفاهيم الهيلينية أو الفكر الروماني ، بل إن اللغة العربية قد حلت محل اللغة التي كانت قائمة في هذه البلاد وأنه لم تعد للفرعونية أي آثار واضحة في ذاكرة الشعب المصري مما يدل على أنه حدث انقطاع حضاري ، وأن مصر أعادت تشكيل شخصيتها في إطار العروبة والإسلام . ولم يعد هناك أي تناقض بين الأطراف الثلاثة التي تتحرك فيها مصر : وطناً وعروبة وإسلاماً وهذا الذي نقول به عن مصر نقول به عن كل أجزاء الوطن العربي .

ولقد كانت لاستعملاء فكرة القومية العربية في السنينات أثرها في مخططات التغريب والغزو الثقافي كواحدة من الوسائل لتزيق مفهوم (مصر العربية الإسلامية) وإعادة مصر إلى مفهوم جزئي ، ولكن مفهوم القومية الذي طرح في البلاد العربية كان مفهوماً وافداً وكان منقولاً من نظريات غربية تختلف اختلافاً حقيقياً عن الواقع في البلاد العربية وعلاقتها بالعالم الإسلامي ، وعن مفهوم الإسلام الجامع الذي يقوم على الوحدة الجامعة ويسمح بقيام القوميات في إطارها ، كما بين أن فكرة القومية قد حلت معها فكرة العنصرية وفكرة الدم والنسب والاستعملاء بها عن العنصر الآخر ، وهذا ما يرفضه المفهوم الإسلامي ، بل لا تعدو الحقيقة إذا قلنا أن الإسلام جاء لحرب مذهب العنصرية (كلكم لأدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى)

في الرد على هذه الدعاوى التي جددتها مريت بطرس غالي (١٩٧٤) يقول إبراهيم مذكور : « ليس في بلادنا من يستطيع أن يقول أن أصله فرعون في المائة ، أو شركسي ، أو عثماني ، أو علوكي . إن مصر بالذات من البنيات الاجتماعية والجغرافية القادرة أكبر من غيرها على امتصاص عناصر مختلفة ومتعددة ، والإسلام لم يكن قائماً أبداً على أساس قومي أو عنصري . إن كل تراث قديم لا يمكن إعادته من جديد . ولكن يمكن النظر إليه في ضوء الواقع ، فالفرعونية ، الأمة ينظر إليها في ضوء الإسلام والعروبة وأن هوامل تكرين الأمة هي : الزمن والموقع الجغرافي والثقافة والتاريخ ، والمصرية والعربية بنات عم وأخوات ، نحن في الحقيقة مصريون وعرب . ونستطيع أن نلاثم بين الطرفين ، »

ويحاول أمثال باهور لبيب وزكي شنوده تصور وجود مصري اليوم قائم على الأساس الفرعوني ، وأن الأقباط هم السلالة المباشرة لقدماء المصريين وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث هؤلاء الأجداد وقد ورثوا منهم الملاح والطبايع والأخلاق . ويرد فؤاد محمد شبل على هذه الدعاوى يقول : إن الكاتب انزلق إلى القول بأن الأقباط هم البقية الباقية من قدماء المصريين التي وقعت أمام نواب الدهر وأنهم هم وحدهم الذين ورثوا عن قدماء المصريين التقاطيع والملاح وسائر الأوصاف الجسدية . والكاتب هنا يروج لنظرية ضالة مضللة فإيه مجرد ٩٢ ٪ من الشعب المصري من أصلاته الحضارية ويجعل هذه الصلة وقفاً على المسيحيين المصريين دون أن يستند على أساس ، فهل المواقف يضمن اتصال النسب بين قدماء المصريين والمسيحيين المصريين دون سواهم . ألم تحكم مصر بالفرس واليونان والرومان أجيالاً طويلة قبل الفتح العربي . لقد وفد العرب بأعداد زهيدة وكان السكان وقت الفتح يزاحون بين ثمانية ملايين وأثنى عشر مليوناً ،

فهل يعنى اعتناق المصريين الاسلام وصهورته على مدى الأيام عقيدة أكثرهم الساحقة ، فهل يعنى هذا زوال أصالتهم المصرية ، ولم لا يعنى اعتناق المصريين المسيحية وهى بالمثل عقيدة وفدت على مصر من خارجها زوال صفتهم المصرية وفقاً لمنطق المؤلف ، وإذا كانت المصرية ثقافة ، فلقد تقرب الأقباط بالثقافة اليونانية ، وكما أنهم يستوعبون الآن مثل المسلمين سواء بسواء الثقافة العربية ، واللغة العربية هى اليوم لغة الكنيسة المرقسية ، وهى حقيقة أن المسيحيين المصريين يختلفون فى القد والسحنة والأخلاق والمعاداة عن إخوانهم المسلمين المصريين ، لأنه كما يدعى الكاتب قد تبين للعلماء والأجناس أن التشابه يكاد أن يكون تاماً بين الموميات المصرية القديمة وبين أقباط اليوم ، وبذلك يمكن القول بأن أقباط اليوم هم من ناحية الجنس سلالة مباشرة لقدماء المصريين . فهل يقصد الكاتب القول بأن مصر أمتين : أمة أصلية هى إلى الأقلية انحدرت من أصلاب قدماء المصريين مباشرة وأمة دخيلة هى الأغلبية ؟

(٣)

الانقطاع الحضارى

تؤكد جميع أبحاث التاريخ المنصفة أن هناك انقطاع حضارى قام فى مصر والبلاد العربية بعد ظهور الإسلام ، وأكد توينبى أنه بحث عن الحضارة الفرعونية فى حكيان مصر الحديث ووجد أن هناك انقطاعاً حضارياً ، وأعلن أن الحضارة الفرعونية قد ماتت من قديم .

وقال الدكتور صبحى وحيد : تفهت مصر تفهراً عميقاً شاملاً بعد الفتح العربى مما كانت عليه من قبل فصار أبناؤها يفكرون بالعربية لا بالهيدوغلييفية أو الأفرريقية ، ويشعرون شعوراً إسلامياً لا فرعونياً ولا مسيحياً ، ويتنفسون فى جو آسيا المغولية بعد أن كانوا يتنفسون فى جو البحر الأبيض المتوسط .

وأعلن خطأ الذين يقولون بأن المصريين لم يتفهموا قط وأن الذى تغير وتمصر هو من هبط عليهم من الخارج ، وأن المصريين تفهموا مادياً ومعنوياً .

وأشار حسين فوزى فى كتابه سندباد مصرى : إن التحول الكبير فى حياة مصر بالفتح العربى قد فصلها فصلاً تاماً عن تاريخها السابق مع الفتح الإسلامى ، وأنه من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعاً انفصال مصر عن تاريخها الفرعونى وأنها فى الواقع قد نبذت تاريخها القديم عند ما تحولت من الوثنية إلى المسيحية فى القرون الأولى بعد الميلاد . ويقول جمال حمدان : « إن الفتح العربى لمصر كان نقطة حاسمة بين مرحلتين ، وأن هناك معارضة للقول بالاستمرارية المصرية منذ بدء التاريخ حتى الآن » .

وهذا كله يعنى انقطاع مصر عن تاريخ استمر أكثر من ألف سنة بين الوثنية الفرعونية واليونانية والرومانية المسيحية . وأن الاستمرارية التي عرفتها مصر هي استمرارية الحثيية الإبراهيمية الممتدة عبر أصول الديانتين المذكورتين على موسى وعيسى عليهما السلام ، ويمكن القول بالانقطاع في الفكر والثقافة والعقيدة ولا استمرارية في الحضارة للمادية ، وأن الاستمرارية المادية منفصلة عن الانقطاع في مجال الحياة الثقافية والروحية ، وأن مصدر هذا التغير هو التعريب والإسلام وأن القول بفهم ذلك إنما يعنى تجاهل أكثر من ثلاثة عشر قرناً جمعت بين مصر والعرب في إطار الإسلام . وتؤكد المصادر كلها على وجود الأرضية العربية السابقة للإسلام في مصر والعراق وسوريا فيقول الدكتور حمدان : إن هروبة مصر الفرعونية قبل الإسلام لا تختلف في نوعها ودورتها عن هروبة العراق الآشوري قبل الإسلام أو هروبة الشام الفينيقية قبل الإسلام ، وليس هناك فارق بين نوع الهروبة شرق السويس وغربها . أما القول بأن مصر فرعونية أصلاً عربية مصاهرة هو منطق جاهل ، منطق ما قبل الإسلام ونوع من الردة التاريخية ينسبها الإبن إلى جده دون أبيه أو قبل أن ينسبها إلى أبيه ، ليس العرب هنا الآب الاجتماعي فقط وإنما هم بنفس درجة الآب البيولوجي .

ويقول الدكتور حمدان : إن الانقطاع بالمعنى الحضاري ، هذا الانقطاع يمثل أعظم حقيقة في تاريخ مصر الثقافي والروحي ويمثل نقطة تحول حاسمة وخط تقسيم في وجودنا اللامادي . وهناك من يحاول أن يبالغ في جانب الاستمرارية في كياننا لا ليعبر أصالة ما ولكن ليقطع من جانب الانقطاع وبالتالي ليضعهم البعد الفرعوني في تاريخنا فيبعدنا عن هروبنا ويطمس معالمها ويرى الباحثون : أن الهروبة هي مضمون جنسي ومضمون ثقافي أيضاً قامت على الرحلات والهجرات المتوالية التي عمت حتى أواخر المغرب قبل الإسلام ، وبينما انقطعت الفينيقية والعرونية والبربرية فقد تحققت الاستمرارية العربية وإن كل الغطاء البشري الذي يعطى ما يعتبر الآن العالم العربي هو أساساً فرشاة واحدة من جذر واحد وعلى الأقل فإن الاختلاط والانصهار الدموي بين العرب الوافدين والسكان الأصليين حقيقة تاريخية بعيدة المدى .

(٤)

مصر الفرعونية

الدعوة إلى الفرعونية كانت تقوم على أساس أن مصر ليست عربية ولا إسلامية وهي تحمل الدعوة إلى إحياء الآثار الفرعونية والقيم الفرعونية وبمعنى الأدب المصري القديم على أساس تمجيد مصر الفرعونية والفراعنة العظام والآلهة الخالدين والتبرؤ من العرب والحضارة الإسلامية والقول بأن لمصر كياناً إنسانياً وحضارياً خاصاً وأنها لا تمت إلى بقية الأقطار العربية إلا بصلات وأمية وأهمها الدين واللغة ، وكان الاستعمار ينفذ هذه الحركة ويشجعها ويهد لها بالعون الأدبي وسواه ليفرض على

مفهوم وحدة التاريخ الإسلامى الجامع وليعزل مصر عن الوطن العربى والعالم الإسلامى ، ولكن سرعان ما تبين عجز هذه الدعوة عن الاستمرار لأنها لا تملك من التراث الفرعونى ما يمكنها من توطيد قاعدتها للعمل ، وكان رد الفعل قوياً فى بروز الاتجاه الإسلامى الصحيح الذى يربط بين قيم الفكر الإسلامى وبين اللغة العربية ، وكانت الدعوة الفرعونية فاشية لم يستطع دعاؤها أن يقتنوا بها الناس . وما زلت هذه الدعوة ضد التيار على النحو الذى كتب به سلامة موسى وتلميذه نجيب محفوظ ولويس عوض . وقد دعا سلامة موسى إلى تغيير الحروف العربية إلى حروف لاتينية ، وتبنى هذه الدعوة عبد العزيز فهمى ولكنها باءت بالفشل . كذلك فقد فشلت الدعوة إلى القول بأن مصر جزء من الشخصية الأوروبية على النحو الذى دعا إليه قاسم أمين وطه حسين وتبين أن مصر عربية إسلامية وأن هذه المحاولات إنما ترمى إلى الحيولة دون وصول مصر إلى المفهوم الأصيل . ونحن نعرف لماذا ركز التغريب والغزو الثقافى على الدعوة إلى الفرعونية فى مصر حيث لم يكن الغرض هو إعادة حضارة تعجرت بقدر ما كان لإخراجاً للمسلمين والعرب من قيمهم ومفاهيمهم ، ذلك أن هناك تقارباً واضحاً وتداخلات صريحة بين الوثنية اليونانية والفرعونية والمسيحية فى عديد من النصوص ، وليست كلمة الفرعونية فى المفهوم التاريخى الصحيح إلا فلك النوع من الحكومات الاستبدادية الجائرة والأنظمة المعبودة الظالمة التى عرفتها هذه المنطقة قبل الإسلام ، سواء أكانت فارسية أو رومانية أو هندية أو فرعونية ، هذه المعبودة التى قضى عليها الإسلام فيما قطع من استمرارية التاريخ فى العالم الإسلامى . ونتيجة لذلك فإن هذه الدعوات الفرعونية والفنيقية والبابلية والأشورية وغيرها لم تستطع الحياة وسرعان ما سقطت لأنها ارتبطت بالظلم البشرى والوثنية .

كذلك فقد تسكف زيف الدعوة إلى الفرعونية التى تحاول أن تقول إن المصريين جميعاً أقباط وإن العرب غزاة وأن القومية المصرية تتطلب لغة مصرية منفصلة عن اللغة العربية وأدباً محلياً ، ولقد ظل دعاة التغريب يفتنون النظرية الفرعونية ويوجهونها اتجاهاً منحرفاً للقضاء على الروابط العربية والإسلامية ، السياسية والاجتماعية ، ثم تبين من بعد أن الفراعنة الذين قدموا إلى مصر لم يكونوا إلا موجة من موجات المذرية العربية كما تبين أن اللغة العربية أصل للمصرية القديمة المهدوخليفية ، ولم تكن الفرعونية مفهوماً من مفاهيم التوحيد على النحو الذى يدعيه البعض ولكنها كانت تقوم على نظام الطبقات وسيطرة الأكلهوس من الكهنة فى المعابد فضلاً عن الخمر والخزير وتواييت الموتى والعلامات والرموز بل إن الفرعونية كانت تقوم على ثلاث إيزيس وأوزيريس وحورس ، أما توحيد اخناتون فلم يكن إلا نوعاً من الشرك وعبادة الشمس حيث تقول الأناشيد الوثنية (إشرافك جميل فى الأفق يا إله الشمس الحية . أنت واحد ولكنك تشرق فى أشكالك كشمس مضية) . وقد مات اخناتون من نهم الطعام . كان اخناتون معتقداً بألوهية الشمس فقد وحد الآلهة فى إله واحد هو عبادة الشمس ، ولم تكن آداب الفرعونية إلا آداب الخلد والنفاق حيث يقول بتاح حطب (احن ظهرك لمن هو أهل منك) وهى أخلاق المعبودية والدالة التى حرر الإسلام البشرية منها . كذلك عرفت مصر الفرعونية قداسة الحيوانات وعبادة المعجول والسكباش والأرز والعجل آيس . وعرفت تأليه فرعون حياً وميتاً ،

فقد فرض هورس نفسه إلهاً لوادي النيل وفرض عبادة نفسه على جميع المصريين ، ولما جاءت المسيحية ولأنها لا تشتمل على نظام اجتماعي فقد اضطرت أن تأخذ نظاماً لها من الوثنية الفرعونية وطقوسها وتقاليدها التي كانت في الأصل مستوردة من اليونان ، ومن هنا بدت روح الوثنية تربط بين الفرعونية والمسيحية . وبالجملة فقد كانت الفرعونية هي عبادة الفرد وعبادة الفرعون وعبادة الشمس . ولا ريب أن ما وقعت فيه الفرعونية كان خروجاً على الحنيفية الإبراهيمية التي هرفت بها مصر إيماناً بالإله الواحد ، ظهر أن هذه العقيدة مالبثت أن انحرفت إلى التمجيد في الإنسان والحيوان والجماد فقدموا النيل واتخذوا من السماء والشمس والكلاب آلهة حين ألهموا قوى الطبيعة ، وقد أخذوا من الديانة الهندوكية التثليث ففي طيبة : آمون وجوت وسخت . وفي منف : فتاح وسخت وأموزيس . وفي أمنتدوس : أوزيريس وإيريس وحورس . وإلى أسطورة الثالث المقدس ترد كثير من المعتقدات المصرية القديمة .

الفصل الخامس

شبهات في التاريخ الإسلامي الحديث

ردد الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي عشرات من الشبهات والأخطاء في مجال التاريخ الإسلامي والتاريخ الحديث (عربياً وإقليمياً) يراد بها تدمير مفهوم وحدة التاريخ الإسلامي والغرض من قدرته وانتقاص بطولاته القوية التي كانت كالمسارجل المضيفة في مسهرة المسلمين :

(أولاً) من هذه الدعاوى الباطلة : الدولة الشيوعية القراطية ، وهي محاولة وصف الحكومة الإسلامية بأنها حكومة دينية شبيهة بما حدث في المجتمع الغربي ، ومن الحقائق الواضحة الأكيدة إن الإسلام لم يقم الدولة الشيوعية القراطية على المفهوم الذي عرفه البابوات في حكوماتهم ، ذلك أن الدولة في المفهوم الإسلامي تهمل جميع المواطنين متساوون أمام القانون في الحقوق والواجبات ولكل الحق في ارتقاء أعلى المناصب ما عدا منصب الرئيس ، وحرية العبادة في الدولة الإسلامية مكفولة لجميع المواطنين ، والمبادئ الاجتماعية في الدستور الأساسي توافقت جميع البيانات وإن أعطت تشجيماً لغو العقيدة الإسلامية دونما تمييز للمسلمين عن سواهم بمنافع خاصة ومفهوم الدولة الشيوعية القراطية (أي الدولة الدينية) لا يقوم في العالم الإسلامي قط . ذلك أن الإسلام ليس دين عبادة بمعنى اللاهوت ولكنه أسلوب صالح للحياة العسكرية تسوده الأصالة ويتفوق فيه الجوهر على المظهر ، والدولة الشيوعية القراطية التي تولى أمرها رجال الدين على المعنى المتعارف عليه في الغرب لم توجد في تاريخ الإسلام ولا توجد في شريعته السمحاء ، حيث لا تقر وجود ما يسمى رجل الدين ، فالمعادية والشيوعية القراطية لا وجود لها في الإسلام حيث يتساوى في الدولة الإسلامية المواطنون أمام القانون في الحقوق والواجبات ، وحيث حرية العبادة مكفولة لجميع المواطنين على السواء ، ومن هنا فإن ما يردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الإسلامية

السواء ، ومن هنا فإن ما يردده دعاة التخريب من وصف الحكومة الإسلامية بالدولة الشيوقراطية ليس صحيحاً على إطلاقه حيث لا توجد في الإسلام سلطة للكهنة ، ولم تكن يوماً أداة من أدوات الاستبداد على نمط الحكومات الشيوقراطية التي عرفت في أوروبا ، وليس في التوحيد بين السلاطين الدينية والديوية في الإسلام ما يؤدي إلى شيء من التضارب . فليس الإسلام حقائق روحية خالصة وإنما هي حقائق روحية ونفسية واجتماعية .

(ثانياً) محاولة إطلاق كلمة المصور الوسطى على العصر الإسلامي الواهر ، حيث كانت أوروبا تعيش في ظلمات هذه الفترة ، والمعروف أن كلمة المصور الوسطى على إطلاقها تعني الفترة ما بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر الميلادي ، وهي الفترة التي سقطت فيها الحضارة الرومانية خلال عشرة قرون كاملة إلى أن بدأت حركة النهضة الأوروبية (الرينيسانس) وتحاول كتب الغرب أن تصف هذه الفترة بالمصور المظلمة ، وهذا المفهوم صحيح وصادق بالنسبة لأوروبا وليكنه كاذب ومضلل بالنسبة للعالم كله والفكر البشري عامة ، ذلك أنه خلال هذه الفترة ظهر الإسلام في القرن السادس الميلادي وأثرت شمسها فعمت العالم كله وامتدت من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا وقدمت للإسلامية قيم التوحيد والعقل والإخاء كقومات الحضارة الإنسانية كانت بعيدة المدى والآثر في الحضارة البشرية وفي النهضة التي برغت في أوروبا بعد ذلك ، لذلك فإن إطلاق القول بأنها فترة ظلام دامس هو قول باطل ، وهي محاولة لتجاهل العصر الإسلامي الواهر وذلك وفق اتجاه الفكر الغربي الذي يحاول أن يربط بين الحضارة الرومانية المنهارة وبين الحضارة الأوروبية الجديدة كأنما ليس في العالم إلا أوروبا وحدها . ولذلك فإن إطلاق كلمة المصور الوسطى على العالم كله وعلى عالم الإسلام إنما هو إطلاق ظالم ، فالمصور الوسطى المظلمة إنما كانت كذلك بالنسبة للغرب وحده واسكنها كانت مضيفة مشرقة بالنسبة للعالم الإسلامي (الهند وپارس والأمة العربية والأندلس)

وقمير المصور الوسطى تعبير غربي ينطبق على أوروبا وحدها ، فقد سقطت هذه القارة في الظلمات فترة ما بين سقوط الحضارة الرومانية وعصر الرينيسانس (النهضة) أما في العالم الإسلامي فإن هذه الفترة بالذات كانت الفترة الذهبية بالنسبة للإسلام وحضارته . فإذا أراد دعاة التخريب تعميم هذا المفهوم فإنما يراد به إنكار فضل الحضارة الإسلامية على العالم . (ثالثاً) كذلك حاول التخريب والفكر الاستعماري أن يصف مرحلة القرون الثلاثة السابقة للقرن العشرين بأنها (عصر الانحطاط) وهو تعبير قاس ظالم ، وكان يمكن أن يطلق عليه عصر الضعف والانحطاط ، ولقد تجري القبيات باتخاذ هذه المرحلة أسلوباً لمحكمة الإسلام به ، أو اتخاذ سنداً لرمي الإنسان وفكره بالمصور والانحطاط خاصة فيما يتعلق بظاهرة (الجبرية) التي سادت مفهوم الفكر وأثرت على مفاهيم الحياة والإرادة الإنسانية . ومن الحق أن يقال أن هذه المرحلة لها وجوه ضعفها ولها وجوه قوتها ، أما وجوه الضعف فهي تأثر الفكر الإسلامي بالفلسفات الهندية والفارسية والمجوسية ، التي حملت مفاهيم معقدة مضطربة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من المذاهب التي لا تتفق مع جوهر التوحيد ، والمفروض أن يحاكم الإسلام وفكره وتاريخه إلى أصوله الأولى وإلى اتباع أعلامه الراد ولا يحاكم إلى إنتاج فترة الضعف والجهل التي

توقف فيها الإبداع والتجديد والاجتهاد وغلب طابع التقليد . فالفكر الإسلامي في جوهره الأصيل ما زال معيّنًا إيجابيًا مؤثرًا معطياً الأمم المختلفة والعصور المتعددة دفعات التقدم والبناء والحيوية . أما وجوه القوة فهي تتمثل في عملية (التجميع) التي قام بها المفكرون حيث ظهرت في هذه الفترة الموسوعات الأدبية والفنية والشرعية والأخلاقية التي جمعت الآثار المختلفة الموزعة ، وهي عملية رد فعل لها حدث نتيجة الغزو الصليبي والتتري ، من حرق وتدمير آثار الفكر الإسلامي ، فقد عمد العلماء والأدباء إلى عملية التجميع كوسيلة لمقاومة فناء الفكر الإسلامي وهو عمل نافع إيجابي يدل على القوة لا على الضعف وإن وجه إليه النقد بأنه لم يحرر من وجهة التفسير الفنى أو التحقيق العلمى ولكن التقدير المنصف لأخطار هذه الفترة وظروفها من شأنه أن ينصف العاملين في هذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على إطلاقه .

(رابعاً) حاولت الدعوات الإفليمية أن تفرح لها وجوداً أصيلاً كالفينيقية في الشام والفرعونية في مصر ، وهي محاولة لإثارة التاريخ القديم السابق للإسلام في سبيل القضاء على الواقع التاريخي الإسلامي الحى ، وإثارة دعوة الإفليمية والعنصرية على أساس من أصول الأمم الشرقية القديمة قبل أن يصرها الإسلام في بوتقته ، وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعايات الاستعمارية لدول اللبنانيين عن العروبة وللقول بأن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل الإسلام وجرت المحاولة على اعتبار أن الفينيقيين ليسوا عرباً وأنهم أبناء الإمارات الصليبية وحاول الاستعمار أن يدهوم إلى إقامة كيان خاص غير عربى مرتبط بالغرب ، ولكن الحقائق التاريخية لم تلبث أن تكشف من أن الفينيقية هي واحدة من البطون الفرعونية والآشورية والبربرية العربية التي هاجرت من الجزيرة واندمجت في الأرض العربية شرقاً وغرباً . ولقد حاول النفوذ الاستعماري أن يهند لهذه الفكرة جماعة الحزب القومى السوري الاجتماعي بالدعوة إلى ما أسماه سوريا الطبيعية والأمة السورية وسوريا السوريين والسوريون أمة تامة ذات حدود طبيعية ، وسوريا الكبرى وقد ردد المستشرقون هذه المعاني محاولين إثارة الشبهات بأن اللبنانيين ليسوا عرباً وأنهم والسوريون فينيقيون من أحفاد الصليبيين الذين قدموا إلى سوريا ولبنان .

وقد تصحح هذا المفهوم من بعد إذ تبين أن الفينيقيين عرب خلفوا قدموا من الجزيرة العربية — ولكن الدعوة ما تزال تعمل في مجالات سياسية واجتماعية وثقافية — كذلك استعملت في مصر دعوة الفرعونية بهدف القضاء على الوجود العربى الاسلامى ، واستهدف دعاة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها . وقد فشلت هذه الدعوة في أن تهد لها أرضية تلبس منها حيث لم تهد تراثاً فرعونياً له قيمة ذهنية أو تاريخية أو اجتماعية أو عملاً مكتوباً . وتبين أن حضارة الفراعنة قد تجمعت في الأمرات والتقاليد والمعابد وقد تخطاها الزمن بدعوة التوحيد الاسلامى منذ أربعة عشر قرناً . (خامساً) ومن شبهات الاستشراق والغزو الثقافي محاولة التركيز على الحقبة الفرنسية واعتبارها منطلقاً للعصر الحديث ، وهي محاولة باطلة زائفة بواقع التاريخ نفسه وتجاول أن توحي بأن العالم الاسلامى لم يهض إلا بفضل الغرب ونفوذه ، وأن العرب لم يهضوا إلا بعد أن

غرام الغرب في هقر دارهم ، والواقع أن العالم الإسلامي والبلاد العربية قد تفتت قبل الحلة الفرنسية بأمد طويل ، وأن هذه البقعة بدأت في حوالى سنة ١٧٤٠ م على التحديد حين انبثقت صيحة الإمام محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية بدعوة التوحيد وما كان لها من أصداء واسعة في العالم الإسلامي ، وهذا الواقع يسبق وصول الحلة الفرنسية بأكثر من نصف قرن ويسبق وصول الارشاليات التبشيرية بمائة عام على الأقل ، ومن قبل وصول الحلة الفرنسية كانت حركة العلماء في الأزهر قد وضعت أول وثيقة لحقوق الإنسان مستمدة من مفهوم الاسلام حينما أخذت العهد للكتاب على الأمراء المماليك بأن لا يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أى طرائب أو قيود . ومعنى هذا أن القول بإعلاء شأن الحلة الفرنسية ليس إلا من دعاوى المستعمرين والمستشرقين التي غمرت الكتب المدرسية بفضل نفوذهم ، ونجم المراجع الصحيحة على أن الحلة الفرنسية لم تكن مصدر نهضة بقدر ما كانت عامل تقويض للنهضة الأصيلة والأمة لا تتجدد من خارجها وإنما تتجدد من مصادر فكرها ومن أمثال روحها . وقد ولدت الحلة الفرنسية في مصر ما ولده المعاهد التبشيرية في سواحل بيروت والشام ، ولدت حفراً من المدنية التي مثلوها للناس متقاربة مع ثقافتهم وولدت الحذر قلقاً ، وامتد القلق والحذر بتأثير بعض التصرفات السيئة فأصبح تمسكاً كرهاً على حد قول الدكتور شكرى فيصل : حيث من المستحيل عقلاً أن تصور أن الشرق العربي كان سيظل قائماً لأن لهذا الشعب تاريخاً في الحضارة وقدماً في التقن وجذوراً عريقة ولقد نهضت الشعوب التي هي أقل عراقة منه كالصين والهند واليابان . وعنده أنه لولا الحلة الفرنسية لاستطاع الشرق العربي أن ينهض نهضة حقيقية والشرق له تقبل ذاتي للحضارة ليس مفروضاً عليه من الخارج (سادساً) كانت الخلافة الإسلامية مدفاً من أخطر أهداف الاستعمار والصهيونية فقد استطاع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية في أشد مراحل الضعف وهي ترمى من الدول الأوروبية بالمؤامرات من أجل تهزيقها والقضاء على ما أطلق عليه (دولة الرجل المريض) استطاع أن يحمل لواء الوحدة الإسلامية وجمع المسلمين من خارج الدولة العثمانية لإقامة حاجز ضخم في وجه الوحف الاستعماري الغربي ، وقد نهجت دعوته نجاحاً قوياً أكد وحدة المسلمين الفكرية والاجتماعية والسياسية وكادت أن تفسد مخطط الاستعمار المنفذ إلى السيطرة ، ويواجه الصهيونية العالمية الراحفة للسيطرة على فلسطين . ومن هنا كانت تلك الحلة الضخمة التي ساقتها هذه القوى على السلطان عبد الحميد ورميه باتهامات متعددة أقلها الاستبداد . وقد جرى الباحثون وراء ذلك دون تبين حقيقة ما صاحبه النفوذ الاستعماري من صور وهمة مستهدفاً القضاء على السلطان عبد الحميد عن طريق الجمعيات السرية الماسونية التي سيطرت في سالونيك على جمعية الاتحاد والترقي وساقتها إلى أهدافها بعد إسقاط عبد الحميد من حيث حققت أهدافها في تخليها عن طرابلس الغرب وسقوطها في برائن إيطاليا . ومن حيث تسليم فلسطين لليهود والسماح لهم بالإقامة فيها . ومن حيث دخول الحرب العالمية الأولى في صف ألمانيا وإيقاع الخصومة بين العرب والترك وما جرى من اقتتال العرب والترك المسلمين لحساب الدول الغربية التي سيطرت على الشام (سوريا ولبنان) وفلسطين ثم تسليم فلسطين للصهيونية العالمية ، ثم كانت الخطوة الثانية في سبيل إسقاط الخلافة (علامة الدعوة الإسلامية ودعامتها) وذلك عندما سيطر مصطفى كمال أتاتورك على تركيا وتابع بصورة أشد قوة وحفاً مخططات الاتحاديين والماسونية العالمية .

وكانت خطوته النهائية هي إسقاط الخلافة عام ١٩١٤ ، بما فك هروء الوحدة بين المسلمين . أسلمهم
النفوذ الاستعماري ثم وقوف بريطانيا في وجه أى دعوة للخلافة ووقوف الغرب كله أمام أى دعوة
للجامعة الإسلامية . وقد دعى أحد الماسون من علماء الأزهر إلى وضع كتاب مسخ فيه مفهوم الخلافة
وأخرج نظام الحكم في الإسلام كلية من مفهوم الإسلام وحاول أن يعان زيفاً كبيراً مفترى هو أن
الإسلام دين عبادة جرباً وراء مفاهيم الاستعمار والماسونية وأعداء الإسلام بالإنكار فهم الإسلام في
بناء المجتمع .

(صابعاً) وتتردد على السنة الكتاب كلمة الاحتلال التركي ، وتوصف البلاد العربية بأنها وقعت
تحت سيطرة الاستعمار التركي والاستعمار الغربي وإيراد العبارات على هذا النحو يقصد به تصوير العلاقة
التي كانت بين العرب والأترك على أنها علاقة استعمار أو احتلال ، وهذا مناقض للتاريخ والواقع معاً .
فالرابطة التي قامت منذ ١٥١٧ م حتى ١٩١٧ م بين العرب والترك داخل نطاق الدولة العثمانية لم تكن
في الحقيقة احتلالاً ولا شبيهه وإنما كانت محاولة من محاولات الوحدة والالتقاء بين أقطار العالم
الإسلامي في مواجهة الأخطار والتحديات . وقد جاءت هذه الوحدة على أثر ضعف قوى السلاجقة
والمماليك من بعدهم وتعرض البلاد العربية وخاصة مصر والشام لأخطار الغزو الصليبي الغربي مجده ،
وتلك التحركات التي بدأها الأوروبيون مرة أخرى لاستئناف الحروب الصليبية . والمعروف أن العرب
قد تطلّموا إلى الوحدة الإسلامية العثمانية بعد أن ضعفت قوى المماليك في مصر وأصبحوا هدفاً
لمحاولات صليبية جديدة . وقد وجدوا في العثمانيين إخوتهم في العقيدة منتعشاً جديداً الإسلام وقوة
شابة يدوية مقاتلة ، وفهم راية الإسلام عالية خفاقة وأعادت ذكرى الأبطال في سبيل إعزاز الإسلام
ولفره ، كآر حب العرب في مصر والشام بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن تقموا على دولة المماليك
لإهمالها شأنهم في المرحلة الأخيرة لخاربوا في صفوف العثمانيين .

والواقع أنه لم يكن في هذه المرحلة خلاف جذري بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الإسلامي
هو مظهر الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الإسلامية ،
ومن الحق أن يقال أن العثمانيين قد قاموا في المرحلة الأولى يتمثل مفهوم الإسلام في نطاق الحكم
وتحركوا في إطاره ، ويشهد المؤرخون المنصفون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء الأوائل في العدل
والقسام ، وتمثلوا أعمالهم واتخذوا قدوة وعلموا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء الأتقياء وإنشاء
الجمام والمدارس . ومن هنا فإن القول بأن الرابطة بين العرب والترك كانت استعماراً إنما هو من
النظريات المشبوهة والعبارات المدخولة التي يحاول الغزو الفكري والتبشير والتغريب إذاعتها وإقرارها
في الأذهان . أما ما كان من الخلاف بين الترك والعرب بعد تنحى السلطان عبد الحميد وفي ظل حكم
الاتحاديين دعاة الطورانية فذلك هو الخلاف الحقيقي الذي يموء عليه خصوم الإسلام والعرب ويصفوه
بأنه خلاف بين الترك والعرب وهو في الحقيقة خلاف بين الاتحاديين أقباع الماسونية وأهوار الصهيونية
وبين العرب الذين تصدوا للرعاة في هذه الفترة .

(ثامناً) وهناك خطأ شائع وذائع : هو أن الدولة العثمانية هي التي أساءت إلى العرب وعلفت زعمائهم على المشائقي وأوجدت الفقرة والخلاف ، وكانت سبباً فيما ترتب على ذلك من سيطرة فرنسا وانجلترا على الشام بأجزائه الأربع (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) وكذلك العراق ، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ وبعد أن اتفق العرب مع بريطانيا على إقامة دولة عربية نظير تأييدهم لها .

والحق أن الدولة العثمانية كلفة مهمة عامة . والحقيقة أن (حزب تركيا الفتاة) للاسمى بجماعة الاتحاد والازرق والذي تولى السلطة من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٨ هو الذي دمر العلاقات بين العرب والتريك بدعوته إلى الطورانية ومحاولته تتركب العرب والقضاء على لغتهم وتعليق زعمائهم على المشائقي عام ١٩١٦ . والاتحاديون جماعة سرية كانت تحاول النهضة بالدولة العثمانية عن طريق الوطنية والتخلص من الرابطة الإسلامية ، وقد وقعت في براثن الماسونية فانتحرت إلى العدل لحساب الصهيونية العالمية واستهدفت قطع تركيا عن العرب وإسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وتمدد المدة فمزق الدولة وتسليم الأجزاء العربية وغير العربية إلى الدول الأوروبية على النحو الذي قامت به فعلاً .

أما السلطان عبد الحميد فقد كان يدعو إلى توسيع جبهة المقاومة ضد النفوذ الأجنبي ، وذلك بربط مسلمي آسيا وأفريقيا بالدولة العثمانية ، وكان موقفه من العرب مشرفاً ، وكانت إجابته في مواجهة تحديات الصهيونية لدخول فلسطين من أشرف ما قاله رؤساء الدول وزعماء الأمم عندما رفض رفضاً باتاً إغراء مرتزلة بالملايين من الذهب وقال : تقطع يدي ولا أفرط في فلسطين ، إن فلسطين ليست ملكاً لبلادي ولسكنها ملك للعرب .

ولكن أمثال ساطع الحمصري وجورجي زيدان وغيرهم من الباحثين المتأثرين بأغراض خاصة يطوون هذه الصفحة ويهونها على النحو الذي لا تتكشف منه تلك الفوارق العميقة بين عهد السلطان عبد الحميد وعهد الاتحاديين ، وهم لا يميزون بين موقف السلطان عبد الحميد الذي دفع حياته وعرشه ثمناً في سبيل فلسطين وبين موقف الاتحاديين الذين سلموا طرابلس لعدو وأدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى لنهزم وينتشر عقدها .

الباب الرابع

تفسير التاريخ الاسلامى

(أولاً) تفسير ماركسى غربى صهيونى (ثانياً) التفسير الغربى المسيحى (ثالثاً) التفسير اليهودى (رابعاً) التفسير الماركسى (خامساً) التفسير الإسلامى للتاريخ (سادساً) فى مواجهة التحديات.

الفصل الأول

تفسير غربى ماركسى يهودى

حاول الفكر الغربى عن طريق الاستشراق الغربى والماركسى والصهيونى إخضاع التاريخ الإسلامى لعدد من مناهج تفسير التاريخ الغربى التى تراوحت بين : (أولاً) تفسير غربى مسيحى للتاريخ (ثانياً) تفسير غربى مثالى للتاريخ (ثالثاً) تفسير غربى مادى للتاريخ (رابعاً) تفسير يهودى صهيونى للتاريخ . كذلك فقد حاولت مؤسسات التبشير والاستشراق أن تفرض وجهة دنيئة ووجهة قومية ووجهة عالمية للتاريخ الإسلامى ، وحاول (ويلز) أن يعرض لتاريخ الإسلام من وجهة نظر بشرية ، وحاول (ول ديورانت) أن يعرض له من منطلق ماسونى يستهدف القضاء على الأديان والقوميات ، وحاول (توينبى) تفسيره فى ظل مفهومه للحضارة المسيحية الغربية . وجرت المحاولات بدراسة التاريخ الإسلامى على أنه تاريخ العرب (كما فعل فلييب حتى) أو تاريخ الدول الإسلامية أو تاريخ الدولة العربية أو تاريخ الفتوح والحروب . والواقع أن تاريخ الإسلام هو تاريخ الأمة الإسلامية كلها التى صنعها القرآن وأقامها التوحيد وليس تاريخ الدولة السيامى ، أو تاريخ العرب أو تاريخ إقليم معين أو عصر معين ، مع عدم الخلط بين الإسلام كقرآن وسنة وبين تطبيق الإسلام أو اجتهادات البشر فى تطبيق الإسلام ، ومع مراعاة أن السلوك السيامى لقادة المسلمين وأمرائهم وحكامهم هو شئ آخر غير أصول الإسلام ، وحياة المسلمين هى ممارسات لمبادئ الإسلام وليست هى المبادئ نفسها ، وليس تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب ولا يمكن أن يوصف بأنه تاريخ عربى ، فإن العرب جزء أساسى من تاريخ الإسلام ولكن الصورة لا تتكامل إلا بدراسة المجتمع الإسلامى كله ، فارس وتوكيا والأندلس وجزر الملايو وغيرها ، وأن صورة التاريخ الإسلامى الصحيح لا تكون صحيحة إلا بتكامل هذه الأجزاء التى هى من دعائم الأمة الإسلامية .

(٢) إن تفسير التاريخ الإسلامى عن طريق مناهج التفسير الغربى عجز عن النظرة الصحيحة لحركات ووقائع التاريخ الإسلامى ، فقد قام المكتاب الغربيون الوقائع الإسلامية على ظروف

الامبراطورية الرومانية وغيرها مع اختلاف الظروف والمقاييس ، كذلك فقد كانت نظرة الغربيين الى تاريخ الاسلام ناقصة وقاصرة لانها صدرت عن ذلك الاعتبار الخاطئ . بأن تاريخ الغرب هو تاريخ البشرية وأن ما عدا ذلك ليس تاريخاً ولا يدخل لا في المقاييس ولا في الصورة العامة . وأشد أنواع الخطأ فكرة المحتسبة التاريخية والاجتماعية ، التي يجرى تطبيقها على التاريخ الاوربي . وأشد ما عجزت عنه تفسيرات عنه تفسيرات الغربيين للإسلام عجزهم عن فهم ذلك الجانب المعنوي الروحي : الوحي والنبوة والرسالة السماوية وما يتصل بها من بناء القوة القادرة بإيمانها على هزيمة القوة المادية التي هي أكبر منها عدة وعدداً .

(٣) إن موقف دراسات المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامي تحمل عاملين خطيرين :

(١) المعز عن فهم أبعاد المعنويات (٢) روح الحوى والتمصب والمقصد .

ومن ذلك موقفهم من الحركات الهدامة التي حل لوائها جماعة من الشعبية وللأحادية والمجوسية والمازديكية والباطنية والقرامطة الذين تأمروا بتنظيم حركات مبرية لاقتلاع الدولة الإسلامية وإسقاطها تحت إمسين خادعين هما الموالي ، وده أهل البيت ، إن النظرة الصحيحة المنصفة تكشف عن أن هذه الحركات كانت ذات هدف واضح هو ضرب الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية ومحاولة فرض تعاليم المجوسية والوثنية والاسرائيليات ، وقد ظهرت هذه الحركة بعد ترجمة الفلسفات الماينية واليونانية ، ولا ريب أن في الجمرى وراء هذه المحاولات من شأنه أن ينسكرك الدور الخطير الذي قامت به الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية من داخلها في مجال الحضارة والعلم والتقدم ، وهي محاولة لطمع التاريخ الإسلامي كجزء من طمع العقيدة الإسلامية . وإن المؤامرة في حقيقتها بدأت من الجماعة التي أحسست أن نفوذها قد أزيل وساطاتها قد سقطت ، ولم تكن هذه الحركات صادقة أو كمن أن توصف بأنها معارضة مغلظة واسكنها كانت محاولات هدم وتدمير ، ولقد أثبت الذين قاموا بهذه الحركات فشلهم وزيفهم لأنهم حين سيطروا على الحكم لم يتمكنوا من تنفيذ المثل العليا التي خدعوا بها الناس ولم يستطيعوا أن يقدموا منها شيئاً صالحاً وإنما كشفوا عن أحقادهم الشخصية وفشامهم الذريع ، وتبين أن الدعاة اللامعين كانت لهم صلات مريبة مع خصوم الدولة .

(٤) هناك مجموعة من الأخطاء تكشف عنها المعالجة الغربية لتاريخ الإسلام منها أن علماء الغرب فرضوا التقسيم الغربي للصور التاريخية على تاريخ العالم وتعميم مقايستهم فيها ، فالعصور الوسطى مثلاً هي عصور الظلام في رأيهم ما دامت أوربا كانت في الظلام متجاهلين الحضارة العربية الإسلامية التي كانت متألفة في تلك العصور . وتاريخ أفريقيا السوداء يبدأ عندهم حينما دخلها الرحالة الأوربيون . أما قبل ذلك فليس لها تاريخ ، وتمتد هذه النظرة إلى الفكر العالمي فهو عندهم الفكر الغربي . وحينما يؤلف أحدهم كتاباً بعنوان (تكوين العقل الحديث) لا يتعرض حتى بسطر واحد للفكر العربي في العصر الوسيط أو الفكر الهندي والصيني وفكر بقية الشعوب . وقد تجسدت هذه النظرة في نظريات

ولدت في الغرب في أوائل القرن ١٩ وسيطرت في أوائل القرن العشرين فقصت هذه النظريات شوب العالم إلى فئات : دماء بعضها نقية زرقاء ودماء بعضها الآخر ملوثة سوداء وإلى أجناس عليا وأجناس دنيا ، وذهب الغرييون إلى أبعد من ذلك حين قالوا بأن أسباب تخلف الأمم مصدره وجود خصائص أصيلة في عقلية هذه الأمم تمنع تقدمها ومن ذلك نظرية دجيب ، من الذرية في التفكير رادعائه أنها إحدى خصائص الفكر العربي والعقلية العربية ثم تلتقي هذه النظرية الباطلة مع نظرية اليهودية التي ترى في اليهود شعب الله المختار وقد صدق المؤرخ توينبي حين أعلن أن التاريخ الغربي يفرض سلطانه على العالم ، يقول : إذا ما أردنا نحن الأوروبيين أن نسأل أكثرية سكان الأرض وهي - لاغرية - عن رأيها في الغرب فالجواب الذي سنسمعه هو أن الغرب كان المعتدى للأمم في التاريخ الحديث كما أن شعوب آسيا وإفريقيا ستذكرنا بتخلف المبتغرين والتجار والجنود الغربيين في ديارهم وكيف استرقوهم وشحنوهم عبر الأطلنطي للاحتجار بهم ليعملوا أخداما وعمالا لدى المستعمرين الأوروبيين الجشعين الذين يبعثون عن الثروة..

(٥) شهد الكتاب الغرييون بروح الانصاف التي تملكت في كتابات مؤرخي الإسلام ومفكره للأمم الأخرى وخاصة لأديانها كما شهدوا بعدم انصاف المؤرخين الغربيين في تناول الإسلام ومفكره . يقول هاملتون جب : إن المؤرخ الغربي لم يكن في الأمم الأغلب منصفاً للإسلام والمسلمين فقد أقسم بالرغم من دهور المنهج العلمي لمواظفه وأهوائه وكتب عن الإسلام والمسلمين من زاوية خلافة وتمصبه ولم يستطع إحكام النظرة المنصفة وإنما وضع أمانه صورة مشوهة تكوّنات من خلال الخصومات السياسية والدينية تحاول أن تصور الإسلام بصورة القوة التي زحفت على أرض الامبراطورية الرومانية فانتزعتها منها بعد ألف سنة من سيطرتها عليها وكان المؤرخون الغرييون يضمون دائماً أمامهم خصومتين : خصومة الحروب الصليبية التي اقتحموا خلالها بلاد الإسلام وعادوا مزومين بعد قرنين من الزمان وخصومة المشائين الذين هبوا إلى أوروبا فانتزعوها أجزاء كثيرة منها ووصلوا إلى أسوار فيينا ولايفسون دخول المسلمين إلى الأندلس وهزمهم في دولة بلاط الشهداء . وهكذا يشهد رجال من الغرب بانحراف المؤرخين الغربيين في مواقع اللقاء بين الإسلام والغرب : معركة بوانيه والحروب الصليبية والاستعمار الحديث وقد اعترف بعض المؤرخين الغربيين بأن انتصار كارل مارتل على المسلمين آخر تقدم المدينة في الغرب ثمانية قرون وهو الذي أوقف أوروبا في ظلمات القرون الوسطى ، كذلك حاول المؤرخون الغرييون اتهام المسلمين بحرق مكتبة الإسكندرية حتى براهم و جيون ، واثبت أن الذي حرقها هم الرومان بمراكبهم الحربية في حصارهم للجيش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر .

(٦) عجز المؤرخون الغرييون عن تفسير سرعة انتشار الإسلام فآزال السؤال لماذا انتشرت الجيوش الإسلامية القليلة العدد على الجيوش الضخمة الفارسية والرومانية موضع دهشة المؤرخين الغربيين الذين يقيسون هذه الأمور بالمعيار المادي ، يقول أوربي : لقد حاول المؤرخون الحديثون تحليل هذه الانتصارات الواضحة والفنوحات العظيمة بردها إلى عوامل اقتصادية أو حربية أو سياسية ولكن

تلك التفسيرات غالت حاجة عن التعليل الصحيح فكان لا بد من الرجوع إلى العامل المؤثر : الفاعل وهو الدين الجديد . إن بلاغة القرآن المعجزة مع بساطة تعاليم الإسلام التي جاءت في هذا الكتاب هي المفتاح لحل اعظم (مسد) في تاريخ الأديان ذلك أن الإسلام جاء يدعو إلى حياة منظمة جادة ، حياة جماعية ، فقد طامدوا الله أن يخضعوا لإرادته في كل أمر وأن يجاهدوا في حل كافة البشور على الإقرار بقدرته ويقول م. روى : إن انتشار الإسلام أكبر خرقا للعادة : إن امبراطورية أغسطس الرومية بعد ماوسها بطلها (تراجم) نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون ولكنها لا تساوى المملكة الإسلامية التي أسست في أقل من قرن . إن امبراطورية الاسكندر لم تكن في اتساعها إلا كسر من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ، إن الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غابت وسقطت أمام سيف الله في أقل من عشر سنوات . .

الفصل الثالث

التفسير الغربي للمسيحي

يصدر التفسير الغربي للمسيحي للتاريخ عن طبيعة تفكير الغربي المسيحي للتاريخ والحياة ، ومن هنا يجيء نقشه وقصوره في ذاته وانحرافه في تفسير التاريخ الاسلامي ، فالمسيحية تقدم التاريخ على شكل مأساة ، أول فصولها يتألف من سقوط الدم ومن استمرار الخطيئة في البشر ، ونسبة هذا الانحراف والسقوط إلى الإله ، ثم ادعائهم ظهور الإله في التاريخ ومن خلال تأليه المسيح بدهوى فخران الخطيئة ، فالتصور المسيحي للتاريخ يقوم على أساس ما يسمى بالخلاص الروحي وحده ، وفي ضوء هذا المعنى خلطوا بين الألوهية والنبوة ، أو بين الألوهية والبشرية . وهذا المفهوم الذي يختلف عن مفهوم الاسلام القائم على التوجيه الحائض وعلى الفصل بين الألوهية والنبوة وعلى أنه لا توجد خطيئة تجعل من أي إنسان مستولا عن إنسان آخر ولا يعاقب بذنبه أو جريته فضلا عن أن الاسلام كشف عن أن آدم أخطأ وأن الله تبارك وتعالى ألهمه أساليب المغفرة ففقر له فليس لخطيئة آدم أي تبعه على واحد من البشر من بعده ، وإن الإنسان محاسب على عمله وحده وأنه لا تورث وزارة وذر أخرى ، فهذا الاختلاف الواسع العميق بين مفهوم الاسلام للبشرية ومفهوم المسيحية للتاريخ لا يصلح للتطبيق على الاسلام وتاريخه ومجتمعه . ومن اضطراب المفهوم الغربي للمسيحي والحياة والمجتمعات والحضارات اختلفت تفسيرات التاريخ بين المثالية والمادية ، وجاءت نظرات المؤرخين متضاربة: نظرة يجعل سياسية ونظرة ماركسي اقتصادية ونظرة تويني روحية ونظرة بيكل نظرة مناخ وقد ظهر في آفاق الفكر الغربي تفسيرات متعددة فنظرة القديس أوغسطين إلى التاريخ أنه تاريخ كنسي يقوم على نظرة الآباء المسيحيين إلى العالم ، وبعد تفسير بلوتارك وكارليل نفذ بمرأ الباطلة في كفة صورها أما فيشر فقد كتب تاريخ أوروبا بروح يتوتونية ونظرة امبراطورية كانت تسيطر على الفكر البريطاني في زمنه .

وإذا راجعنا تفسيرات القديس أوغسطين ومن بعده البابا جريجور السابع (بعده بسبعة قرون) نجدما يحقران الدولة والسلطة أشد الاحتقار ويعلمون عليها المملكة الأخرى : مملكة الله أو مدينته ، ثم تحول مفهوم التاريخ من بعد إلى نظرة عقلية حارات أن تصور التاريخ على أنه علم تجريبي ، وتعمل على إخضاع التاريخ لقوانين عامة . وكان أبرز مفاهيم التفسير الغربي للتاريخ الاهتمام بالناحية الفردية وإهمالهم الدور الذي تقوم به الشعوب في تطور الأحداث مع تمصمهم للبيئة الحامية والعاطفية والحزبية وإسرافهم في العناية بالتواحي السياسية دون نواحي الحياة الأخرى وترتب على ذلك تبسيط التاريخ لخدمة الأغراض السياسية .

وكان للاستعمار والتسلط على الأمم أمره البعيد في استغلال المؤرخين الغربيين مثل قول أحد

(مالتس روبرت زويمر) : أن القرينة الأوروبية وحدها تمتلك الزمن التاريخي . وقد علت صيحة الأجnas : واستعمل الغرييون بالجنس الأبيض ونظروا إلى علاقته بالحضارة القائمة فأنذكروا دور الأجnas وامتيازها في صناعة الحضارات القديمة على مدى التاريخ .

(٢) إن فكرة الاتحاد بين الله والعالم التي فسر بها هيجل التاريخ المسيحي فكرة غير صحيحة بالنسبة لمفهوم التوحيد الذي يقرر انفصال الخالق تبارك وتعالى عن العالم وعدم الحلول فيه ، كما لا يقبل الإسلام فكرة الآله البشر أو فكرة حلول الله في الإنسان أو في النبي على النحو الذي تقوم عليه فلسفة التاريخ المسيحي . كذلك فإن مفهوم الإسلام يختلف مع فكرة الإرادة المخططة التي تفرضها النظرية المسيحية على التاريخ والواقع أن للإنسان إرادة قادرة على الفعل والحركة والتعبير وإن كانت حركتها محدودة ، داخل إرادة الله الكبرى ولكن إرادة الإنسان قاصرة على حدود إرادته .

يقول البان . ج . ويدجري في كتابه المذاهب الكبرى في التاريخ : إن المسيحية تقدم التاريخ كأنه شكل مأساة ، أول فصولها تتألف من سقوط آدم ومن استمرار الخطيئة أما الفصل الثاني فهو ظهور الله (جل في علاه) في التاريخ من أغراض يسوع المسيح الإنسانية وأن خلاص الإنسان جاء من خلال صلب المسيح ويقول : المنصر الأساسي في النظرة المسيحية هو الاقتناع في ضرورة ظهور الله في التاريخ في شكل إنساني من أجل خلاص البشر بعد أن غدوا فاسدين بخطيئة آدم ، هذه العقيدة في تجسيد الله تكون الفرق من حيث الأساس به ورة حاسمة بين المسيحية والنظريات التوحيدية الأخرى ويقول إن النظرة المسيحية تركزة على أساس الاتحاد بالله وتصل بهذا مفاهيم التجسيد والصاب والتثليث والفداء .

وهذه هي الأسس التي يقوم عليها تفسير التاريخ الغربي ولكنها لا تصلح لتفسير التاريخ الإسلامي الذي يقوم على مفهوم الإسلام الذي يختلف اختلافاً تاماً عن هذه المفاهيم .

(٣) انتقل التفسير الغربي التاريخي من المفهوم المسيحي المثال إلى المفهوم المادي فظهرت محاولات تدهو إلى تطبيق المفهوم المادي التجريبي على التاريخ ، وظهرت دعوات متعددة لتفسير التاريخ تفسيراً مناخياً جغرافياً ، ثم ظهرت محاولات تفسير التاريخ تفسيراً تقوم على البطولة وفي الناحية الأخرى ظهرت الدعوة إلى تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً ، أو جنسياً . وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تقوم بنفسها مستقلة عن الأخرى وتقوم في مجال التفسير المادي الخاص ودون وجود النظرة الجامعة التي ترى أن هذه العوامل كلها يمكن أن يكون مجتمعة تفسيراً للتاريخ وأن الدين والبطولة وهوامل المناخ والاقتصاد كلها عوامل وفروع يمكن أن تقوم مجتمعة بالتاريخ يتأثر بالدين والقومية ويتأثر بالاقتصاد ولكن لا يمكن لواحدة منها أن تكون هي المصدر الوحيد ولا يمكن أن تكون العوامل المادية هي وحدها المسيطرة فإن الممنوبات والأديان والعقائد والمواظب الإنسانية لها أثرها العميق . وأن الدعوة إلى إخضاع التاريخ لقوانين عامة في تفسير أحداثه إنما تتجاهل أن حركة التاريخ تقوم بالإرادة الإنسانية التي تسيطر عليها عوامل روحية ووجدانية مختلفة وأنها في الاستجابة للأحداث تختلف

من موقف إلى موقف . وفي وقت ما كان الموقف كالاتي : (١) تقدم البشرية يمزى إلى العقل البشري
(٢) تقدم البشرية يمزى إلى قادتها من أنبياء وفلاسفة . (٣) تقدم البشرية يمزى إلى العامل
الجغرافي (الأجناس والمجموع) . (٤) تقدم البشرية يمزى إلى النظام الاقتصادي . ويقول
جون هرمان راندا: لقد استبدلت أوربا المثل الأعلى على العالم المسيحي للوحد بعمل يوشاد من سلطة
الكنيسة بمنزل أهل آخر قوامه دولة مستقلة مستقلة مطلقة السيادة ، انتقل المجتمع الأوربي من مدينة الله
إلى المدنية الأرضية ، من الكنيسة مدنية الله إلى المجتمع العلماني وهو المدنية الأرضية . وقد كان مؤرخو
المصور الوسطى الأوربيون لا يعترفون بدور البشر في سير حوادث التاريخ ، ويردون أن اللعبة
الرمزية تدور بين الإله والهيكلين أو بين الخير والشر ثم تحول هذا المفهوم إلى مفهوم معارض تماماً هو
أن التاريخ هو عمل الإنسان مائة في المائة وكلا المفهومين هم صحيح ، ويظهر التفسير الفردي للتاريخ الذي
يجه القادرون ويضعهم من دورهم ، ثم جاءت المدونة الواقعية في التاريخ وهي تشرح الأحداث في
هذه جبهة الظواهر الاجتماعية والمادية ثم جاء فرويد فقال إن التاريخ سلسلة أزمات نفوس أفراد
أدت إلى الانقلابات الهائلة . ويدور المؤرخون حول القول بأن البيئة هي القوة المؤثرة في حياة الناس
وبين القول بأن الوراثة هي العامل الوحيد المؤثر والواقع أن الوراثة والبيئة عاملان من جهة عوامل .
وهناك الدعوة إلى التفسير البيولوجي الذي يعتمد على أثر الزمن في الكائنات الحية من حيث النمو
والانحلال والتطور ، وهناك نظرية التحدي والاستجابة لآرنولد توينبي ونظرية وحدة الصور التاريخية
رغم تباعد المصور لتبينها ، والواقع أن هذه المذاهب جميعها جزئية مفرقة في الانشطارية وأن
كل واحد منها يحجز عجزاً أكيداً على تصوير الإنسان وفهمه وفهم تاريخه وخاصة إذا تناولت
الدراسات من خلال المفهوم المادي وتطبيق منهج العلوم الطبيعية على الإنسان والتصرفات البشرية .

الفصل الثالث

التفسير اليهودي

نعرض التاريخ الإسلامي للتفسير اليهودي الصهيوني وهو تفسير يحاول أن يستهدف الطعن في ارتباط المائدة بين الخنيفية الإبراهيمية والدعوة الإسلامية المحمدية وعجالة إثارة الشبهات حول هذه العلاقة الممتدة وقطع الترابط بينها وذلك بالتشكيك في إبراهيم وفي إسماعيل وفي قيامهما ببناء السكينة وإنكار الأصل الحقيقي للموجات العربية التي تدافعت خلال القرون المتوالية كالموجة الفينيقية والآشورية والفرعونية والبربرية والحيلولة دين الربط القائم بين دهوة التوحيد كما جاء بها إبراهيم عليه السلام وبين الدهوة المحمدية الخاتمة وكيف انخرقت على أيدي اليهودية ثم جاءت التفسيرات المسيحية التي أخرجتها عن أصلها وكيف أعادها الإسلام مرة أخرى إلى أصولها الأصلية كذلك فإن التفسير اليهودي يستهدف الإدعاء بأن وعد الله لى إبراهيم قاصر على ابنه إسحق جد اليهود وحده وأنه لا ينسحب على إسماعيل ابنه الأكبر جد العرب والمسلمين ، وهي دهوة باطلة وزائفة . كذلك فإن التفسيرات اليهودية للتاريخ هي التي أنكرت أثر الدعوة الإبراهيمية الخنيفية والدور الذي قامت به في بناء التجمع العربي في مختلف أجزاء ما بين النهرين وفلسطين والشام ومصر وأفريقيا ووسدت به للإسلام . وقد جاءت الأحافير والكشوف الأثرية لتصدق ما جاء به القرآن الكريم في هذا المعنى وتزيف الدهوة الباطلة التي حاولت التفسيرات لليهودية التاويخية أن تخذع بها الغربيين .

ولقد تبين أن صناعة اليهود هي تحريف الكلام عن موضعه بدافع الحقد على العرب والمسلمين وعلى كل الأمم التي يطلقون عليها الجويم ، وأنهم هم المحرضون على التركيز على الشكل الدموي والوحشي والمعنصري والمستغل للشعوب المغلوبة . وقد كانت وظيفتهم وهدفهم هو القضاء على الطابع الإنساني الذي عرفته البشرية بالأديان السماوية ، وإنكار الدور الذي قامت به الخنيفية الإبراهيمية وما قام به العرب منذ ذلك الوقت إلى مجيء الإسلام . ومن حقدهم نسبوا هذا كله إلى جد سابق فأطلقوا على كل هذه القصة د اللغة السامية والديانة السامية والأمم السامية ، وهي عملية خداع واسعة المدى تستهدف إنكار فضل الإبراهيمية الخنيفية ودور العرب واللغة العربية ، وقد كان العرب أبرز القوى الحضارية في العالم وهم الذين يسمونهم السكتينانيين وينكرون كل فضل لهم ، ومن هنا كانت حملتهم على العرب وتأليب الغرب عليهم وعلى المسلمين باسم القوة الخطرة التي عملت على طرد الرومان وعبرت إلى أوروبا ومحاولتهم المتصلة في تزيف كل مقومات العرب وعلى رأسها الدين كأدلوب مسموم للحيلولة دون وحدة العرب وبروزهم كقوة كبرى في المنطقة ، وهم يهرون على خطة تزيف التاريخ العالم كله على النحو الذي يحاولون

به أن يوجدوا لهم تاريخاً وأثراً حضارياً . ودورهم في السيطرة على مقارنات الأديان وطمع الأثريولوجيا يستهدف هذا التوبيخ . كذلك فإن التفسير اليهودي للتاريخ يعمل على إعلاء شأن الحضارات القديمة والأديان الوثنية السابقة للمسيحية وفي مقدمتها الفلسفة اليونانية الوثنية التي يطلق عليها علم الأصنام .

(٢) حاول المتصدرون من الاستشراق اليهودي لدراسة الإسلام إثارة شبهات مختلفة حول العقيدة وحول العرب وحول الشريعة وحول علاقة المسلمين بالحركات الهدامة . وكان أبرز العاملين في هذا الميدان جولد زيهير وجارودي ورودنسون وبرنارد لويس وإسرائيل ليفنسون . أما جولد زيهير فحاول أن يرمي بأن اتصال النبي والمسلمين بالبيئات اليهودية في المدينة كان له أثر في القرآن . وردد هذا الدكتور طه حسين في محاضراته بالجامعة المصرية ، كما عمل إسرائيل ليفنسون على نشر دهنوى كاذبة وإعطاء اليهود دور في الحضارة والفكر الإسلامى في هذه المرحلة . وأما برنارد لويس فقد تخصص في تشويه التاريخ الإسلامى وفق أحدث نظريات التمييز والغطاوى السياسية والحرب النفسية ، وله شبهات مثارة يرمى فيها العرب والمسلمين بالعداء العرقي ضد الزنوج ويصفهم بأنهم طامعوا الأفارقة السوداء سيئة وهو بذلك يعارض الحقيقة التي اعترف بها كل المؤرخين من حسن معاملة العرب للأفارقة وأهل اللغة والأقليات جميعاً . يقول أرنولد توينبى : « إن الحضارة الإسلامية من الحضارات الناهرة في التاريخ التي لم تتخذ موقفاً عرقياً من الأفارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لأنها اتخذت موقف الاستعلاء على العرق الأبيض في بيئة أوروبا ولقد عمد برنارد لويس في كتاباته إلى تشويه التاريخ الإسلامى في هذه الناحية بهدف إثارة الشبهات بين العرب والأفارقة وكسر التحالف التاريخى بينهم . وامله من أجل هذا أهدته جامعة القدس درجة الدكتوراه تقديراً لهذا الدور الخطير . أما رودنسون فإنه ينكر المفهوم الإسلامى في مجال الاقتصاد ويرمى الإسلام بأنه أقرب إلى النظم الرأسمالية ، كذلك يخطئه جارودي عندما يصف حركات القرامطة بأنها حركات إسلامية لإقامة العدل الاجتماعى .

التفسير الماركسي

التفسير الماركسي

حاول دعاة الماركسية اتخاذ نظرية التفسير المادي للتاريخ وسيلة لتفسير تاريخ الإسلام وتعميد النظرية الماركسية على اعتبار أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد للحروب أو العامل الأكبر في تفسير حركة التاريخ. ونقول النظرية: إن العلة الأصلية للحروب والتغيرات وتطور الجماعات ترجع إلى الحالة الاقتصادية التي تعيش فيها الأمة، وأن أساس التاريخ هو الاقتصاد وأن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام وأنه ليس هناك قيم ثابتة إسمها الدين أو الأخلاق أو التقاليد، وقد أنكر التفسير المادي للتاريخ جانب المعنويات والقوى الذاتية وكل ما ليس مادياً في مقدرات التاريخ والمجتمعات وقد تعرضت نظرية ماركس في التفسير المادي للتاريخ إلى انتقادات كثيرة كشفت عن فسادها وعجزها عن تفسير حركة التاريخ أو تطورات المجتمعات الإنسانية: ومن ذلك:

(أولاً): التاريخ كما يصوره ماركس ليس هو تاريخ المجتمع الإنساني بأكمله، بل هو تاريخ المجتمع الأوروبي وحده في تاريخ أوروبا. فإن الصراعات الطبقيّة ليست هي الصراعات الوحيدة في التاريخ وهناك صراعات من طراز آخر كان لها في التاريخ أهمية أكبر، منها مجتمعات الرعاة ومجتمعات الصيد والزراعة، وهناك عوامل لم يلتفت إليها ماركس وهي: الدين والتربية والعقيدة. كذلك لم يحفل ماركس بقوة الشعور الوطني والقومي والاختلافات والعداوات بين الأمم.

(ثانياً): يتصور ماركس أن حاجات الإنسان قاصرة على الجوع والظمأ والثياب. بينما للإنسان حاجات أخرى عقلية وروحية وهي في المادة أقوى أثراً من حاجاته المادية. إن ماركس يتصور الحاجات الإنسانية التي هي عنده أقوى البواعث في حياة الإنسان. ويتصورها في حدود ضيقة فليس يكفي الإنسان أن يرتوي ظمؤه ويشبع جوعه ويرتدي الثياب.

(ثالثاً): إن هذه أحداث جسام في التاريخ البشري لا يمكن عزمها إلى الأسباب الاقتصادية منها فتوحات الاسكندر وفتح العرب لآسيا وأوروبا وحرب المائة سنة بين فرنسا وإنجلترا، وغزوات نابليون وضمها لجماعة المتطهرين وكلها لم تكن بينها دوافع مادية.

(رابعاً): أخطأ ماركس في عجزه عن تقدير إرادة الإنسان الخاصة: وأنه ليس مجرد آلة في يد العوامل الاقتصادية، فليس الإنسان مسلوب الإرادة، أو قاصر المسمى أو مغلوب على أمره. أطام

المؤثرات الخارجية أو السنن الطبيعية بل إن الإنسان نصيب كبير في القدرة على التفريق بين الخير والشر والضر والنافع . وإن البشرية من الكفاية الفعلية ما يجعلها جديرة بإحتلال قمة أعمالهم وصنع تاريخها . (خامساً) : عجز ماركس عن فهم دور الإنسان النبيل والبطل العظيم وأنه لا يطلب المصلحة أو يتحرى المنفعة وإنما يتعرض للإهانة في سبيل الدفاع عن حرية بلاده أو يستهدف الشهادة في سبيل التعاق بعقيدته وتاريخ البشرية حافل بهذه النماذج الكريمة على اختلاف المصور والبيئات .

(سادساً) : يقول تريتون في كتابه (الإسلام عقيدته وعباداته) إذا صح في العقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يسكون صالحاً في تحليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدولة وسقوطها فإن هذا التفسير المادى يفعل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يمال وحدة العرب وخطبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فأروا أنها تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو الإسلام .

(سابعاً) : ليس العامل المادى هو العامل الوحيد أو الأكبر في تحريك التاريخ . ليس التفاعل بين الإنسان والطبيعة والمجتمع هو مصدر التاريخ وإنما هناك دور الوحي والنبوة في حياة الإنسان ودور الإنسان في بناء التاريخ . ليس هناك جبرية للمجتمع ولكن هناك إرادة الإنسان ولكن إرادة الإنسان ليست حرة مطلقة وإنما هي تتحرك في دائرة الله ومشيئتها في حدود عملها : ليست العوامل المادية وحدها هي التي تحرك التاريخ ولكن هناك العوامل الروحية والعقيدة وعواطف الإنسان كما أنه ليس هناك مفهوم بطولية فردية صرفة ولا بطولية جماعية عامة وإنما هناك توازناً بين الفرد والمجتمع .

الفصل الخامس

التفسير الاسلامي للتاريخ

يقف الفكر الاسلامي موقفاً واضحاً حاسماً في تفسير التاريخ : يقيم منهجاً واضحاً مثبوتاً أبرز مقوماته التكامل والنظرة الجامعة ، التي تفهم التاريخ من خلال العوامل المعنوية والمادية على السواء وتقدر للانسان دوره وإرادته وهي لا تهمل الاقضاء وحده أو أى عامل من العوامل المادية أساساً لفهم التاريخ ، ويستمد التفسير الاسلامي للتاريخ مقوماته الحقيقية من القرآن الكريم منهجاً لبناء الحياة والسكون والمجتمعات . ويقوم هنا الفهم أساساً على وحدة السكون وانسجام قوى الطبيعة والتكامل بين القيم ، والالتقاء بين الروح والجسد في نظام الدين ، والسماء والأرض في نظام السكون ، ويسلكها في طريق واحد هو الطريق إلى الله .

ومن هنا فإن أى منهج لتفسير التاريخ : سواء المديحي أو اليهودي أو المادى أو الماركسي لا يصلح لتطبيق على تاريخ الاسلام وأن المنهج الوحيد الذى يصلح لتفسير الاسلام هو المنهج الاسلامي وحده ذلك أن الاسلام قد جاء ليفتح الطريق أمام الفكر الذى يفسر التاريخ على أساس طبيعة العلاقات السالبة والموجبة بين قوى الله المطلقة وبين الآراء الانسانية المحدودة التي تصنع التاريخ دونما تدخل أى قوة أرضية حتمية وإعتبار إرادة الانسان سيئاً من أسباب الله في السكون . فدور الانسان في التاريخ دور واضح أصيل ، وحركته تجري داخل إرادة الله المحيطة الشاملة : وقد أعطى الاسلام لفكر الانسان صورة متكاملة من السكون والحياة والامان وعن مهمة الانسان في هذا السكون ومسؤوليته النابعة من إرادته القادرة على العمل والتعبير . والانسان هو سيد المخلوقات وهو مستخلف في الأرض ، وقد علمه الله مالم يعلم وكشف له عن قوانين الأمم وسنن الحضارات في قيامها وسقوطها ودعاه إلى الاعتبار بما حاق بالاولين والنظر في آثارهم وهم يمرون عابها مصبحين وهم يمرون في مساكنهم وهم يشاهدون بقايا الأمم : في كل مكان يذهبون إليه في بئر ممتلئة وقصر مفيد وفي رحلة الشتاء والصيف ومن ذلك قوله : ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء . . وبذلك قدم القرآن للمسلمين تلك النظرة العميقة الصادقة في آثار الأمم القديمة التي أهلكتها الله لأنها خرجت عن سنن الله . ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

وقد أشار القرآن إلى الأمم التي آمنت وكيف سعدت وعاشت آمنة (فلولاً كانت قرية آمنة فنقمنا إيمانها إلا قوم يرائي لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) . وأشار القرآن إلى هلاك الأمم التي خرجت عن سنن الله : (ولم قصصنا من قرية كانت ظالمة) . (ولم من قرية أهلكتها فجاءها بأسنا بيئاً أرم قائلون) . (وما أهلكتنا من قرية إلا ولها كتاب

معلوم) . (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو مدبروها عذاباً شديداً) . (وما أهلكنا من قبلهم من قرية أهلكناها) (فسكان من قرية أهلكناها وهي ظالمة) (وما أهلكنا من قرية إلا ولها منفرون) (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مقرفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) . (أولم يأتهم لباً الذين من قبلهم قوم نوح وصاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات) .

وهكذا وضع القرآن قانون بناء الأمم وموقعها من التاريخ ومن الحضارة وأسباب سقوطها وهزيمتها وكما كشف القرآن عن دور الفرد في حركة التاريخ (ذلك بما كسبت أيديهم) . وكذلك كشف القرآن عن العمل الضخم الذي قام به الرسل والأنبياء في هداية البشرية ودهوتها إلى الحق وتحريرها من الوثنية واليهودية والإباحية وكيف عاشت البشرية وستظل تعيش في صراع بين الحق والباطل وبين الفكر الرباني الحق وبين الفكر البشري . كما كشف القرآن عن وحدة البشرية وكيف خلقت من نفس واحدة ، وأبان عن أن الفوارق بين الشعوب فوارق سطحية وليست هيمنة الأثر ، كما كشف القرآن عن وحدة الدين ووحدة النفس البشرية . وأبان القرآن عن مشيئة الإنسان في صناعة الحياة وبناء المجتمع (الحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) .

كذلك قدم الإسلام تفسير التاريخ وقدم التاريخ القديم نفسه ، فكان أول من أعطى البشرية فكرة دراسة التاريخ والاعتبار به وكشف عن أهمية التاريخ في حياة الأمم ودعا إلى استكناه العبرة منه والنظر في آثار الأقدمين الباقية على وجه الأرض لمعرفة السر الذي يمكن وراء قيام الأمم وسقوطها وقد أطلق القرآن اسم الله على مادة التاريخ ، وكشف القرآن عن أن التاريخ نواميس ثابتة ونواميس متغيرة ونواميس غير متطورة تسير المجتمعات البشرية : (وتلك الأيام نداولها بين الناس) . (فهل ينظرون إلا مثل الذين خلو من قبل) .

وإن الضرر الكبير وأهم تصوير لمهمة التاريخ يتجلى في دعوة القرآن الناس إلى النظر في التاريخ القديم من خلال بقايا المدينيات والأمم الفاتحة والتي يمر عليها الناس اليوم وقد وجدوا فيها آية باقية ليسألوا : لماذا سقطت هذه الأمم وماذا كان من شأنها عندما خالفت عن أمر ربها حتى إنهارت حضارتها وذهب وجودها فما تجد لها من باقية أو تسمع لهم ركوا . وإن أعظم معطيات الإسلام البشرية هو إعطائها قانون الطبيعة ولانوس المجتمعات والحضارات الذي يطلق عليه القرآن اسم (سنن الله) . (قد خلق من قبلكم سنن فسيروا في الأرض) ، وقد جاء الإسلام دعوة إلى أن يلتزم الناس منهج النبوة الأول ويهدي إلى المجتمع الرباني القائم بالحق على أيدي رسل الله وأتباعهم : (يريد الله ليعبينكم ويهديكم سنن الدين من قبلكم) .

وقد ربط القرآن في تصويره لمنهج الحياة على الأرض بين مفاهيم التاريخ والحضارة والاجتماع وجعلها كلها مستمدة من أمر الله منطلقة إلى غايته التي أعد الإنسان لها قائمة بالحق في الحدود التي أنشأها وفي الإطار المسموح الذي دعا البشرية إلى التحرك فيه دون الخروج منه إلى الفساد الذي ظهر في الأرض بما كذب الناس ، وحذر من اتباع دعوة الفكر البشري الوثني الإباحي الفاسد (يريد الله ليعبينكم

وبهداياكم سنن الذين من قبلكم ويريد الذين يقعون الشهوات أن يملوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا) . وجلة ما وصل إليه القرآن في فهم سنن الحضارات والمجتمعات هو الكشف عن مصدر الخطر الحقيقي الذي تسقط به هذه الأمم والحضارات والمجتمعات وهو تجاوز الناس سنن الله في الأرض وخروجهم عن الأصول الصحيحة والحدود التي أقامها بين الحق والباطل .

فالقضية التي تقف عند هذه الحدود والضوابط بآتيها رزقا أرغدا من كل مكان . والتي تخرج عن هذه الحدود والضوابط تكون قد كفرت بأنعم الله فيحق عليها الدمار . وهكذا يكون الإسلام هو الذي قدم إلى البشرية ما يسمى الفلسفة التاريخ أو تفسير التاريخ حيث لم يقف عند عرض الحقائق بل قدم تحليل الوقائع وهو الملاحظ الذي تنبه إليه المؤرخون المسلمون ووصل إلى قمة فهمه (ابن خلدون) استمدادا من القرآن . وهو المفهوم الذي عرفه الغرب من بعد ذلك ويشهد التاريخ بأنهم ما كانوا يعرفونه قبل أن ينقله إليهم ابن خلدون . ومن هنا فإن ابن خلدون مستمد من القرآن وقد أخذ منه مؤرخو الغرب وإن كانوا قد خلطوا مفاهيمهم بكتابات أفلاطون وأرسطو . إن أخطر ما يقوم عليه التفسير الغربي للتاريخ (مسيحياً أو يهودياً أو ماركسياً) هو تجاهل حقيقة الإنسان إما بإعلانه إلى حد التقدس أو إنكاره واعتباره زساقى آله . وأكبر أخطاء هذه المفاهيم هو عدم التفريق بين الآلهة وبين الأحياء الأخرى العليا منها والدنيا وفساد القول بتطبيق القوانين الطبيعية أو التجريبية هذه إنكاراً لروحه ونفسه وتمييزه عن المادة والحيوان ويتصل بهذا فساد القول بأن حوادث التاريخ يحكم قانون ثابت أو أن حوادث التاريخ وأموال البشر تجري دون تقدير ، وأنها لا يعيدها نظاماً أو تعتمد على المصادفة ، ذلك أن الحياة البشرية مسؤولة الإنسان وحسابه في حدود إرادته وعمله وقدرته على التغيير . وتتكسر النظرة المادية لإرادة الإنسان وتجاهل جوانبه الروحية والمعنوية والنظرة الاقتصادية كما تفكر العوامل الأخرى غير الاقتصادية .

فليس الإنسان إله ولا نصف إله وليس الإنسان بغير إرادة وليس الإنسان خاضع لحتمية وقيضة من المجتمع وإنما للإنسان إرادة وحرية اختيار ذات طابع محدود ، وحرية واختياره تتمثل في قدرته على أن يختار سبلاً ويترك أخرى ويتحمل المسؤولية وقد ذل الله له السكون وما فيه لمنعمته ولتحقيق استغلافه فليس الإنسان فانياً في المجتمع وليس له إرادة مطلقة غير محددة .

فالإرادة الإنسانية حرة في حدود معينة وهذه الحدود المعينة هي وحدها موضع مسئولية . وهذا المفهوم الإسلامي يختلف مع مفهوم الفلسفة المثالية الغربية (هيغل) والفلسفة الماركسية وإحداها تراه جبرية والأخرى خاضعاً لوسائل الإنتاج . ولا ريب أن إنكار إرادة الإنسان ، من شأنها أن تهجر على فكرة المسؤولية أمام الخير والشر والفضيلة والذيلة ، ومن الحق أن السلوك الأخلاقي واجب أساسي في الإسلام والإزام متصل بحركة الحياة نفسها . وكذلك فإن الإسلام لا يعتبر وجود الإنسان في الأرض موضعاً للتأديب أو سجناً للبشر بسبب خطيئة أصلية ، أو غير أصلية ، وأن المعصية الأولى التي ارتكبتها آدم أبو البشر لا تنسحب على أحد من أبنائه وقد غفرها الله له : والإسلام في مفهومه للإنسان يختلف عن النظرية الفردية الغربية : هذه النظرية التي تجعل التاريخ من رسم أفراد معدودين ، وإن كان الإسلام

لا ينكر أثر الأفراد كدامل من عوامل رسم التاريخ بما أودع فيهم من قوة سواء في السير على الطريق الصحيح أو الطريق الخاطئ. فآثر فرعون وهو فرد لا ينكر في إذلال بنو إسرائيل وآثر إبراهيم لا ينكر في إنقاذ أمته من عبادة الأصنام. كما لا يقر الإسلام النظرية الجبرية للمجتمع لأنه ينكر أية نظرية تثبت جبرية الإنسان وتعمل إرادته حيث أنه يؤكد مشيئة الإنسان ومسئوليته عن أعماله ومع ذلك فإنه لا ينكر أثر المجتمع في سير التاريخ.

ولا يؤمن الإسلام بالنظرية الجغرافية أو الطبيعية المتعارفة التي تبالغ في إعطاء الأثر للانهار والجبال والتضاريس وأنها هي التي تدير التاريخ. أما من حيث أنها إحدى العوامل المؤثرة فذلك مالا شك فيه وفي مجال الفرد في التاريخ يحى مقام رسول الله ﷺ وهو ليس بمجال بطولة فردية ولا عظمة ذاتية توضع في مجال المقارنة مع البطولات والزعامات ولكنها هي النبوة، التي لما سادتها وتاريخها ورسالتها الممتدة على طول الزمن حتى ختمت بمحمد بن عبد الله. وهو النبي الموصى إليه الذي لا ينطق عن الهوى وليس بعده أحد مقدس الذات أوله العصمة ولا يمكن أن يوصف بالعبرية التي يوصف بها أبو بكر أو عمر. والإسلام يقرر إرادة الفرد في صنع التاريخ (الاختيار) وهي إرادة حرة من ناحية تصرف الإنسان ولكنها تتحرك في دائرة إرادة الله الكبرى ومسئوليته على قدر حركتها الذاتية ولكن لا يقال أن إرادة الإنسان وحده هي التي تصنع الصورة الكاملة فإن هناك العامل الخفي الذي هو من تقدير إرادة الله الكبرى، وهو عامل يأتي بقتة ومن غير انتظار أو تقدير محسوب وإن الإرادة البشرية قد تنطلق إلى عمل من الأعمال ولكنها لا تستطيع أن تضمن ما يصل إليه أو أنها كما يقولون بمثابة صاروخ مقذوف في الزمان يتجاوز دائماً تقديرنا وحساباتنا، وقد تجيء الغاية مغايرة تماماً للهدف الأول فلا تطلق أمر يقوم على إرادة الإنسان ولكن المراحل التالية لذلك تقع في دائرة القوة الكبرى التي توجه الأحداث.

يقرر البيان وايد غراي في كتابه تفسيرات التاريخ: إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ نظرة بناء أكثر عما سبقها فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي (القرآن) فإن إرادتها حينئذ تنطابق وإرادة الله ولا يعود يوجد من يهوى أو امره ويمر الرخاء بين البشر. ويحمل والفرد كابتول سميت موقف الدعوات البشرية من التاريخ وموقف الأديان وموقف الإسلام فيقول: إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض؛ يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه وهم يحاولون دائماً أن يصوغوا الأرض في إطاره، ومن ثم فهو دائماً يقيس كل عمل فردي أو اجتماعي وكل شعور فردي أو اجتماعي بمقدار قرينة أو بعده عن ذلك النظام الذي وضعه الله والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابل التحقيق والتاريخ في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردي كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة لأن الحاضر هو نتيجة الماضي، والمستقبل متوقف على الحاضر. أما الماركسي فيؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ولكن لا يؤمن

إلا بهذا العالم المحسوس بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده وكل شيء عداه باطل وللماركسي يقع عجلة التاريخ ولا يمكن لا بوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها، وما من دين استطاع أن يوحى إلى المحدثين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا استطاع، وأن اعتزاز المسلم بدينه يدعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة... وأن الغربي لا يفهم الإسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً.

ويقول ولفرد كانتول سميت في المقارنة بين الإسلام والماركسية : إنه لأمر عظيم أن نقيم حياة إجتماعية سليمة على وجه الأرض ولا شك أن الإسلام هو أجدد وأثبت تجربة تمت لتحقيق العدالة بين الناس، وأنه ثمة فروقاً عميقة بين الإسلام والماركسية، أهمها أن الإسلام يرى لكل حادث ديني مغزياً وقيسه بمبادئ : أحدهما وقتي والآخر أبدي أو فردي، والإسلام رغم اعترافه بمغزى التاريخ الحاسم إلا أنه يرى أن هذا المغزى لا يذوب في خضم التاريخ نفسه بل يوجد من القيم والأنماط ما يظل على مجريات التاريخ والحكم على هذه المجريات يمكن بل يجب أن تكون في ضوء هذه القيم وللقصود بذلك هو القيم الروحية التي لا وزن لها في الماركسية.

ويقول عبد الغنى سعيد : إن نظرية الإسلام في تفسير التاريخ أعق وأعمق وأعرض من أي نظرية أخرى لأنها تشمل الناحيتين المعنوية والمادية معا بينما ركزت الماركسية على الجانب المادي فقط. ويقول الدكتور حماد الدين خليل : إن الإسلام ليس رأسمالياً ولا اشتراكياً ماركسياً وإنما هو ينظر إلى المال أولاً على أنه ملك لله وأن الإنسان مستغلف عليه وأن له أن يتصرف فيما يملك بروح الاستغلاف.

(٥) يقول الأستاذ هلال القاسبي : إن ميزة التفسير الإسلامي للتاريخ هو الوعى بأن التاريخ نهاية وجوده يوم تقوم الساعة ويسأل كل واحد عما عمله في الدنيا وأن التجربة التاريخية غير موجودة في الإسلام لأن الإنسان ليس خارج التاريخ بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمنفذة وأن عمليات التاريخ ليست دون غاية وقد أدرك الرسول ﷺ الوجود التاريخي إدراكاً كلياً ولكنه لم يكلف نفسه أن يكون المؤرخ أو المحدث للتاريخ وإنما وضع لنا الإطار الذي علينا أن نملأه بما نكتشفه من أحداث وما نضمه من عمليات ولم تذكر كلمة التاريخ في القرآن ولا في السنة وإن نص علينا القرآن قصصاً للآراء لا لتعتبرها تاريخاً بأوقاتها وظروفها ولكن لنتعظ بها فيها من عبرة ويمكننا أن نبعث التفسيرات المختلفة للتاريخ أو نكتشف غيرها بما نستطيعه من جهد وتأويل دون أن ندهى حتمية وهي خاص قد ينطبق على بعض الأحداث دون بعض فنقع في آفة التعميم الذي يقع فيه كثير من الاجتهاديين والتفسيريين. والتاريخ في نظر المؤرخين مرحلتين لابد من الوقوف هندهما :

(١) مرحلة العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلا تمهيد لبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل ولم يكن محمد بدعاً من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تشمل كل بقاع العالم ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصحابها الانحراف

الذى يستوجب أن تجد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الإنسانى ، فكان لا بد أن يبعث الله الرسول الخاتم الذى يضع الناس فى جو الرشد المبني على العقل والروح والقلب والجسم . وإن كل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه وبذلك يصح الماضى ، كله فيما قبل التاريخ ، أما التاريخ الضحوح فيبدأ بالمجتمع الاسلامى ، والبشرية كلها مخاطبة الله وفق ما يرشد إلى تادوس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع .

(المرحلة الثانية) هى نهاية التاريخ الديوى والوصول إلى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير أو شر ، وبهذا الامتداد التاريخى إلى ما بعد الموت يزول كل تناقض يمكن من غاية التاريخ ومن أسباب عملياته ، وفى هذا الإطار يبقى الإنسان عاملاً مختاراً لأن شغفه أن يوفق بين نوايس الكون وتعاليم القرآن وهو الذى يصنع تاريخه وتاريخ البشرية . والحقيقة الاسلامية فى أمر التاريخ هى : أن التاريخ نهاية وجوده يوم تقوم الساعة وأن خط المفاهيم الماركسية والمادية التاريخية ، وتناقضها نائى عن تجاهل الموت والتكر للقيم ، ولكى نعمل على فهم التاريخ يجب أن لا نخرج عن التاريخ ، فلسلس وجودنا التاريخى كان فى الإطار الذى حددته الاسلام مهما كان التفسير الذى يعطيه للمعانيات التاريخ ، والإطار الاسلامى شمولى ، لأنه موضوع للعالم كله . لذلك فى الوقت الذى نحافظ على كياننا داخله نكون قد وعينا تراث الانسانية (أى كل ما ليس من الأساطير) ، وما ليس من الأساطير هو المعروف الذى وعت كل العقول لأنه من فطرة الانسان .

(٦) مشكلة الخلق ، كما يقول الدكتور عبد الحليم هويسر فى مقدمة المقدم ، فى تفهيد التاريخ ، فالمسلطون يسلبون بخالق خارج هذا الكون ذى صفات محددة لا يمكن أن يصل العقل إلى تحديد كنهه ، لأن العقل أقل من هذا الإدراك ، أما المذاهب الوضعية والمادية والماركسية فهى تختلف فيما بينها فى أصل الخلق على أنها ترى عموماً أن المادة تتمتع بمؤهلات الخلق والوجودية ، ترى أن الانسان يبدأ الكون وينتهى وتعيش فى دائرة الاستعباد للذات وأصحاب الدين الانسانى الذين يقرعونهم إلى كسر كاديل . والأمر الثانى هو المحرك لعملية التطور التاريخى بعد أن تنهى عملية الخلق ، فالفلسفة اليونانية لها رأيها الذى يسلب الله سبحانه خصائص الحكم فى مسيرة العالم ، وكان ما خلق الله العالم وتركه يتدحرج ككرة منولفة . وهناك الاختلاف فى العوامل المحركة لحركة التاريخ ، ويحتل العامل الاقتصادى المرتبة الأولى بل يكاد يكون الوحيد ، أما الاسلام فينتطق من إيمان بقدرة الله ، ومن إيمان بأنه مهما قيل من أسباب ظاهرة التحول التاريخى فإن الله هو الفاعل الحقيقى ، ومن أخطر المخاطر محاولة تجرييد النصوص التاريخية القرآنية من صدقها الواقعى فى موكب التاريخ بحجة أنها مجرد غرس المعبرة فى النفس البشرية (على النحو الذى قال به طه حسين ومرجليوث وخلف الله) بينما يطالبون من المؤرخ الاقتراب من (الواقعة) وصولاً إلى المعبرة التاريخية الحقيقية ، وهم يفترضون الصدق فى الجيولوجيا والآثار أكثر من افتراضهم الصدق فى كلام الله ، وهم يتجاهلون أن المعبرة المستفادة من واقعة مؤيدة مختلفة هى كذلك عبرة مؤيدة مختلفة .

يقول الأستاذ عبد الحميد صدقي : يتفرد المنهج الإسلامى فى تفسير التاريخ أنه يتخلص من هذه الآفات فهو فى المقام الأول يتوفر لديه (الرؤيا الشاملة لوقائع التاريخ) على نحو تركيبى كلى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) كذلك تضع المنهج الإسلامى فى مكانه الصحيح انطلاقاً من جملة مستخاف فى الأرض ومن جملة فى أحسن تقويم ، فليس الإنسان مجرد آلة تحاول أداء عملها فى ما كينة المجموع ، كما أنه ليس دمية تحركها روح العالم وليس هناك حتمية تاريخية تقود الإنسان .

فأعمال الإنسان المختارة هى السبب فى صنع التاريخ وهو المسئول عن كل حركة وليس مجرد ضحية لقوانين ساذجة محددة تنطلق به من مرحلة البدائية إلى مرحلة الانفعال إلى البرجوازية إلخ .

إن هذه الأحكام المطلقة الساذجة ليست إلا أوهاماً .

والحياة فى التفسير الإسلامى معنى رفيع عال لا يتوقع فى دائرة الاقتصاد أو الإيدولوجيات وإنما يسمو بغاية الإنسان إلى آماد عليا ، ففضلاً عن تحقيق خلافة الله فى الأرض وفضلاً عن تعمير الكون فالإنسان يعيش على هذه الأرض فترة اختبار كبرى يتبلى فيها بشئى الوقائع المضادة ليحتل مكانه المدير به فى دائرة الخلود والاقتراب من السكال المطلق ويجب على الإنسان أن يثبت أنه على مستوى الامتحان أو أنه أهل للأمانة للبقاء على عاتقه وحركة التاريخ فى الإسلام تشبه أن تكون دورية ولكنها ليست دورية صماء آلية تخضع لقوانين حتمية من صنع الإنسان بل هى مرتبطة فى دوريتها بقوانين الله وسننه فى تفسير الحياة وبقوانين النمو والموت الحضارى ، وبما أن هذه الدورية موجودة (تلك الأيام نداولها بين الناس) فى التاريخ فلا يمكن معها القول باضطراد الدور الإنسانى والأخلاقى فهذا القول نوع من الغرور فما نعتقد القدرة فليس من حقه إصدار أحكام عامة تعتمد على الإنسان كله وإنسان ما قبل هيردوت ، وما بعده وإنسان هذا العصر التاريخى والمصور الذى تليه ، وليس هناك شك فى أن ثمة صراعاً بين قوتين كبيرتين تسييران معاً مع تفاوتات القوة عبر التاريخ كله : قوة الخير وقوة الشر . ولكن باستثناء الصراع العريض الطويل لتسيير الحياة فى داخلها على نوع من التعاون أكثر من سيرها على الصراع ، وقد يكون « الصراع » سمة مرحلة من مراحل الأفعال يفقد الإنسان فيها معناه العالمى ، لكن ليس السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ . والله لا يتصارع مع الموجب وما يتدور من تخيلات المثباتيين من تناقضات ، فهى ليست أكثر من تكاملات ، وهى تتصل من تكاملها البسيط إلى المركب .

(١) وضع الإنسان فى مكانه الصحيح . (٢) فهم المعنى الخالد لرسالة على هذه الأرض

(٣) عدم طغيان جانب من حياة الإنسان على جانب آخر . (٤) ودون فقدان الانسجام بين كل الجوانب .

(٨) هل يعيد التاريخ نفسه ؟ يقول الباحثون أن التاريخ تسيطر عليه قوانين لا تقف عند حد الاثر الذى كان لها فى الماضى بل إنه سيكون لها أثرها حتماً فى كل ظرف مشابه بطراً فى المستقبل ، فسنى

حركة كل القوى التي ينسجها تاريخ البشرية هنصراً واحداً هو هنصر الإعادة والتكرار : وليكنم ليس إعادة الأحداث والوقائع وليكن إعادة النفسهات . وقد دعا القرآن المسلمين إلى الناس عبرة الماضي : وليس التاريخ كما يقول القرآن قصص تروى دائماً هو تحذير من المهابى الواقعة فى طريق الأفراد والأمم أو كما يصوره أحد العلماء يقول : إن سجل التاريخ هو الفنار الذى يضىء الملاحين المجدد الذين يخرون حباب الحياة عن الصغور المهلكة التى قد تكون خافية تحت سطح بحر الوجود الانسانى الذى لا يدرك غوره :

(أولم يسهروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثماراً الأرض وعمرها أكثر مما عروها) وذلك لأن الناس فى كل عصر يواجهون نفس النوع من التمهيدات التى واجهها أسلافهم فإن مواضع الخطر فى طريق الأمة هى نفسها تقريباً سواء كان العصر ماضياً أم حاضراً وكل أمة تصيبها السراء والضراء، والارتفاع والانخفاض وأن الذين لا تعلمهم الأفراح والذين لا تفقدهم السعادة أتران عقولهم والذين لا يسمعون لأنفسهم بأن ينهاروا تحت وطأة المصائب هم الذين يسمح لهم قانون الحياة بالبقاء والفور أما الذين لا يستطيعون الصمود أمام الشهوات وفى وجه ضربات القدر فأولئك الذين ينهارون بسرعة :

(إن بمسكم قرح قدس القوم قرح مثله) ، (إن مع العسر يسراً) .

والأم نوله وتموت : (بورج الليل فى النهار وبورج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) والنهار هو السعادة والقوة والليل هو الأفول والانهار .

والعالم ينمو وائس كنهه ميتة فى الفضاء وهو قابل للتوسع والامتداد إلى غير ما حد، والماضى يبق والعمل فى الحاضر، ونظام الحوادث متغير وليس ثابتاً . ويرد الباحثون نظرية هيجل فى حركة التاريخ ويرون أنه لا أساس مطلقاً للرأى القائل بأن التوفيق بين الفرضية وتقيضها ينتج عنه نظام جديد له خواص كل منهما ، كما أن التاويخ لا يدهم هذا الرأى ، فى كثير من الأحيان يولد التقيض من الفرضية فيحطها تماماً وحينئذ يتسكون حدها ودفعها مغاير تماماً :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت صوامع ويبس) ، وتبين هاتين الآيتين أن الله لا يعطى أية أمة السيطرة والقوة الدائمى فكل حاجة من الناس تسلط مدة من الزمن وبعد مآثر هذه المدة تزول من الوجود وتقوم فوقى حاجها أمة أخرى ، وأن السلوك هو الذى يجلب عليهم الدمار ، ويقرر القرآن أن التغيير يأتى بسبب من الداخل لامن الخارج : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ومعنى هذا أن التغيير الناجع فى الفرد والجماعة لا يتحقق قائمه إلا بتغير النفس أساساً ، ولما كان الله يسهل على الأفراد مهياً أوتوا من العلم والخبرة أن يسهروا غور كل جانب من جوانب الحياة يفكر

مكون، فإنهم لا يستطيعون أن يضموا لأنفسهم منها مرتباً محبوباً تنال فيه كل ناحية من لواحي الإسلام العدل الكامل ولما كان ليس في مقدرتهم النظر إلى ما وراء فترات طويلة من الحياة فإنهم يحسرون من أن يرموا الحياة الناس منها متوازناً بقي بمطالبات كل نواحيها فالإنسان لا ينظر إلا إلى بعض من حاجات البصر ويجهل الباقي، وهذا نصيب جواب الإنسان المهمة جوف كبير، هذا الخيف يحطم الاستقرار في الحياة وبهذا تنجب الانسانية في معامها، واسكن تجد الحد الوسط اللازم لتقدمها، فهي تتأرجح بين النهايتين المتطرفتين (المعروف أن أوروبا انتقلت من الرهبانية إلى الإباحية) وبين طريق يوجد الصراط المستقيم الذي أوضحه الله تعالى وهذا وحده هو الذي يقود الإنسانية إلى طريق العلاج في الدنيا والآخرة وكل السبل الأخرى تقود الإنسانية إلى الخلاك، (عبد الحميد صدقي).

ولقد ظنوا أن الطريق العدل هو الطريق الطبيعي الذي تتقدم به الانسانية، ولكن الواقع أن الصراع بين الفرضية ونقيضها لا يؤدي في الواقع إلى التقدم، وإنما هو في الحقيقة حربة القدر الفاصلة أصابت البصر جراحاً أعظم السيئة.. لقد مرت قافلة البشر مراراً بالصراط المستقيم ولكنها لم تتخطه سبيلاً ولقد مضى تاريخ الإسلام في طريقه على صورة واحدة فهو تاريخ الصراع بين قوتين في العالم، من الشر والخير، وهذا الصراع من شأنه أن يؤدي إلى تقوية شخصية المسلمين لكي تستطيع أن تستخدم الصفة التي وهبها الله إياهم لكي يزيدوا في سرعة نشاطهم الخلاق وفقاً لأوامر الإسلام فلهذا السلام والائتمار غير الإسلامية قوتان متضادتان في هذا العالم كائناً دائماً في خصام ونزاع، وكل من السلام أن تعتبر نفسها مسئولة عما يحدث من حولها وأن تجاهد من أجل إحقاق الحق وإدماق الباطل في كل حين. ويقول الأستاذ صدقي: إن هناك صفات معينة إذا تمتلئ الأمة في أبنائها نالت السيطرة والسيادة، وحين تتفقد هذه الصفات تنزوي إلى الخضيض وإن الله تبارك وتعالى ينظر إلى الأمة التي أتبع لها أن تحكم: أمي أمة قائمة بالحق والعدل أو بالجور والظلم فإذا كانت طاقات الأمة موجهة إلى الجور سيج لها بأن تزداد قوة وإلى أقصى حد، فإنها بذلك تعطى الفرصة لكي تعرض قيمها الحقيقية، وبذلك ينتفع العالم، أما الأمم التي تتركس في (السبات) فإن طاقاتها الخلاقة تجدد عقيمة وتلبأ إلى الظلم والظلمة وتنفق موارد الأرض على إغناء البشر.

(٩) يقول إقباله إن المشكلة التي واجهها الإسلام كانت هي ما بين الدين والحضارة من صراع متبادل وما يتناهما في الوقت نفسه من تجاذب متبادل ولقد واجهت النظرية في أول عهدنا المعاصرة نفسها فسكان أعظم ما عانيت به أن تبحث عن مستقر للحياة الروحية قائم بنفسه: تلك الحياة التي رأى منفسها يصورها أنه يمكن السمو بها لاهن طريق قوى عالم خارجي في نفس الإنسان وإنما يتجلى عالم جديد في داخل النفس ذاتها، والإسلام يقر هذه النظرة تماماً ويكملها بنظرة أخرى هي أن النور الذي يضيء هذا العالم الجديد المتجلى على هذا النحو ليس غريباً عن عالم المادة بل هو متغلغل في أعماقه.

ومعنى هذا أن النظرة الإسلامية لا ترى في التاريخ على أنه نشاط من النقطة للمادة حسب كما أنها لا ترى فيه نشاطاً من النقطة الروح فقط، وإنما هو نشاط يجمع في مضامينه هذين المنصرين معاً، كما

أن هذه النظرة المثالية الواقعية من شأنها - كما يقول الأستاذ محمد عطا الله معلقاً على كلام إقبال - لا يغير فكرته عن العالم والتاريخ من ثم فقط وإنما تجعله يساهم في تغيير هذا العالم وبالتالي يصنع التاريخ ويقول إن النظرة الإسلامية تؤمر بالتاريخ منذ بدأ الخليقة إلى يوم القيامة وحدة مستقلة، وأقد أشار روزنتي إلى أن الحديث عن يوم القيامة في القرآن قد جاء صريحاً بحيث أصبحت أحداثه واضحة للناس وكأنها قد حدثت في الماضي القريب رغم أنها لم تحدث بعد - والمسلم يفهم أن القرآن في حديثه عن المستقبل ويوم القيامة إنما يرسم نهاية العالم الذي يعيش فيه وهو في هذا متكامل في رسم قصة بدأ الخلق وقيام المجتمعات وتدهورها ودور رسالة الأنبياء في إصلاحها وتوجيهها الوجهة الربانية الصحيحة، فإذا ما ألتمست منهج الله وتحركت في إطار حدوده وضوابطه التي رسمها للناس والمجتمعات والاسلام حين يقدم هذا المنهج للإنسان لا يقصره على السبيل عليه ولكنه يترك ذلك لأرادته الحرة ويهمله حق الاختيار في السبيل قديماً أو التراجع.

ويضع الاسلام قاعدة بقاء الأمم وسقوطها وتغييرها: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»
فترتبط بين مصير الأمة وإرادتها، وأن لكل أمة أجل وأن فساد الأمم وإحراقها يحدد نهايتها والحرية
مقروكة لكل أمة لتعمل في دائرة الخير أو الشر.

(١٠) يصور الأستاذ عبد المقتنى سعيد حركة التاريخ في مفهوم الاسلام فيقول : « إن الاسلام في نظره إلى التاريخ لايهتم بالجزئيات والتفاصيل العابرة ولا يهتم بالبطولات الفردية أو تاريخ حياة الأفراد وإنما يركز على الطلقات والاساسيات والحركة الاجالية لجرى التاريخ ومعنى هذه الحركة ، أى أنه كان الأسبق إلى النظرة الجماعية والحركة للتاريخ من المدارس التاريخية الحديثة التى ينبغى على المؤرخين القدماى اهتمامهم البطولات الفردية والجزئيات و تواريخ حياة الملوك والحكام والقرآن الكريم في تحليله لدعوات الرسل والانبياء لا يضطرد إلى تفاصيل خاصة بحياتهم كأفراد وإنما يقف عند حد المعبرة التى تبرز هذه الدعوات كحركات تقدمية استهدفت تحرير الإنسان من السحر والسموذة والخرافة ومن الاستغلال والفساد الطبقى أيضاً ، وإن دعوات الرسل كما جاء في القرآن الكريم لم تكن بالبسيطة أو السهلة فقد قوبلوا جميعاً بالإنكار والسخرية بل والاعتداء والحرب من القوى المضادة التى كانت ترى مصالحها في الاحتفاظ بالأوضاع القائمة طالما هى المستفيدة ولا تراها في التغيير أو التطور وتخشى أن يهدد مصالحها الخاصة ، ومن هنا فقد وقعت ضد دعوات الانبياء وما استهدفت من عدالة وتطوير . وقد كانت تلك الدعوات وما ينبعها من صراع تنتهى نتيجة حتمية وهى أن تنحصر الدعوة وإما أن تفشل ليصيب الله جام غضبه بكوادر الطبيعة على القوم الكافرين الظالمين وهذه النتيجة يسميها القرآن بالسنة أو القانون الحتمى فيقول : « ولن نجد لسنة الله تبديلاً ولن نجد لسنة الله تحويلاً » هذه السنة لا قبل التبديل أو التحويل هى قانون إلهى تاريخى ، سنة الله فى الدين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً . وقد خلت من قبلك سنن فسهروا فى الأرض فانظروا كيف كان طاقبة المكذبين . وهكذا جاء الاسلام بمفومات نظرية علمية لتفسير (مادى معنوى) التاريخ .

(١١) يقرر الدكتور حماد الدين خليل بأن التفسير الاسلامي يتميز على التفسير الغربي بشموله وتكامله وأنه يضع اهتماماً بالغا وتقديراً كبيراً للقوى النفسية التي تتدخل في عالم الحضور بشكل مباشر والحكمة الإلهية البعيدة المدى التي توجه التاريخ وجهة دون أخرى ، ويقول : إن فهم التاريخ لا يتم إلا بإسهام الطاقات الروحية والحسية للإنسان في عملية التقييم .

ويقول الدكتور حماد الدين : إن تطبيق المنهج المادي للمعالم الغربية في دراسة تاريخنا أحدث من الأخطاء . والممارس ما يجب علينا أن نوقفه عند حده وأن نبداً من جديد بتقييم تاريخنا ودراسته وفق منهج يقدم من الأدوات والإمكانيات ما يساعد المؤرخ المسلم على دراسة هذا التاريخ .

ويقول عبد الحليم فاجي : : القرآن يرشد إلى المنهج الصحيح في فهم التاريخ أي بالنظر إليه على أنه تاريخ الرسائل السماوية لا تاريخ الصراع الطبقي كما تصور الماركسية ولا تاريخ الأجناس والمثرك والرؤساء والبطولات كما تصوره النظرية الغربية كما يرشدنا إلى أولوية دور الفرد المستمر في دفع حركته إلى الأمام ، وباستعراض القصص القرآني يظهر الاهتمام واضحاً بالمرسل في المقام الأول باعتبار أن الرسول هو النموذج الإنساني الكامل الذي حقق السيادة على ظروفه وظروف قومه واستخدمها في سبيل هدايات أسمى وأبقى .

وتأتي ظروف الزمان والمكان في المقام التالي ولهذا الظروف وزنها من خلال تفاعل الإنسان معها ولكن ليس لها الأولوية .

ويقرر التاريخ أنه لم يكن قط هناك عامل من العوامل الإنسانية أقوى أثراً وأعظم من عامل الدين وكل ما عداه من الحركات المؤثرة في حركات الأمم قائماً بتفاوت فيه القوة بتقدير ما بينه وبين العقيدة من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور ورواها السريرة ، هذه القوة لانضامها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف ولا قوة الأخلاق ولا قوة الشرائع والقوانين إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه أو العلاقة بينه وبين مجتمعه أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الأوطان والأقوام أما الدين فترجم إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ومن أنه يتسع لكل ما في الوجود من ظواهر وباطن .

أما التفسير المادي فليس أكثر من التسجيل لفرقات الانتكاس في حياة الشعوب بما يستتبعه الانتكاس من صراعات على كل المستويات وكان موقف الماركسية من العامل الاقتصادي بالذات موقفاً منحازاً لا علمياً .

الفصل الثاني

تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات

في مقدمة هذا البحث نقدم مجموعة من الملاحظات :

(١) أن المسلمون كانوا دائماً ينتصرون ويستلبون زمام القوة والمنعة والتمسك في الأرض عندما كانوا يطبقون المنهج الداعي وينفذونه كنهج حياة ونظام مجتمع وأنهم كانوا يهدمون كل ما تعارضوا منه أو قصروا في الاعتصام به .

(٢) أن المسلمين في الأهم الأغلب خلال تاريخهم هذا كله لم يتخلفوا عن تطبيق التشريع الإسلامي في مجتمعاتهم إلا في الفترة التي بدأت بالاحتلال الغربي الحديث لبلادهم ١٨٢٠ الجزائر و ١٨٨٢ مصر وتونس و ١٩١٨ باقي اجزاء البلاد العربية ماعدا الجزيرة العربية .

(٣) أن المجتمع الإسلامي في حالة تطبيقه المنهج الإسلامي ليس حكماً على هذا المنهج بل إن المنهج هو الحكم على المجتمع الإسلامي . وقد أثبت المنهج سلامته وعطائه حين طبقه المسلمون تطبيقاً صحيحاً في عصر الخلفاء الراشدين وفي عدد من العصور خلال حكم الدول المختلفة فلا هرة بما يثار من شبهات حول دهنهوى بمنهج الإسلام على تحقيق المجتمع الوصول الذي يحقق بالفعل في الأغلب الأهم والذي كان مصدر هذه النهضة الباذخة والحضارة الضخمة التي تمتعها العالم كله وأقامت متاراً العلم والعدل أكثر من ألف سنة .

(٤) إن محاولة إغلاء شأن التاريخ السياسي القائم على أمور الحكم والولاء والخلاف بين الأمراء والفرق هي محاولة باطلة يراد بها حجب حركة المجتمع الإسلامي النابضة بالحياة والقوة والقائمة على أساس مفهوم الإيمان العميق بالله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتطبيقاً للإسلام كنهج حياة ونظام مجتمع هذا المجتمع الإسلامي المضطرب بالحويوية والعمل والتجارة والبناء والذي قدم للبشرية تلك الإضافات الضخمة في مختلف مجالات المدنية والعلم ولا ينقص من شأن هذا وجود جماعة معدودة من شعراء المهجون أو الفرق الضالة أو أصحاب المؤامرات ضد الدولة الإسلامية من خصوصها الباطنية والمجوسية وغير هاذن هذه ظاهرة دائمة وقائمة في تاريخ الأمم كلها لا تنقص من قدر المجموع السليم المنحرك في اتجاه التقدم والبناء .

(٥) إن الخلافات التي كانت بين الفرق الإسلامية سواء في مجال السياسة الفقه أو غيرها كانت خلافات في الفروع دون أن تصل إلى القيم الأساسية التي كانت تلتقي عندها كل الجهات (هذا

باستثناء القري المتأخرة (الضالة) التي كانت معزولة تماماً وكان موقفها معروفاً وكانت كل هذه الجهات معادية لها . وهنا يكون التفرقة واضحة بين الفرق الإسلامية وبين الدهوات الهدامة هذه الخطوط العامة لم تكن واضحة في ذهن الذين حاولوا في المصور الأخيرة كتابة التاريخ الإسلامي أو تقييمه عن طريق المناهج العلمى مجرداً من الهوى والخصومة والمهدف المسموم بوحى بهذا ويؤكد اهتمام المستشرقين إلى دراسة أمرين : (أولهما) : الخلافات فى الإسلام .

(ثانياً) : دراسة العامل الأجنبي فى الفكر الإسلامى . فى الأول يجرى التنقيب عن تلك الخلافات السياسية بين الأمراء والحكام والذوسع فيها وترك الجواب البناء القوية . أى الاتكال على التاريخ السياسى الذى يدور فى دائرة ضيقة محدودة وتجاهل التاريخ الحضارة الذى يمثل المجتمع كله والاهتمام بشخصيات معينة أو خلافات معينة ومحاربة إعلانية هذه الشخصيات أو تلك الخلافات لتوسيع رقعة الخلاف بين المسلمين وإحياء الخصومات القديمة التى انطوت وانتهت بنهاية الأحزاب السياسية التى قامت عليها . وفى الأخرى : تجرى المحاولة للقول بأن هناك تأثير يونانى أو فارسى فى الفكر الإسلامى فى مجال الفلسفة أو الكلام أو الأدب أو اللغة أو اللغة بتصيد خيوط رفيعة واهية لا يستقيم أمرها فى محاولة لإثبات (فضل) الفكر اليونانى على الفكر الإسلامى يمكن أن يرمف بأنه تبعية الفكر الوافد مع أن الإسلام حرر نفسه من آثار الفكر الوثنى القديم كله وكشف عن زيف هذا الأثر وأبان عن أصالة وقدرته على الحركة والتكامل بذانته الخاصة ، لم يكن : تاريخ الإسلام مطلقاً ، تاريخ صراع على الحكم أو استبداد سياسى أو فتوحات وحروب من أجل الأسلاب والطموح ، أى ، أو تاريخ فرق متصارعة وإنما تعددت المراحل بين القوة والضعف ، ولا بد أن تكون هناك سلبيات معدودة بين الإيجابيات الضخمة ، وإلا فن الذى بنى هذا المجد الباذخ والحضارة الضخمة التى حمت العالم المعروف كله إذ ذاك وترك بصماتها فى كل مكان ، حتى على أوروبا التى رفضت عقيدة الإسلام لم تستطع أن تحول دون منهج الإسلام التجريبي ومنهجه فى المعرفة والفكر حتى لا نجد لغة عربية واحدة ليس فيها تلك الألوف المؤلفة من ألفاظ المصطلحات العلمية وكلمات الحضارة .

(٢) بصور العلامة غلال القاسمى التحديات التى واجهت تاريخ الإسلام بأنها قد حملت فى مجالين : (أولاً) خلق نخبة من الباحثين والرواد لدراسة اجتماعيات وتاريخ البلدان الإسلامية وغيرها فى كل بلد يراد استعمارهم وقد تحمل هؤلاء وزر التكليف بالطريقة التى تقنع الرأى العام فى البلد المستعمر بضرورة تقبل التضحيات التى يتوقف عليها الاستعمار ومقدماته وإبراز أن البلدان المستعمرة فى حالة من التدهور المادى والمعنوى تستوجب الرحمة وتهيب بالبلاد الراقية لمساعدتها وجعلها إلى حظيرة المدنية والديانة المسيحية وإلى إثارة روح الطمع فى النفوس بما فى هذه الأرض المراد فتحها من غيرات وأسواق وفى هذا الاتجاه يقع تحريف حقائق التاريخ وقلب أساسه ونتائجه وتكوين أدب لا يسمع قارئة إلا أن يقبل ما يجده من معلومات وأفكار مادام غير مختص .

(ثانياً) تكوين الجهاز الاستعمارى الداخلى الذى يرمى إلى تحليل الفكر الأصيل عن طريق القضاة

والمرتزة الذين يحاولون بشئ الوسائل وبالأسلوب الذي يليق بمحاجتهم أن يحفروا في النفس كل ما هو أصيل من ماضٍ أو حاضر ويرفعوا كل من قيمة كل ما هو المثل الأعلى عند المستعمر فاللغة والدين وأسلوب الحياة وطريقة المعاملة وهكذا يتحقق تثبيت النفوذ الاستعماري في الأرواح والنفوس والأفكار لإدامة الإستعباد الجسدي والاستقلال الاقتصادي .

ومكذا نجد أن الاستعمار والنفوذ الأجنبي الذي خلف الاستعمار سواء أكان نفوذاً أجنبياً هروباً أم ماركسياً أم صهيونياً فإنه قد ركز على التاريخ الإسلامي في محاولة لإفساد وجهته ولاحتوائه والبطولة بين الأمة الإسلامية وبين انخافه منطلق لبناء حياة حرة كريئة . وقد ركزت القوى الاستعمارية على مفاهيم بنينا ركزت محاولات الماركسية على مفاهيم أخرى وكان الصهيونية جواباً أولتها اهتمامها : وقام الاستشراق في كل جانب بالترويج لعداوى أتباعه .

(٢) ومن أم المحاولات التي جرى احتضانها بين التيارات الثلاث : مسألة الاتجاه المنصري الذي أريد به تشويه حقيقة دور العرب الحضاري وقد قام بها المستشرقان فلان فلوتن في كتابه الدولة العربية وسقوطها وولهاوزن في كتابه (السيادة العربية والاشيعة والاسرائيليات) وقد تأثر مؤرخو الغرب ومستشرقوه بفكرة (جوبينو) المنصرية التي أعلنها في القرن التاسع عشر وحاولوا تطبيقها على التاريخ الإسلامي محاولين تصوير أحداثه على صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم وحاولوا أن يظهروا تاريخ القرن الأول الهجري وكأنه صراع دموي بين العرب وسكان البلاد المفتوحة وقد تأثر بهذا التفسير الكثير من المؤرخين ومفهم مؤرخون عرب حاولوا تطبيقه على مظاهر كثيرة من التاريخ الإسلامي فصوروا حركة القرامطة والحركة البابية على أنها انتفاضات قومية .

(٣) وهناك مستشرقون آخرون عمدوا إلى تطبيق المذهب المادي في تفسيرهم للأحداث وكان مهمهم أن يعمدوا من أسلوب الإنتاج وصراع الطبقات في تلك الفترة أساساً لظهور الحركات والظواهر المختلفة في الشرق العربي والإسلامي مهملين كافة العوامل المتشابهة والفاعلة الأخرى من سياسية وروحية ونفسية وقومية واقتصادية واجتماعية .

وكان أبرز العاملين في هذه التفسيرات المستشرقون الماركسيون ، فوجد مثلاً المستشرق ضياء الدين نويما توف في كتابه (أفريجان في القرون السابع - التاسع) الذي أصدره عام ١٩٦٥ حيث كانت أفريجان ضمن نطاق الدولة العربية الإسلامية وقد أقم تفسيره للأحداث بطابع يستند إلى المذهب المادي المعروف وسار مؤرخون عرب على نفس الطريق فكان كتاب الدكتور حسن قاسم العزيم عن البابية وانتفاضة الشعب الأذربيجاني ضد الخلافة العباسية مثلاً على ذلك (ولا يجب فالدكتور حسن قاسم هو تلميذ المستشرق نويما توف ولذا ذهب في التفسير المادي .

(٤) هناك خطأ العجز عن التفرقة بين مبادئ الإسلام وتاريخ الإسلام في النظر إلى التاريخ

الإسلام ولا يرجع من يفكر أنه كان لنفر من تسموا قة السلطة بعد عصر الخلافة الراشدة مواقف تبعد عن منهج الإسلام ، ولكن منهج المستشرقين يقف موقف ، التقوية ، فيخلط بين سلوك هؤلاء الحكم وبين مبادئ للشرعية وهناك من قال إن نظام الحكم في الإسلام نظام استبدادي وسوا أن للإسلام مبادئه الواضحة التي تقيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم ، ومع أن توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) كان منصفاً إلا أنه في كتابه عن الخلافة يقع في هذا الإنحراف الشديد ويخطئ في نسبة الاستبداد إلى الإسلام حين يقول :

« والخلافة التي عرفت هكذا كانت حكماً استبدادياً يضع قوة غير محدودة في أيدي الحاكم ويطلب طاعة مطلقة من رعاياه ثم يحاول أن يبرر لماذا كانت الخلافة الإسلامية استبدادية فينسب إلى الملكية الفارسية التأثير في الخلافة الإسلامية بعد أن قضى العرب على سلطان الدولة الفارسية فيقول : ربما كان طابع الخلافة الإسلامية الاستبدادي من تراث الملكية الفارسية كما حازت الجاهة الإسلامية ممتلكاتها لأن المجتمع العربي قبل الإسلام لم يعرف قط أي تشكيل من هذه النظم السياسية ولم يتجاس مع عقيدة القرآن في تساوي جميع المؤمنين ، ، ثم يحاول أن يستدل على إدعائه أن الخلافة (أي رئاسة الدولة) تنزع الاستعداد بأحاديث رويت عن رسول الله تبين أن طاعة الأمر من طاعة الرسول وقامر بالسمع والطاعة لرئيس الدولة وإن ظلم ، ويركز على هذا المعنى من جليلوث وماكدونالد وموبر وقد رد على هذه الشبهة الدكتور ضياء الدين الرئيس فقال : إن الإنصاف يقتضي أن يقال أن القرآن تعامله الواضحة التي توجب تساوي جميع الناس في جميع الحقوق فإذا ما قامت رئاسة لا تتفق مع هذه التعاليم التي جاء بها القرآن فهي التي لا تنطبق عليها الصفة الإسلامية ولا يستطاع أي طاعن أن يظعن الشريعة الإسلامية حيثئذ في سموها وكفالتها لجميع الناس التساوي في جميع الحقوق . وإذا لم تتفق هذه الرئاسة مع تعاليم القرآن فإنه لا يصح القول بأن هذه الخلافة خلافة إسلامية لأنه إذا كانت قد صادقت تعاليم كتاب الله الذي هو دستور الدعوة الإسلامية فهل يصح أن يذهب إلى الإسلام ما هو متصادم مع دستوره .

(٣) ويتمثل التحيز الشديد في تفسير الإسلام في كتابات أرنولد توينبي . فقد حاول توينبي أن يصور المجتمع الإسلامي وكأنه امتداد للمجتمع الميرياني وأرجعه إلى عناصر الآشوريين والفينيقيين والآراميين والإيرانيين وقال إن الإسلام هو الاستجابة الوحيدة الناجمة التي قام بها المجتمع السرياني ليرحز عن صدره طغيان الخليزية عليه وتحديها الكتاب له . وهكذا يجز توينبي أن يفهم الأصول الجديدة التي قام عليها المجتمع الإسلامي متكولاً من جديد على مفهوم التوحيد الخالص ، وإن الإسلام قد صهر هذه العناصر جميعها برصاغها صياغة جديدة وأنه أخرج أهل هذه المجتمعات من الوثنية إلى التوحيد ومن العبودية البشرية إلى الإخاء الإنساني . ومن أخطاء توينبي قوله إن الهجرة من انحدار الإسلام واعتباره البهائية والفادائية حركتان إسلاميتان ومن ذلك دعوته إلى تبعية الشرق الإسلامي لوكب الحضارة الغربية .

(٤) كذلك جاءت فكري القومية والعالمية بثابة تحديات أو خطران يراد بهما عدم

الرابطة الإسلامية ، فبدأ القومية يستهدف العنصرية ومبدأ العالمية يستهدف القضاء على الادابية الإسلامية والدعوة إلى كليهما قد سارت في خط واحد من أجل معارضة مفهوم الاسلام الذي دعا إلى وحدة فكرية واجتاهية بين أمة تملو على العنصر والقومية والدم ، ولقد جاءت دعوة القومية بتعريفاتها تستهدف إيجاد الصراع بين العرب والفرس والترك وهم جميعاً مسلمون ويستهدف إعلاء شأن التاريخ الاقليمي وذلك بإذاعة دهرات الفرعونية والفيليقية والبابلية والاشورية وكلها موجات سابقة للاسلام وانبعاثاً ليهود مضت وقضى الاسلام عليها حين صهرها في بوتقة الوحدة الاسلامية .

كذلك فإن مبدأ العالمية الذي طرح على المجتمع الإسلامي إنما أريد به صهر المسلمين وهم في مرحلة المقاومة والمجاهدة والمواجهة النفوذ الأجنبي في القوى العالمية للقضاء على ذاتيتهم وشخصيتهم الخاصة المتشعبة ، ولقد كانت محاولة تفسه التاريخ الاسلامي نفسها قومياً من أخطر محاولات التفریب والغزو الثقافي وهي ترمي إلى وضع (الاسلام) في بطن (العروبة) أو (القومية) وهي نظرية مادية لا تلبث الواقع التاريخي ولا تصدق في الفهم المجرد وكيف يمكن أن يوضع الاسلام وهو المنهج الرباني المنزل من السماء والذي غمر وجود البشرية في إطار العروبة أو القومية وهي مفهوم بشري فضلاً عن أن العرب لم يكن لهم وجود قومي حقيق إلا بالاسلام فالاسلام هو الذي بنى الأمة العربية وجودها وهكرها وكيانها وحركة مجتمعا فن المجب أن يوضع في إطار العروبة ويقول البعض أنه إنجاز عرب .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى : إن تفسه تاريخنا الاسلامي نفسها قومياً بقوم على حصية هروية تنب الصفة الاسلامية من أجل إرضاء نزعة عرقية . ومن ذلك أنهم يعتبرون قضية فلسطين قضية عربية لتتصر في إطار ضيق وقد أدى للتعبس بالقومية إلى إهمال الاخوة الاسلامية في سرائها ضد الوثنية والسيوية والصليبية وقد تسرب هذا المفهوم من الفكر العلماني الغربي ، ومن ذلك أسميتهم الحضارة الاسلامية بالحضارة العربية ووصف الفتوحات الاسلامية بأنها فتوحات عربية ، وتسمية علماء المسلمين على اختلاف أجناسهم ونحلم عرباً وإن كان من بينهم أبي حنيفة وابن سينا والرازي والبيروني وهذا تحريف تضارفت على نسج وقائمة جهود أفراد غير عرب رضوا بالاسلام ديناً وعقيدة لهم والتفسه القومى في حد ذاته مناقض للحقيقة التاريخية ومنافض لمعوم الرسالة التي لا تعترف بالحركات الطبيعية وهي محاولة تركيز العرف على العامل القومى بينما العامل المعقدى أعظم منه ولا ريب أن القرآن قد أحدث تفسه ملحوظاً في الالفاظ العربية والاستعمالات والأداء ، والحضارة الاسلامية هي التي جعلت للمسلمين قادة الدنيا وهي ليست حضارة العرب وحدهم . ولقد كون الاسلام رجاله عرباً وبجها تكونها نفسياً وحالياً فصدروا في حركتهم التاريخية على عداه وسنته . ولم يكن الاسلام منافساً للقومات الجفسية لكل أمة من الأمم وشخصيتها النابعة من التطورات المختلفة عبر القرون ، وبالعكس فقد عمل على الحفاظ على السكبان الخاص لكل أمة دون أن تتعارض مع للمفهوم الاسلامي الجامع .

وكذلك فإن محاولة تفسه القومى تزييف للمفاهيم حين تزعم أن النبي محمد ﷺ إن هو إلا بطل من أبطال العرب ، وإن الاسلام مجرد تعبير عن مكان عبثيتهم واختراع من اختراعاتهم .

وقد تدبه باحثون غربيون كثيرون إلى أولية الاسلام وحقق جهوده وفساد هذه المحاولة حيث قال
ويطرد كاتول سميت : إن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة
للالامة للنهوض والبناء وعالم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن نتم الجهد.

وهكذا نجد أن النزعة القومية نزعة غير أصيلة وليست صحيحة ، وإنما جرى معها المسلمون سواء
كانوا عرباً أم فرساً أم تركاً في هذه السنوات الأخيرة متابعة للتيارات الغربية في كتابة التاريخ وقد
بلغوا منها مبلغاً شديداً عندما مزقوا التاريخ الإسلامي مرتين مرة بمجلة عربياً ومرة أخرى بمجلة
إقليمية وقومياً ضيقاً وكانت محاولة انتزاع تاريخ إقليم أو قطر من تاريخ الاسلام عملية شديدة التعريف
والخطأ والفساد لأنها تلتصق وسائل مصطنعة وهي عاجزة عن انتزاع جزء من التاريخ من مجرى هذا
لتاريخ الاسلام العام الذي يحمل البواهب ويحمل المقدمات ويحمل الوسائل ويحمل التعديلات ويحمل
ذلك التاريخ ناقصاً وزائفاً لأنه غير مرتبط بأصوله وخطوطه العامة الممتدة إلى أكثر من أربعة عشر
قرباً ، وقد كان من أخطر أساليب هذه الدعوة حجب الاخلاق الإسلامية الثابتة وإحياء التقاليد الفجعية
والعادات الوثنية المتوارثة والاستعلاء بالفرعونيات والفينيقيات على ما بها من زيف والتضييق بها بيننا
لا يوجد في تاريخ العرب أو المصريين أو للشوام أو المغاربة أعظم أثراً من الإسلام الذي صنع حياتهم
من جديد فضلاً عن أن الإنقطاع الحضاري بين ما قبل الاسلام وما بعده هي حقيقة لا ريب فيها وقد
تبين أن الهدف من الدعوة إلى القومية حجب التاريخ الإسلامي كله والحيلولة دون أن يكون المسلمون
الاسلامي هو عماد الحاضر والمستقبل والادعاء بأن هناك فكر مصري أو عربي منفصل عن الاسلام ،
ولقد سقطت هذه الدعوات وانهارت في السنوات الأخيرة بعد أن تبين هدفها من محاولة إخراج التاريخ
الاسلامي عن طريقه الاصيل بالتفسيرات القومية أو الماركسية أو الغربية المادية وبعد أن تكلف
فساد عقل واقتباس الأنظمة الغربية أو الماركسية في أفق المجتمع الاسلامي وضرورة التماس منهج
الاسلام الاصيل لمنطلق تحقيق لبناء النظام الجديد .

ولقد كان من هدف التغريب والغزو الثقافي عن طريق الارشادات والتفسير والاستشراق إشاعة
هذه المذاهب المتعددة قومية وماركسية ومادية لا تارة الاضطراب والبلبل والحيلولة دون جمع العرب
والمسلمين على وحدة تدفعهم إلى الطريق الصحيح .

وقد جرت محاولات التغريب والاستشراق إلى استخدام التاريخ في سبيل الدعوة إلى الانفصاليات
والقوميات الضيقة أو إلى الشيوعية أو الشيوعية لاثارة الأحقاد والفتن أبناء الأمة الإسلامية الواحدة
وإحياء الدعوات الباطنية والطائفية والطبقية والفرق الضالة من جديد لتزيق وحدة هذه الأمة ولتدفعها
إلى التناحر والصراع ، ولقد آن للعرب والمسلمين أن يتنبهوا إلى الخطر الذي يائسهم من محاولة تفسير
تاريخهم عن طريق واحد من هذه المناهج ، إنما الهدف هو تزيق الجبهة الواحدة ولقد كان هذا من أخطر
ما مارسته القوى الاستعمارية ما تزال تعمل به تعميق الفرق وبشرة القوى بالدعوة إلى الانفصاليات
والقوميات وتفسد التاريخ تفسيراً مادياً أو ماركسياً وسيظل الدعوة على جمع الفصل والوحدة والتكامل

الجامع . طاجرة ومضطربة ما لم تكشف فساد هذا الاتجاه وتدمغه وتلتهم الأصالة واقد كانت التجربة واضحة غاية الوضوح بعد ذلك الصراع الطويل .

(أولاً) : لقد هجرت مناهج الشرق والغرب جميعاً عن استيعاب النفس العربية الإسلامية .

(ثانياً) : أنه المنهج الذي طرح عن القومية منهج غربي مجاني لمفهوم الاسلام لأنه يفصل العرب عن هيمم ويفصل العرب عن الاسلام ويفصل المجتمع عن روح الدين والخلق .

عصارة البحث

(أولاً) التاريخ هو صورة تحقيق خلافة الإنسان في الأرض وتعمير الكون والحياة في هذه الأرض بالنسبة للإنسان فترة اختبار يتمن فيها بشئ الوقائع المضادة ليحتل مكانه الجدير به في تطبيق منهج الله ومقاومة القوى التي تريد إفساد الأرض وتدمير المجتمعات وعلى الإنسان أن يثبت أنه على مستوى الامتحان وأنه أهل للأمانة الملقاة على عاتقه .

(ثانياً) غاية التاريخ الإسلامي الوصول إلى قيام المجتمع الرباني في الأرض والتسكين له ، على أساس الاطار الانساني والعدل والرحمة ، والتاريخ الاسلامي هو الثروة الصحيحة للتاريخ الانساني عن طريق بناء المجتمع الرباني وعصارة تجربة النبوة والتاريخ بالنسبة للحاضر : هو معرفة الظروف التي كونت هذا الواقع ولذلك فإن علاج هذا الواقع لا يتحقق إلا إذا تمرفنا على العقبات لمواجهتها والتفلسنا لاسار الاصيل ، ذلك أن فهم الماضي ضرورة لادراك الحاضر ، وأن تكوين الوعي التاريخي ضرورة لفهم مشاكلنا الحاضرة .

(ثالثاً) ليس هناك حتمية تاريخية تقود الإنسان إلى مصيرها فأعمال الإنسان المختارة هي السبب في صنع التاريخ وهو المستول من حركته وليس مجرد حتمية القوانين ساذجة محددة تنطلق به من مرحلة إلى مرحلة ومن هنا فالتاريخ هو حركة الإنسان في الحياة ولقد تبين فساد رأى الماديين الذين أرادوا أن يدخلوا التاريخ في نطاق العلاقة الطبيعية وزعموا أنهم يستطيعون التحكم في مجراه على هذا الأساس ووضع قواعد عامة تحكم في مجراه وتحدد اتجاهه . ذلك لأن كل جماعة من البشر تواجه الظروف الجغرافية والتاريخية والبشرية والمعاكل على نحو مختلف . ومن ثم فانه لا يمكن التحكم في سحر التاريخ لأن مادة التاريخ هي الإنسان والانسان يتبدل بخاصة الذكاء والشخصية ولما كان الذكاء لا يمكن قياسه أو التحكم فيه ولما كانت الدعوى تختل من إنسان إلى إنسان فإن من شأن هذا أن يدحض فكرة إخضاع التاريخ للمناهج المادية والتجريبية .

(رابعاً) الصراع يجري في التاريخ بين قوتين : قوة الحركة الرأبانية التي تمثل الجماعة التي سندها النبوات

وقوة النمر التي تمثل الجاعة التي صنعها الفكر البشري القائم على الوثنية والمادية والاباحية ، والصراع سنة مرحلة الانهيار والافول ومنها يفقد الإنسان القدرة على الحركة نحو الاصله والتقدم وهو ليس السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ كله ، اما الحياة والمجتمعات وحركة الكون كله فإنها تسير على طريق التعاون والتكامل بين العناصر المتعارضة وليس من طريق الصراع ، وأن التقاء السالب مع الموجب هو تكامل لا تناقض .

(خامساً) كل تفسير للتاريخ يكتفى بالتمويل على جانب واحد من النفس الانسانية فهو نفسه ناقص ، وأن اصدق تفسير للتاريخ وهو الذي يدرك الجوانب الانسانية وينظر إلى الحياة الإنسانية من مختلف جوانبها ، كذلك فإن تقسيم التاريخ الاسلامي على مفهوم التاريخ الغربي ومصوره تقسيم خاطيء . وأبرز هذا الخطأ اعتبار العصور الوسطى هي تصور ظلام مع تجاهل أن العالم الاسلامي في هذه العصور كان يحمل لواء الحضارة . ومن الخطأ القول بأن هناك حضارة واحدة هي الحضارة الغربية وأنها امتداد الحضارة اليونانية الرومانية وكذلك خطأ تقسيم شعوب العالم إلى فئات وأجناس وإعلان زفة العنصرية في الجنس الابيض أو شعب الله المختار .

(سادساً) خطأ فهم الاسلام على أنه دين صلاة وصوم وحج ، أو أن القرآن كتاب عبادة وزنايل وخطأ دراسة حياة الرسول متقطعة الصلة من تأثيرها في التاريخ الاسلامي على مر العصور وخطأ التركيز على المتعاطب التي تستهدف سوء القصد وسوء الفهم ، كذلك لا يمكن فهم التاريخ الاسلامي فهماً واقعياً نقياً دون معرفة عقيدة الاسلام وشرعيته ولا يمكن فهم التاريخ الاسلامي إلا بالفرقة والواضحة بين منهج الاسلام وبين تاريخه .

(سابعاً) ليس تاريخ الاسلام تاريخ حروب ولا تاريخ مناورات سياسية ولم تكن حروب الاسلام بمنى الغلب ولكن بمفهوم الجهاد في سبيل الله وغايته السامية .

ووحدة تاريخ الاسلام واضحة فهو متصل الحلقات يصب ماضيه في حاضره ويمهد لمستقبله وتاريخ الاسلام لم يفقد خلال أربعة عشر قرناً عنصر الوحدة والاتصال يوماً واحداً .

(ثامناً) لقد تبين فساد التفسير المادي الذي يحاول أن ينسب من الاسلام طبعته الربانية ، وتشويهه في نفوس أهله ، ولم يصدق القول بأن الفتوحات الاسلامية دوافع اقتصادية فقد حفل تاريخ الاسلام بالعقائد الذين لا يذكر اسمائهم ، والذين استشهدوا دون أن يعرفوا ما يورثون والذين كانوا في معاركهم أذل عدداً وعدة وتنظيماً ومكانيات وتدريباً والذين تركوا كل ما يملكون في مكة لقريش والذين أقسموا بالله مع اخوانهم المهاجرين والذين قدموا أنفسهم وأرواحهم في اقل المعارك والذين ردوا الجزية لأهل حصص عندما انسحبوا منها ، والذين عبروا نهر دجلة أبان يازده ولم ينتظروا نقصاته .

وليس في التاريخ الاسلامي موجه كإحدى الموجهات الأخرى في التاريخ وليس الاسلام دهوة
أدت دورها أو استنفذت أغراضها وتلك المـاذج الفاخرة قد صنعها الاسلام ولم تصنعها اليه
أو العرق .

لقد كان انتشار الاسلام هو الغز الذي أدهش للتورخين ، وعجز عن فهمه المستشرقون ، فقد جاء
هون تفوق في العدد أو المتاد وخفى سره ، وسره هو الايمان بالله الذي بعثهم ليخرجوا الناس من
الظلمات إلى النور ومن عبادة المعباد إلى عبادة الله ، وهو الايمان بأن الله قد ضمن لهم النصر وهدم
العبادة فوافقوا بنصر الله واندفعوا يحطمون القوائم المادية فأدمموا المالمين .

السلامة

السلامة

الرسالة الثالثة

الدعوات الهدامة

مدخل :

أفت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى الدعوات الضارة . والمذاهب الهدامة ، ووضح الأسس الثابتة لمواجهة الشبهات ، وكشف عن مخططات الاحتماء والتبعية ، وتحرير الأصول الثابتة ، ووجه للمسلمين إلى الحذر عن متابعة غير المسلمين والناس ما عندهم ، ودكتور من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .

• بأنهم الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

• ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل .

كذلك كشف الله حقيقة موقف البشرية من العلم ، وكيف خالف فيه قوم ، واتمسوا منهاجاً غير منهج الله ، وكان الناس أمة واحدة فيميت الله النبيين مبشرين ومنذرين وأزول معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . ولقد كانت محاولات الدعوات الهدامة منذ قديم جارية إلى هدفها المرسوم لإثارة الشبهات ، وتزييف الحقائق ، والهدم عن طريق مذاهب ، لها بريق العلوم وأسمائها . وهي في مجموعها تقوم على أساس إدخال السموم والريوف إلى الفكر البشري لنقله من ربانيته ، وطابعه الإنساني ، ومصادره التي جاء بها الأنبياء . وكتب السماء إلى تلك المخططات التي رسمتها التلويحية ، منذ قديم ، وأقامتها على أساس الوثنية والمادية جميعاً .

وفي العصر الحديث ظهرت علوم تحمل هذه الشبهات ، وتحاول أن تفرضها كقدرات طيبة . فقد استطاعت هذه القوى أن تدس عن طريق علم مقارنة الأديان ما يراد به تزييف حقيقة الدين وتاريخه كالقول بأن البشرية كانت وثنية ، ثم تطورت إلى التوحيد . كما استطاعت أن تدس عن طريق علم الجنس البشرية مفهوماً يقضي بإعلاء المنصرية والهدم . ويحطم قاعدة الاسلام الاصلية القائمة على وحدة الجنس البشري وهناك نظريات متعددة تطرح لمعارضة الدين أصلاً ، وهدم التوحيد ، ومذاهب تستهدف هدم الأخلاق والأسرة عن طريق مناهج المدارس الاجتماعية ، وهناك التفسير المادي لتاريخ وهناك نظريات فرويد في الجنس ، ونظريات لبني برغال في نسبية الأخلاق .

وبالجملة ، فهناك محاولة ضخمة إلى نقل الفكر البشرى من مجال أصالة الفطرة ، ومنطق العقل ، وطريق التوحيد ، وطابع الإيمان إلى مجال الإلحاد والإباحة والوثنية والمادية وهى دعوات تستمد أصولها من مخططات بروتوكولات حكماء صهيون ، التى هى الصورة المستعدنة لمخططات التلود ، من عجب أن القرآن قد كشف عن هذه المحاولة الخفاية بأكملها ، وأبان عن تلك الجماعة التى فرضت على البشرية فكراً مضاداً لفكر الربانى المصدر ، الانسانى الطامع ، وشككت محتوى ، ومفهوماً ، وفلسفة كاملة ، وقد جاءت الرسالات تترى لتصحيح هذا المفهوم ، وكان الاسلام هو خاتم الرسالات فى تحطيم هذه المفاهيم ، والكشف عن زيفها على نحو صريح قائم على البرهان الحق ، ودوهدى صحيح وضو ، كاشف لكل من يلتزمه ، وتجرى الآن محاولة (اليهودية التلودية) فى نطاق النهج الذى حملت الدعوة إليه على مدى العصور فى معارضة الفطرة ودعوة السلب . وفى محاولة إخضاع العالم كله للنهج الربوى : (طلبة الربا) . وهو الآن يأخذ طريقه إلى النفوس التى جهلت الحق وعشيت عن نوره الكاشف .

ولقد اختار الله للسليخ ليعلموا الكلمة المؤمنة الربانية فى وجه هذا الباطل ، وعليهم مسؤولية دحض هذه الشبهات ، وإلهم أمانة الدفاع عن الحق ، وكشف الويف ، جيلاً بعد جيل ، وهصرأ بعد عصر ، ولاريب أن هذه الدعوات الهدامة قد سيطرت على الفكر الغربى ، وأوشكت أن تحتويه ، وهى اليوم تواجه الإسلام ، طمعاً فى أن تسيطر عليه ، ولكن الاسلام بمفهومه الصحيح ، وكتابه الموثق وصموده أمام الأحداث ، ومواجهته الصلبة لكل فكر وافتد ، أو مذهب زائف ، سيظل قادراً على أن يرد الخطر ، ويكشف وجه الحق ، ويبطل الباطل ، ولاريب أن الفكر التلودى الذى الوثق فكراً مراوغ براق ، يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليه داخل مذاهب علمية ، ولكنه مهما خدع بعض البسطاء فإنه لن يستطيع أن يثبت أمام صولة الحق !

وإن نظرة واحدة إلى هذه المذاهب لتكشف عن أنها مفاهيم قديمة وثنية من ركائف الفلسفات الملمينية والفضوية والجوسية ، وما يتصل بها من السحر والأساطير ، تحاول أن تصاغ فى أسلوب براق ، وأن هذه الدعوات وجدت طريقها حين عجز الدين فى بيئات الغرب عن المعام . وحيز انفصال الأخلاق عن الدين ، وضاعت مفاهيم الالتزام الأخلاقى والمسؤولية الفردية . هذه النظريات التى كشفت السنوات الأخيرة عن بطلانها . فقد كان لتحول الأحداث أبعد الآثار فى وجودها ، واضطرابها بما دفع أصحابها إلى إعادة النظر فيها ، وتعديدها ، فقد تصدعت الفرويدية والماركسية والوجودية والملمينية لأنها قامت على أصول غير صحيحة ، ومضت مضادة للتيار ، ومعارضة للفطرة ، وقد فات الذين طرحوا هذه المذاهب فى البيئات الاسلامية أن يعلموا أن هذه الدعوات إنما نشأت فى بيئات خاصة بها ، ومن خلال تعديلات مختلفة ، ومن هنا فإنها لا تصلح لبيئات أخرى ، وأن العقيدة الإسلامية لها قيمها الأصيلة التى تعارض فصل الدين عن الأخلاق ، والتى تنكر أن الانسان مادة فقط ، والتى تفرق بين قوانين البشر وقوانين الله . وتفصل بين الله وبين البشرية والعالم وتنكر الوساطة بين الله والناس . ولا تقرر إسقاط التكليف عن أى مسلم مهما بلغ من درجات الإيمان ، ولا تقبل الدعوة إلى صراخ الاجيال ، أو

إطلاق الحرية من جميع ضوابطها ، أو معارضة عالم الغيب والبحث والجزاء . وتوى أن هذا كله إنما يراد بالشرية لتحطيم الجدار القوى الذي تستند إليه في علاقتها بالله والدين الحق بما يسلبها جيلا بعد جيل ، إلى السقوط في أحضان استعباد خطير . وعبودية المخططات التلويديّة المتطلعة إلى السيطرة على العالم بعد تحطيم قيمه وأخلاقه ومقدراته . وتلك أخطر المخططات التي تمنح البشرية والتي طرحها في السنين الأخيرة عشرات الدعوات والمذاهب والفلسفات المضلّة الهدامة . وكلها تقصد الإسلام اليوم . فهو القوة الوحيدة التي تستطيع أن تصمد في وجه الإلحاد والمادية ، والوثنية ، والإباحية ، والمسلون مطالبون دائما باليقظة والمواجهة . والتصدي لكل القوى التي تحاول أن تفت في هضم ، أو تفسد مقوماتهم ، أو تحطم معنوياتهم . وأول علامات اليقظة هو فهم هذه الدعوات ، ومعرفة موقف الإسلام منها ، وهذا ما نرجو أن نحاوله في هذه الدراسة المتواضعة ،

مصادر المذاهب الهدامة

- (١) الغنوصية : الفلسفة الشرقية القديمة
- (٢) تحريف العقيدة السبئية
- (٣) المذاهب الهدامة والإلحاد
- (٤) الله في مفهوم الإسلام
- (٥) عقيدة البعث .

أولا : الغنوصية

الفلسفة الشرقية القديمة

الغنوصية : مصطلح للفلسفة الشرقية التي كانت ذاتمة قبل نزول الإسلام ، وتقوم في مجموعها على فهم بشري ، بشكل نظرية مختلطة من عدة مذاهب وعقائد ، ومعارضة كل المعارض لمفهوم الإسلام والوجود القائم على أساس الفطرة . وتتألف الغنوصية — التي هي اسم على المعرفة « Gnosis » من مذاهب متعددة : منها المجوسية والمناوية والورادشية والديسانية والزرادكية ، والهندائية ، والفرقوية ، وتجمع في مقاصدها :

- ١ — عبادة النار وتقديسها .
- ٢ — افتراض وجود إلهين : إله خفي وإله شر ، أو نور وظلام .
- ٣ — استباحة المحرمات ، والدعوة إلى شيوعية النساء والأموال . وإباحة نكاح الأخوات ، والاغتسال بالبول .
- ٤ — رفض الذبائح ، ورفض لراقة الدماء ، والوعد في أكل اللحم . وفي من الماء الطهور . ولا ريب أن الفكر الشرقي القديم الذي ظهر عن المصريين والفرس والآشوريين والبابليين والهنود والصينيين ، والذي قام على مفاهيم وثنية وثنائية ومثلثة إنما هو حصيلة التضارب الذي وقع بين الفكر الإنساني الرباني المصدر الذي جاءت به الرسالات والأديان السماوية ، وبين هارلاهم

الفكر البشري للخروج من الضوابط والحدود والقيم الأخلاقية والفرائع التي شرعها الحق تبارك وتعالى لعباده ولذلك فإن من أخطر ما يقوله باحث من الباحثين : أن البشرية بدأت وثنية ، ثم عرفت التوحيد بنزول الأديان الثلاثة : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام . وقد جهل القرآن خطأ ذلك في قوله تعالى : وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، وقال تعالى : وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيابهم ، وتمثل الغنوصية في الفكر الشرقي القديم مكانة الهلينية في الفكر الغربي الحديث . وقد قامت الغنوصية على مفهوم الإشراف والمعرفة عن طريق الروح والبصيرة ، بينما قامت الهلينية على مفهوم العقل والمعرفة عن طريق المنطق . وإن من يقرأ عصارة الفكر البشري وحصيلة التراث القديم يرى كيف تراكم آراء وزعات متضاربة فاسدة غاية التضارب والفساد ، تقوم على الإبادة والشك ، والضلال والاضطراب .

فالدهرية : تقول بقدوم العالم ، وإن العالم بلا إله ولا صانع والطبيعة تقول بأن القرباب والماء والنار والهواء هي أصول كل شيء . والتنوية تقول : إن صانع العالم إثنان : الخير والشر . أو النور والظلام وما قديمان . والبرهمية : تقول بتعظيم النار ، والنهي عن قتل الدواب ، وإبادة الوفا . وتقول بالتناسخ والتثليث والتجسد (التناسخ) : انتقال الروح من جسد إلى جسد (التجسد) : إنكار وجود الله والآخرة لأنهما غير محسوسين والفلاسفة تقول بإنكار بعمق الأجساد ، ورد الأرواح إلى الأبد والمصائب تقول بعبادة للملائكة واعتبارها آلهة .

والنجوس تقول بعبادة النار ، والصلاة إلى الشمس ، ومنع الاغتسال بالماء تعظيماً له واستعمال بوله البقر بدلاً منه وقد أخذت الدعوات الهدامة من المذاهب الضالة . فأخذ القرامطة مشاهدة النساء والأموال التي دعا إليها مذهبهم . وأخذت الباطنية إنكار البعث والمجزاء . وأخذت السبئية الوصاية والرجعة وهكذا وإن أخطر ما تحمل هذا المذاهب من معارضة للإسلام : هو إلغاء التكليف ، وإلغاء الالتزام الأخلاقي . والدعوة إلى إسقاط فرائض الإسلام . وإبادة ارتكاب الحرمات . والإغراق في الفجوات ، والقضاء على الفوارق الواضحة بين الخير والشر ، والتقوى والإبادة ، والفضيلة والردية .

وقد استعرض الدكتور علي سامي النشار مفهوم الغنوصية وقاربها . فأشار إلى أن كلمة Gnosis (غنوص) إنما تعني المعرفة . غير أن الكلمة لم تلبث أن اتخذت معنى اصطلاحياً خاصاً هو : الاتجاه نحو التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف . أو محاولة تذوق للمعارف الإلهية تذوقاً مباشراً بأن تلقى في النفس إلقاء . وأشار إلى أن الغنوص هو عصارة مذاهب فارسية وسريانية . وأفلاطونية . وفيثاغورية . ولها اتصال بالمسيحية . واليهودية . والإرادةشية . والمانوية . بقوله الدكتور النشار :

وقد قاومت المسيحية هجوم الغنوص مقاومة عنيفة ، ولكن الغنوص استطاع أن يغزو ما غزواً عظيماً ، فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين في مقدمتهم القديس أوغسطينوس . أما الإسلام فقد واجه غنوصي الإرادةشية والمانوية والتنوية . وقد ظهرت هذه العقائد في شكل طوائف خاصة . دعوت

باسم الباطنية أو الغلاة أو القرامطة ويظهر الدكتور النشار إلى أن الغنوص استطاع أن يلقى بظله على الفلسفة وخاصة الفلسفة الصوفية فيما يتصل بنظرية الفيض ، أو العقل الأول ، أو النور وبعد الحلاج والسيهروردي المقتول من ضحايا الغنوصية وتجاوز مفاهيم الإسلام في البحث عن مثل أعلى للحياة الانسانية يستند على التعامل الباطنى بعيداً عن منهج الاسلام في المعرفة المستمدة من القرآن .

(١) إحياء الباطنية القديمة

كان لابد من إحياء الباطنية القديمة لأداء نفس الدور الذي قامت به ، وقد أخذت الدهرية من الباطنية القديمة تمردها على الاسلام ، وأضافت إليه ما توصلت إليه أساليب البحث من قدرة على تزييف الوقائع وطلائها بالبريق الذي يخطف الأبصار . بما يحقق نشر الإلحاد والإباحية تحت ستار العدالة والمعروف أن الباطنية القديمة ، قد وضع جذورها في ودي قديم مشهور ، هو عبد الله بن سبأ . الملقب بابن السوداء الذي قال بحلول الإله في بعض عبادته ، ورجعتهم بعد موتهم الظاهري . ومن ابن سبأ نشعت فرق الغلاة ثم تبلورت الافكار الباطنية في القرن الرابع على أيدي فلوك الجوسية المنهزمة ، وتسميت إلى فرق متعددة تربطها غاية واحدة هي القضاء على الإسلام . وشرعيته الخالدة .

وإن أخطر ما طرحته الباطنية - وما تزال تطرحه للذاهب الهدامة ، هو (التأويل) الذي يؤدي إلى تعدد وجهات النظر ، وتبيان الآراء دون الاستناد إلى قاعدة معلومة وهذه تتبع الأهواء والرغبات التي يرضح معها الحق ، أو تشوه معاملة وكان ضرر الباطنية على الاسلام أكبر من ضرر أعدائه الصرخاء وذلك أن الباطنيين أباحوا لاتباعهم جملة المذات والشهوات ، وأسقطوا عنهم فرائض العبادات كما أباحوا لهم ، وقد تأويل أركان الشريعة قبل علماء المسلمين من مزجات اليونان علوم الطبيعية والرياضيات وعارضوا الإلهيات والميتافيزيقا اليونانية . وقالوا : إن لنا علمنا في هذا المجال واستنا في حاجتنا إليها .

وقد ثبت أن هذه الإلهيات ليست سوى (علم الأصنام عند اليونان) وأنها مصارة مفاهيم الوثنية القومية وقد ترجموها إلى لغة الفلسفة ، وأضافوا عليها صبغة من الفن . وما العقول والأفلاك إلا رموز لوثنية الإغريقية القديمة . وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها ، إلا عقلية توارثتها الأجيال عندهم ، ووثنية تعارض التوحيد ، وتصل على عقيدة الصفات الإلهية .

ومن خلال هذه المفاهيم عن الإلهيات اليونانية . جاءت معارضة التوحيد والنبوة ، والوحي ، والبحث ، والجزاء . وهي الأصول الأصلية للإسلام والتي يعد من يبعدها خارجاً عن الدين . وقد اتخذ خصوم الاسلام والعرب والدولة الاسلامية من إذاعة الإلهيات اليونانية وسيلة إلى هدم الدين على طريقة (الهدم من الداخل) المعروفة . ذلك أن إسقاط التكليف وإنكار المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاق والجزاء الأخرى من شأنه أن يفتح الباب واسعاً أمام حرية الشهوات والمذات والذهوة إلى الإباحية ، وعبادة الجسد . وقد كالت هذه هي الاعلام التي رفعتها الدهرة الباطنية .

بكل عناصرها ، وتحت أسمائها المختلفة للتعدي . وقد اتخذوا هدفهم مدخلا زائفا حين قالوا : إن الشريعة قد دلت بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها أو تطهيرها إلا بالفلسفة يقول العلامة أبو الحسن الندوي : وشعروا بأن الاسلام لا ينهزم في ميدان الحرب ، وأن للسلي لا نصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر ، فإن هذا يلهب غيرهم الدينية . لذلك اختاروا الوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يرجع للمسلمين . ولا يثيرهم . هو الفرق بين الظاهر والباطن . عن طريق الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها فمن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين بمضاهيهم ومناجهم الصافية . فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعاني وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ، ومفهوم معين ، تسرب الشك والاختلاف إليها ، وأصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة ، قالوا إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري مع الظواهر تجري الب من القشر ، وأن تصوراتها توم الجبال صوراً جليلة ، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية ، وأن من تفاهد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأهوار ، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع . ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه . .

ولما تقرر عندهم أن لكل لفظ ومعنى شرعي ظاهراً وباطناً . وأن الباطن هو القلب استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم يقولون : للشرائع بواطن لا يعرف إلا للإمام ، أو من ينوب منابه ، وكذلك كل ما ورد في الحشر والنشر وغيرها ، فكلها أسنة ورموز إلى بواطن فمعنى الفصل : تجديد العهد عليه . ومعنى الظهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية . ومعنى التيمم : الأخذ لعلم من المأذون . ومعنى الصلاة : الذهاب إلى الإمام : ومعنى الزكاة : بك العلم لمن يتزكى ومعنى الحج : طلب العلم الذي تعد رحائل العقل إليه .

وتقوم الدعوة للباطنية على قاعدتين : القاعدة الأولى : التمييز بين الظاهر والباطن . القاعدة الثانية : تفضيل الباطن ولقد تدرجوا في الاستخفاف بالظاهر حتى جعلوه موضع سخرية واستهزاء ، فقد كان الأئمة يهيمون تلاميذهم من الطبقة العليا : أن الظاهر متناقض ومعوج وأنه علم كثيف وأنه تقليد محض لا دليل عليه ، وأنه لا حياة فيه ، وأن أهل الظاهر ، هم أهل الكفر بل أهل الشرك وقد تأسست الباطنية على الفلسفة اللاهوتية اليونانية . وعلى الطبيعيات وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها . وعقائدها في أمهم وشرح عقيدتهم .

وقد أشار الدكتور زاهد على إلى هذا المعنى حين قال : لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم . وفي علم الطبيعيات . وفي علم الإلهيات صحيحة ، لا ينطرق إليها الشك ، فاستعنا بها في إثبات دعوتنا . وقد جرح دعاة الباطنية على أفراد الناس بما يحبونه ، والتحدث إليهم عن طريق رغبتهم ومطامعهم ، وقد أورد المؤرخون خطابه زعيم القرامطة الذي جاء فيه : : أوج الناس بأن تقرب إليهم بما يحبون إليهم ، وأفهم كل واحد منهم بأهله منهم ، فمن أنصفهم منه رشداً فاكشف لهم الغطاء وإذا ظفرت بالإنسان فاحفظ به أهل الخلافة من رثاءهم كما جازوا الباطنية أن تصعد مقام المصطلحات الإسلامية

التي جاء بها القرآن والتي يتفق المسلمون على معانيها : كالنبوة ، والرسل ، والملائكة ، الميعاد والجنة ، والنار ، والشريعة . والواجب ، والحلال ، والحرام ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج . فقد ابتدعوا لكل مصطلح منها مفهوماً مخالفاً للحقائق الأساسية التي تعبر عنها هذه الكلمات . وقد وصف الأستاذ الندوى الدعوة الباطنية بأنها (ثورة على النبوة المحمدية) ذلك لإنكارها للفاهيم الدينية التي توارثتها الأمة ، وتفسير الكلمات الشرعية ، والمصطلحات الدينية . حسب الأغراض والأهواء . والفصل بين الظاهر والباطن . حتى إنهم يقولون : التزويل هو الجسم والتأويل هو الروح ، والهدف كما أورده المؤرخون والباحثون واضح وصريح هو الانقضاض على الشريعة الإسلامية بمثل في دولتها ، وإنشاء مجتمع آخر أشارت إليه الإشارات والرموز في رسائل إخوان الصفا وغيرهما . ذلك قولهم : فإن ساطعة اتصل بأهل الزمان جميعاً ، ويصير العالم بأسره له جسماً وآلة وجنوداً وأبداناً ، ويكون هو بمنزلة الرأس : أي العقل وقد جمعت هذه الدعوات المناهضة للمسلمين ، وطلاب المقام والملاذات ومن هذه الدعوة القديمة انطلقت الدعوات الجديدة (البهائية - والشيوعية - والدهرية - والروحية الحديثة . والغرفانا - والبوجا .) وكلها تعمل على تأويل الكلمات الشرعية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق ، وتنتج إلى إنكار الحقائق الغيبية . وغاية الدعوة الباطنية : الإلحاد في العقيدة ، وإلغاء الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية للتزوية إلى الجزء في الآخرة ولا تزال الدعوة إلى التأويل ، أو عالم الباطن من أخطر الدعوات الهدامة التي تواجه المسلمين في العصر الحديث ، وغايتها رفع التكليف والضوابط ومعارضة حدود الله ، ودفع الناس إلى الشهوات والذات في صبيحة خطيرة على حد تعبير أحد فلاسفة العصر : « بول هازار » الذي يقول : « هل تترك السعادة وديعة بين يدي العالم الآخر ، إن علينا أن نقتنصها على الأرض ، أسرها فنحن في عجلة ، لا ضمان للفد . ولا هجرة إلا في الحاضر ، غافل من يتأمل على المستقبل ، فلنضمن أولاً رفاهية بشرية صرفة . » وعبارة الباطنية : تعمي الثورة النهائية التي وصلت إليها المحاولات المأكورة في إنشاء صورة خادعة ، مغرية . ذات برهق زائف . هي القول بأن لكل معنى من معاني الإسلام والقرآن ظاهراً وباطناً . وهم يجعلون لكل نزول تأويلاً . يقول الدكتور أبو العلا ضيق :

وأما تأويل إخوان الصفا لآيات القرآن والحديث ، ولا سيما ما يتعلق منها بأمور الآخرة من جنة ونار ، وبموت وحشر . . الخ فقد اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم . وهو قلب الإسلام ، وهدم عقائده . ومبادئه من أساسها . .

(٢) تحريف العقيدة السنية

إن أخطر الدعوات إلى تحريف العقيدة وإخراجها من أصولها القرآنية . بدأت مع صبيحة عبد الله بن سبأ . فقد كان يقول لطائفة من الناس : (أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيهود إلى هذه الدنيا ؟ بلى : فرسول الله أفضل منه . ألم تذكر أن يهود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى ؟ وقال : إن لكل نبي وصياً وعلى وصي عهد وعهد هو خاتم الأنبياء ، وعلى هو خاتم الأوصياء .)

ومعنى هذا أن عبد الله بن سبأ نادى بمبدأين ليسا من دين الله الحق في شيء وهما من تحريف اليهودية: مبدأ الترجمة ، ومبدأ الوصاية . وفي صميم الاسلام وجوهه . لا يعرف المسلمون ذلك ، ولا يتقرونه وقد أضاع ابن سبأ . قداسة خاصة إلى الإمام علي . فسماه وصياً وولياً ، ومهدياً ، وإماماً ، ونبياً ، وإلهياً . وقد روى الطبري أخبار عبد الله بن سبأ ، وكيف كانت دعوته خطراً من أكبر الاخطار التي واجهت الاسلام في هذه الفترة من خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه . وليس في الاسلام وصية ولا تناخ . وهي كلها من الافكار المجوسية القديمة ، وقد كانت هذه الدهوى - دعوة تحريف العقيدة - من أوله الصنع الذي واجه الاسلام وأن الباحث المتعمق لأثر عبد الله بن سبأ وحركته في مصر والكوفة والشام والحجاز ، ليعرف بوضوح أن هذه الآراء ، وما وراءها من دعوة إلى الانتفاض على الدولة في عهد سيدنا عثمان ، ومن ظلم أسيدنا علي ، هي مصدر تلك الفتنة التي أصابت الاسلام في تلك المرحلة من حياته ، والتي انصلت بعد ذلك بأمر كثيرة .

يقول الأستاذ محمد سعيد الأفغاني : إن ما يذكركه المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة : كعل ، وطلحة ، والزبير ، وعائشة هو بعد التمييز من التبعات للتأنيفة ، أما أقوى الأسباب التي أرتب الشعب وهاجت الاضطراب فهي مؤامرة واسعة محكمة سهر عليها أبابسة خبيثون وتمهدوها في جميع الاقطار حتى أنت ثمرها ، ولم تلق هذه المؤامرة من عامة المؤرخين ما تستحقه من التوضيح والاهتمام ورأس هذه المؤامرة ، عبد الله بن سبأ ، المعروف بابن السوداء إلى أو من أشد الإيمان بأنه لو لم يكن شيء قط من هذه المساعي التي يذكرونها لمكان عمل ابن السوداء وحده كافياً في بلوغ الغاية المشؤومة ويجمع الباحثون على أن عبد الله بن سبأ ، كان على رأس جمعية مريبة مختصة غايتها تقويض الدولة الاسلامية ، والقضاء على الاسلام . وأن هذه الجمعية كانت تعمل لحساب دولة أجنبية . هي الدولة الرومانية التي انتزع منها المسلمون لسنوات قليلة قطرين كبيرين هما مصر ، والشام .

وأن ابن سبأ كان مؤسساً لعمل خطير امتد من بعد في الحركة الباطنية وفي دعووات التفريب والغزو الثقافي في مصر الحديث فذلك هو العمل الذي حاول تسبب العقيدة الاسلامية من أساسها بإدخال ما ليس منها فهو الذي اختلق للمسلمين ما يسمى : بالرجمة والوصاية ، ويؤكد الباحثون على أن ابن السوداء ضرب المسلمين بعضهم ببعض وكان عاملاً من عوامل التفرقة والتمزق بين أتباع الدين الواحد وكانت دعوته لأصحابه : انهضوا في هذا الأمر لحركه . وابدأوا بالظلم في أمرائكم . وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . تستميلوا الناس ، وأدعهم إلى هذا الأمر .

ولا ريب كانت دعوة عبد الله بن سبأ في تحريف العقيدة ، دساً في الدين وتفرقة في الكلمة ، واستهانة بالتاريخ ، واستهتافاً بالمقومات ، ووضعاً من شأن الله ، وإفساداً للأخلاق والاشادة بكل مذهب أجنبي ، ومن هذه النقطة بدأت حركات الهدم في الاسلام ، وبدأت مؤامرات القرامطة والونج والروادبية والمقنع الحرساني وبابك الحرى والمازيار والإنشين ويضيف المؤرخين إلى عبد الله بن سبأ كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام . أما كعب الأحبار ؛ فهو ذلك الكاهن الذي

أسلم في عهد عمر نفاقاً وبلغ من دعائه أن جعل بعض الصحابة يروون عنه أساديث موزونة إلى رسول الله وبما رواه كعب : الأرضون السبع على صخرة والصخرة في كف ملك ، والملك على جناح الحوت ، والحوت في الماء على الريح والريح على الهواء وفي مرحلة تالية وجاء عبد الله بن المقفع الفارسي المجوسي الذي ادعى الاسلام وكان اسمه « روضة » ، وكان من أكبر أعداء الاسلام ومن أشدهم مكرراً فهو الذي نقل إلى اللغة العربية الفكر المجوسي ، وتبعه مزدك وماني وغيرهما وكان ذلك مقدمة لترجمة تراث الإلهيات الوثنية والأغريقية والفارسية .

ومن أبرز كتبه التي ترجمها كتاب « ديستاور » وهو كتاب مزدك يضم عقائده ، كما أنه ترجم كتاب (الدرر اليتيمة) في معارضة القرآن ومن أم الكتب التي ترجمها كتاب (كلية ودمنة) وقد ضمن هذا الكتاب باباً أسماه (برزويه) وهذا الباب من أخطر الأبواب في نقد الدين عامة يتكلم فيه عن تعارض الأديان ، وعن عدم التوصل إلى اليقين فيها بما يعتبر العقل وحده أعظم وسيلة وأفضل المعرفة وليس ما يقوله خصوم الأديان اليوم وأعداء الاسلام إلا هذا الكلام نفسه مكرراً ومعاداً بعد أكثر من ألف ومائتي سنة وكان ابن المقفع يرى إلى نشر الإلحاد والتحليل من الاسلام بالذات وقد تبين لليهود في هذا فقال في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) : وهو مصدر الكلام عن كتاب كلية ودمنة .

ويبدو لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب (سنح سنتر) وهو المعروف بكتاب (كلية ودمنة) فإنه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن بتعبرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب (برزويه) فيه فاصداً تهكيبك ضمبني المقائيد في الدين ، وكسرم الدعوة إلى مذهب المائة (أي المائة) وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل منه فيما نقل) وهكذا اتبى العالم الكبير : اليهودي إلى مانوية ابن المقفع وقد تبين الخليفة المهدي من قبل هذا فقال (ما وجدت كتاباً رندقة قط إلا وأصله ابن المقفع كما قام القاسم إبراهيم اليزدي . المتوفى عام ٢٤٦ بوضع كتاب (الرد على الوثنيي المين ابن المقفع) .

ومع هذا كله فإن آراء ابن المقفع تدور في معاهد العالم الاسلامي كنصوص ونماذج للأدب العربي دون أن تبين للشباب هذه الجوانب الخطيرة حتى يضموها في ميزان الحكم على هذا الرجل . جاءت ترجمة الفلاسفة اليونانية ، وكان المسلمون قد رغبوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية والرياضية ، ثم انحرف الاتجاه إلى ترجمة الفلسفة الإلهية تحت تأثير عوامل ضالطة وكان ابن المقفع وحنين بن إسحق وأخراجهما من الذين حملوا لواء هذا العمل ، قد استهدفوا غاية خطيرة هي نقل مذاهبهم وأديانهم إلى الفكر الاسلامي ، وقصة فساد عملية النقل والترجمة هذه ما تزال من القضايا الكبرى التي تناوضا الباحثون وانتهوا فيها إلى رأي واضح صريح ، والمعروف أنه قد حدث خلط كثير بين المؤلفين . ونقل كتب إلى العربية باسم أفلاطون ، وهي لأرسطو أو لفهم بما أحدث خلطاً كبيراً واضطراباً شديداً أما الأمر الأشد خطورة . فهو أن القسم الأكبر من الثقة كانوا من الميراث والافق القليل

من اليهود وقد نقلوا ما نقلوه وفق أهواء خاصة وأكثر النقلة لم تكن غايتهم البحث عن الحقيقة فهم إذ كان جلهم من النصارى النساطرة واليعاقبة فقد كان أكبر همهم الدعوة إلى شيعتهم وتزيين أهوائهم الدينية . لذلك كانوا ينفرون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم خدمة لأغراضهم الدينية وعقائدهم بالزيادة والحذف تبعاً لأهوائهم واقد كان للترجمة آثارها الخطيرة وكانت تبعه المأمون ، في ذلك كبره وبعيدة المدى فقد كان هدف المسلمين الأول هو الانتفاع بعلوم الفلك - والطب - والرياضيات من حساب وجبر وهندسة وكيمياء . وهم في طريقهم إلى وضع منهمم الذي دعاهم إليه القرآن حين قال : قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، فكان عليهم أن يراجعوا ما سبقهم من فكر في هذا المجال وأن يحرروه حتى ينطلقوا على ضوء صحيح من مفاهيمهم الأصلية وقد جروا في ذلك شوطاً غير أن هصر المأمون لم يلبث أن فتح الباب واسماً لترجمة الفلسفة الإلهية التي هي علم الأصنام عند اليونان .

ومن هنا فقد جاء شر كثير وهبت رياح سود وكان ذلك نذير سوء ومقدمة للاخطار الكبيرة التي ألمت بالمسلمين من بعد ولندع الأستاذ خليل مندavy يحدثنا في إجابته عن سؤال (أ كان خيراً للعرب تناولهم الفلسفة اليونانية ؟ وما هي الفوائد التي اجتثوها ؟ يقول : لم يكن من خير في تناول العرب للفلسفة اليونانية . بل كان تناولهم الفلسفة طالع شؤم وإيذاناً لهم بحوال سلطانهم . لم يأخذ العرب الفلسفة أخذاً جدياً إلا حين انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية فدفع الفلسفة وعمل على ترويجها وقد عمل المأمون على ترجمة مختلف المذاهب والنحل الدخيلة وأباح الجهر بمختلف الآراء فشتاع في زمنه للشك وراج الهاتل وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحة . تحمل في طياتها جرائم المذاهب المختلفة ، والنحل المتعارضة وظهرت الفرق التي كادت تواف بإراداتها وعقائدها أدياناً جديدة فكانت كل واحدة تراحم الأخرى فلم تلبث الدولة إلا قليلاً حتى انعطفت عليها جعافل المفهين من التمر واللؤلؤ ، فقوضت دعائمها وكان السكندر من أتباع هذه الفرق أهواناً للمنهج على تحقيق تلك الغاية التي اندك بها بناء العروبة وسقط صرح الحضارة الإسلامية . ماذا استفاد العرب من هذه الفلسفة .

استفادوا الخبرة لئن قتل الوقت وقتل العقل ، واستطابوا الإدمان على نعاطى هذه الكأس التي يقدمها السفسطائيون للأجهاز على الأمم القوية عندما تبلغ القوة مداها مقابل ما خمره العرب من الإيمان الفطري والاعتقاد النقي فأهملوا وأجهم وتهاونوا في دينهم وفرطوا في لغتهم والذي أفادوه من تلك الدروب التي هلك فيها اليونانيون ومن جرى بهرام من الأمم القديمة والحديثة كان إخوان الصفا عمرة الفلسفة الإلهية اليونانية والحفندية والفارسية القديمة . فقد خلطوا عناصرها ، وأضافوا إليها شيئاً من مفاهيم الاسلام وأقاموا منها مختلفاً حاولوا به أن يهدموا الاسلام بإخراجه من مفاهيمه وإدخال مفاهيم غريبة عليه وجماع الرأي في رسائل إخوان الصفا :

(أولاً) آراء مفككة فيها هود وتكرار غريب اختلطت فيه الفلسفة التقليدية والعلوم الرياضية والطبيعية بمزاجات السحر والتنجيم ، وأحمار ألف ابلة ولبلة ، وكابات كابية ودمنة وصفها أبو حيان

التوحيدى بأنها خرافات وتلفيفات وتزييفات وقد رد الباحثون آراهم إلى زراث السكبان كإصرار النجوم والأعداد والقآل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوابع النجوم وتأنهها وموسيقى الأفلاك ونغماتها . (ثانيا) مزجوا الاسلام بمختلف الأديان والآراء والمقائد زاعمين أن مذهم يستغرق المذاهب كلها ، فكأنهم أرادوا أن يضموا ديننا عقليا بملو الأديان جميعا متغيرة لأصول الاسلام وقد تبين أن مفهومهم لله سبحانه وتعالى مفهوم فاسد وخاصة في رحمة الله وهم ينكرون البعث بالأجساد ويفسرون الجنة والنار ، والآخرة خلافا لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص القاطمة ، وينكرون الهياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين ويفسرون الكفر والمذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً (ثالثاً) أكبر مقاصدهم يدل على سوء قصدهم أنهم طمسوا أسماء وجنوا عن إعلانها . ولو كانوا صادقين مخلصين لواجهوا الرأي العام في جرأة (رابعاً) استهدفت هذه الرسائل إقامة نظام جديد يحل محل الشريعة الاسلامية وهي تشتمل على عقائد الباطنية ، وإعداد النفوس والقول للهرة جديدة (خامساً) الدعوة إلى التأويل ومحاولة تفسير القرآن والكتب للزلة تفسيراً باطنياً بخلاف ظاهر اللفظ والقول بأن للآيات تأويلات خفية باطنة .

هذه الدعوة إلى تحريف العقيدة أثمرت تلك الحركات الهدامة وفي مقدمتها القرامطة وحركة الزنج التي حاولت إسقاط الدولة الاسلامية وإقامة نظم أخرى تحت اسم (العدل الاجتماعي) أما محاولة إقامة نظام على النحو الذي دعت إليه رسائل إخوان الصفا فقد فشل فشلاً ذريعاً وقد تبين أن حمل هذه الفتنة كان لحساب الحركة الباطنية الذين حاولوا قلب النظام السياسي بتغيير التفكير العقلي وإيجاد ثقافة جديدة يستقبلها شباب عصرهم .

وقد أكدت الوثائق ، والأبحاث العلمية الدقيقة أن من وراء هذه المذاهب (المانوية - والمزديكية والحرمية ، والقرامطة وإخوان الصفا ودعاة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود) غاية سياسية هي محاولة تغيير النظام السياسي الاسلامى للدولة الاسلامية والدمى إلى إقامة نظام آخر تصوره مجموعة من المستضعفين على الاسلام وجماعة من الجوسية وقدامى الحكام الممزولين والدعويين والطامعين ولذلك فقد صيغت مفاهيم هذه المذاهب من أمشاج متفرقة وشطأها متعددة من الجوسية والأفلاطونية وأفكار دعاة تناسخ الأرواح وعبدية النهران والآثينية والوعنيين اليونان ، وأصحاب الفكر التلوى . مع إبراز طابع عادم من الولاء لآل البيت وأسلوب من الرمزية وأنظمة سرية يجمعون فيها الناس بخداع الهدورة البراعة ثم ينفذونهم على الحقد والخصومة والانتقام .

وقد اعتمدت (رسائل إخوان الصفا) منهجاً لهدوتهم وهي تضم فقرات موحدة تشبه إلى الوثنية وتجمع فيها بين مصطلحات متعددة من إغريقية ، وبالية وأشورية وغيرها فهم يصدون آلتهم الوثنية كالودان . وأمر من وغازييون إلى جانب إبراهيم وموسى وهيسى وعدد وفي الرسائل فقرات تعهد إلى عبادة الكوكب وآلهة الجوس ، وإباحية مودك في الأموال والنساء والانهماك في تناول المذات . وإلحاد مانى وقوله بالتناسخ وزيف ذراشت في القول بالنور والظلمة ويبدو من خلال هذه اللامع

الفلسفية تلك الغاية الحياتية التي تحفها اليهودية التلوية ومطامعها وأموالها .
(عمر الدسوقي - رسائل إخوان الصفا)

وقد سقطت هذه الحركة ، وما بائها بما قام ويقوم في تاريخ الاسلام كله المعارضة لروح الاسلام وطابعه وذاتيته الخاصة وقد اعترف جولد زهر وكازونوفا من المستشرقين بأن آراء إخوان الصفا هي آراء الباطنية ومعتقداتهم وقد قامت هذه الحركات على أساس التأويل ، ومبادئ الحلول وتبنت آراء مردك في شيوعية الأموال وإباحة النساء وحاولت أن تجعل من الأديان والفلسفات كلها عقيدة واحدة وكان ذلك كله من عوامل فشلها وتنا كيد فسادها .

وكانت حركة القرامطة خليطاً من المجوسية واليهودية وقد أباحت زواج البنات والأخوات وشرب الخمر ، وجميع الملذات . ورفضت قيود الأخلاق والشرع واعتبرت أن جميع القوانين والحدود والآداب التي وضعت للناس قاضية بالجور مقررة للظلم . وأدعت القرامطة أن الجنة هي الدنيا وتعيمها واتخذت في نظامها أساليب غاية في العنف وقام الهداية لما قام به أصحاب حركة الروج من فظائع لا حد لها وقد قاومت السنة هذه الحركة مقاومة حاسمة ، وواجهت مفاهيمها وردت عليها ، ونقضت شهادتها ، وتأكد للباحثين والمؤرخين أنها حركة معادية للإسلام ، ناشئة من بين أجنبي ، وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية كالزائدية والخرمية والبابكية وأنها امتداد لها .

(٢) المذاهب الهدامة والإلحاد

إن المصدر الأم للإلحاد هو المذهب المادي ، والنزعة المادية التي تقوم على تصور خاطئ للإنسان وهو أنه خلق من العدم ، وصائر إلى العدم وأن للإنسان حياته المحدودة ولا سلطان عليه إلا نفسه وأهوائه فعليه أن يسارع قبل انتهاء الأجل إلى الانغماس في الشهوات فإذا وجد من الفلسفات ما يرضى هذه النزعات في نفسه ويجريها فهو يعتنقها ، وتلك طبيعة الإنسان منذ قديم ، وما تزال .

والناظر إلى الدهرية ، والمذاهب الهدامة جميعاً يجد ما لا تفصل بين الإلحاد والإباحية : أي بين الفكر والمجتمع . وقد نشأ الإلحاد في بيئات غير إسلامية ، نتيجة تزمت الديانات والمذاهب التي انخرقت عن أصولها الأصيلة ، فضيقت واسماً ، وحرمت الإنسان من تطاعته ، وإجابة نداء غرائزه الطبيعية ودعته إلى قمع هذه الرغبات ، أو فرضت عليه معتقداً يحار العقل في قبوله ، ويتعارض مع الفطرة ، ولا ريب في أن العقل البشري في العصر الحديث بعد أن حررت الطاقة الضخمة التي ألقاها القرآن إلى البشرية ، وأثرت في كل الأديان والمعتقدات ، وأفكار الأمم ، وخلصته من عبودية الجحيم والعقل جميعاً هذا العقل ما زال يقف موقف الريبة إزاء كل ما يقتضي مع الفطرة من حيث أن الدين المنزل من عند الله لا يتناقض مع الفطرة . ولا يعارض العقل ومن هنا كان ذلك التشابه بين موقف الغرب في هذا العصر وموقف البشرية قبل نزول الاسلام وهنا نرى الاسلام في بساطته وبسره ، وسلامته مقاصده فقد أطلق الدين من كل ما ألصقه به المجسمة والمشبهة ، وحرر عبيط العبادة من التماثيل والصور والرموز والطقوس والشارات وجعل روح الدين في الفاعر والسوق والمسجد ، ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شؤون الدين ، وحتم على جميع معتنقيه أن يكونوا علماء به . ولم يجعل بين العبد وربّه وساطة ما .

ولا ريب أن نزعة الإلحاد قديمة . وقد ظهرت في القرن السابع للميلاد في بلاد اليونان ، ثم ما زال ظهورها يتجدد على العصور ويدخل في معارك مع رسالة السماء ، ومع الفكر الرباني المصدر ، ويجد من أصحاب الأهواء والمطامع أولياء له وتابعين . ولما كفف العلم الطبيعي عن أسراره نزع العقل البشري نزعة الاستسلام . واتخذ من مهاجمة العقيدة التي عارضت طريقه إلى البحث سبيلاً إلى معارضة الأديان بعمامة دون أن يقدر مدى الفوارق البعيدة الواسعة بين العقائد وبين التفسيرات المنحرفة لبعض الأديان وبين الأديان التي حفظت مصادرها من كل زيف . ولو قد خلصت النيات ولم يجد التعصب سبيلاً إلى النفوس ، ولم تكن وراء الدعوات أهواء أصحاب المطامع من دعاة الأيديولوجية التلويحية . لاستطاعت البشرية أن تعرف أن في الإسلام غاية ما ترجوه النفس البشرية وتنطلق إليه : سمة ورحمة وإيماناً بالعلم والتقدم ، ودفعاً للإنسان إلى تحقيق ذاته وممارسة رغبته ، فقد اعترف بها الإسلام ، وأجاز تحقيقها في إطار من الضوابط الكريمة . ولكن البشرية مازالت منذ خمسة قرون تبحث وتتخذ من العقل — وهو أداة لها — ما يصرفها عن وجهتها الخاصة ، وهي في حاجة إلى نور الإيمان ، أو على حد تعبير علماء المسلمين عنه : إن العقل « جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب » .

ما زالت البشرية تبحث دون أن تهتدي إلى الحق . وهو قائم أمامها وهي مشرقة نحو الفلسفة الغنوصية ، أو مغربة نحو الفلسفة اليونانية .

ومصطلح الإلحاد (Atheisme) يعني نفي وجود المبدع الأول لهذه الكائنات . والإلحاد ككل النظريات يتغير ويتطور ويتحرك في كل بيئة وفق أسلوب جديد . ومن هنا فقد عرف العصر الجديد إلحاداً مرتبطاً بعدد من الدعوات . كالوجودية والماركسية والفرويدية ، بل يمكن القول بأن الإلحاد وإنكار ذات الإله مما قاعده كل هذه المذاهب والدعوات مهما اختلفت حول أضايا العصر . وهذه الدعوات جميعاً تعارض الأديان ، وتعارض النبوة ، والسكبت المنزلة . وهي تقف موقف الإنكار الشديد للبحث والجزم . وقد أخذ الإلحاد يلبس في العصر الحديث طابعاً فلسفياً . ويسمى من بعض نتائج النظريات العلمية أسلحة له . ومن العجيب أن معظم أسلحة الإلحاد عن طريق العلم التجريبي قد سقطت ، وكان أخطرهما إنكار الغيب ، وما وراء المادة . إذ حاد العلم التجريبي أخيراً فاعترف بما وراء المادة نتيجة ظهور قوانين الذرة وانحطاطها . ولكن الفلسفة ما تزال تبحث عن أسلحة جديدة تدعم بها موقفها إزاء هذه المعارضة الباطلة .

والإلحاد الحديث هو بمثابة رفض للقوة الأساسية الواضحة القائمة والصانعة والمديرة في هذا الكون وقد طرح هذا الشعار بعد أن كذبت العلوم التجريبية نظرية دعاة الإلحاد القديمة ، إن الظاهرة الجديدة هي النمرود على وجود الله في محاربة لتأليه الإنسان ، أو هي محاربة لانتزاع الألوهية من الله (سبحانه وتعالى) مما يقولون علواً كبيراً) لوضعها في الإنسان . ومن يقرأ ما كتبه فوريباخ وماركس وساتر وفرويد ، يجد هذا المني واضحاً جلياً . قال ماركس : إن الإلحاد هو إنكار الله . وبهذا الإنكار تؤكد وجود الإنسان . ويربط فرويد بين النمرود على الله والنمرود على سلطة الأب ؛ ولا ريب أن هذا

الخلط بين الله والإنسان من جهة ، وإضفاء الألوهية على الإنسان من جهة ثانية لما مصدرهما في الفكر الفرق المسيحي . ومن خلال هذا المفهوم تقوم الخلقة على (الإله) فالإله محدث بالصورة التي عرفها الفكر الغربي . وليس بالصورة الحقيقية لله سبحانه وتعالى . وهي صورة محدث فيها خلط كثير بين الله والطبيعة ، وبين الله والإنسان ، ومن هنا جرت عبارات نيتشه المعروفة عن موت الإله ، وهبارات ماركس عن أفيون الشعوب ، ذلك لأن الفروض التي قدمت كانت فروضاً بعيدة عن العقل ولا تقبلها الفطرة ولا تطعن إليها النفس المتطلعة إلى تقبل كل ما هو منطقي ومعقول .

(٤) الله في مفهوم الإسلام

إن نظرة واحدة إلى مفهوم (الله) سبحانه وتعالى في الإسلام تستطيع أن تزيح من النفس الإنسانية ذات الفطرة الصافية كل ريب وكل شك وكل شبهة من تلك التشبهات التي جاء أكثرها من قبيل التحدي . فالله هو الخالق البارئ المصور القهار الذي ليس كمثل شيء . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . وهو الصانع المدبر التي تتمثل صفاته في أفعاله الحسنى فلا يتعداها المسلم ولا يصف الله أو يسميه إلا بما سمى به نفسه .

والاعتقاد في وحدانية الله هو الركن الأول من أركان الإسلام ، وهو مرجع كل قول ومنتهى كل قصد . وذات الله لا يدركها العقل ولا يناها الحس . وكل ما يدركه العقل الإنساني هو من آثارها التي ترشد إلى وجودها . والعقيدة بوجوده تعالى لازمة من لوازم المعنى الإنساني ، فإن الإنسان مادام صاحب نظر وفكر واستدلال فلا يستطيع أن يفكر من تلك العقيدة مطلقاً . ولما كان أول أصل من أصول المحسوسات هو علمه بأنه (لا مصنوع إلا وله صانع) فتراه لا يتساءل نفسه من الحكم بأن هذا الكون لا بد له من صانع . وقد ظل الإنسان على هذه العقيدة ألوقاً من السنين لا يمتريه منها شك حتى جاءت الفلسفة قبل المسيح بنحو ستة قرون لجأت معها الشكوك والشبه والسفسطة . وقد أشار القرآن إلى هذه الشكوك في أكثر من موضع ، وفي الله شك فاطر السموات والأرض . . وكشف عن عجز المادية في تحليل وجود الكون بدون خالق حكيم مدبر .

ومفهوم الله في الإسلام يتميز بمعالم واضحة : فهو المبدع بالمعنى الحقيقي . وهو الصانع والمدبر المتميز عن الأشياء الحادثة المتغيرة التي زأها وسبحانه وتعالى علواً كبيراً عن تشبهات المتفهمين وتحمسه المجسدين . ويرفض مفهوم الإسلام في الله سبحانه كل ما قالته الفلسفة ويمتري مفهومها عن الله قاصراً فالله سبحانه وتعالى : هو غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال والتزيه . فهو سبحانه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وهو الأول والآخر فلا أول قبله ولا آخر بعده . وهو الظاهر والباطن وهو الذي وسع كل شيء . علماً . فهو يعلم الجزئيات والكلية . وهو رب المشرقين ورب المغربين . وهو الذي خلق للعالم كلها : الإنس والجن والملائكة والسموات والأرض خلقها من غير شيء . سابق أي من الدم . وهو الذي خلق الإنسان عليه البيان . وهو الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . وصورة الله في القرآن

تختلف اختلافاً واضحاً عما جاء في الفلسفات وفي بعض العقائد فهو ليس إله الحرب والجنود وليس هو إله أمة دون أخرى بل هو إله العالمين ، الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ونحن نؤمن بأن الله خالق وأن هذا الوجود مخلوق له . ولكن لا فراغ بين الله الخالق وبين هذا الوجود المخلوق له . إن في الوجود ثنائية . ولكن ليس بين طرفي الثنائية انفصالية . إن الإنسان جسم وروح ولكن الانفصال بينهما في حياة الإنسان نفسه . وقد اضطرب الإنسان في سلوكه عندما اعتقد بوجود فراغ بين الله والإنسان أو اعتقد أن الإنسان جسم وبدن فقط . الإيمان بالله أساس المعرفة - ووحدة الله هي الأساس - والانسجام بين طرفي الثنائية في هذا الوجود قائم وبالأخص في طبيعة الإنسان وبين روحه وجسمه وبين الفرد والفرد - فالروح ضرورة - والبدن ضرورة - والإنسان بلا روحه هيك أجرد - ومعرفة بدون دين قلما يصاحبها يقين . والوجود كله يقوم على مبدأ الثنائية . أو مبدأ التقابل . الله سبحانه وتعالى مجرد عن الحسية والمادية - وطبائع الكائنات خليط بين الروحية والمادية - الله روح خالصة تقابله هذه الطبيعة المادية التي شاءها سبحانه وتعالى لمخلوقاته وكائناته . هذه الكائنات بدورها فيها المادة وفيها الروح ، مزيج مما يرى ويدرك بالبصر ، ومن شيء آخر لا يرى ولا يدرك ، إلا بالعقل والتصور - الثنائية في الذكر والأنثى في الحياة والموت في القوة والضعف - هذا التقابل : أو الثنائية سنة الوجود كله ، فهو مخلوق . وله خالق - ورسالة الله للإنسان في هذا الوجود هي إيجاد الانسجام بين طرفي هذه الثنائية في حياة الإنسان . الملائمة في طبيعة الإنسان بين جسمه وروحه وغايتها في الوجود كله أن تتلائم بين الخالق والمخلوق . ليس من الطبيعي أن يكون هناك كفر بالله الخالق وإيمان بالإنسان المخلوق . إن الإيمان بالله نتيجة لازمة لقانون طبيعة الوجود ولقد كانت دعوة الإسلام إلى الانسجام بين الروح والجسم ، بحيث لا يتخلف أحدهما أو يجهل في نفس الوقت الذي يسير فيه الآخر في طريق الفوقا كشف الإسلام عن خطأ إعلاء الروح على حساب الجسم - وخطأ إعلاء الجسم على حساب الروح . ذلك أن الإيمان بمادية الإنسان وحدها ، كالإيمان بروحانيته وحدها أمر يتناقض مع هذا القانون ويصطدم مع نتائجه . إن الوجود كله له خالق وما عداه مخلوق له . وليس الإيمان بالله الخالق فقط . بل الإيمان بوحديته . وفكرة التوحيد هي أبرز أفكار الإسلام عن الله سبحانه وتعالى فالإسلام يدعو إلى التوحيد الخاص من كل شائبة ، وهو ما يختلف مع الوثنية والتعدد والشرك والإلحاد ، فالوثني يعبد الأصنام ، والملاحد لا يؤمن بالله ، والمشتري يؤمن بالله ولكنه يشرك معه غيره ويتخذ آلهة أخرى شغفاه له ووسطاء ، ولقد كان العرب في جاهليتهم يؤمنون بوجود الله تعالى وكانوا موحدين له في أعماله من خلق ورزق وإحياء وإماتة وهذا ما يسمى (توحيد الربوبية) وإنما كان شركهم ناتجاً عن عجزهم عن الإيمان بـ (توحيد الألوهية) أي توحيد العبادة وهو أنهم لم يقصروا عبادتهم بأنواعها على مسقطها وهو الله وحده كالعبادة والخوف والرجاء والاستعانة والاستغاثة قال تعالى فيهم (إلا الله الذين الخالصون بالدين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (وهم يبدلون من دين الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) وقد رد عليهم الزعم الباطل بهذه الآيات في توحيد الربوبية (قل من يرزقكم) ، وأقام عليهم الحجة بما أقروا به عن إنشاده تعالى بأفعال الربوبية (قل

ما أنكروه من وجوب إفراده تعالى بالعبادة، لقد كانت فكرة التوحيد الخالص هي أشد الأفكار غرابة عندكم هي والبعث سواء وذلك مع اعتراهم بوجود الله سبحانه، وأنه الخالق للموت والارض وما بينهما ولكنهم ما كانوا يريدون أن يترفوا بمقتضى الوحدانية هذه وهو أن يكون المحكم قو حده في حياتهم وشؤونهم وأن يتلقوا عنه وحده الحلال والحرام، وأن يكون إليه وحده مرد أمرهم كله في الدنيا والآخرة ولقد كان التوحيد في مفهوم الاسلام متميزاً بالوضوح والشمول وهو يختلف كثيراً عما قيل من توحيد عند الفراعنة أو اليهود أو غيرهم فقد جاء الاسلام بالتوحيد الخالص فانهطت بيوت النار ومعابد الجوسية وبطلت عبادة الشمس. ومن الحقائق الواضحة في هذا المجال أن الإنسان بدأ موحداً ثم أصابته لومة الشرك وأن النظرية التي طرحها (علم مقارنة الأديان) والتي تقول بأن البشرية بدأت ظفوانها بالوثنيات ثم ارتفعت، أي التوحيد نظرية باطلة بحكم التاريخ وبحكم المنطق الواسع فإن آدم أكرم البشر وأول إنسان كان على علم وكان يعرف التوحيد ويؤمن بالإله الواحد، ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدة ثم انحرفت وكما انحرفت جاءت الأديان ترد البشرية إلى أن جاء الاسلام دهوة عالمية وعائماً للأديان ولقد واجه الاسلام قضية التوحيد والوثنية على نحو مستفيض وطالها بمنهج جامع بين القلب والعقل وعبرة التاريخ ومن هنا فقد أصبح القرآن هو حافظ البشرية عن الارتداد إلى الوثنية وعصور الأساطير ومن أهم ما دعا إليه التوحيد الخالص في مفهوم الاسلام إنكار نظرية اندماج الله والعالم وقد أفاض علماء المسلمين في تصوير عقيدة التوحيد الإسلامية ورسموا لها صورة كاملة واضحة المعالم فاقه سبحانه وتعالى هو صانع العالم وله صفات ثابتة استغنىها لانه وأن الحوادث كلها لا بد لها من محدث صانع وهو سبحانه قديم لم يزل ليس له صورة، ولا أعضاء ولا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان ولا تلحقه الآلام والذات وهو غنى عن خلقه، وأنه واحد والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بالاختراع من العدم وعلمه واحد، يعلم الموجودات بتفاصيلها من غير حس، ولا بديهة ولا استدلال وسمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات، وهو لم يزل رانياً لنفسه ساهماً اكلام نفسه.

وأسماء الله وصفاته معروفة من القرآن، والحديث الصحيح وإجماع الأمة ولا يجوز إطلاق اسم عليه من طريق القياس وأسماء الله تسعة وتسعون وهي ثلاثة أقسام صفات أزلية (نحو: واحد وأول) وصفات أزلية قائمة بذاته (نحو: حي قادر عالم) وصفات مشتقة من أفعاله (نحو: خالق رازق عادل) والعبد مكسب لعمله والله خالق لكسبه والله يراه المؤمنون في الآخرة ولا يحدث شيء في العالم إلا بإرادته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والله حي بلا روح ولا اعتناء، وكلام الله صفة أزلية وهو: (أى كلام الله) غير مخلوق ولا محدث ولا حادث.

(٥) عقيدة البعث

ومن قواعد الإسلام الأساسية : عقيدة البعث والإيمان بالجزاء الآخروي ، وقد أجمعت الأديان السماوية على وجود حياة بعد الموت بحاسب فيها الإنسان من عمله في الحياة الدنيا وهي حقيقة جوهرية لا يسقطها الإسلام أبداً ، ويضمها دوماً نصب الأديان ، والعقول والأفهام وتجرى من كل أعمال الدنيا . ولا ريب أن الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ، ودافع بناء وحركة ، وليس عامل جهود وتخلف ، وإذا لم يكن الأعمال الكبرى في الحياة الإنسانية وجهة ربانية تعطى ثمرتها في الدنيا ، وتعطى جزاءها في الآخرة ، فإن رسالة الإنسان في الحياة تكون عبثاً . ولا يمكن أن تكون الحياة بغير غاية أو أن يكون وجود الإنسان في هذه الأرض بغير رسالة . وتلك الحقيقة هي أعظم معطيات رسالات السماء ، فليس من المعقول أن يخلق الله هذا الكون كله عبثاً (الخسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) إن الحياة مسؤولية ورسالة ، وهي حقيقة ونعمة ثم هي بعد ذلك بمسئولية وجزاء . وحين يتأكد النفس الإنسانية هذا الملاحظ تتزاح تلك الأزمة التي تحاول أن تفرقها في تيه مطلق ومن حسن الحظ أن هذه الأرض قد عرفت أصالة الدين وعلى رآها نزالت الأديان . ومن هنا فبى حرية ألا تقع في تلك الأزمة التي اجتاحت المجتمعات الأخرى . ولا ريب أن الفطرة الإنسانية في أحقادها تستطيع أن تلتصق طريقها إلى الدين الحق ، وتتصل بخالقها الواحد ، ولا شك أني الإلهاد أمر طارىء على النفس البشرية وليس في الأصل من طبيعتها ولا شك أن للدين طبيعة عميقة في الكيان الإنساني وهو أصديق الطرق إلى بناء الفرد وبناء المجتمع ، وبناء الإنسانية المنعقدة من الخوف والفكر والاعتلال .

إن قول الفلاسفة المادية أن العالم مادة فقط هو مالا تستسيغه الفطرة ولا يقبله العقل ، ولا ريب أن عقيدة البعث والدار الآخرة عامل بعيد الأثر في حياة الإنسان وفي أعماله وسلوكه ومن أجل هذا أولى القرآن أمر البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً ، وقرن البعث بالتوحيد في مواضع كثيرة وأشار إلى تلاميذ الجاهلية التي استطالت على العصور في إنكاره ومحاولة الإفلات من أثره في الدنيا ، ومن المسؤولية الفردية المترتبة على الجواز الآخروي وأبرز المكذابين لفكرة البعث والجزاء هم الدهريون الماديون ، ذلك لأنهم يدهون إلى الإباحة ، وإطلاق الفرائد والشهوات في الدنيا وهو إطلاق تخفاه النفس الإنسانية وتفر منه إلا حين يزيف لها هذا الأمر مزيف فيجب عنها هذه الحقيقة ، ولا ريب أن الإيمان بيوم الجزاء هو أقوى باعث للمرء ، يدفعه سعياً وراء الكمال والتقدم ، ولا ريب أن يوم القيامة هو يوم نهاية الإنسان ، وهدف الله من خلق الإنسان (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأولي) وفي مختلف الأديان حتى أديان قدماء المصريين : عقيدة البعث بعد الموت . ولم يزيف هذه الحقيقة غير التلويدين والوثنيين ، والدهريين . ويرتبط هذا الفكر الوائف بمحاولة رفع التكاليف والفروض . وإلغاء مسؤولية الفرد عن عمله .

الباب الأول

دعوات هدامه للمعتقد والقيم

الفصل الأول : الدهرية . الفصل الثاني : التبعصوفية . الفصل الثالث : البهائية
الفصل الرابع : تمهيد الأرواح (الروحانية الحديثة)

الفصل الأول

الدهرية

الدهرية واحدة من الدعوات الهدامة التي أظاها النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية كوسيلة من وسائل تدمير مقومات الإسلام وقيمه الأساسية . فقد كان من أبرز أهداف الاستعمار : القضاء على القوة الأصيلة التي قام عليها الإسلام ، (وحي) (التوحيد) . فنشر في كل مكان حل فيه مفاهيمه للسادية ، والدعوة إلى القول بممارسة وجود الخالق . وأن السكون طبيعي وبعد احتياطاً . وقد عرف هذا للذهب بالنيشيرية نسبة إلى (Nature) وقد برزت هذه الدعوة بصورة خطيرة في الهند . نشرها الاستعمار البريطاني بين المسلمين . وكتب لها السيد جمال الدين الأفغاني . فوضع رسالته المعروفة بالرد على الدهريين . . وقد صور هدف هذه الدعوة حين قال : النيشير اسم للطبيعة . وطريقة النيشير هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح . ومقصود أرباب هذه الطريقة هو الأديان ، ووضع أساس الإباحة والاشترار في الأموال والإيضاح بين الناس عامة . وقد كدسوا لإجراء مقصودهم هذا وبالغوا في الدهر إليه . وتلونوا لذلك في ألوان مختلفة ، وتقلبوا في مظاهر متعددة ، وكيفما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها ، وعاد عليهم سمهم بالزوال .

وأيما ذاهب ذهب في غور مقاصد الأخذين بهذه الطريقة فجلى له أن لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية . إذ لا ريب في أن الدين مطلقاً هو ملك النظام الاجتماعي . وإن يستحكم أساس لتمدين بدون الدين البتة . وأول تعاليم هذه الطائفة هو إعدام الأديان ، وطرح كل عقد ديني . أما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سلاكمها مع طول الزمن على نشأتها . فبببب أن نظام الآلة الإنسانية - وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية - كانت له الغلبة على أصولها الواهية وشرعيتها الفاعدة . وبهذا السر الإلهي البعث نفوس البشر نحو ما ظهر منها . ومن هذا لم يبق لهم ثبات قدم ، ولم تقم لهم قائمة أسس ، ولا في نفس من الأوقات ، أم

وقد أشار العلامة صلاح الدين الساجوق في كتابه ، أخيراً على ميادين الفلحة والعلم والفن والادب ، إلى صلاحية إطلاق اسم « الدهريين » على هذه الجاهات المختلفة ، من منكرى البعث في الآخرة كما جاءت به الأديان السماوية . وأن هؤلاء الدهريين هم عشرة مذاهب : الأبيقورية . الارتقائية . اللزديكية . الباطنية . أنباغ فولته وجمان جاك روسو . المورمون . النفييون . اللداسون . للاديون . يقول : ولما كان المنود يطلقون كلمة « ليدري » على جميع المنكرين عن طريق الحق ، فليس ببيدا أن نقرها بلنظ « الدهري » .

وقال : إن الدهرية عبارة عن حكومة الغرائز والعقد النفسية ، ونشاء « أى الدهرية » ، أن يتم الدل والموان والحلوف والإرهاب والفرقة والكراهية . وقد أشار السيد جمال الدين الأفغانى في رسالته إلى أن الدهرية هى مركز الرذائل والدل والموان ومصدر الفوضى والفساد والممجية وموجب لسقوط الفرد والمجتمع . وبعد أن سرد تاريخ نهوض الأمم بإيمانها وعبادتها وحياتها الداني وسقوطها بنقود الدهريين غير المؤمنين بالله وبأنفسهم - قال : إن طائفة النيشريين (الدهريين) كلها نجست في أمة أفستت أخلاقها وأرقعت الخلل في عقولها ، وتخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل والوان من التلبس حتى أصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها ونفطرت بناؤها واغتالتها رذائل الأخلاق من الآرة وعبادة الشهوات والمجراة على ارتكاب الخيانات ؛ ولا يزال الفساد يتغلغل في أحشائها حتى تضل ويحى لإنها من صفحة الوجود أو تضرب عليها الدلة أو يخذل أبناءها في الفقر والعبودية . وقال : إن قبيلان من هذه الطائفة عملوا على إخفاء مقصدهم الأصل وهو الإباحة والاشتراك ، واكتفوا في ظاهر الأمر بإنكار وجود يوم الدين ، يوم العرض والجواء .

إن هذه الزعة وحدها كافية في إفساد الهيئة الاجتماعية وتزعزع أركان المدنية ، وليس من ضرور الباطل ما هو أشد منها تأثيراً في نحو الفضائل وإثارة الخبايا والرذائل . وليس من الممكن أن مجتمع بشخص واحد وم الدهرية وفضيلة الأمانة والصدق وشرف الهممة وكال الرجولة ، أه

أبرز مفاهيم الدهرية هى : (أولاً) إنكار وجود الخالق وأن الكون بلا إله ولا صانع . (ثانياً) قولهم إن الدهر قديم . (ثالثاً) إنكار البعث والإعادة . قامت هذه الطائفة في القرن الرابع الهجرى وتحطمت تحت ضربات معاول التصحيح الذى قام به الأئمة . ثم تجددت في العصر الحديث جديداً الاستعمار البريطانى في الهند . ولكن نفهم أبعاد الدهرية علينا أن نستعرض بعض المصطلحات ننظر من خلال التاريخ لترى كيف مضت الدعوة الباطنية وفق طريقها . وكيف أن ما نراه اليوم وليس إلا إعادة الماضى ، أو صياغة جديدة للفكر القديم المدام .

الفصل الثاني

التيوصوفية

مذهب من المذاهب التي ابتدئ بها الفكر الحديث في مجال معارضة الدين واتخاذ بدائل فلسفية لتحل محله . والتيوصوفية (Theosophie) كلمة يونانية معناها (الحكمة الإلهية) ثيوس (إله) صوفيا (حكمة) أطلق هذا المصطلح في القرن الثالث لليلاد ، ثم طرد إلى الظهور في القرن السادس عشر لليلاد . واستمدت التيوصوفية مفاهيمها من الفلسفة الهندية القديمة . وبرزت في ضوء الدعوة التي أطلقها بعض كتاب الغرب بالتوجه إلى الفلاسفات الشرقية للبحث فيها عن مفاهيم ومذاهب تحمل محل الأديان . وكان هوبنهاور الفيلسوف الألماني : هو أول من به الأذهان إلى دراسة الصوفية الهندية وخاصة مذهب بوذا الذي يقول بإماتة المهبوات حتى تصل النفس بعد مجاهدتها إلى حال لا تشتهى معه شيئاً ، وهي الحالة التي أطلق عليها (النرقانا) أي : حالة لا تشبع الروح بالانصراف عن الدنيا كلها ، وهي حالة إذا وصل إليها الإنسان انطلق للعقل حراً . لا تفيد المهبوات أو الموابف . ومن ثم يرى ما لا يراه وهو مقيد بها ، ويهمر عندئذ بحقيقة المكون أو عنصره الأول . وقد برز هذا الاتجاه في الفكر الغربي على أثر الخلاف الذي قام منذ عصر النهضة بين العلم والدين وظهور الفلسفة كبديل للدين ، ثم جاءت الفلسفة المادية ، ثم حاولت الفلسفة أن تجد من التيوصوفية سبيلا للبحث عن ما وراء المادة ، وذلك ما يسمى بالانتقال من المذهب العقلي المادي إلى المذهب الباطني الحديسي القائم على البصيرة والإلهام . وقد اعتمد مذهب التيوصوفية على كتب البراهمة والبوذيين وقدماء المصريين . والكنبالات اليهودية وما يقوله المعتقدون بمناجاة الأرواح . وقد ترعرعت هذه الظاهرة وامتدت حتى أطلق عليها بعض الكتاب (الصوفية الجديدة) واعتمدت على نفس الأسرار القديمة التي تقول بها الصوفية الهندية ومعنى : (الحلول) . وقد وجد هذا المنطق تقبلاً في النفس الأوروبية لأنه يتصل بمعنى قريب من مفهوم الدين في الغرب .

فالأوروبيون يقولون : إن كان المسيح قد أسس نفسه إلهاً فذلك لأنه يعتقد أن ملكوت الله ليس خارجاً عنا . إذ هو حال بنا . ونحن آلهة مثله . وما أرواحنا إلا قبس أو شرارة من تلك الروح العامة للعامة المكون . ومفهوم الألوهية في الإسلام يختلف عن هذا المفهوم كما يختلف مفهوم النبوة ، فانه تبارك وتعالى في مفهوم الإسلام : ليس حالاً في المكون ولا متحداً به ولكنه قائم بذاته سبحانه ، وكذلك في مفهوم الإسلام أن النبي هو عبد الله ورسوله .

وقد شاع هذا المفهوم في الفكر الأوروبي ، وهو أحد مفاهيم وحدة الوجود والحلول الجوهرية القديمة ، واستطاع أن يحمس في مفهوم المقامات الزمنية : أرحمة خصوبة لتقبله ، ولكنه يختلف اختلافاً

كثيراً من مفاهيم الإسلام في أكثر من موهم (أولاً) في الصلاة بين الخالق سبحانه ومخلوقه ، وبين المسلم والمكون (ثانياً) في إهدار المسؤولية الفردية التي تحملها الإنسان مسؤولاً عن عمله مسؤولاً كاملة يوم القيامة (ثالثاً) في إنكار البعث والجزاء . والجنة والنار ، وذلك في القول بأن الإنسان خالد وأن مستقبله من المجد والبهاء مالا حده وأن الجزاء هو ديني وليس أخرياً ومن الناحية التاريخية : نقول أن الجمعية النيو صوفية : أنشأتها مدام هيلانة بروفنا بلاخابسكي الروسية للولادة عام ١٨٧٥ في الولايات المتحدة ثم انتقلت إلى (مدارس) في الهند . فانتخفت قاعدة أعمالها في (أديار) . ثم انتهت راسماً إلى مسز بيزانت الانجليزية الحاصلة على دكتوراة في الحقوق .

(و) مسز بيزانت ، هي أكبر دعاة النيو صوفية . وقد كانت زوجة قسيس انجليزي . وبالشك في قلبها نحو المسيحية فأخذت تدعو مع صديق لها يدعى (برادلف) إلى التخلي عن أديانها واعتدت إلى الصوفية . فاعتنقتها بحماسة وهمة . وسافرت إلى الهند حيث تعلمت اللغة الهندية ودرست الصوفية الهندية وقد ألقت في الحلول والتجسد . وقد أحصى بولس مصويج فروع الجدية في الثلاثينات فبلغ المنتسبون إليها نحو (٦٠) ألف وأرب أمداً في إيجاد فكرة أخوة إنسانية عامة ويرى بعض الباحثين أن النيو صوفية وليدة الصوفية الهندية .

والفارسية القديمة التي كانت موجودة في الشرق قبل الإسلام وقد نشر هذه الأفكار في بلادها خريجو الإرساليات الذين سيطروا على الصحافة العربية في أواخر القرن الماضي وحلوا لواء كثير من هذه الدعاوات ويقول الدكتور يعقوب حروف . محرر المقتطف عام ١٩١٠ في عرض لهذا المذهب : إن النيو صوفية نوع من التصوف المسيحي والتأمل ، والاتصال بالله ، دون حاجة إلى كتاب ولا لوح . وإن النيو صوفية قد اختلطت بالتصوف الهندي الآن ولأصحابها دعاوى طويلة عريضة وقد وصفها (مكي ملر) اليهودي بأنها الديانة المصرية وأنها جاءت نتيجة التقاء البوذية والفكر المسيحي الغربي ويرى الكثيرون هذه المفاهيم التي حددتها النيو صوفية إلى الغنوصية القديمة . وما كان يسمى في المشرق بالعالم الروحي (نمازيه) والطلم المري (غيتامزبا) بما كان يقول به ماني وبوذا وكنفوشيوس . وفيلاهورس وأكلاطون . وأهل هذه المذاهب يعتقدون بالحلول والتجسد .

وحدة الوجود

إن أخطر ما تحمله فكرة وحدة الوجود من مخالفة للعقيدة الإسلامية : عقيدة التوحيد الخالص الذي أنزل الله به الأديان والرسل جميعاً والذي استبان على أكل وجه في الإسلام وكتابه القرآن فقد أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد والحلول وأنكر حلول الخالق في المخلوق ، أو استغراق المخلوق في الخالق وهو بمنزلة طبيعة كل منهما . ولا يقبل الإسلام وحدة الوجود لأن فيها إلتقالات على عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله بعض الفلاسفة (لا موجود في الحقيقة إلا الله) وسبق كل منهما ينتهي إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف عن النتائج الأخرى .

والمعروف : أن نظرية وحدة الوجود هي فكرة تردت أول الأمر في الفلسفة اليونانية . هي تتعارض مع الفطرة التي جاء بها الإسلام حاثاً أتباعه على التشكيك في خلق الله تعالى من أنفسهم في

ذات الله ، مقرر أن الوجود أو الكون لا يمكن أن يكون موجوداً بنفسه ولا ريب أن كثيراً من الباحثين دين هدى من معطيات الوحي والرسالات المنزلة قد جهروا بأشواطاً طويلة ، وراء الحقائق الكونية ، فلم يفتدوا وكانت غايتهم في إدراك الله تبارك وتعالى وإدراك ما وراء الطبيعة بالخوارس القاصرة وبالعقل البشري المحدود في مقدريه أن هذه الأدوات من حسي وحقل هي في ذاتها قاصرة عن الوصول بهم إلى هذه الغاية الكبرى التي لا تتحقق إلا عن طريق الايمان برسالة الله ووحيه الذي أنزله إلى أنبيائه والتي تكفل للانسان الطمأنينة التامة في هذا المجال وتقنيه عن هذه المحاولات التي لا تنتهي إلى شيء ما .

والقول بأن الله هو الكون : إنما يمثل فهماً مادياً خالصاً لذات الله تبارك وتعالى . يتعارض مع العقل ومع الفطرة ومع ما أودعه الله في رسالة الدين الحق الموحي به الذي أراد به سبحانه أن يطامح النفس الإنسانية في هذا المجال حتى لا تكون في حاجة إلى البحث الذي لن تصل به إلى شيء . وأن يفسح لها طريق التأمل والتفكير في المجال الآخر . مجال المبراني واكتشاف أسرار المادة . وما أودعه في الأرض والماء والجبال من معطيات وكنوز وهبها للانسان ، وحررته على البحث عنها واستخلاصها . وذلك حسبما صوره الرسول الكريم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا .

إن أخطر ما تصل إليه نظرية وحدة الوجود من أن دهرى القول بأن الكون هو الله وهو إسقاط التكليف وتدمير المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي بحيث إن مذهب وحدة الوجود في ذاته لا يتفق مع الدين الحق المنزل الذي يقول بالفرقة التامة بين الله والعالم . ولا يتفق مع العقل السليم الذي لا يقبل أن يكون الله هو العالم . بما فيه من حيوان وجماد فإن القول بوحدة الوجود يهدد قيمة كبرى من قيم الإسلام : وهي الأخلاق والقول بوحدة الوجود يتعارض مع قاعدة أخلاقية الحياة التي تقوم على أساس ممكن فإدام الله (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) قد اتخذ الإنسان مظهرأ له : فكيف يستقيم أن يكون هذا الإنسان نفسه هو المسؤول عن نتائج عمله ؟ ومن هنا تظهر تلك الدعوة الخطيرة التي تستهدف معارضة الإسلام في صميم أصوله . وهي إسقاط التكليف ، أو إباحة ما حرم الله ، أو تجاوز حدود الله ولا شك أن أقوال القائلين بوحدة الوجود تخالف مغالفة أكيدة عقائد الاسلام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة ونحن في حاجة إلى أن ننبه إلى أخطاء المصطلحات التي تقول (الكل في واحد والواحد في الكل) أو القول (لا موجود إلا الله وأن جميع الممكنات مظاهر له) فهذا كله يتعارض تماماً كاملاً مع التوحيد . كما جاء به القرآن وفيه للسلطان .

وإذا كانت فكرة وحدة الوجود تتعارض مع الوحي والعقل والفطرة جميعاً فإن هدماً من الفلاسفة اعتبروها كذلك حتى قال شوبنهاور أن وحدة الوجود ليس إلا صيغة مبهمة لمذهب الإلهاد لأن حقيقة مذهب الوجود تنحصر في أنه يهدم التمايز الثنائي الموجود بين الله والكون وأنه يقرر أن الكون هو وجوده بفضل قوام الباطنة الخاصة به فالبدأ الذي يقول به أصحاب وحدة الوجود من أن الله والكون شيء واحد إنما هو رسالة مبهمة للاختفاء عن الله أو تعطيل عمله والمصروف أم الفلاسفة

ليونان من لندن طالبس أول فلاسفتهم إلى أرسطو ، يقولون بالدماج الله في العالم أو العالم في الله .

ويقول الأستاذ عبد المنعم خلاف : إن انفصال الله عن الكون هو النظرة البديعية التي تحمل أكبر مشكلات الوجود ، وبها يضبط تقدمنا البشري وتحدد المسئوليات والتبعات ، ولا تختلط الحدود ولا تسقط التكليفات ولا تهدر قيم الأشياء . ويقول نقولاً حداد : إن الأديان السماوية الثلاثة ترفض هذه النظرية الفلسفية رفضاً تاماً ، وهي بحجة على أن الله والوجود المادى شيان مختلفان ، وأن لكل واحد منهما ذاتية قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى . وأن الله : واجب الوجود . هو خالق الوجود ومسيره . ويقول الدكتور محمد يوسف موسى : « الله والعالم ، متباينان في كل شيء ومتفصلان تمام الانفصال . أحدهما وجوده رهن بإرادة الآخر .

ويقول الأستاذ البشير : إن وحدة الوجود مذهب خلاصته أن الله تعالى هو الوجود المطلق وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلاً ، فلو قيل إن الإنسان موجود فعني ذلك عندم أن له تعلقاً بالوجود . وهو الله تعالى ، وأن جميع المواقف سواء اختلفت أنواعها ، وتباينت أجناسها وشخصها موجودة من العدم ، وأن وجودها هذا محفوظ عليها بوجود الله تعالى ، وليس بنفسها لأنها معدومة من جهة نفسها بعدمها الأصل ، ومن ثم بوجودها الذي هي به موجودة في كله هو وجود الله تعالى ، وهو واحد لا ينقسم ولا ينتقض ولا يتجزأ ولا يتقل ولا يتنهى ولا يتعدد أصلاً . ثم هو مطلق عن الكيفيات والأماكن والأزمان ، إنا لا نلكر كون العالم موجوداً لقدرة الله وإرادته . ولكن يجب أن نفرق بين وجود الله ، وهو وجود أزلي لا بداية له ولا نهاية ، ووجود المواقف . وهو وجود حادث له بداية ونهاية . ثم إنا أيضاً نسلم بأن وجود المواقف مسبب من الله تعالى ولكن لنا أن نقرر : أن هناك فرقاً كبيراً بين السبب والمسبب والملة والمطلوب .

الحلول

ويختلف مفهوم الحلول عن مفهوم وحدة الوجود ، فحيث يقول مذهب وحدة الوجود بالوحدة الدائبة لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر (وهو ذيف لا يقره الإسلام) فإن مذهب الحلول يقول بوجود حقيقتين مختلفتين : الإلهية والبشرية . وقيام الأولى بالثانية تحت ظروف خاصة . ويرى لويس ماسينيون أن الحلول له طابع مسيحي وله أصول يونانية وهندية ، وأنه مهدم لوحدة الله حسب رأي القرآن . ويقول الأستاذ الإمام الغزالي : إن الحلول لا يمكن تصوره بين عبادين ، فكيف يمكن تصوره بين الرب والمعبود . وإن سلم أحد بإمكان ذلك إلى نفس واحدة فكيف يسلم به لجميع النفوس . وعندئذ يصبح العالم كله آفة . ويقول : فمن الحال إذن أن يحل الله في النفس . وأن ينطبع فيها الطابع الخرفي البين ، فإن ذلك من صفات الأجسام .

ويقول الأستاذ محمد البشير : إن الله واجب الوجود ، منزوع عن صفات الحلول ، وأن الحلول

حال حل الله تعالى لأسباب كثيرة . ذلك لأن القديم يختلف عن الحادث لاختلاف المادية في كل منهما . وهذا الاختلاف يرجب استحالة حلول القديم في الحادث . ثم إن الله واجب الوجود . وهذا الوصف ينفي الحلول لأنه في حالة حدوثه يصبح الحال تابعاً لما حل فيه ، كما يصبح معلولاً لهذا المحل ومتأثراً به ، بل إنه يصبح في غير الإمكان تصور الحال إلا بقصور المحل ، إذن ينتفي الحلول في هذه المرة كما استحال في الأولى ، ثم إن الله واجب الوجود والواجب ليس عرضاً وليس جوهرأ ، فإذا كان الحلول حلول عرض في جوهر فلا يمكن بالنسبة لله تعالى لأنه ليس بعرض ، وإذا كان حلول جوهر فلا يمكن أيضاً لأن الله تعالى ليس بجوهر .

إن كتابات الحلول ووحدة الوجود وغيرها هي من كتابات عصور الضعف والضعف ، وقد كانت من أم ما كتبت إليه المستشرقون وحاولوا إحياءه وإذاخته ، وذلك لخلق منطلق لدعوات الإباحة المستحدثة وخاصة الوجودية والفرويدية وغيرها . ومحاولة لتعظيم قانون أصيل هو (البعث والجزاء) وهكذا ترد يد الدهرة إلى إسقاط التكليف والالتزام الأخلاقي ، وذلك كله مقدمة من مقدمات الانحلال التي يستهدف التأثير في فريضة الجهاد في سبيل الله ، والمعروف أن الاعتقاد بالحلول يسقط التكليف والالتزامات وحسود الله ، ويدفع المسلمين خارج نطاق قيمهم الأساسية ويدمر مقوماتهم النفسية في الاندفاع نحو الفرف والانحلال والفساد والشهوات ، من طريق إعلاء الفرائز أو الاندفاع نحو الانسحاب من الحياة الكارهبانية ومعارضة مبدأ الزواج وتكوين الأسرة ، والإمادة من بناء الحياة ومهاجمة أهواء المجتمعات .

الاتحاد

وليس فكرة الاتحاد بأكثر من فكرتي وحدة الوجود والحلول اضطراباً وفساداً ، ذلك لأن قول القائل : إن العبد صار هو الرب . كلام يتناقض مع نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه أن يجري الشأن في حقه بأمثاله هذه المحاولات ، وطريق البرهنة هل فساد ذلك يورده الغزالي في ثلاثة احتمالات : (أولاً) إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة (ثانياً) إما أن تنفي إحداها وتبقى الأخرى (ثالثاً) إما أن يفتنيا معاً .

وفي الحالة الأولى : لا يكون هناك اتحاد . وفي الثانية : كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاداً بين موجود ومعدوم ؟ وفي الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن تتكلم عن الانعدام ، فالتناقض واضح في جميع هذه الاحتمالات ؛ ويقول الاستاذ البشيشي : وكما ننزه الله سبحانه وتعالى عن الحلول فهو ينزه عن الاتحاد لأنه لو حدث أن اتحد واجب الوجود بغيره نتج عن ذلك حالتان : إما أن يفتيا موجودين معاً ، وإما أن يدركهما العدم معاً ، ويخرج منهما ثالث أو يدرك العدم أحدهما ويبقى الآخر فتبقى بقاؤهما موجودين فهما إذاً في هذه الحالة إثنان متمايزان متباينان . وهذا البماز يتناقض الاتحاد لأن الاتحاد يلزم أن يصبحا واحداً وفي هذه الحالة معاً يفعل الاتحاد لأن المعدوم لا يتعد بمعدوم وفي حالة أحدهما معاً فقط فإن الاتحاد لم يتحقق أصلاً .

التناسخ

لا ريب أن هناك عناصر وافدة دخلت إلى الفكر الإسلامي . وحاولت أن تؤثر في المفاهيم الإسلامية القرآنية الأساسية ، ومنها التناسخ . إن نظرية التناسخ . تتعارض مع مفهوم الفطرة والعقل والدين . وهي لا تطابق الحقيقة الثابتة عن مسؤولية الإنسان والتزامه الأخلاقي . فضلاً عن سذاجة النظرة التي تقول بها ، ونحاول أن نبررها وهي أن انتقالها من بدن إلى بدن إنما هو وسيلة لمنح الروح فرصة بعد فرصة ، لكي تظهر من أدرانها . وتوحى المذاهب الفلسفية القائلة بالتناسخ بأن الحياة مادامت قصيرة فلا بد من إيجاد فرصة وثانية وثالثة ، للروح حتى تتحرر من أخطائها . وفي الهندوسية أن الروح لا تحاسب بعد حياتها الأولى مباشرة . ونظرية التناسخ تعارض المسؤولية الفردية التي تنطاط بكل إنسان بحسب عمله في الدنيا فكيف بالروح التي تعاودها نفوس كثيرة ؟ كيف يمكن تحديد جزاء كل إنسان منهم ؟ فإذا كانت الأرواح تناسخ مع الحيوان أيضاً . فإن الأمر يصبح أكثر اضطراباً . مما يورده الهارسون : أن فيثاغورس : يرى تناسخ الأرواح بين الإنسان والحيوان . بمعنى أن روح الإنسان . قد تصبح روحاً لكلب . أو ثعلب مثلاً وهو تصور غريب .

وفي هذا المعنى يقول الدكتور يحيى هويدى : كيف تستطيع النفس أن تنتقل من جسم إلى جسم ومن كائن إلى كائن . إن هذا الانتقال يفرض أولاً احتفاظ النفس بفردانيتها ، وأنها هي التي تنتقل من هذا الكائن إلى الآخر ويفترض ثانياً عدم تعلق النفس بجسم معين ، وهذا تناقض . لأننا نعلم أن مصدر وحدة الإنسان . هو النفس ، فالنفس هي التي تبقى الإنسان على شخصيته ووحدة وهويته وتجعله هو هذا الإنسان باعتباره مكوناً من هذه النفس المعينة وذلك الجسم المعين فكيف يعترف القائلون بالتناسخ بفردانية النفس وبهويتها ولا يؤدي ذلك إلى اعترافهم بهوية الأجسام باعتبارها مكونة من نفس وجسم .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن فكرة التناسخ تقوم على قياس دمنى خاطئ . فهي تقول إن الفرصة التي تعطى للإنسان في حياته الأولى فرصة حقيقة جداً . إذا قسناها بالوعد اللانهائي للأبدية التي ستعيش فيها النفس بعد ذلك . من أجل ذلك فعلى أن تطيل هذه الفرصة في فترات متعاقبة ، لكي تكون متناسبة مع الوعد اللانهائي للأبدية ، التي ستعيش فيها النفس بعد مفارقتها جسدها الأول . وذلك فكرة قائمة على وهم خاطئ . إذ مهما أطلعت في المادة السابقة على فناء النفس فناءها الأخير ومهما زادت في ذلك السنين وتعاقبت الأدوار فإن هذا كله لن يكون شيئاً بالقياس إلى الأبدية التي تكون فيها النفس بعد الموت . فأولى أن نجعل لتلك النفس حياة واحدة من أن نجعل لها حيوات متعاقبة تقاس في كل منها الأموال . وقد رفض الإسلام فكرة التناسخ وذهب إلى خلود النفس خلوداً

نهاياً بعد حياتها الأولى للربطة بجسم معين ولا شك أن موقف الإسلام من خلود النفس ، وبمسك الأجساد ، هو أظهر منطق للمسؤولية الفردية . والالتزام الأخلاقي بالحساب والجزاء في اليوم الآخر ويمكن أن نلاحظ هنا . أن أول من قال بتناسخ الأرواح بعد الإسلام السني (أصحاب عبد الله بن سبأ) . وذلك في محاولة ترمي إلى تزييف المفاهيم الأساسية القائمة في حدود العلاقات بين الله تبارك وتعالى والنبي ﷺ وعلى بن أبي طالب . ولا ريب أن نظرية التناسخ تسلم إلى مذهب الحلول .

العرفانا

العرفانا كلمة غامضة معناها الاعياء ، والسكون ، والاعدام ، والانتعاش والراحة . وللقصود الروحي منها : أنها حال من فقدان العمود تنخلص النفس في أثنائه من الإحساس بالآلم الذي يسببه لها اتصالها بالأجسام فالعرفانا ليس وجوداً إيجابياً ولكنها تخلص من الوجود للأول يقوم لها مقام السعادة والتنعيم . أما للتصوفة المسلمون . فقد أخذوا (العرفانا) بمعناها القوي . وسبوا الفناء والمعرف أن الفناء الصوفي ليس نوعاً من العرفانا ولا ريب أن العرفانا ظاهرة سلبية وفكرة متفرعة عن مذهب تهازم وهي تأمل خال من كل مضمون تصل بصاحبها إلى حالة يفنى فيها عن نفسه وتغيب عن ذكره وفكره كل الصور والرسوم وقد استمدوها من قول بوذا كل شيء فارغ والكل لاجوهر له ، لا شيء موجود ، والكل بصير ، والكل في صهورة بغير جوهر وعندما أنه حتى لا يتعرض الإنسان للتناسخ . أو دورة الأرواح أن يصل إلى العرفانا . وقد صدق الدكتور عبد الرحمن مرحباً حين قال إن التفكير الهندي قد حطم الإنسان ، وهو يدعى تأليه الإنسان .

الإشراق

يتشكل مذهب الإشراق من عناصر إغريقية وفارسية ، وهو فرع من الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الجديدة ، وجامع بين مفهوم الرواقين . والعناصر الإغريقية منه مأخوذة من فلسفة أفلوطين وفيلون اليهودي أما العناصر الفارسية فهي مأخوذة من ماني ومزدك وهو جامع آراء وميالات راجعت في الديانات القديمة . ويقوم في جملته على القول : بأن مصدر الكون هو : النور . فهو يعبر عن الله سبحانه وتعالى بالنور الأعلى ويصف الموائم بأنها أنوار مستمدة من النور الأول . والمعرفة الإنسانية في مفهوم الإشراقين : إلهام ، من العالم الأعلى يصل بواسطة عقول الأفلاك وهو ما يسمى بالكشف أو الإشراق أي ظهور الأنوار العقلية للنفس بعد تجردها ، ولا ريب أن مذهب الإشراق في جملته وتفصيله خارج عن مفهوم الإسلام وبمعيد عن جوهره ومتعارض مع التوحيد الخالص وقد تجددت الدعوة إلى هذا المذهب في الإسلام أيام الحروب الصليبية وفي نفس اللحظات الحرجة التي كان المسلمون يعملون لمقاومة العدو الواسع .

وقد كانت فكرة النور والظلام من مذاهب المانوية والمزدكية ، والباطنية وقد مضى دعاء الإسرائي متأثرين بمفاهيم الجوسية والورادشقية وما يتصل بالسكواكب والنجوم والأفلاك . ومعرفة الله في الإسلام لها أصولها ومصادرها . وهي بمبدا كل البعد عن أساليب الغنوصية وليست قائمة على الإلهام وحده أو العقل وحده واسكنها منج متكامل له خصائصه وأبعاده السكامة وليس في الإسلام ترق الانسان إلى مرتبة الآلهة أو اتحاد الناسوت واللاهوت . وقد ثبت أن الحركة الداعية إلى ذلك في مجموعها متصلة بالقرامطة الباطنية وبحركات الزنج وغيرها التي كانت تحاول إسقاط الدولة الإسلامية عن طريق الدعوة الفكرية وهدم التوحيد بالنظرية الفلسفية ولقد أقام المسلمون فكرهم على أصول ثابتة من القرآن والسنة الصحيحة ، واتخذوا من حياة الرسول نموذجاً تطبيقياً لا يتعدونه ولا يطمعون في زيادته . مؤمنين بأن كل ما لم يتحدث به القرآن أو رسول الله فإنه ليس من دين الله وأن رسول الله لم يسكن من أمته شيئاً وأنه جاء ليتم مكارم الأخلاق .

الفصل الثالث

البهائية

الدعوة البهائية هي دعوة قديمة جديدة شكلتها أصول متعددة من الفكر الوثني الهليني والفكر التلمودي اليهودي والفكر الغنوصي المجوسي وهي واحدة من الدعوات التي ظهرت في إبان الاستعمار البريطاني بهدف إسقاط فريضة الجهاد أو تعطيلها ، وقد دخل يهود إيران هذه الحركة وحولوها وجهة متصلة بالماسونية وتحاول البهائية نشر دعوة وحدة الأديان بالخروج عن أصولها للدخول في دين جديد ، يقول بالسلام العام وتوحيد لغات العالم ومساواة الرجل للمرأة واعتبار العبادة هي العمل .

وحيث تدعو البهائية إلى وحدة الأديان تدهو إلى وحدة الأجناس والشعوب ومن خلال هذه الدعوة العالمية تتكشف روح المخططات التلمودية التي تحاول أن تفسر هذه الدعوة من وراء الروحية الحديثة والثيوصوفية وأنها جميعاً تحاول التوشع بعصر جديد يشرق على البشرية وهذا هو جامع ما حملته بروتوكولات صهيون ولا ريب أن كل دعوة تدهو إلى وحدة الأديان والأجناس إنما تحاول هدم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يراى له أن يندمج وأن ينصهر وطالما الأديان لا تستهدف إلا القضاء على عالمية الإسلام وهذه المعاني كلها مستمدة أساساً من التلمود وأبرز معاني البهائية إسقاط فريضة الجهاد وهي دعوة حين تفسر بين المسلمين لا تنفيذ منها إلا الصهيونية العالمية التي نحرص على كليات السلام وقد أبدت البهائية الربا بإبعاد من اليهود فقد أحصت البهائية نصريجات من أرباحه الربوية ولا ريب أن هذا إنما يهدف من مطابقة تامة مع الأيديولوجية التلمودية البهائية حتى وصف البهائيون

بأنهم يحوس القرن العشرين وهي في أنظمتها أقرب الماسونية وقد وجدت مناخها في كل المناطق التي ضعفت فيها نقطة الاسلام . فقد استوطن البهايون تركيا ، وعكا وحيفا قبيل الحرب العالمية الأولى . وكان لذلك أثره البعيد في إلقاء الوطن القوي اليهودي في فلسطين والقيام بدور هام في عملية تهريب المهاجرين . وقد أعطى عباس البهاء بسلوكة وتصرفاته نموذجاً لزمامة البهائية . فقد كان ماضياً مفرطاً في مجونه وأحسيت له في وياراته لسويسرا وفرنسا وانجلترا مواقف قوامها التحرر من كل القيم والأخلاق وكشفت تصرّجاته عن إشادة واضحة بالافكار المجوسية واحتقار دعوات الانبياء وقد وصف الرسل بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق .

وقد كشفت مخططات البهائية عن منهج كامل في هدم الاسلام (أولاً) أن أبرز مفاهيمها هو تأويل آيات القرآن . بما يخرج عن مفهومها ومدلولها القوي والشرعي حيث تقوم البهائية في أصولها الأولى على التأويل شأن الفرق الباطنية القديمة بعيداً عن أصول اللغة وللتعارف من النواميس والسفن ، والتعالي على آيات القرآن الكريم وصرفها عما يراد بها من حكمة وهداية وتوجيهها إلى غايات تتعارض أساساً مع القرآن وتأويل نصوص الشريعة بما يحقق الدعوة إلى إسقاط التكليف . والتأويل فن ابتكره اليهود .

(ثانياً) تقول البهائية بتطور الشريعة وتبدلها تبعاً لتطور الأزمان وهي نفس الدعوى التي ترددها اليوم دعوات الفرويدية والوجودية والتي هي من الأسس الأصلية للمخططات التلودية وهم يذهبون إلى القول زوراً وبهتاناً بأن الشريعة الاسلامية لا تصلح لهذا الزمان . وفي هذا لإقرار بالقوانين الوضعية وإقرار بنظام الغرب وفصل الدين عن المجتمع . (ثالثاً) معارضة الجهاد ومقاومته حتى يقول أحدهم إن البشارة الأولى بتبليغ أهل العالم هي بحكم الجهاد من الكتاب . أي القرآن ، وقد علا صوت هذه الدعوة في مواجهة احتلال اليهود لفلسطين دفماً للمسلمين إلى الاستسلام والتخاذل . وكذلك ارتفع صوت هذه الدعوة الأولى إلى هذا المعنى في مواجهة صبيحة السلطان عبد الحميد بإعلان الجهاد الاسلامي في مواجهة زحف الاستعمار على الدولة العثمانية .

(رابعاً) محاربة اللغة العربية والدعوة إلى تبديل اللغة الفصحى بما أسماه اللغة للتوراء ، وذلك بهدف محاربة لغة الاسلام العالمية . وهي لغة القرآن العربية وإثارة الفسكوك حول عالمية اللغة العربية وكونها اللغة المشتركة بين العرب والمسلمين لغة الفسك والثقافة والصلاة والهدف هو تعزيز الصلة بين حاضر المسلمين وبين ميراثهم الخالد . (خامساً) إدهاء نبوة جديدة ودين جديد ناسخ للإسلام وللاديان جميعاً . والدعوة إلى الخروج من الأديان القائمة والدخول في دين جديد وفي ذلك متابعة لدعوة الماسونية ومنهج اليهود والأيدولوجية التلودية في محاولتها فرض نظام عالمي من خلال منطق الربا وتحقيق هذه الغايات عن طريق مذهب يحتوي جميع رغائب المطامع والشهوات .

(سادساً) دعوة السلام العام . وهي دعوة إسرائيل التي تستهدف بقاء وجودها في الأرض العربية

ودعوة الصهيونية العالمية ، بالسيطرة على العالم (سابعاً) لإبطال شريعة الإسلام وأحد أفي شأن المرأة والدعوة إلى الاختلاط بين النساء والرجال والمساواة على النحو الذي أصبح فيه المرأة متحررة من قوامة الرجل ، واتخاذ للمرأة متعة وأداة وذلك في ضوء فلسفة اللغة ، ومشاركة الرجل في صالات الرقص والنوادي الليلية وإقامة الحرية الجنسية المطلقة . ومن نتائج إنهاء الأسرة وانحلالها (ثامناً) الترابط الواضح بين اليهودية النلودية ، والبهائية ومتابعة اليهود في منهجهم والاستعداد في التراث اليهودي . وهذا التعاقب بين البهائية والصهيونية في الحديث شبيه بتعاقب اليهودية والمجوسية في القديم وهدفه القضاء على الإسلام وزلولة أعمده . وقد ثبت عن البهاء قوله : أنه يدعو إلى جمع المسلمين والنصارى واليهود على نواويس موسى عليه السلام أي أنه يريد (تهويد) المسلمين والنصارى . وأنه يحمل اليهودية الدين السائد في الأرض ، وبذلك يكون السلطان في عالم كله لليهود وحدهم .

وقد واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها وفي مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدي . الذي قال إن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم هو عما يقضى بالعجب لأنها ليست بدين سماوي وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت في عرض نفسها على الأمم . فأين هي من الإسلام الذي بنى أمماً قوية ومدنيات فاضلة في خلال عصور متعاقبة ولا يزال ظل حيويته الأول حتى ليتوقع فلاسفة كثر منهم برناردشو أن مبادئ الإسلام تؤهلك أن تحكم العالم أجمع . يقوم الإسلام على أصابع ضمنا له التعميم والحلود : موافقته للفطرة واعتقاده على العقل والعلم فأين البهائية من هذا لاونف العلم الحق وهي تقوم على أصولين : أحدهما حقيق خامض ، قال به أفراد من هي السبح في الخيالات فهو تصور ذات الله بصور المخلوقين ؛ وثانيهما وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها وفيه مجال فسيح للظنون والأوهام والخيال .

(ندعى البهائية أنها أتت العالم بمجدي من الأصول ، لم يدر في خلد المصلحين قبلها ، كاتحاد الأديان وترك العصبية واتحاد الأجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل أما ما سموه باتحاد الأديان : فقد سبق إليه الإسلام وأسس على أقوى الأصول . وحاطه بأحكم الدلائل فقرر أن أصل الأديان كلها واحد وأن الخلافات التي بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام فالإسلام يفرض على أمته القول بوحدة الدين فرضاً ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من عهد تفريق بينهم . إن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام فإنه استكمل جميع شرائط الدين العام . ١ هـ

هذا ومع أن البهائية قد انقضت على دهورتها نصف قرن ، أو يريد فائز أنها استطاعت أن تحقق هدفاً واحداً من أهدافها في اتحاد المشرق أو المغرب أو اتحاد الأديان أو الأجناس أو زوال الحروب وكل ما كشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الإبادة والإلحاد التي حملت كل سخائم الباطنية القديمة وأطادت طرحتها على البشرية مرة أخرى . وأبرز ما يكشف عن نياتهم وهدفهم أنهم يشاركون الدهماء المدمامة الأخوى في أبرز المفاهيم للعترة بين هذه الفرق جنسياً .

(أولاً) إنكار البعث والجنة والنار وهم يؤولونها (وهم في هذا يفتنون طائفة الدهريين) (ثانياً) دهوى النبوة لبعض دعماء للذهب (ثالثاً) نزع السلاح وإنكار الجهاد ونشر السلام العام، وبذلك العصيات الدينية (رابعاً) إنكار إعجاز القرآن وأنه من عند الله (خامساً) فساد حقيقتهم في الأنبياء والدهوى عليهم بأنهم ستروا الحقائق وإنكار معجزات الأنبياء

(١) مفهوم التأويل

لا يقر الإسلام للتأويل بمفهوم تخفيف الضوابط الأخلاقية، أو التهور من شأنها وليست هذه الضوابط أغلالاً باطلة أو قيوداً مفروضة على الإنسان - والإسلام في جوهره يقوم على الثبات وعلى المفاهيم الواضحة (آيات محكمات من أم الكتاب) (فأما الدين في قلوبهم زيغ فيقبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) (سورة آل عمران) وتجرى محاولة التأويل المستحدثة الآن لتجعل الإسلام متقبلاً للحضارة في مختلف فروعها وأعمالها (ومن هنا الإباحية والربا والسرقة) والحق أن للإسلام قيماً ثابتة لا تتغير وإنما يجرى التطور في الفروع لا في الأسس فلا يقال مطلقاً إن الإسلام يتطور ليتناسب مع الزمن والتقدم المادى، بل إن على المجتمعات أن توائم بينها وبين الأصول الثابتة في العقيدة والبعث والالتزام الأخلاقى. إنما تتطور الأديان البشريّة والأيدولوجيات والمذاهب لتستطيع أن توائم نفسها مع التغير الحادث ومع البيئات والعصور ذلك لأن هذه المذاهب عالمية وإنما الإسلام وحده هو الذى يمتلك الطابع العالمى الخالد. ومن شأن الوضعيات أن تواجه التغير.

أما الإسلام، فإنه في أصوله الإصيلة الثابتة قد أقام قواعد عامة لا تتعارض مع تفهم الأزمنة، أو تطور البيئات أما أن يصبح الإسلام مبرراً لا بوضوح الحضارة، والمجتمعات فإن ذلك ليس من رسالة الإسلام وأهدافه - بقول العلامة النيسابورى: وأعلم أن مقتضى الديانة أن لا يؤول للمسلم شيئاً من القرآن والحديث بالمعنى بحيث تبطل له الأحيان التى فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم والصالح الصالح. وأبرز أخطاء التأويل يتمثل في محاولة القول بأن عذاب جهنم، هو عذاب معنوى. والهدف من ذلك هو إشاعة الإباحة والجرمة في الناس بأنواع فكرة العذاب الاخرى من نفوسهم، بينما هو عنصر هام من عناصر إحياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والمآثم وقد أصبحت الدعوة للإباحة المطلقة، والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجسدية مدفاً أيديولوجياً لبعض الفلاسفة المعاصرة كالوجودية وغيرها.

فالقاتلون بعدم كون العذاب الاخرى حقيقة، إنما يعملون بدهائم الخاص لتسريب هذه الفاسقات الهدامة للقضاء على روح الامم. وإفساد مقوماتها النفسية والعقائدية وهى أشد ما تكون حاجة إليها وهى تصارع في معركة المصير إلى الاحتفاظ بهذه المقومات التى هى منابع طاقتها المناضلة. وإن هذا الاتجاه يؤدى إلى إبطال قضية (الثواب والعقاب) على الإطلاق، وتبطل تبعاً لها مفعولية التكاليف الشرعية، والتزام العمل لانه أى (الثواب والعقاب) مناط التكاليف الشرعية والتزام العمل بها، فإذا بطلت حقيقة الجزاء بالثواب والعقاب دلى فدل التكاليف وتركها فقد بطلت حقيقة التكاليف الشرعية ذاتها وهل الإسلام إلا هذه التكاليف من الأمر والنهى فإذا بطلت بطل الإسلام كله

الفصل الرابع

الروحانية الحديثة

(١) تمهيد الأرواح : من الدهوات التي روجت لها الصهيونية والاستعمار : دهوة تمهيد الأرواح . وجهياتها تتخذ أسلوب الماسونية . إذ تقوم على الأسرار والرموز ، ولها درجات يترقى فيها المضر ، حتى يصل إلى أعلى مكان . ولا ريب أن القول بأن أرواح المتوفين يمكن أن تعود إلى عالمنا ، وأن تتكلم . هو إدعاء ليس له أى دليل على أو عقل ، فذلك أن عالم الروح عالم غيبي . من المستحيل أن يستطيع البشر اختراقه وأن كل ما عرف منه لا يعدو ما جاء في الكتب المقدسة . وفي مقدمتها القرآن .

ولقد كشف كثير من المتنزهين إلى هذه الجماعات مدى فساد الطريقة التي يحاول بها محترفو هذه الصناعة ، خداع الناس ، والدخول إلى نفوسهم بألوان من الأساليب القائمة على الأضواء ، والإيماءات ومدى الزيف الذي تنطوي عليه هذه الوسائل التي لا تفدح إلا البسطاء والسذج . وأمامنا تجربة كاملة لرجل على درجة عالية من الثقافة هو الدكتور محمد حسين : الذي كشف في كتابه (الروحانية المدنية حقيقة وأهدافها) عن مدى الزيف الذي اتضح له بعد أن مر بهذه التجارب ، وأثار الله بصيرته إلى الحقيقة وقد نقد جوانب كثيرة من حلقات تمهيد الأرواح . سواء منها ما يتصل بأسلوب الفتيان أو السلة أو وسيط التنويم المغناطيسي . وذلك كله يتم في ظلام ، وتحت ضوء أحمر خافت لا يكاد يميز فيه الناظر أشباح الجالسين ، بالإضافة إلى رنين أجراس ، وما إلى ذلك من أساليب الخداع التي تثير الرعب في نفوس البسطاء .

وقد تبين أن المقبلين على هذه الحلقات هم من فقدوا أهواز لديهم ، فهم يريدون أن يشبعوا شوقهم إليهم بالاتصال بهم . أو يمن وقعوا في أزمات يطعمون في استقصاء أرواح أقارب ، أو شخصيات بارزة ، وسماع نصائحهم أو طلاب العلاج من الأمراض . وقد انتشرت في السنوات الأخيرة أضاليل كثيرة . منها أن أرواح الموتى تقدم للأحياء أشياء مكتوبة تملى عليهم ، وقالوا إن أحمد شوقي ما زال يرسل بشعره من عالم الأرواح . ويهدم دهوة الروحانية الحديثة ومروجوها دعاوهم بنصوص من الكتب السماوية . يجازفون بتأويلها حسب أهوائهم أو يخرجونها عن مدلولها ، وكذلك بنصوص من المؤلفين السابقين الأولين .

يركز المتصلون بالابحاث الروحانية . والذين اندمجوا فيها ، أن هذه التجارب على الطريقة التي يجري بها في أوروبا وأسمها باسم Spirituality والتي يطلبها منهم المروجون لها ، هي تحت

هدامة تحاول أن نجعلها (دينا جديداً) يهدم أسس المجتمع ، وينفصر فيه القوي بالتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية . وأنها شعبة من الدعوات المريية التي تأخذ الناس من كل جانب والتي تلبس مختلف الأنواع ، وتطغى حقيقتها تحت شتى الأسماء وهي تتخذ اسم العلم أو السلام أو الرحمة أو محاربة الإلحاد والمادية بل إن مراجعة يسيرة للمقالات والمفاهيم التي يمتنعها دعايتها وأتباعها ، تكشف عن عطورتها وآثارها البعيدة في تهديم الاسلام والتوحيد .

(أولاً) تقوم تعاليم الروحية الحديثة على وحدة الوجود (فائق والعالم هو - واحد) وعلى تناسخ الأرواح وخلود الحياة المأزومة لنا الآن فلا فناء الدنيا وأنه ليس هناك يوم البعث والحساب العام . والمبادئ المقررة لا وزن لها عندهم وكذلك لإسكار خلق الله للكون ومحاولة الترويج لقدم العالم ، وإسكار نهاية الخليقة . ومن حجب أن جميع هذه الدعوات قديمة وحديثها إنما تقوم على هذه القاعدة المسيحية سواء أ كانت البهائية أم النيو صوفية أم الدهرية . بل إن دعوات الفرويدية والوجودية والهيبة تبلغ في ذلك مبلغاً لا حد له من التزديد وتصل دعواها إلى أبعد القامات في استغلال مظاهر العلم ، وأساليب البحث الفلسفي رغبة في تحقيق أكبر قدر من الاغراء والخداع ، والمعروف أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا وإسكار الجزاء هي نفس مبادئ الماسونية مصوغة في أسلوب جديد والواضح أن فكرة التبشير بنبي أو إمام أو مهدي هي عنصر أصيل في مثل هذه الدعوات . ذلك أن أصحابها إنما يهدفون بها لتحقيق غاية يتطلعون إلى أنها ستكون في المرحلة التالية ومن ثم فهم يمدون الأبصار إليها .

وكذلك فإن هذه الدعوات تبشر بفكرة العالمية أو الكونية . وتلك غاية أخرى من غايات الدعوات الهدامة وهدف أصيل من أهداف الماسونية في خدمة الصهيونية العالمية (ثانياً) تقوم الروحية الحديثة على معاداة الأديان . وخاصة الاسلام والمسيحية . وتكشف في كثير من إيماءاتها عن صلتها باليهودية التلوذية . ولذلك فإن دعاة الروحية يهاجون رجال الدين عامة . كدخول إلى مهاجمة الأديان نفسها . ويركزون على السخرية منهم ، واتهامهم بالتقصير والتأخر والجلود إلى غير ذلك مما يراد إلصاقه بالدين نفسه ، فضلاً عن إسكار علماء الدين لما يدعون من اتصال بالأرواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحي . وهم في نفس الوقت يمدون الوثنية والنحل القديمة ويعلمون من شأن الفرعونية ويتخذون من أسماؤها وموزا لهم ولحفلم - وهم يشيدون ببعض الأرواح الفرعونية . مثل روح (رع أمون رع) و (مبوت) ويطلقون اسم جمعية الامرام على حفلم ويركزون على الآثار والكشف عنها ويولون هذه الكشف عناية كبيرة .

(ثالثاً) تركز الروحية الحديثة : على مدم الاخلاق ، ونفي الاختيار والقول بالجبر . وهم في دراساتهم الروحية يتخذون نفس الأسلوب الذي اتخذه الدوايات النفسية في تبرير الجريمة والاعتذار عن الجرم ووصفه بأنه مريض ومحاولة إرجاع دوافعه إلى عقد نفسية . أو إلى اضطراب في تركيب جسمه . على نحو ما تفهم نظرية (المبروزي) التي أذهب كثير من العلماء فسادها واضطرابها وهم يحاولون

هذا أن يصلوا إلى ثبوتة المجرم ، ورفع القصاص عنه . كما يدعون المجتمع إلى عدم مطاردته . فالروحانيون يذهبون هذا المذهب نفسه عن طريق آخر فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمى (المس الروحي) والمجرم في كلتا الحالتين مكره في نظرهم على الجريمة تركبها تحت عامل داخلي عند الفرويديين أو تحت عامل خارجي عند الروحانيين ، وكل منهما يهدم التقنين الخلق من أساسه لأنه يحول في الفردية التي هي مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، ومن الواضح أنه يحول في الوقت نفسه الدرائع الجارية كلها ، بل القوانين للوضعية أيضاً فهو حود إلى الحقبة الضالة المفسدة لدين والدنيا جميعاً .

رابعاً : من أخطر دهواتهم وأكذبها : قولهم إن الجنة والنار فكرة عقلية ، أو حالة نفسية . وإن للناس على اختلاف أديانهم ، وعلى اختلاف تحملهم وطبائهم يعيدون فيها وراء الموت حياة هي نفس حياتهم على الأرض ، وإن فرص التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم . وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد . وهم يدعون أن القيامة هي قيامة (آدم) الجديد الذي يقوم على وجه الأرض في عالم لا يحكمه إلا السلام . ونسود للروحية ، وذلك إحدى دعائهم التي يهدون لها (خامساً) إنكار القرآن والإنجيل أساساً ، ثم محاولة الاستشهاد بهم ما مع التحريف الشديد في سبيل خدام البسطاء ، وضماف النفوس .

وحيث أن الدعوات الهدامة . تقوم على المادية ، فقد كان من الضروري خلق مناطق أخرى له مدخل فاهم الملئس يحاول استقطاب المتدينين ، والذين يسكروهن الدهوات المادية ، ومن هنا كانت الروحية أسلوباً للهدم فهم يدعون الناس عن تهويمهم أساليب الخوارق والمعجزات ، ويتدوجون بهم حتى يصلوا معهم إلى نفس الغاية التي تصل إليها المذاهب المادية من إنكار الوحي ورسالات السماء ، ومن أن الأديان كلها تهدف إلى غاية واحدة . فليس بينها خلاف ، وأن الرسل والأنبياء ليسوا إلا وسطاء بين الله وخلقه ، وأن هذه الرسالة قائمة لا تنقطع ، وأن هناك من يتوهمون بها على الدوام ، وفي الوقت الحاضر أيضاً . ويصلون من هذا إلى الحديث عن نبيهم (سافر بهوش) الذي يسمى روح الرائد أو (آدم الجديد) وهو الذي سيكون خليفة الله على الأرض . وينقلون عنه كتابات وأحاديث تستهدف التركيز على الغايات الكبرى للمذهب الروحي . وهو لإخراج الناس من الإيمان بالله على الوجه الذي جاءت به أديان الله ، والتي نزل بها الإسلام خاتماً . وفي هذه الدعوة حديث عن إسقاط التكاليف ، وتجاوز حدود الله ، وإباحة المتعة والشهوات ، والتشكيك في الجزاء والعقاب والثواب ، وفي الجنة والنار ، وفي الحياة الأخرى جملة . وتقوم هذه المفاهيم على أساس (التآويل) على نفس المنهج الذي عرفته الدعوات القديمة كلها ، وتهدف إلى الترويج للإلحاد ، والإباحة تحت ستار التقوية بمكارم الاخلاق .

(سادساً) محاولة التفريق بين المبادئ والاخلاق . والادعاء بأن العمل الصالح وحده كاف لأن يقرب الإنسان من ملكوت الله . ويخبر (سافر بهوش) إلى هذا المني حين يقول أعطني الرجل

الذي لا يعتق أي دين . والذي لا يركع لذكر اسم الله . ولكنه (أمين) ، يحاول أن يخدم ويهدى
يده للضعيف ، ذلكم أكثر تدنياً على ينسب إلى أي دين .

ويكشف لنا النص مصادر الدعوة التي ثارت وترددت حول الفصل بين الإيمان بالله . وبين
الأخلاق أو بتعبيرهم بين (الدين والضمير) .

لا ريب أن هذه الحقائق تصل بنا إلى غاية واضحة : هي أن الصهيونية المادية قد استطاعت أن
تحتضن فكرة الروحية الحديثة ، وأن توجهها إلى أهدافها . كما احتضنت كثيراً من الحركات الفكرية
والسياسية والاجتماعية في العصر الحديث ولقد كانت حركة الروحية . أو (الاسبرنزم) في أول
أمرها سلاحاً جباراً ، أريد به معارضة المادية - ومقاومة نفوذها . وشغل به كثير من أرباب الأديان
ومن أعداء الدعوات الهدامة ، وكان لامثال فريد وجدي وغيره اهتمام كبير به ، بحساباته ، باباً
للإدانة من الدعوة المادية وإسقاطها . غير أن القوى الهدامة ، استطاعت أن تستوعب الحركة الروحية
وأن توجهها إلى غايات أبعد مما تكون من أهدافها الصحيحة . فأصبحت الروحية بمثابة دين جديد
يبشر به المبشرون ويدعو إليه الداعون ويتنبؤون عن طريقه بمالم جديد يسوده الدلام والمجبة .
وهو نفس الطريق الذي سارت فيه دعوة (الثيوصوفية) ثم البهائية .

وقد أكد هذا المعنى (هـايت هوك) فيما نقلته عنه مجلة عالم الروح حين قاله : إن الروحية اليوم
تلقيها يد الحراس من الأرواح . والسادة مصلحو البشر ، أولئك هم الذين خلقوا الحركات المتعددة منذ
مائة سنة ؛ فهم الذين وضعوا أساس الثيوصوفية ، والفكر الحديث ، ويعلم المسيحي الحديث ، ولذلك
فالروحية ستكون أقدر على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله - ويقول أحد دعاة الروحية الحديثة : إن
هذه المنظمة ستكون لسلك البشري . وعن طريقها سرف يوضح لنا سكان العالم الروحي : طريقة
جديدة للحياة ، ومطوئنا فكرة جديدة عن الله ومشيئته . أنهم سوف يأفون لنا بالسلام والطمانينة
للروحية وسعادة النفس والقلب . سوف يخطون الحواجر بين الشعوب والأفراد بين العقائد
والأديان . ومعنى هذا كله كما يقول الدكتور عبده الراجحي في كتابه الشخصية الإسرائيلية : إن
الروحية الحديثة هي صورة أخرى من صور المادية . تتخذ أسلوب الماسونية ذاته . فهي تقوم على
رموز وأسرار . ولها درجات . ولم تنفأ للعقلية ولكن أنشئت لأهداف خاصة . وهي مخطط
لإسرائيل واضح الهدف والأسلوب يرمي إلى انتزاع الشخص من دينه وقوميته وصبه في قالب جديد
من العالمية أو السكونية مستخدمة لذلك مختلف الوسائل حتى أنها تستخدم الدين في هدم الدين . فهم
يؤولون آيات القرآن تأويلاً هجيباً ليصلوا إلى منهجهم ويحاولون أن يجعلوا من الوسيط الروحي في
العصر الحديث رسلاً يفوق الرسل وهدف للروحية الحديثة (لا بد أن يتعظم الدين بيد أنبائه ، ولا
بد من تحقيق قومية على أبدى أبنائها وهذا هو السبيل أمام الإسرائيليين كي يركبوا أكتاف
العالم من جديد)

أما نحن المسلمين ، فإننا نقف إزاء ذلك كله على قاعدة صلبة ، فقد كشف لنا القرآن عن ثلثة صفات الصحيح من كل هذه الدعاوى الباطلة التي كشفها القرآن نفسه في حديثه عن أصحاب المذاهب الهدامة ، والنحل الضارة التي سبقت الإسلام . ونحن المسلمين نؤمن بالمادة ، وما وراء المادة ، وبالحياة والموت والنشور . ونؤمن بالبعث والجزاء وبأن النار حق ، والجنة حق ، وأنها ليست من باب التصورات والأحاسيس . وللمسلمون لا يؤمنون بأن الأرواح التي ذهبت نستطيع أن نتصل بها لهذا أو أن يكون لأحد في عالمنا سلطان لاستحضارها . ولا يقر الإسلام الاتجاه إلى الروحية وحدها ، وليس الإنسان روحاً بلا جسد . ولا ينصر الإسلام إحدى الكفتين : الروحية ، أو المادية ولكنه يجمعهما معاً ويوآذي بينهما وهذه الدعوة إلى الروحية ليست إلا نموذجاً للدعوة إلى للمادية وكلاهما يتعارض مع الفطرة وطبيعة الإنسان ومع مفهوم العقل المؤمن بالوحى ويبقى الإسلام متمبراً بنظامه ودعوته إلى الإيمان باقية ومقاومة لطغيان المادية أو الروحية على السواء ، ونحن نعرف أن هذه الفلسفات جميعاً نشأت في غير محيط الإسلام كرد فعل لمفاهيم سبقت بالسكوت والحجر على العقول والأبدان والدعوة إلى الرهبانية وتآليه الإنسان وما يتصل بذلك من دعوات التعمد وفهرها بما دفع الفكر الغربى إلى الصراع بين المثالية والمادية وبين الأدهان والفلسفات .

وهذا ما دفع بعض الفلاسفة إلى إعلاء الافسان وإلى عبادة الأجساد ، وما دفع الآخرين إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب ، ودفع بعض الفلاسفة إلى القول بأن الإله الذى عرفوه عن طريق دينهم قد مات وهكذا ومن هنا كان رد فعل المادية المطلقة المثالية في إنكار عالم الغيب والروحى والأديان وإنكار الله إلى دعوة غالبية في الاتجاه الآخر إلى الروحية والعوالم والأفلاك وكلاهما صرف شديد الاسراف ، وكلاهما يصدر عن العقل الذى تحكمه الأهواء والذى تقوده دعوته الفكر الحر . فلا يستطيع أن يصل إلى شيء لأنه يخرج عن نطاقه ووظيفته وأفقته المحدود .

وقد نقلت الجمعيات الروحية ، ودعوات تحضير الأرواح إلى بلاد نابغية انتزاع المسلمين من دينهم وقوميتهم وإخراجهم من عقائدهم وقيمهم فهم بين شرين كلاهما مر . أما روحية تنكر الجسد والمادة والإنسان روح لا مادة ، كما يقولون أو مادية تنكر كل شيء وتعتبر الروح نفسها مادة خالصة وكل هذا يستهدف إخراج المسلمين من عقائدهم وشريعتهم وأخلاقهم ، ويلتمس لذلك ما حملته الدعوات الهدامة قديماً من باطنية وخنوصية وإشراق وتناسخ وحلول ، فالمعارات هي العبارات والأهداف هي الأهداف لا جديد إلا أن تشكل من جديد تحت اسم جديد لا ريب أن الروحية الحديثة بدأت حركة في مواجهة المادية ولكن مخطلطات التلويحية لم تلبث أن احتضنتها ، وسارت بها خطوة في طريقها إلى هابيتها ولا ريب أن القول بأن العلم الروحى قد أصبح علماً تجريبياً ، هو من أكبر التجاوزات المخاطبة التي ليس هناك دليل على صحتها ولا ريب أن التواصل بين الأحياء والموتى أمر مشكوك في إلى درجة الاستحالة المطلقة ومن الخطأ في هذا المجال الربط بين هذه المفاهيم الواقعة وبين القرآن الكريم عن طريق التفسير في قائل الآيات والنصوصي .

الباب الثاني

دعوات هدامة للمجتمعات والأمم

الفصل الأول : إيدولوجية التلود الفصل الثاني : المنصرية

الفصل الثالث : المادة الفصل الرابع : العناية

الفصل الخامس : العالمية

الفصل الأول

إيدولوجية التلود

ما تزال البشرية تواجه إيدولوجيات متنافسة لفطرة الإنسية والتوحيد والعدل . ومتحركة داخل نظريات ومذاهب ، وطارحة نفسها خلال العصور المختلفة بأساليب متجددة . وفي هذا العصر نجد هذه الدعوات الهدامة للأمم والمجتمعات ، وقد صاغت أفكارها القديمة . التي سبقت الإسلام . والتي جاء الإسلام ، ومن قبله كل أديان السماء ، لكشف عن زيفها ، والتحذير من أخطارها . صاغت هذه الأفكار في أسلوب يراق ، وفي منهج علمي ، واتخذت أساليب مستحدثة ، وقدمت فكرها في أجواء زاهية ، ومن خلال مطبوعات لامعة فاخرة ، ونحت أسماء مغرية . ولما كانت دعوات الهدم تعارض الأديان والأعراف والأعراف والأعراف . وتتناقض الضوابط والفرائض والحدود ، وهي تفرى بالتحري في الفكر والسلوك . فإنها قد تجد من بعض الجماعات البشرية ، والأفراد تقبلا بالإغراء ، ومؤازرة بالرغبة ومن هنا تعرض الأمم للأخطار ، جيلا بعد جيل . وتعمق الأزمة ، وتبرز الآثار المروعة التي لا يدفعها ، إلا أن تعود الأمم مرة أخرى ، إلى التماس مناهج الله وأساليب الرسل والأنبياء . ومن أخطر ما تواجه البشرية اليوم ، مخططات التلود التي صيغت في دعوات هدامة كاللأسوية ، وحركات خطيرة كالصهيونية ، وأساليب عمل كبروتوكولات صهيون . وهدمها عدم الدين والأخلاق والحضارة واستعمال كل الوسائط والأساليب ، لفرض سيطرة الصهيونية على العالم .

إن هدف إيدولوجية التلود ، هو إقامة إمبراطورية الرب العالمية . وقد رسم اليهود أهدافهم بدقة

خلال مفاهيم في بابل منذ أزل عام تقريباً . حيث أعدوا مخططاً كاملاً للسيطرة على العالم ، والانتقام من الأميين . ومن أجل هذا أجرى اليهود تحريفات كثيرة في كتبهم المقدسة ، ومنها برزت نفوذهم وأحقادهم ، فقد حشروها بأغش القول ، وأبشع الحق على الأديان والأمم ، وضمنوها عديداً من التمايم الضالة ، والمبادئ الخافدة ، والقيم الفاسدة يقول جاك رومان ، وماري لودا في كتابهما (التحدي الصهيوني) : إن أبرر ما تحمله تعاليم اليهود هي نصوص تفيض وحشية وعنصرية وحقداً على العالم كله ، وقد غذيت العقول بهذه الأحقاد على مدار الأجيال ، فأصبحت قوام النفسية اليهودية التي نشأت نتيجة لما الدعوة لإعادة التركيب الاجتماعي . ومنها نهأت تلك الأيدولوجية القائمة على العنصرية ، والسيطرة والظلم والربا ولا ريب أن هدف الأيدولوجية التلودية هي طبع العالم كله بذلك الطابع . واحتوائه داخل منهج وبوى ماضى . يتحرك من خلال مفاهيمهم وقيمتهم . وقد وصلوا في ذلك إلى حد كبير بتطعيم الفكر الغربي بمذاهب جديدة في النفس والاجتماع والاخلاق والاقتصاد . ويمكن القول أن الأيدولوجية التلودية . قد استطاعت فعلاً بعد صراع كبير مع الفكر الغربي للمسيحي من السيطرة على الحضارة الأوروبية والفكر الغربي وطبعه بطابع المثل الأهل التلودى .

(٢) من أجل إنعاش منهج وأيدولوجية ، لابد من تدليل القوى لتحقيق هذا الهدف . فإذا كان المثل الأهل التلودى هو للربا والسيطرة الاقتصادية العالمية فلا بد من تدليل كل العقبات في سبيل إخضاع البشرية لهذا الهدف . ومن هنا تكون الأديان والاخلاق هي عقبة العقبات ولذلك ، فلا بد من تدليل الأديان والاخلاق لأنها قوى المعارضة الحقيقية . ومن هنا تركز التلودية اليهودية على تفكيك الاخلاق ، وتسهيل سبل الشهوات ، وتزيين ذلك الناس بوسائل المرض ، وصياغة المناهج والفلسفات ومن هنا كانت سيطرة اليهودية على الصحافة ، والسينما ، والجامعات ، والمناهج الثقافية والتربوية . ومن ثم أصبح في أيديهم كل وسائل التأثير العقلى ، والاقتناع الفكرى ، عن طريق الكلمة المكتوبة ، والكلمة المسموعة ، والصورة المرئية . فالأزياء وأشرطة الصور المتحركة ، والرقص ، ومسابقات الجمال ، والمودات وكتب الجنس والصور العارية . . كل ذلك في أيدي اليهود . وقد نشروا في العالم كله مجلات متخصصة الدعوة إلى عبادة الجسد ، ونشر المجون والفسق ، وإذاعة القصص الكافئة عن الأسرار وإعلان الفضائح والجرائم تحت ستار التحقيق الحقائق . وليس كل هذه الأساليب والمناهج والمذاهب ، من سياسية واجتماعية ، إلا محاولات لتقريب العقل البشري كله من الأيدولوجية التلودية وبصره فيها وتشكيكه من جديد .

(٣) حيث اقضى مخطط الأيدولوجية التلودية الطموح إلى السيطرة على البشرية ، فقد كانت الماسونية هي الجوار الذى يمد لهذا العمل . والماسونية هي عبارة الفكر التلودى مصوغة في فلسفة موجهة إلى مختلف الأديان والاجناس على النحو الذى يضع هذه المجموعات البشرية في خدمة الهدف على نحو تدريجى . ووفق مقريبات وأساليب ومطامح تتفق مع مختلف العقليات . والافواقي ، والرغبات ، ومن هنا قامت الماسونية على هدم طردى كبرى حماة الدين والاخلاق ، وقد جعلت

شمارها (البنائون الأحرار) ، مادة من وراء ذلك إلى غاية واضحة هي بناء هيكل سليمان في القدس . فالماسونية ، وجميع الجمعيات السرية المماثلة ، ليست غايات ، وإنما هي وسائل تستخدمها القوى الخفية لتقديم القيم التي تقف عائلا دون مطامع اليهودية التلمودية . وقد أجمعت مصادر كثيرة على أن الماسونية تعمل على : تقويض الحضارة ومحو الأديان ودعم القوميات وإسقاط الدول والإمبراطوريات والقضاء على الآداب والأخلاق . إن الهدف هو السيطرة على العالم عن طريق حصر المال ، والقوة السياسية والصحافة في أيدي حفنة من اليهود ، وجعل هذه القوى الخاصة بين البشر وسائل تتحكم فيها وأن هذه المخططات والهدوات الهدامة ، هي محاولة مستمرة لتغيير تركيب العالم السياسي والاقتصادي والفكري بما يتفق مع المخططات اليهودية .

(٤) الربا هو أس الأساس في بناء الأيدولوجية التلمودية : يقول اليهودي لا زار : إن أصحاب المصارف اليهودية ، ورجال الصناعة ، والعمراء والسكّاب والخطباء اليهود متحدون بأفكار مختلفة ، يعتقدون غاية واحدة . ويعتقد اليهود أن اتحادهم فيما بينهم يظل قائما ماداموا يؤثرون روح الهدم وعلى تضمصت ثروة أوروبا فإن مصرف اليهود يبقى واسخا لا يتزعزع . إن الهدف هو طغيان رأس المال ، واستنزاف جميع الثروات . وفي سبيل ذلك يتحتم حرب كل العوامل التي تحول دون هذه السيطرة - والمال كما يقول كارل ماركس في كتابه « المسألة اليهودية » ، هو إله إسرائيل المطامع وأمامه لا ينبغي لأي إله أن يمشي . ومحاولة إسرائيل والصهيونية هي أن يصبح إله اليهود إلهاً للناس أجمعين . من الحقائق الاجتماعية التاريخية : أن اليهود هم الذين وضعوا النظام المالي الذي هو القطب الروحي للمدنية الغربية في : للعالمين القديم ، والحديث ، وأن لهم به النفوذ الأهل في جميع الدول والأمم الرأسمالية - وأنهم أخفوا أنفسهم بصفتهم المالية . أن تظهر في ملكة المال ظهوراً به لغتهم أن يسلبوا ثرواتهم . وهم من أجل تحقيق هذا الهدف يضمنون الاقتصاد العالمي على أساس الذهب الذي يحتكره اليهود لا على أساس قوة العمل والثروات الأخرى . وهم يعملون من الذهب أقوى الأسلحة لإثارة الرأي العام وإفساد الشباب ، والقضاء على العداوة والأديان والقوميات ونظام الأسرة . ومن شأنهم إحداث الأزمات الاقتصادية العالمية على الدوام . حتى لا يستريح العالم أبداً . فيضطر إلى الاستعانة باليهود . وقد أجاب الدكتور خالد شلندريك على سؤال : لماذا تقف الصهيونية واليهودية التلمودية موقفاً معارضا للإسلام خاصة والأديان المذلة بصفة عامة فقال : إن السر الحقيقي يخفى دائماً وراء المال ، فالدين الإسلامي بتحريمه الربا أفقر بلاد المسلمين دون الفوائد الفاحشة للسكان حبيبا في نفوس ناشئة بني إسرائيل . وقد وجدوا أن الحرب الأوروبية تستطيع حمايتهم فتدفعوا للاستيلاء على أملاك المسلمين . فالمالية اليهودية إله ترمي إلى هزو كل بلاد إسلامية . ووضع الأخطال لأن أصدقاء المسلمين المسيحيين فقط . بل والإفريقيين أيضاً . فالمال إله الذي جعل اليهود اليوم خصوماً للمسلمين .

هذا ، وتختلف وجهة نظر المسلمين عن وجهة نظر الأيدولوجية التلمودية ، التي فرضت مفهومها على الحضارة الغربية ، وجعلتها خادمة لحب المفاات ، وتوفر الأمان ، والذهب بالإنتاج الصناعي إلهيته في سبيل تحقيق الرفاه والرفاهية ، ومن هذا المنطلق نهات المراجعات والمضاربات ، وأحوال اليهود صام

أما الحضارة الإسلامية ، فلا تستمد روحها من مثل هذه البواعث . وإنما تستهدف أن تكون أمة أخلاقية تنصر الحق وتحطك الباطل . ومن هنا فليست الحضارة الإسلامية في حاجة كبيرة إلى ما يسمونه الرقابية والتربص على حساب القيم الخلقية والهدفية . ولقد كان اليهود هم الذين حملوا لواء الربا على طول العصور ، وكان للرابون اليهود وراء إقراض الأمم والملوك . وقد قامت الرأسمالية على الربا الفاحش وارتبط الاقتصاد العالمي بالربا . وارتبطت بالربا صناعة السينما وتجارة الرقيق ، والخر والتخدرات . وكان لربا أثره في التركيب على بطائع معينة هي أدوات الترف والوهنة وما وراءها . حتى قامت مئات الصناعات في العالم من أجل الانحلال ، وكان لا بد أن تخلق من ورائه فلسفة ونظريات تدعم الدعوة إليها وتحجب فيها وتغري بها السذج ليستمر نمو الربا . وبذلك فرض الربا نفوذه وتأثيره على كل القيم الهدفية والأخلاقية والإنسانية .

(٥) يقول أحد الباحثين إنه من خلال الأيدلوجية التلودية نسقت نظم الغرب . إن جميع أنظمة الغرب التي كان لليهود أصعب في وضعها أو تعديلها ، أو في تفسيرها وتغييرها . قد صنعت إما لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال ، أو لمصلحة طائفة أخرى من أهل القوة والتأثير ، أو لارتويج لزعمة من النزعات التي يرتاح لها فريق ويستخط لها فريق . والنظام اليهودي قائم على تبادل المنفعة . وافق هذا التبادل النفسية أم خالفها ، والحق منهم هو ما يتمشى مع القانون ولا تعاقب عليه المحاكم ؛ أما مفهوم الإسلام فيختلف عن ذلك اختلافاً عظيماً . ومن خلال الأيدلوجية التلودية التي نسقت نظم الغرب أشرف اليهود على مراكر القوي المالية .

أشرف اليهود على الصحافة ودور النشر ووكالات الأنباء . أشرف اليهود على أبحاث الجامعات والثقافة ومذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسينما ونظم التعليم . أشرف اليهود على البنوك والمفكرات والبورصات . أشرف اليهود على الأزياء ، ومن وراء كل الظواهر المستحدثة الخطيرة . الهيبة والخنافس وتجارة حلب الليل وتركيب حقن المخومة والمارجوانا . وقد عملوا على السيطرة على معامل الملابس والمسلحيق والمطور وما سواها ، وبذلك توصلوا إلى تحقيق غرضين : السيطرة على المال وإفساد الأخلاق وعدم الأديان ، وحلقة الوئنة والأزياء تنفخ حيناً بعد حين ، ويزداد النساء إنفاقاً ، وتغرب الأموال إلى جيوبهم ، وفي نفس الوقت ينتشرون عن طريق الاتعاط والمودات أسباب التفسخ والمدم بما ينفر الرذيلة ويعبج الاختلاط ويؤهل الفوارق بين الرجل والمرأة وينفر الأمراض الجنسية ؛ ويضيع الطهارة ويهدم الأسرة .

(٦) حملت الأيدلوجية التلودية لواء دهوات مختلفة في العصر الحديث ، بعد أن سيطرت عليها ورفعتها في العالم كله من أجل تحقيق أهداف تتفق مع غايتها السلبية . في مقدمة هذه الدهوات الشيوعية والروحية الحديثة والبهائية ، كاقدمت مذاهب تهدف من ورائها إلى فرض مفاهيم معارضة للحقائق التي استقرت في الأذهان منذ نزل الإسلام إلى اليوم . ولأنني وضعت حداً فاصلاً بين عصر وعصر . من هذه المذاهب علم مفارقة الأديان ، والدعوة إلى العنصرية ، وإدلاء حماس على جناس . والدعوة

إلى المذهب للادى وإلى الملائية وإلى فصل الدين عن المجتمع . كذلك طرح نظريات جديدة متضادة في ميدان الاقتصاد والسياسة والتفسير للادى التاريخ ، وعلوم النفس والأخلاق والاجتماع تستهدف وضع أصول التلود وأهدافه موضع التطبيق العملى فى المجتمعات . وما من مبدأ أو مذهب على أو فلسفى يظهر فى العالم حتى يهب اليهود ليكونوا من ورائه ، ويتصرفوا معه بما ينفعهم ، وقد أفلحت الدعاية اليهودية فى طبع ككثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فترى روح الولاء والتفانى لبنى إسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية . وما ظهر مذهب فلكان مؤدياً إلى مسهم بالأذى إلا قبلوه ، وما كان مؤدياً إلى غير لهم إلا روجوه فى أنحاء العالم . وكذلك يروجون كل قلم ما دامت آثاره — عن قصد أو غير قصد — تساعد على إفساد الناس . ورفع شأن اليهود ، كما فعلوا مع دينهم ، الذى يتهم على المسيحية وأخلاقها ، ويقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق سادة كالنصف — وأخلاق عبيد كالرحمة والبر ، بما يتفق وروح اليهودية وتاريخها ، ويهد لها فى الأذهان ، ويجعلها سابقة على نيتشه . وكذلك روجوا مذهب التطور وأولوه تأويلات ما خطلت لدارون . واستخدموه فى القضاء على الأديان والقوميات والفنون .

(٧) ولم يستخدمون المذاهب المتناقضة لخدمة مصالحهم ما دامت تؤدي أخيراً إلى انحلال العالم ، والقضاء على أخلاقه ونظمه وأديانه وقومياته . فهم يدهون إلى العالمية والوطنية المتطرفة والتسامح الدينى والتطرف الدينى . وقد كونوا جماعات دولية ذات نفوذ عالمى لإثارة الخلاف بين الدول الديمقراطية واليهودية فى الشرق والغرب وإثارة مخاوف كلا الفريقين من الآخر كما خضت حديثاً .

(٨) محاربة الأديان والحشية منها والحيولة دون ظهورها فى سائر الأمم الحديثة فى الغرب ، ذلك لأن النصر على الدين فى الوثائق والشهادات سيحول بين اليهود وبين المناصب القيادية فى الأمم الخرافة . ولذلك فقد وجهوا إلى الدين حملة ضخمة . ومارضوه بالفلسفات حتى كادت تسقط قيمة الدين كلية فى نظر الغربيين وقد أثاروا فى وجه الفكر الدينى فى الغرب شبهات كثيرة منها أنه لا يبنى بحاجة النفس الإنسانية ولا يحقق غاياتها . ولكن هذه الحملة تجد مواجهة صحيحة . وتختلف اختلافاً بيناً إذا وجهت مثل هذه الحملة إلى الإسلام ، ذلك أن موقف الإسلام من الإنسان ومن العلم ومن العمل والتقدم ودينه الله الذى أخرج لعباده موقف مختلف فى أصوله وفروعه — وتحرص الأيدلوجية اليهودية على تطبيق شبهات الفكر الدينى الغربى على الإسلام . وذلك يفرض حارب أكبر مقررات الإسلام ، وهو أنه دين ونظام مجتمع . فى تستهدف إبعاد الإسلام عن المجتمع ، وإيقاع الخلاف بينه وبين العرب ، وهزله عن الاقتصاد والقانون والتربية .

(٩) تحق التلودية اليهودية موقف المعارضة للنهج القرآنى الإسلامى الربانى الذى يتمثل فى الأخوة الإنسانية والحنيفية السمحة البعيدة عن العنصرية وإعلاء الجنس . وتقف من الأنبياء والرسل والكتب السماوية موقفاً معارضاً لموقف القرآن والإسلام ، فالإسلام يؤمن بالله وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله ، بينما تفرق التلودية اليهودية ، وتصور بعض الأنبياء بصورة تنفض من أقدارهم .

وهم للزعمون لقيادة الإنسانية للعصومون عن الخطأ - ذلك أن صور أبطال اليهود في القرآن صور إسلامية . وصورهم في العهد القديم صور يهودية - والخلاف بين صورتى كل بطل منهم خلاف واسع . قد يصل إلى التناقض . وأم مظاهره هو عصمة هؤلاء الأبطال في القرآن عما لا يليق بهم . وعدم عصمتهم في العهد القديم من ذلك .

(١٠) أبرد مفاهيمهم المعارضة للاديان عامة والإسلام خاصة إنكار البعث . وهو أخطر مفاهيمهم التي يقيمون عليها مطلق النجى الربوى المادى الخالص .

(١١) رفض لحركة التاريخ الإنسانى منذ ما قبل المسيح حتى الآن على مدى ألفى سنة وللتطورات الهائلة التي حدثت في العقليات والنفسيات والعلوم والحضارات . وقربت ما بين الأجناس والألوان والإنسكار حتى وصلت بالناس إلى عهد الإيمان بالإنسانية الواحدة المتعاونة على تحقيق السلام . بعد ما سلحتها علومها وفنونها بأسلحة تجعل الحرب بينها كحروب آلهة الخرافة تدمر أو إبادة للجميع . وارتداداً بالمدينة إلى هود الكهوف والجبال .

(١٢) محاولة إعلم مقارنة الأديان . ود ما في الأديان الأخيرة إلى الأديان السابقة : وورد كل القيم التي تمثلها الأديان المنزلة إلى طادات وتقاليد قديمة بدائية (والمعروف أن هذه القيم نزلت بها الأديان الأولى ثم نوات ، وأن البشرية لم تعرفها إلا من هذا الطريق) وهذه محاولة ترمى إلى تشكيك المسلمين في دينهم . فالعالم إذا تمكن من تفتيت الدين ، وإعادة كل أفكاره إلى مصدر قبله ، ولو لم يكن المصدر يهودياً استطاع أن يحقق نقادة الدين في القلوب والعقول ، وبخاصة للمسلمين الذين يعتقدون أن القرآن وحى من الله أنه على عهد فباخه من عهد أن يكون له مفاركة فيه . وهذا يخالف ما يعتقد المسيحيون في الوصى ، إذ يرون أن كتاب الانجيل لم كاتبوها بإلهام من الله .

(١٣) تقسيم البشر إلى يهود ، وم الشعب المختار و د جوييم ، وهم من هدام من البشر ، ومعنى الجوييم : الكفرة والرثيون والانجاس والحيوانات . وتفرجهم أحياناً إلى الدربية بكلمة الاميين Gonzalez وقد صور القرآن هذه التفرقة (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل) أى أنهم هم ملومين بأية شريعة في معاملة غيرهم ، فاهم قتل غير اليهودى وسرقة ماله وانتهاك عرضه .

(١٤) رجوا المذهب التطور وأرلوه تأويلات ما خطرت لدارون . واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والقوانين والفنون . باعتبار أن كل شىء بدأ ناقصاً شاملاً يثير السخرية والاحتقار ثم تطور ، فلا قداسة إذن لدين ولا لوطنية ولا قانون ولا ن ، ولا مقدس من المقدسات ، وهم يمشون بعلم الاقتصاد والاجتماع وعلم مقارنة الأديان وبسخرتهم لمصاحبتهم وإفساد الآداب والنظم والمقول في كل أنحاء العالم ، ويعسون فيها نظريات مبرجة لا يفتن إلى زيفها إلا لاهويون من ذوي العقول ، وم وراء كل دى من أزياء الفكر والعقيدة ولللبس والسلوك إذا ما نفهم ، لا سيما إذا كان يفسد غيرهم . ويقول الأستاذ عباس العقاد : لقد تفهم المدارس المصرية في أوروبا ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها ، هي أن أصبحاً من الأصابع اليهودية كان وراء كل دهوة تستخف بالقيم الأخلاقية ترمى إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان .

فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الاخلاق والاديان ، واليهودي دوركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الاسرة بالاضاع المصنعة ، ويحاول أن ييطل آثارها في تطور الفضائل والآداب واليهودي أو نصف اليهودي سارتر وراء الوجودية التي نشأت معوزة لاكرام الفرد ، فنها بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بأفات القنوط والانحلال - ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية . بل الأذى الفكرية كذا شاع في أوروبا منها مذهب جديد . ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من هوامل المصادفة المعارضة . والتدبير المقصود ، وقل مثل ذلك في فرويد اليهودي الذي هو وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية ، والخلقية ، والفنية والصوفية ، والاسرية إلى الغريزة الجنسية كي تهطل قداستها . ويهمل الانسان منها . ويردهه فيها . ويسلب الإنسان الإيمان بسموها ما دامت راجعة إلى أدنى ما يرى في نفسه . وبهذا تنحط في نظره صلاته بأمرته ومجتمعه . والسكون وما وراءه . وقل مثل ذلك في علم مقارنة الآديان التي يحاول اليهود بدراسة تطورها ، ومقارنة بعض أطوارها ببعض ، ومقارنتها بمثلها أن يحوا قداستها . ويظهروا الانبياء بمظهر الدجالين . وكذلك حركة الاستشراق التي تقوم على بحث الكتب القديمة . فهي في العربية تزعم مكانتها بأفقه الكتب التي لا تفيد علماً ، ولا تورث خلقاً ولا تذهب عقلاً ، فكأنما تؤسس المسكاتب لتسكون متاحف لحفظ الموميات الخالية من الحياة . والتي تمرى الإنسان لتفاحة محتوياتها وكثرتها ، وتفككتها بالنفور منها . إذا كان سليم الطبع والعقل ، أو الفهمك بتفاهتها فتورثه الفرور والعناد والكبرياء . وكذلك يروج اليهود لكل المعارف الثافية التي تهمل في المجالات والقصاص والكتب التي تنهد الشعوب وتبيح الجواب السبئة من الغرائز وتحبب الرذائل وتنشر الإنحلال .

(١٥) هناك نظرية تحتاج إلى مراجعة واسعة وإن كانت لها دلائل ترجع صدقها هي أن الإصابع التلمودية الصهيونية ، وراء كل دعوة تستغف بالقيم الأخلاقية ، وأنها وراء كل الثورات والانقلابات بل إن بعض الباحثين ، يرد حركات ابن سبأ وابن ديسان وابن ميعون القداح ومهران قرمط ، وبابك والحشاشين إلى اليهودية والاثري اليهودي .

(١٦) يقول بوكهارد : أن الأدب العالمي قد يكون مديناً لبعض كتاب اليهود ولكن شرم أكثر من نعمهم وإثمهم أكبر من خيرهم فإن (مينه) أفسد أخلاق باريس . وأدوا له : أندريه برب زوال الحضارة أما فرويد فقد خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية وعهد الغريزة . وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص الرجل والمرأة ، أن يفعلا بهما ما شاء لهما للشبق الكامن في حنايا ضلوعهما فالتفتك الجنس لا حدة في رأيه والولد يقار على أمه من أبيه ويرد لو يموت الوالد ليحل محله (مركب أو ديب) أما الأحلام فلا تفهم لها إلا الاختلام وعلاقة الجنس وتوماس مان : برد عشق الكور (قصة الموت في البندقية) ووصف مرضى الصدر بحيوانات مفترسة تتغذ من يأس الفقراء فقراً للتساقط فصحات الجبال مواخير للمرضى تحت مراقبة الأطباء (نهضة الجبل المحسور) .

(١٧) يقول أحد الباحثين : كان من المستطاع أن تشق الفلسفة الأوروبية طريقها حتى تصل إلى العلم من ناحية وإلى الدين من ناحية أخرى ، ولكن تداخلات الصهيونية واليهود منسفة سبنيزا قد حالت دون ذلك ، وحولت دفعة الفلسفة إلى المادية والإلحاد وقد وصف مكسيم جوركي أمة اليهود بأنها سيف ذهبي شهر على رأس أوروبا منذ عهد المسيحية . وقد حاولت الفلسفات التي حمل لواءها اليهود تفسير مفاهيم الحياة ، وإفساد الفطرة إذ حاولت أن تصف الإنسان بأنه حيوان ، وابن المصادفة وأنه لا غاية لوجوده ولا هدف ورتبت على ذلك أنه لا معنى للحياة الإنسانية ، ولا للعدل العليا . وأن الحياة تخبط ليس فيها إلا الطعام والجنس وبذلك طغى طابع المادية على علوم النفس والاخلاق والتربية والفن وماجم ماركس وفرويد ودوركايم (وهم جميعاً من اليهود) الذي فقال ماركس : أنه أفيدون المصوب . وبحوكة الاساطير وقال فرويد : أنه ناشئ من الكبت . وقال دوركايم : أنه ليس فطرة .

(١٨) محاولة الإدهاء بأن اليهود منبع الأديان ، ورأس الحضارات والثقافات والقول بأن بناء الأهرامات واختراع الآلات إنما كان بفعلهم والتاريخ يؤكد أنه لا دور لهم في الحضارات إلا دور التخريب وأنهم لم يخلقوا حركة إجتماعية واحدة . ولا قدرة لهم على خلقها ولكنهم يحتنون أي حركة تنبع ويستغلونها ويحولونها إلى غاياتهم . ويمكن القول بأن الفلسفات الحديثة كلها : ليست إلا تراث الفلسفات الهدامة القديمة . وقد حملوها إلى العصر الحديث وانتشروها وفق ترتيب محدد لحدم مقومات الأمم الدينية والحلقية ، وقد وصفوها بالتراث القديم والتعاليم السرية من كتب البراهمة والبوذيين . والمصريين وما يتصل بالسر والخرافة والالواح والهيكل ، والاثوثان وذلك هدف أساسي من أهدافهم وهو إغراق العالم بأفكار غريبة وآراء شاذة . وكلمات تهدف إلى تدمير الأديان . وإنكار التوحيد والتشكيك في البعث والجزاء وترهق الرغبات والالهواء في نفوس البسطاء وتعلمهم بها إلى غاياتها البعيدة .

(١٩) يقول هنري فورد في كتابه اليهودي العالمي : الموسيقى الشعبية الرخيصة هي احتكار اليهود وليس موسيقى الجاز ، إلا احتكاراً يهودياً ، وليست هذه الحركات المتهمة بما فيها من فذارة ، والتي تناسق مع النفقات التي تبث الفرائز إلا من حمل اليهود ولعل من الغريب أنك حين تنفك لتحرى من الخيوط المؤذبة للنفوس التي تسرى في المجتمع تجد جماعة من اليهود خلقها فوراء الفساد في لعبة الكرة جماعة من اليهود هم وراء الاستغلال للمال ووراء الدعاية للثمرات الروحية والسيطرة على السياسات القومية الحزبية والسيطرة على الصحافة عن طريق الضغط المالي والتجاري ، وتمازج في المائة من مستغل الحروب هم من اليهود .

(٢٠) إن مفهوم التنوير الذي أدخلته المخططات التلويدي إلى أفكر الغرب المسيحي هو نقلة إلى التعمد للرفق المادي ، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى هذه الحياة نفسها . ويقول محمد أسد : إن هياكل هذه الديانة هي المصانع العظيمة ودور السينما ، والمختبرات الكيميائية وباحات الفيزياء ، وكنة هذه الديانة هم : الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وينسج هذا المفهوم حتى يصل

إلى أنه ليس للاعتبارات الخلقية أي أثر مباشر محسوس في الرفاهية المادية وأن كل الفعائل تتعلق برفاهية المجتمع المادي . مع إزاحة الحب الأبوي والعفاف لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة ومن ثم فقد أخذت القيم الوثنية اليونانية تحمل محل القيم الدينية والأخلاقية وتحمل الدعوة إلى حرية فردية للجسد الشرى غير مقيدة بقودها كاهدة (الفكر الحر) التي تشرف عليها الصهيونية العالمية ، وتقوم على تعاليم التلود وقد أشار إلى هذا المعنى « ديستوفسكي » حين قال : اليهودى وحده وماله هما سيد العالم فاليهودى وماله يسيطران على كل شيء في أوروبا : على التعليم وعلى الحضارة ، وعلى الاشتراكية .

(٢١) تجمع المصادر على أن الفكر الصهيونى التلودى فكر مراوغ يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليه داخل مناهج علمية براققة ، تخدع البسطاء ولا أنها تتكلف عن زيف كبير حين توضع تحت أضواء الحق ومصادره من القرآن ورسالات السماء وغير دلائل ونموذج على هذا الاتجاه : مذكرات هرزول ووايزمان فى ملية بأساليب الخداع ، والمغالطة والمطامح .

المخططات التلودية

تقوم مخططات إيدولوجية التلود التى تقوم الماسونية بواجهة أساسية فى تنفيذها على أهداف واضحة هى :

(أولاً) : معارضة الأديان بصورة عامة ، وبشكل روح الإلحاد والإباحة بين الشعوب - تقول المصطلحات : يجب ألا تقتصر الماسونية على شعب دون غيره ولتحقيق الماسونية العالمية : يجب سحق هديونا الأول . الذى هو : الدين : بإزالة رجاله ، إن غابنا قبل كل شيء . هى إبادة الأديان جميعاً وتطرح الماسونية شعاراً خطيراً : هو أنه لا فرق بين دين ودين ، حتى ولو كان فى نظرها باطلاً وتستهدف القضاء على عاطفة الجمعية للدين المعتقد ، والقضاء على اعتزاز كل إنسان بدينه ، أو التمسك به كآثره الماسونية أدياناً باطلة كالمجوسية والبرهمية ، واليرادشقية .

(ثانياً) تدمير القوى البشرية ومعنويات الأمم واستغلالها واستعبادها (ثالثاً) السيطرة على الشباب من أولى الفتيات . تقول المصطلحات : دهوا السكول والشيوخ جانباً ، وافرغوا الشباب . بل تفرغوا حتى الأطفال لابد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين . إن الماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية ، والجمعيات الموسيقية لاستدامة تفوذها على أوساط الشبيبة . إن حرية الآباء : لا تتفق مع مصالحنا وغاياتنا أبداً . يجب تربية الأطفال وفق منهاج مقرر إن الجمعيات الرياضية والفرق الموسيقية وفروعها من المؤسسات التى تربي الناشئة عقلياً وجسمانياً هى المزارع المحبوب لنمو الماسونية فيها . إن غاية الماسونية هى تطعيم أكبر مجموعة من السكتل البشرية بأفكارها . تقول البرونركلات : لقد خدعنا

شبية الخوارج ، وأفسدنا آدابها وجعلناها شبيهة بالبهائم . وأفقدناها نشاطها ، بما حملناها وألقينا في ذهنها من المبادئ والنظريات المكاذبة . ويقول ما كس نرردو : أدهوا إلى تنشئة الجيل الصاعد على الكذب والقوية ، والغشاعة وعلى الأنانية وحب المنفعة والسمي وراهما بكل الطارق .

(رابعاً) إشعال الثورات والفتن والإضطرابات وإفناق الأموال الطائلة في سبيل الأغراض الهدامة وقد اعترف كثير من المصادر اليهودية بأن البناء الحر : أي الماسونية كان لها أعظم الشأن في تدبير الانقلابات والثورات وخاصة الثورة الفرنسية وثورات البرتغال ، وإيطاليا وبلاد البلقان (خامساً) خلق جيل العنانيين في العالم لمعالجة القضايا على أساس مادي ، وإبعاد الآثار العقائدية ، والروحية ، والدينية عن مخططات السياسة والاجتماع (سادساً) التركيز على المذاهب والفلسفات : تقول المخططات أن من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الماسونية طوال القرن للماضي : هي المذاهب الحرة التي تعتبر من نتاج الفكر البشري . إن الأفكار المستقلة التي لا تسير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقد اللاذع والعداء المر ، والأراجيف من قبل الماسونية . والمعروف أن هذه الأفكار المستقلة هي كل فكر يتصل بالوحى والقيم العليا التي جاءت بها الأديان .

(سابعاً) الإختفاء وراء المسرح السياسي : يقول بنيامين إسرائيل السياسي الإنجليزي عام ١٨٤٤ . إن الذين يدبرون دقة السياسة في العالم ليسوا هم الذين في دست الحكم ظاهراً ، وإنما هم أولئك الذين يكمنون وراء الكواليس . وقال نابليون الثالث ملك فرنسا عام ١٨٥٩ : يجب ألا نخدع أنفسنا إن الدنيا تدار من قبل المنظمات السرية وقال والترتينا الوزير الألماني اليهودي إن ثلاثمائة رجل من رجال السياسة المتعاطفين فيما بينهم يدبرون الأمور في أوروبا ، والآن في العالم كله .

(ثامناً) بث الدعاية الخبيثة للمبادئ القاتلة للدين والأخلاق باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحيث تمسود هذه المبادئ على روح الأديان والدعوة إلى الأدب الشخصي الخالي من الإيمان بالبعث يقول (ألن) إن الكتاب الذي يجرى في عروقهم هم يهودي كانوا في طلبه الداعين إلى المذاهب المنافية للدين والأدب والمجتمع . تقول البروتوكولات : أنظروا إلى نجاح مذهب داروين ، وماركس وجميع المذاهب هي من صنع سياسيين فإياكم لا تجهلون تأثير سموم هذه التعاليم في عقول الخوارج .

(تاسعاً) التركيز على المرأة ، والدعوة إلى تحريرها ونزعها من الدين والاسرة واجتذابها إلى المرافص والمحافل تقول المخططات : أننا بمسيطرين على الحرافات ويقصدون الأديان - إلا يوم تشاركنا المرأة العمل - المرأة رسول لمبادئنا الحرة تخلصها من نفوذ الكهنوت - إن خطتنا هي دفع الإبقاء إلى بيد السلطة الوالدية (هيدرو) وإلقاء السكرامية بين الأولاد والديهم (دالمه) إن الإعترااف لجيل ليس واجباً لازماً على البنين لوالديهم ولبعض السلطة الابوية تدوم والنساء من أقوى العوامل

لنفوز بنفس الدين ونشر الفساد ونقول المخططات إن العفة المطلقة مردودة عند الماسونية ، لأنها ضد ميل الطبيعة . ويقول الدكتور أحمد أبو شادي في كتابه عن الماسونية : المرأة لا تستطيع الحياة الكريمة إلا إذا حاربت رجل الدين - عاتراً : تدمر الأسرة والدعوة إلى الزواج المدني المقيم ، لاستنزاف قوة الإله . والدعوة إلى الإباحة المطلقة وإشاعة الأخلاق في الفرد والمجتمع والأمة - تقول المخططات : إن الهجوم على رب العائلة هو الأمر الجوهرى في إستراتيجية الناس إلى جماعتنا . من الضروري لإفراد الرجل عن عائلته وإفساد أخلاقه وترغيه في المعيشة الحرة - إن الخلاعة باب واسع لمن الزواج المدني . إن الرأبليس محظور إذا تسامح الرجل بإمرائه لفهمه - يقول دالمار : إن الماسونية بنشرها أسباب الفساد والخلاعة قد أضرت بفرنسا أكثر من الحرب السبعينية وأضرمتها عدداً وأفرأ من الرجال (حادى عشر) مهاجمة الدهوات الوطنية والنضال من أجل تحرير الأوطان ومهاجمة نظام الجنديّة - تقول المخططات : الوطن خيال باطل وكذب محض إن الوطن هو كل يقتضينا أما الرايات الوطنية فهي آية الظلم والاستبداد فيجب أن تُلقي في المزابل .

(ثمان عشر) الدعوة إلى التعليم العلماني اللاديني الذي يفسد قلوب الشباب ، وبفرض مقومات الرذيلة - تقول المخططات : إن الدعوة إلى أن تكون المدارس علمانية إلزامية هو إخراج الأبناء من رعاية الآباء . إن تهذيب الأحداث هو حجر الزاوية في بنائنا الحر . ينبغي أن تنفي التعليم للمسيحي لايهم بالديانة ونفي كل تعليم ديني - المدارس المهنددة تعمل على نشر الفساد والخلاعة واقتلاع العفة من عقول الفتيات . (ثالث عشر) ترفير أسباب الفساد : عن طريق الثقافة والصحافة وذلك بنشر الروايات الإباحية ، والصور الخليعة ، والأغاني البذيئة ونشر الحرافات (رابع عشر) جعود الخالق الأعظم وإطلاق اسم له من غير أسمائه الحسنى التي اختارها سبحانه لنفسه لجعله بمنزلة مهندس المكون . كأنه لم يخلق الكائنات من العدم . وإنما هو مهندسها فقط ومنظمها وزادوا دلي ذلك الاسم إلهاماً بقولهم (للمهندس الإعظم) كأن الله (جل وعلا) يقولون علواً كبيراً) قد استعان في مهندسته هذه بفهمه من المهندسين . فكان هو الأعظم بينهم .

(رابع عشر) إحياء النحل والوثنيات القديمة - يقول رينان وهو أحد كبار دعاة الماسونية : ليس في العالم عبادة موافقة لعقل السليم وليبادىء العالم كعبادة الشمس فهي إله كرتنا الأرضية . ويقول أحد فلاسفة الماسونية . إن (أدونيس) في مذهب الماسونية هو أوزيريس إله المصريين أو ميترا إله الفرس ، أو باخوس إله الرومان أو أحد الآلهة المتعددين الذين كانوا في سالف الزمان ويقول فرندمور كل اعتقاد ديني أساسه ما وراء الطبيعة - كالإله غير المنظور - فهو ضعف في عقل الإنسان - ويقول فلاسفة الماسونية : علينا أن نرقى فوق طبقات كل الأديان نتحرر أيضاً من كل اعتقاد بوجود إله أيا كان ويقول آخر : لم يوجد أحد يؤمن بالله ، ويخفد النفس غير الإله والحق ومن هنا كانت محاولة للماسونية الخطيرة التي نفذتها في التعليم الغربى وهي نفي اسم الله من كتب التعليم في المدارس للتوسطة .

(الخامس عشر) القول بأن المادة إنما تترقى من تلقاء نفسها بكرور الدهور إلى أن يتمخض جامداً فيه النبات ويتحول النبات إلى حيوان ، وينسل الحيوان ، إنساناً مهجياً ذا عقل ضئيف ، والهدف من هذا هو إقناع أتباعهم بأنه لا شيء يلزمهم من الفرائض والواجبات ، نحو العمران البشري وأنه ليس هناك شرائع وأعاليم مفروضة على جميع البشر .

السادس عشر : إعلان حرية العقل ضد السلطة الدينية ، واستقلال الإنسان ضد استبداد رجال الدين واستقلال المدارس الحرة المجردة من تعاليم الدين . ويعلمون أن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحي ويرون أن من حرية البحث انتقاد عقائد الدين (السامع عشر) تأليه المال أو عبادة واستعمال كل الوسائل في سبيل الحصول عليه كالرشوة ، والكذب والعنف والافتتاهة (الثامن عشر) احتقار كل الشعوب ، وكل الأديان ، ووصف الشعوب بالامية . (يقول التلود) إن الاميين هم الخير الذين خلفهم الله ليركبهم شعبه المختار (التاسع عشر) إشاعة الأدب المكشوف الإباحي يقول « البروتوكول ١٣ » ، سننشر بين الشعوب أدباً مريضاً قدراً تفتي له النفوس ، ويساعد على هدم الأسرة ، وتدمير المقومات الأخلاقية للمجتمعات المعادية لنا ، وسنستمر في الترويج لهذا الأدب وتشجيعه . من هذا الأدب المريض القذر تنطلق الدعوة إلى الإباحة المطلقة لهدم الأسرة ، وتدمير الأخلاق في المجتمع .

(العشرون) تحطيم المعتقدات الإسلامية والمسيحية وسحق القيم الروحية والمعنوية ، وإثارة الفكوك حول المعتقدات ، وطرح فلسفات الشك (الحادي والعشرون) الدعوة إلى العالمية وتذويب القوميات والعصبيات الدينية والعنصرية والوطنية . ومن هنا كان تركيزهم على نبذ التعصب القومي الديني واعتبار الإنسان مواطناً في العالم كله وخلق أسباب الصراع بين الدين والقومية وإيجاد التناقضات بين الإسلام والعروبة وطرح فلسفة الاجناس والناصر والدعاء والافليات .

(الثاني والعشرون) تمجيد الغريزة ، وإطاعة غمط الوثنية الإغريقية والدعوة إلى إطلاق غنات الشهوات البشرية ، والترخيص للرجل والمرأة أن يفعلوا ما يشاءان من التهنك الجنسي وعشق الذكور وتكثيف هذه الصفحة موضع كتابات فرويد ، وقصة توماس مان « الموت في البندقية » ، تقول البروتوكولات : لتوصل إلى حكم العالم يجب أن يقوم بتكنيد النقائص ، والشهوات ، ونشويه الشرائع المصطلح عليها بحيث يضع الجميع ويقتبلون بهذا الخواء .

(الثالث والعشرون) السيطرة على الصحافة ، والمسرح ، والعلم ، تقول البروتوكولات : الصحافة والمدرج . والمعارضة والشرعية كل ذلك يجب أن يكون تحت تصرف من في قبضتهم كل ذمب الارض وهي أقوى سلاح لإثارة الرأي العام ، وإفساد أخلاق القبية ، وانهييج حمري إلى الرذيلة للاشاة كل جيل إلى التهناب المسيحي ، لنشبيد عبادة المال والمادة والهمرة الملكية للملاذ - يقول البروتوكول :

يجب أن تفكر الصحافة تأفة كاذبة بعيدة عن الحق ، إنها تعمل التحريض ، وإثارة المشاعر التي نحن في حاجة إليها من أجل أهدافنا . (الرابع والعشرون) خلق دائرة مغلفة متكاملة من مناهج التفكير والعمل والحياة ، يحول بين البشر وبين التخطيط لأنفسهم - تقول المخططات : لقد فقد الحوار مادة التفكير خارجاً عن آرائنا العلمية . ويقول : يجب علينا أن نقوض أركان كل إيمان .. ونزع من عقل الحوار الاعتقاد بالله وبالنفس وذلك بشغلهم بقوانين رياضية وضروريات مادية .

(الخامس والعشرون) نصر الرذائل والخرف - تقول البروتوكولات : يفقد الحوار رشدهم يتناولهم المفروقات السكولوجية وتسهل شبيبتهم إلى الجنون تفرض ما تلقفت من المبادئ المدرسية وبأنها كلها بالرذائل التي تسرب إليها من عمالنا ووظفينا كالمهملين والخدم والمحاضرات وينوع أخص من لساننا اللواتي يترددن إلى علات الملامح عند الحوار وأني أعني هؤلاء الأخوات بنات الهوى اللواتي يتواحن على الرذيلة والفسادة .

(السادس والعشرون) الغش من قدرة العلماء والمتخصصين في العقائد والأديان - يقول البروتوكولات : وقد علينا عناية كبيرة بالحط من كرامه رجال الدين عند الأميين في أعين الناس وبذلك نجعلنا في الإضرار برسالتهم التي يمكن أن تكون عقبة كئودا في طريقنا وأن نفوذ رجال الدين ليتضاءل برطافيوماً .

(السابع والعشرون) الدعوة إلى الإلحاد من طريق حرية العقيدة - يقول البروتوكولات : لقد خدعنا الجيل الناشئ . وجعلناه فاسداً متعفنأ بما علمناه من مبادئ ونظريات يجب أن تحطم كل إيمان وتكون النتيجة المألوفة لهذا هي إثمار ملحد يجب أن نكسح كل الأديان والعقائد الأخرى ويقول إن لفظ الحرية يجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى بل مع قوة الله نفسها .

(الثامن والعشرون) الدعوة إلى الانحلال - تقول البروتوكولات : علينا أن نشجع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية فيعم الفساد والكفر ، ونضعف الروابط المنيمة التي تعتبر أهم مقومات الشعوب فيسهل علينا السيطرة عليها ، وتوجيهها كما نريد .

الفصل الثالث

دعوة العنصرية

كانت الدعوة إلى العنصرية على النحو الذي استطارت به في التاريخ الحديث من أبرز الأعمال التي قصد بها إل تحطيم الوحدة الفكرية التي تقيمها العقائد والأديان، والمعامل النفسية والروحية التي تجمع بين بني البشر، ولذلك فقد بدت منذ اليوم الأول لها في صورة استعلاء الدم والعرق ومن وراءه استعلاء الجنس الأبيض على الأجناس الملونة. ثم جرت من خلال ذلك الدعوة إلى إخمارة الأساطير التي تحاول أن تفرج نيراناً خاصاً للإسرائيليين، وتفوقاً خاصاً يحاول أن يشكل دعوة إلى السيطرة العالمية على النحو الذي تكشف عنه بروتوكولات صهيون من عذاب الحريم أو الأميين الذين هم في نظر اليهود (العالم كله).

ولقد كانت عظماء التلويح من وراء دعوة العنصرية في مختلف صورها. وقد أحرز اليهود كل ما كسبته هذه الدعوة من آثار ونتائج، ففضلاً عن أن هذه الدعوة قد أطلقت للعنصرية الصهيونية التي تحاول أن تستعمل بامتياز خاص على البشرية كلها. فإنها قد أقامت صراعاً لما ينتهي بعد بين الأجناس السامية. والآرية - وبين أجناس أوروبا ذاتها. وخلقت قضية كبرى كتب فيها الباحثون عشرات الآلاف من الصفحات، ومئات من المكاتيب دون أن يصلوا إلى شيء نهائي. وكانت هذه الدعوة قد بلغت ذروتها فترة ما بين الحربين. حين اعتنقت الدول الألمانية عقيدة الاستعلاء العنصري ونشأت عنها الفلسفة النازية. ولقد اندمجت من الدعوة العنصرية مذاهب عديدة: منها الدعوة القومية. والنزعة الإقليمية، والفكرة اللاسامية. وظهرت علوم متخصصة في مقدمتها علم الأجناس البشرية والاثنولوجيا، أو الإثنولوجيا الجديدة. وهو علم تولى السيطرة عليه موجهون يستمدون منه إبقاء نيران الخصومات والأحقاد بين الأمم وإيقاعها في الحروب والصراخ. وقد استغل الاستعمار نتائج هذه الدراسات في دعم مركزه وتبرير وجوده في المناطق المحتلة. وفي ضوء هذه الدراسات تسكفت مخططات التفرقة العنصرية، والتمييز العنصري الذي تحمل لواءه الدول المستعمرة في محاولة للتفكيك في وحدة الجنس البشري، وتعميق التمييز بين الأجناس، وإقامته على أساس فوارق طبيعية تعطى بعض الأجناس مكان السيادة والسيطرة، وتعطى أجناساً أخرى مكان التبعية - ولا ريب أن نظرية التفرق العنصري باطلة أصلاً، وأن جميع الأبحاث والدراسات التي قام بها العلماء المنصفون، قد دحضت مثل هذه الدعوى وأبطالتها، وأبانت أن فوارق الهياكل، ولون البشرة وفصائل الدم لا قيمة لها في تركيب الإنسان عقلياً ونفسياً. ومن المعروف أن الاستعمار لم يحقق ما ادعاه من رسالة في رفعة الشعوب وتقدمها، بل على العكس من ذلك عمد إلى تهديم مبادئ هذه الشعوب، وأثار فيها البلبلة بطرحه خبرات من النظريات والمذاهب المدمرة.

(٢) ولا ريب أن فكرة التفوق العنصرى التى رفعتها لواءها الحضارة الغربية فى العصر الحديث هى فكرة قديمة ظهرت قبل الإسلام ، وحلت لواءها الحضارة اليونانية الرومانية . ثم جاء الإسلام بدحضها ومعارضتها . فقد كانت نظرية التفوق العنصرى والسيادة هى أبرز سمات الحضارة اليونانية الرومانية ، إذ قام المجتمع الإغريق . ثم المجتمع الرومانى على نظام طبقى : قوامه طبقة الأحرار وهم السادة . وطبقة العبيد الذين يملكون ويكسحون . وقد كانوا ينظرون إلى كل الأجناس المخالفة على أنهم من البرابرة ، ونفس النظرة كانت فى مجتمع مصر القديمة ومجتمع الفرس ، وهى المجتمعات الكبرى الثلاثة التى سبقت الإسلام . ولقد ذكر يهودوت أن الفرس كانوا يرون أنفسهم أعلى مرتبة من بقية البشر . ولقد برز فلاسفة الإغريق هذا النظام العبودى ، وأقره أكبر فلاسفتهم : أرسطو وأفلاطون . أما أرسطو فقد برز طموح الإغريق لسيادة العالم . فنادى بنظرية أكد فيها أن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة ، وأخرى تولد لئلى تكون عبيداً .

أما أفلاطون فقد أقام جمهوريته على أساس سيادة السادة وعبودية العبيد ، ولقد كشفت الأبحاث العلمية والدراسات التاريخية أن واحداً من أبرز عوامل سقوط الامبراطورية الرومانية ، إنما يرجع أساساً إلى هذه النزعة العنصرية ، فقد بلغ تعدد العبيد أو الرقيق فى الامبراطورية الرومانية نحواً من خمسين مليوناً . ويقول الدكتور إبراهيم على طرخان : إن الامبراطورية الرومانية عرفت بدولة العبيد الأدلاء . بصرف النظر عن الأرقام ، ولا سيما أن من المؤرخين من قدر عدد الأحرار من المواطنين بنحو عشرة آلاف أو عشرين ألف مواطن ، وسرى فى عرف الرومان أن المواطن الحر العادى هو الذى يمتلك بين خمسة وعشرة آلاف عبد . ويقال إن أحد المحررين - أى كان عبداً ثم أعنت - مات زمن الامبراطور أغسطس من ١١٦ عبد ، لذا فإن الرومانى الذى لم تزد ملكيته للعبيد من ٢٠٠ عبد كان يعتبر دون للألف .

ولقد كان لهذا النظام العبودى أثره البالغ فى القضاء على الطبقة الوسطى عماد كل تقدم وتطور . كذلك كان له أثره فى إضعاف الدفاع عن الامبراطورية الرومانية خلال الأزمات الكثيرة التى تعرضت لها . مثال ذلك أنه عندما جاء الأريك القوطى وهدد إيطاليا فى مطلع القرن الخامس الميلادى هرب الرقيق من استبداد سادتهم ، وأقبلوا جماعات على معسكر الأريك ، إذا كانوا يتعاملون إلى منفذ من الخارج ، وتجمع لدى الأريك نحو ٤٠ ألف عبد خلال فترة قليلة ، وقد أدوا له أعظم الخدمات فى تربيته بالطرق والمساكن ، وإرشاده إلى مواطن الغنيمة ولا سيما فى غزوة الأخيرة . واقتحامه مدينة روما عام ٤١٠ م . ويقول الدكتور طرخان : أما الطبقة الوسطى ، وهى عماد الإدارة ومجالس الولايات ، بل عصب الحياة فى الامبراطورية الرومانية . فقد كان إضعافها وتدميرها من بين الأسباب الكبرى فى سقوط الامبراطورية . ويبدو أثر هذه التجربة التى مرت بها الامبراطورية الرومانية من العبودية والتى مرت بها امبراطوريات الفرس والمراغة ، واضحة وضوحاً قوياً فى مرجع القرآن ، ودعوة الإسلام إلى محاربة النظام العبودى ، ووضع النظام الأمثل للتعايش الكريم بين الأجناس فقد دعا الإسلام إلى القضاء على مفهوم التفرقة العنصرية كلية ، وأقام نظاماً لتصفية الرقي .

كما دعا إلى الوحدة البشرية بين مختلف الأجناس وكشف بوضوح عن أن بني الإنسان جميعاً من أصل واحد - وأن الفوارق بينهم لا تنصل بالون ، أو العنصر أو الوطن وإنما تتمثل في التفاضل وقد طرح مفهوم الإسلام أمام البشرية اتجاهاً جديداً قضي على مجتمعات العبودية . وفتح الطريق أمام الأخوة الإنسانية ورسم أروع صورة لمفاهيمه في مجال التطبيق - فهو أن نزعات الأيدلوجية التلودية القائمة أساساً على العنصرية والتي حلت لواء الدعوة إلى جنس محدد ، وشعب مختار لم تلبث أن عاودت دهوتها من جديد بأسلوب جديد فتفشيت في الحضارة الغربية والفكر الغربي هذه المذاهب من أجل تحقيق غايات بعيدة المدى أهمها (١) تركيز النفوذ الاستعماري في العالم وهو نظام يقوم على الأسس الربوية والرأسمالية وسيادة القروض والمغامرات الاقتصادية (٢) إثارة الصراع بين الأجناس بين آرية وسامية ، وبين الألوان وإيقاع التضارب بينها (٣) إلهاء الدعوة العنصرية التي تقوم عليها الصهيونية وتحاول أن تفرض نفسها بالاستيطان في فلسطين ولهذا فقد كانت المخططات التلودية من وراء هذه الحركة الضخمة التي سيطرت على أوروبا ثم انتقلت منها إلى العالم كله تحت أسماء متعددة ، منها العنصرية والأجناس والقوميات والأقليات والإقليمية وغيرها .

(٤) لا ريب أن الأديان السماوية المذلة قد طرحت مفهوماً أساسياً لوحدة البشرية وللإنهاء الإنساني وهو من الأصول التي حملتها رسالة موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل غير أن اليهود لم يلبثوا أنه غيروا المنهج الاصيل الذي جاءت به التوراة وتبنوا فكرة الاستعلاء العنصري المتميز باسم الشعب المختار وضحوا من أجل إقرار هذه الفكرة أبرز مفاهيم الدين المنزل فأقاموا عنصرية خاصة لما طابع الاستقلال والتميز عن المجتمعات العامة وقد حملت هذه العنصرية فكرة الامتياز والاستعلاء لنفسهم كما حملت فكرة الاحتقار والانتقاص لبني البشر جميعاً حتى أنهم أطلقوا عليهم اسم « الجويم » أو الأميين - ثم جاءت تعاليم السيد المسيح . ومن أبرز مفاهيمها تحطيم العنصرية ، والعودة إلى المفهوم الرباني الاصيل القائم على وحدة البشرية ووحدة الدين .

وقد جاءت عنصرية الحضارة اليونانية والرومانية نتجة لمفاهيم التلود التي فرضت نفسها على المجتمعات بإقامة عنصرية طاحية فهو أن أوروبا بعد المسيحية لم تلبث أن اعتنقت الدعوة العنصرية وذهبت في ذلك إلى أبعد مدى وبشير توماس في كتابه عن الأجناس إلى هذه الظاهرة التي تبدو واضحة في العهد القديم فيقول : « في العهد القديم نجد اعتقاداً بأن الاختلافات الجسدية والعقلية بين الأفراد وبين الجماعات على السواء هي اختلافات ترجع إلى المولد وأنها اختلافات موروثية لا تتغير وبقتل سفر التكوين على عبارات تقوض وجود هذه الاختلافات ، وانحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها مثال ذلك « ملعون كنعان : عبد العبيد يسكون لإخوته ، هذا إلى جانب أن نوعاً من التفوق قد تضمنه ذلك كيد بأن يهود قد عقد هدفاً مع إبراهيم ونسبه . »

ومن هنا نفهم أن نظرية التفوق المنسوب إلى الجنس أو العنصر هي واحدة من النظريات التي

ركزت عليها الأيدولوجية النوردية ودفعها المطامع الاستعمارية لتواجه النظرية الأصلية - نظرية وحدة الجنس البشري - وإن كانت نظرية السلالات البيضاء وتفوقها التي وقع باسمها الاستعمار على السلالات الملونة محاولة خداعه لتبرير حقوق جديدة في الغزو والسيطرة والسيادة يخصون بها الجنس الأبيض .

ومن هذا أن الحضارة الغربية المرتبطة بالاستعمار قد اتخذت نفس الأسلوب الذي سبقت به الحضارة اليونانية الرومانية ، واتجه كتابها وسادتها إلى تبرير العبودية والرق على أساس نظرية أرسطو . ولا يمنع هذا من القول بأن عدداً من المفكرين قد كشفوا عن فساد هذه النظريات . ودافعوا عن وحدة البشرية وتسوي شعوب العالم في الموروثات الطبيعية غير أن رجال الفكر النلودي كانوا من وراء سيطرة فكرة تسوي الأجناس ومناهضة وحدة الجنس البشري كلها . كشف ريف هذه النظريات . وكذلك فقد كانوا حريصين على أن يؤججوا هذه الحرب كلها خدعت ويشيروا هذه الدعوة من جديد وقد استطاع هؤلاء الباحثون المصنفون من أمثال دي لاس كازاس وجوان كومتش القول بأنه ليس ثمة أساس علمي على الإطلاق لتصنيف الأجناس تصنيفاً قائماً على أساس الرق النسبي وأن التمييز الجنسي وخرافات وأساطيره ليست إلا وسائل لإيجاد كبش فداء حين تهدد الأخطار مركز بعض الأفراد أو تماسك بعض الجماعات وجملة القول أن اليهود والإغريق هما أول دعاة العنصرية - فاليهود يعتبرون أنفسهم شعباً مختاراً والإغريق كانوا يقولون : روما سادة وما حولها عبيد . وقد جرت الحضارة الغربية على هذه المفاهيم .

(٤) استخدمت العنصرية في مجال الاستعمار استعمالاً خطيراً فقد حيل بها بين العرب والمسلمين أولاً باسم الأجناس ثم بين العرب وبعضهم باسم الإقليمية والوطنية ولا ريب أن هذه المرة التي أحدثتها موجة السلالات والجماعات قد أشاعت الاضطراب في العلاقة بين العروبة والإسلام - فقد طرحت نظرية العنصرية في العالم الإسلامي من أجل : فك الرابطة وحل العروة - وكان لأساليب التعليم والأنظمة السياسية أثرها في إغلاء الإقليمية والقومية الضيقة فقد وضعت الوطنية المجردة والإقليمية الضيقة في مواجهة الوحدة فكانت عاملاً هاماً في تمزيق الحزام الرابط .

وقد برزت في خلال ذلك دعوات عنصرية وإقليمية متعددة منها الفينيقية في لبنان ، والأشورية والسكندانية في العراق ، والفرعونية في مصر والبربرية في المغرب والونجية في إفريقيا فبعد أن الدعوة العنصرية في العالم الإسلامي لم تستطع أن تحقق تقدماً كبيراً ذلك لأنها كانت تواجه مفهوم الإسلام في الأخوة الإنسانية ، ووحدة الجنس البشري .

ومفهوم العنصرية في مجال العالم الإسلامي هو العودة التاريخية إلى ما قبل الإسلام ، ونحن نعرف أثر الدعوة العنصرية في تمزيق الدولة العثمانية .

ويؤكد أرنولد توينبي : إن إطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين أحد ظامرة من أعظم المذخوات الأخلاقية في الإسلام وفي العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضية الإسلامية ، ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن العمور بالعنصرية لم يمكن قاعدة عامة . بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة فإن من سمات الحالة الحاضرة أن يكون هذا العمور بارزاً بشدة لدى الشعوب القريبة التي استطاعت أن تقتطع لنفسها ، ولو مؤقتاً على الأقل حصنة الأسد من ميرات الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في لقرون الأربعة الأخيرة إن دعاة المنصب العنصري في تزايد . وإذا قدر لمركزهم هذه أن تظنى ، فإن ذلك سيؤدي إل وقوع كائنة عامة والمقول أن تكون روح الإسلام هي ملك القوة المدخرة التي تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام .

(٥) جاء الإسلام محدداً قاطعاً في أمر العنصرية . فأكد وحدة الجنس البشري ، وحرم التفاضل بالنسب وأكد هذا المعنى رسول الإسلام (محمد صلى الله عليه وسلم) في عبارة قاطعة : إن الله يحب منكم نخوة الجامعة وغرها بالأبناء . كما أكد من زاب . ليس لمربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ولقد قامت الأمة الإسلامية ، على نظام بدليل لنظام القبلية ، فقد أهلى رابطة الذكر والمقيدة والوحدة القرآنية الجامعة . وقام التجمع الإسلامي على عناصر مختلفة : الفارسي ، والرومي والحبيشي والعربي ، أمة واحدة من دون الناس . . وحسبف الرسول عن العروة الوثقى الجامعة ، ليست العربية لأحدكم باب . أو أم . إنما العربية القسان . فأما مسلم تكلم العربية فهو عربي وقد نقي الإسلام العنصرية نقياً صريحاً ، وأقر كفاية العربي للأعجمي لم يدع نسبة علم أو فضل إلى مصادره في الألساب ، بل جعلها مرتبطة بوحدة الفكر ولم يعرف الإسلام ما يتردد الآن من قول ، بأن الفارابي تركى والغزالي فارسي ، فذلك بما لا يقره مفهوم الإسلام لوحدة الأجناس والرابطة الإسلامية الجامعة التي ألقت فوارق الدماء والعروق ، وتشكلت منذ اليوم الأول على مفاهيم الإسلام نفسه ، ومن خلال أبداً لوجيته الصريحة . فالؤمنون إخوة ، ومن خرج عن الإيمان فهو ليس من أمالك .

وقد تصاهر المسلمون في الأفطار المفتوحة ، واختلطوا بأهلها ، وامتزجوا بهم امتزجاً كلياً . فتفككت وحدة تامة ، وقد أكد القرآن وحدة الإنسانية . وأكد أنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل ، والإسلام لا يعرف أى تفرقة بين الناس بسبب أجناسهم وألوانهم وأنسابهم وإذا كان هذا موقف الإسلام من العنصرية ، فما هي النتائج التاريخية لمفهوم الإسلام .

يقول الأستاذ عبد الحميد العبادي : لا ريب أن تقارب الأجناس الإسلامية وتداخلها بالزواج المختلط أو التوليد ، واختلاط العناصر العربية بالفارسيات ، والروميات ، والصقليات ، والصينييات ، والهنديات ، قد نشأ منه جيل جديد من المولدين ، يحوى عن طريق الوراثة خصائص الأجناس المختلفة التي وادته من جسمانية وهذلية . وأصبحت الدولة الإسلامية وكأنها وطن لأمة واحدة .

لا لشعوب مختلفة ، الدين دين واحد ، وتتكلم لغة واحدة . ولا ريب أن هذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية التي شملت كل نواحي التفكير الإنساني من فقه وحديث ، ولغة وأدب وفلسفه وطب ورياضيات وتاريخ وجغرافيا . وهي إحدى النهضة العلمية الكبرى الممدودة في تاريخ الحضارة على الإطلاق . وإنما صارت الحضارة والعلوم الإسلامية إلى هذا المستوى الرفيع بتلك الوحدة التي شملتها الشعوب الإسلامية ، وإخلاص العناصر غير العربية للدين الإسلامي واللغة العربية ، ولا سيما بالنسبة للعقائد التي كانوا ينتحلونها من قبل وصابئة ومجوسه وهندية وغير ذلك ، كما جرتهم الثانية بفزارة مادتها وروحه أديها ، وأنها قبل كل شيء ، لغة القرآن الكريم ، والسنة المطهرة . وقد جرم في النهاية هذا الإحجاب بالدين الإسلامي واللغة العربية إلى الإحجاب بالعرب أنفسهم ، فهم الذين حملوا إليهم هذين المصدرين لأهظم مادة تمدني قلوبهم وأذهانهم ، فتفترت الحال عما كانت عليه من قبل ، فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية ضيقة متحيزة للعرب على غير العرب ، ولا كراهية من الموالى لنفوذ العرب السياسي بل لقد جر هذا الإحجاب كثيرا من الموالى والأعاجم إلى إلتحال النسب العربي تشرفاً به وتعظيماً بل إن بعض الشعوب غير العربية . أخذت تمد أصولها إلى العرب كما قيل في البربر إذ نسبهم إلى قبلى هيلان .

(٦) ولقد وجدت نظرية العنصرية من يكشف عن زيفها ، ويدفع خطأها وينبه إلى أهدافها الهدامة . وإلى من وراها من قوى وغايات بعيدة المدى فقد تأكد أنه لا يمكن القول بأنه توجد سلالات بشرية نقية وميت أن سكان أوروبا متعددو الأصول ، لدرجة أن محاولة تصنيفهم مستحيلة استحالة تامة .

وأكد العلماء أن المهاجر ، الوهمى ، بين الرجل الأبيض ، والرجل غير الأبيض لا يستند إلى أساس علمي . كما ثبت خطأ دراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق أحجام الرؤوس والجمجم والألوان وفصائل الدم ، وشكل الشعر وتبين أن القول بأن اختلاط الأجناس يهدد الإنسانية بالتدهور والتدهور وهو الدعوى التي يذهبها أصحاب الاستعلاء العنصرى - لا تستند إلى أقل دليل علمي ، فإن عملية الاختلاط بين الأجناس عملية مستمرة منذ بداية الحياة البشرية على سطح الكرة الأرضية ، وعمليات الهجرة قديمة قدم السلالة البشرية ولا ريب أن الهجرة تعمل على اختلاط الجماعات اختلاطاً طبيعياً . ذلك أن التزاوج والاختلاط والانتشار عوامل ساهمت في تعظيم المودة بين الأجناس ، وإيجاد جماعات موهبة أو جماعات وسطى تحمل صفات سلالتين أو أكثر وقد أعلن الباحثون المنصفون ، أن فكرة التفقاء الجنسي التي تحدث عنها بعض العنصريين الأوروبيين في أعقاب الحرب العالمية الثانية أصبح قبولها أمراً صعباً لأن الاختلاط والزواج لم يمكن من وجود جماعة تحمل دماء نقية غير مختلطة وأنضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة كما أكد الباحثون أن الفروق العقلية والنفسية ، ما هي إلا نتيجة لطروف بيئة ، وقد تأتى نتيجة أن أفراد جماعة من الجماعات ، قد سئمت لها فرصة التعلم عن طريق الاحتكاك الحضارى أو استغلال المواد الطبيعية . وقد تبين أخيراً أن فكرة الأجناس تقوم على أهواء وهراطيف دماء النيز والاستعلاء الفردي ولقد ذهب

دعاة الذنصرية مذاهب شتى في محاولة التفريق بين المستوى العقلي للاجناس .

غير أن التجارب التي أجريت على طلبة المدارس بالولايات المتحدة أثبتت أن المستوى العقلي للاميلد زنوج الولايات المتحدة يفوق مستوى نظائهم في الولايات الجنوبية . وقد تأكد أن المسألة ليست مسألة جنس ، بل مسألة بيئة وفرص مختلفة ومستوى ثقافي وقد تأكد خطأ القول بأن الوراثة البيولوجية هي الفاصل الوحيد المهم ، بل هناك الوراثة العقلية ، ولا ريب أن الفاشلين في الحياة من العناصر المنحطة في كل شعب وجنس كما كشفت الأبحاث عن أنه ليس هناك ارتباط بين حضارة معينة . والتكوين الجنسي لسلافة من السلالات وأنه ليس هناك ارتباط بين ما يسمى بالسلافة الآرية أو الجنس النوردي وبين الحضارات الغربية كما تأكد كذب الدهوى التي تقول بأن الجرمان هم صانعو الحضارة .

فالحضارات القديمة التي ازدهرت في حوض البحر المتوسط في حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد . تمت في بلاد تميز سكانها بالاغتلاط . لا بالنقاء الجنسي . وذلك بالإضافة إلى أن الشعوب تختلف في تطورها الحضاري باختلاف السلافة والدماء وأن الحضارة في الوقت الحاضر ليست قاصرة المجموعة البيضاء . فقد دخلتها اليابان والصين وكل هذا يؤكد أمرين : (الأول) أنه ليس هناك صلاحية لجنس ما لقيام بأنواع معينة من الاعمال والحرف . (الثاني) أن جميع الأفراد في إمكانهم القيام بنفس العمل إذا سمحت لهم فرص متكافئة في التعليم والحرمان .

وهناك دهوى ترددها الصهيونية العالمية عن تقاوة السلافة اليهودية ودعاتها بما يؤدي إلى القول بأن الجنس اليهودي يمثل جنساً متميزاً عن بقية السلالات .

والواقع التاريخي . والدراسات الانثروولوجية ، تؤكد أن اليهود لم يستقروا في أي مكان على نحو يمكنهم من أن يكونوا أمة فضلاً عن أنهم في القديم تزاوجوا واختلطوا بهم من الشعوب التي تسكن آسيا الغربية ، مثل السكثانيين والعرب ، والحبشيين وهناك أعداد كبيرة تعيش في مناطق متفرقة من آسيا ، وفي منطقة القوقاز وموريا ، والعراق ، واليمن ، وسمرقند ، وبخارى ، وإيران ، وأن هذه المجموعات قد اختلطت بغيرها .

يقول العلامة سالمان : إن تقاوة السلافة لليهودية ، ما هي إلا أوهم فإن أكثر التفهات والاختلافات بين السلالات توجد بين اليهود .

ويقول فيغبرج : إن مزاعم اليهود وادعائهم عن نقاوة سلاتهم حيث مجرد عن كل أساس واليهود الذين هاجروا من موطنهم الأصلي . كانوا عبارة عن خليط من السلالات وتفاوتت درجة الاختلاط حسب تاريخ الهجرة وفي أوروبا اختلط اليهود بالمسيحية اختلاطاً كبيراً . لفت نظر الكنيسة

بعدة ، فصدرت قوانين متعددة ، وعلى فترات متوالية ، تحرم على المسيحيين الأرثوذكس الزواج من اليهود .

وهناك قوانين يهودوسيس الثاني الصادرة في القرن السادس الميلادي ، وقوانين مجلس أورليان ٥٢٨ ميلادية . والقوانين الكنسية التي أصدرتها ساطات الكنيسة في توليدوا (طليطلة) عام ٨٨٧ وقوانين روما ٧٤٢ ميلادية .

ولا ريب أن توالي صدور هذه القوانين وتعددتها . يؤكد كثرة الزواج بين المسيحية واليهود . ولقد عهد اليهود إلى الدخول في الأديان الأخرى . والتسفر خلفها ورغبة في العمل على تدميرها من الداخل وتحقيق غايات أخرى . ويؤكد تصنيف اليهود في العالم أن أكبر نسبة من اليهود في العالم هم يهود بالديانة فقط . وأن هناك يهود من سلالات يهودية مختلطة من عدة عناصر آسيوية . وأوربية أما بقايا سلالة المهاجرين القدماء ، فهم نسبة قليلة جداً . وأبرز ما نلاحظه من جماعات اليهود الآن هي جماعات الخزر التي اعتنقت اليهودية عام ٧٤٠ ميلادية ، وهي ليست يهودية بالجنس . وإنما دخلت اليهودية على أثر اعتناق ملك الخزر بولان لها ، والأعداد الكبيرة لليهود في بولندا وجنوب روسيا تنتمي إلى سلالة الخزر هذه .

الفصل الخامس

المادية

لم تقتصر النظرية للمادية على أن تكون فرضاً من فروض العالم قابلاً للخطأ مع توالي البحث وانكشاف حقائق أخرى أمام العلماء في المعامل على النحو الذي حدث من بعد . ولكن النظرية لم تلبث أن نقلت إلى مجال الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، على أنها حقيقة ثابتة . وأقيمت على ظنيتها أبنية وقواعد وانظم استهدفت معارضة القيم الأساسية للأمم والمجتمعات ، هذه القيم الخادمة من جوهر الأديان ، وحقائق الوحي ، والتي تتفق مع الفطرة والعقل . ومن ثم طرح على البشرية منهج معارضة كل المعارض لطبائع الأشياء ، وظواهر الكون ، ولكل الحقائق والمعطيات التي كتبها الإنسانية في بحثها الطويل عن الله ، وعن حقائق الكون ، وانظم الحياة .

كانت الأديان المنزلة قد أمدت الإنسان بحقيقة الكون والوجود ، هذه الحقائق التي لم تكن البشرية القديسة أن تهمل إليها من طريق العقل والبحث . مما جاهدت في سبيل ذلك . لأنها تتصل بعالم الغيب الخفية عن طريق التجربة والحس ، والتي يهجر العقل وحده عن البحث عنها . فبعد أن الإنسان بطبيعته المتطلعة إلى البحث وراء المادة ، وجرى وراء مطامعه وأهوائه واعتاداً على العقل أراد أن يستكشف هذا الطريق الخطر ، دون أن يحصل على الأدوات التي تعينه على مفاق البحث ، فلم يستطع أن يصل إلى الحقيقة ، وقصر به البحث إلى « فرضية » تقول أن هذا الكون مادي ، لا صانع له ، وأنه وجد صدفة ، وأنه تمتد بدون نهاية ، وأن الموت هو نهاية كل شيء . هذا هو النتائج التي أمكن أن يصل إليه العقل البشري في رحلته للكشف عن الحقيقة ، حين رفض العون عن معطيات الأديان والوحي ورسالات السماء ومن هنا جاءت النتائج معارضة تمام للمعارضة للحقائق الدينية ، منكورة لوجود الخالق ، وقاصرة عن فهم حقيقة الحياة ، وغاية الوجود ، ومهمة الإنسان في هذا الكون . ولقد أمضى الإنسان من عمر البشرية رديحاً طويلاً في هذا البحث . دون أن يهتدى إلى شيء يقربه نفسه وتمتريج له فطرته ، وكانت أخطار مراحل البحث : تلك التي وقعت قبل رسالة المسيح وبعدها فيما أطلق عليه مفاهيم العلمانية الغربية ، والغنوصية الشرقية .

اعتمدت الأولى على العقل وحده — واعتمدت الأخرى على الوجدان وحده ، وتلاقنا على نتائج مضطربة غاية الاضطراب بين شك وثباتية . وثباتية على النحو الذي سجله تاريخ الفلسفة القديمة . ولا ريب أن هذا هو جوهر الخلاف بين الناس وبين الأديان التي أنزمت لتقدم للبشرية مقدمة من

الحقائق ما نحتاج عن الوصول إليه بقدراتها الخاصة ، وكاشفة عن وظائف المعطيات التي أعطيت للإنسان من قلب ، وسمع ، وبصر ، وموجهة عملها .

ولما كانت قضية الخلق ، والكون بما تجمع هذه القوى المحدودة القدرة ذات الوظيفة الخاصة عن كشفها فإن الوحي مثلاً في الكتب المنولة على الرسل والأنبياء ، قد تكفل بإظهار هذه الحقائق وتقديمها للإنسان حتى لا يشغل بها قواه المحدودة عن وظيفتها الحقيقية ، وهي الكشف عن كنوز الأرض ، والبحار ، والجبال ، في سبيل دفع الحياة إلى طريقها من العمران ، وترقيتها وتقديمها ، وبناء الحضارة على المنهج الصحيح ، الجامع بين العلم والإيمان .

ولقد برز مذهب المادية في العصر الهليني حيث يمزى نشوء أول مذهب فلسفي مادي إلى ديمقريطس ٣٧٠ قبل الميلاد ووجد من يدعو إليه ويدافع عنه وقد كان العصر الهليني سابقاً لرسالة السيد المسيح ، وقد ظهر في بيئته لم تكن دياناتها إلا مجموعة من الأساطير والكشائر والعقوس .

يقول إميل بوتر في كتابه العلم والدين : نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، واسكنها ما أن استقلت عنه - حتى راحت تحاربه ، وتسخر منه وتذهب إلى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهة ، وكان الدين حنّداً يؤمن بالضرورة العمياء ، لجأت الفلسفة فأمنت بالعقل البشري ، وحل العقل محل الآلهة وقد ذهب اليونان في الإغلاء من شأن العقل حداً بالغ الخطر والاضطر ، حتى قالوا بسلطان العقل ، وفي مجال هذا الاتجاه ظهرت مذاهب الإباحة ، ومفاهيم الحس ، وإنكار البعث بعد الموت والدينونة وأندفعوا وراء الترف والشهوات والرذيلة وقالوا إن العالم كله من محل الصدفة ، وإن اللذة هي الغاية من الحياة وقال هيدم سقراط : إن العقل هو السبيل للمعرفة وليس الحس ، ومن أخطائهم قولهم بأن المادة أزلية ، وأن الكون غير متناه .

ولقد جاء الإسلام فكشف عن وجه الحق في هذه القضية ، وحدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديداً خاصاً ، وأغنى المسلم عن البحث فيها ودعاه إلى التفكير في خلق الله من الكون ، وإقامة دون البحث في ذات الله ، التي ليس من اليسر الوصول إلى حقيقتها ، وهو ما أسماه العلماء بالبحث في الخصائص دون البحث عن الماهية ، وقد أمد الإسلام المسلمين بصورة كاملة عن عالم الغيب كله ، وعن الله سبحانه وتعالى ، واليوم الآخر والجنة والنار ويوم القيامة والحساب والجزاء وحدد هذه المعالم تحديداً كاملاً وقرر في نفس الوقت قصور العقل الإنساني عن التوصل إلى شيء في هذا المجال ونهى أشد النهي عن تجاوز هذه المعالم .

ولقد استطاع المسلمون ، وقد أتاح لهم الإسلام بهذه العقيدة فرصة العمل في المجال العملي ، أن ينشئوا المنهج العلمي التجريبي ، وأن يجدوا له أساساً للمنطق الذي سنه الله لهم من العمل على الإنشاء

والعمران والتقدم ، وليس هناك اليوم ريب في هذه الحقيقة . حقيقة ما قدمه المسلمون إلى العلم والحضارة فقد شهد لهم كثير من غيرهم في مقدمتهم العلامة بريغوات في كتابه : بناء الإنسانية ، فضلاً عما أورده جوستاف اوبون في كتابه : حضارة العرب ، وما أورده الدكتور سجيريد هوكل في كتابه : شمس الله تشرق على الغرب .

(٧) وفي العصر الحديث . انتقلت حركة العلم والحضارة إلى الغرب نتيجة للاصول التي أقامها المسلمون غير أن الاتجاه لم يلبث أن انحرف عن غايته ، فأم تلبث أن استغلت مرة أخرى الزعة العقلية واستغلت مرة أخرى النظرية المادية ولسكنها كانت هذه المرة أشد بأساً وأبعد أثراً في الفكر البشري كله . ذلك أن انتقال معطيات العلم والمنهج التجريبي إلى الغرب (وهو المنهج الذي صاغته مفاهيم الحضارة الإسلامية مدفوعة بدعوة القرآن نفسه إلى النظر في السموات والأرض فهو ثمرة الدين) .

هذا الانتقال واجه بيئة مختلفة في الغرب ، لم تكن لتقبله في يسر أو تمهي لتتميته في هوانة ومن هنا نشأ ذلك النزاع التاريخي المعروف بين العلم والدين واستمر طويلاً وكانت غلبة العلم مؤذنة بإعلان الخصومة للدين والعقلية له ومواجهته بفلسفات وأيدولوجيات لتحل محله وترجمه من مكانه في النفوس والمقول . لقد قصرت مفاهيم الدين في الغرب عن معطيات العلم فأحدث هذا التفتت تلك الشقة التي دعت أفعال ديكارت إلى القول أن ميدان العلم غير ميدان الدين وأنه لا مطابقة بين العلم والدين ، ولا سلطان لأحد منهم على الآخر غير أن العلم لم يقف عند هذا الحد ، فقد أخذ يتقدم تقدماً كبيراً . وحقق من النتائج ما جمعه ينكر تنكراً تاماً لكل ما سوى العقل والحس والمشاهد . وبذلك أنكر العلم عالم الغيب والروح إنكاراً تاماً ، وحاربته حرباً عنيفة ومن ثم استعملت نظرية المادية استعلاء شديداً نتيجة أمرين :

(أولاً) نتيجة توقف رجال العلم عند ظواهر الأشياء (ثانياً) تحول نظرية دارون من مجال النظريات الطبيعية إلى مجال الفلسفة الاجتماعية فقد كان العلم في أذهان واضعيه الأوائل . يراد به تفسير الوجود وكان العلماء في أول هدمهم بالعلم يهتمون بمعرفة : لماذا ولستكم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم هبت هذه المحاولات وعمت نتائجها ، ومن هنا لم يعد العلم يفسر الأشياء ويملأها وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ويصف ويقرر .

ثم لم يلبث العلم أن اكتشف خطأ نظرية المادية التي جاءت نتيجة تصوره عن اكتناء المجهول ومعرفة ما وراء الطبيعة وسقط أكبر حجر في بناء المادية عندما اكتشفت نظرية النسبية التي قالت أن المادة تتحول إلى طاقة ، والطاقة تتحول إلى مادة يقول للعلامة : نجاييس تميز في كتابه العالم من حولنا : كان حجر الواوية في بناء علم الطبيعيات في القرن التاسع عشر هو بقاء المادة ووجودها من جهة

وبقاء الطاقة من جهة أخرى وقد بطل هذا الرأي بطلاناً تاماً وأقيم مقامه فاموس آخر هو بقاء ذاتية واحدة . هي المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المادة والطاقة دلي حدة خالدة البقاء أو متغيرة بل هما متغيران معاً من حال إلى حال لأنهما ثوب واحد للمادة تظهر شكلاً من أشكال الطاقة وبذلك تكون النظرية المادية من وجهة نظر العلم قد سقطت ، فقد تبين أن هناك قوة أخرى مجهولة وراء المادة لها أثرها الواضح وبذلك أصبح عالم الغيب داخل في نطاق العلم فغير أن ما وصل إليه العلم في مجال التجريب كان شيئاً مغتلفاً عما سمعت إليه الفلاسفة المادية وقطعت إليه مراحل كثيرة .

ذلك أن هربرت سبنسر ، وعددًا من الفلاسفة اتخذوا من نظرية دارون وسيلة إلى إبداء شأن للمادية وقطع الصلة مع كل ما يسمى بالروح ، الغيب ، ما وراء المادة ، الوحي ، البصيرة . وكانت كبرى نتائج المادية إنكار الخالق والبعث والنظر إلى الإنسان من حيث إنه كائن انطبق عليه تجارب الحيوان . وكان هذا الفصل بين المادة والروح في الإنسان والحياء هو نقطة الضعف ومنعاق الخطر وقد الأزمة التي مررتها الحضارة المعاصرة وقد غلب منهج المادية على كل أبحاث النفس والأخلاق والاجتماع وفي هذا المعنى يقول العلامة جود : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلة ولما كنا نستعملها بمقتضى الأطفال .

(٣) صور العلامة الدكتور كارل في كتابه " تحديد الإنسان " هذه الأزمة الخطيرة حين قال : فرقت الحضارة منذ اليوم الأول بين المادة والروح واعتدت على المادة حين فرق جاليليو بين خواص الأجسام الأولية كالإبعاد والوزن ، وما يمكن قياسه ، والخواص الثانوية كاللون والرائحة وما يمكن لا يقاس . لقد فرق جاليليو بين الحكم والنوع وعنى بالأول وحده ثم حصر أتباع جاليليو مهمهم في الحكم وأهملوا النوع وكان من شأن حاسمتهم في سبيل الوزن والقياس أن حولت الإنسان إلى هوالم الطبيعية والرياضة والكيمياء هذا التفكير يجب إصلاحه ليتمكن العالم من إنقاذ الحضارة لأن في الإنسان شيئاً أكبر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها وكانت أخطاء ديكرت : الأشياء المادية ، وبعد كتاباته فصلت الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق عما لا يمكن حصره وبدأ بناء الجسم بطريقة قيامه بوظائفه المختلفة في نظرم أشد ثبوتاً من الفكرة والنشوة والحزن والجمال وهذا الخطأ هو الذي حول الحضارة إلى الطريق التي أنضت إلى انتصار العلم وانحطاط الإنسان .

ذلك أن تقدم العلم في كل ما له صلة بالغذاء والرياضة قد تم على حساب النمو العقلي وهذا هو مصدر الأزمة .

(٤) إن أعظم تحول في النظرية المادية هو ذلك المفهوم الذي وجهتها إليه الفلسفة ونقلتها به من مفهوم العلم إلى مفهوم الاجتماع وهو الاتجاه الذي قصد به ضرب القيم الروحية والنفسية والدينية ومحاولة بناء نظام اجتماعي كامل على أساس المادة وقد حاولت النظرية المادية السيطرة على كل مفاهيم

فكر والحياة والمجتمع والثقافة في محاولة للقضاء على كل مقررات الأديان وخلع الإنسان من كل مقررات التوحيد والأخلاق ومن الواضح أن الأيدلوجية التلودية كانت من وراء النظرية ، تفديها تدفيعها وتنفذ من واقع الدين في الغرب وسيلتها إلى معارضته ولكن المنطوق نفسه كان قسرياً ولم يكن ليبيماً وكان متعارضاً مع الفطرة والعقل وكل المقررات التي يفكر بها الإنسان وكان أشبه بإخراج الإنسان من جلده ووجدانه - فقد حسب دعاة المادية أنه من اليسر إخراج الإنسان - أي إنسان - من نطاق الدين والإيمان بالله وبالرغم مما أكده العلم التجريبي من محدودية العقل ومن دحر العلم من معرفة جوهر الأشياء فإن دعاة المادية كانوا يحددون دعوته ويحاولون إدخال وسائل أخرى لإخفاء يقينهم ولإبراز دعوهم في صور علمية براقية .

(هـ) تمثل الطريقة المادية طابع الفكر الغربي المعاصر وهو «الانشطارية» فهي تعتقد بوجود عنصر واحد هو قوام هذا العالم وهو المادة ولا وجود لعنصر فخرها بينما يقف للفكر الإسلامي موقف الكامل ويقرب من جوهر الحياة وحقيقة الإنسان حين يجمع بين الروح والمادة ولا يب أن الاعتماد على المادة وحدها في بناء منهج حياة ومنهج معرفة من شأنه أن يواجه أخطاراً هائلة وعاذير كثيرة لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بالعمليات المضطربة والتأويلات الملتوية التي يقبلها العقل ولا تستريح لها الفطرة ومن ذلك أن الماديين يذهبون إلى اعتبار الروح مادية ، والعقل دى والنفس مادية وهكذا .

وتقف النظرية المادية موقفاً حصيماً من تمثيل الخلق ونظام الكون على نحو لا يقنع ولا يرضى ولا يفي غلة وتنكر الفلسفة المادية غائية الكون أي أنه خلق لغاية مقصودة وتنكر بدايته ونهايته كما تنكر نهاية الأخيرة والجزء ومن هذا المنطلق ظهرت فلسفات النفس والأخلاق والاجتماع التي غارت أهم الغائية البشرية ومسؤولية الإنسان في هذا الكون وما يتقبل بالبعث والجزاء في الآخرة ومن تطوع به أن أخطر مقررات المادية هو تفسيرها للنشاط الإنساني كله على أنه تابع من الجسد وأنه محال للجوانب الخلقية والروحية ومن هذا ينظر إلى مقررات المجتمع والدين والأخلاق على أنها مسائل نسبية متغيرة وأخطر ما في هذا المفهوم : هو معاملة الإنسان معاملة المادة ، الجمادة أو تطبيق مآرب الحيوان عليه ومصدر هذا هو افتراض أن الإنسان مادة وأن النفس مادة وفي هذا الاتجاه حاولت الفلسفة المادية ، أن تسخر من كل القيم والمثل العليا إذ الحقيقة الوحيدة عندها هي الحقيقة المادية التوازن الأساسية عندها هي نوازع الجسد .

ومن هنا فإن النظرية المادية إنما تستهدف أساساً - وقد ضربها العلم ضربات قاتلة وكشف عن يقينها - أن تحطم القيم التي قدمتها الأديان للأمم والبشرية وخاصة في مجال العقائد والأخلاق فهي السبيل إلى التحرر الكامل من كل قيد وإسقاط كل تكليف وضرب الحدود التي وضعتها الأديان البشرية حتى يستطيع أن يؤمن مسيرتها وخاصة الإباحة في أمور الجنس والفراش والتحرر من المسؤولية الدينية والالتزام الأخلاقي كمنطلق إلى اللذات والشهوات للمعالجة بدعوى أن الموت هو نهاية الأحياء وهذه هي الحقيقة التي أفادت الأيدلوجية التلودية لنداء البشرية وتحطيم معنويات الإنسان وعلى أساسها نشأت كل مذاهب الإلحاد والإباحة .

العقل : مكانته ومهمته

إن العقل في الاسلام مفهوماً قد يختلف من مفهومه في الفلاسفة المختلفة وأبرز عبارات هذا المفهوم أن العقل ليس مقدساً وليس له طابع الاستعلاء أو التضرع أو السيطرة على الفكر الانساني كله وإنما هو عامل هام من عوامل المعرفة ولكن هناك معه ، وتسبقه وتلحقه عوامل أخرى منها الوحي وبعبارة أخرى معه عامل القلب .

ولا ريب أن العقل والإيمان معاً هما صمام الأمن في المعرفة الانسانية وقد وصفهما الباحثون بأنهما حينان يصير بهما الانسان سبيل الهدى فإذا طمست حسنة الإيمان كان معها الحيرة وإذا طمست العدستان كان بذلك العمى فالمذاهب التي اعتمدت على العقل وحده كانت حائرة ولم تولد والمذاهب التي أنكرت العقل والإيمان ، بيأت غاية في الظلام (كالوجودية ، والفرويدية والهيغلية) . وهما سبيلان لا ينفصلان يهتدي أحدهما إلى الحياة وأمورها ويهتدي الأخرى إلى ما بعد الحياة وما وراءها فإذا وقعت المعرفة عند الحياة وحدها كانت ناقصة مبتورة لأنها لم تستكمل حلقة الاستمرار ولم تتم بها التجربة ونقيض النتيجة والمعبر وهذا هو النقص الذي يؤدي إلى الحيرة والقلق والتعرق والعمى وإن كان من شأن العقل إلا أن الإيمان هو الذي دفع إليه وهو أيضاً الذي يقوده في الطريق حتى لا يكون شراً على البشرية وبوالا .

ولقد حرص الاسلام على أن يجعل العقل في مكانه الطبيعي وفي حدوده وظيفته وعمل في تحريره من الوثنية والمفاهيم الوثائق كما حرره من الخضوع لقوى الخفية والشهوة والسحر .

وقد أكد القرآن في مجموعة أن طبيعة تكوين العقل مرتبطة بمجهود الإنسان في الأرض في سبيل التقدم والقدرة على إدراك قوانين المادة وتسخيرها وليس من مهمته الكشف عن أسرار التكوين الانساني ومن هنا كان عجزه عن ذلك بعد هذه المحاولات الطويلة ، ذلك أن سر الكون والحياة وسر الموت هو من الغيب الذي استأثر الله سبحانه به والذي قدم للبشرية فيه بياناً شافياً كافياً عن طريق الوحي ولما كان سر الروح الانساني بعيداً عن مجال الإدراك عن طريق العقل فقد شفى القرآن النفس البشرية في مطمحها وتطلعا إلى الفهم فقدم لها منهجاً كاملاً . أما العقل فلم يكن من وظيفته الأساسية أن يعرض في هذا الباب ومن هنا كان عجز البشرية عن الآن عن أن تضع لها منهج حياة أو أيولوجية نظام ونسريمة وقوانين صالحة للعمل أو بحفظة لطامح الانسان ومن ذلك أيضاً عجزها عن وضع لنفسها السكامل السكون .

يقول الأستاذ يوسف القسبي : إن العقل من خلق الله فهو يخضع له فلا يشترك معه في الألوهية وقد أودعه في الانسان لا يعينه من دون الله بل ليعرف السكون ويستكشف ما يلزمه منه ويهتدي به في

الطلمات التي ليس للدين أن يكشفها له فلهذا قل أن يحول فيها ويتأمل ويدرك ويستخرج ما جدى إليه
ما الأمور التي بينها الله في قرآنه وبسطها فعليه أن يسلم بها . ولا يشتط فيدهي أنها غير صحيحة ،
فهي من خلق الله وهو واسطة لا غاية وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ولا تستطيع أن تتجدي .
ما يقوله الله والعقل ليس إلهاً لا يحاط به وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات واسكنه ينكشف
أمام نور الله وهذا التحديد إيقاف الصراع فالعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون أو أن
يصنع مبادئ المعرفة بل الله يفعل ذلك . والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام نور العقل أضال من نور
الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه . والعقل الإسلامي يتفق
في اتجاهه وطريقه مع الأخلاق فهو الذي يدل على الخير ويهدي إليه .

أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية إلى السوء فليست من صنع العقل وإنما هي من صنع النفس
الأمارة بالسوء ولورجع الإنسان إلى عقله رجوعاً سليماً لا باهاً وليس العقل البشري ندأ الوحي ،
وهو جهاز يتلقى الوحي ويفسره وليس له قدرة على معارضة الوحي أو تقديم تفسير آخر ، والعقل
الإسلامي نور محرر من السحرة والسحر والقوى الخفية والخضوع لغير الله .

ويقول الأستاذ حسن البنا : إن قصارى ما يصل إليه - أي العقل - هو معرفة بعض المزايا
والخصائص والصفات أما الحقائق المجردة والماهيات البسيطة فلم تقع في دائرة إدراكه بعد والذي
يقوله الراسخون في العلم أنها ان تقع في إدراكه ، وأنه كلما حاول بحكم طبيعته الوصول إليها والحصول
عليها أفلتت منه وتركته بين يديه بعض خصائصها وصفاتها .

والعقل الإنساني لم يدرك بعد شيئاً من حقائق العناصر البسيطة وكلما أوغل في الجري وراء
حقيقتها انقلبت أمامه إلى مركبات تضاعف جهلها وبعد أن يكون أمامه عنصر واحد يجد في البحث
عن حقيقته يصبح أمام عنصرين أو أكثر عليه أن يبحث عن حقائقها من جديد وقل مثل ذلك في
ماهية القوى الكونية التي تبدو في الحياة واضحة كل الوضوح بآثارها مجرولة كل الجملة بحقيقتها
كالكهرباء والمغناطيسية والآنهر والجامادية إلى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والفروض والمصطلحات
التي اخترعها الفكر الإنساني والعفلاء جميعاً متفقون على أن قصور العقل عن إدراك كنه حقيقة من
الحقائق أو جهلة بها ليس معناه عدمها أو خفاؤها فهي واضحة كل الوضوح بآثارها وخصائصها . وفيه
كل الخفاء بأسرارها ودقائق ماهيتها إن الفطرة الإنسانية السليمة تهتف بالإنسان دائماً وأبداً أن يتعرف
إلى الله وكل مظاهر هذا الوجود وموجوداته بما فيها نفس الإنسان لا توجد أمام الفكر الإنساني أي
جمال إنكاره وجود الله وعظمة الله والجلالة الواضحة على الله . وإن القلب الإنساني إذا صفا وأشرق
تذوق حقيقة لذة الإيمان بالله .

وقد سأل أحد العارفين عن الأدلة التي أقنعت بالإيمان بالله فاجابهم وقال : أغنى الصباح عن المصباح
حتى احتاج النهار إلى دليل .

فقصور العقل الإنساني عن إدراك حقيقة ذات الخالق وصفاته وقصور الحواس الإنسانية

الكليّة من الوصول إلى شيء من ذلك ، ليس معناه المحدود واللاشك . وكما سلم العقل الانساني ،
والحس الانساني بما لم يدركه من هذه القرى المحيطة به فإن لواما عليه أن يسلم برب هذه القوى ، ويسلم
ونجه إليه ، وأمرنا لتسلم لرب العالمين . .

(٢) ومن جملة ما ذكره العلماء والباحثون : أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء حتى يحصره في
إثنين : الإيمان - والمساكن - فيقول : من أين قالم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان ، فالعقل
لا يستطيع أن يحكم على الله ولا على صفاته ولا على قضائه وقدره وكل حمله فيها فهم : تصور من الوحي .
الذي جاء من خارج العقل . والعقل محدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود ولا يحكم على غير المنتهى
والعقل لا يتصور الخلود والله عز وجل غير محدود فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه .

والعقل يحتل بموانه إن حاول الحكم على غير المحدود ويقع في التناقض المستحيل والعقل لا يستطيع أن
يحكم ، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية أما ما وراء المادة أي عالم الغيب (الميتافيزيقيا) فلا حكم
للعقل عليه وقد صدق علماؤنا القدامى حين فهموا العقل حق الفهم فقالوا : إن في ابن آدم عقلًا وهوة
وأن العقل هو مناط التكليف الشرعية والعقل جرم من مضمخ خلقه الله في الدماغ وجعل نوره في القلب
يعرف الحق من الباطل والخير من الشر والخير من القبيح .

(٣) قال جاك كومي إن العقل غير الممان لا بد أن يقود الانسان إلى الإلحاد وذلك لأنه بطبيعته
الخاصة لا يستطيع أن يقالج سوى الأشياء ذات الحدود وأجزاء الأشياء وهو يضع هذه الأجزاء معاً
لتكشف ما بينها من روابط ولكنه يجهل من الحصول على مادة الحقيقة الختام - إن الله الذي يمكن إثباته
بالمنطق لا يمكن أن يكون الله لأن الحصول عليه بالمعرفة عن طريق العقل يتضمن معنى سيطرة العقل
والخالق الأعظم لا يمكن أن يسيطر عليه أو يحتويه عقل - إن الحقيقة فيما وراء الطبيعة ليس سبيلها
الفكرة المنطقية بل سبيلها الإيمان .

ويقول الأستاذ عبد الهادي أبو ريدة : العقل قاصر عن إدراك الماهيات وفي هذا المجال تكون
أداة المعرفة هي الحس والروح - والقلب في القرآن أداة الفهم والنظر والوظيفة الأساسية القاب
هي للمعرفة .

(٤) ومن هنا فإن نفديس العقل واعتباره السبيل الوحيد في المعرفة والأسلوب الوحيد في البحث
ليس منهجاً إسلامياً أصيلاً - وقد ثبت في منهج البحث الحديث أن العقل البشري لا يستطيع أن يرى
الحقائق الخارجية رؤية صحيحة تامة . فهو محدود وله مجال معين لا يستطيع أن يتعداه مثله كمثل البصر
يقدر أن يرى ولكنه ، لا يرى كل شيء فالبصر يرى ولكنه لا يتجاوز حدود قدرته البصرية . ولا
يستطيع العقل أن يأخذ مكان السيادة في المعرفة إلا في المناهج المادية وحدها التي تنكر الوحي ومن
المسير أن يتحقق ما يريده الماديون من إخضاع الدين للعقل قائلين وحي سماوي والعقل أداة لرؤية
محدودة وقد جرى هذا في أوروبا من أجل معارضة العقيدة والمعرفة اللتين قدمتهما الكنيسة . ولا ريب
أن ما نراه من هذا الاضطراب الفكري العاصف الذي يحتاج البشرية البشرية وهذا الصراع بين

المذاهب دون القدرة على وضعها في إطار ضابط أو مرجع له سلطان إنما يعود إلى هذه النظرية التي طرحتها المخططات التلويديّة في القول بحكم العمل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها.

الإسلام والنظرية المادية

(١) إن موقف الإسلام من النظرية المادية واضح صريح فالإسلام منهج متكامل ، يقوم على جناحي المادة والروح ومنهج في المعرفة يقوم على أساس ترابط العقل والقلب - والإسلام يقوم على أساس إيمان راسخ بالخالق الذي خلق الإنسان والكون من العدم . والذي تدل على وجوده صمته . والذي خلق عالم الغيب ، وعالم الشهادة وأعطى الإنسان الوحي والعقل : الوحي الذي أبان عن عالم الغيب وكفى الإنسان مؤونة النظر فيه والعقل الذي فتح للإنسان آفاق النظر في معطيات الحياة .

ولقد وصفت المادة بأنها هيأه فكيف يتاح لها أن تتكون في هذا الكون البديع وتفعل في هذا الوجود العظيم على تنوع كائناته ، وتباين موجوداته بفهم ضائع ؟ إن مفهوم الإسلام للمادة أنها ليست قديمة ولا باقية خلقها الله وهي تبقى إلى أجل مسمى عنده ولا يقر الإسلام نظرية الصدفة ولا نظرية الوجود بغير غاية والعالم الذي حاول اكتشافه سر الحياة ، قد هجر عن أن يحق شيئاً واكتفى بمهمة متواضعة هي : البحث عن الظواهر - ظواهر الأشياء - ونظريات العلم هي فرضيات معرضة للتحويل والتغيير وما من نظرية قال بها العلم إلا وقد أصابها تعديل فليس في قدرة العلم أن يقول الحقيقة لأنه يوسّته له المحدودة بهجر عنها .

وقد صدق العلامة أجنست سبانية في كتابه فلسفة الدين حين قال : إن ما عرفه العلماء من العلم هو جزء محدود وهو ليس إلا هداماً بالنسبة لما مجهولوه ويقول كاسيل فلامريون : لقد هجر العلماء عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وبثأثيره الدائم المستمر ليتمكنهم تفهيم تعاقب الكائنات وإدراك سر أصول الأشياء .

والواقع أن الإلحاد لا يذهب إلى العلم أو العقل . ولكنه يذهب إلى النفوس المزيهة . وقد ارتبط ظهور الإلحاد ، وشاع نطاقه مع الاضطراب النفسي والأخلاق ولقد انتشرت نظرية المادية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ثم جاء العلم لحطم غرورها وزيفها وكشف عن أن هناك جواباً غيبية ، تدل على أن هناك عالماً آخر واعترف علماء المجاهر والمعامل صراحة بوجود الله الخالق في عشرات من الأبحاث بل مثابته غير أن الفلسفة المادية هي التي تحاول اليوم أن تحمل لواء المادية وليس العلم والفلسفة المادية مناقضة للدين معترضة عليه .

والإلحاد كما عرفه العلامة محمد فريد وجدى : هو عصيان بداهة العقل ، وبداهة العقل للمعنى بوجود قوة هياهي مصدر كل كمال ، وكل قوة في الأرض والسماء وقد جاءت نوعة الإلحاد من

الموجود ، والجوهر هو إنكار الشيء مع العلم به ولا ريبه أن ذلك هو القصور في المعرفة أساساً وهو
توجه في تقبل الحقائق ، والإلحاد وليد الغرور بنوع من العلم ، يظن صاحبه أنه قد أحاط بكل شيء
علماً ، فلما جاءتهم رسالهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، ولقد كان أصحاب الدعوات الهدامة في
كل عصر وبيئة وزمان يتخذون من الإلحاد والتفكيك والارتباب سلاحاً في مواجهة الضعف والقفلة
والقصور والقرائح النفسى الذى يحيط بالأمم حين تصرف عن قيمها وأصول فكرها ، عندئذ تستطيع
هذه المقام الضارة أن تنفذ إلى النفوس ، وتجد لها مجالاً لتمش فيهِ .

يقول جيمس خيتر ، بعد دراسة عليه استمرت خمسين عاماً : إن مشا كل العلم الكبير لا يحلماً
إلا وجود الله . ويقول : أن أوربا قد نبذت اليوم إلهها وأمنت بإله جديد هو العلم ولكن العلم
كائن متقلب فهو ينفي اليوم ما أثبتته بالأمس ويثبت غداً ما نفاه اليوم لذلك تجد عباده في فلق دائم
لا يستقرون (٢) والاسلام يرى أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة واسلحته ليس السلاح الوحيد .
ومن هنا يجه خطأ القائلين بأن العلم هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة وأن ما عداها ليس شيئاً .

كذلك يقرر الاسلام أن العلم لا بد له من إطار : هو الخلق وأن العلم إذا لم تحده أخلاقيات
ومثل يندم وبالأعلى البشرية ومن هنا فإن العلم المادى لا يمكن أن يكون منهجاً للإنسان يحل محل الدين
ولكنه جزء والجوهر لا يحتوى الشكل وهنا لا بد من ضرورة التفريق بين العلم وفلسفة العلم ، بين الحقائق
العلمية المقهورة بالاثبات في المعامل وبين النظريات المنسوجة في أسلوب على بامم الفلسفة . فالأولى
حقائق عامة بشرية كلها - أما الأخرى فهي نظريات خاصة من نتاج عقول وفي ظل تحديات عصورها
وبينائها وأمر آخر ، أهم من هذا كله هو أن المادة نفسها التى كان يرتكز عليها القانون الطبيعى . التى
استعملت في غرور ، فصنعت المذاهب المادى قد حطمت اليوم العلم نفسه لم تعد العينة الصلبة من المادة
هى أساس الطبيعة . لقد كشف لهم العلم الحديث من جانب خطير من القانون الطبيعى . وعلمهم أن
أساس الطبيعة هو الحركة وليست المادة الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك فتضفى الشكل للمادى
الأشياء . وهذه الذرات هى الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلى وهو إلهام عجيب
للإنسان المعاصر يريف هذه الثنائية التى قسمت خلق الله إلى قسمين ، وأقامت بينهما جداراً من
التباعد والصمت .

وهذا المعنى فسره العلامة موديسون : رئيس أكاديمية العلوم حين قال إن تعظيم ذرة التون التى
كانت تعد أصغر قالب في بناء السكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكواكب والنيازك طائرة ،
قد فتح مجالاً لتبدل فكرتنا في السكون والحقيقة ، تبدلاً جوهرياً . ولم يعد التناقض الميت للذرات
الجامدة يربط تصوراتنا بما هو مادى . وأن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم ، تثبت بشكل
أكيد وجود مدبر جبار ، وراء ظواهر الطبيعة ، وإن وجود الخالق يدل عليه تنظيمات لانهاية لها ،
تكون الحياة بدورها مستحيلة إن وجود الانسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاعلة لذلك . إنما هى
جزء من برنامج يتنزه باري السكون . ويقول العلامة وابن أرواح : إن الإيمان بالله بعد لازماً

لا كمال وجود الانسان ، وتعام فلسفته في الحياة - أما النظريات التي ترمى إلى تفسير السكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ السكون ثم تخرج ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى بعض المصادفة فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله ، بقصد إكمال الصورة ، ولكن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق ، من فكرة الصدفة ولا شك بل إن هذا النظام البديع الذي يسود الكون ، يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخطط خبط عشواء ، ا . هـ

ولا ريب أن هذه الحقائق العلمية تظهر مفهوم الاسلام وتطابقه وتقضى بأن البعيرية تسهر في طريق معرفة الله عن طريق العلم .
(٣) هناك حقائق أساسية في فهم العلم والإنسان .

(أولاً) إن العلم قد اتخذ طريقه الصحيح حينما بحث في ميدان المادة ولكنه قد ضل الطريق حينما بحث في ميدان الاجتماع والنفس ولذلك فإن ما يتصل بالمادة هو وحده الذي يطلق عليه اسم العلم أما ما يتصل بميدان الاجتماع والنفس فهو فلسفة ومصدر الخطأ : هو أن المادة تستطيع أن تخضع للمقاييس والموازين المادية العلمية أما النفس الانسانية ، فإنها تخضع لمقاييس أخرى فالإنسان ليس مادة وليس حيواناً .

(ثانياً) ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمى إليه - ولا كل ما ينتمى إلى العلم مفروغ من إثباته ، فكما أن في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات . إن هناك فرضاً باطلاً مسلماً به ضمناً ، وهو أن العلم الحديث يبنى على البرهان الحسي . فأيقال باسمه لا بد أن يكون قد ثبت وقام عليه لدى العلم البرهان فهم يتقبلون كل ما ينسب إلى العلم لأنهم مسلمون بقيام البرهان عليه كذلك فإن العلم شيء ، وتطبيقه من غير ضل أو خطأ شيء آخر .

(ثالثاً) إن العلم قد عجز عن فهم حقيقة قائمة موازية له هي الفطرة - فالفطرة في الإنسان حقيقة ثابتة لا يستطيع أى قوة أن تغير مجراها وهي مستقلة عن الزمان - وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن لا تبدل أسنن الله في الخلق ، ولقد هوجت الحضارة عن أن تفهم الفطرة ، وفعلت عنها ومن هناك كان اضطرابها وتفصها فإذا تطاول العلم إلى بحث ما قررته الفطرة كان ذلك هو مصدر خطئه وفشله ذلك أنه لا سبيل إلى إخضاع الإنسان للتجربة والاختبار عن طريق العلم .

الغفيل الرابع

العلمانية

ظهرت الدعوة إلى العلمانية في الغرب نتيجة الاتجاه الذي حمته لواء حركة التنوير الأوروبية في الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الحكومة أو إقامة أنظمة سياسية جديدة غير خاضعة لسلطة الكنيسة فالعلمانية في جوهرها : إنما تمثل القضاء على نظام قائم في الغرب إبان دعوتها . حيث كانت الكنيسة تباشر السلطة السياسية ، وتفرض نفوذها على الحكومات والدول .

والمعروف أن الدعوة نمت في أوروبا قبيل الثورة الفرنسية في مجال التحرر من سلطان الدين والكنيسة وإقامة منهج جديد . أساسه الدولة الحديثة . من شأنه أن ينقل الولاء من الكنيسة إلى الدولة وقد أوجعوا الفكرة في المسيحية الغربية إلى نظرة أساسية مستمدة من أقوال السيد للشيخ . دمع ما لقيصر لقيصر وما لله . ليست تملك في هذا العالم ، واتقوا مفهوم يقوم على أساس أن المسيحية إنما جاءت بوصايا في مجال الأخلاق . وأن المسيحية حين عبرت إلى أوروبا ، وجدت نظاماً سياسياً قائماً هو الامبراطورية الرومانية بقوايتها .

أما الاسلام فإنه يختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً ، ذلك أنه إنما يمثل عناصر ثلاثة متكاملة هي : (العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق) . وأنه قد شكل مجتمعه منذ البنية الأولى على ذلك النمط للتكامل وأن رسوله كان نبياً وفي نفس الوقت هو رئيس الدولة وقائدها وقاضها .

ومن هنا . فإن مجال المقارنة يختلف فضلاً عن أن مجال التطبيق للنظام الغربي القائم على العلمانية والفصل بين الدين والدولة جد مختلف ومتباين . ونحن إذا ألقينا نظرة إلى تاريخ أوروبا ، وجدنا أنه بالرغم من أن المسيحية جاءت بمبدأ جديد لم يكن معروفاً في الأزمنة القديمة ، وهو فصل الدين عن الدولة فإن هذا المبدأ لم يطبق في الحقيقة . ذلك أنه بعد أن اتسع نطاق المسيحية في الغرب - لم تلبس أن أصبح لها نفوذها على الدول والحكومات - يقول الدكتور عبد الحيد متولى : لم يكن أمر فصل السلطة شيئاً ميسوراً . فقد ظلت الامبراطوريتان الرومانيتان « الشرقية والغربية » زمناً طويلاً تقاومان انهيار سلطان الدولة الدينية وذلك خشية انتقاص نفوذها وسلطانها ، بل إن كثيراً من البابوات . حلوا على الجمع بين السلطتين الدينية والسياسية .

وكانت الإبطارة في الدولة الرومانية يتولون العرش الامبراطوري بعد إجراء طقوس دينية يقوم بها الرهبان ، ويجري فيها البابا تويج الامبراطور ويقول : ومن هنا كان اتجاه الملوك والباطرة إلى

التفويض من سلطان رجال الدين ، القائل بالمناداة بنظرية (التفويض الإلهي) إلى المناداة بأنهم إنما يستمدون سلطانهم وسلطانهم من الله مباشرة ، وليس من البابوات .

ثم جاءت الثورة الفرنسية ، رحمت على نقل هذا التفويض من الحق الإلهي للدولة ، إلى الحق الإلهي للشعوب والمردف أن هذه الأنظمة لم يعرفها الإسلام ، ولم يتأثر بها . ذلك أن الإسلام قام منذ اليوم الأول على مبدأ الجمع بين الدين والدولة دون التفريق بينهما ولا ريب أن أثر التكامل في الإسلام والانشطارية في الغرب . كانت له نتائج البعيدة في المجتمع والتاريخ في كل منهما والمعروف أن الإسلام ليس فيه نظام خاص يتولاه رجال الدين بل إنه لا يقر هذا المصطلح . وليس في الإسلام وساطة بين الله والخلق ولذلك فإن استقلال الدين في تاريخ الإسلام لم يكن معروفاً على هذه الصورة التي عرفتها أوروبا إذ ينكر الإسلام كل ما يطابق عليه الحق الإلهي ، أو التفويض الإلهي .

(٢) يكشف تاريخ أوروبا في العصر الحديث عن حقيقة تاريخية تزد إليها أمور كثيرة من وقائع هذا التاريخ : تلك هي محاولة اليهود الملحة لإسقاط الحواجز التي كانت تتعلق بالزواج والملبس والعبادات التي فرضتها المسيحية عليهم والتي حالت وقفاً طويلاً بين اليهود وبين حق المواطنة في المجتمعات الأوروبية .

ومن أجل هذا عمدت المنظمات الماسونية إلى التحضير لعملية كبرى تستهدف إسقاط الحكومات المسيحية الغربية التي تسيطر عليها الكنيسة وإنشاء حكومات أخرى متحررة من هذه القيود وقد كانت الثورة الفرنسية أولى الخطوات في هذا السبيل . وقد تلتها ثورات متعددة في مختلف الأنظار الأوروبية ، استلزمات أن تحقق الفصل بين الدين والدولة ، باعتباره أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة وبين الحكم ومن ثم جاء تحويل التعليم الغربي كله إلى تعليم علماني ، وعزلته عن نفوذ الكنائس التي كانت تتولى أمور التربية والتعليم وقد تحقق نتيجة لهذا إسقاط كل القيود التي فرضتها الكنيسة على اليهود ، والتي حالت دون انتمائهم حق المواطنة . وقد كان هذا هو مفهوم عصر التنوير أو حملة التنوير التي هي على حد قول الفيلسوف كانت « الافراج عن الإنسان من الوصاية الدينية » ومن هنا ركز عصر التنوير على فصل الدين عن الدولة ، وإنشاء حكومات في كل أنحاء أوروبا بعد الثورة الفرنسية ، وهكذا تدخل اليهود في المجتمع الأوروبي بعد أن انقطعوا عنه ولقد كان أول قرار لأول حكومة علمانية في أوروبا ، وهي الجمعية الوطنية الفرنسية في ١٧ - ٩ - ١٧٧١ ، وقد اعتبر اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم كل حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته .

فالعلمانية هي السيف المصلات الذي حطم به اليهود القيد الذي يفصلهم في كل مجتمع ويحول بينهم وبين السيطرة التامودية . ويبدو هذا المعنى واضحاً من وراء صفحات كثيرة من التاريخ الإسلامي العربي المعاصر ، وخاصة فيما يتعلق بأنظمة الدولة العثمانية ، والدولة العربية الحديثة .

إن الفصل بين الدين والدولة في الفكر الغربي المسيحي مفهوم لا غرابة فيه ، ومنه أمكن إقامة العلمانية ، التي كانت أكبر ركيزة في تأكيد النفوذ التامودي في المجتمع الغربي .

يقول الدكتور الفاروق : علينا أن نتذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنحو العلمانية في التنظيم السياسي والاجتماعي ، أى لمن اقضاء الدين عن السياسة والاقتصاد والاجتماع أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والآلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية .

ويقول : إن العلمانية نظرية تنبعث من الخبرة المسيحية ، لا من الخبرة لليهودية إن المسيح الأوربي قد قسم حياته إلى دوائر وجعل بينها حدوداً تمنع أى اتصال . وتجرى الحياة في كل هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة ، بما يجرى في الدوائر الأخرى فالعائلة والأخلاق الشخصية ، والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع كل منها يوافق مملوكتاً مستقلة فالويل إذا سمح الغربى لمبادئ الذين أن تعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد والواقع أن العلمانية ليست سوى الاحتراف بأنه ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الناس بأكملها ، كما هو الحال في النظرة الدينية فأصبح لكل من دوائر الحياة مبداء الخاص . ١ هـ ولا ريب أن هذا الفهم الأوربي يختلف اختلافاً واضحاً عن الفهم الإسلامى الجامع المتكامل الذى يضع الحياة كلها في إطار موحد . ولا يقر الفصل بين القيم أو المفاهيم بل يراها متلاقية متكاملة يؤثر كل منها في الآخر .

(٢) ويرجع بعض الباحثين نجاح فكرة العلمانية في أوروبا إلى قصور النظرة الدينية الصارفة عن مسيطرة العصر فالفهم الدينية التي واجهت الفكر الغربى المعاصر اتقائم على العلم والعقل ، صارت عن أن تصمد له ، مما دفع بعض المفكرين والفلاسفة إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب ، أو أنه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية . والمعروف أن رجال الدين في الغرب عارضوا المناهج العلمية وقاوموا ممارها ونتائجها .

غير أن هذه النظرة التي حققت العلمانية السيطرة في أوروبا . تختلف اختلافاً عميقاً بالنسبة للفكر الإسلامى والعالم الإسلامى . ذلك أن تكامل مفهوم الاسلام قد حال دون ذلك . فقد كان الاسلام في حقيقته أكبر دافع للعلم والتقدم ، وكانت إطرارته الواسعة المنة قاهرة على استيعاب كل هوامل العصر والحضارة .

ومن هنا ؛ فإن المستحيل أن يقع المسلمون في نفس المحافير التي وقع فيها الفكر الغربى ، أمام رحلة الاضطراب التي جاءت نتيجة لنفوذ الاستعمار والتي فرضت مفهوم العلمانية في الفصل بين الدين والدولة في مرحلة مؤقتة ستزول بزوال أسبابها . وقد وضع الآن في الغرب أن محاولات فصل الدين عن الدولة هي محاولات مصطنعة . يقول الدكتور محمد رضوان لم تقم الدولة العلمانية والمجتمع العلماني في الغرب إلا بشكل صوري ، فالدول لم تتخل عن دينها وأن الدين لا يزال له نفوذه ، وأن تعاليم الدين للدينية والأخلاقية قد غيرت من شكلها الخارجى واتخذت شكلاً يقوم على الافصاح والتسامح ، وأن رجال الدين في أوروبا أدركوا أن عليهم أن يلبسوا الدين وتقاليدهم ثوباً عصرياً وهذا يعنى أن العلمانية لم تستطع أن تحصر الدين في الفرد فقط

ولم نستطع أن نجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون في بلد واحد يشعرون أنهم أخوة في الوطن بصرف النظر عن أنهم إخوة في الدين . وأنه لا يمكن الجزم بأن العلمانية قد نجحت في تحقيق غاياتها . وهي إقامة دول ومجتمعات ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردي فقط ، ذلك أن الصعيدين الاجتماعيين والسياسيين ليسا سوى حتمية للصعيد الفردي - والعلمانية يفتق عليها أن تنجح في بلد يكون فيه الشعور الديني يقطاً ، والواضح اليوم أن الشعور الديني لم يعظم تماماً حتى في البلاد التي تدعى بالإلحاد رسمياً يقول الدكتور قاضل الجالي : إن العلمانية اليوم حركة رجعية ، رجعية من حيث تاريخها - فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها - ورجعية من حيث جعلها الدولة تهمل واجباً من أهم واجباتها . ونحن نؤمن بضرورة قيام دولة مدنية ، تقوم في البلاد العربية والإسلامية ، تعنى بحياة الإنسان مادياً وروحياً ، عنابة غير مجرأة ولا منشطرة . فوحدة حياة الإنسان مادياً وروحياً معاً هو ما يجب أن تعنى به الدولة .

ويقول : لا نعتقد أن العلمانية حقيقة أهدافها في البلاد التي طبقت فيها بل وقعت في تناقضات واضحة ، لا سيما في حقل الزمام وبكثافة الدكتور قاضل الجالي ، وجه المقارنة بين البلاد الإسلامية والغرب في مجال العلمانية فيقول : قد يكون تطبيق العلمانية في البلاد الغربية أسهل منه في البلاد الإسلامية . ذلك أن المسيحية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والمجاعة أما الدين الإسلامي ، فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق قد جاء بنظام شامل يعنى حياة الإنسان في شتى نواحيها من المهد إلى القبر . وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية .

وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم أهمية الشريعة الإسلامية ، وما تحويه من ثروة زاخرة ، واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال ، وما تشريع القانون المدني الحديث في مصر وسوريا والعراق على أسس إسلامية سوى دليل على ذلك . فعلمانية الدولة في البلاد الإسلامية معناها تنصل الدولة من الشريعة الإسلامية .

ولئن كانت العلمانية لا تلائم الشعوب الإسلامية بصورة عامة - ويهيد هذا إلى التجربة التي حدثت في تركيا . وكيف طارض الشعب مبدأ العلمانية ولم يقبلها وأمكن إنشاء ما يقرب من ألف مسجد في القرى التركية تلبية لرغبة الشعب للركن - فإنها لا تلائم الأمة الإسلامية بصورة خاصة ، لأن الأمة العربية مدينة للإسلام في تكوينها الحاضر ، وحاملة رسالة الإسلام إلى الإنسانية جمعاء ، فالفصل بين الدين والدولة ، معناه تجريد الدولة من أهم مقوماتها .

والأمة العربية إذا انفصلت عن الإسلام وعن رسالته ، تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه . والفصل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لب فيه ، وما أسهل دخول المبادئ الوافدة على اختلاف أنواعها قلاع الفراغ في القشر الفارغ

(٤) يفسر دعاة المادية (المذهب العلماني) بأنه النظر إلى الأديان نظرة واحدة ، وإلى الثقافات نظرة واحدة ، وإلى الأمم نظرة واحدة . وبجعل هذا التفسير في أطوارته مفهوم الأمية . والعالمية . ويهدف إلى القضاء على روح الدين والوطنية ومفاهيم الأمم التي تقوم على أساس فكرها الخاص وثقافتها . ومن المستحيل أن ننظر أمة هذه النظرة إلى الأديان والثقافات . خاصة إذا كانت في موقف صراع مع الاستعمار ، وفي مواجهة مع العدو ، وهو موقف يلتزم فيه العدو كل الوسائل في سبيل انتقام ثقافة المسلمين والعرب ، والغرض من قيمهم ، وإثارة الكهات حول مقوماتها ، ولا ريب أن مثل هذا الموقف معارض لكل الركائز الأساسية التي تقوم عليها الأمم ، وخاصة بالنسبة للمسلمين والعرب الذين يشكل الإسلام بالنسبة لهم مفهوماً أكبر من مفهوم العقيدة أو اللاهوت . فالإسلام بالنسبة للمسلمين والعرب منهج حياة ، ونظام حضارة وأسلوب ثقافة وهو إلى ذلك لغة وتاريخ وتراث . ومن هنا فإن هناك استحالة في تقبل مثل هذا المفهوم الذي طرحته الإرساليات والمعاهد التبشيرية والمحال المسووية والاستشراقية من أجل تدمير مقومات الأمم وإذابتها في كيان القوى الكبرى ، واحتوائها القضاء على ذاتيتها ومقوماتها .

والمعروف أن أخطر المجالات التي افتتحها الاتجاه العلماني في ظل النفوذ الاستعماري في المجتمعات الإسلامية : إنما تتركز حول المصارف ، والقوانين الوضعية ومجالات التعليم والصحافة ومناهج الثقافة والفكرية . وقد كان للإرساليات ، ومدارس التبشير وجامعاته أبعد الأثر في الدعوة إلى هذا الاتجاه . وهو هدف أساسي لتعطيم القيم الإسلامية وإبعاد النفوس والقلوب عنها وخلق التسمية الفكرية ، والسياسية والتشريعية والإدارية والتعليمية للغرب .

ويقول الدكتور محمد البهي في تصوير هذا الهدف من أهداف الاستعمار والتخريب . لم يكن أمامهم أدنى بين المسلمين أنبأها لهم ، إلا أن يمكننا لاتجاه العلمانية من السيطرة فهو كفيل بإبعاد الإسلام أولاً عن مجال التوجيه والحياة العامة ، وفي الوقت نفسه كفيل بجذب المسلمين إلى الحضارة الغربية والتبعية إلى القيادة السياسية للغرب . وعنده أن الاتجاه العلماني هو الأساس (وايس الاستعمار المباشر) في هو قيم المجتمعات الإسلامية وهو كما يعبر عنه Secularism جملة من المبادئ والتطبيقات ترفض أي صورة من صور الإيمان بالله والعبادة له وتقوم على وجوب تنحية الدين وإبعاده عن الدخول في أي شأن من شؤون الدولة ، وعلى وجه الأخص في التربية العامة ؛ هذا الاتجاه لم يستطع أن يمارس نشاطه في حرية وانطلاق في الحياة الغربية بفعل السلطة المقابلة . وهي سلطة الكنيسة الكاثوليكية . أو دولة الفاتيكان ، ذلك أن الكنيسة افتتحت دائرة الدولة وبالأخص في جوانبها السياسي وذلك بإنشاء الأحزاب الديمقراطية المسيحية كي تمارس سياسة الدولة وبذلك أيضاً لم يصبح الاتجاه العلماني في المجتمعات الغربية ذا خطر على الدين . وبعد فإن جملة القول : أن العلمانية هدف صهيوني ، يفسح المجال أمام القوى التلويديّة للسيطرة ، وتفرض أهدافها ومطامعها .

ويمكن القول بأن ما يطرح الآن على الفكر البشري من مذاهب ودعوات ليس في حقيقته علماً

ولأنها هي فلسفة ، فالعلم يعرف بالتجربات داخل الماديات أما هذه النظريات ، فهي فلكيات والفلكيات ففروض ولا فيلسوف أن يفترض ما يشاء من النظريات ، مستمداً ذلك من واقع مجتمعه ، أو من رؤياه النفسية ، أو من أهوائه وأغراضه ، ولأنها كذلك هذه النظريات عن مقام وعظماطات ، وليست العبرة بالنظرية ، وإنما العبرة بالتطبيق .

ولقد طرح أفلاطون نظرية الجهورية ، وأصبح لها الفرصة الكاملة للتطبيق قبل استطاعت أن تحقق شيئاً ؟ أم حتمه الفشل في كلتا المراتين اللتين عرضت فيها للتطبيق ؟ وكذلك دهرات كثيرة قديمة وحديثة ، مضي عليها أربعون أو خمسون من الأروام كالشيوعيين ، فهل استطاعت أن تحقق المجتمع الذي تصوره أم لوجيا كأنه حلم الأجيال (أوطوريا) السعادة ؟ هذه هي العبرة من النظريات إلى الفروض الفلسفية وهنا نرى الفارق البعيد بينها وبين معطيات الأديان التي حققت قيام مجتمعات فاضحة في سنوات قليلة استطاعت أن تنشر في العالم كله السلام والعدل هذا فضلا عن أن مشاهير الفلاسفة التي طرحوا للتطبيق لم تلبث أن احتاجت بعد سنوات قليلة إلى تعديل بعد تعديل وإلى إضافة بعد حذف .

(٥) ومن هنا يتقرر أن النظر الفلسفي الخالص لا يمكن أن يكون أساساً لفكر الإسلامى ولا يمكن الوصول إلى الحقائق الأولية إلا عن طريق الوحي والفلسفة ليست قرينة الوحي ، ولا مناظرة له ولا ريب أن أغلب الفلاسفة التي نادى بها مفكرو العصر : هي مادية الأساس ، ولذلك فهي لا تقوم على أساس الاعتقاد بالله الواحد الذي عرفه الدين الحق وهي حين تحاول الكلام في الألوهية . تؤله المادة أو تؤله الإنسان ، أو تؤله المال ومنها من يجعل الفريضة الجنسية محور تفكيره الوجود .

وهناك عقائد ومذاهب تفرج بين الفكر والتثنية والتعدد والدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة التوحيد من شوائب الاضطراب : فهو الاسلام .

ولا ريب أن هذه المذاهب والفلسفات جميعاً تعارض الإسلام وتعاديه باعتباره صاحب رسالة التوحيد الخالص .

وقد وجهت إليه حجة مركزة عاصفة في محاولة لاقتلاع جذوره ، والقضاء على وجوده . ومن أخطائها قولها : إن الدين ليس إلا مرحلة من مراحل حياة البشرية ، أو أن الاسلام حاقلة من حلقات التاريخ . ولا ريب أن الدين فطرة ، وأن الاسلام واقع صلب ثابت مؤثر في البشرية كل أثر ، منذ ظهوره وإلى اليوم وإلى الأمد البعيدة وأنه هو العقبة اليوم في وجه الوثنية ، والإلحاد والمادية .

(٦) إن مصدر الأخطاء في دراسة قضايا الإنسان كلها أنها تقوم على أساس تصور ناقص هو أن الإنسان جسد ومادة . ومن ثم فإن كل الحلول التي توضع لمشاكله لا تحقق شيئاً . ولا يستطيع أن

فمحقق مطاعه النفسية . إنما تتجاهل السنن الطبيعية في خلق الإنسان من روح ومادة ولا ريب
لأن العناية بهمد الإنسان وحده في الحضارة الحديثة قد ضرب الإنسان في صميم روحه
وتفحمه . ولا ريب إن المعرفة الربانية التي جاءت بها رسالات السماء هي أعرق فهماً للإنسان ،
وأكثر شمولاً ، وأوسع أفقاً وهي التي كدنت أمام الإنسان حقيقة الإنسان . وهدته إلى الأسلوب
الصحيح لحل قضاياها .

وما تزال البشرية متمردة على المنهج الرباني ، ذامية وراء أهوائها . فلا تصل إلى الحقيقة . فهي
تري الإنسان . إما روحاً كله ، وإما مادة كله . وفي كليهما فساد . وما تزال البشرية تنقل خارج
منهج الله بين المنهجين البشريين دون أن تصل إلى شيء إلا إذا طادت إلى مفهوم الأصالة المتكامل
الجامع بين المادة والروح وهو وحده الذي يصممها ويهديها إلى الحق .

. . .

الفصل الخامس

العالمية

يمزج الأمدال وليام غاي كار في كتابه الخطير : « أحجار على رقعة الشطرنج » ، فكرة الدعوة العالمية إلى مخططات التلويح والصهيونية العالمية ، وقد فشلت هذه الدعوة في صور متعددة . في محاولة لإخفاء هدفها الحقيقي . فأطلق عليها حيناً وحدة البشرية أو وحدة الحضارة أو وحدة الثقافة العالمية ، أو الحكومة العالمية وكلها تعني أمراً واحداً وغاية واحدة وعبرة (وحدة الثقافة العالمية) عبارة غلابة المظهر براءة الصورة ولكنها تخفي في أعماقها التمهيب والاحتقار للثقافات الإنسانية ، ومعناها في الواقع هو سيادة الثقافة الغربية ، وحضارتها وتسيدها على ثقافات الأمم وحضاراتها ، ولا سيما الثقافة العربية والفكر الإسلامي .

وقد استمدت هذه الدعوة وجودها من منطقتين مغلوطة ومن منطق استعماري في الأساس هو ما أطلق عليه اسم « رسالة الرجل الأبيض إلى العالم الملون » . والهدف للكامن من وراء هذه الدعوة هو سوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية الماهرة وتذويب الفكر الإسلامي في ألوان العالمية ، أو احتواء مقدراته ودجمها في مفاهيم وقيم تختلف في جوهرها عن قيم الإسلام ومصادره الأصلية وينسأل هنريك رالف في كتابه (الإنسانية والوطنية) عما إذا كان يجدر بالأمم الضعيفة المهضومة الحقوق . أن تأخذ بالنزعة الإنسانية وتضحي بالنزعة الوطنية . ويرى هنريك رالف : أن النزعة الإنسانية يجب ألا تمتنعها إلا الأمم القوية أما الأمم الضعيفة فإن لم تستمسك بمقوماتها الخاصة سحقها الأمم القوية ويمتد هنريك رالف : أن أنصار السياسة العالمية هم أصحاب رؤوس الأموال والطامعون الذين يروجون لها دفاعاً عن مصالحهم الخاصة ورغبة في بسط سيطرتهم وتفردهم على الأمم المهضومة الحقوق .

ولقد علا صوت الدعوة إلى العالمية في مصر والعالم الإسلامي في الثلاثينات وحمل لواء الدعوة إليها أمثال سلامة موسى وغيره ولم تكن قد مكشفت بعد تلك الغايات البعيدة التي تحمل لواءها المخططات التلويحية في السيطرة على العالم ويرى كثير من الباحثين أن محاولة الغرب في توحيد البشرية إنما هي صبيخا بالصبيخة الأوروبية ، وطبعها بطابعها . والنضال على مقوماتها وقيمها الخاصة وتخصيصها الذاتية ومثلها الأعلى وهي تختلف اختلافاً بيناً عن مقومات وفكر الغرب وليس صحيحاً ما يردده البعض من أنهم يلتزمون ما دعاه إليه الأديان من وحدة بشرية . فإن الفارق كبير بين غايات الأديان وغايات

تدعى بالذمة الوطنية. ويرى هنريك رالف : أن الذمة الإنسانية يجب ألا تمتنعها إلا الأمم القوية، أما الأمم الضعيفة فإن لم تستمسك بمقرماتها الخاصة سحقتها الأمم القوية .

ويرى هنريك رالف : أن أنصار السياسة العالمية هم أصحاب رؤوس الأموال والطامعون الذين يروجون لما دفاها عن مصالحهم الخاصة ، ورغبة بسلطانهم وتفوزهم على الأمم المهضومة الحقوق . ولقد هلا صوت الدعوة إلى العالمية في مصر والعالم الإسلامي في الثلاثينات وحمل لواء الدعوة إليها أمثال : سلامة موسى وغيره ولم تكن قد تكسرت بعد تلك الغايات البعيدة التي تحمل لواءها المخططات التلودية في السيطرة على العالم .

ويرى كثير من الباحثين أن محاولة الغرب في توحيد البشرية ، إنما تبنى صبغها بالصيغة الأوربية وطبعها بطابعها ، والقضاء على مقرماتها وقيمها الخاصة ، وشخصياتها الذاتية ، ومثلها الأهل التي تختلف اختلافًا بيناً عن مقومات فكر الغرب .

وليس صحيحاً ما يردده البعض من أنهم يلتمسون ما دعت إليه الأديان من وحدة بشرية فإن التفارق كبير بين غايات الأديان وغايات الصهيونية العالمية ، وإذا كان حمل لواء هذه الدعوة هم الذين يقولون بالانصرية والتفريق الذي يتميز به الإنسان الأبيض أو من يدعون إلى شعب مختار فإنه من العسير أن تستجيب البشرية لمثل هذه الدعوات ، وإنما تكون الاستجابة لدعوة أخرى ، يحمل لواءها الذين الحق فتجمع الناس بفهم ظلم ولا عدوان .

لن نراجع للدعوات الخدانة جميعاً من البهائية والروحانية الحديثة وغيرهما يجد هذه الدعوة إلى العالمية أو الأمية Cosmopolitism وهي من نتائج المخططات التلودية والدعوات الضارة التي سيطرت عليها اليهودية العالمية ، وهي محاولة لاحتواء العالم تحت فكر معين ومذهب معين ولا ريب أن هناك خطراً كبيراً في الدعوة إلى العالمية ، على الأمم التي لم تستكمل وجودها الوطني ووحدةها القومية ، والتي تعاني احتلالاً أو غزواً أو سيطرة خارجية ، أو ما تزال دعاتهم فكراً لم تستكمل نضوجها لمواجهة الفكر البشري والوقوف معه موقف النقد .

الباب الثالث

دعوات هدامة للنفس والأخلاق

الفصل الأول : الفرويدية : الجنس = الأخلاق
الفصل الثاني : الوجودية . الفصل الثالث : المسيحية

الفصل الأول

الفرويدية

(نظرية الجنس)

(١) إن نظرية فرويد في التحليل النفسي ، هي مرحلة من مراحل المحاولات التي يقوم بها الفلاسفة في مجال استكشاف النفس الإنسانية وهي محاولات دائبة طويلة على التاريخ . وفيها الخطأ والصواب ونظرية فرويد : كنهرها من النظريات التي تتصل بالعلوم الإنسانية عبارة عن افراضات توضع موضع الاختبار . ولما كانت العلوم الإنسانية بطبيعتها تختلف عن العلوم الرياضية ، والطبيعية . فإن مضمونها لمقررات التجربة العلمية المادية . هو إنكار للإنسانية الإنسان ، وإهدار للعجاب الروحي والفكري والنفس فيه ، هذا الجانب الذي لا تصلح للتطبيق عليه النتائج التي عرفها العلم عن المادة أو الحيوان ، غير أن أخطر ما في الفرويدية . هو تقلبها المعجبية والخطيرة للإنسان من النظرة التي كانت مقرة لدى الفلاسفة الأوربية نفسها ، بأنه سيد الكون إلى القول بأنه حيوان تحكمه غرائزه أو أن الفريضة الجنسية هي المصدر الأول لمواقف الإنسان وتصرفاته هذا التحول الخطير إنما جاء من خلال تطورات مختلفة بدأت حين انخرعت النظرة إلى الكون ، متجاوزة الدين ومنكرة إياه ومتخلفة عن نهوضه في الخلق والازدحام في الأخلاق .

ومن شأن النظرة للمادية الخالصة أن تنكر أكبر مقررات الدين وهي المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي وما يتبعهما من جزاء أخروي فإذا أسقطت هذا التقيد أصبح من اليسير . تقبل نظرة الانطلاق في مجال الرغبات والافراز وهذا هو أخطر ما في النظرة للمادية التي أقام عليها فرويد فكرته في الجنس ودهونه إلى إطلاق الفراز وتحريرها من قيود الأخلاق ، وضوابط الدين .

(٧) لم تكن نظرية فرويد في أصلها ومصدرها إلا فرضية ، طرحها هذا الطبيب الذي عاش عصره كله بين المرحى من المراز والمصابين بالاضطرابات النفسية وهم الوصيد الذي شكل من خلاله نظرياته ، وكون مذهبه وقد كانت هذه الفرضية تقول : إن دوافع الانسان جميعاً مصدرها الجنس غير أن الطبيب الذي اشتراكه في نظرية التحليل النفسي ومها أدلر ولويج ، اختلفا معه عارضا وجهة نظره ومع ذلك فقد توارث آراء أدلر ولويج وبغضت واستعانت آراء فرويد وأذهمت ودفعتم دفعا شديداً إلى مجالات الدراسة في الجامعات والبحوث وأصبحت مصدراً للفن والفنسة ولا شك أن هذا التركيز على نظرية لم تثبت علمياً وقد قررهما (واحدة من الالة) هو تركيز مريب وهو يكسب في وطوح أن وراءه فرضاً من أغراض السياسة ، وهوى من أهواء للطامع العالمية .

فإذا أضفنا إلى هذا هوية فرويد اليهودي المقيم في (النمسا) في مجتمع يكره اليهود ويحقد عليهم وما ثبت من صلته بهرتول وانسائه إلى الدعوة الصهيونية عرفنا إلى أي حد أمكن أن يدفع رأى كهذا حتى يسيطر سيطرة واسعة في دوائر العلم والأدب والثقافة ، ومع تراثر تسيطر عليها الصهيونية العالمية ومنها نشأت المربالية ثم الوجودية . عهد أن الأمر لم يلبث أن كسفت عن أبعاد أخرى أهدد محققاً وخطراً فقد تبين بالمقابلة الأدبية الدقيقة والمقارنة المنهجية أن كل أصول فكر فرويد مصدرها التلمود وقد أبان ذلك بوضوح الدكتور صبري جرجس في كتابه « التراث الفرويدي وصلاته باليهودية الصهيونية » .

ولارب أن المراجع مراجعة دقيقة لأهداف التلمودية ، وخططات الصهيونية - كما كسفت عنها البروتوكولات - يستطيع أن يرى أن تدمير الانسان وتخطيم معنوياته ، وتصويره على أنه حيوان تقوم كل تصرفاته من خلال الجنس هو هدف حقيق . قد أمكن أن يوضع موضع التنفيذ وأن يعتق كأنه عقيدة صحيحة بين أمم وأجيال كثيرة .

(٨) طارح للملاء المتخصصون نظرية فرويد . وماجوما من مواقع كثيرة (أولاً) لاحظ العلماء ، ومنهم (ردين فاين) أن التحليل النفسي بنية متحجرة لا تتغير بما جعل فرويد يقلب النظر أكثر من مرة في أفكاره الرئيسية على ضوء الملاحظات وأن تعميمات فرويد قد طرأ على صفاتها تفهد كبره وكان فرويد يعتقد أن نظرياته صالحة للتطبيق ، ظهر أن التحليل النفسي ، قد أرقعه في تحجر أرقعه خصوبته وسيطرته وليس من دليل يؤكد أن علم النفس في المستقبل سوف يتم على الأسس الفرويدية .

(ثانياً) إن نقطة الضعف في فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفراته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة وقد ترك فرويد في كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه ومواجهه ومشا كل صباه ، كيهودي في النمسا المتعصب ضد اليهود قاعدة كل تعميماته أن فرويد ليس خافه تماماً خلق العلماء إنه أشبه بمنفى منه بعالم .

(ثالثاً) ذلك أنه يرمى بنظرياته وآراؤه دين أن يقدم البرهان العلمي والاحند الواقعي إنه يفترض ثم يصدق ما يفترض ويبني عليه وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل ، وأنه من غير شك مخترع للفرضيات أكثر منه مجرباً لها .

(رابعاً) اعتمد فرويد على الأساطير اليونانية القديمة وأقام منها قوانين علمية كاهتمامه على عقدة أوديب وعقدة الشكرا . وقد أثبت العلماء أن عقدة أوديب والعقد الأخرى ليست طبيعية المبدأ . وقد أثبت العلماء أنها ظاهرة إجتماعية ، قد توجد في مجتمع وتعدم في مجتمع آخر . وقال مالنوفسكي الباحث النفسي : أن عقدة أوديب ليس لها أثر في أما كن كثيرة وقال كلابايد : أن فرويد وأتباعه كالقوم لا يرون إلا ما تشتمل عليه كهوف الاشعور .

(خامساً) سجل الباحثون أن فرويد نفسه كان يمر بأزمات نفسية ، وهو يعالج مرضاه . فقد اكتشف فرويد وهو يعالج الفتاة سيسيل المصابة بعقدة أوديب ، أنه هو نفسه مصاب بعقدة أوديب وأنه كان يتجه إلى أمه ويقار من أبيه .

(سادساً) أشار كثرة من الباحثين إلى أن (يهودية فرويد) كان لها دخل كبير في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتطبيقاته : ذلك لأنه كان ينتمى إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة ، التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانفلاق والتعصب .

(سابعاً) فلسفة فرويد ميكانيكية جبرية تنظر إلى الإنسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة . (ثامناً) عارض يونج آراء فرويد وقال : إنها ذات جانب واحد ، وفهر تاضحة تمام التضوج وأن الدافع الجنسي ليس له هذه الأهمية الهائلة التي ينسبها فرويد إليه في حياة الطفل ، وأنه توكيد الذات وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة . وأشار أدلر إلى خطأ إرهابية السكبت ومعارضته له وببذ أهمية الغيرة الجنسية وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة في القوة واتجاه الإنسان إلى التمييز عن نقص في كيانه .

(ثامناً) أشار الباحثون إلى أن فرويد . اعترف في مناسبات عديدة . أنه لم يكمل البحث وأن نظريته ليست مكتملة بذاتها . (١٠) إن من أخطر أهداف فرويد هو تصوير السكبت كسيف متهرب على الأعتاق . فقد صورته تصويراً خطيراً ، داعياً إلى إطلاق الطفل من كل توجيه وإلغاء كل الضوابط التي تحفظ منطلقاته من العثور والسقوط .

وقد جرت المحاولات من وراء فرويد لإذاعة هذه الآراء ، وإدخالها في مناهج التربية الحديثة ، بالرغم من أن هذه النظرية لم تثبت علمياً وقد عارض زملاء فرويد ما ذهب إليه من إرهاب في هذا الصدد ، وما حاول أن يصوره من مرض نفسي أو جنون نتيجة العقاب أو السكبت وقد أثبتت التجارب الإحصائية المتعددة ، أن ضرب الطفل أو إرهابه لا يؤدي إلى النتائج التي افترضها فرويد .

وأعلن الدكتور اسكندر توماس : أن هداً من البحوث قد أجري بمعرفة فريق من الأطباء النفسيين ، انتهى إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة وأن إقبال رجال التربية على لوم الآباء ، كان هو

المسألة للدمر في تربية الأبناء . ويقول العلماء أنهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلاً فيهم منحرفين ، بينهم الفقراء والأغنياء ، وتبين أن الأولاد اندأروا أصحاب معتقدين بالرغم من قيود النظم القاسية التي طاعلم بها الآباء وأشار الدكتور توماس : أن ٩٥ ٪ العائل يتأثر بهدد كبير من الدوامل وليس بالبيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحدها ، (٥) وقد استعرض كثير من الباحثين ندأة علم النفس الحديث فقالوا إن علم النفس صحيح حين تواضع وأخفق - حين حاول أن يحل محل فلسفة الأخلاق .

يقول الأستاذ أحمد عاكي : - حين أبديت لأعلم أصول علم النفس بما تحمله من مباحث التحليل النفسي ، وبما تتضمنه من وصف نفسية الجماعة ، حينما أبدى كل ذلك ، تطرق الشك في قيمة الفسكرة وأصبح الناس لا يرون العقيدة نفس الماطان الذي كان لها في الماضي . ويرجع ذلك في قيمة الفكرة ، إن علم النفس الحديث ، يرى أن الإنسان - هو أمام جملة من الدوامل التي لا يحكمها العقل - وعلم النفس لا يستطيع أن يخاق لنا مثلاً أهل ، لأنه فهم قادر على تثبيت قيم الأشياء ذلك لأنه عالم وصفي - وهذا في نطاق ضيق من التجارب ولأنه عالم تجريبي فقد عالج حالات شاذة وغير شاذة ، من فهم أن قيم معايير يستطيع المرء أن ينفذها لنفسه غاية أو سبيلاً فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فقد العالم كثراً من الغايات التي كان قد استقر على الإيمان بها واستنرف قادة الفكر على حالة من الشك طافت بنفوسهم ، حتى أصبحوا يشكون في مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

(٦) كشف كثير من الباحثين الصلات العميقة بين الفرويدية والأيدولوجية النلودية . وإذا رجعنا إلى البروتوكولات وجدنا هذا النص : - يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان ، فنسبل سيطرتنا ، إن فرويد منا ، وسيظل يمرض الملاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبق في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية . وعندئذ تنهار أخلاقه .

في ضوء هذا كان عمل فرويد فسكات نظريته : إن الأخلاق تهوق التطاور ، وأن السكبت ضار بكيان الإنسان ، وأن التسامح نوع من الشذوذ ، وأن الأخلاق تقدم بالقوة وأنه من أجل تخريب أخطار العقد والاضطرابات يترك الشباب بدون توجيه أو ضوابط والمهدف هو تحطيم الأخلاق والقضاء على المسؤولية الفردية .

والمعروف أن فكر فرويد لا سند على له ، وأنه أحقاد وضعت في قالب براق ، وأنها وجدت وقودها في تطالع النفس البشرية إلى الإباحة وقد وجدت من الفلافة سندها ومبررها ، وأنها وجدت لمجتمع معين ، وأنها استمدت كل مفاهيمها من وثقيات الفكر اليوناني ، واتصلت بينات وأديان فهم الاسلام . وأن القوى الخفية ، قد حملتها إلى الأدب ، والقصة والمسرح ، والسينما ، والإذاعة وبيوت الأرياء ، وأدوات الزينة .

(٧) ولا ريب أن فرويد هو ثمرة الأيدولوجية النلودية في أدق دراجها . وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من الباحثين : (سيجموند فرويد) هذا الرجل أراد أن يعطى احترام الإنسان لنفسه

تخطيطاً كاملاً ، ومن يقرأ فرويد : يدرك تماماً أنه يشفق مخطئاً يهودياً جباراً . أراد أن يصم الجنس البشري بأنه جنس متحلل . ينطوى على أسوأ الذوايا وأخس الرغبات حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ويريد أن يقتل أباه ، وبني فلسفته ومذهبه على هذا حتى جعل الناس جميعاً يشكون في كل فضيلة وكل عاطفة رفيقة وإذا نخر رجلاً منا إلى المدفئ رأينا كيف مهدت الصهيونية لاستيلاء الرأي العام المسيحي في الغرب ووقفت وراء الرطامات العلمية ، ووراء عالم الطبيعيات (دارون) ونقلت مذهبها إلى تشكيلك المجتمع الانساني في طبيعة الخلق ، ووراء بيتشه وهو ينادى بسياسة القوة والارحمة . ثم السيطرة على العلوم والفكر . وبالسيطرة على الفكر العالمي عن طريق التعليم والثقافة ، يمكن القضاء على كل فكر . وذرع الشك والريبة في كل أفق للوصول بالفكر البشري إلى مرحلة الجهلة . ومن يتابع تاريخ الفلسفة ير دور اليهود في ذلك . وكيف قام رجالهم (فرويد ، ماركس ، دور كايم ، لبني بريل ، سارتر) على بناء الفلسفات المدمرة للقيم الانسانية .

وقد أشارت مخططات الصهيونية العالمية إلى ضرورة تخريب العالم ، قبل السيطرة عليه . وإن أم الأهداف التي يمكن القول دون تردد بأنها حققت نجاحاً ، هو احتواء الفكر الغربي والسيطرة عليه وتحويله ودفعه إلى الغايات التلودية ، وذلك بإسقاط الإيمان بالله وإسقاط الاخلاق وإسقاط الجهاد الآخرين . (٨) نقل الأستاذ عباس المقاد عن عدد كبير من ترجموا لفرويد وخاصة ما كتبه الدكتور أرنست جونز . أكبر تلاميذ فرويد الاحياء في الجزء الثاني من ترجمة فرويد . قال : إن فرويد كان يحرق أوراقه قبل أن يتمكن أحد من الإطلاع عليها . وأنه كان يحيط نفسه بأهوان من اليهود . وأن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو وعدتهم نحو أربعة آلاف قد فوجئوا بمحبة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجل مسؤول عن مركزه العلمي والرسمي هو : الدكتور بر سيفال سيل ، مدير معهد النفسيات برلاية النيوا .

وخلاصة حلقته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه بها وأن آرائه لا تضيف شيئاً إلى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسانية إلى أغوار الباطن ويهمل جانبها للنطق الشاهر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ولم يكن يتذوق للوسيقى ، ولا يحس جلال العقيدة وقال : إن العالم استطاع أن يضع فرويد على للمرحمة بعد أقل من عشرين عاماً من وفاته .

ونقل الأستاذ المقاد عن مترجم حياته : الدكتور أرنست جونز : إن فرويد كان عرضة للاغواء على أثر بعض المفاجآت . وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقاته بغيره وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلى هائلها سريره الباطنة ، وكانت له هروب من القلق تتم عن باحث من براحت الجهلة المكتومة ، وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب في سبيل التشبث بالتفسير الجنسي للمقائد والعادات تشبثاً يربو في إصراره وشده على تمصص المتعصب الدود لمذهبه ودينه .

ومن قوله ليونج : عدني أنك ان تنخلي يوماً عن الإيمان بالآلهة والجنسية . إلا أن ليونج لم

يأبى أن تزوح بنفسيه شيئاً غريباً عن ذلك الإغراق في العصبية الجنسية التي تهيئ بكل قوة ، وتتغلغل وراء الأمرار في أعماق كل طوية . وقد خالفه تلميذه الفرد أدركا خالفه يونج وفرويد كان مجموعة من المقعد النفسية والمعادن الضرية . ولم يستطع أن يشق عقله الباطن من هذه المقعد النفسية إلى آخر حياته كان ينسى الأسماء ومنها أسماء معارفه وكان يتتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فيحرقها وكان يؤمن بأنه سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى فأت في بداية الحرب العالمية الثانية . وكان يدخن عشرين سيجاراً في النهار ليمد من ثوراته العصبية وكان في طفولته ينسى نفسه ليلاً في فراشه وكان يحرق من السفر بالقطار ويحضر إلى المحطة قبل موعد السفر بنحو ساعة وكان دائم العودة لا يسمح لأحد أن يصارحه طويلاً .

(٩) وفي السنوات الأخيرة جرت أبحاث عديدة عن سقوط الفرويدية ، بعد أن تعرضت في العقدين الآخرين إلى هجمات متوالية وحالات عنيفة استهدف تهريدها من العلمية ، وقد أشار الباحثون إلى أن المؤتمر الذي عقد في إنجلترا ١٩٧٠ الأطباء النفسيين ، قد كان نقطة تاريخية خطيرة . فقد ألقى العالم النفسي (إيليو سلتير) كلمة أعلن فيها أن نظرية فرويد : ليست علماً ، بل هي أسطورة (ميتولوجيا) ولدت في رحم خصب من اللاعلمية . وقال سلتير أن نظرية فرويد سوف لا يكون لها مستقبل وأشار إلى ما صرح به (كارل بوبر) من أن التحليل النفسي فشل في إيجاد نظرية لا يمكن دحضها .

وجاءت حربة أخرى على الفرويدية في حلقة دراسية نظمها أكاديمية العلوم في نيويورك وضمت ١٨ فيلسوفاً حيث استنتوا علم التحليل النفسي لفرويد من ميدان العلوم وكانت وجهة النظر أن النظرية غلبة لنظرية فرويد برزت قبل نصف قرن ، كان يجب أن تكون الآن علماً له مكاتته وأسهه ولكنها لا تزال تدعو للنجل والزئاء لأنها لم تمت حدود النظرية ويقول العلامة سلتير : أن نظرية فرويد ، فرقت علماء النفس . وأن علم الأمراض النفسية يعاني من جرح عميق أحدهم جرح غريب هو نظرية فرويد وهو جسم غريب لسببين الأول أنه لا يمت للعلم بعلة والثاني لأن ما يقدمه وبحقه للمريض يختلف عما يحققه العلم الطبي في أي فرع من فروع .

ثم قال : إن إزالة هذا الجسم الغريب لكفيل بأن يندمال جرح العلوم النفسية ويقول غري الدباغ بعد أن استعرض عشرات المواقف التي وقفها العلماء في مواجهة نظرية فرويد : من كل ما تقدم ، زعم أن ما يؤخذ على نظرية فرويد هو أنها غير علمية ولم تخضع نفسها بما فيه الكفاية للتحليل والإحصاء والمقارنة وأنها أحدثت الفروقة والنزاع بين علماء النفس وأنها أشبه بأسطورة وعقيدة ذات تقاليد صارمة ينصاع لها المؤمنون والاتباع والمعالجون على طريقتها . ومن الطبيعي ألا يتوقع بقاء نظرية أسطورة خرافية ، طيلة هذه السنين دون تصدع ، أو إنحدار ، أو تدهور .

(١٠) أشار الباحثون الذين يحملون فكرة الفرويدية الجديدة إلى أن هناك تناقضاً كبيراً قد ظهر

خاصة في فرويد الجنس ولأوت وفائدة أوديب والجنس عند الأطفال وهذه هي النقطة الأربع التي خاف فيها فرويد الفطرة الانسانية ، والأدهان وطاحص الأخلاق ويقول جوزيف رينولدز : توصل علم الجنس إلى نتائج وشواهد هائلة ، تدحض بعض الافتراضات المبدئية لفرويد مثل فرويد الجنس والموت ومراحل الجنسية الطفلية الفرويدية وعقدة أوديب وأن التجارب التي أجريت لاختبار بعض هذه المفاهيم أكدت ذيفها وأثبت ذلك روبرت سبرز ، في كتابه : نظرة على الدراسات الموضوعية في مفاهيم التحليل النفسي فقد انتهى إلى القول : بأنه قياساً على معايير العلوم الطبيعية ، يتضح لنا أن التحليل النفسي ليس علماً حقيقياً ، فالتحليل النفسي يرتكز على تكتيك لا يسمح بشكرار الملاحظة ولا تلك بنية واضحة تؤكد صوابه ، ثم إنه مصبوغ بصبغة غير معلومة بالإيعاءات الذاتية للملاحظ .

ثم يصل إلى المحررين يقول : إن نظرية التحليل النفسي القائمة على غريزة الجنس الثابتة والموجهة السلوك ، حيزت عن تقديم تفسير شاف عن هذه الحركات الواهية التي تولدت كرد فعل لظواهر اجتماعية محددة ، وأن التجارب التي أجريت بين طوائف العمال والشباب والفلاحين ، والنوج ، أثبتت عدم صحة ما ذهب إليه فرويد .

(١١) ومن ناحية أخرى . فإن العالم النفسي (إيفان بافلوف) أعلن أن نظرية فرويد ، وهي النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات إلى أسس جنسية بحتة ، هي معول هادم لنفوس الشباب ومخدر يبيع لنفوس أبناء الشعب ويرد بافلوف مصدر الانحراف إلى البيئة كما ردها أدار إلى تأكيد الذات وتعويض الشعور بالنقص . كما يرد بها يروج إلى النزوع نحو التفوق .

الأخلاق

(١) كان أخطر ما طرح في مجال الأخلاق : نظرية لينى بريل القائلة بمعارضة ثبات الطبيعة البشرية ، وافترض أن كل عصر ، وكل جنس له أخلاقه وهذه هي أصرح دعوة لعدم الالتزام الأخلاقي والتحلال منه وهي حلقة في نطاق الحلقات المتوالية التي طرحها الفلاسفة المادية . في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والنفوس ، لاستكمال حلقة السيطرة على البشرية ، وتوجيهها وجهة مغايرة لفطرة والمفاهيم الإنسانية الصاعدة الثابتة ، التي جاءت بها الأديان ، وجاء بها الإسلام خاتماً لها .

ولاديب أن محاولة صدع حقيقة وحدة الطبيعة البشرية ، هي محاولة جريئة . ذلك أن أفراد الجنس البشرى توجد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة ، تتصل بوحدة التركيب البيولوجى ، والعقل والاجتماعى للإنسان من حيث هو إنسان . وإن آثار البيئة أو الجنس أو العصر هي مسائل محدودة في نطاق النظرة الشككية الجامعة ، وأن الاختلاف فيها بالزيادة أو النقص ، لا ينهر من القاعدة الأساسية ومن الصفات الجوهرية الثابتة . ولا ريب أن النظريات الفلسفية . التي ظهرت في نطاق الفلسفة المادية .

قد حاولت في المرحلة الأولى ، إخراج الأخلاق من نطاق الدين وهو لها من تبعته وخلق منهج أخلاق منفصل يقوم على فكرة الواجب . ثم جاءت المرحلة الثانية ، وهو المدول نهائياً عن مهمة علم الأخلاق في تحديد قواعد السلوك . وقصره على دراسة الأخلاق على أنها ظواهر إجتماعية ومعارضة الحقيقة القائلة بأن الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

(٢) قامت هذه للذاهب الفلسفية في اتجاه الأخلاق على الإباحة ، ومعارضة الضوابط ووصفها بأنها حرمان وكبت . وقد استمدت مفهومها هذا من الفلسفة اليونانية الوثنية التي عرفت بالآلية دورية والتي ترى أن الذة الجسمية هي النرض الأسمى من الحياة وبذلك أخرجت الفلسفة الحديثة الأخلاق من مفهومها الطبيعي بوصفها الحداد القوى الذى تقف عنده مطامع الإنسان وأهوائه ، والحوائل دون تدمير الفرد لنفسه وإقامة الضوابط للكفيلة . بسلامته ولا يجب أن الأديان والأخلاق جزء منها ومرتبطة بها) ولا سبيل إلى أن تنفصل عنها ، تعمل إلى إقامة بناء الإنسان على قواعد من الثبات والصمود فى مواجهة أحداث الحياة وحماية كيانه من الإنهيار تحت صدمات المواقف ، أو أخطاء التصرفات ولذلك فقد كان عدنها هو إجراء حماية دبط بقطة دائمة تحمى الانسان من أخطار شهواته ورغباته ومطامعه ، والحد من فواه المدفوعة إلى الشر والرذيلة وقد ظلت ضوابط الأخلاق مرتبطة بالعقيدة ، حتى يكون لها التزامها الحقيقى وهو الالتزام المرتبط بالأجزاء الأخرى . ولا يجب أن الإيمان بهذا الجراء الأخرى . ولا يجب أن الإيمان بهذا الجراء الأخرى . ولا يجب أن الإيمان بهذا الجراء الأخرى .

الأكثر فى إعطاء للمسؤولية الأخلاقية مكانها الحقيق وأن الإنسان إذا تجاوز هذه الحقيقة عجز عن أن يجد الرادع الذى يردّه ، فإذا ما جادت الفلسفة المادية وحطمت أمامه كل حدار ، وانكرت كل مسؤولية وجزاء وبسك فإن الأمر قد أصبح بالنسبة له خطيرا وقد أصبح أشد خطورة بتحريره على الاندفاع نحو مطالب الفريزة وأهوائها وإطلاق يده نحو عمل كل ما يريد على النحو الذى تدعو إليه الوجوديه وبذلك فقد سقط الإنسان فى هوة خطايرة وأزمه كبرى هى أزمة القلق والضياح التى تمر بها البشريه فى الغرب فى هذا العصر . ونحن نعرف الهدف مقدما ، ونعرف أن الايدولوجيه اليهوديه غلطت له ، وأن بروتكولات صهيون قد أشارت إليه فى صراحه تامه . وفى ضوء هذا كله فإن أى نظرة إلى مفهوم الأخلاق داخل نطاق الفلسفه الماديه ، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى شئ ما ذلك لأن منطق البحث أساسا هو : ما هو هدف الإنسان فى هذه الحياة ، وما هى مسؤوليته الفرديه والتزامه الأخلاقى .

إن النظرية المادية لا تستطيع الإجابة عن هذا السؤال ، والذين يؤمنون بالعلم وحده لا يصلون إلى شيء . وقد قال ليونارد دارون : إن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للملك . وإنه إذا كانت هناك إرادة حرة . فلا بد أن يكون هناك شيء خارج العلم ولا تقف الفلسفة المادية عند عجزها عن تحديد هدف الإنسان في الحياة . بل إنها ترفض فمكرة هذا الهدف . ويقول للفلاسفة إن ظهور الإنسان على هذه الأرض كان طارحاً . وليس مقصوداً . وقد وقد علماء الانتروبولوجيا وجلهم من اليهود إلى أن المجتمع البشري ليس له هدف أما المؤمنون بالدين الحق ، والذين ينظرون إلى الحياة وقضاياها في ضوء

الحقائق الكبرى التي ألقاها الإسلام ، وكشف عنها القرآن ، فإنهم يرون أن الحياة هاية ، وغاية كبرى وأنها مسئولية وأمانة للإنسان ، وامتحان لمقدرته على حمل مهمة الاستخلاف في الأرض ، وأداء دوره في العمران والبناء في ظل حدود الله والضوابط التي حددتها من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية وأن هذا السكون لا يمكن أن يكون قد خلقه الله باطلا ، وأنه له غاية ، أحسن مما أعما خلقناكم عبداً وأنكم إلينا لا ترجعون . ومن منطلق الفهم الرباني الشامل غلب المادى المنحصر تشكف أهمية الأخلاق في بناء الأفراد والمجتمعات ومن الواضح ، أن الحضارة المعاصرة قد نعت الدين والأخلاق جانباً . وأغفلت تماماً الجانب الروحي والنفس من الحياة وركزت على الجانب المادى وحده . وأعطته مداه ومنطقه إلى أبعد النهايات . وبذلك أحدثت خللاً خطيراً ، هو مصدر الأزمات التي يعانيها الإنسان المعاصر اليوم .

يقول العلامة جود في كتابه « سخافات المادية الحديثة » : إن هذه المادية ليس لها توازن بين القوة والأخلاق ، فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ومنذ عصر النهضة ظل العلم في الارتقاء والأخلاق في الانحطاط حتى بعدت المسافات بينهما وقد تقدمت العلوم خلال القرون الأخيرة في جميع الميادين بلا استثناء في حين أن الأخلاق لم ترتق إرتقاء متناسباً مع تقدم العلوم بل إن تقدم العلوم قد أحدث هذه الفجوة الخطيرة حين اتخذ من بعض أساليب العلم وسيلة لحدم الأخلاق ، وتعميق ثباتها ، والدعوة إلى ربطها بالمجتمعات وعزلها عن مصدرها الأصيل : الإنسان .

(٢) إن الأخلاق في مفهوم الإسلام ليست نظرية ، ولكنها تطبيقية وليست مثالية ، ولكنها واقعية ، ومن ثم فقد تجاوز الإسلام بها خطر الطوحيات الخيالية ، التي تعجز أمام الواقع وتبدو مستحيلة أمام طبيعته الإنسانية نفسه ولقد بدأ الإسلام من نقطة أساسية : تلك هي الاعتراف بالريجات والمطامح البشرية على أنها حقيقة واقعة ، ثم تحقيق هذه الرجات مع وضع الضوابط والحدود التنظيمية التي تحول دون الصدام أو الفساد . وبذلك تجاوز الإسلام الخطأين القائمين :

خطر دفع الإنسان إلى الصعود على النحو الذي يخالف به الفطرة ، أو يحول بينه وبين التوازن عما تدعو إليه بعض العقائد من زهادة وانفصال عن المجتمع أو خطر دفع الإنسان إلى الهبوط على النحو الذي يخالف الفطرة أيضاً عما تدعو إليه بعض الفلسفات من إباحية وإسراف على النفس والمجتمع . فالإسلام حين يضع الإنسان في الموضع الطبيعي المتصل بفطرته وطبيعته ، ويمكنه من ممارسة كل رغباته . إنما يحول بينه وبين الخطر للترتب على الإطلاق التكامل أو الانفلاق التام وهو في نفس الوقت يجعله قادراً على تحمل المسئولية الفردية والائزات الأخلاقية الذين يصدران عن حرية الإنسان في الاختيار وإرادته الكاملة عما يؤمله لتحمل المسئولية هذه المسئولية هي الجزاء الذي يتم في اليوم الآخر . يوم البعث وهو الحقيقة التي قررها الدين الحق والتي تضع الإجابة الحقيقية على السؤال الحائر عن وجود الإنسان في هذه الحياة وعن الحكمة من الحياة الأرضية ولا ريب أن كل محاولة الخلق منهج أخلاقي للإنسان (بعيداً عن هذا المفهوم) عن النجوى الذي قاله به الإغريق القدامى أو الفرييون خلال

فترة اتصالات الثقافة الأوروبية بالمسيحية . من أن الانسان يستطيع أن يبني الاتجاه الأخلاقي على العقل والإدراك ، أو الواجب أو الوازع الداخلي أو الارتفاع بالنفس عن الدنيا . كل ذلك ريف لا يستطيع أن يحقق الالتزام الأخلاقي ، أو يجعله في نطاق الفطرة كما تفعل الحقيقة التي جاءت بها الأديان . والتي تتجلى في الاسلام على أروع صورته فقد أقام الاسلام الأخلاق على أساس الإيمان بالله وفي نطاق العقيدة ، ومن خلالها وأبكر إمكان قيام أخلاق من خارج الدين . ذلك أن منطق المسؤولية الأخلاقية ، إنما يرتبط أساساً بالاعتقاد بالله والإيمان بالبعث والجزاء والدار الآخرة وبأن الله يعلم وبحاسب على كل تصرف .

وقد أشار الرسول محمد ﷺ إلى أنه إنما جاء ليتمم مكارم الأخلاق فالمفهوم الأخلاقي الرباني ، قد استمر في الحياة البشرية ، متصلاً بالأديان إلى أن استوفى صورته الحقة في الاسلام ، وقد أقام الاسلام مفهومه الأخلاقي على التقوى (وليس على الرهينة والسعادة) وأقر تحقيق الرغبات في حدود ضوابط التي تحفظ النفس والمجتمع والأخلاق في حقيقتها : تركية للنفس وتصعيد لها ، وإعلاء بها عن الشر والإباحة والانهيار وفطم لها عن الشهوات . ولا ريب أن الدعوة إلى التماسي من خلال الواقع . قد جاء الاسلام فيها بأصدق قاعدة ، وانفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهما . وقد غاب من دسأها .

ومفهوم الحرية في الأخلاق الإسلامية : هو تحرير الانسان من كل قيود العبودية وفي مقدمتها تحريره من شهواته وعبوديته لأهوائه ، وتحديد معنى الحرية بأنها ستنتهي عندما تصبح هدواناً على حرية الآخرين .

(٤) إن نظرة الفلاسفات الغربية إلى النفس على أنها شريرة بطبيعتها ، وأن الانسان محكوم عليه بالخطيئة هي نظرة لا يقرها الإسلام وإليها ترجع كل التحذيرات التي اتصلت بالمفاهيم العقائدية والأخلاقية فقد انطلقت المفاهيم الغربية من فرضية - كانت ولا تزال عرضة للشك والارتياب - ولم تنطلق من أصل ثابت عندما قامت على فكرة الخطيئة . وفكرة الخطيئة فكرة فلسفية قديمة ، تجددت في الفكر الغربي المسيحي بصورة جديدة ، ولم تمكن في واقع الامر حقيقة تاريخية أو علمية . ولقد حاولت فكرة الخطيئة ، السيطرة على الفلسفة الغربية وعلى الأدب والفن كما كانت بعيدة الاثر في مفاهيم الأخلاق وفي تفسير غاية الحياة . ووجود الانسان على الأرض ، وهي تنظر إلى الانسان نظرة متشائمة مظلمة ، وتقرر أنه شرير ومن هذا المنطلق تفمر استعداداته للانتقام والعدوان والتأثر والسيطرة وترد ذلك كله إلى الخطيئة الأولى ، التي كانت مصدر خروج آدم من الجنة ، وترى أن هذه الخطيئة سيف وصلت على رقاب البشرية منذ اليوم الأول إلى نهاية الحياة ولقد كشف الاسلام عن حقيقة آدم وعرف كيف أنه حين أخطأ تاب الله عليه . وأن خطأه كان خاصاً به وحده ، وأنه ليس مرتبطاً بأي فرد آخر من أفراد الجنس البشري .

الفرح وليس مطلوباً لغائه ، بل انعتقني هذه الغاية العليا . وله ضوابطه من الزواج ومن حياة الكيان البشري وتدور الأخلاق حول حياة الفرد من الحقوق والاعتدال والاندحور والتحلل ومن هنا تنبع ضوابط الطعام والمال والجنس ، بهدف إبقاء الأجيال البشرية قادرة على العمل وليس ساقطة تحت أقدام الشهوات ، فهي قادرة على المقاومة والمضال . ولما كان الإسلام ينظر إلى الإنسان ككل ، فإنه يعمل على الموازنة بين عقله وقلبه ، وبين حاجاته وغاياته ، وبين روحه وجسده في سبيل الغاية العليا : وهي ترقية الحياة والارتقاء بالإنسان إلى الصورة الكريمة التي يليق به كاستخفافه في الأرض . وقاعدة الإسلام الأخلاقية : هي أنه لا يمنح الإنسان شيئاً من رغباته ، ولكنه يحببه منها بأن يضعها في قوالب ، ويضع لها ضوابط . وخاصة فيما يتعلق بالطعام والمال والجنس والبقاء .

(٦) لا ريب أن الأخلاق الإسلامية تسيج وحدها ، ومنهج متميز ، فليس هو مفهوم اليونان الهامى إلى السعادة والقدرة ، ولا مفهوم العقائد الهامى إلى الزهد وليس الأخلاق الإسلامية هي فضائل الجاهلية العربية . وإنما هي منهج متكامل مرتبط بالعقيدة ، يترف بالإنسان ككل ، ومؤثر في كل جوانب الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وأدب ، وتربية وهي منهج عملي وليس نظرية فلسفية ، وتقوم على مبدئين : الالتزام والجزاء الأخرى ، وتشكل من خلال تقدير الإسلام وتقريره للتراث والقبول في ممارستها مع ضبطها ، وليس في الصرعها ، أو احتقارها وينطلق في اتجاه المقدرة وسرعة الظروف والوسع ، والمفرد والسباح عند الاضطراب وتقبل التوبة عن الخطأ . فضلا من انصاف منهج الأخلاق الإسلامية بالوسطية والواقعية وارتباط المطلق فيه بالنسبي والمثالي بالواقعي وهو في نفس الوقت قد دحضت الفجاءة القائلة بفصل الأخلاق عن الدين أو القول بأن الملحد يستطيع أن يكون أخلاقياً . وقد أقامت القواعد الأخلاقية الإسلامية جداراً قوياً ضد الفوضى والظلم والفساد عامة ، وبقيت في نفس الوقت مرنة تسمح للأجيال المتعاقبة بالعمل داخل إطارها الواسع .

ومن أبرز الملاحظات في هذا الصدد ، تفرقة الإسلام بين الأخلاق الثابتة والتقاليد المتغيرة . فالأخلاق ثابتة لا تتصلها بالإنسان (لا تبدل لخلق الله) ولا تتصل بالقيم العليا للدين كله . أما التقاليد فهي متغيرة ، لا تتصل بالوسائل العارضة ولا تتصل من صنع الناس والأخلاق الإسلامية . تختلف اختلافاً كبيراً عن مذاهب الثقافة أو السعادة أو الواجب وهي في بحر عميق أخلاق تقوى .

(٧) الأخلاق وفكرة وحدة الوجود أجمع العلماء على أن القول بوحدة الوجود نقي للألوهية وإثبات الكائنات وحدها ووحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله ، وتعميم مطلق القول بوجود المادة فقط مادام لا يوجد شيء وراء هذا العالم . فالقول بأن الله داخله صورة أخرى للقول بنكرانه والقول بوحدة الوجود تفككه هندی قديم .

والمسلمون يؤمنون أن الله هو واجب الوجود ، وهو مرمرمد لا يحده زمان ولا مكان وأن ممكن الوجود هو كل ما سوى الله عما خلق . ولا ريب أن القول بوحدة الوجود هو أخطر رسم مفهوم موجه إلى الالتزام الأخلاقي ، كما جاء به الإسلام ، إذ أنه يلغى المسؤولية الأخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب .

الفصل الثالث

الوجودية

(١) من الدعوات الهدامة التي راجت رواجاً كبيراً في العالم كله : الوجودية ، وقد حملت جانبين : جانب الفسك ممثلاً في الآراء والنظريات التي طرحها دعاؤها القدامى والمحدثون وأهمهم كهرد وكامى وسارتر . وجانب التطبيق ممثلاً في الجحور والمخامات والصور المختلفة التي أولتها الصحف العالمية اهتماماً كبيراً ، ووجدت من الشباب التفاناً وإعجاباً .

وقد وجدت الوجودية صدى واسعاً في بعض البيئات لأنها جاءت بعد أن أفسدت لها الطريق مذاهب وأفكار من المادية ، وإنسكار الله وإنسكار البعث وما حملته الرياح من أفكار تقول بإعلاء الجنس وإباحة الرغائب وتصل إلى القول بأن الإنسان خاضع لما يقرره العلم بالنسبة للحيوانات والمادة وقد سادت في السنوات الخمسين الأخيرة موجة من التنسك للآلهان والأخلاق في العالم كله ووجدت فيها مثل هذه الدعوات مجالاً خصباً للازدهار والانتشار وقد كانت الوجودية رد فعل لاشياء كثيرة منها : الدعوات التي ترى أن الإنسان ليس إلا دترساً ، في آلة كبيرة ، ليس له وجود أو كيان منفصل ومنها صيحة الحرب المدمرة ، وما حصدت الحرب العالمية الأخيرة من أرواح وما يزال يهدد العالم من أخطار الصواريخ والقنابل الذرية كل هذه الأخطار حين تواجه النفس الإنسانية التي تهرت عن الإيمان بالله لا تجد طريقاً لها إلا الاتجاه في طريق الإنحلال حيث يتصور أن الحياة هي الغاية الوحيدة وهي في نفس الوقت غاية مهددة بالزوال في أي لحظة هذه هي النار التي توقد الوجودية تحتها وهذه هي الصيحة التي ترفعها لتخدم الهدف الكبير السكسن من وراثتها وهو إشاعة الإنحلال ودفع الإنسانية إلى الدمار الأخلاق .

ومن هنا يجد الشباب في صيحات سارتر ، والبير كامى أصداء مشاعر تطوف بالنفوس ، ثم لا تجد لها طريقاً إلا نهر العنف والإباحة وتدمير القوى الإنسانية وتدمير الوجودية حول عدة مفاهيم تصدر أحاساً من العقل المكسود ، والنفس المقلقة ، ولا تصدر أيضاً عن الإنسان في طبيعته الأصلية ولا فطرته السليمة . وتتلخص هذه المفاهيم في هذه الصيحات .

إن الحياة بلا معنى ولا هدف . وإن العالم وجد كي يموت فيه الإنسان وإن الفكر محكوم عليه بالوحدة . وإن الإنسان محكوم عليه بالقلق وما دمتنا سنموت ، فليس لأي شيء معنى وإن مفاسرتنا البشرية لا جدوى لها اليوم كالغد ، والغد كيمد الغد ، وإنه لا طعم لشيء ولا لذة لشيء ، ولا أمل في شيء ، ولا بأس من شيء . هذا العالم وجد بلا داع ويمضي لغد غاية يولد كل مولود بدون سبب مقتل

وبلا دواع وتمتد حياته بواقع من الضعف ثم يموت بالمصادفة، العالم كله خداع في خداع إننا موجودون عقل . والعالم يهوى إلى غير هاية .

(٢) يمكن القول بأن الوجودية : هي إحدى محاولات الفكر الغربي في فهم الحياة فهماً منفصلاً عن الدين والأخلاق ، في نطاق النظرية المادية وهي تتطابق من نفس منطلقات الفكر الغربي القائم على الإنشطارية بحيث ترى النظرية الماركسية ، تحمل مشكلة الحياة في مجال الإقتصاد . ترى النظرية الفرويدية تركو على مجال النفس ، وعمرى نظرية ، سارتر ، تقف عند الرفض المطلق لكل القيم الروحية والمقائدية كحل في سبيل القول بحرية الإنسان .

ولا ريب أن استعلاء نظرية فرويد في التركيب على الفريضة الجنسية وتشابكها مع نظرية لينق بريل في القول بأن الأخلاق ليست ثابتة ، قد فتح الباب واسماً . أمام إسقاط جوديد لتحل معه العشوائيات والمقومات التي تفصل بين الخير والشر وبذلك اندفعت النفس البشرية إندفاعاً خطيراً ، إلى مجال الخوف والذعر ، والضياع ، وقد حسبت أن إندفاعها لتحقيق مطالبها وأهوائها وشهواتها ، وكسر كل القيود والحدود ، سيحقق لها السعادة ، أو الطمأنينة أو اللذة .

وتعد الوجودية ثمرة هذا التطور الخطير نحو الإنحلال . وقد وصفها الدكتور حامد حمار بأنها مرض العصر يقول : زعم فرويد أن درافع الناس ، وظواهر النفسية المختلفة تنبع من الطاقة الجنسية المستقرة في اللاشعور والإنسان في نظر هذه المدرسة (مدرسة فرويد) إنما هو حيوان بشري تسميه غرائزه ودوافعه الفطرية وقد صادفت آراء فرويد هو في مجال الطبيعة الوسطى في المجتمع الفوضوي في أواخر القرن - ١٩ ثم انحلت هذه الاتجاهات بعد الحرب الأولى أداة لتفسير سلوك الإنسان ، ثم كانت محنة الحرب الثانية وما أتت به من وسائل الدمار والفتك تجربة بشرية قاسية أقمى بمكتسب من الحرب العالمية الأولى وخاصة في أوروبا . وفي مثل هذه الظروف كان الجور السيكولوجي ملائماً لظهور أفكار الوجوديين ، وتفسيراتهم للتشاورية هذا الوجدان القلق عند الإنسان الذي يشعره بأن الكون سائر نحو العزلة والوحدة والعدم (هيدجر) هذا الشعور المرضي (من المرض) الذي يشبه الفتيان على حد تعبير (سارتر) . وهذا العالم الذي نعيش فيه ، عالم هش قابل للاستكسار السريع والتخبط المروع وإذا كان لنا أن نسأل عن القوى التي ضمنت الحربين العالميتين ، والتي أبادت منهما ، والتي خططت لها لتحقيق غاية من ورائها بالذات ، ومن نتائجها وأثرها في البشرية بعد ذلك ، إذا كان لنا أن نسأل وجدنا الإجابة واضحة ، فإن عظومات التلودية ممثلة في الصهيونية العالمية هي التي صنعت كل ذلك فهي مسخرة الحرب ، وفي نفس الوقت صانعة الدعوات والمذاهب .

ولا ريب أن هذا اليأس والتفوق الذي تكشف عنه الوجودية في منهجها وفي تصرفات أتباعها ، يدل على الانقطاع الكامل عن كل مصادر الإيمان بالله ، ومصادر الخير والرحمة والحب والإخاء البشري وكل هذه القيم الانسانية العليا التي يقوم عليها نظام المجتمع والحياة إن اليأس من رحمة الله والانفصال

هن الايمان بافه والاندفاع وراء المادية الجافة قد ولد في النفوس هذا الخواء الروحى والفراغ . وإن المحاولة بدأت منذ وقت بعيد وانتقلت بين الاجيال حتى وصلت إلى نقطة وصفها (كاسى) بالفتيان .

وقد وصفت الوجودية بأنها مرض الإنسان في منتصف القرن العشرين وبأنها مرض العصر ، وهى فى مجملها : الملل والقلق والسأم والضياح والتوتر والضمور بالاغتراب ولا يهب أن هذه الصيحات كافى يمكن أن تمضى ، ولا تترك هذه الآثار البعيدة فى العالم كله . لولا وجود قوى خفية تعطلها وتدفعها إلى الامام حتى أن كتاباً يصدر فى باريس بالفرنسية عنها تصدر طبعته بالعربية فى نفس الوقت فى بيروت .

وبتسائل البعض لماذا نجحت الوجودية فى أوروبا . وفى بعض أجزاء من العالم والإجابة معروفة . يرجع ذلك إلى اعتناق المذاهب المادى ، وما يتصل به من دعوة إلى الانحلال والوجودية ثمرة لهذه الفردية أيضاً وتحرق محاولات دائبة لتجديدها كلها ضاعت أو سقطت ، حتى لقد وصف أحدهم القرن العشرين بأنه قرن سارتر ، وأن سارتر هو إعصار وأن الوجودية هى مصدر كل الفلافل والاضطرابات التى حدثت فى هذا القرن .

٣ - إن دراسة مسيرة حياة سارتر تكشف عن الحافىة التى تقف وراء هذه المفاهيم . ذلك أن مفاهيم سارتر التى أطلق عليها اسم الوجودية ، لم تكن إلا صدى مشاعر نفسية . يقول سارتر : فى كتابه السمكيات ، لقد صنعت ذاتى لأنى لم أكن ابناً لأحد ، وسارتر : يعرف بأنه حين وهى نفسه لم يكن له أب ، ولا أم ولا أسرة فقد مات أبوه وهو فى شهره الثالث ، أما أمة فكانت عموخة الشخصية ولم نعهده أبداً بخنان أمومتها . ولم تكن الأسرة تتمدى جدين عجوزين يؤذيانه هو وأمه ويقمرانها بالمهانة .

وكانت نظرة سارتر إلى البشرية نظرة مليئة بدعطف مشوه . أساسه الاحتقار . وأراد أن يؤكد ذاته . فأنكر الكنيسة ، وحاول أن يكون له رسالة ، وهو الطفل المنبوذ فى مجتمع الأطفال الماديين ، فالنفس الوجودية ويرد كثير من الباحثين ترمد سارتر إلى مفاهيم المسيحية الغربية التى لم تستطع أن تستمد نفسه ، أو تعطيه الإحساس العميق بذاته ومن الجواب التى كانت مصدر ثورته وتحدياته أن الحياة لم تكن بذات قيمة فى نظر أهل مجتمعه ، وكانت هناك فكرة الخطيئة وكانت هناك محاولة تحرير الجسم الانسانى من كل رغبة وشهوة . وأن ذلك كله قد دفع الناس إلى إنتظار مملكة فى غير هذا العالم وهزلة ورحبانية بعيدة عن المجتمع فى قلب الصحراء . هذا هو التحدى الخطير الذى واجهه سارتر فى حياته فكانت من ثم فلسفته متأثرة بكل هذه العوامل . وقد صورت ، سيمون دى بوفوار : سلوك سارتر فى الحياة ، فقالت : كان يكره الحقوى والواجبات وكل شيء رصين فى الحياة وهو لا يهكاه يفهم أن له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض وإن يكون أبداً رب أسرة حتى ولا رجلاً متزوجاً ولم يكن سارتر يرى فى الزواج شيئاً عظيماً كان فوضوياً أكثر منه نورياً . كان يجد المجتمع

على ما كان عليه شيئاً محترماً . وهكذا نجد سارتر خصماً للدين على النحو الذي عاشته أوروبا ومنه امتلكت خصومته إلى كل قيم المبادئ والأخلاق ، وهو في هذا شبيه ، بفرويد وماركس . في دهرتهم الصارخة إلى عدم مقررات الدين والحزب الدفين على الكنيسة . ومن هذا المنطلق وجدت الأيدلوجية النلودية واحداً من أهدافها في محاربة الدين بالفلسفات ، على نحو أدركت به ثاراً ، مظهرت إليه زمناً طويلاً وقد أطلق على الفلسفة الوجودية : أمم الفلسفة الإنحالية . أو فلسفة عدم وهي تلتهم مع الفلسفات المادية في إنكار ما وراء المادة ، وتختلف معها في الدعوة إلى احتقار الحياة .

ولا ريب أن قادة الدعوة الوجودية كانوا جميعاً من الشعراء ، وكانت حياتهم الخاصة مليئة بالإضطرابات (كير كجورد - جابريل - مارسيل - هيجر - سارتر) واقد ظالت الصفحات التي كتبها كير كجورد نحو مائة سنة مضمورة حتى أخرجتها اليهودية النلودية في أوائل هذا القرن وإذاتها وتوجهتها وقد أظن مر جرد حرباً لا هراة فيها على الإيمان المسيحي كله متابعة لحلة أشد عنفاً منها . وبنته ، وقد أشار المؤرخون وكتاب السيرة إلى إنحرافات أساسية في شخصيات فرويد ونيته . أما كير كجورد فقد كانت أمه عادمة عائلتها أبوه مراً وكان هو أحذب بما ضاعف حالته النفسية ، وكان ذلك يزيد شعوره بالنقص . فاهتول المجتمع وعاداه . وكانت مؤلفاته العشر من هجومياً على معتقدات مجتمعة الدينية وهذا للكنيسة وتدميراً للفكرة المسيحية ودعوة إلى الناس بعدم الإيمان إلا بأنفسهم ومن هنا أصبحت الوجودية حرباً سافرة على الأديان كلها .

٤ - أخطر ما في الفلسفة الوجودية دهرتها إلى نفي الألوهية وإلى عبادة الذات فهي تدعو الإنسان إلى أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع . ويطلق لحرمة العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع والملاذات .

ويبدو موقف سارتر من الألوهية مشوباً بفهم خاطئ . مستمد من الفهم القائم على ألوهية الإنسان ولذلك فهو يدعو إلى تأليه كل إنسان - ولو فهم سارتر د الألوهية ، بمعناها الحق : معنى الإله الأعظم الذي لم يلد ولم يولد - والذي لم يتصل بأحد . وليس لأحد أن يتصل به على أي نوع من أنواع الاتحاد ، أو الحلول أو وحدة الوجود ، لمكان له موقف آخر أما نظرية تأليه الإنسان التي دعت إليها الفلسفات اليونانية ومارستها عقائد ونحل أخرى ، فإنها قد فطحت باباً واسعاً للدعوة إلى عبادة الإنسان ، وتأليه كل إنسان .

وفي رواية الذباب يخاطب سارتر (رب الأرباب) جوبيتر ، فيصفه بما عرف في الفلسفة اليونانية من مفهوم خاطئ . من الله . فيقول : ما إن خلقتني حتى انفصلت عنك ، وتخلت عن نسبتي إليك الخ . وهذا مفهوم بعيد كل البعد عن مفهوم الاسلام لله سبحانه وتعالى الذي يختلف عن نظرية الأبو والذى يقوم على مفهوم العبودية .

وقد وصف بعض الباحثين إلحاد سارتر ، بأنه إلحاد ينصف بقوة غالبية على الإلحاد الحديث .
ومع : أنه ليس مجرد إنكار لله ، بل هو أبعد من هذا ، لأنه يضع الإنسان في مواجهة الله ، أو يملأ
تجاهله لوجود الله هو وجل ، على حد قوله : الإله موجود فالإنسان عدم .

ويستند سارتر مفهومه هذا من نيته ، ومن المصادر الوثنية اليونانية القديمة ، ولا ريب أن
سارتر ونيته متأثران بأبلغ التأثير باضطراب مفهوم الألوهية السائد في الفكر الغربي ، قبل عصر النهضة
ولو أن الفكر الغربي تقبل فيما تقبل من الفكر الإسلامي حين نقل المفهوم العلمي التجريبي : مفهوم الإسلام
في الألوهية لكان هناك اختلاف كبير في اتجاه الفلسفة الحديثة . ذلك أن الإسلام لا يقر القول القائل :
بأن الله صنع الإنسان على صورته ، وهو قول لا يؤيده القرآن ، ولا شيء من السنة النبوية الصحيحة .
وهو قريب من مفاهيم الغنوصية القديمة . (وما قدروا الله حق قدره) وليست فكرة قسطنط الإله
على البشر في مسرحية الذباب ، إلا صورة من الفلسفة اليونانية وهي فكرة زائفة ، والعودة إلى إحيائها
ودرجع بالبشرية القهقري بعد أن صحح الإسلام مفاهيمها في علاقة الله بالإنسان ، وهي علاقة الرحمة
والعفو ، كما تربط الفلسفة الوجودية بالخطيئة التاريخية .

يقول الدكتور محمد غلاب : إن منشأ الفسق ، بل الفم أحياناً ، عند أولئك المفكرين ، هو أن
المسيحية لا تقدم ترضية تامة إلى مطالب العقل الذي يتوق إلى فهم كل شيء ، بل إن العقيدة المسيحية
كثيراً ما تتطلب تحلل الفكر عن رسالته ، لأن بعض مبادئها يصطدم مع العقل الذي لم يعد لقبولها .
قال باسكال : إن الخطيئة المنصرفة هي في نظر الناس حرب من الجنون ، ولكن الذين يقدمها على
هذا النحو . وإذن فيجب أن تأخذوا عليه عدم تأييد العقل لهذه العقيدة لأنه يقدمها بدون مسوغ .

(هـ) تبدو الفلسفة الوجودية ، كأنما هي مواجهة للفلسفة الماركسية وإما ندهو إلى التضحية
بالمجتمع في سبيل الفرد في مواجهة تحديات الماركسية القائمة بالتضحية بالفرد في سبيل المجتمع . ومن ذلك
قولهم : الفرد يعيش ضمناً في الماركسية ، ويعيش أصلاً في الوجودية . وهي بالرغم من دعوتها إلى رفع
قدر الإنسان . فإنها تعامله في نطاق الفلسفة المادية ، تعامله على أنه حيوان مادي له غرائز وأهواء ،
وتفني لخصاه كاملاً عن جوانبه الروحية والنفسية والمعنوية ، وهي دعوة إلى الانطلاق للتحرر من
كل قيد أو ضوابط أو قيم . وتقوم أساساً على إنكار الألوهية ، وإنكار البعث والجواز والأخلاق ،
وهي تطلق أساساً من فكرة خاطئة هي : اليأس من الحياة ، وتواجه المسيحية والفكر الديني الغربي
والكنيسة مواجهة خاطئة . وقد وصفت الماركسية الوجودية بأنها دعوة إلى نشر تعاليم الفوضوية
العقلية والخلقية ، واحتقار العلم والأخلاق .

وقد وصف الدكتور روجيه جارودي الوجودية على هذا النحو : الوجودية فلسفة الاستمرار .
فلسفة عدم لا بناء — فلسفة تدبير للخصبة الإنسانية — فلسفة إسقاط لنفس الإنسانية في مجالات
الغنى والقهوات ، بحيث تصبح غير فاعلة على الدوام عن نفسها أو تركيز وجودها — فلسفة مادية .

تستهدف الاستمتاع المريح وخفية الموت . وقد حارس النظرية الوجودية مفكرون غربيون كثيرون وحسروا أخطارها في عدة نقاط أساسية :

(أولاً) إنها تجعل الإنسان في عزلة عن الجماعة (ثانياً) إنها تستطيط إبراز الفيبج من جوانب الطبيعة الإنسانية ، وتدهو إلى الانحلال (ثالثاً) إنها الأوامر الإلهية - وتنكر القيم الخالقة . (رابعاً) إنها تدهو إلى اليأس المطلق والنشاقم الكلى ، وتدهو إلى هدم الحياة (خامساً) إنها دعوة إلى الفرار على الواقع والقيم جميعاً ترفض كل ما يتصل بالإنبيبات والذفس الإنسانية وتقف عند الإيمان بالاحم والهم (سادساً) إنها تنكر حصول البشرية من القيم والتجارب ، وتدهو إلى أن يبدأ الإنسان من جديد (سابعاً) تحتقر العلم والدين والأخلاق (ثامناً) ليس فيها نقطة واحدة تفتح الطريق أمام التقدم أو بناء الحياة أو العمل من أجل مجتمع أفضل (تاسعاً) هى فلسفة مرفقة فى الفردية . تنسكو الحقيقة الموضوعية للواقع الإنسانى .

(عاشراً) الأخلاق الوجودية هى الأخلاق المريضة : القلق والفنوط والنشاقم والرغبة فى الموت والغفوض والآناية المفرطة (حادى عشر) الدعوة إلى جدهة اليأس والتحريرى على الانتحار (ثانى عشر) تفويض المجتمعات وهدم الأمل والخلق والغيرة ومعارضة الشجاعة والتضحية . (ثالث عشر) دعوة إلى التسلل من القواعد الأخلاقية .

وقد حارس الباحثون هذه المفاهيم وكشفوا عن ريفها ، وأعلن الكثيرون فى صراحة أن الوجودية ظاهرة دمنية عابرة أن يلبث الانسان أن يتخطاها وهى ليست روحاً Essence

(٦) لا ريب أن الدعوة الوجودية غربية عنا وعن مجتمعاتنا وعن قيمنا كل الغريبة ، ذلك لأنها نتاج تحديات وظروف ومواقف مختلفة تماماً ، وهى فى مجموعها لا تمت إلى مفاهيمنا بسبب ، وهى ثمرة مجتمعات معينة فى ظروف معينة . ونحن نعرف أن الفكر الغربى كله يمر فى هذه السنوات بأزمة حاصفة وبواجهه تحديات خطيرة . وأن الصهيونية العالمية من خلال أيدولوجيتها التلودية قد احتوتها تماماً وصرحت فيه كل قوة وكل خير وهدمت دعائمه الأخلاقية وعزلته عن مفهوم الدين الحق عزلاً تاماً .

ومن عجب أن الكثيرون فى بلادنا يفهمون هذه الحقيقة ، ولكنهم ينظرون إلى هذه الدعوات من خلال مظاهرها البراقة الخادعة ، بينما تهاونتها مجتمعاتها لفسادها ولأنها وجدتها معارضة تمام المعارضة للنطرة والطبيعة الإنسانية وقيم الانسان العليا ، إن الوجودية ثمرة أزمة الانسان المعاصر ، صريع النظرية المادية التى أعطت من شأن الصهوات والأهواء والذفات ، وفتحت الطريق أمام الفرائز بعد أن هدمت جدار الضوابط والحدود والقيم ، وأبرز معالم فكرنا وحضارتنا ومجتمعاتنا : هو ذلك الترابط بين الروح والمادة ، والنوازن بين الدنيا والآخرة فى إطار التوحيد الخالص لله ، والإيمان بالبعث والجزاء والدين جزء من مجتمعاتنا وفكرنا ونظامنا المختلفة ، والأخلاق قائم مشترك على التربية والإجتماع والسياسة والاقتصاد .

الفصل الثالث

الهيبية

(١) الدعوة الهيبية هي آخر ثمرات التطور الذي بلغته المجتمعات المعاصرة في طريقها الذي اختطته في ظل المذاهب المادية . وفي معارضة كل مبررات الإنسانية من القيم والضوابط والأخلاق والمقائد . إن الدعوة الهيبية تنطلق من القول بأن الإنسان للمعاصر يشكو القلق والتفريق ، وأنه لا يجد الإجابة على أسئلته ، ولا يستطيع أن يفهم سر وجوده . وأن هذا كله قد أسلمه إلى غربة قاسية ، ولا ريب أن هذه الصيحة التي تسود المجتمعات الغربية والغربة والخوف من المجهول ، قد بانت مصدر صدع كبير في بناء الأمم ، وأمسى الناس يمشون بالرغم من كل ما يحوطهم من عوامل المنة والبهو في فراغ نفسي وفي وحشة وانفصال .

لقد فشلت كل الأيدلوجيات والأنظمة والمذاهب التي حاولت أن تقدم للإنسان منهجاً للحياة ، لأنها إما قد اعتبرت أزمة الإنسان أزمة معدة وطعام في الأغلب أو أنها أطلقت الفرائز إلى غير ما نهاية ودفعت الناس كالكلاب المسعورة وراء الأهواء والذوات . ثم عاد الإنسان من رحلته هذه ، وذلك ، بإحساس عجيب . لقد أصبح غريباً في مجتمع صاحب بضج بالمغريات والمتع . والجواب هو شيء واحد : إنه فقد لذة الإيمان ، عطاء الروح ، صمام الأمن في سكينته النفس ، فقد روح الحرية الحقة والثقة والناس الرحمة من مصدرها الوحيد . وقد حاول الباحثون استقصاء مصدر الدعوة إلى الهيبية وهي آخر صيحات التحرر والانطلاق من كل القيم والضوابط والقيود ، فلم يجدوا إجابة لها أكثر من الغربة .

يقول كولن ولسن في كتابه الغريب : « الغربة مرض تمتد جذوره إلى بعيد ، وهو مرض متصل بتصدع الذات وانشقاقها نتيجة لعدم توافرها أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه ، والغربة المعاصرة تختلف عن الغربة التي عرفتها العصور الماضية . فقد كان الغريب برغم حيرته وشككه لا يفقد الإيمان ولا ييأس من الوصول إلى الحقيقة . أما الغربة الحالية فهي غربة إنسان عاجز عن الإيمان بوجود أي شيء ، وكان الغرباء قديماً يحاولون تحقيق الانسجام والموامة مع العالم بالرغم من خلافهم معه . أما الغرباء المحدثون فإنهم يرفضون المجتمع رفضاً كاملاً وينفصلون عنه انفصالاً تاماً .

ويرد الباحثون ومنهم كولن ولسن الأذمة إلى أصولها القديمة منذ دعا نيتشه دعوته إلى بناء المجتمعات على أحاسيس القوة والافوياء وقتل المرحى والضعفاء بلا رحمة . وتجرى القصص والروايات كلها لتحمل هذا الطابع المظلم الذي يستمد الفكر الغربي من الخطيئة الأولى .

فهذا ديستوفسكى في روايته يرسم صورة إيفان الذي يقول إن فكرة الألم فكرة مسبقية بهذا الكون متغلغلة إلى أعماقه ، ومن المأساة استئصالها .

ويرى ولسن أن الطابع الذي طغى على الأدب الغرب ، إنما يتأخص في عبارة واحدة : إنها فكرة الإنسان الذي فقد إيمانه بالله ، ولم يجد ما يعوضه عن هذا النقص . إنها أزمة العقل للسيطر على الإنسان . أضف العقل للصرف مركز الإشعاع العاطفي في الإنسان وهو العقيدة الدينية . ثم جاءت بعد ذلك التطورات الخطيرة بمنة في (فرويد ، وماركس ، ولبنى بريل ، ودوركايم ، وسارتر) وكلها تحطم الإنسان من حيث هو إنسان وتدفعه من حيث هو فريضة ولحم ودم إلى الانطلاق نحو مطالب الجنس والذات . ومن هنا فقد أصبح عارياً تماماً ، وأصبح جزءاً من كل قد غطى بأغشية تحول بينه وبين الحياة . لقد وضع كيانه الوجداني وإحساسه النفسي وطموحه الروحي موضع التجميد والانكار والكمس الحقيقي . فعاش برثة واحدة . فكان لا بد أن يحس بالغرابة والتقيان والتمرد والقلق ، لأن قوة حقيقية موجودة في أعماقه قد أصبحت خبيثة بينها أطلقت القوة الأخرى ، وكان التوازن واللواءمة الطبيعية بين قوى الإنسان الجامع بين الروح والمادة هي عامل الحياة الحقيقي) .

هذه هي الأزمة الحقيقية وراء الدعوة الهيدية التي تحتاج أجراء كثيرة من العالم اليوم بغرابة تصرفها وخروجها على قيم المجتمعات ، وعودتها إلى أخلاق الغايات وطبائع الأدغال . إن هناك تواطؤاً في الأحماق بين الواقع المادى والصرف وبين هذه القوى المحبوسة . لقد تحولت الحياة في المجتمعات الغربية من النقيض إلى النقيض . كانت المصور الوسطى . وسلطان الكنيسة يحبس السكبان للمادى ، ويدعو إلى الزهادة والرهبة ، واعتزال الحياة وإنكار النواحي الفطرية الأصلية في النفس الراغبة إلى الممارسة والتنفيس . فلما كسر هذا القيد ، بلغ الإنسان أقصى المدى من الناحية الأخرى ، غلبت العواطف والرحايات وأطلق الأخرى ، ودعا إلى وثنية وإباحية عاصفة .

ومن هنا فإن أزمة الإنسان الحديث هي نفس الأزمة القديمة ولكن على المحور الآخر . لقد هجرت الفلسفات والمذاهب والأيدولوجيات أن تعطي الإنسان : التوازن ، والاعتدال ، والتكامل ، والوسطية وللواءمة بين عنصرين حقيقيين في الإنسان لا سبيل إلى تجاهل أحدهما أو إعلانه على حساب الآخر .

إن حجب الجسم عن غرائزه الفطرية الطبيعية ليس أقسى من حجب الروح عن ظلماتها الأصلية . وكلاهما شر خطير مدمر ، والاسلام في هذا يمثل الأصالة والفطرة ويكشف عن أنه من عند الله حقاً ، خالق الإنسان والمعارف بجوهره وطبيعته . فالاسلام يقرر وجود الإنسان روحه ومادته ، غرائزه وأهواءه ثم معطياته العليا ، وهو يفسح له مجال ممارسة هذه وتلك ويضع لها مآخض ضوابط تحول بينهما وبين الاسراف والجور . فالاسلام لا يقر الرهبانية ولا يقر الإباحية في نفس الوقت . ولكنه يدعو إلى أسلوب وسط فيه مزيج هادى ، ومن خلال ضوابط تحمى النفس الانسانية والجسم الانساني من أن ينهار إذا فرض عليه أحد الخطرين : إعطائه الحرية المطلقة حتى يتعظم وينهار أو إعطائه الرهبانية حتى يفسد ويذبل . ومن هنا نشأت الغربة وشككت أخطر أزمة تواجه الإنسان الحديث) .

إن الحلول التي وصفها البهر كاشي ، وسارتر ، لم تستطع أن تحل هذه الأزمة . بل زادت حدة . فقد انطلق الوجوديان من منطلق مادي صرف ؛ إن الدعوة إلى التحرر من القيم المتوارثة ، إنما هي دعوة إلى التحرر من الدين ، ومن العقائد ، ومن الإيمان بالله . وهو لا يحل المشكلة ، بل يزيد من تعقيداً . وهو لا يهدي إلى ضوء ، ولكنه يدفع إلى مزيد من الظلام . إن الاحساس بالقلق المبهم الغامض الذي استبد بالإنسان المعاصر لم يكن إلا نتيجة سيطرة المادة وسيطرة الدعوة إلى تأليه العقل وتقديسه واستخيه العلم في إشمال الحروب وابس هناك سبيل للوصول إلى حل إلا بالعودة مرة أخرى إلى الحقائق الأصلية التي عرفتها البشرية ، منه نشأتها واهتدت بها العودة إلى النظرة إلى الدين الحق ليست المادة هي كل شيء ، وليس العقل إلا جهازاً من أجهزة كثيرة ، أعطاها الإنسان لبناء حياته . وليست الحضارة في خدمة الحرب والدمار ، وإنما هي في خدمة البشرية ودفعها إلى التقدم ؛ فهو الكمال التقدم المعنوي والمادي معاً ولذلك فإن الطريق الصحيح : هو التحرر من القيم الوائفة البالية التي استحدثتها المذاهب المادية .

يقول الدكتور مصطفي بدوي : إن أزمة الإنسان الحديث . هي أزمة الإنسان الحساس العاقل الذي فقد إيمانه بالله ولم يجد ما يستد حاجته العاطفية التي كان الإيمان مركز إشعاعها وهي أزمة العلم ، والتفكير العقلي فيها دوراً بالغ الأهمية أدى في نهاية الأمر إلى ضعف العقيدة الدينية وهي أزمة كانت إحدى نتائجها الغريبة : إضمار الإنحلال العقل والتفكير العقلي وبطل كوازيه : إلى ناس للنتيجة تقريباً حين يدعو إلى استنباط موقف ديني ، ويدعو إلى تحقيق أساق وتوازن بين قوى الإنسان الثلاثة : الجسم والعقل والعاطفة . لأن الإنسان وحدة لا تتجزأ يقول :

(ليس الإنسان بقادر على أن يخلو عن نفسه ما يعتره من صدام ، أو ما يقف إحساسه من سماكة إلا إذا ظفر بشيء من السلام النفسي والهدوء الروحي إن التأمل الروحي قد يؤلف بين الإنسان والوجود وإن هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة ويجعله ينمو مع ما ينمو حوله من عناصر الطبيعة عند ذلك سوف يكون لكل شيء معنى روحى . فالأرض ، والماء ، والنور ، والنفا والازهار . لن تصبح في هذه الحالة مجرد ظاهرات طبيعية يستفيد منها الإنسان حتى إذا بطل نفعها بطل التفكير فيها ولكنها تصبح أشياء ضرورية في تحقيق الوحدة بين الإنسان والوجود) .

ويرى ولسون أن أزمة الغريب فقدان الإيمان يظل فيها على حالك من القلق والتأمل والمذاب حتى يظهر بشيء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة عندئذ سوف لا تبقى النظرة إلى الأمر هي الغالبة في تفكير الغريب . ويرى ولسون أن الاعتداد على التفكير العقلي المجرد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب فإن نمرة إمكانات أخرى في الإنسان لا بد من استغلالها (هي الإرادة والعقل والعاطفة) . وأن الغريب الذي ضعف عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهرة عامة في حياتنا المعاصرة بحاجة ماسة إلى (بديل) يشبع عنده العاطفة الدينية ، ويجد عندما الملاذ الذي يبحث عنه وهو يدعو إلى تحرير الإنسان المعاصر أولاً وقبل كل شيء — وهو بالطبع يقصد

الانسان الغربي - من معتقدات وحمية كثيرة أهمها فكرة الخطيئة الأولى التي تسيطر على الإنسان المسيحي والتي تقف حائلاً بينه وبين رؤية الحقيقة. ويرى أن على الغريب أن يتخلص من الخطيئة الأولى لأنها في حدود فهمه لها هي ما يوجب الحقيقة عن روح الانسان . وإذا كان كوان ولدون قد أصاب الحقيقة فإنه أخطأ العلاج حين دعا إلى رؤيا صوفية ، وإلى إحلال الإرادة محل الايمان . وحين اتجه إلى الفلسفة الهندية القديمة ؛ يطالب منها العطاء الذي يمكن أن يعطى للانسان المعاصر في أزمنة تزيافاً شافياً وتلك هي محنة الفكر الغربي الذي تسيطر عليه غمططات الايدولوجية الصهيونية للتلودية فإنه حين يبدو أن الانسان الحائر قد وجد مشكلته فإنه سرعان ما يدفع به إلى متاهة أخرى وماذا عليه لو أنه وجه الحائرين إلى الاسلام ، وفيه وحده العطاء الحقيقي . إن الفلسفة الهندية القديمة التي ستعطى الإنسان المعاصر في أزمنة علاجاً ، لن تعطيه إلا دورة جديدة من دورات المحيرة والفاق والغربة حين يقطعه . وحدة الوجود والحلول والاتحاد ومفاهيم وثنية أخرى لا تقل خطراً عن مفاهيم الوثنية الإغريقية التي صنعت أزمنة وأسلته إلى مكان الغريب ، إن الفلسفة الهندية سوف تعطيه من يبدأ من الغربة والمحيرة ولن تعطيه الإرادة التي شاء أن يدعو إليها كوان ولسون ، ولن تعطيه حقيقة الايمان وجوهره الذي لا ينطلق إلا من خلال إيمانه بالله الواحد الأحد . الذي لا شريك له خالق كل شيء ، السكون والانسان من الحق أن نقول إن ولسون وغيره قد خطوا خطوات واضحة في دعوتهم إلى التحرر من سلطان العقل ، والمادة والخطيئة الأولى ولكنهم لم يستطيعوا مع الأسف تجاوز الخطر . أو استيعاب أسباب الأزمة ذلك لأنهم يتطلعون من منطلق الفلسفة المادية أيضاً . إن هذا الطابع المتجهم الحامل للقشازم الفارق في مفاهيم الألم والقسوة والانتقام والحربة والضباب الخيم ، إنما يعمره إلى مفهوم الغرب الخطأى . انهاء الأبطال للتراجمية التي تتمثل في الصراع بين الآلهة وبين الإنسان ، والتي تستمد وجودها من ارتباط الفلاسفات بالآثار التي تركتها العقائد القديمة والتي لم تستطع أن تفصل فصلاً محكماً بين الله الواحد الأحد وبين الانسان والعالم والخطأ الذي اتصل بتحول الانسان إلى إله وعبادة الأبطال ونحوهم إلى آلهة وأنصاف آلهة مما يفرق فيه الفكر الغربي فلا يستطيع معه أن يجد سبيلاً إلى رؤياً مشرقة قائمة على الأمل في الله مضيئة بالرحمة والسماحة والأخوة بعيدة عن قسوة قيثته وعبادة الفرد وتصور السكون على أنه الله . ومفهوم الخطيئة ومايجره من آلام وقسوة لا تقتصر . إن الانسان ليس الموجود الوحيد ولكنه خلق الله وعبادته وهو مستخفاف في الأرض في امتحان لقدرته على أداء الامانة ومن خلال الضوابط التي أحكمت حماية له وحماية للمجتمع ورفعاً له عن مكانة الحيوان ، وتكريماً له بالجمع بين الروح والمادة والقلب والعقل والدينيا والآخرة .

ولا ريب أن مفاهيم الفلاسفات الوثنية القديمة حين اختلطت بالعقائد قد أعطت صورة مظلمة لمفهوم الله والسكون والانسان فلما جاء العقل الناقد وقف من هذه المفاهيم موقف الإنكار وأحس بسحر هذه العقائد من العطاء الحقيقي ، وتلك أزمنة الحقيقة التي دفعته إلى إنكار الله ، وإلى الشك في كل رحمة وفعل . وهذا هو الذي زلزل إيمان الناس وأفسد عقائدهم . وكان مجرم عن معرفة الدين الحق ونقصهم إزاءه وخصوصتهم له مصدراً من مصادر الاضطراب الذي ما زال يذلل

القلوب وما تزال اللامات تفتح أبراجها لهم لتدفعهم من وئدة الإهريق إلى غنوصية الشرق القديم فلا يخلق ذلك إلا مزيداً من التضارب والغربة والغشيان . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبوه ولا تلبسوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . إن أبرز ما أعطاه العقل في رحلته بلا دليل ، وفي استعلائه وتفرد ، والتفرد على نواميس السكون وصفن الطبيعة البشرية ومحاولة خرق هذه السنن والنواميس بإنكار الله ، والناس طرق وأساليب ما زالت تنساقط واحدة بعد أخرى . عاجزة عن أن تهدى النفس البشرية إلى أى حق أو تفتح لها أى كوة من ضوء .

٢ - إن صيحة اليوم في مواجهة القلق والغربة هي : أن كل ما حاولت البشرية أن تحققه في رحلتها الطويلة إلى البحث عن الحقيقة ، قد أخفق لم تفاح الفلسفة ولم يفلح العلم ولم يفلح التاريخ لقد ألقي العلم جميع إمكاناته ومقدراته معترفاً بالعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة : لماذا نحيا حتى العلم نفسه باعتباره آخر درع قد أخذ في السقوط . إذا كانت الفاسفة عاجزة ؟ والتاريخ عاجزاً والعلم قد هجر فأين المفر ؟ وما هو الطريق ؟ هذه هي الصيحة اليوم فيما أسموه مجتمع غربة الإنسان هنا (ماركوز) فيلسوف الصهيونية الأكبر فيقول : إن مجتمع غربة الإنسان يجب أن يزول من التاريخ لأننا نصنع عالماً جديداً وهذه هي نفس الإجابة التي حملتها الروحانية الحديثة وهي نفس الإجابة التي حملتها البهائية .

إن (ماركوز) يرى أن الرأسمالية ، والماركسية ، كلاهما قد أخفقتا . وأن الطريق بمهد أمام النبوءة المجهولة الغامضة .

ويقف دعاة التبشير بالعالمية التي تستمد مفاهيمها من الايدولوجية التلودية صامنين لا يكشفون عن صورة المجتمع الجديد ، ويدفعون مجموعات جديدة من الشباب إلى الرفض وإلى الغربة دون أن يضيئوا أمامهم شمة واحدة وإذا كانت كل السدود قد سقطت فإذا أمام الأسئلة الحائرة ؟ لأنهم يهودون مرة أخرى إلى بحث الغنوصية الشرقية القديمة . إن مهاريشي يدعو إلى التأمل القائم على النشوة والمرح في ظلال (الماريجوانا) تأمل الذات والبحث عن الحقيقة في يتابع النفس . ولكن أى نفس هذه التي تستطيع أن تهدى ؟ إن المطاء لن يهوى من الداخل أبداً ولكنه يأتي من الكون الواسع . إن المعروفة لا يجدها طائها وراء الظلمات التي تملأ النفس بأهوائها وبأسها ، إن المطاء يأتي من الخارج : من كون الله الواسع الذي يلمم الحقيقة (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعدما موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

ليس غير الاسلام وحده ضوءاً يستطيع أن يهتدى به البشرية اليوم طريقها :

إن دعوة (مهاريشي) قد تحوالت إلى التأمل من خلال تعاطي العقاقير والمواد المخدرة (الماريجوانا - ل - س - د) ثم تحولوا عنها إلى مادة أقوى تأتيراً مادة ت -

— مادة س — ت — ب — التي يستمر مفعولها (٧٢ ساعة) كاملة وتحدث حالات عنيفة من الهياج. لماذا يريدونه ضعيفاً منهمكاً محطماً ؟ هل هي السعادة أو المعرفة أو البحث عن الحقيقة ؟ إنها اليأس القاتل ، إنها القنوط . ولكن المسلم لا يصل إلى ذلك إلا إذا فقد إيمانه ، إن المسلم لا يأس أبداً ولا يفتن من رحمة الله ولا يضل الطريق .

إن جماعات الوجوديين قد تحولات بالهيدية إلى جماعات الهروب من الواقع إلى السلبية والعنف . وطريقتهم هي العقاقير المخدرة وأفكار جديدة تليق إليهم كلها سلبية باسم الشيو صوفية من التراث الهندوسي القديم : براهما وبوذا وجينا .

والرثيون للشرقيون يعبدون هدها من الآلهة ، ويتخذون الانسحاب من الحياة طريقة لهم الوحيد إن الانتقال عبر الرحلة الطويلة من وثنية اليونان إلى وثنية الغنوصية لا يختلف كثيراً إلا في الصورة ، ولكنه حادبة أيضاً ، لأن الاهتمام بأن الكون المادي هو الله سبحانه ، إنما يذهب إلى أقصى درجات المادية . وهذا هو مذهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد . ليس الله سبحانه في الحقيقة هو هذه الحياة أو هذه الجبال والبحار والأنهار ، ولكنه هو صانع هذا الوجود وهو منفصل عنه وقاهر له ، ومعنى هذا أن فصل الفلسفة المادية لم يرد الباحثين عن الحقيقة إلا مزيداً من الفشل حين اتجهوا إلى الفلسفة الغنوصية الشرقية من الإباحة المفرطة إلى الزهد المفرط ، ومن تعذيب النفس بالشبهوات إلى تعذيب النفس بالحرمان ، وكلاهما يؤدي إلى الغربة والخوف والقتاوم . إنهم يقولون : إن الفلقين يرون الآن من طريق (بوذا — براهما — جينا) متقدمين كالقطيع وراء آخر دهوة تبشر بأمل لهم يجدون السعادة المفقودة ، لهم يجدون أنفسهم النائية وإيمانهم الضائع ، ونحن نقول : ولا أمل ، بل مزيد من الغربة ، فليس هناك عهد طريق واحد فليجربوه .

الإنسان في ميزان الإسلام

(١) لا ريب أن الإنسان هو محيط الفلسفات ، والمهدف للقصود من الدعوات الهدامة ، وهو موضع الامتحان من تجربة الحياة وللاوت كلها ، وهذه الدعوات تحاول أن تضع له منهجاً يخرج به عن فطرته وعن المنهج الذي قدمه له الدين الحق ، والمحاولة تنصل بأمر متعددة أهمها :

(الأول) محاولة القول بأن عقل الانسان كفيلاً بأن يهديه طريقة في الحياة . والعقل البشري جهاز قاصر ولا يستطيع بمفرده أن يهدي وإنما الهدى يتصل بالوحى . وهو العلم الرباني الذي لا ريب فيه ، ولا شبهة في أنه يقدم للانسان الطريق الصحيح بينما الريب والشبهات تحيط كل هذه الدعوات والفلسفات ومن ورائها أهواء البشر ومطامعهم . ولا ريب أن إعداد الانسان بالعقل البشري ليس كافياً وحده في التنبه بطريق الحق ، والعقل البشري ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شيء . وهو يستطيع أن يتفقد في عالم المحسوس ولكنه يعجز عن النفاذ إلى عالم الغيب إلا بهدى الوحى .

(الثاني) محاولة دفع الانسان الى خام كل قيد من قيود الاخلاق ، أو الاندفاع في الحياة لتحقيق أهوائه . ولا ريب أن الانسان بفطرته يعلم طريق الخير والشر وهو على هدى من الدين الحق يعرف أنه ممنون في الدنيا وغيره . واقد اعترف الاسلام للانسان برغباته وغرائزه ، وأعطاه حق ممارستها في إطار من الضوابط أهمها الاعتدال والحفاظة على السكينة الذاتية . وكشف له عن الخطر الذي يتعرض له من سلوك أسلوب التحرر المطلق .

(ثالثاً) محاولة إخضاع الإنسان للنظريات للمادية والقوالب المادية . ولا ريب أن الانسان غير قابل للخضوع إلى هذه القوالب وأنه كإنسان مكون من روح وجسد . لا بد أن يحكمه علم جديد يخالف النظرية المادية التي تقوم على أساس النظرية المادية المجردة إلى الوجود والحياة . لذلك فإن منهج دراسة الإنسان يجب أن يكون شاملاً ومتكاملاً على أساس أنه عقل وجسد وروح . ولا ريب أن النظرية إلى الانسان على أنه جسد ومادة (فقط) وتطبيق مناهج العلوم المادية أو التجارب التي أجريت على الحيوان من شأنها أن تستخرج نتائج غير حقيقية ومخالفة تماماً لواقع الانسان .

(رابعاً) خطأ القول بأن الانسان كان وثلياً، ثم أصبح موحداً فإن الانسان بدأ موحداً أصلاً ثم سقط في خطأ الوثنية بالانحراف عن رسالات السماء ثم ظلت الأديان تعيده مرة ومرة إلى جادة التوحيد . (خامساً) خطأ القول بالتطور المطلق ، ذلك أن التطور لا يحدث في فراغ ، ولا بد من مرتكز ثابت للبشرية تستطيع أن تتحرك حوله ، ولا بد من فلك قائم على أسس الثبات ، ثم تأتي الحركة من خلاله وفي دائرته .

(سادساً) ليس الانسان حيواناً كما تقول الفلسفة المادية ، وليس الانسان غنطاً يحكم ولادته كما تقول بعض المعتقدات ، وليس الانسان مجبور التناسخ كما تقول البوذية ، وليس الانسان عبداً للأهواء والشهوات ، بل هو قادر بتوجيه الدين إلى أن يجد طريقه إلى الخير والهدى : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاهما . وقد خاب من دساها » . وغاية الاسلام هو إيجاد التوازن في الفرد . فالإسلام لا يقر الوهادة ولا الإباحة .

(٢) ولا ريب أن طبيعة الانسان في حاجة إلى توجيه إلهي ، ذلك أن طبيعة الانسان لا تتخلف (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) والإنسان في صميم طبيعته نزاع إلى الفرح والفرح وإذا جاءه الخير ، ونزاع إلى اليأس إذا جاءه الشر . وقد وصفه القرآن بأنه خلق ملوماً . وأن علاجه في الصلاة والانصال بالله ، وهو علاج دائم متصل . وهو علاج متجدد مع كل إنسان وكل جيل ، ولن تستطيع البشرية مهما ارتقت مادياً أن تقول إنها أصبحت في غير حاجة إلى وصاية الدين أو توجيه الله والطبيعة البشرية في أصل تركيبها تنسى وتفعل . فهي في حاجة دائمة إلى موقظ . وموقفها القرآن الذي يذكر ويقرح الأذان والقلوب . من الواضح تماماً من أصول التشريع والأخلاق معاً أن الانسان في حاجة إلى ضوابط تكفل له السير في طريق الارشاد ، وأنه لا يستطيع أن يجد هذا الطريق إلا إذا أرشدته إليه القوة العليا عن طريق الوحي المنزل .

فالتفريع في مجموعه ضوابط من علاقات الفرد بالجماعة . والأخلاق في مجموعها ضوابط من علاقات الفرد بالفرد . وفي التفريع لا يباح التأويل أو التحليل أو الخروج عن حدود الله إلا في ضرورات قصوى ، وكذلك في الأخلاق ومن هنا تبدو ضرورة وجود ظاهري « الضبط » و « السكظم » وهما غير ما يطلق عليه في المصطلحات الحديثة « الكبت » ، ولو كانت الطبيعة البشرية بقدراتها التامة . تعجز عن التماس طريق المهقة المتمثل في الامتناع عن حدود الله لما فرض عليها ما ليس في استطاعتها ولولا أنها قادرة على معارضة اتجاه الأهواء والرغبات لما ألزمت به .

وهنا يبدو خبث الدهرة التي تقول بأن مثل هذا الامتناع له ضرورة بالنفس أو العقل . إن الضرر مائل حقيقة في منع المباحات وتحريم رتبة الله ، أو معارضة طبيعة البشر . أو مناهضة الدوافع البشرية وهذا مالا يقره الاسلام أصلاً ، بل هو ما يعترف الاسلام بوجوده . ويدفع إلى ممارسته وتحقيقه في نطاق ضوابطه وأطره وهذا هو ما حرّمته بعض الأديان ، وما رأى بعض الأطباء أنه مؤد إلى المرض أما إقرار الاسلام له كحقيقة ، ثم النظر في إمكان تحقيقه أو الانتظار بالصبر عليه ، وبالإعلاء . فذلك أمر آخر مختلف كل الاختلاف .

ولا ريب أن الإنسان خلق ليعمل ، ويسعى ويتحرك ويغالب ويقاوم ولا بد أن يجدد سعيه في الأرض وأن يكون سعيه إيجابياً في سبيل الهدف الذي استغلب من أجله فهو في حاجة دائمة إلى التذكّر والتوجيه . وفي حاجة دائمة إلى الاحتصام بالله وإسلام الوجه له وهذا هو التوكل : والتوكل هو التماس هدى الله في العمل والحركة لافي القعود والتوكل ومن هنا فإن الإنسان بطبيعته وتركيبه (وهو أمر مستمر في كل زمان وعصر) في حاجة دائمة إلى الذكر والفكر وتجديد النفس بمعرفة الهدف وتحديده والتماس القوة التي تكفل له النجاح في الحياة وهي قوة لا يبدعها الإنسان إلا في الإيمان بالله والخشية منه والامل فيه .

ومن هنا فإن القول بأن الانسانية ، قد أصبحت راشدة ، وليست في حاجة إلى وصاية الدين هو من المخططات التلويديّة المندفعة إلى غاياتها الخطيرة فلنحذرهما وانسكن في بقطة لكل ما يحيط بنا .

٣ - الموت

إن هذه الصبغة التي تستعمل خوفاً من الموت إنما تمثل أقصى ما وصلت إليه النظرية المادية من أثر في نفوس الناس فقد انخلعت هذه النفوس هلعاً من الموت فهي تريد أن تعيش ، ومن عجب أن بعض العلماء يذهب إلى العمل من أجل إطالة الحياة والقضاء على الشيخوخة ، كجراحة ضد سنن الحياة وطبائعها وتركيبها الذي هو من صميم وجودها . ولا ريب أن العلم لا يستطيع أن يهدي في هذا المجال ، فالموت حقيقة قائمة ، وهو في بعض مفاهيم العلم : هزيمة ، والحياة لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية والإنسان محكوم بالولادة والموت . وفي ضوء الاسلام أن الموت ليس نهاية الحياة ولكنه مرحلة

من مراحلها وانتقاله إلى وضع آخر . فالإنسان قد جاء إلى الحياة ليؤدي رسالة استغلافه في الأرض فهو يعيش التجربة حتى يتمها ، ثم تنتهي مهمته ، فينقل إلى المرحلة الثانية : مرحلة الموت ، وهي مرحلة تنتهي بالبعث العام الشامل . كقائمة للحساب والجزاء عن هذا العمل ثم هي مقدمة للخلود الدائم في الجنة أو النار .

هذا الفهم قدمته لنا الأديان وقدمه لنا الوحي وقد أطيننا إياه لنعرف مهمتنا في الحياة ولنعرف أن الحياة ليست صدفة ، والإقامة فيها ليست اعتباطاً وإنما هي تخطيط مسبق مدبر من لدن حكيم حليم وإن علينا أن نأخذ بمهمتنا فيها على النحو الذي يكفل لنا النجاة من العقاب ولن تكون الحياة بلا معنى وهدف ، ولن يكون العالم قد وجد بلا داع . أو أنه يحض بغير غاية فذلك قول الماديين ، ولا دليل لهم عليه . وهو القول الذي أحال صيحاتهم صراخاً في سبيل البقاء في الحياة والخوف من الموت والماديين لا يتمنون الموت أبداً بما قدمت أيديهم . ويرد أحدهم لو يمر ألف سنة - كما أشار القرآن الكريم - لأنهم يخشون ما بعده .

ولا ريب أن الموت في مفهوم الإسلام قوة دافعة غير سلبية . فالمسلم لا يخشى الموت . بل يمد له وينتظره ويتمناه على أعلى مستوى : مستوى الشهادة في سبيل الله . والموت في مفهوم الفلسفات المادية نهاية . وانكسار في الإسلام بدء مرحلة جديدة . والذين يقولون إن الموت نهاية . إنما يدفعون أبصارهم إلى الإسراع في الشهوات واقتناص اللذات التي حرم الله . والخروج عن الضوابط التي رسمها الدين من أجل حماية الفرد وحماية المجتمع .

وعندما يصل الإنسان إلى الشك في أمر البعث بعد الموت ، تنحطم حياته وتفقد لأن ذلك سيدفعه إلى الخضوع لأهوائه إلى آخر مدى ، وتبدو له القيم والفضائل . وكأنها أمور لا قيمة لها ومن هنا كانت دعوة الفلسفة للمادية بكل فروعها وفنونها . (المادية والوجودية والفرويدية) وغيرها إلى عدم هذا الجدار الضخم الذي يحمي الشخصية الإنسانية . وهو جدار البعث حتى يذهب الإنسان كل مذهب وحتى ينقرط عقد التماسك الأخلاقي والنفسى وينهار الجسد وهي دعوة خطيرة لأنها تدفع البشرية إلى الدمار في حين يدفعها الإيمان بالبعث إلى القوة والتماسك في سبيل بناء الحياة نفسها وإقامتها وحمايتها من المبادئ .

ومن حكمة الله العليا . إخفاء ميعاد الموت ونهايته حتى يظل الإنسان قادراً دوماً على التأهب والعمل والتقرب فإذا آمن الإنسان بالله حقاً ، وعرف أن الدنيا طريق إلى الآخرة لم يفزع الموت ولا ريب أن الحياة الدنيا مرتبطة ارتباطاً جوهرياً بالحياة الأخرى وهي ليست إلا وجهاً من وجوهها . ومرحلة من مراحل تجريرة كاملة للإنسان .

الباب الرابع

دعوات هدامة للفكر والثقافة

الفصل الأول : الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام

الفصل الثاني : الإسرائيليات . الفصل الثالث : التغريب . الإسقنراق والتبهر

الفصل الرابع : إحياء الملية : الفصل الخامس : الدعوة إلى العامة

الفصل الأول

(١) الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام

تمحدث في السنوات الأخيرة الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام من مذاهب ونحل وجرى البحث حول تكتيل الجهود لإبراز معالم هذا التاريخ ، ومحاولة خلق تراث فكري ، أو أدبي لهذه المحاولات . وقد جرى العمل لذلك في كل أجواء العالم الإسلامي وأذاعه وركز في كل قطر على تاريخ سابق للإسلام في محاولة لردّه إلى الحياة وانبعائه ، وربطه بالحاضر عن طريق الفكر والثقافة والمعروف أن العالم الإسلامي قبل ظهور الإسلام ، قد عاش حضارات مختلفة ، أبرزها الفرعونية ، والفينيقية ، والفارسية واليونانية ، والهندية . وكلها حضارات استمدت مصادرها الأولى من الأديان المنزلة ، ثم انخرقت عنها وقد التقت مفاهيم قوامها السيطرة والاستعلاء ، والعدوان ، وعرفت في محيطها الداخلي بنظام المفارقة السكامة بين طبقتين هما : السادة والمبيد .

وقد أبرزت فلسفات هذه الحضارات نظام المبودية وجهلته زبراساً لها فضلاً عن العدوان والغدر للأمم المجاورة . وما تزال صورة الصراع بين الفرس والروم قبل الإسلام من أبرز الأمثلة على هذا المنهج الذي عرفته هذه الحضارات ، وما اتصل بها من أنظمة وفلسفات ولقد كانت حملات البحث عن الآثار والكشف عنها في البلاد العربية والإسلامية أداة عظيمة في تشكيل قضية جديدة تطرح من خلال هذه الآثار عن الحضارات القديمة الوثنية التي حطمتها الظلم وقضى عليها الانحراف عن منهج العدل والحق والتي اشتغلت بالعدوان والظلم والإبادة ، حتى جاءت نهايتها عبرة لدارس قيام الأمم وسقوطها . كما ارتبطت الدعوة إلى ما قبل الإسلام بالدعوة إلى القوميات الضعيفة والأقليات وقد برزت في البلاد العربية دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والعبرية وغيرها . وأساطلها دعائها ، والعاملون من ورائها ، والقوى الاستعمارية الدافعة لها بكثير من عوامل التحريك

والإثارة غير أن هذه الدعوات لم تجد لها من القوة المخفية ما يمكنها من الاستمرار فإن التراث المحفوظ منها لم يكن قادراً على أن يشكل قاعدة يمكن التحرك منها ذلك أن الإسلام حين جاء متطابقة عصر قرناً ، قد أنهى الوجود الفكري والاجتماعي ، للمجتمعات والأمم ، وشكل لها وجوداً جديداً ما يزال حياً متجدداً . ولما كان هذا المنهج الاسلامي : هو منهج رباني قائم على الفطرة ، مائق بالنفس الإنسانية ، والعقل البشري . فقد شكّل في المسلمين مزاجاً له طابعه الخاص الذي انعكس في جوده بعيدة فلم يجد في الإمكان إجتنابه .

لقد تجاوز المسلمون والعرب تاريخهم القديم كله بالإسلام مرتين . مرة من حيث أخرجهم الإسلام من مفاهيم الوثنية وعقائد التنوية ، والتعدد وعبادة الأوثان وتقديس الفرد ، وتحويل البطل إلى إله ومرة أخرى حين استقطب الفكر البشري كله . وامتص منه خير ما فيه من عساة وتجاوز ما ليس متصلاً بالاصول الأصلية له من التوحيد والعدل ، والإيمان بالغيب ، والمسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاق .

ولا ريب أن ما استقطبه الإسلام من ثقافات الأمم وبلوره واستساقه إنما كان بمثابة مهارات الأديان ورسالات السماء . وهو الجانب المضيء في تراث البشرية والفكر البشري أما ما بقي من الويف والحفاظ عما ينحرف عن هذا الجوهر الخاص فقد رفضه الفكر الاسلامي واستبعده .

(٢) الوثنية

استهدفت هذه المذاهب الداعية إلى إحياء ما قبل الإسلام إحياء الوثنية والجاهلية . وهي ترى في مجموعها إلى تهيئة النفس والعقل الإسلاميين ، لتقبل تعدد الآلهة والأصنام والنظر في بساطة إلى أمور قطع الإسلام فيها بالرفض ونهى المسلمين عن الإعجاب بها ، أو التوقف عن معارضتها .

ويتصل بهذه الوثنية عادات وتقاليد ونظم ومثل وكلمات كلها بما لم يعد سائناً أو متقبلاً في النفس العربية الاسلامية ، كالعادات الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات . ثم العادات الاجتماعية في اللوازم والأفراح والمآتم ونحن نعلم أنه في عصر ما من تصور ما بعد الإسلام . استقرت هذه الوثنيات ، وعادت إلى التشكل في صور مهرجانات ، وأعياد ومواسم وخاصة فيما يتعلق بالنيل والحصاد والولادة والوفاة . وما تزال هذه العادات سائدة وهي تختلف اختلافاً واضحاً من إحياء ، طقوس ، لا يعرفها الإسلام ولا يقرها . وهو الذي حرر منها البشرية .

ولقد حرر الإسلام المسلمين من كل ما يتصل بالأسحجار ، أو الحيوانات ، أو الأنهار ، ودعا إلى التوحيد الممارض للوثنية والشرك والتعدد جميعاً ، واتخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً كما حرر البشرية من عبادة الطبيعة (الشمس والقمر) وأعلن أنها مسخرة بأمر الله لخدمة الإنسان .

تطلق كلمة الوثنية على مختلف العقائد التي لا تفرد الله سبحانه بالتوحيد وتذهب الوثنية إلى الوثن

إلى عبادة الأحجار والأصنام . وقد وصف اليونان القدماء (الإغريق) بالوثنية ، كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف في المدى والنهم . وكانت الوثنية اليونانية هريقة ، لها أهولوجية كاملة ، ولها فلاسفة أمثال : أفلاطون وأرسطو ، وشعراء أمثال : أسخيلوس وسوفوكليس . والمعتقد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة أو جزء منها كالشمس والقمر أو بعض أنواع الحيوان أو تأليه البشر فرداً أو أسرة أو جماعة . وذلك كعبادة الملوك والأمم الحاكمة عند بعض الأمم القديمة كالمصريين القدماء أو الحديثة كاليابان والهنود . وكمعبادة الأنبياء والأبطال والقديسين والأولياء . ولذلك فقد حرص الإسلام على الاقتصاد في أي نوع من أنواع المبالغة في تكريم الأبطال والصالحين حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل هذا النوع من العبادة .

وكان الإغريق يقولون بتعدد الآلهة ، فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى أمرها ومن ذلك زيوس إله الجبال ، وأبوللو إله الشمس ، ونبتون إله البحر وهكذا .

ولم يفرق اليونان بين طبيعة الآلهة وطبيعة البشر ، إذ يجوز على البشر من بعض وحقد وقسوة وشرة وطمع وجبن وحب الانتقام . وكانت آلهتهم لا ترى بأساً من اغتصاب زوجات الآلهة الأخرى وتصف بالأخلاق الشريرة . ومن المعتقد الوثنية : الاعتقاد بألوهية بعض الكائنات الخفية وعبادتها . كالملائكة والجن والشياطين والأرواح . أو تأليه جزء من الإنسان كالعقل ، وهناك المعتقد السلبية ، والإلهادية القائمة على إنكار الله ومحوه وإنكار الحياة الآخرة .

(٣) الجاهلية

تختلف الوثنية في الجزيرة العربية عن الوثنية الفارسية والإغريقية ذلك أن الوثنية في الجزيرة العربية إنما كانت حرضاً تاريخياً ، جاء بعد دعوة التوحيد التي حل لواهما إبراهيم وإسماعيل . فقد اعتنق معظم العرب دين إبراهيم ، ولكنهم مع تقدم الزمن ومع تفرقهم في الأقطار كانوا يحملون معهم بعض حجارة المكبة يتبركون بها ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان . ومن هنا اختفى التوحيد ، وبرزت عبادة التماثيل والأصنام وقدمت لها إقرباب . هذه هي ما يطلق عليها المؤرخون جاهلية الفطرة . ويقدرها بعضهم بنحو أربعمائة سنة فهي أقصر وثنيات العالم ، وهي تختلف عن الوثنيات العربية أو جاهليات الفطرة بأنها لم تقم لها هياكل ولا أنظمة ولم تكن لها أساطير على النحو المعروف عن وثنيات الهند والصين والفراعنة واليونان . ولقد عرفت الجزيرة العربية الأديان : كاليهودية والمسيحية ولكنها لم تعتنقها ، وظلت بقايا خنيفية لإبراهيم ممتدة إلى زمن البعثة المحمدية .

أما وثنية اليونان ، فقد كانت مثالا خطيراً للتعبد والشرك ، ولها فاحشة قائمة ومفاهيم خطيرة . ولذلك فقد كانت مفاهيمهم الخطيرة هي أبرز ما ركز عليه الإسلام وكشف ريفه وفي مقدمتها القول بتدبير العالم وأن الله سبحانه لا يحيط علماً بالجزئيات وإنكار بعض الأجساد وتقديس العقل . وبما طرحته الوثنيات الفخرية المتمثلة في مفهوم الفنوصية : وحدة الوجود والحلول والاتحاد والتأليه والعنس والإنراق ورفع التكليف .

ولا ريب أن إحياء ما قبل الاسلام من شأنه أن يحية هذه المذاهب والأفكار التي كشدت الاسلام وجه الحق فيها . وأبان عن ريفها وفسادها .

لا ريب أن الدعوة إلى إحياء ما قبل الاسلام تستهدف إذاعة الفكر التلويدي الذي شكله اليهود خروجاً عن مفهوم رسالة موسى واستهدافاً إلى تحقيق غاية معروفة هي الاستعلاء بالجسد والعنصر إلى امتياز مدعى ولقد سجل الباحثون أن الماسونية قد أعادت تشكيل الفكر البشري الوثني السابق للإسلام كله ، وأعادت صياغته من جديد ، واعتبرته تراثاً للبصرية تدعو إليه وتزدهى به وأن هذا العمل هو أسلوب من أساليب السيطرة الخفية . وفي عدد من كتبها التعليمية مثل كتاب الآداب العقيدة *Morals and Dogm* يبدو هذا العمل الخطير في إحياء الأساطير والوثنيات وخرافات قدماء المصريين والكلدانيين والهنود والفرس والميرانيين واليونان ، وما يتصل بها من رموز كالخنافس الالهية والحية والسحكة والنور يحمل فرق قرنيه الشمس والنور الممنوع وأبى الحول والأهرام والمثلثات والمربعات ، والدوائر والأعداد المقدسة كعدد ٣ = ٧ - ٩ ، وما يتصل بذلك من طقوس متحجرة ومراسم ، فضلاً عن السحر . فإنه باب وحده وقد حرصت التلويديّة كل الحرث على هذا التراث ، وعملت في كل المصور على تجديده وعلى بثه في صورة أو أخرى وعلى تلقينه في الجمعيات السرية وخاصة ما يتصل بالمجاهرة . والرمازيات . والالفاظ وتجهيز التلويديّة والمفصّل على رأس المكتبة ومفهومها القائم على العنصرية على رأس المفاهيم وذلك هي أخطر خافية وراء إحياء ما قبل الاسلام .

بعد الاستعمار في محاربه الكبرى للتغريب ، وتمزيق وحدة الفكر والامة إلى خلق دكاثر من الطائفية والقبيلة . وذلك بالتركيز على عناصر معينة ، والحيلولة دون تنميتها ، أو إدماجها في المجتمعات وربما عمد إلى إثارتها ، وتميق خلافاتها مع المجموعات . وكان هذا العمل من أخطر العوامل التي استعان بها النفوذ الذي جنب لتعطيم وحدة الرابطة الجامعة تهيداً لبسط نفوذه على العالم الاسلامي واقد كان الطوائف الارمنية واليهودية كالدولة في تركيا أبعد الاثر في تأريخ المخططات الاستيعابية في السيطرة ، ولم تكن الطائفية ، أو تقبالية يوماً قضية وجود في محيط الاسلام ، بل كانت مختلف الطوائف تجد حريتها وانطلاقها في المجتمع وقد وضعت الشريعة الاسلامية لها أنظمة حمايتها ورعايتها وتكريم أهل الكتاب وحماية المعابد . وقد وصل أبناء الطوائف المختلفة إلى أرقى المناصب في عصور الازدهار ، وكان لهم دورهم في الحضارة الاسلامية والثقافة العربية ولم يقع بينهم وبين الجماعة أي خلاف أو صراع إلا تحت نفوذ الاستعمار ، الذي أعلن أنه إنما جاء ليحمي هذه الطوائف .

وقد استطاعت الحركات الوطنية أن تفوت أهداف النفوذ الاستعماري بالترابط بين العناصر المختلفة في الامة وأن تقضي على الدساسات الأجنبية ، والأهراء والخلافات القديمة التي حاول المستعمر تأريضها .

(٤) الإقليمية

وكانت الدعوة إلى الإقليمية واحدة من هذه الدعوات التي تستهدف التمزيق والتفرقة ، لتأكيد سياسة النفوذ الأجنبي . ويبدو هذا الهدف واضحاً من خلاف قضايا الدعوات الطورانية والفرعونية والفينيقية وغيرها ، وكلبات السكبان الخاص وغيرها والمعروف أن العالم الاسلامي والامة العربية لم تكن تعرف من قبل هذه المصطلحات المتعددة ، وأنها كانت تعتبر وحدة الفكر ، أساس الوحدة ، وكانت جامعة الفكر القائمة على المفاهيم المستمدة من الاسلام هي مصدر الترابط واللقاء . فهد أن النفوذ الاستعماري ما كان يستطيع أن يقيم قواعد نفوذه ، إلا على تقسيم الجماعة الواحدة إلى عناصر ، يتبع بعضها للعرق والجنس أو يتبع اللغة والدين وكان دوماً قاهراً على إارة الخلافات المذهبية بين أبناء الدين الواحد ، والتعارض بين أصحاب الأديان المختلفة . وجاء مفهوم القومية الضيقة عاملاً هاماً في هذا التحدي .

وجاء نقل مفهوم القومية الغربي الوافد إلى الامة العربية عملاً آثار البلبلة والاضطراب وأخرج مفهوم العلاقة بين العروبة والاسلام عن وضعه الاصيل .

وكانت المحاولة الأولى التي حاولها النفوذ الاستعماري أن تكون القومية بمثابة إقليمية ضيقة وأن تنحصر في مفهوم الوطنية والاستعلاء بالأرض والتاريخ الاقليمي فلما فشلت هذه المحاولة وبرز مفهوم العروبة ، جامعاً قوياً في مواجهة النفوذ الأجنبي عمدت محاولات التغريب إلى تفرير هذا المفهوم من قيمته الحقيقية ومن اسمه الاصيل . فظهرت الدعوة إلى قومية منفصلة عن التراث والثقافة وبرزت الدعوة إلى قومية علمانية على النحو الذي عرفه الغرب دون تقدير كبير للفوارق البعيدة في الزمن والبيئة والجذور ، وفي تجاهل خطير لحقيقة أكيدة هي أن الامة العربية لا تستطيع أن تنفصل في حركتها الاجتماعية والفكرية عن قيمها الأساسية وأنها لا تستطيع أن تنعزل عن إمدادها النفسي والروحي والثقافي مع العالم الإسلامي .

(٥) الفرعونية

كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في العقد الثاني من هذا القرن ، وما وجد فيها من آثار عجيبة (وما زال تتجدد عروض الآثار الفرعونية . ويتجدد معها الكلام عن الفراعنة) وقد اتخذ هذا العمل منطلقاً إلى إحياء ما قبل الاسلام من حيث بناء القبور والمصور على الأنماط الفرعونية والدعوة إلى لغة وأدب وتراث فرعوني . غير أن حملة هذه الدعوة لم يلبثوا أن أعلنوا فشلهم وهجروا عن تحقيق وجود مثل هذا التراث ليكون قطعة بدء ، ووجدوا أن الصلة قد انقطعت بين المصريين وبين الفرعونية (نقطاً) كاد يكون تاماً ، انقطعت بالاسلام الذي غير النفسية العقلية والمزاج في الانسان تغييراً كاملاً بعد أن أخرجه من الوثنية ، ودفعه إلى منهج رباني . قوامه الفطرة وكان قبول المصريين له بالذات من معجزات الاسلام الكبير بعد انقضاء ألف عام تقريباً بين وثنية الفراعنة واليونان والرومان .

وأية هذا الفشل الأربع ما يترف به أ كبر الدعاة إلى الفرعونية : الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه (في منزل الرحي) حيث يقول : وانقلبتم النمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موتلا لرحى هذا العصر ينشئ فيه نشأة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من العهد من سبب قد يصلح لهضة جديدة وروآت فرأيت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويشمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تنبث وتربر .

ويقول الأستاذ أحمد حسن الويات : هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلاثاً من التاريخ العربي . نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوانج الظلال . ارفعوا إن استطعتم هذه الروح واهروا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ماذا يبقى في يد الرومان في مصر وهل يبقى إلا أشلاء من بقايا السوط ، وأنحاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل (كتاب الأموات) وجباه ضاربة تسجد للصخور وتنبون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة .

لا نستطيع مصر الاسلامية إلا أن تكون فضلاً من كتاب المجد العربي لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة العرب . انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين واستطروا من الصخور الصلاب أخبار المالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يديه من أكتاف الماضي الرميم ، ثم تحفثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار ، وعظمة النيل ولكن أذكروا دائماً أن الروح التي تنفذونها في مومياء فرعون هي روح (هرور) وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان (مضر) وأن القينار الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قينار (امرئ القيس) وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تملأ الصدور وتلأ السطور وتفذي العالم ، هي أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر وأجدى على الناس ، من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

وغاية ما يقال في معركة استمرت طويلاً أنها وصلت إلى النتائج الآتية :

(أولاً) أن الفرعونية لا تتمشى مع روح العصر ، وأنها لم تكن لها ثقافة ، وأنها توقفت منذ ظهور الاسلام وهدت وفصل بيننا وبينها تاريخ إيجابي الفعالية قوامه اللغة العربية والاسلام .

(ثانياً) ثبت أن هدف المحاولة هو عزل الثقافة العربية عن الفكر الاسلامي ، وعزل الشخصية المصرية عن الرباط العربي ، فهدر أن المحاولة الضخمة في الفصل بين المصريين وبين لغتهم والاسلام كان أمراً بالغ اليأس وأن محاولة الارتباط بتراث فرعوني كان مستحيلاً .

(ثالثاً) تبين من الدراسات التاريخية أن الفراعنة موجهة جاءت من الجزيرة العربية ، وأن بين اللغة المهرغولية واللغة العربية آصرة ضخمة تؤكد أنهما من أصل واحد .

(رابعاً) كان هدف إعادة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وفهرها . من تهيئة عبادة للبحر والابطل وصراع آلهتهم حول اللغات الحسية والمطامع الدنيا .

(خامساً) ثبت أن الصهيونية لم تتمكن نظاماً اجتماعياً ، ولا قوة دافعة إلى الحرية والمساواة . بل كانت نظاماً عبودياً ، وقيوداً من التخلف الفكري والاجتماعي .

(٦) الفينيقية

وكذلك كانت الفينيقية دعوة من الدهورات الهدامة التي أثارها النفوذ الاستعماري لتقسيم وحدة الأمة ، ووحدة الفكر وتجهيد التاريخ القديم بكل أخطائه وخطاياها في سبيل القضاء على الواقع الحي الإيجابي وإعلاء شأن الإقليمية والعنصرية التي سيطرت على الأمم قبل أن يصورها الاسلام في بوتقة الوحدة التوحيدية .

وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعايات الاستعمارية . لعزل اللبنانيين عن العروبة وقد ارتكزت هذه الدعايات على أن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل أن يأتي العرب ، وادعت بأنهم تاريخياً ليسوا عرباً . وإنما هم خليط من أبناء الفينيقيين وأحفاد الإمارات الصليبية .

وقد اتصل بالدعوة إلى الفينيقية دعوات إلى سوريا الطبيعية ، والأمة السورية ودعوات إلى البحر الأبيض . وجرت في ظل هذه الدعوة الدعوات إلى العامية اللبنانية وكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وإعلاء اللهجات المحلية .

وتعني الفينيقية إعلاء الإقليمية في مواجهة العروبة ، وإعلاء الثقافة الفرنسية في مواجهة الفكر العربي الاسلامي وإعلاء اللهجات العامية ، واللغات الأجنبية في مواجهة اللغة العربية ، وخلق كيانات ليس لها أساس من الواقع الذي تعيشه الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً .

وقد كشفت أبحاث الآثار والتاريخ المجردة من كل هوى استعماري أو شعوبي أو دعوة للتفريب أن الفينيقية موجة من موجات الجذيرة العربية وأن شأنها في ذلك شأن الصهيونية ومختلف الموجات الأخرى التي انفصلت عن المصدر الأم .

الفصل الثاني

الإسرائيليات

(١) من أخطر التحديات التي واجهت الإسلام والفكر الإسلامي والثقافة العربية ظاهرة الإسرائيليات وهي إضافات خطيرة ونظريات زائفة مستمدة من نصوص قديمة وثنية وجوسية من خارج مفهوم الإسلام وذاتيته المتميزة عن الأديان والفلسفات تسربت مع الزمن وقصد خصوم الإسلام إلى إضافتها إلى الإسلام أمراً من جوهره الأصيل وتمييع طابعه الخاص وإخراجه عن بساطته ووضوحه ويسره وقد أضافت في مجموعها تفاصيل كثيرة باطلة وتوسعات عديدة تتعارض أساساً مع مفهوم الإسلام القائم على التوحيد والمتصل اتصالاً واضحاً بالإيمان بالغيب والبعث والجزاء ، والمستمد من قواعد القرآن ونهجه ومنطقه في مواجهة مختلف القضايا والأمور . وخاصة فيما يتعلق بعالم الغيب وما وراء العالم المحسوس . وأبرز ما أصاب الفكر الإسلامي من الإسرائيليات ما أصاب كتب الملاحم والمغازي ، وقد تنبه علماء المسلمين وأنعمهم إلى هذا الخطر منذ وقت مبكر حتى أثر عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : ثلاثة لا أصل لهم : التفسير والملاحم والمغازي (أي أنها ليست ذات أسانيد صحيحة متصلة) ، ومن ذلك وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول الكريم في سبيل تأييد موقف أو جماعة أو بلد وكلها بما كشفه المحققون عن ربه . وكذلك ما وضعه كهان اليهود : أمثال كتب الأحبار ، وذهب بن منبه ، وابن سلام وغيرهم من أخبار وأساطير .

وبما يكلف من خطورة ظاهرة الوضع ما أثر من أنه كان على عهد الإمام البخاري مائة ألف حديث لم يقبل البخاري منها سوى ٢٥١٣ حديثاً .

وتتصل ظاهرة الإسرائيليات اتصالاً خطيراً بالتفسير ، فقد دس في بعض التفاسير أساطير وأفاسيص غير عربية ، أو إسلامية من تراث اليونان ، والفرس ، والهند ، واليهود ، وهي مليئة بالأمهات المضللة .

(٢) يطلق المسلمون كلمة الإسرائيليات على جميع العقائد غير الإسلامية لا سيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود والنصارى في الإسلام . وأبرز ما في هذه الإسرائيليات مادة الحكاية والتنبؤات ، وخاصة ما يتعلق بفكرة المهدي المنتظر التي كان لها أثر سيء في تصور الضعف والتخلف ، وتلك التفسيرات للآيات القرآنية ، والتوسع في أوصاف الملائكة والجنة والنار والحشر ، وتصويرها تصويراً يفرج بها عن أصلها القرآني .

وقد أشار المؤرخون والباحثون إلى أن هذه التشككيات وصلت إلى المسلمين على أيدي القسيسين والرهبان والقطب واليهود وغيرهم من حملوا لواء معارضة الاسلام ، وإدخال الزيغ إلى أصوله . وقد أضيف إلى الإسرائيليات مع ترجمة الفلاسفة اليونانية والهندية والفارسية إضافات أخرى كونت حصيلة ضخمة استعملها الشعوبيون وأعداء العرب والاسلام في القديم سلاحاً لتحويل الأبصار عن جوهر الاسلام وإخراجه من مضامينه وقيمه وإتاحة الفرصة لمفاهيم الوثنية والشنائية والتعدد لغزوه والتأثير فيه . وقد واجه المفكرون المسلمون هذه الدخائل الإسرائيلية الباطنية والمجوسية وغيرها وفندوها وكشفوا عنها وفي مقدمة من تولى ذلك : الجاحظ (البيان والتميين) والفاخر ابن العربي (المعاصم من القواصم) وابن الجوزي (تلبس إبليس) ، كما واجه هذه القضايا : ابن حزم والغزالي وابن خلدون ، وعرضوا الآراء الباطنية والمجوسية والمزدكية والمناوية وغيرهم .

وفي عصر الضعف ومرحلة التخلف وفترة التجميع ، ظهرت كتب كثيرة لم يكتبها علماء محققون وجمعت أحاديث منحولة وأكاذيب ومفتريات مدسوسة على الدين . وفي مقدمة هذه المؤلفات بدائع الزهور ، والمرائس في القصص والأخبار .

٣ — حفلت بعض كتب التفسير : أمثال الثعلبي والكسائي والحازن بأمثال هذه الروايات . كما جاء الطبري في تفسيره بأشذات منها . وكانت أمثال هذه الروايات متداولة ، ينقلها القصاص بين العامة وكان الخطأ في رفعها إلى مقام التدوير ، مما ساعد على إشاعة الخرافات والأذاليل في النفوس . ولم يتوقف أثر التداخل المتسل بالإسرائيليات في الفكر الاسلامي ، فكان له في العصر الحديث أثرى أثر . بل لقد كان من العوامل الهامة في مجال إثارة الشبهات والمفاهيم المغلوطة في مجال الثقافة العربية . وفي مقدمة ذلك خطأ فهم الخطيئة والخلاص والفداء . وكلها كلمات تسربت إلى الأبحاث العربية دون أن تحظى بتحقيق واضح لمضامينها وآثارها وموقف الإسلام منها . ولقد كان لعمل المستشرقين الخطر في هم مثل هذه الإسرائيليات إلى مادة دائرة المعارف وتركيز الاهتمام على اليهود أثره البعيد في أن بدت الإسرائيليات ، وكأنها عناصر من الفكر الاسلامي . فإذا جهات دائرة المعارف . وضمت إلى موادها مادة : رجعة روصية ، واتحاد ، وحلول وغير ذلك : تسربت إلى ظن المسلمين أن هذه المواد من صحيح مفاهيم الاسلام

٤ — وقد كان لداخلات الفنوسية والهيلينية في الفكر الاسلامي أثرها في دخول كثير من الإسرائيليات ومن أمثلة الأحاديث المدخولة في هذا الشأن ، تلك التي حاولت أن تعطى العقل مكاناً معيناً أو تصور الرسول بصورة لم ترد في القرآن أو تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ما لم ينزل به سلطاناً ، ومن هذه الأحاديث الواصفة قولهم : أول ما خلق الله العقل وقولهم : كنت نبياً وأدم بين اللطين والماء وقولهم : كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف .

وقد هاجم الامام ابن تيمية ، هذه الأحاديث الموضوعة هجومياً عنيفاً وأثبت زيفها ووضعها وصياتها بمفاهيم الفلاسفة اليونانية وتعارضها مع جوهر الاسلام كما عارض العلماء المسلمون ما يتصل بصحاحيات بعض العابدين كالتهايم الثعابين ، والمشي على السيوف والرقص على نقرات الدفوف .

وقد وضع الحقون لهذه التجاوزات ضوابط ، فقال أحدهم : لو نظرتم إلى رجل أهمل من التكرامات حتى يرائق في الهواء ، فلا تفتروا به حتى تنظروا كيف تهدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة . وقال الامام الغزالي في هذا الصدد : لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ويهش على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف للشرع فاعلم أنه شيطان .

هـ - وقد ذهب أغلب الباحثين إلى أن أكثر الأحاديث الموضوعة من الإسرائيلية وإنما وضعت من تدبير وتخطيط وخصوصة وكيد وأنها من هوامل الحرب العسكرية والمقاتلية الضاربة التي شنها اليهود وغلاة النحل المبتدعة على الاسلام والمسلمين بكافة الوسائل من التخني والفسال والقوية بقصد تمزيق وحدة المسلمين وتليينهم عن دينهم القويم وتشجيعهم عن صراطهم المستقيم ويصف بعض الباحثين هذه الظاهرة بأنها ليست إلا حرباً حقيقية لكتاب الله ، أرادوا بها صرف كل من يقرأ تفسيراً من التفاسير عما يريد الله في كتابه من هداية البشر إلى حكايات وأساطير تستهوي البسطاء . ثم نقرأ كم هذه الأساطير وتعرض حركة الإفهام السليمة ٩

الأساطير

١ - ويتصل الحديث عن الإسرائيلية بالحديث عن الأساطير . وقد جاء الاسلام معارضاً لها كاشفاً عن زيفها ، محرراً العقل والنفس الإسلامية من الخرافة . وقد ارتبطت الأساطير بالوثنية اليونانية والفارسية والهندية ارتباطاً وثيقاً وغلابها الإفرقي ذلماً شديداً فقد كان لديهم قصص كثيرة يفسرون بها الحياة والطبيعة والخير والشر ، وكانوا يؤمنون بأن هذه الأمور بأيدي آلهة وإلهات . ويربط الغربيون بين الأسطورة والدين ، بينما يعلمان الاسلام الحرر الكامل من كل أسطورة أو خرافة أو صورة غامضة .

والعرب قبل الإسلام ، لم يكونوا يعرفون من الخرافة إلا قدرأ قليلاً ساذجاً ، وقد أسقطه الاسلام ومجاءه ، وأحل محله قصصاً حقيقية من عبر التاريخ وأحداث الأمم أما غير العرب من الفراعنة والفرس ، والهنود ، فقد كانت لهم أساطيرهم المشتركة الأصل الوثنية الطام . وقد كشف كثير من الباحثين عن الأصل المشترك ، والانتقاء الجذري لأساطير اليونان والمسيحية والفراعنة وما نقل إلى العربية من أساطير في كليات ودمنة وألف ايلة وليلة وإنما هو تراث من أساطير ما قبل الاسلام الهندية ، والفارسية ، والفرعونية ، واليونانية ويحتوي الهد القديم هديداً من هذه القصص والنبوءات وقد استغل الأدباء ، ورجال الفقه والفن من الغربيين هذا التراث . أما القصص الشعبي فهو بقايا الأساطير التي سادت في العصور الوسطى من الحروب والغزوات وقد وضع القرآن كل هذا التراث القديم في ميزان النقد ورد على كل ما فيه من زيف وكشف عن الحقيقة وأسقط الأساطير والاضاليل . وجلا الحقيقة في مختلف ما يتصل بالعصور القديمة من أحداث ومواقف ويتصل بمجهر الدين ورسالة الأنبياء ونضالهم في مواجهة معارضة الأمم والمتغنين من المكذبين .

٢ - وقد قذف الغربيون الفكر الإسلامي ، والأدب والثقافة العربية بقدر ضخم من هذه الأساطير في محاولة لتجديدها وإذاعتها ، وعلى كثر من الكتاب والأدباء بترجمتها ومحاولة إغراق الأدب العربي بها ، وجرى البحث حول الأساطير في الأدب العربي نفسه وكان من أهم مهوم المستشرقين والمبشرين بالبحث عن الأساطير . وقال رينان : إن العرب كمثل الأمم السامية ليس لها أساطير في شعرها ، ولا في عقائدها ونسى أن اليهودية التلودية هي مفرخ الأساطير البشرية الأكبر وأن كل ما عرف من أساطير بابلية وأشورية وغيرها ، إنما تتصل بالوثنية والإباحية التي أذاعتها التلودية . محد البعض إلى بحث الأساطير العربية في عصر ما قبل الإسلام ، وكان المفكرون المسلمون قد حرروا السيرة النبوية من كل ما يتصل بها من أساطير وزيف وأقاموا منهجاً من التحقيق العلمي في الحديث وصف بأنه أعظم المناهج التي عرفها البحث العلمي ، غير أن بعض الكتاب جاء في المصوّر الأخيرة ، فأعاد الأساطير إلى السيرة مرة أخرى . وخطأها بها وانتحل أساطير جديدة وقد بدا ذلك واضحاً في كتاب (على هامش السيرة) .

وقد عارض الباحثون هذا الاتجاه ووصفوه بأنه اتجاه خطير بعد أن حرص المسلمون طوال العصور على تنقية سيرة الرسول من الروايات الخيالية والوهمية التي حاولت الإسرائيليات إلصاقها بها . ويتصل بهذا إذاعة أساطير في مجال السحر (Magic) وفنون السحر هي فنون اليهود القديمة التي برعوا فيها والتي ما زالوا يحضنون عليها وهي عمل من أعمال الأساطير وجمع الخرافات وما يتصل بذلك من القول بقداسة الشجرة والجبل ويتصل هذا بالسكّهانة والرافة ، وذلك أن السكّهانة في مفهومها هي محاولة استطلاع الغيب عن المستقبل بينما العرافة تعني باسترجاع الماضي وهما محاولتان للتنبؤ . وقد رفع الإسلام كل هذا التراث بما فيه من خرافات وأوهام عن المسلمين وأسقطه نهائياً من دائرة فكرهم وأقام مفهومهم على اليقين والبرهان والدليل والاستقرار والتجربة وبمفهوم المسلمين تجاوزت البشرية (عصر السحر والأساطير والنجوم وخرافات الطلائع والرقى والقرابين التي كانت تقدم للأشجار والأصنام لتحميمهم من شرها وخطرها ، ولقد ارتبط السحر بالوثنية والإلحاد ارتباطاً واضحاً ، ولتنفوس الوثنية والملحدة تفقد الأمل والرجاء في الخير كما تفقد طابع التفاؤل والبشرى ، والمسلم المؤمن لا ييأس من روح الله ولا يخاف شيئاً ، ومن هنا ارتبطت الوثنية بالخوف من العوالم الباطنة وأخطار الشياطين والجبن والظلام ولقد حرر الإسلام للبشرية من أن تصلى أو تقرب إلى من كانت تطاق عليهم آلهة الخير من أجل اللدنية والحصاد أو آلهة الشر من أجل حمايتهم من الشرور والأضرار ومنحت المسلمين نهجاً قائماً على التوحيد والإيمان بالله ورجائه وحده ، والخوف منه وحده ، وأنه المرجع الأول والأخير في كل خير وشر ، وهو الذي يرفع الضر وينجح الخير : ، إن بمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فهو على كل شيء قدير .

الفصل الثالث

دعوة التغريب

وقوامها : (التبشير والاستشراق)

(١) قبل أن يصدر المستشرقون الخمسة كتابهم (وجهة الاسلام) في أوائل الثلاثينات من هذا القرن لم تكن كلمة (التغريب) معروفة أو متداولة ، حتى لم يكن القول بأنه أول من طرح هذا المصطلح هو كبيرهم : هاملتون جيب . ويعنى به ، القدر الذي أثرت به الثقافة الغربية في الاسلام ، يركز هو امل التغريب في التربية والتعليم والصحافة ومحاسن وساطاته في سبيل إقامة الثقافة الحديثة . ويصل إلى الهدف حين يقول : إن التربية والصحافة ومقومات الحياة كانت أكثرها ترمى إلى ، التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية . . . ومعنى هذا أن الهدف هو إقامة هذه ، الانشطارية ، بين قيم الاسلام المتكاملة الجامعة بينه دنيا ومنهج حياة الوصول إلى أن يصبح الاسلام ديناً لاهوتياً فقط ويستطاع الجانب الآخر منه وهو جانب النظام الاجتماعي ومنهج الحياة .

ويقرر جيب أن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته ، أما كنظام للحياة الاجتماعية فإنه قد نزل من عرشه وقامت إلى جانبه أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الأحيان مع تعاليمه وتنظيماته الاجتماعية ويعانى بها غالبية المصروف القائم على نظام الربا وسيطرة القانون الوضعي . ويتحدث أرنولد توينبى في كتابه : (العالم والغرب) عما أسماه الدور الذي لعبه ضباط تركيا في حركة « التغريب » وكيف تسربت عدوى الأفكار الغربية إلى عقول الضباط . ويقول : « إن مسألة التغريب المتزايدة في تركيا لا تحمل الاباحية وسيلتين : « إما أن يدفع الأتراك يوماً عن خطاهم بأنهارهم تماماً . أن ينجوا من التصفية الشاملة بحصرهم قواماً قلباً وعقلاً في التغريب » .

ويعقد جان بول رو في كتابه « الاسلام في الغرب » ، فصلاً كاملاً تحت عنوان « تغريب الاسلام » ، ويعرض للتغير في حياة المرأة وللتربية وخروجها من منهج الاسلام والتبشير في أفريقيا وأمريكا النظام القبرالي السياسي . ولا ريب أن معالجة المستشرقين هذه الظاهرة يمثل هذه الجرأة والتوسع لتعد دليلاً أكيداً ومدروساً على ما يعتقد به المصلحون المسلمون من رجال حركة اليقظة ، بأن هناك عظمة دقيقة منتظماً ظل يعمل سنوات طويلة من خلال مناهج التبشير والاراساليات ومعاهدها . تقوم بدعمه والتنظيم له وإعداد مادة الحرب من نظريات تحمل السمات والمغالطات والشكوك قوة كبرى هي هيئة الاستشراق .

ومن طريق المدارس والمعاهد التبشيرية والصحف تنار هذه السمات والشكوك ، وتنمو وتفرس

في المقول والفلوب على النحو الذي يحقق هدف الاستعمار بصير المسلمين والعرب في برقة الثقافة العالمية الغربية .

ولم تكن في حاجة إلى أن تقدم هذه الفاذج لولا أن بعض المفرضين من خصوم العرب والاسلام يعلنون انزعاجهم في كل مناسبة عند ما يكشف الأبرار عن هذه الخفايا ويفضحونها ويضعونها أمام القباب المثقف لمعرفة أبعاد الأخطار التي تحيط به مما يطلق عليه الغزو الثقافي والتفريب .

ولا ريب أن معارضتهم هذه تكشف عن همالتهم وتبعيتهم وحرصهم على التماس مصادر الرزق والجاه : « نفس عبد الحدم ، نفس عبد الدينار ، نفس عبد القطيفة ، نفس وانتم كس ، وإذا شيك فلا انتنص » .

والتفريب في أبسط مفهوم هو : حل المسلمين والعرب على قبول لأغنية الغرب والتخلي عن العقائم الأصلية التي تفرض ذاتية خاصة وطابعاً مميزاً للاسلام وآثاره في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والتربية . ونحن ندرك أن الغرب في غزوه لعالم الاسلام في العصر الحديث قد ابتكر أسلوباً جديداً يحقق من طريقه ما يجر منه في الجولة السابقة : جولة الحروب الصليبية التي خرج فيها مهزوماً مدحوراً ومن هنا كانت خطته في أن يتجنب الصدام وأن يعمل عن طريق التبشير والاستشراق لحدم مقومات القوة في فكر المسلمين والعرب وبالتالي في مجتمعاتهم .

وكانت فرمطة الجهاد هي أخطر هذه المقومات ولذلك فقد وضعت مناهج التربية والتعليم على النحو الذي يكفل تجاوزها أو حجبها . وبلى هذا الهدف أهمية تهمته مفهوم الاسلام ومحاولة رده إلى مفهوم عبادة لاهوت ، رغبة في القضاء على جانب التشريع الاسلامي وإحلال القوانين الوضعية بدلاً عنه . ولا ريب أن مظاهر التفريب عملة في حركة التبشير قد كانت ولا تزال واضحة أمام أمتنا على النحو الذي لا سيول إلى تجاوز تقدير خطره . ومن خلال مخططات التبشير وعمله انكشفت حقيقة التفريب حين قال دكتور روبر : ليس الهدف من التبشير هو إدخال المسلم في دين آخر ، ولكن الهدف هو إخراجهم من الاسلام حتى يكون خصماً له وعدواً ، فالهدف إذن هو توجيه الثقافة إلى مفهوم الإلحاد والإباحية التي تفتح الأفاق إلى الانتفاض على الدين والخلق جميعاً . وهذا هو الغاية الكبرى لتعليم التبشير .

ولقد كشفت أفكار المستشرقين وآرائهم المسبومة الهدف من كتاباتهم وما فيها من تحريف وريف . وقد ركزت حلة التفريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة ، وأثارت حملات القسوة والتفويه والقطع بين الأصول والفروع وإفسادها .

وكانت المحاولة هي : إحلال النظرة الجزئية بدلاً من النظرة الشاملة . وطرح مفاهيم القيم تختلف عن مفاهيمها الأصلية والتزاع الطوائع المبدية لفكر الاسلام والثقافة العربية كالتفصيل عن الفوارق بين المعرفة والثقافة ، والمخاطب بين العلم والفلسفة والدعوة إلى مفهوم الغرب القائم على الفصل بين القيم فيما يتعلق بالآداب والسياسة ، فضلها عن الأخلاق .

(٢) والجهة فإن التغريب يستهدف إيجاد شعور بالنقص في نفوس المسلمين الشرقيين عامة وذلك بإثارة القبايل وتحريف التاريخ الإسلامي ومبادئ الإسلام وثقافته وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أمله وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ الثقافة الإنسانية ومحاربة إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التي تتمثل في ماضي هذه الأمة ، مع توهين القيم الإسلامية والغنى من مقدرة اللغة العربية وتقطيع أوصال الروابط بين العرب والمسلمين . ومن أخطر غفططات التغريب الحيلولة دون قيام (وحدة الفكر) التي هي مقدمة لوحدة الأمة وبليلة العقول والنفوس بعشرات من المذاهب والدهوات وتهميد الفوارق الثقافية والاقتصادية في الأمة الواحدة بما يحول دون قيام الوحدة .

وحركة التغريب (Westernisin) دعوة كاملة لما نظمها وأهدافها ودعائمها تخضعها مؤسسات مختلفة أهمها مؤسسة التبشير ومؤسسة الاستغراق . ويقول أصحاب هذه الدعوة إن المسلمين والعرب قبا ومثلا وذاتية خاصة تحول بينهم وبين الاندماج في الأمم الأخرى وتخلق فيهم قدرة قوية على مقاومة النفوذ الأجنبي والغاصب ، ولا سبيل للقضاء على هذه المقاومة إلا صهر مؤلاء في بوتقة الفكر الغربي وإخراجهم من قيمهم لينصهروا في قيم الغرب ، وذلك لخلق جو من الالتقاء معه والتقبل له ، والانضواء تحت لواءه .

(٣) يعتمد التبشير على المدرسة والمستشفى من خلال حالة الطفولة والتكوين للنشء ومن خلال حالة المرض والضعف للريض . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من « التبشير » : هو إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامي وإبعاد العناصر التي تمثل عن الإسلام عن مراكز التوجيه . وقد كانت خطة التبشير - ولا تزال موحدة شاملة وذات مراحل وحلقات ، وقد أشرف عليها رجال ذوى خبرة واقتدار وفهم عميق لخططات التغريب في خدمة الاستعمار ، وهي تتبع عادة وزارات الخارجية والمستعمرات في الدول المستعمرة ، ولها ارتباط مع جهات المستشرقين لاستخلاص المادة المتجددة للهيكليك وإثارة الشبهات .

وقد تأكد مدى التناقص بين هذه الهيئات جيعاً من التقارير التي نشرتها مؤتمرات المستشرقين : والتي تكشف عن أن وزارات المستعمرات تستخدم المبشرين في العمل داخل البلاد العربية والإسلامية وتؤكد أهمية عملهم وخطورة دورهم في أن يكونوا عنواناً لها وأداة لتحويل الأفكار على النحو الذي تريده . وقد أشار كثير من الساسة إلى أهمية الدور الذي يقوم به التبشير ، فقال لورد بلפור وزير الخارجية البريطانية :

« إن المبشرين في نظر الاستعمار هم عيونهم التي تقوم بإطلاع الدول الغربية بالنواحي التي بهم معرفتها من عقائد المسلمين وآدابهم والثقافات التي يتألمون بها ، ويشير المؤتمر الاستعماري المنعقد في براين هام ١٩١٠ إلى أن ارتفاع المسلمين يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم وأن هذا يتطلب من الحكومات تبني عمل التبشير وإفساح الطريق أمامه .

ومن مناهج التبشير وأنظمته تلك القاعدة التي تقول إن جميع الوسائل تستغل في سبيل التبشير حتى أعمال البر ، وأن التطبيق والتعليم من أهم وسائل المبشرين . وتشير المخططات إلى أن يكون عمل التبشير مبنيًا على قواعد التربية العقلية والتأثير على عقول المسلمين وفلوبهم وبث الأفكار التي تقرب مع اللغات الأدبية ، وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والالمانية والهلندية والفرنسية مما يمد إلى إعمال تلك الأفكار وأن هذا يؤدي إلى سقوط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الإسلامية لتحل عها الخصائص الغربية . .

(٤) ولما كان الاستشراق هو المصنع ، الأساس لمخططات التغريب بيننا تبشيره هو أداته فإن أصدق تعريف للاستشراق هو : استخدام العلم في خدمة السياسة . . ومادة الاستشراق هي أعظم معطيات التبشير عن طريق المدرسة والصحيفة ، وفي مجال التعليم لدعم خطاه وإثارة عوامل الخلاف وتأريث الفبهات . ذلك أن الاستشراق إنما يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررة وبأهداف واضحة : أساسها خدمة النفوذ الاستعماري وقوامها التمهيب والالتهام للإسلام والعروبة والافتة ، وأعمال رجاله هي البحث بملقاط وتحت مجهر عن هفوات صغيرة وتكبهرها وجمعها واضحينها ، ومهما صبت كلماته في أسلوب براق له مظهر علمي ، فإنها تنطوي على الحقد والتمهيب مع عدم الخبرة ووضوح هدف الانحياز .

وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق في مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً في أيدي المبشرين . ومن هؤلاء مرجليوث وماسليون وهنري لامنس ولويس سنجو وفستك وجولد زهر . وهم أشد المستشرقين تمصباً على الإسلام واللغة العربية وتكشف أعمال المستشرقين على عهد قليل من القصور في الفهم أو الهوى في القصد ، وأخطر ما يتصل بتاريخ الاستشراق : إن رجال الإرساليات التبشيرية قد ظلموا أرواحهم في السنوات الأخيرة (بعد أن انكشف أمرهم وتخفوا وراء أستار الاستشراق) . ويتحدث الكثيرون بحسن نية وبساطة عن الدور الذي حققه الاستشراق في بعث التراث العربي الإسلامي ، ومن يعرف أن مصدر اهتمام المستشرقين بالإسلام والعرب ليس مجرداً ولا عالماً لوجه العلم والحق إنما يدركون كيف يفيدون من وراء هذه الدراسات تعرفاً إلى نفسية هذه الأمم ليكيفوا مواقفهم ومعاملاتهم ، وليكشفوا أطلعاتها ليحكموا الضربة ويهيئون بوسائل الإخضاع والسيطرة ، وهم يستهدفون من ذلك كله معرفة جوانب القوة للقضاء عليها وجوانب الضعف لتعيقها ، وذلك في سبيل هدف واضح هو أن يبقى نفوذهم ويستمر ، وهم في كل ما كتبوه قد عمدوا إلى وضع الإسلام والعرب واللغة العربية والتاريخ ، في قفص الاتهام ، وأوقفوا كتاب العرب والمسلمين موقف الدفاع ورد السهام .

وإذا كان الاستشراق عالماً لوجه العلم حتى يركز على الجوانب الضعيفة والروايات المدخولة ، والفبهات للشكوك فيها والنصوص المحتملة ، ويدع كل ما هو وثيق ومستكمل وواضح ، ولماذا يركز على الخلاف حين يدرس الشريعة ويركز على الباطنية حين يدرس الفلسفة ويركز على وحدة الوجود

حين يدوس النصوص ويركز على العامة حين يدرس اللغة . ولماذا يولي اهتمامه لبشار وأبي نواس في الأدب ، والحلاج والسهري وردي في النصوص ، وأبو بكر الرازي والراوندي في الفلسفة ، ولماذا يهاجم المتنبي والغزالي وابن خلدون وابن تيمية وهم من أبرز أعلام الأدب والفكر الإسلامي ؟

ولماذا يدع ألف باب من أبواب الأصالة في الفكر الإسلامي ليركز على حواشي متصل بالآثار الفارسية والهندية واليونانية ، ولماذا يهتم من جديد العصبية التي أثارها الشعوبية قديماً وبطرحها من جديد ، ولماذا يمين إلى البقاء حيث لا سبيل للبقاء : الفرعونية والفينيقية ، ويركز على الخلاف بين السنة والشيعة ويحاول إثارة الخلاف بين الأديان والأمم والمذاهب ويفتح باب الشكوك بين العرب والمسلمين . ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والفرامة والمجوسية والادعاء بأنها ثورات إسلامية . ولماذا تكتب الأبحاث المطولة عن نبوة أبو مسيلة الكذاب وإنكار وجود عبد الله بن سبأ .

إن نظرة شاملة إلى أعمال الاستشراق تكشف بوضوح عن أنه ركز على الأفكار الدخيلة والفلسفات الوافدة والمواقف المضطربة وحاول أن يضم ذلك كله إلى تراث الإسلام النقي الصافي .

(٥) ومن خلال مخططات التفریب برزت مجموعة من التواضع الذين شكلهم النفوذ الغربي في إرسالياته ومعاينه ، يحقرون كل قيم العروبة والإسلام ويعارضون مقوماتها ويقفون موقف الاستهانة والفض من قدرها . وقد تشكل من خلال هذه المضامين المنحرفة ما يسمى بالشعوبية الحديثة . وهي مضامين تحمل معارضة صريحة للقيم الأساسية للفكر الإسلامي العربي ومفاهيمه في اللغة والقرآن والرسول والإسلام والتاريخ والتراث . وتقوم في أغلبها على انتقاص هذه المقدرات والفض من شأنها وإثارة الشبهات حولها . وهي في مجموعها تقوم على الأسس الآتية :

(١) الإقليمية وإعلاء شأن الدعوات القديمة كالفرعونية والفينيقية والجاهلية العربية والوثنية اليونانية وإحيائها في الأدب والتاريخ والمسرحية والرواية (٢) إنكار الروابط العربية الإسلامية الجامعة (٣) الفض من قدر اللغة العربية وإعلاء العاميات (٤) انتقاص التاريخ العربي الإسلامي (٥) محاولة وضع مصطلح القومية الوافدة في مكان مفهوم العروبة الاصيل (٦) إنكار أثر الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة البشرية (٧) تفریع مفهوم العروبة من القيم الإسلامية والتاريخ والتراث . ويقاب على هذا الاتجاه طابع د العصرية ، وغلاف د العلمانية ، وإطار براق من النيج العلى الخداح الذى يخفى وراءه أكبر مخاطر التعصب والحقد والتشكيك والانتقاص .

وتستهدف الشعوبية الحديثة إذابة العرب والمسلمين في مفهوم رائف وخطير هو مفهوم عالمية الثقافة أو منهج الفكر الحر وكلاهما من صياغة الدعوات الهدامة والتجودية الصهيونية .

الغفيل الرابع

إحياء الهلينية

(١) كان من أخطر المحاولات التي جرت في ظل النفوذ الاستعماري : إحياء الهلينية ، ومحاولة إغراق الفكر الاسلامي والثقافة العربية في موج متلاطم من مترجمات اليونان والإغريق . وقد بدأت هذه الدعوة بترجمة مؤلفات أرسطو ، ثم بالتوسع في ترجمة الأسطورة . واتسع نطاق هذا الاتجاه حين أدخل إلى الدراسات الجامعية : مادة اللغتين اليونانية واللاتينية القديمتين . ومن ثم نشأ تيار ضخم أعاد بعث هذا التراث وفرضه على الأدب العربي والفكر الاسلامي . ومن ثم أصبح له تأثيره في مقومات الأدب وخصائص الفكر ، وهو أثر جاء أشد حثفاً من أثر الترجمة التي تمت في العصر العباسي للفلسفة اليونانية . وقد جرت الدعوة إلى هذا المخطط تحت عنوان ضخم ورائف في نفس الوقت هو القول بأن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافة الإنسانية .

وقد كشفت الأبحاث الحادة عن زيف الدعوى القائلة بأن مصادر كثيرة في البلاغة أو النقد أو المنطق قد استمدت من الأدب العربي من اليونان . فقد كان العرب قد أشكوا بيانهم وبلاغتهم ونحوهم قبل أن يتصلوا بالإغريق . وكان لهم من القرآن منطلقاً أساسياً لبناء أدبهم وفكرهم ، وكانت اللغة العربية بماطبيها الحافل واستقلالها الواضح قد خطت خطوات واسعة قبل الاسلام ، وقبل نزول القرآن على نحو يتكشف عن زيف دعوى التأثير العربي باليونان ، وهي دعوى أذاها بعض الشعوبيين من أتباع الاستغراق والتبعية . هدف القول بأن تبعية العرب في القديم ليونان لا تمنع تبعيةهم في العصر الحديث لحلفاء اليونان من الأوربيين .

(٢) وما كذبته الوقائع والأسانيد القول بأن عقلية مصر عقلية يونانية أو أن الفكر اليوناني قد أثر في الأمم التي جالست على شاطئ البحر الأبيض قبل الاسلام . ومهما يكن هذا التأثر فلن الاسلام قد جيب كل ما قبله ، وأزال من العقول والنفوس كل آثار الأمم والأديان والمذاهب ، وأقام منهاجاً جديداً مستمداً من القرآن ومرتبطاً بالدين الحق في كل ما أنزل الله على نبي سابق ، وهو في نفس الوقت متصل أقوى الاتصال بالنفس البشرية والفطرة الإنسانية .

وانقد أكد كثير من الباحثين أن ظهور الاسلام كان بمثابة فاصل فمكرو وحاجز عقلي بين عنصر وعنصر ، وأن ركاز الفكر البشري الذي كان يعموج قبل الاسلام قد أصابه ومن كبره عند ما وقع تحت أضواء الفكر الرباني الموحى به ، والإنساني الطامع ، والحرر للبشرية من العبودية والوثنية والإلحاد

والإباحة ، ولا هبرة لما يتردد من أن الفلسفة الإسلامية لم تكن إلا فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية . فقد اتخذ المسلمون منطلقهم العلمي ومنهجهم في المعرفة من القرآن وبه شكروا منهاجاً خالصاً يختلف كل الاختلاف مع الفلسفات القديمة ويتعارض معها من ناحيتين : من ناحية نقطة البدء ، وهي التوحيد في مواجهة الوثنية والتعدد . ومن ناحية نقطة التطبيق وهي المجتمع القائم على المساواة في مواجهة نظام العبودية الخطير الذي كان قائماً في مجتمعات الحضارات الثلاث الكبرى في العالم (الفرعونية والفارسية والرومانية) .

ولقد كان لعلماء المسلمين موقفهم من آراء أرسطو ، ومن المنطق بصفة عامة .

(٣) وإذا كانت الفلسفة اليونانية التي ترجمت في العصر العباسي قد جاءت باختيار المسلمين فإن الفلسفة اليونانية التي ترجمت في العصر الحديث قد جاءت بإرادة المسلمين مسخرة وقد فرحت عليهم فرضاً ، فلم يكن لهم دور في اختيارها . ومن هنا فإن ما ترجم من عناصر الأسطورة والمرحبة والمأساة ومفهومها ، ومحاولة إدخال ذلك في الفكر العربي الإسلامي إنما جاء معارضاً لذاتية العربية والمراجع العربي الإسلامي الذي تشكل في ضوء القرآن خلال أربعة عشر عاماً على نحو مختلف عن مفاهيم اليونان الوثنية القائمة على المادية والإباحة .

وإذا كانت المدرسة الهلينية الحديثة قد استطاعت أن تحقق انتصاراً خاطئاً ، فإن مدرسة الأصالة التي انبثقت من حركة اليقظة العربية الإسلامية قد استطاعت أن تكشف هذا اللؤف وأن ترد الأمور إلى حقائقها ليس بالنسبة لترجمات المستعربة لحسب ، بل بالنسبة لتقوم مترجمات الفلسفة اليونانية إلى الفكر العربي الإسلامي كلها ، فقد تكهفت حقائق كثيرة في هذا المجال أهمها :

(أولاً) إن الفلسفة التي ترجمت للمسلمين في العصر العباسي لم تكن ثقافة إغريق صحيحة بل كانت صورة من عقائد الذساطرة واليعاقبة الذين ترجموها والذين عمدوا إلى التبشير بمعتقداتهم النصرانية في عالم الإسلام متخذين من ترجمة الفلسفة اليونانية سبيلاً إلى ذلك . هذا فضلاً عن أن عدداً من الكتب ترجمت فُسُوباً إلى مؤلفين غير الدين ألفوه . ومن أخطر ذلك ما نسب إلى أفلاطون وهو من تأليف أرسطو مثلاً . وقد اعتمد الفلاسفة الذين حلوا هذا المواء أمثال الفارابي وغيره على هذه الزيوف ، فكان لها أسوأ الأثر في أبحاثهم .

(ثانياً) تكشف بطلان الدعوى التي ادعاه بعض العمويين من القول بتأثر العرب بالأدب اليوناني . وقد أفاض الباحثون في تزييف الرأي القائل بالتأثر ومن هذا ما أثبتته غري أبو السعود : السر في ذلك راجع إلى سلبية العرب المطبوعة على البيان ، المفطورة على فصاحة اللسان . فإن العرب لم يكن لديهم سوى اللسان أداة التعبير ، ومن ثم تأصلت فيهم بحجة البلاغة وارتفعت فيهم مرتبة البلاغة ، وتوطدت لغتهم ومنتج أدبهم وهم على بداوتهم وقلة حظهم في الحضارة ولذلك لم يهاكوا شيئاً من الفنون التي كانت حوّلهم في اليونان والرومان والفرس والمصريين .

(ثالثاً) أسكن التنقيب في النصوص القديمة والكشف عن ذيف الادعاء بأن قواعد البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب .

فقد كشف ابن الأثير في المثل السائر ، خطأ هذا الاتهام - وكتاب المثل السائر من أشهر كتب البلاغة - وذلك في قوله : « فإن قلت إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه . قلت لك في الجواب إن هذا شيء لم يكن ، إلى أن قال ، وهذا باطل بي أنا . فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامي » إلى أن قال : « واقد فارضني ببعض المتفلسفين في هذا . واناسق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في الخطابة والدمع . وذكر ضرباً من ضرب دمع اليوناني يسمى اللاغوذيا . وقام فأحضر كتاب الشفا لأبي علي . فوقفني على ما أذكره . فلما وقفت عليه استجلبته ، فإني طول فيه وعرضي كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد منه صاحب الكلام العربي شيئاً . »

(رابعاً) انكشفت المحاولات الهدامة التي تهدف إلى ربط الفكر العربي الاسلامي الحديث بالهلينية كهدف من أهداف التغريب لإحياء الوثنية في محيط الاسلام ؛ وربط هذا الاتجاه بتقبل سيطرة الفكر الاوربي الحديث على العرب والمسلمين وإن كل ذلك إنما يهدف إلى هدم قيم الاخلاق وإحياء الإباحية .

يقول الدكتور وكي مبارك : « عاش اليونان في جاهليتهم بفقه ظهور الاسلام بأجيال طوال . وظلوا يتوارثون أوهام أسلافهم من عصر إلى عصر ، إلى أن جاء المنتظرون من شعراء الفرنسيين والانجليز فمكفروا على هذه الوثنية يعمدونها من جديد ، لأنها قامت على أساس براق هو التقديس لطرح الأهواء وطغيان الأحاسيس . »

وإذا كان الرجل يعجب من سكوت العرب عن ترجمة ما كان عند اليونان من أسفار وأقاصيص ، فإن المسلمين الذين نهام دينهم عن إحياء الوثنية العربية قد انتهوا بفضل الدين عن إحياء الوثنية اليونانية .

(خامساً) طارض الباحثون هذه المقالة في القول بأن أرسطو هو معلم العرب الأول وأن اليوناني هم أساتذة العالم وثقفي الشعوب ودحضوا محاولات إيراد مكانة الخطابة في اليونان ، وإعمالها عند العرب ومحاولة فرض مفكرى اليونان على أنهم قادة الفكر البشري .

وقال الباحثون : إن هذه محاولة لإبعاد النفوس عن مجد اللغة العربية وسمو أدبها بحرمان الناشئة من معرفة الوسائل المؤدية إلى هذا السمو وهذا المجد .

(سادساً) وقف الفكر الاسلامي والثقافة العربية موقفاً معارضاً لكل القيم والمفاهيم التي حملتها الهلينية إلى العرب والمسلمين وحال إيمانهم العميق بالتوحيد دون الخوض لكل ما تحمله الهلينية من وثنية وإباحية ومعارضة الفطرة .

وقد أشار أرنست ريثان إلى هذا المعنى حين قال : إن التوحيد هو أم خصائص العرب ، وهو الذي يلمنحهم ويفسر جميع صفاتهم ، وقد كان دين إبراهيم خالياً من التعقيد . وأشار إلى حركة الوهابيين في الجزيرة العربية وقال : إنها تجديد لفكرة التوحيد باتجاهها إلى تخصيص العقيدة الإسلامية من كل العناصر الغريبة التي دخلت إليها وأبعدتها عن فطرتها الأولى .

وإن هذا المفهوم من التوحيد هو الذي حال بينهم وبين الليثولوجيا التي عرفها اليونانيون .

(سابعاً) كشفت حركة اليقظة عن اختلاف مفهوم الفكر الإسلامي والفكر الهلنستي حول الفقه والرواية والشرح ، وأبانت حجب لم يكن الغرب والمسلمون في حاجة إلى هذا الفن لنصاحة فكرهم ووضوح دهرتهم وبساطة كلمة التوحيد وبعدها عن التعقيد الذي يحتاج إلى تفهيم من خلال أساطير ومسرحيات ، وكذلك استبعاد المسلمين لفكرة عبادة البطل ومعارضتهم لفكرة الهيمنة الأولى مصدرة للأساسة . وكذلك إنكارهم لمفهوم الصراع بين الله والناس .

وقد علم القرآن المسلمين بالانصراف إلى الحق : كيف تكون المباشرة الصريحة والأسلوب الواضح الصريح بعيداً عن الإيحاء والرمز والظلال والمفوض . هذا فضلاً عما ألهم القرآن للمسلمين من عفة المرأة وكرامتها فضلاً عن طابع الرحمة والسماحة والكرم والأريحية وهو ما يتعارض كلاً مع القصص اليونانية الخالقة بالوحشية والظلم والفساد على النحو الذي عرف في قصة الكفرا ، وأوديب ملكا . ويرجع ذلك إلى هيمنة الآلهة الإغريقية وميلها إلى الشر والانتقام .

(ثامناً) قاوم الفكر الإسلامي في الهلنستية نظرية الإلهام والثباتية والروائية والإباحية . وهي النظائر التي ورثها الفكر الغربي والحضارة الأوربية التي يحاول دعاة التغريب فرضها من جديد على الفكر والمجتمع الإسلامي بإعادة إحياء المسرحيات اليونانية والأدب الإغريقي .

(تاسعاً) رفض الفكر الإسلامي مفهوم البطولة اليونانية القائم على الاحجار والنشك المادي ، وأقر مفهومه الأصيل القائم على تقدير العمل وإحياء العود الذي قام به البطل في سبيل أمته ، كما رفض مفهوم التراجيديا اليونانية القائم على صراع الآلهة مع الإنسان ، أو عبادة الأبطال ، أو غير ذلك مما يتعارض مع أصول الفطرة الانسانية المتحررة من العبودية لغير الله تعالى .

الفصل الخامس

الدعوة إلى العامية

(١) من أخطر الدهوات التي طرحه في نطاق غخطات الاستعمار والتغريب : محاولة فرض اللهجات العامية في البلاد العربية بدلاً لغة العربية الفصحى ، ولما كانت هذه اللهجات لا تحمل معها نزاهة ، ولا أدباً فقد جرت المحاولات لتجميع أزجال وأمثال ونكات من هنا وهناك في محاولة لحلق نوات يمكن الاعتماد عليه في خدام الأمم ، وتركز هذه الدهوى الباطلة على القول بأن العامية ليست لهجة من اللغة العربية ، ولكنها لغة مستقلة .

ولقد كان عمل دعاة العامية من المستشرقين الذين حلوا لواء الدعوة إلى ما يسعون اللغة المحكية (سبينتا - ويلبور - ويلكوكس) جمع كلمات وأمثال - مما يدور في الأحياء الوطنية ، وبين العامة - من أجل الادعاء بأنه نوات للعامية . بل لقد ذهب ويلكوكس إلى أبعد من هذا . حين ادعى بأن العامية لغة مستقلة عن العربية ، ولا صلة لها بها . وعمدت الصحف العاملة في خدمة نفوذ الاستعمار والتغريب على تشجيع الإنتاج العاسي كالأزجال والحكايات والمخرافات من أجل دعم هذه الدهوى . وقد بدأت الحلة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضي ، وامتدت وتبلورت في دهوى لم يثبت لها دليل . وهي القول بأن العامية هي مصدر قوة الاختراع ، وأن تأخر المصريين في هذا المجال يرجع إلى اللغة الفصحى ولو أنهم اتخذوا لهم لغة إفريقية كما فعلت بريطانيا مثلاً لاستطاعوا أن يتفوقوا وأن يهزموا . وقد كانت هذه دهوى باطلة ومضللة وساذجة أيضاً ، ولكن هكذا جرت المحاولات لمهاجمة اللغة العربية ، ثم جاء ويلبور فدعا للمصريين إلى العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية .

وفي الغرب كان ماسنيون يدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وتابعه كولان وغيره ، ثم انتهت هذه الدعوة ثانية بين خرمي معاهد الإرساليات الذين حلوا لواء هذه الدعوة في بيروت ، وفي مصر جرت محاولات كثيرة أبرزها ما دعا إليه لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي . وكانت المحاولة التي غطت لها التغريب هي وضع اللغة العربية في مقابلة تاريخية مع اللغة اللاتينية التي مالت ودخلت المتخلف وثغرات منها لغات متعددة .

وكان القول دائماً بأن اللغة يجب أن تتطور لتلبى حاجات الناس في كل عصر ، وأن هذا يتطلب منها أن تجاري مستويات الناس . ولذلك فقد جرت المحاولات في أوروبا في العصر الحديث إلى إسقاط لغة الكتابة كل قرنين ، واعتباره لهجة الكلام لغة مستحدثة ، وكان هذا هو ما يراد باللغة العربية ، ولا يجب أن هدف هذا هو تحويل ذلك التراث العظيم ، وفي مقدمته القرآن والسنة ، والشرعية الإسلامية ، إلى شيء تاريخي لا يمكن دراسته إلا للمتخصصين ، ولا يمكن الوصول إليه إلا براسطة

قواميس ومترجمات، بعد أن يصبح معزولاً تماماً عن اللغة المستعملة، ولقد تصدى كثيرون لهذا
فكرة المقابلة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية، ذلك أن اللاتينية حين ماتت كلفة الشعب، إنما كان
ذلك نتيجة موت الأمة. أما الأمة العربية الإسلامية فإنها لم تمت بعد، هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية
لم تكن اللغة الأصلية لكل أوروبا، وإنما كانت هناك السالية والسكرتير والجرمانيه الهندية، فضلاً عن
أن اللاتينية كانت لغة أرسطراطيه لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة، ولم تنغل في
طبقات العوام.

(٢) لم نجد الدعوة إلى العامية تقبلًا جريماً، حتى من خصوم العرب والإسلام الذين هجروا
عن الدفاع عن العامية، وجرى التساؤل عن أي اللهجات العامية يتخذ العرب، أم لغة الشام، أم
لغة مصر أو لغة العراق؟ وإذا كان المقصود هو أن يتخذ كل قطر لهجته لغة، فأى اللهجات في
مصر مثلاً: لغة شمال الدلتا أو الصعيد أو القاهرة؟ وكشفوا عن أن كل لغة في العالم لها لغة عامية،
ولها لغة كتابية، وأن الفرق بين لغة الكتابية ولهجة الكلام في العربية ضيقة المجال. وليست أكثر ما
بين اللغة الإنجليزية وعاميتها. وقد أحصى الباحثون حجم الخسارة التي تفقدها الأمة العربية من إهمال
الفصحى، وخاصة ما يتعلق بتراث أربعة عشر قرناً من الفكر والأدب والعلم والشريعة، وكشفوا عن
أن السر في صمود اللغة العربية في وجه غزو العامية، إنما هو القرآن الذي ارتبطت به العربية منذ نزوله
بها. وقد أحدث معجزة لا تعرفها لغات الأرض قاطبة، وهي أن العربي يستطيع أن يقرأ تراث
القرون الماضية كله دون حاجة إلى قاموس، وأن واحداً من هؤلاء القدامى، لو أنه يموت حياً اليوم
لاستطاع أن يتحدث مع الناس.

وقد أشار الباحثون إلى ما تتميز به اللغة العربية من ثبات عجيب لا مثيل له، إلى درجة أن أحد
المستشرقين الألمان دعا الغربيين إلى استخدام اللغة العربية لتدوين الآثار الفكرية التي تبنى عليها
الحضارة وتستحق الخلود، ذلك أن المواطنين في أي لغة من اللغات المعاصرة، لا يتجاوز فهمهم أكثر
من إنتاج ما تاتي عام من التراث، أما ما عدا ذلك فإنهم لا يستطيعون دراسته إلا بواسطة قواميس
وإن أقل مقارنة بين شكسبير مثلاً في الأدب الأوربي، وبين المتنبي في الأدب العربي تكشف عن هذا
الفارق البعيد من حيث أن العربي يقرأ المتنبي اليوم ويفهمه وبينهما ألف عام بينما الانجليزي لا يقرأ
شكسبير إلا من خلال دراسات تنقل أفكاره إلى لغة القرنين الأخيرين.

(٣) كشف الباحثون عن فساد اللهجات العامية وهجرها عن أن تحمل اللغة، ذلك أن العامية
لم تبلغ من النضج والاضبط والإحكام مستوى اللغة العربية الفصحى، فهي بمثابة خام بعيدة عن الصقل
لم تمرن على النهوض بأهواء الحياة العلمية والفكرية، بينما كانت الفصحى حاملة رسالة العلم والأدب
والفلسفة قروناً طويلة، مما أكسبها صقلاً ومرونة وتجاوباً مع الفكر والشعور في مظهرها الرفيع.
فالعامية أصغر من أن تقفز إلى المستوى الذي تحتله الفصحى منذ دهر طويل، زد على ذلك أن العامية
لا مناص لها من الحصار في بيئة ضيقة محمية، فلن يتاح لها ما أتيح للعربية من الرقي والنضوج في

فيسرها، إذ أن شيوع العقيدة الإسلامية كان سبباً في شيوع العربية التي تحمل تلك العقيدة، فاشترك في الإنتاج بلغتها أمة مختلفة، وهذا الشيوع الغزوي أدى إلى زيادة في طواعية العربية ومرونتها لتتعبير عن كل مطالب الفكر الإنساني. هذا فضلاً عن أن العامية لا يمكن أن تحقق التناغم، الذي هو الغرض من اللغة، بل إنها تحول دون التناغم مع أبناء الأقطار العربية، أو بين أبناء القطر الواحد. وليس في اتخاذ العامية توفيق الوقت والجهد كما يتوهمون، إذ يضطر الناس في المستقبل إلى دراسة أطوار العامية لكي يفهموا النصوص المكتوبة في عصر سابق كما سيضطرون إلى دراسة اللغات العامية المجاورة لهم، كما سيحل مكان دراسة قواعد اللغة الفصحى الواحدة دراسة قواعد العاميات المتعددة، ولا تستطيع العامية أن تباهي بمثل تاريخ الفصحى وفضلها على الحضارة، ولا شك أن العامية ستؤدي إلى إضعاف أواصر الوحدة القومية بين أجزاء الوطن العربي، كما ستؤدي إلى إضعاف أواصر الوحدة الفكرية بين أتباع العقيدة الإسلامية وهدم العقيدة والقومية هدماً يهدف إليه المتهترون والمشتشرقون.

(٤) أما القرآن الكريم وأثره في بناء اللغة العربية، وأثره في امتدادها على القرون والأزمان فإنه قد وجد من الباحثين تقديرًا واضحاً وفهماً حميماً. فهو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر العصور، وستعمر اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم، كما ماتت قبلها لغات حية كثيرة في سالف العصور، إلا العربية فستبقى بمنجاة من هذا الموت وستبقى حية في كل زمان ومكان مخالفة لنواميس الطبيعة التي تسرى على سائر لغات البشر، ولا غرو فإنها متصلة بالمعزة القرآنية الأبدية.

وقد أكد غير واحد من الباحثين بأنه لا لغة عربية بفهم القرآن، وأنه النموذج الخالد الذي سيبقى لغة البيان، وأن اللغة العربية لا ريب حافظت على وجودها بفضل القرآن.

(٥) ولا ريب أن اللغة العربية قد صاغت بالقرآن مفكراً متميزاً، له معالمة الواضحة وطبيعته الخاصة. ومن هنا كانت اللغة العربية ضرورية لفهم هذا الفكر، وكانت هناك مطابقة واحدة بين أهل اللغة العربية وبين القرآن والفكر الإسلامي، وهذا هو السر في القول بالهجر عن ترجمة القرآن من حيث ارتباط الفكر باللغة ارتباطاً جندرياً، ومن حيث هجر كثير من المستشرقين عن فهم القرآن وفهم الإسلام لأنهم يعجزون عن فهم أسرار اللغة وبلاغتها وتركيبها.

ولما كان من العسر فصل كلمات اللغة عن ملايساتها الفكرية التي تشهد إلها، فقد قام لغة جدار ضخم في بناء الفكر لا سبيل إلى إنكاره أو تجاوزه. وفي هذا المني يقول العلامة صادق هنبر: لقد علينا أن نكمل أمة شهاداً من لغتها على ما فطرت عليه من دين ودون لها من تاريخ، وعرف عنها من نسب ومدني وفنون. ففقدان أمة لهذه الثروة المعنوية أعترافت منها بتفاهتها.

(٦) وإذا كان لنا أن نصيّم أهمية اللغة العربية فإن ذلك يحتاج إلى موازين كثيرة: ومن ذلك أن عدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألفاً، وكلمات اللغة الإنجليزية مائة ألف، أما العربية فعدد موادها ٨٠ ألف مادة. ومعجم لسان العرب يحتوي على ٨٠ ألف مادة لا كله.

ويقول الخليل بن أحمد في كتاب العين : إن عدد أبنية كلام العرب (١٢ مليون و ٣٠٥ ألف و ٤١٢ كلمة) ويقول الحسن الزيدى : إن ما يستعمل من ألفاظها ٥٩٢٠ لفظاً . وعندما نزل بها القرآن أراحنا السريانية والكلدانية والنبطية والآرامية واليونانية والقبطية قبل أن ينقضى قرن واحد . فلما بلغت القرن الثالث الهجري تحوت الصلوات في الكنائس إليها ، ثم كتبت بها اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغوية والسودانية والإيجية والساحلية . كما كتبت بها لغة أهل الملايو . وقد حدث هذا كله منذ ألف عام تقريباً . ثم دخلت اللغات الأوروبية كالفرازية والألمانية والانجليزية . وفي اللغة الانجليزية وحدها أكثر من ألف كلمة عربية : ومن الناحية العلمية : فهي تفوق أضخم اللغات زروة وأصواتاً ومقاطع . إذ فيها ٢٨ حرفاً غير مكررة . بينما اللغة الانجليزية فيها ٢٦ حرفاً ومنها مكرر . وبالله العربية ثراء في الأسماء المضاعفة . فهناك ١٧٠ اسماً للماء و ٧٠ اسماً للمطر ومن خصائص اللغة العربية : أن جميع مشتقاتها قبل التعريف ، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين . ولل فعل العربي صيغ متعددة تباغ الإثني عشر صيغة ، كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي وتتمايز بضروب في النحو في مجال الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية . ومن أعاجيب العربية التي لا تجد لها نظيراً أن كلمة (الوفاء) في اللغة العربية قد شغلت أربع صفحات من الجزء العهري من لسان العرب من صفحة ٢٧٨ إلى صفحة ٢٨١ . وفي بعض اللغات لا توجد كلمة واحدة تدل على هذا المعنى .

(٧) هناك من دعاة التخريب من يقول : دأبوا إلى قتل الفصاحة ، ولا ريب أن الدهوى هناك موجهة ضد القرآن نفسه ، ذلك أن الأمة العربية إذا نزلت في أساليبها إلى المستوى العلمي فإنها ستفقد قدرتها على فهم القرآن وعلى الاتصال بمضامينه ، ولذلك فإن العربية لا تزال قائمة على الفصاحة وأن أساليبها تبقى قائمة على مستوى القرآن دون أن تنزل عنه . وفي هذا يقول العلامة مصطفى صادق الرافعي : العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم . وفيه أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا يحفل به من رنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق . ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ، ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء لها ، وأحكام اللغة والبصر في دقائقها وفنون بلاغتها ، والحرص على سلامة الذوق بها ، وكل هذا يجعل الترخيص في هذه اللغة وأساليبها طرباً من الفساد . والحال الخاصة في فصاحة هذه اللغة : ليست في ألفاظها . ومن هنا فإن دهوى قتل الفصاحة هي حرب يراد بها إبعاد مستوى المسلمين والعرب عن مستوى بلاغة القرآن ، ومن ثم يعجزون عن فهمه وينحرفون إلى مستويات العاميات .

ومن الحق أن اللغة العربية ليست لغة العرب وحدهم كامة ، وهم لذلك ليسوا مخيرين في أن يتصرفوا بها ، ولكنها لغة فكر وثقافة وحضارة ودين يتزود بها سبعة ملايين من البشر . فهي لغة فكر مشترك بين العرب والمسلمين ، وبين المسلمين والمسيحيين ، وبين مختلف العناصر والعقوب والأديان والمذاهب وهي لغة فكر الشرق بكل ثقافته ، وهذه خاصية لم تعرفها لغة غير اللغة العربية ، ومن أجل ذلك فقد استعصت على اللغويين والنظم التي حاول علم مقارنة اللغات أن يحددها أو يفرضها على ثقافات الأمم ولغاتها .

الاسلام في مواجهة الفكر الوافد

(١) إن أكبر الأخطاء التي تواجه الاسلام من خصومه هي محاولتهم تطبيق مفاهيم الأديان الأخرى عليه ، بينما يختلف الاسلام عن هذه العقائد التي قد أساءها التحريف والقصور عن شمول الاسلام وتكامله . إن معظم العقائد والنحل تتقارب وتتشابه وتلتقي في كثير من مفاهيمها . لذلك فقد يجد الباحثون من الغربيين في مفاهيم الاسلام شيئاً مغالفاً يمسر عليهم فهمه ، وربما بدا غريباً كل الغرابة ذلك أن الاسلام لم يكن مجرد دين ، بل هو طريقة في الحياة ومنهج واضح على بكل ناحية من حياة الفرد منظم سلوكه الاجتماعي والخلق والقانون والدين . وهو إلى ذلك منهج أخلاقي يربط الحياة الدنيا بالآخرة ، ويربط العقل بالقلب ، ويربط العلم بالعمل .

والتوحيد هو الأساس الأول للإسلام وهو أيضاً المحرك الأول للفكر الاسلامي وبوضوح فهمه منهجاً متكاملًا جامعاً يلقى صور الخلاف والصراع التي تقوم بين العلم والدين ، والروحية والمادية ، والفردية والاجتماعية . وهو يعنى من شأن الانسان ويجعله مستخلفاً في الأرض تحت إرادة الله .

وليس في الاسلام خطيئة أصلية ولكن فيه مسئولية فردية وجزاء أخرى . فهو لا يقر مسئولية أحد من البشر عن شيء سوى ما فعله ، وهو يؤكد قيمة الانسان به صرف النظر عن لونه وديانته .

(٢) وقد رفض الاسلام مبدأ التقليد ومبدأ التبعية . قال التقليد يمنع الأصالة ، والتبعية لا تتيح معرفة حقيقية . والتقليد ينطبق على الوافد وعلى القديم جميعاً . كما دعا الاسلام إلى التفرقة بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية ، ونادى بالاهتمام بالآدول والتركيز عليها . وعلى الاسلام على تحرير أمتيائه من التأثر الأجنبي بكل أنواعه . ودعا المسلمين إلى اليقظة إزاء الحرب النفسية التي تهدف إلى تفتير المعالم الأصلية لتقيدتهم وفكرهم ومزاجهم النفسي . ولقد كان أهداه الاسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى ضرب الاسلام هو إثارة الشبهات وطرح اللدعات الهدامة في طريقه وإدخال تفهيرات هربية عليه . ولا ريب أن الطريق إلى حفظ وجودنا وكياننا . وحماية العقائد والاصول التي تقوم على التوحيد والأخلاق من الشبه والفسكوك التي قدمتها الفلسفة المادية هو طريق واحد إنه الاعتصام بالقرآن القادر على المعطاء في حل جميع المتناقضات .

إن الفكر الغربي اليوم لا يقدم للمسلمين عوامل بناءة أو إيجابية ، فهو حريص على أن يقيمهم داخل دائرة ضعفهم ويغفلهم إنما يقدم لهم صراج للمذاهب الفكرية ليفتنهم عن قيمهم ويمنع عنهم العلوم التكنولوجية التي شاركوا في صنعها وهم في حاجة إليها . إنهم يعطون ما لا يحتاجون إليه ويمنعون من حاجتهم الوحيدة في حضارة الغرب . إن وحدة الثقافة العالمية عبارة خلافة ولكنها تنحفي في أحقابها التمسب والاحتقار للثقافات الانسانية ، ومعناها الحقيقي هو سيادة الثقافة الغربية وتسيدها على حضارات الأمم ولا سيما الفكر الاسلامي والثقافة العربية . لقد ظل كفاح المسلمين مستمراً على مدى

الاجتهال في سبيل تحرير الفكر الاسلامي من هيمنة الفلاسفة الوافدة والنظريات المادية والوثنية . ولم يستسلم الفكر الاسلامي طوال تاريخه للنظريات الوافدة وقاومها طويلا .

إن أخطر معطيات الفكر الغربي هي الانشطارية - هذه الانشطارية هي الفصل بين القيم عامة والأخلاق من ناحية ، وبين السياسة والتربية والاجتماع من ناحية أخرى . وأخطر ما في المناهج الغربية الوافدة أنها تتوزع دون أن ترتبط في تكامل مع الانسان نفسه وحاجاته ، فترى علماء يدرسون الأخلاق في عالم المثل وعلماء يدرسون الانسان مجرداً عن الأخلاق . ويرى علماء أن هذا الفصل واجب ومفيد في العلوم الطبيعية ولكنه خطر ومستحيل في علوم النفس والاجتماع ذلك أنه ما دام للناس يعيشون في إطار مجتمع . وهذا المجتمع داخل في نفس كل فرد كجزء أساسي منه فلا يمكن أن تنفصاً قيم خلقية واجتماعية منفصلة عن الانسان .

(٢) لا ريب أن هل المفكرين المسلمين والعرب أن يفكروا بلغتهم . ومن داخل إطار فكرهم لينطلقوا في الطريق الوحيد الذي تضيئه أمامهم أضواء التوحيد والعدل ، وعلى المسلمين أن يعرفوا كيف حطم الاسلام قيد الإفريقية الثقيل . وحرروهم من منهج العبودي الوثني ، وأن عليهم اليوم أن يحدوا قيد المادية في العصر الحديث وعلى المسلمين أن يفرقوا بين الاصيل والبديل وأن يذكروا دائماً أن الدعوات الهدامة تعمل على تقديم البديل الزائف البراق في مواجهة الاصيل الذي لا يجد طريقاً في رحمة الباطل . إن تعصيد العقل واعتباره سبيلاً واحداً في البحث ليس منهجاً إسلامياً أصيلاً . وعلى المسلمين أن يذكروا أن هناك ظاهرة انحلال واضحة في الفكر الحديث كله في الأدب والفلسفة والاجتماع لقد حرر الاسلام المسلمين من ركاب الفكر القديم ووثنياته واضطرابه وأخطائه . فإذا كان في الفكر القديم أي ضياء من نور ، فإنه إنما جاء من رسالات السماء . وقد أعاد الاسلام تشكيكه من جديد على صورة مضيق ربانية وما سوى ذلك فلا حاجة لنا به . ولا بد أن تكون هناك تفرقة واضحة بين مفهوم التخصص وبين مفهوم فصل القيم وتجزئتها .

إن التخصص هو إعطائه علم معين أو فن معين أكبر قدر من الاستيعاب والاستقصاء ، ولكن التخصص في مفهوم الاسلام لا يتم إلا في داخل نطاق التوسع في الدرجة الأولى من الفكر كله والاعتناء بقوانينه وعلاماته . أما فصل الأخلاق عن السياسة ، أو عن التربية ، أو عزل الدين عن المجتمع ، أو الأدب عن الفكر ، أو العروبة عن الإسلام ، أو اللغة عن القرآن ، فذلك ليس تخصصاً ولكنه فصل مضيق لمفهوم التكامل الذي هو أبرز قواعد الفكر الاسلامي ، والذي هو بمثابة الجدار السيك الذي يسبح الدعوات الهدامة والفكر الوافدة . فالمنهج الاسلامي في المعرفة يقوم على الثبات ، والتطور على قاعدة الثبات وحركة التطور من داخله شأنه شأن كل شيء في الكون له قاعدة يتحرك عليها ولا يتفصل عنها ، وفي الاسلام أهداف ثابتة ووسائل متغيرة . فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله .

إن الدعوة إلى التخصص على هذا النحو ليست إلا دعوة إلى تمزيق جهة واحدة ، وتفتيق أصيل

واحد . إن مسألة تهيئة المفاهيم في الفكر الغربي لها طابعها وعواملها ومبرراتها . ذلك أن الأصول القديمة للفكر الغربي تقوم على الفصل بين القيم وأهمها بين الدين والمجتمع .

(٤) وبعد فإذا تعنى كلمة « المقائد الموروثة » ، التي يرددها بعض الكتاب والمؤرخون عليها ؟ إنها كلمة يراد بها الغرض من شأن الدين والقيم الإسلامية . ولا يجب أن المقائد الموروثة صنفان ؛ أصيل وذائف ، وهي في إطلاقها دون تحديد نوصها ، إنما تريد بالتوبة أن نخدع بعض الناس وأن تصور لهم أن المقائد الموروثة كلها زائفة ، والحق أن المقائد الأصيلة غير المقائد الزائفة ، وأن هناك مقائد زائفة جديدة هي في ذاتها نتاج مقائد موروثة . ونحن نعلم أن الإسلام حين جاء بالحق إنما كان حجة على المقائد الموروثة الزائفة . وقد كشف عنها ودحضها في قوة عن طريق أسلوب الإقناع القائم على العقل والقلب معاً . ونحن نعرف المقائد الأصيلة من المقائد الزائفة بوسائل كثيرة ، فلا شك أن كل ما يقدمه لنا الأعداء والخصوم ذائف مهما بدا بريئاً ، وكل ما يتعارض مع فطرتنا ومع روحنا ومع طابعنا ومع قيمنا الأصيلة هو ذائف مرفوض . أما الإسلام وحقايقه من الوحي والنبوة والقرآن والبعث والجزاء فلن تكون أبداً مقائد موروثة على النحو الذي يقصده دعاة التغريب .

(٥) هناك صيغة تقول أن البشرية بلغت رشدها . فهل البشرية بلغت رشدها حقاً ؟ ولم تعد في حاجة إلى وصاية الدين ؟ هذه هي الصيغة التي تحملها الدعوات الهدامة في العصر الحديث من أجل التحرر من القيم والمفاهيم التي ورثتها الإنسانية من رسائل الأديان . والتي مدتها في دياجير الظلمات وأمدتها بالقوة على معارضة الظلم والطغيان والفساد . ونحن نسأل عن القيم الجديدة التي أغنت البشرية عن هداية الدين وتبحث فلا تجد شيئاً . إن كل ما تقدمت به البشرية في القرنين الأخيرين مما كان من قبل ، لا يريد من هذه المعطيات المادية التي منحت الإنسان بعض الرفاهية في المسكن والملبس والطعام والشراب ، ولكن هل قدمت الحضارة أو قدم العلم أي إضافة حقيقية في مجال النفس والاجتماع والأخلاق ؟ ثم نحن نعرف أن كل هذا للتقدم المادي إنما جاء على حساب النفس البشرية ، وخذ ارتفعها وتقدمها الأصيل الذي يقوم على الروح والمادة معاً ، ومن خلال العقل والقلب جميعاً .

إن الإنسان قد أصبح بالتقدم المادي أكثر حاجة إلى هداية الدين ، وأكثر بعداً عن الأصالة والإيمان . وقد كشفت لنا الدعوات الهدامة كالوجودية والهيبة مدى الأخطار التي تهدده وتهدفه إلى الغربة والفقو . إن الإنسان بطبيعة تركيبه (نفساً ومادة) في حاجة إلى هداية من خارجه من كتاب الوجود الذي يكشف للنفس الإنسانية الطريق إلى الحق . ومن كتاب الله الذي يهدي البشرية إلى النور والضياء .

(٦) ثم ماذا تعنى صيغة الصائحين إلى إعادة النظر في كل المسلمات ، وما اصطالح على أنه نهائي ومطلق ؟ الحقيقة أن هذه كلمة حق يراد بها باطل . فقد أصبحت الوثنيات الآن هي المسلمات الجديدة أما المسلمات المقصودة من أصحاب الصيغة . فإنها لا تعدى النظر إلى الدين على أنه نتاج عصر انتهى . ومعنى حق المسائل أن يقولوا لنا أي دين يقصدون ؟ وعلى اطلعوا على الإسلام حين هموا القول بكلمة الدين ؟

إن سمات ضخمة وجهت إلى أديان كثيرة ، وبعض ما في هذه السمات صحيح ، لأن هذه الأديان قد تجاوزت بالتأويل مجموعة من الحقائق الربانية لم تكن كل ما يوجه إلى الأديان في الغرب لا يمكن بحال أن يصدق على الإسلام الذي يختلف ويشير في معطياته وفي تاريخه وفي موقفه من الإنسان . ومن العلم ومن الحياة هذا الذي كان في عطائه لقضايا العام والإنسان والحياة أكثر إيجابية وتقدماً ، والحق أنه ليست هناك مسائل اصطلاح الناس على أنها نهائية ومطلقة غير الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وليس غير الإيمان بالدين الحق المنزل على الأنبياء رسالة بعد رسالة حتى أتىها الإسلام فكان خاتمتها . وليس غير الإيمان بالقرآن كتاب الله المنزل وعائمه رسالاته وليس غير الإيمان بالملائكة والنبیین واليوم الآخر والبعث والجزاء ، فكل هذه المسائل التي أقرتها الأديان نهائية ومطلقة . يمكن أن تكون موضع شك أو شبهة ، أو محاولة لإعادة النظر ؟

إن القائمين بهذه الصيغة إنما يريدون أن يملأوا من حقيقتهم . أما فيما سوى ذلك من حقائق فنحن ندهو إلى النظر في المسائل الباطلة ، نحاول خصوم الإسلام فرطها والهدوء إليها وتزيينها مثل : العلمانية والنظرية المادية والفردية لوجودية وغيرها - فذلك هي المسائل الواضحة التي تحتاج إلى إعادة النظر .

آفاق البحث

لكي نعرف مدى الفوارق العميقة بين معطيات الإسلام وبين معطيات النظريات الفلسفية في مجالات العقائد وعلوم النفس والاجتماع والأخلاق علينا أن نذكر الحقائق التالية :

(١) إن الإسلام هو الذي حرر العقل والنفس والانسانية من الوثنيات من عبادة غير الله ، وحرر الفكر والارادة والعمل ، ورفض استعلاء الوجدانيين والعقلانيين وقرر أن أبرز مفاهيمه هي المطابقة بين العقيدة والعمل والحكمة والسلوك .

(٢) اعترف الإسلام بميول وهواطف الانسان . فقرر ان في الانسان ميولا وهواطف مختلفة وكلها فيه غريزية طبيعية أودعها فطرته لتكمل في شخصه ونوعه . ولقد كانت الدعوة إلى الحرمان ، ووقفت تيار هذه الميول بالرياضات قبل الإسلام سبباً في تعطيل قوى النفس الانسانية . وقد أنكر الإسلام طريقين لتحرير الانسان : هما التقشف والاباحة ، ووضع الإسلام طرائق لتطهير النفس كالعبادات والصوم وتهذيب النفس أصل من أصول الحضارة الاسلامية . ذلك أن على الانسان أن يتحرر من ميول النفس ورغائها وأهوائها وخضوعها لغير الله .

(٣) إن الإسلام لم يعرف روح النسك التي عرفتها بيئات الأديرة والصوامع ، ولم يكن في الإسلام دعوة إلى الرهبانية ، بل كانت دعوته إلى : (قل من حرم ربة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الروق) . ولم يستسلم المسلمون . ولم يكن لإيمانهم بالقضاء والقدر داعية استسلام ، بل داعية تحلل

وحمل وتضحية بالنفس في سبيل الحق الذي آمنوا به واعتنقوه . أما المناظرة ضد الغيب بمفهوم كشف أسرار المادة وما يمكن فيها من تفاعل . فإنهم قد ذهبوا إلى أبعد شوط ولكنهم كانوا مؤمنين بالله ، فمفهوم عن مثل ألقاظ مناظرة الغيب أو صراع القدر أو قهر الطبيعة . وهذه كلها عبارات لا يقرها الإسلام . والإسلام يؤمن بتدليل الطبيعة لا تتحدى الطبيعة ويؤمن بلقاء الأجيال لا صراع الأجيال .

(٤) ولا يقر الإسلام نظرية تغير الأخلاق باختلاف البيئات والعصور ، ولا يقر نظرية التطور المطلق الذي يتحرك في فراغ ولا يقر تقديس العقل ولا عبادة الباطل .

إن مفهوم الأخلاق : هو خلافنا الأساسي مع الفلسفات للمادية ، وأن مفهوم التوحيد : هو تجرنا الأسيل عن الفلسفات الوثنية .

(٥) في الإسلام : ليس الإنسان شريراً على وجه الإطلاق ، وليست عليه مسئولية خطيئة صادقة وليست الخطيئة متأصلة في كيانه ، هذه وجهة النظر المتشائمة لا يقرها الإسلام وليس الإنسان رد طبيعة صالحة خيرة على إطلاق القول ، والإسلام يرى أن في الإنسان طبيعة الخير والشر ، وأن إيمانه بالله هو الذي يرده عن الشر ، وليس الإنسان عبداً لموارثه أو لبيئته ، بل إنه قادر بالفهم لمهمته أن يحرر نفسه من كل الأخطاء وكل موروث يمكن تغييره ، ولا تصد الموارث أو البيئة النفس الإنسانية من التحرر والتغيير .

(٦) والأخلاق في مفهوم الإسلام : قوانين أخلاقية ثابتة يميز بها الحسن والقبيح ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، والمسلم يرى العمل حسناً حين يأمر به الله ، والمسلم يؤمن بأن إرادة الله وراء القوانين ، وهي التي تجعل الحسن حسناً ، والقبيح قبيحاً .

(٧) وإن أبرز مفاهيم الإسلام أنه لا انفصال بين الدين والحياة ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الروح والجسم ، وبين الواقع والمثال . فالإسلام يرفض تدزيق الجملة الفكرية بين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والدين ، ويؤكد بقاء كل العناصر في اتجاه واحد قوامه : واحدة النفس الإنسانية ، وبذلك يقتضى على كثير من الأخطار التي تواجه الفكر المعاصر والنفس الإنسانية والتي هي مصدر أزمة الإنسان الحديث . إن أزمة القلق التي يعانيها المثقف المسلم اليوم ، إنما تعود إلى أصل واحد ومصدر واحد هو أنه ترك مقوماته الأساسية وقيمه ، في نفس الوقت الذي أخذ يواجه فيه النظريات والمذاهب العالمية ولو أنه التقي بالفكر الإسلامي وهو صادر من قيمه ومقيم على قاعدته لما وقع مثل هذا التفرق ، أو هذه الأزمة . ولعل أبرز مقومات الفكر الإسلامي الأساسية هي : تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان ، وظهور القوة المدخرة وبروزها على نحو مذهل إبان التحدي ، وذلك لمحتى في أشد فترات الضعف والقدرة الدائمة على مقاومة كل ما يضاد مفاهيمنا وقيمنا على مدى التاريخ كله ، والإيمان بالدور من مقوماتنا الأساسية .

(٨) إن روح الإسلام ومنهجه الجامع بين الأخلاق والشرعية في ظله عقيدة التوحيد لا يعارض سحر الحضارة ، بل هو يدفعها دفعاً إلى الفايات العليا ، ولعكسه يتعارض مع التجاوزات الإباحية التي

فرضها الإلحاد والنفي ليست من مفهوم الحضارة بمعنى أنها دعوة إلى التقدم . ومن هنا فإن القول بأن الدين عامة ، أو الإسلام يعارض تقدم الحضارة هو قول مردود ، فالحقيقة أنه يعارض تقدم هذا الجانب من الإباحية والإلحاد والنظرية المادية ، وهي ليست الحضارة .

إن الحضارة بمفهوم العلم التكنولوجي والتقدم في أساليب الحياة تهوى مع الإسلام ولكن الخلاف هو في محاولة فرض منهج اجتماعي وأخلاق على المجتمع لا يقوم على أساس الضوابط التي قصدها الدين الحق . وعلى أساس الأخلاق .

إن الخلاف حول نقطة أساسية : هل الأخلاق ثابتة أم متغيرة ؟ والإسلام يقول إنها ثابتة وترتبط بالإنسان . وأن الإنسان روح ومادة وليس مادة خالصة .

فإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة فالإسلام يختلف فيه عن مفهوم الغرب ، ويرى أنه ليس المنهج الذي يدفع البشرية إلى التقدم بمعناه الحقيقي . والإسلام يرى أن كل حضارة لا تركز على الخير والعدل حضارة زائفة .

إن حضارة الإسلام تستهدف ترقية النفس وتحريرها من قيود الأهواء والشهوات بحيث تصبح رابطة الهدف إنسانية الطابع تعمل لله وتنتج بالخير إلى الناس جميعاً . وقد اعترف الإسلام بناموس الرقي ، واعتبر الإنسان مسوقاً لغايات من المدنية لم ينلها إلى اليوم .

(٩) قرر الإسلام أن للوجود الإنساني صفاتاً لا تتبدل ولا تتحول ولا تزال عامة على مقتضى نظامها المقرر لها .

(١٠) لا يقر الإسلام إقصاء الدين عن منطقة الحياة الاجتماعية ، بل يرى أنه ضروري لها . والإسلام جامع بين العقيدة والشرعية والأخلاق ، فهو ينظم العلاقة بين الله والإنسان كما ينظم العلاقة بين الإنسان والمجتمع كله .

ومن هنا فقد أقام الإسلام منهجاً متكاملًا للخطوط العامة التي يقوم عليها سلوك الإنسان في الحياة لإزاء نفسه وإزاء باقي الجماعة وهو منهج مرن واسع سمح يقبل الاضطراب والاحتال ، ويعفو عن الخطأ وهدفه من ضوابطه وحدوده حماية الإنسان نفسه . واحتفاظه بقواه وشخصيته . وهو منهج متكامل جامع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، يمتدح بفضائل الإنسان وحاجاته الطبيعية ويسمح له بممارستها في حدود المحافظة على كيانه ودون العدوان على حقوق الآخرين . وليس مفهوم الإسلام في الترابط بين الدين والمجتمع كفهوم العقائد التي تفصل بينهما .

(١١) من طبيعة الإسلام قدرته على التوفيق في براعة بين المتناقضات جميعاً دون أن يميل إلى جانب أو يقاب كسة على أخرى ، فهو يدعم الجماعية والفردية ، ويربط الروحية والمادية ، ويستوعب

النفس والعقل الإنساني . ومن طبيعة الاسلام : الجمع بين الثبات والحركة ، وهو يقيم الحركة في إطار الثبات وعلى قاعدة وهو في نفس الوقت الذي لا يقر فيه التمسك والتوهم ، لا يقر الانطلاق والحركة غير المنضبطة ، وهو يفسح للرغبات والطاقات طريقها إلى التحقيق ولكنه يحيط الإنسان بالضوابط التي تحميه من الفساد والإباحة . وهو يرفض الرهبانية والزهادة في نفس الوقت الذي يرفض فيه الترف والتحلل . والاسلام يطالب المسلمين بالحركة ، وتغيير وسائلهم وأساليب معيشتهم ، والأخذ من كل جديد في إطار قيمهم ومبادئهم ودون التضحية بها .

(١٢) لا بد من التفرقة بين العقيدة في أصولها السمحة وبين عملية التطبيق في المجتمع الاسلامي . وكذلك التفرقة بين مراحل القوة ومراحل الضعف . إن المبادئ الأساسية للإسلامية مستقلة قابلة للتطبيق ، إنما مثل أعلى في الاسالة والواقعية والسباحة ومطابقة تماماً للفطرة وجارية مع الطبيعة البشرية طرداً وعكساً .

ولا ريب أن ترقفها ، وتقلب مذاهب أخرى عليها في هذا العصر ليس إلا عرضاً من أعراض ضعف المسلمين وعجزهم عن القيام على منهجهم ، وهو عرض زائل يمر بكل الأمم . ثم تكون البقعة طاملاً على مجازده ، وفي المبادئ الإسلامية من المرونة والسباحة ما يصلح المجتمع البشري كله ، ويقدم له أسدق الحلول لمساكلة وقضاياه من خلال الإيمان بالله والأخلاق ، وقيام المسؤولية الفردية في ظل الإيمان بالبعث والجزاء .

ولا ريب أن تكشف يوماً بعد يوم أخطار الانحراف الذي أصاب البشرية وما تزال الصيحات تطول حول ما أسماه أزمة الإنسان الحديث . فقد اعترفوا بالآزمة وعجزوا عن حلها ؛ وقد مدت لهم طرق جديدة هي : مناهات جديدة وسوف لا يهدون بعد الجهد الجيد إلا أسلوب الاسلام ، أسلوب الفطرة للنزول من عند الله .

(١٣) ولا ريب أن القول بأن (الإيمان بقضاء الله وقدره هو مدعاة للتواكل) ، هي دهرى منقوضة من أساسها ، فإن الإيمان بالقضاء والقدر كما جاءت به الأديان السماوية ، مفروض على المؤمنين في النتائج لا في الأسباب ، فهم مطالبون بالأسباب ، مفروض عليهم السعي والأخذ بها ، مطالبون بعد ذلك بأن يتركوا النتائج لله مدبر الكون الواحد الأعظم ، ومن هنا كانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر من عظمة المسلمين الأولين ، لأنهم أخذوا في الأسباب وبذلوا جهدهم في استعصامها إنفاذاً لأمر الله ولم يأجروا النتائج الضارة المؤلمة قضاء بقضاء الله ففازوا بالحسينيين . وكان أحدهم حين يخرج للجهاد في سبيل الله لا يبالى أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه . وما ابتلى الناس بهذا التواكل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر إيماناً معكوساً ، فأخذوا بها في الأسباب فلم يستعدوا ونسوها في النتائج فلم يرضوا .

ولا ريب أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي دفع المسلمين إلى التقدم وجرأهم على المخاطر لتوسيع

رفعة الإسلام والتمتع من حوزته على سر الأيام . والمعنى الحقيقي للإيمان بالقضاء والقدر هو أن يؤمن المرء بأن الله خلق عالماً يسير وفق نظام دقيق ، وعلى المرء أن يعمل وفق طبيعة هذا العالم ، فإن على من يؤمن بالقضاء والقدر أن يقوم بعمله بهمة وإيمان ، ولا عليه من النتائج التي هي من قدر الله وقضائه . وأما كانت عقيدة خلود الروح من أقوى الدعام التي دفعت المجاهدين المسلمين إلى الموت غير مكترفين ، واستنصار الدنيا وزخرفها .

(١٤) إن أثر الإسلام واضح في كل الثورات التي قامت على القيود التي تمنع العقل من التفكير . أو تفرض جماعة خاصة تحتفظ بالأسرار ، وإليها ترد الأمور . ومن الإسلام انطلقت الدعوة إلى تحرير الفكر البشري من الوثنية ، وانطلقت الدعوة إلى حق كل إنسان ، أن يفهم كتاب الله دون وسيط . وأن يتصل بالله دون وسيط ، وبالإسلام انطلقت الدعوة إلى التحرر من طغيان الظلم وعدم الخضوع لظهور المستبدين . وباسم الإسلام انطلقت الدعوة إلى النظر في المكون والبحث عن الدليل وإنكار التبعية ورفض التقليد الباطل والتحرر من عقائد الآباء إذا لم تكن قائمة على الحق الواضح الذي يفهمه القلب . ومن مفهوم القرآن تحررت البشرية حضارياً من مفهوم العبودية الذي سيطر على كل الحضارات القديمة (فرعونية - فارسية - رومانية) وجعل البشر رقيقاً لمجموعة قليلة من السادة . ومن مفهوم القرآن والإسلام انتقلت البشرية من منهج التأمل النظري إلى منهج التجريب وإخضاع الأمور للبحث العلمي . ومن مفهوم القرآن انطلقت الدعوة إلى مقاييس الإيمان بالله وإعلانها على مقاييس العvisية والعنصرية وخلق الجماعة التي تربطها رابطة الفكر والعقيدة بدلاً من الدم والعنصر .

ومن منطق القرآن تحرر الإنسان من أخطار البحث عن الله والكون والموت والبحث ، فقد فهم له منهجاً متكاملًا موحي به يهجر العقل عن الوصول إليه ، ولكنه لا يهجر عن إدراكه ، وبذلك حلت أعظم التضاي التي كانت مصدر الخلاف قرونًا طويلة .

(١٥) لا يمكن تفسير التاريخ الإسلامي بالظروف المادية ، أو بتحديات الاقتصاد وحده . إن هناك عوامل مختلفة تحكم تاريخ الأمم . وبعضها غير مادي . وتاريخ الإسلام تحكمه عوامل كثيرة منها عوامل نفسية وروحية .

(١٦) لقد عجز العلم عن تقديم تفسير نهائي لكل الأشياء . وفي الإسلام ليس هناك تناقض بين العلم والإيمان ، والمسلم لا يجد في منجزات العلم ما يتعارض مع الإيمان . والفكر الغربي هو الذي فرق بين النظرة الدينية والنظرة العقلية والعلمية .

(١٧) إن النضالات الوطنية قد انطلقت تحت راية الجهاد في سبيل الله قبل أن تنطلق تحت راية الجهاد في سبيل الوطن ، وأما كان الإسلام في أحقاب هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية ضد الاحتلال والاستبداد الاستعماري ، وكان الضمان لاستمرار وحدة الأمة والثقافة ، وكانت تتجسد فيه كل القيم النبوية التي لم تكن متوفرة في ظل الاستعمار .

(١٨) الحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وليست حركة عشوائية بلا ضابط ولا نظام ، ولما كان لكل كوكب فلك ومدار ومحور ، فإن الحياة البشرية كذلك لا بد لها من محور ثابت ، ولا بد لها من فلك تدور فيه . وإلا انتهت إلى الفوضى .

(١٩) إن الفصل بين الدين والدولة : هو نتاج وافد غريب . وهو من معطيات العقائد الأوروبية في تفكيرها وصراعها خلال تاريخ طويل . ولكنه ليس من معطيات الإسلام ، بل إن الإسلام في تكامله وتواظف القيم فيه يقيم من الدين والدولة كلا متكاملًا . فالإسلام دين ومنهج حياة وشريعة وخلق . وقد جاءت قضية الفصل بين الدين والدولة في الغرب هدفًا عميقًا من أهداف الأيديولوجية التلويديّة حيث كان الربط بين الكنيسة والحكومة حائلًا بين اليهود وبين الاندماج في المجتمعات . فلما انكسر هذا القيد سيطروا على الأنظمة كلها ، وفرضوا نفوذهم عليها .

والمسيحية بطبيعتها منهج يقوم على العبادة والوصايا الأخلاقية ، وليست لها شريعة منفصلة لأنها لم تكن إلا إحدى رسائل بن إسرائيل مصدقة للتوراة جاءت مكملّة للناموس وليست نافية إياه . ولقد اعترف المفكرون الغربيون جميعًا بحقيقة الإسلام نظامًا كاملاً ، وقدروا الفوارق العميقة بينه وبين الأديان والمعتقدات الأخرى . وعبارة هاملتون يجب في هذا واضحة صريحة : « ليس الإسلام دينًا بالمعنى المجرّد الخاص ، بل هو مجتمع بالغ تمام السكال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين . وقد أحسّك هذه النوعية الأصيلة ما تلا ذلك من صوغ القانون الإسلامي والنظام الاجتماعي . والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات : إنه أعظم من ذلك بكثير ، فهو مدنية كاملة » .

وميزة الإسلام التي خصته بأن يكون نظامًا كاملاً ، هو أنه قدم مبادئ عامة وأصولاً ثابتة في مجال الشورى والمعادلة والمساواة تصلح لإقامة مجتمع متماسك وتترك البشرية في تطورها واختلاف عصورها وبيئاتها القدرة على تقرير أسلوب مناسب في إطار هذه الأصول ، وهو ما يحول دون المجرّد ودون التعارض مع تطور المجتمعات ، غير أن هذه الأصول واجبة الإقرار وأن مقرراتها ثابتة لا تتعرض للتطور أو التحول ، وهي لا تخضع أبداً لتغير المجتمعات . ومن ذلك حدود الله في الوفاء والربا والخمر والسرقه فنلك أصول أصيلة - وليست وصايا عامة - أو نصوص أخلاقية .

(٢٠) الحرية في مفهوم الإسلام أن لا يبقى الإنسان عبداً لشهوته ولا عبداً لغير الله ، وأن لا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق . ويألف أن يكون عبداً للإنسان . والحرية في الإسلام هي حرية جامعة شاملة تقوم على التحرر من قيود الجهل والخرافة والوثنية وتقليد . والإسلام أول من دعا إلى هذه الحرية ، ولقد علم الإسلام الإنسان كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ولقد استطاع الإسلام بهذا المفهوم أن يطلق العقل البشري من قيوده التي كانت تأمره حول

المعابد وبين أيدي السكينة ، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة . وإذا كانت صحيحة أصحاب المذهب المادى إلى تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير الموروثة ، فإنها إنما كانت تعنى ذلك الركام ، الذى عاشته أوروبا في خلال المصور الوسطى . أما الإسلام فقد كان هو صاحب الهدى إلى مثل هذه الحرية ، وإن ما جاء به يرتفع فوق الأساطير والتقاليد ، لأنه الحق الصادق الذى تصدع به النفوس والعقول والنفط البشري السليمة .

وهو الذى ليس وراءه من حق أو قول : (قل ماذا بعد الحق إلا الضلال) . ولقد عرف الإسلام الحق ، عاماً شاملاً بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين ، بينما عرف الغرب الحق على أنه شيء فى أوروبا . وشيء فى المستعمرات يختلف عنه بل ويتعارض معه . ومن هنا فقد كان موقف الفكر الغربى بالنسبة للمسلمين والغرب والإسلام موقف الخصومة والمعاداة وتجاوز الحق وتجاهل كل ما ادعى أنه من النتائج العلمية للبحث والاستواء .

ولقد كان المسلمون صادقين فى تطبيق حرية الفكر على الناس جميعاً . وحافظوا على القاعدة الأساسية لا إكراه فى الدين ، ولم يسفكوا دم أحد عقاباً له لأنه قال رأى يخالف برأى الإسلام إلا إذا فصل ذلك القائل بالخيانة السياسية .

وكما دعا الإسلام إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم ، فالإسلام هو الدين الذى جاء ناقضاً للرق هادماً للنظام العبودى فى امبراطوريات فارس والروم والفراعنة .

(٢١) إن أبرز معطيات الإسلام هي قدرته على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة واستمراره فى مختلف الأزمنة والبيئات ، فهو قادر على إجراء حركة التصحيح من داخله ورد الهجمات ومقاومتها والحفاظة الدائمة على طابعه الإنسانى وأصله الربانى . وللإسلام إلى ذلك قدرته على التوسع والانفتاح على الآفاق ، واقتحام مناطق جديدة من الأرض لنشر كلمته .

إن ميزة الإسلام فى شموله وشمكاته أنه جمع بين الحريات والضوابط ، وبين الفردية والجماعية وبين العلم والدين ، وبين العقلانية والوجدان ، وبين الروح والمادة ، وبين الوعى والعقل ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الغيب والشهادة وبين النبات والحيوان وبين الماضى والحاضر وبين المحافظة والتجديد ، وبين الإسلام والانسانية ، وتلك ميزة الإسلام وخاصيته التى تميز بها واختلاف عن كل العقائد والأديان . وتلك هي مصدر قدرته الفائقة على مواجهة كل التحديات والأخطار . وعلو خلوده على الزمان .

المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم
- (٢) الجامع الصحيح . للإمام البخاري
- (٣) تبليس إبليس . لابن الجوزي
- (٤) فضائح الباطنية . للإمام الغزالي
- (٥) الملل والنحل . للشهرستاني
- (٦) المواعظ من القواصم . للقاضي ابن العربي
- (٧) تهذيب لتاريخ الفلسفة الإسلامية . مصطفى عبد الرزاق
- (٨) النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي . محمد أحمد القمراوي
- (٩) دائرة معارف القرن العشرين . محمد فريد وجدي
- (١٠) رسالة التوحيد . الشيخ محمد عبده
- (١١) مناهج البحث عن مفكرى الإسلام . الدكتور هلى سامى النصار
- (١٢) الإسلام والإيمان . الدكتور عبد الحليم محمود
- (١٣) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة . محمد عبده الله هنان
- (١٤) الإمبراطويات فى التفسير والحديث . محمد حسين الذهبي
- (١٥) اتجاهات هدامة فى الفكر العربى . دكتور محمد محمد حسين
- (١٦) الخطر اليهودى . محمد خايفه التونسي
- (١٧) الفكر الإسلامى الحديث . دكتور محمد الهبى
- (١٨) الإسلام على مفرق الطرق . محمد احمد
- (١٩) المر المصون فى شيعة المفسرون
- (٢٠) الفلسفة المادية . بحث الدكتور أحمد حسن الرحيم

- (٢١) المال المعاصرة في الدين اليهودى . الدكتور الفاروقى
- (٢٢) رحلة الادب العربى الى أوروبا . للشرباشى
- (٢٣) تحفة راية القرآن . للرافعى
- (٢٤) الجمعيات العربيه . عن آدم
- (٢٥) أهداف إسرائيل التوسعية . محمود شيبه خطاب
- (٢٦) اليهوديه العالميه . عباس محمود العقاد
- (٢٧) الفارة على العالم الإسلامى . ترجمة السيد محب الدين الخطيب
- (٢٨) التبشير والاستعمار . عمر فروخ وآخر
- (٢٩) تاريخ الفكر العربى . عمر فروخ
- (٣٠) بحث عن الحلول والاتحاد . محمود قاسم
- (٣١) الرد على الدهريين . جمال الدين الافغانى
- (٣٢) التصور الإسلامى . سيد قطب
- (٣٣) إله الاتحاد المعاصر . كوستى بنقل
- (٣٤) إخوان الصفا . عمر الدسوقي
- (٣٥) الفاسقه الإسلاميه . عبد الرحمن مرحبا
- (٣٦) تاريخ الطبرى ج ٣
- (٣٧) الفرق بين الفرق . للبغدادى
- (٣٨) التبصر بالدين . الاسفراينى
- (٣٩) رجال الفكر والدعوة . للندوى
- (٤٠) ديانة الإسماعيليه ونظامها . للندوى
- (٤١) الرسالة سنه ١٩٤٦
- (٤٢) وفيات الأعيان . ابن خلكان . ابن المقفع . ج ١
- (٤٣) التفسير الإسلامى للفكر البشرى . أنور الجندى
- (٤٤) حقيقه البايه والبهائيه . محسن عبد الحميد
- (٤٥) الروحانيه الحديثه . محمد محمد حسين

موسوعة مقدمات العلوم والمناهج

المجلدات من السادس إلى العاشر

(تصدر على التوالي)

المجلد السادس :

المجتمع الاسلامي

ويضم أربع دراسات موسعة عن (١) النظام الاسلامي

(٢) التربية وبناء الاجيال

(٣) المجتمع الاسلامي وقضايا : الشباب والمرأة

(٤) دراسة للايدولوجيات المعاصرة

المجلد السابع

الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية

ويضم ثلاث دراسات موسعة عن :

(١) الاسلام والعلم

(٢) الاسلام والحضارة

(٣) مفاهيم العلوم الاجتماعية

المجلد الثامن

الاسلام وموقفه من الفلسفات والاديان

ويضم ثلاث دراسات موسعة عن :

(١) الاسلام والنحل والمذاهب المختلفة

(٢) العلمانية وموقف الاسلام منها

(٣) الفلسفات القديمة وموقف الاسلام منها

المجلد التاسع

الدهشات والأخطاء الشائعة

ويضم دراسات عن :

(١) المنهج الغربي الرافد وأخطائه في الأدب والاجتماع والاقتصاد

(٢) قضايا وشخصيات وكتب وردت في التاريخ الحديث

المجلد العاشر

حركة اليقظة الاسلامية

ويضم دراسات عن تاريخ حركة اليقظة الاسلامية في مواجهة عصر الاستعمار

وعصر القرب والتزوال الثقافي من خلال مواجهات الرأسمالية واليهودية والصهيونية

مَقَرِّبَاتُ الْخُلُومِ وَالْمَنَاجِحِ

المجلد الخامس

٥

النَّبَشِيرُ وَالْإِسْتِشْرَاقُ
وَالدَّعَوَاتُ الْهَدَامَةُ



دار الأنصار
بالقاهرة

HARVARD
COLLEGE
LIBRARY

مَحَاوِلُ

مِنْ أَكْثَرِ الْأَسْلَافِ

بقلم أنور الجندی

موسوعة

مقدمات العلوم والمنهج

محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل

المجلد الخامس

النشيز والإشتراق والدعوات الهدامة

يتناول هذا المجلد بالبحث مخططات الغزو الفكري والثقافي والعقائدي في ثلاث موضوعات كبرى :
 الأول : النشيز والإشتراق وأثرهما في الفكر والأدب والاجتماع .
 الثاني : المؤامرة على تاريخ الإسلام : وأثر الإشتراق في تزييف هذه من حقائق التاريخ الإسلامي .
 الثالث : الدعوات الهدامة : تاريخها وأهدافها وشبهاتها وبالجملة فإن مجموعة الأبحاث تكشف عن المخاطر والهاذير والأمواء التي أثارها الإشتراق والتفريب والهداية في أفق الفكر الإسلامي في العصر الحديث مع ردود تفصيلية تدحض هذه الشبهات وتكشف عن مصادرها وزيفها .

أنور الجندري

دار الأنصاري
 مكتبة طباعة نشر
 ٨١١ البساتين - أحياء عن البصرة
 أمام منبجارت ت ٩٣١٥٨١

رقم الإيداع ١٩٨٣/٤١٥٠
 رقم التسجيل ٩٧٧-٤٣٣-٠٠٨٠٠

مقدمات العلوم والمناهج

موسوعة إسلامية جامعة

تهدف إلى إرساء منهج إسلامي جامع للفكر الإسلامي تضم عشرة مجلدات في عشر موضوعات كبرى كل منها مجلد خاص كوحدة مستقلة وتتسامل في مجموعها العام بحيث تستوعب مختلف القضايا الإسلامية استيعاباً كاملاً

المجلد الأول : الفكر الإسلامي

يتناول بالبحث الجذور الأساسية للفكر الإسلامي التي بناها القرآن الكريم والسنة المطهرة وما واجهه من محاولات في العصر الأول وفي العصر الحديث وخاصة ما يتصل بحركات التنوير والغزو الثقافي من طريق الاستشراق والتبشير وأبحاث الفكر الوثني الحديث والفرق القديمة

المجلد الثاني : تاريخ الإسلام

ويتناول بالبحث دراسة مستووعة لتاريخ الإسلام منذ بزوغ فجره إلى اليوم مروراً بمراحلته المختلفة وأحداثه الكبرى وتوسعاته في قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا إلى العصر الحديث وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين عالم الإسلام والغرب وبين العرب والدولة العثمانية وسقوط الخلافة وقيام تقويمات والأقليات

المجلد الثالث : عالم الإسلام المعاصر

ويتناول البحث تاريخ العالم الإسلامي المعاصر وأقطاره وأعضائه والتحديات الموجهة إليه وتحديات الجامعة الإسلامية والوحدة العربية والتضامن وموقف العالم الإسلامي من القوى الغازية الثلاث : الاستعمار الغربي والصهيونية والصهيوية ودراسة قضايا العالم الإسلامي على أبواب القرن الخامس عشر الهجري وما يتصل بالعلاقات بين الشيوعية والصهيونية والدعوات الهدامة كالبهاية والقاديانية والمخططات التي تستهدف غزو المجتمع الإسلامي

المجلد الرابع : اللغة والأدب والثقافة

(١) اللغة العربية العظمى لغة القرآن والتحديات التي تواجهها في العصر الحديث
(٢) الأدب العربي : خصائصه المستمدة من القرآن والسنة وأورثاته في العصر الحديث بمفاهيمه الأساسية.

(٣) دراسة الثقافة العربية ذات الانتماء الإسلامي وخصائصها ووجه الخلاف بينها وبين الثقافات الأخرى

المفردات

١٢٩	قائماً : مخططات الاستفراق
١٣٢	دوافع الاستفراق
١٣٤	أخطاء الاستفراق
١٣٦	تزييف النصوص
١٣٩	الباب الأول : صفحات من تاريخ الاستفراق
١٤٠	الفصل الأول : الاستفراق غربياً
١٥٩	الفصل الثاني : جهوياً
١٧١	الباب الثاني : عموم الاستفراق في الفكر الإسلامي
١٧٩	الأول : الإسلام ١٧١ الثاني : الرسول ١٧٩
١٨٧	الثالث : القرآن ١٧٧ الرابع : اللغة العربية ١٨٧
١٨٩	الخامس : الفترات ١٨٥ السادس : السنة ١٨٩
١٩٠	السابع : الحضارة ١٨٨ الثامن : الفريضة ١٩٠
١٩٥	التاسع : الأدب ١٩٣ العاشر : التاريخ ١٩٥
	الباب الثالث : خطط الاستفراق بين التحول والبناء
	الفصل الأول : طريقة المستشرقين في البحث
	و الثاني : مواجهة المستشرق في مؤتمراتهم
٢٠٣	و الثالث : وقفة في وجه الاستفراق ٢٠٣
٢٠٧	و الرابع : دراسات المستشرقين ٢٠٧
	خاتمة البحث (التبشير + الاستفراق + التعريب)
	الرسالة الثانية

للتزمنة على تاريخ الإسلام

٢١٩	مدخل ٢١٩
	الباب الأول : تاريخ ما قبل الإسلام
٢٢٦	الفصل الأول : الحنيفية السمحاء ٢٢٦
٢٢٩	و الثاني : الجامعة ٢٢٩
٢٣١	و الثالث : اليهودية ٢٣١
٢٣٢	و الرابع : اليهود في جزيرة العرب ٢٣٢
٢٣٥	و الخامس : اليهود في المدينة ٢٣٥
٢٣٧	و السادس : معاني التوبة ٢٣٧
٢٣٨	و السابع : الحكم في التوبة ٢٣٨

الرسالة الأولى

مخططات التبشير والاستفراق

١	مدخل ١
	القسم الأول : مخططات التبشير
	الباب الأول : صفحات من تاريخ التبشير
٦	الفصل الأول : من تاريخ التبشير
١٥	و الثاني : مرحلة جديدة في خطة التبشير ١٥
١٨	و الثالث : بعد الحرب العالمية الأولى ١٨
٣١	و الرابع : مؤتمرات التبشير ٣١
٣٥	و الخامس : أخطر تحول في تاريخ التبشير ٣٥
	الباب الثاني : أهداف التبشير ومخططاته
٣٨	الفصل الأول : أهداف التبشير ومخططاته ٣٨
٤٦	و الثاني : وسائل التبشير وأنظمته ٤٦
٤٩	و الثالث : عمدة التبشير وحلفائهم ٤٩
٥٩	و الرابع : الصحافة التبشيرية ٥٩
٦٠	و الخامس : منهج التبشير ٦٠
	الباب الثالث : أبعاد التبشير
٦٣	الفصل الأول : التبشير والاستعمار ٦٣
٦٨	و الثاني : التبشير والتغريب ٦٨
٧٤	و الثالث : التبشير والاستفراق ٧٤
٨١	و الرابع : الدائرة للجنة والدائرة للصماء ٨١
	الباب الرابع : التبشير وآثاره في بناء الفكر
٨٥	الفصل الأول : التعليم في أحضان التبشير ٨٥
٩٢	و الثاني : الفتيات التي أثارها التبشير ٩٢
١٠١	و الثالث : التبشير والفكر الإسلامي ١٠١
١٠٨	و الرابع : التبشير واللغة العربية ١٠٨
١١٣	و الخامس : التبشير والثقافة العربية ١١٣
١١٨	و السادس : التبشير والأدب العربي ١١٨
١٢٥	و السابع : التبشير وتاريخ الإسلام ١٢٥
١٣١	و الثامن : التبشير والوحدة الإسلامية ١٣١

الصفحة

مصادر المذاهب الهدامة

٢٦٩ الباب الأول : الفروحية

٢٧٢ الفصل الثاني : تعريف العقيدة التبليكية

٢٧٥ . الثالث : المذاهب الهدامة والإلحاد

٢٨٠ . الرابع : (الله) جل جلاله في مفهوم الإسلام

٢٨٢ . الخامس : عقيدة البعث

الباب الثاني : دعوات هدامة للعقائد والقيم

٢٨٤ الفصل الأول : الدهرية

٢٨٦ . الثاني : التشوصوفية

٢٩٢ . الثالث : البهائية

٢٩٧ . الرابع : الروحية الحديثة

الباب الثالث : دعوات هدامة للجماعات والأديان

٣٠٢ الفصل الأول : أيديولوجية التلويذ

٣١٥ . الثاني : العبقرية

٣١٧ . الثالث : المسادية

٣٢٤ . الرابع : العنانية

٣٢٤ . الخامس : العالمية

الباب الرابع : دعوات هدامة للنفس والأخلاق

٣٤٤ الفصل الأول : الفروانية

٤٥٥ . الثاني : الوجودية

٤٦١ . الثالث : الحايثية

الباب الخامس : دعوات هدامة للفكر والثقافة

٤٧٠ الفصل الأول : الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام

٤٧٥ . الثاني : الاسرائيليات

٤٨١ . الثالث : التعريب - الاستغناء عن التفسير

٤٨٦ . الرابع : إحياء الحليونية

٤٩٠ . الخامس : الدعوة إلى العامة

٤٩٤ الإسلام في مواجهة الفكر الوافد

٤٩٦ آفاق البحث

الصفحة

٢٤٠ الفصل الثامن : إسماعيل والتوراة

٢٤٢ . التاسع : العروبة وليست السامية

٢٤٧ . العاشر : مؤامرة السامية

٢٤٩ . الحادي عشر : الغرب والمسيحية

٢٥٤ . الثاني عشر : ما قبل الإسلام

٢٥٤ . الثالث عشر : تاريخ الإسلام اليوم

٢٥٧ الفصل الأول : الاختلاف الذي تحرك فيه

٢٦٤ . الثاني : كتاب السيرة

٢٧٠ . الثالث : العقائد والفكر

٢٧٧ . الرابع : الخلاف بين الصحابة

٢٨٧ . الخامس : ثورة الواج والفراطة

٢٨٩ . السادس : دور اليهود في الفتنة الكبرى

٢٩٤ . السابع : الحكومة الإسلامية الأولى

٢٩٩ . الثامن : الحواري والعرب

٣٠٨ . التاسع : الصحابة واليروق المارة

٣١٥ . العاشر : التاريخ وحظي وأوس وإسلامي

٣٠٧ الفصل الحادي عشر : تاريخ التاريخ الإسلامي

٣١١ . الثاني عشر : تاريخ قومي إسلامي

٣١٦ . الثالث عشر : العروبة والإسلام

٣١٩ . الرابع عشر : عصر العربية الإسلامية

٣٢٦ . الخامس عشر : تفسير التاريخ الإسلامي

٣٤٠ . الثاني : التفسير الغربي للمسيحي

٣٤٢ . الثالث : التفسير اليهودي

٣٤٥ . الرابع : التفسير الماركسي

٣٤٧ . الخامس : التفسير الإسلامي لتاريخ

٣٦٠ . السادس : في مواجهة التحليلات

٣٦٤ . عبارة البحث

الرسالة الثالثة

لدهوات الهدامة

٣٦٧

دراسات إسلامية للمؤلف

أولاً : حركة اليقظة الإسلامية

١ - حركة اليقظة الإسلامية (في مواجهة الغزو الغربي والصهيونية والشيوعية)

٢ - على مشارف القرن الخامس عشر الهجري

٣ - إطار إسلامي للفكر البصري

٤ - القرن الخامس عشر الهجري : تحديات الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي

ثانياً : دراسات إسلامية :

١ - طلمية الإسلام

٢ - المثل الأعلى للفتيات المسلم

٣ - جوهر الإسلام في مرآة الفكر الانساني

٤ - أسالة الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي

٥ - الإسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني

٦ - مشكلات الفكر في ضوء الإسلام

٧ - قضايا العصر في ضوء الإسلام

٨ - من منابع الفكر الإسلامي

٩ - الإسلام والثقافة العربية في مواجهة الاستعمار

١٠ - شبهات في الفكر الإسلامي

١١ - القيم الأساسية لفكر الإسلامي والثقافي العربية

١٢ - معالم الفكر الإسلامي المعاصر

١٣ - أحاديث إلى الشباب المسلم

ثالثاً : في مجال الأدب

١ - الأدب العربي المعاصر (النثر العربي المعاصر)

٢ - على مشارف القرن الخامس عشر

٣ - المعارك الأدبية (طبعة جديدة)

٤ - المساجلات والمعارك الأدبية

٥ - صفحات مضيئة في تاريخ الإسلام

رابعاً : الإعلام

عبدالمعز جاريش ، أحمد زكي باشا، فريد وجدي ، طه حسين ، حسن البنا



مقدمات العلوم والمناهج

محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل

بناء الفكر الإسلامي الممتد خلال أربعة عشر قرنًا تعرض على طوال المدى لمحاولات الغزو والتغريب وقد قاومتها حركة اليقظة حين أقامت منهج السنة والجماعة ثم واجه المسلمون حملات الفرقة والدعوات الهدامة وكشفوا زيفها وفي العصر الحديث توالت محاولات الاستعمار والصهيونية والشيوعية من خلال مؤسسات التغريب والغزو الثقافي عن طريق التبشير والاستشراق، ومن هنا فقد ضمت هذه الموسوعة تلك المحاولة الضخمة كاشفة للتحديات التي واجهت الفكر الإسلامي واللغة والأدب والثقافة والحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية وفيما يتصل بمقارنات الأديان والفلسفات وفي المجلد الأول يتناول البحث بناء الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب والغزو الفكري كاشفًا عن المحاولات التي قامت بها الدعوات المختلفة القديمة المتجددة وما يتصل بالمناهج العلمية والدراسية وأخطاء المنهج الغربي الوافد في مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية.

وستواصل الدراسة هذه القضايا المركزة في أربعين رسالة من خلال المجلدات العشر التي يتوالى صدورها كمحاولة لبناء منهج متكامل للفكر الإسلامي ٨

أسعد سيّد أحمد

دار الأنصار للطبع والنشر